دِرَاسَةٌ تَارِيخِيَّةٌ فِي ضَوْءِ قَوَاعِدِ عِلْمِ الْحَدِيثِ

دَوْرُ الْمَرْأَةِ السِّيَاسِيِّ

فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

وَبِهَا تَحْقِيقٌ تَارِيخِيٌّ وَفِقْهِيٌّ وَتَشْرِيعِيٌّ لِفَهْمِ
دَوْرِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ فِي أَحْدَاثِ الْفِتْنَةِ

تَأْلِيفُ
أَسْمَاءِ مُحَمَّدْ أَحْمَدْ زِيَادَة

دَارُ السَّلَامِ
لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجَمَةِ

هذا الكتاب

رسالة علمية تقدمت بها الباحثة لنيل درجة الماجستير من كلية دار العلوم
جامعة القاهرة - قسم التاريخ والحضارة الإسلامية وقررت اللجنة
بالإجماع منح الباحثة درجة الماجستير في العلوم
الإسلامية بتقدير ممتاز مع التوصية
بطبع الرسالة وتبادلها مع
الجامعات الأخرى

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر ١٢٠ شارع الأزهر ص ب ١٦١ الغورية
هاتف ٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٢٧٠٤٢٨٠ (٢٠٢) فاكس ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢)

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة : ٧١)

إهداء

إلى قطعة نفسي التي سبقتني إلى لقاء ربها

معلمي وأستاذي ..... أبي

الذي أراد الله أن يصطفيه إلى جواره قبل أن يملأ عينيه من ثمرة الغرسة التي نمت في مجالي علمه ومعرفته ، وفي دنياه المشرقة بالفضائل والمكارم ، فعاشت محلقة على جناحين من العلم والتقوى ، وجميل التعاون على الحق والخير والمعروف ... والسعي المخلص لإنهاض أمتنا الغالية ....

إلى أبي فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد زيادة

العالم العامل المجاهد ، الذي تعرفه أجيال من تلامذته ومحبيه ....

أهدي هذا العمل الذي بدأه هو ..

تعويضًا عن الأمنية التي طالما تمنيتها له هو ...

فاللهم ، وقد أبيت إلا أن يكون العمل كله خالصًا لوجهك الكريم ، وأنت وحدك تعلم كم أفتقده اليوم افتقادًا بالغًا ، أسألك يا ألله أن تتقبل مني هذا العمل ، وأن تجعل ما فيه من خير في ميزان أبي ... رحمة واسعة ، وأجزل مثوبته ، ورضي عنه وأرضاه .

شكر وتقدير

ليس أكرم من هذه اللحظات أجدها لأعبر عما أجده في عنقي من دين لأستاذيَّ المشرفين ، العالمين الجليلين : الأستاذ الدكتور / إبراهيم العدوي .... وهو قيمة علمية، صاحبة تاريخ وألمعية . والأستاذ الدكتور / فهمي عبد الجليل الذي حاط الرسالة وصاحبتها : إشرافًا علميًّا عريضًا ... واسع المدي ... وروحًا أبوية دافئة .

وأن أزجي الشكر كله للأستاذين العالمين الجليلين : الأستاذ الدكتور محمد بلتاجي حسن ، أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، وعميد الكلية الأسبق ، والأستاذ الدكتور محمد عيسى الحريري أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، وعميد الكلية .

كما لا أنسى الشكر الجزيل لكل أساتذتي في كلية دار العلوم المباركة ، ولأستاذي الدكتور حسن علي حسن الذي كان موضوع البحث بنتًا من بنات أفكاره ...

لهم جميعًا مني كل الوفاء والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تنطلق أهمية هذه الدراسة من أن (قضايا المرأة) تعرّضت في المجتمع الإسلامي – بعد عصر الراشدين – إلى ألوان من البعد عن معطيات المصادر الأولى في القرآن والسنة وعمل الصحابة مما مثّل في مجموعة (رجعة) إلى عصور ما قبل الإسلام حينما كانت المرأة (شيئًا ما) ، لكنها لم تكن (شقيقة الرجل) كما عبر الحديث النبوي ، ولم يكن لها مثل ما عليها بالمعروف ، كما ورد في الذكر الحكيم .

كذلك تنطلق أهمية هذه الدراسة من أنه قد ثبت قطعًا أن من أهم المقاييس الصحيحة لرقي المجتمعات وضع المرأة فيها ؛ فإذا كان هذا الوضع مقتصرًا على كونها (الأنثى التي تشبع غرائز الرجل) وليست (الإنسان شريك الرجل في رحلة الحياة وقسيمه فيها) دلّ ذلك في وضوح على (تخلف المجتمع بكافة علاقاته ومعاييره) ..

وفي إطار هذا كله كان لابد من العودة إلى تجلية حقيقة وضع المرأة ، وحقوقها ، وإسهاماتها في شتى المجالات (في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين) .. هذا العصر الذي يعني أساس الإسلام المتين وحقيقته الوضاحة التي لا يمكن لأحد ما أن يتهمه بمخالفة الإسلام إلا إذا كان جاهلًا بحقيقة هذا الدين ومصادره الأصيلة .

وهذه الدراسة تتناول (الدور السياسي للمرأة) في هذا العصر الزاهر الذي يجب على كل مسلم – في كل زمان ومكان – أن يضعه موضع القدوة التي لا تساميها أية قدوة أخرى .. وقد قامت الباحثة بتجلية هذا الدور في إطار من المنهجية العلمية الدقيقة ..

ومن أبرز جوانب هذه المنهجية قيام الباحثة بتطبيق منهج المحدّثين على الروايات التاريخية المتعددة .. هذا المنهج الذي يمثل إنجازًا منفردًا لا نجد له مثيلًا في غير حضارة المسلمين .

كذلك قامت الباحثة باستقصاء إسهامات المرأة في المجال السياسي في هذا

العصر ، وحققت بعض القضايا ، والتزمت في التحقيق منهج التثبت التاريخي الذي لا يتأثر بالأفكار الشائعة فيتعامل معها (دون تثبت) على أنها (حقائق) ، كما فعلت في مسألة خولة بنت الأزور .

وكان من البدهي أن تقف وقفة طويلة في مسألة الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها في الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه وفي النزاع الذي أعقبها بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعًا .

وقد حققت الباحثة هذا الدور وقدمت فيه ملاحظات دقيقة وأفكار جيدة .

وأيضًا فإن لغة الباحثة في دراستها لغة علمية عالية المستوى في التعبير والإحكام اللغوي .

وعلى وجه العموم فإن هذه الدراسة تحتوي عملًا علميًّا أكاديميًّا متميزًا بحق في موضوعه ، ومنهجه ، وأسلوبه . وهي - دون شك - إضافة معتبرة إلى بحوث المكتبة الإسلامية المتخصصة ..

وأرجو أن يقرأها ويدرسها هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في إسار الماضي الذي لا يمثل الإسلام الصحيح ؛ بل يمثل في حقيقته الرجعة عنه إلى عصور الجاهلية !

والله تعالى ولي التوفيق والسداد .

جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ

سبتمبر ٢٠٠٠ م

الدكتور / محمد بلتاجي

أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
وعميد الكلية « السابق »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ الدكتور / فهمي عبد الجليل محمود
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة - فرع الفيوم

موضوع هذه الرسالة كما يتضح من عنوانها هو الدور السياسي للمرأة في عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين .

وقد نجحت الباحثة في إبراز هذا الدور ، من خلال تتبع حركة المرأة المسلمة ؛ فقد اعتنقت الإسلام ، ثم شاركت في الهجرة إلى الحبشة ، وخرجت مجاهدة مع النبي ﷺ في غزواته إلى أن شاركت في مقاومة حركة الردة داخل الجزيرة العربية ، ثم حركة الفتح الكبرى لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية وقد استندت الباحثة في تقديم هذه الصورة المشرقة للمرأة المسلمة في عهد النبي والخلفاء الراشدين إلى الروايات الصحيحة ، وكشفت عن الروايات الضعيفة والموضوعة التي استند إليها بعض الباحثين الذين قدموا لنا صورة غير حقيقية عن دور المرأة في هذه الفترة من تاريخ الإسلام .

ومما تتميز به هذه الرسالة ، كما تقول الباحثة ، أنها تعد واحدة من المحاولات المنهجية الضرورية لتعديل الوضع الخاطئ الذي يحاول فكّ الارتباط بين العقيدة والواقع التاريخي ، وأنها تحاول أن تعيد الأمور إلى نصابها ، وتتلمس طبيعة الارتباط المؤكد بين العقيدة والحدث في التاريخ الإسلامي .

وقد أفادت الباحثة كثيرًا من منهج المحدثين في تقييم الرجال واستخدمت هذا المنهج ، بصورة شاملة في تقييم الروايات التاريخية المتعلقة بدور المرأة ، وبخاصة دور السيدة عائشة ، لتميز بين الروايات الصحيحة والأخرى الموضوعة : كما اجتهدت في وضع معايير وضوابط منهجية لقبول الرواية والثقة فيها ، ومتى ترجح رواية على أخرى .

كما استخدمت الباحثة المنهج التحليلي في تناول الأحداث والأخبار التاريخية ،

ونبهت إلى أن الحادثة التاريخية لا تفهم إلا في ضوء الرؤية التاريخية ، الشاملة للمرحلة التي تتناولها فلا يكون فهما مبتورًا عن السياق التاريخي الشامل .

وآثرت الباحثة أن تقف وقفة متأنية أمام القضايا المتعلقة بدور المرأة السياسي في هذه الفترة التي تناولتها الدراسة ، فتعمقت في الجانب الفقهي ، كما تعمقت في الجانب التاريخي وقدمت بذلك مادة علمية دسمة في الجانب الفقهي ، وفي الجانب التاريخي تشبع نهم الباحث المستقصي للحقيقة .

وقدمت بذلك الدليل على أنها تملك القدرة على الاجتهاد في القضايا الفقهية التشريعية ؛ والقضايا المتصلة بتأويل بعض آيات القرآن التي تناولت شئون المرأة ، فقد ناقشت الإمام الرازي فيما ذهب إليه من تأويل غير صحيح للآية الكريمة ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ وردّت تأويله بالحجة الواضحة كما ناقشت تفسير ابن كثير للآية الكريمة ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ حيث قال : إن المقصود بالسفهاء النساء .

كما ناقشت ابن حجر العسقلاني فيما ذهب إليه من أن حديث أم كبشة القضاعية ناسخ لحديث أم سنان الأسلمية ، وكانت أم كبشة قد استأذنت رسول الله في الغزو ، فقال لها النبي ﷺ : « لولا أن تكون سنة ويقال : فلانة خرجت ، لأذنت لك » واستنبط ابن حجر من هذا أن القاعدة الشرعية هي عدم إشراك المرأة في الجهاد بعد فتح مكة ، وبينت الباحثة أن هذا القول يناقض الوقائع الثابتة عن اشتراك المرأة في غزوات النبي بعد فتح مكة ، وأيضًا اشتراكها في حروب الردة ، ومعارك الفتح في بلاد الشام والعراق .

ومثلما ناقشت الباحثة بعض القضايا التشريعية الخاصة بالمرأة ، ناقشت أيضًا قضايا تاريخية مهمة متصلة بموضوع بحثها ، وقدمت الدليل على أن قدرتها على فهم القضايا التاريخية لا تقل عن قدرتها على فهم القضايا الفقهية التشريعية : ومن ذلك مناقشتها رأي الأستاذ الدكتور « عبد العزيز الدوري » فيما قرره من أن حركة المسلمين السابقين إلى الإسلام كانت حركة طبقة مستضعفة فقيرة ضد الأغنياء ، وجدت في الإسلام خلاصها ، مستندة إلى الإحصاء الذي قدمه أحد الباحثين ، عن عدد الفقراء من الموالي والأحرار بين السابقين إلى الإسلام ، وأنهم كانوا فقط ثلاثة عشر رجلًا وامرأة من بين ثلاثة وستين ، وأضافت إلى ذلك أسماء نساء سبقن إلى الإسلام من علية قريش ، ومنهم اثنتان من بنات أبي سفيان ، واثنتان من بنات سهيل بن عمرو .

ومن القضايا التاريخية التي عالجتها الباحثة باقتدار وتمكن وحسن فهم للواقع التاريخي عند العرب ، ظاهرة غياب المرأة عن المشاركة في البيعة للخلفاء ، حيث أرجعت أسباب هذه الظاهرة إلى عوامل ، منها ضغط الظروف التاريخية التي لم تمكن الصحابة من وضع نظام كامل لمشاركة الأمة في اختيار أميرها ، وانشغال المسلمين في حروب الردة ، ثم في معارك الفتح الكبرى ، وإرادة البلاد التي فنحوها . ولا تجد الباحثة غضاضة في أن تقرر في شجاعة الباحث المتمكن أن افتقاد دور المرأة في البيعة للخلفاء هو أحد عناصر النقص في الصورة التي تم بها اختيار الخلفاء الراشدين ، وتضيف إلى حفظ الظروف التاريخية السابقة طبيعة الحياة الاجتماعية عند العرب في صدر الإسلام ، تلك الطبيعة التي كانت تحول بين المرأة وبين الحركة الاجتماعية والمشاركة في العمل السياسي ، وتستند في ذلك إلى قول عمر رضي الله عنه : كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئًا ، فلما جاء الإسلام ، وذكرهن الله ، رأينا لهن بذلك علينا حقًّا ، من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا » كما تضيف إلى ما سبق تفسيرًا يستند إلى أصول الفقه ، وقائمًا على حقيقة فهم الصحابة والصحابيات لأصول التكاليف الشرعية ، وحقيقة أن غياب الصحابيات عن بيعة الخلفاء الراشدين لم يكن خطرًا على الموقف التاريخي والسياسي للمرأة ، ولا على مقاصد الأمة وغاياتها في هذه المرحلة التاريخية . ومن هنا فإن الصحابيات لم يكن يعنيهن أن يثبتن حضورهن ، أو يسجلنه ، طالما كن يرين الأمة سائرة على النحو الرشيد والواعي ...

ومن الجهود الطيبة التي تضمنتها هذه الرسالة ، ما قامت به الباحثة من تقييم جيد لبعض مصادر التاريخ الإسلامي ، وما قامت به أيضًا من تقييم دقيق لمصادر تاريخ الطبري – أفادت فيه الباحثة من جهد علماء السنة في تقويم الرجال وتوثيقهم أو تضعيف رواياتهم ، وقد بذلت الباحثة وقتًا وجهدًا دءوبًا في الترجمة لرجال السنة الذين وردت أسماؤهم في هذه الروايات ، فلم تكتف بالترجمة لأبي مخنف ، وسيف ابن عمر ، والواقدي ، ونصر بن مزاحم وغيرهم ممن أخذ عنهم الطبري أخباره التي رواها في موسوعته التاريخية ، وإنما ترجمت أيضًا لرجال السند الذين نقلوا عنهم هؤلاء رواياتهم ، وبذلك كشفت زيف كثير من الروايات والأخبار التي تتعلق بالفتنة على عهد أمير المؤمنين عثمان وأمير المؤمنين علي ، وبخاصة ما كان منها مرتبطًا بموقف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأضافت إلى أسباب رفض هذه الروايات الموضوعة ، مجانبتها لأخلاق الصحابة ودينهم ، واتفاقها مع أهواء وأفكار أصحاب

المذاهب والأهواء من غير أهل السنة والجماعة [١] .

ولست أرى أن أجامل صاحبة هذه الرسالة عندما أقول أن هذا العمل بداية علمية جادة ومشرقة لباحثة في بداية الطريق ، وأتمنى لها دوام التوفيق واستمرار العطاء من أجل تحقيق رسالتها النبيلة في خدمة التاريخ والحضارة الإسلامية .

أ . د فهمي عبد الجليل محمود

(١) هذا إلى عشرات الوقفات التحليلية الجديدة والجادة التي قدمتها الباحثة في ثنايا هذه الدراسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الإسلام كعقيدة غيّرَ مسيرة الإنسانية ، فأعطاها مسارًا جديدًا ، ودخل بها في طور مختلف . هذا التغيير الذي حدث يستحق التسجيل في دقائقه ، لفهمه ، وإعطائه شأنه الإنساني ، والاستفادة من الخبرات التي تراكمت منه ، وتنزيلها منزلتها المرجعية ، المؤصلة في ضوء المفاهيم الكلية لهذا الدين ، وهي المفاهيم التي أفرزت الحركة التاريخية الإسلامية ، والنظم الإسلامية كذلك [١] .

وإن الأمة الإسلامية في حالة الانهزام الراهن ، تجد نفسها محتاجة إلى الرجوع إلى الأصول ، رجوع افتقار واحتياج ، مندفعة إلى التحليل ، والتعليل ، والوصف ، وتقصي الحقائق ، لتقييم ما كان على أرض الحقيقة التاريخية ، ووضعه موضعه من مسيرة الجنس البشري ، ولتأصيل وجودها الفكري في ضوء التغييرات التي تحدث في عالمنا المعاصر . وكل ذلك إيمانًا منها بأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وإن العودة إلى أصول التاريخ الإسلامي في عصر النبوة ، وعصر الراشدين ، والتعاملَ مع هذا التاريخ يأتي من قبيل كون هذا التاريخ هو أخصبَ المراحل التطبيقية لهذا الدين ، وأغناها بالسوابق الفقهية ، فهو رديف دينيٌ شرعيٌ لعمليات التفسير القرآني . ولذلك فإن دراسة عصر البعثة ، وعصر الراشدين ، هي أنسب المناسبات لعرض ملامح الإسلام ، وفهمها فهمًا عمليًا ، مُبِيّنًا عن مقاصد الشرع وغاياته [٢] . ومن هنا كان اختيار موضوع الدراسة .

---

(١) لقد كانت الحركة التاريخية والنظم الإسلامية نتيجة للوحي القرآني ، ولوقائع السيرة النبوية أكثر مما كانت ثمرة للاجتهاد الفقهي الذي اتسعت آفاقه على تعاقب الأجيال انظر في ذلك : النظم الإسلامية نتيجة للوحي : صبحي الصالح : النظم الإسلامية ٣٦٩ .

(٢) لعله من المفيد أن أشير هنا إلى أن فهم مقاصد الشرع وغاياته كما أنها ثمرة لهذا النوع من الدرس ، فإنها أيضًا أساس ضروري لهذا الدرس في التاريخ الإسلامي ، يهديه ، وينير له دروب الطريق .

موضوع الدراسة وأهدافها

موضوع الدراسة هو البحث في الدور السياسي للمرأة على مساحة العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين . فهي تتناول هذا الدور السياسي للمرأة في أهم عصور التاريخ الإسلامي ، وأشدها اقترابًا من حقيقة الإسلام : قيمه ، ومبادئه ، ومُثُله . وذلك من خلال دراسة أهم أشكال الممارسة السياسية للمرأة خلال هذه الحقبة بداية من اعتناق المسلمات الأول للدين ، وهجرتهن في سبيل الله ، ومبايعاتهن المختلفة على عهد النبي ﷺ ، وخلفائه الراشدين ، وجهادهن ، وممارساتهن السياسية في أحداث الفتنة التي ألَمَّت بالأمة الإسلامية .

وإذا كان النشاط السياسي ، في التعريف المعاصر ، هو النشاط المتعلق بطريقة تشكيل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، ثم المنهج الذي تسير عليه هاتان السلطتان ، والأعمال التي تقومان بها . وإذا كان مما يهيئ لمثل هذا النشاط اهتمامُ الفرد بأمور السياسة ، وذلك مما يُرْشِد فهمه لما يجري في محيطه من أحداث ، وهذا بدوره يوفر الوعي ، ويرشِّد النشاط السياسي ، فإن الدخول في الإسلام مع معارضة الأهل والسلطة الحاكمة ، ثم ما يتبعه من الاهتمام بأخباره ، أو التعرض للتعذيب بسببه ، أو الهجرة من الوطن ، أو المبايعة ، أو الجهاد ، كل هذا يعتبر نشاطًا سياسيًّا حسب التعبير المعاصر . ويدخل فيه - بلا أدنى اختلاف مع المفهوم المعاصر [1] - كل ما يتصل بالموقف من الحكومات ، وطرق سيرها ونظمها ، وطريقة اختيار الحاكم ، ودور الأمة في إقامة الحدود ، وهو ما مثله دور السيدة عائشة رضي الله عنها - على وجه الخصوص - في أحداث الفتنة ، كما سوف نرى .

والدراسة تبحث في هذه القضايا من خلال منهج واضح ، ومحدد سلفًا ، ينظر إلى هذا الدرس التاريخي من زاوية التصور الإسلامي ، التي تؤكد على العلاقة بين هذا التاريخ الإسلامي ، وبين العقيدة التي شكَّلت هذا التاريخ ، فمنحته خصوصيات خاصة به ، دون أي تاريخ آخر لأي أمة أخرى . كما تبحث في هذه القضايا من خلال نقد الروايات التاريخية في ضوء قواعد المحدِّثين ، وهو منهج يوظف للمرة الأولى - فيما أعلم - في بحث قضية الدور السياسي للمرأة في عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين ، خاصة فيما يتصل بتقييم موقف السيدة عائشة رضي الله عنها في أحداث الفتنة .

وهو ما جعله يقدم للحقيقة التاريخية صورةً مغايرةً تمامًا لما كان يبدو لنا من قبل

---

(١) راجع الأستاذ عبد الحليم أبو شقة : تحرير المرأة في عصر الرسالة ٢/ ٤١٣ .

كحقائقَ مسلم بها ، بينما هي استنباطات خاطئة ، أخذت مكانها من كثرة تكرارها الناتج من تقليد الدراسات بعضها لبعض ، ومتابعتها لبعضها البعض ، دون مراجعة ، أو بحث جاد . والدراسة وهي تقوم على المادة التاريخية ، إلا أنها لا تغْفَلُ عن معطيات المادة السياسية ، والفقهية ، والحديثية ، والدراسات الحديثة التي عرضت للمسألة .

إن أهداف هذا البحث تنطلق من أهداف البحث الإسلامي عامةً ، وأخلاقياته [١] . فهو بحث متجرد عن الحقيقة التاريخية في شأن الموقف الإسلامي العملي من دور المرأة السياسي ، وهو محاولة متواضعة في تنقية الإسلام وتاريخه من الشوائب التي أُدخلت عليه في هذا الدور السياسي للمرأة تدليسًا، وتزويرًا في محتواه ، وسياسته ، وخططه .

وهو بحث يسعى إلى تجاوز منطق الدفاع عن المرأة - قدر الإمكان - لكي يجعل الحقائق التاريخية المجردة نفسها تشكل في ذهن القارئ النسق الحقيقي للأحداث ، وتدفع عنها كل ما علَّق بها الماضي والحاضر من تهاويل وإضافات ومفتريات ، ما كان لها أن تصمد أمام الواقعة التاريخية الصحيحة ، إذا ما تم البحث عنها بتجرد ، وإخلاص ، وليس غير الواقعة التاريخية حكمًا ، وقاضيًا .

وفي الطريق إلى ذلك فإنها تردُّ تُهَمًا ومفتريات وُجِّهَت ، أو تُوَجَّه إلى الإسلام ، أو إلى نبي الإسلام ، أو إلى النظم الإسلامية ، أو إلى الصحابة والصحابيات ، فالحقيقة خير عام .

وهذه الدراسة - تهدف من خلال النظر في الجوانب التطبيقية التي قامت بها المرأة في هذه المرحلة التي هي أشد عصور التاريخ تأثيرًا في حياتنا - إلى إضاءة هذه الجوانب الهامة ، وإبرازها ، فقد تستطيع هذه الجوانب حسم الكثير من الجدل النظري في مسألة الدور السياسي للمرأة ، وعلى فرض أنها لم تحسم الخلاف حسمًا كاملًا ، فإنها - على أقل تقدير - تُضَيِّق من نطاق الاختلاف ، خاصةً إذا ما تبين

---

(١) وهي أهداف تدور مع مصالح المسلمين ، ومحاولة دفع الضرر عنهم كيفما دارت هذه المصالح ، ذلك أن العلم في الإسلام فرض على كل مسلم ومسلمة ، ومن هنا فإن البحوث الإسلامية إما فرض عين على القادر عليها، وإما فرض كفاية ، وليس من هذه البحوث شيء يمكن أن يعد من النوافل والمندوبات ، لأن دفع الأذى عن المسلمين فرض على القادر عليه ، وجلب المصلحة لهم في الدين والدنيا كذلك . انظر في أهداف البحث الإسلامي : د / علي عبد الحليم : نحو منهج بحوث إسلامي : ١٥ . وانظر : الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة : ١/ ٤٢ .

للكثيرين أن مساحة واسعة من الروايات التي تمَّ الاستدلال بها ، والتي زادت من حجم الاختلاف كانت روايات لا أساس لها من الصحة التاريخية ، وهو ما يجعل مردود هذه الدراسة في ميدانها التطبيقي واضحًا على الممارسة السياسية الفعلية للمرأة المسلمة المعاصرة ، وعلى حجم الجدل الدائر بشأنها [١] .

فالدراسة ببحثها في الممارسة السياسية الحقيقية للمرأة في صدر الإسلام ، ردٌّ علمي عملي ، يحمل الدليل الأكثر عمقًا ، والأشدَّ أصالة ، والأسبقَ تاريخًا من كافة الآراء التي حجرت على المرأة أن تشارك في بناء وتسديد خطى أمتها ، و هي رد أيضًا على أولئك الذين زعموا أن التاريخ الإسلامي لم يعرف للمرأة مشاركة في ميادين السياسة .

وهي تحاول أن تشارك في إنهاء حالة الجمود والتقليد، المذموم شرعًا ، التي يعانيها البحث التاريخي إزاء المصادر والنصوص القديمة ، وإزاء التسليم بكل ما انتُهِي إليه من استدلالات في الدراسات الحديثة ، والترديد لها دون إعمال فكر في حقيقتها ، وما استندت إليه من أدلة وبراهين .

وهي تخرج عن خط الدراسات الإسلامية التي تم بها النظر من قبل في الأدوار السياسية للمرأة في صدر الإسلام ، وهي – فيما أعلم – بين دراسات تاريخية لا تتجاوز السرد إلى التحليل والاستنتاج ، بعد اجتياز مراحل النقد المعتبرة للرواية التاريخية [٢] ، أو دراسات حاولت القيام بعملية التحليل والاستنتاج ، إلا أنها لم تبحث في صحة ما قامت بتحليله من روايات ، بل لم تقدم أية رؤية تم على أساسها الاختيار للروايات التي تم بناء التحليل عليها ، فأغلبها عند التحقيق استنتاجات باطلة قائمة على غير حقيقة تاريخية [٣] .

---

(١) فهذه الدراسة تدخل فيما يسمى بتوظيف المباحث النظرية في الدور السياسي للمرأة ، بحيث يمكن أن تكون لها ثمرة عملية ، نخرج بها عما هو مذموم شرعًا من الاشتغال بالمباحث النظرية التي ليس لها ثمرة عملية .

(٢) من أمثلة هذه الدراسات التي تناولت جزءًا من المرحلة الزمنية لدراستنا : عصمة الدين كركر : المرأة في العهد النبوي ، دكتوراه منشورة . سامية عبد العزيز منيسي : الصحابيات ودورهن في بناء أمة الإسلام في عهد الرسول ﷺ ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة : كلية الآداب : ١٩٨٧م د/ زاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين رسالة ماجستير منشورة .

(٣) من أمثلة هذه الدراسات التي تناولت أيضًا جزءًا من المرحلة الزمنية للرسالة : زاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين : رسالة ماجستير ، منشورة ، جامعة القاهرة : كلية الآداب . وسعيد الأفغاني : عائشة والسياسة ، د/ هشام جعيط : الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر ، وغيرها من عشرات الرسائل التي عرضت لجزء من المرحلة التاريخية ، والتي سنعرض لبعضها في ثنايا الدراسة .

وبين دراسات شرعية فقهية ، عرضت لمسألة المرأة والعمل السياسي عامةً ، من خلال جمع آراء الفقهاء في القضية ، دون أن تحاول الاجتهاد ، أو التجديد باتجاه تأصيل حياتنا الفكرية في ضوء المتغيرات التي تحدث في عالمنا المعاصر (١) . أو دراسات جامعة للنصوص القرآنية والنبوية في شأن الحق السياسي للمرأة (٢) ، أو دراسات سياسية تناولت عمل المرأة السياسي من زوايا قانونية ، ركزت على التنظيم القانوني لحقوق المرأة ، كحق الترشيح ، والانتخاب ، والوظائف العامة ، وغير ذلك (٣) . وبين دراسات حاولت بحث العمل السياسي للمرأة برؤية إسلامية ، حاولت التجديد من خلال النظر في علوم السياسة ودراسات المرأة ، والدراسات الإسلامية ، إلا أنها ليست في الشأن التاريخي المعْنيّ بتحقيق الرواية التاريخية أولًا ، ثم بناء الحقيقة التاريخية وتكوين الاستنتاج على أساسها (٤) .

ولعل هذه الدراسة بما حاولت الالتزام به من منهج أن تكون قد ساهمت – مع المحاولات

(١) من أمثلة هذه الدراسات : في جامعة الأزهر : كلية الشريعة والقانون : رمضان حافظ عبد الوهاب: موقف الشريعة من المرأة في الولايات ، والمعاملات الإسلامية ، رسالة دكتوراه ، ١٩٧٣م ، عبد الحميد إبراهيم أبو سعدة : مركز المرأة في الشريعة الإسلامية ، وحق توليتها القضاء ، رسالة ماجستير ، ١٩٨٧م ، كامل عبود موسى : الحقوق المعنوية للمرأة في التشريع الإسلامي ، رسالة دكتوراه ، ١٩٨٢م . وفي جامعة القاهرة كلية دار العلوم : محمد الحسن حسين الشرفي : ولاية المرأة في الإسلام بحث مقارن ، رسالة ماجستير ١٩٨٧م .

(٢) مثل كتاب الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقة : تحرير المرأة في عصر الرسالة ، دراسة عن المرأة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم ، وقد عني ﷺ فيه أساسًا بجمع نصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم خاصة ، المتصلة بالمرأة ، وألحق بهذه النصوص دراسات وحوارات ومناقشات ، هي كما قال في مقدمته (صفحة : ٣٨) دراسة اجتماعية فقهية عن المرأة في عصر الرسالة ، بهدف الإسهام في إعادة تحرير المرأة المسلمة المعاصرة من خلال احتذاء خطى التحرير الأولى في عصر الرسالة . ومثل كتاب د/ محمد بلتاجي : مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وهي دراسة ، كما صرح به في مقدمته (صفحة ٥) ، تنطلق من أحكام النساء في الإسلام ، وتصدر عنها بغية أن تثبت بالمقارنة والتحليل والاستدلال العقلي أن ما وصلت إليه البشرية من مكاسب حقيقية للمرأة ، وما يمكن أن تصل إليه مستقبلًا من هذه المكاسب قد تضمنه الإسلام في نصوصه ومقرراته منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا .

(٣) ومن أمثلة هذه الدراسات : عبد الغني عبود : حقوق المرأة في القانون الدولي العام والشريعة الإسلامية . ومحمد أنس جعفر : الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام والفكر والتشريع المعاصر .

(٤) من أمثلة هذه الدراسات التي وقفت في الحديث عن الدور السياسي للمرأة ، والتي تلاقت – رغم اختلاف ميدانها البحثي عن دراستنا القائمة على البحث في الحقيقة التاريخية – مع كثير مما انتهت إليه الدراسة التاريخية : هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي : رؤية إسلامية ، ماجستير / كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٢ م .

الجادة الأخرى - في تأصيل المنهج الإسلامي للتفسير التاريخي [١] . ذلك المنهج الذي يعتمد التصور الإسلامي للتاريخ ، ويفيد من منهج المحدثين في التعامل مع الرواية التاريخية .

ولعلها أيضًا بما قدمته من حقائق تاريخية مستندة إلى هذا المنهج أن تكون لبنة مع لبنات الجهود الجادة في بناء علم سياسة إسلامي قائم على تجربة تاريخية صحيحة ، وموثقة [٢] .

---

(١) بدأت محاولات التنظير الحديثة لبناء منهج إسلامي في تفسير التاريخ الإسلامي - حسبما أعلم - من خلال مجموعة من العلماء الجادين من أمثال الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقاته على العواصم من القواصم لابن العربي ، ومن خلال مقاله عن المراجع الأولى في تاريخنا ، في مجلة الأزهر ، المجلد ٢٤ ، جزء ٢ ، ص ٢١٠، صفر ١٣٧٢ هـ . ومن أمثال الشهيد سيد قطب ، ومجموعة من رفاقه أمثال الشيخ محمد الصادق عرجون ، والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور محمد الطيب النجار ، وهي مجموعة حاولت تشكيل جماعة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، وفق منهج إسلامي أصيل ، وبدأت أولى بواكيرها فيما كتبه الشهيد أوائل الخمسينات من القرن الماضي في « في التاريخ فكرة ومنهاج » ، وتوالت من بعد ذلك المحاولات مع الأستاذ محمد قطب في دراسته : « كيف نكتب التاريخ الإسلامي » ، و« حول التفسير الإسلامي للتاريخ » ومع الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه : المجتمع المدني في عهد النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى « محاولة لتطبيق قواعد المحدِّثين في نقد الروايات التاريخية » ، وقد قام - وهو رئيس قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - بتوجيه عدد من الرسائل التي سجلت في قسم الدراسات العليا لنيل درجتي : الماجستير ، والدكتوراه نحو نقد المرويات التي احتوتها كتب الحديث والمغازي والتواريخ عن السيرة النبوية بهدف توثيق المعلومات عن حياة الرسول ﷺ . وأنجزت بعض هذه الرسائل من أمثال دراسة : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ، ودراسة : مرويات غزوة بني المصطلق ، وبعضها الآخر في الطريق إلى الإنجاز . ولما قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٨١م ، عمل في تجنيد جهود العلماء والمثقفين المسلمين في إعادة صياغة مناهج الفكر الإسلامي المعاصر في مجال العلوم والدراسات الإنسانية والاجتماعية وفق التصور الإسلامي ، وهو ما يسمونه [أسلمة المعرفة] ، وفي هذا الإطار قام بنشر كتابات الدكتور عماد الدين خليل في هذه المسألة ، وهي التي نعرض لها في الهوامش الآتية ، وعمل على عقد الندوات العلمية لمناقشتها ، والتعريف بها .. وفي كتابه : مدخل إلى إسلامية المعرفة : ٦٦ ، أشار الدكتور عماد الدين خليل إلى محاولتين مبكرتين لمعالجة تاريخنا من منظور إسلامي أصيل أقرب إلى الموضوعية والإقناع ، وهما كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الذي صدر في منتصف الخمسينات ، وكتاب الأستاذ : أنور الجندي « الإسلام وحركة التاريخ » ، الذي صدر في أواخر الستينات . ومن نفس المنطلق كان كتاب الدكتور عماد الدين خليل : « المنظور التاريخي في فكر سيد قطب » .

(٢) انظر من أمثلة هذه الدراسات في جامعة القاهرة : كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، والتي مهدت لها دراسات المرحوم الدكتور حامد ربيع ، رائد تأصيل النظرية السياسية الإسلامية : سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل : التجديد السياسي والخبرة الإسلامية ، نظرة في الواقع العربي المعاصر ، رسالة دكتوراه ، ١٩٨٧م . محيي الدين محمود : السياسة الشرعية في ضوء جوهر مفهوم السياسة في العصر الحديث ، رسالة ماجستير ، ١٩٩٠م . نصر محمد عارف : نظريات التنمية السياسية المعاصرة : دراسة نقدية مقارنة =

منهج الدراسة

تتميز هذه الدراسة بطبيعة المنهج الذي تعتمده ، وهو منهج قائم أولًا على تناول القضية التاريخية في ضوء الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى حركة تاريخ هذه المرحلة من خلال فهم طبيعة العلاقة المتبادلة بين العقيدة ، وبين الحركة التاريخية التي حدثت بتأثير قوي من هذه العقيدة [١] . وقائم ثانيًا على الاستهداء بقواعد المحدثين في تحقيق الخبر التاريخي ، وثالثًا على محاولة التزام المنهج التحليلي والموضوعي فيما تناولته من مباحث .

إننا في خضم الدراسات التاريخية الحديثة نبحث عن النظرة الإسلامية الشاملة للتاريخ الإسلامي فلا نجدها . على حين نجد أعداءنا يحاربوننا بفلسفتهم الشاملة التي تقوم على المعايير المادية الوضعية . إنهم يقدمون لنا تاريخ البشرية وتاريخنا من خلال مناهجهم التي تتحكم فيها فلسفتهم وعقيدتهم [٢] . وحين يتلقى أبناء الأمة هذا

= في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي ، رسالة ماجستير ١٩٨٨م . حامد عبد الماجد عويس : الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية ، رسالة ماجستير ، ١٩٩٠م . هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي الإسلامي رؤية إسلامية ، رسالة ماجستير : ١٩٩٢م .

(١) وفي ذات المعنى يقول الدكتور عماد الدين خليل : « إن العقيدة لا تتحرك في الفراغ ، فلابد لها من فضاء تتشكل فيه وتعبر عن قدرتها على التحقق ... والتاريخ هو المرآة التي تعكس الحالة الإسلامية بدرجة ، أو بأخرى على صفحة العالم » . في التأصيل الإسلامي للتاريخ : ١٠ . وانظر : سيد قطب : في التاريخ : فكرة ومنهاج : ٤٦ ، وما بعدها .

(٢) إن مناهج البحث الغربية لا يمكنها أن تقدم تفسيرًا معقولًا شاملًا متماسكًا للتاريخ الإسلامي ؛ لأنها مناهج لا تقوم على أساس متوازن ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل مشتركة في صنع التاريخ ، بل على العكس ، تسعى بدافع من ماديتها ، أو علمانيتها إلى ترجيح الدافع المادي ، وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ ، وهو ما يستحيل تنزيله على التاريخ الإسلامي بحال . ومن جهة أخرى فإن هذه المناهج عندما تدرس تاريخنا بالذات ، تتحكم فيها عصبيات شتى ورواسب نفسية ، ومخلفات ثقافية تاريخية ، وأطماع سياسية واقتصادية ، وتحزبات دينية ، ومذهبية ، وعرقية ، لكونها نشأت وتبلورت في ظل الاستعمار الغربي للدول الإسلامية ، وهو ما أكد عليه الكاتب النمساوي المسلم ليوبولد فايس (محمد أسد) حيث يقول : « إنه فيما يتعلق بالإسلام ، فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية ، وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوروبا والعالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية » غير معقود بجسر ، ثم أصبح احتقار الإسلام جزءًا لا يتجزأ من التفكير الأوروبي . [محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق : ٦٠] ، وانظر د/ عماد الدين خليل : مدخل إلى إسلامية المعرفة ، مع مخطط مقترح لإسلامية علم التاريخ : ٧١ : ٧٤ ، وسيمينار المعهد العالمي للفكر الإسلامي حول هذا الكتاب الأخير والذي شارك فيه نخبة من العلماء . وللدكتور عماد الدين أيضًا : في التأصيل الإسلامي للتاريخ : ٢٧ وما بعدها . وانظر له أيضًا في نماذج من الأخطاء الموضوعية التي ذهب إليها الاستشراق في =

التاريخ تدخلُ تلك الفلسفة المادية في البناء الفكري لهم ، مشوِّهةً معالم الفكرة الإسلامية في أذهانهم ، فيهدمون عقيدتنا ، ويبنون عقائدهم .

بل إنه في ميادين البحث العلمي التاريخي في بلاد المسلمين ، حيث تسود العقائد القومية ، والعلمانية ، أو حيث يسود عدم الانتماء إلى شيء أصلًا ، وتتحكم مع هذه الحالة تقاليدُ العصر - بكل ضبابه وغيمه - في ما يقدمه البحث العلمي من دراسات .. نجد كثيرًا من كتاب المسلمين الذين يتناولون التاريخ الإسلامي عامة ، والدور السياسي في صدر الإسلام خاصة ، وأحوال الصحابة والصحابيات على الوجه الأخص ، على ضوء توجهاتهم الفكرية ، وتقاليدهم ، يقسمون الصحابة إلى يمين ويسار ووسط ، وكأنه لم يكن للإسلام في هذا العصر أدنى أثر .

والذين فهموا تاريخ هذه المرحلة على هذا الوجه - بسببٍ من تجاهلهم للعروة الوثقى بين العقيدة وبين الواقع التاريخي في هذه المرحلة ، أو بسبب اعتمادهم على الروايات الضعيفة والموضوعة ، كما سوف نرى في ثنايا البحث - « يعيدون إلى الأذهان تركيبة المجتمع قبل الإسلام ، ويوهمون الناس بأن تربية الرسول ﷺ للصحابة ، وما ورد عنهم في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والسيرة الصحيحة من بذلهم الأنفس والأموال في سبيل الله كانت وقتية ، وقد زالت ، ولا أثر لها . وهذا من أعظم الفرية والانتقاص للرسالة الإلهية ولرسول الله ﷺ ، ولصحابته الكرام » [1] ، فضلًا عن كونه مخالفًا للحقيقة التاريخية الصحيحة عنهم .

ولعلنا أن نُحِسَّ بمدى ما يمثله القول بهذا الارتباط بين العقيدة والواقع التاريخي في هذه المرحلة من عدمه ، وأثر ذلك في فهم وتفسير الواقعة التاريخية ، إذا راجعنا ، مثلًا ، أغلب ما قُدِّم في شأن الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها من تفسير تاريخي ، فلسوف يجد أن أغلب ما جاء في تفسير مفردات هذا الدور كان يذهب - نتيجة تجاهله لهذا الارتباط - إلى تصوير مواقفها رضي الله عنها وكأنها مواقف مضادة للثوابت

= دراسة السيرة النبوية : دراسة في السيرة ٩ : ٢٧ . وانظر دراسته : التفسير الإسلامي للتاريخ ، المنظور التاريخي في فكر سيد قطب : ١١ ، وما بعدها ، وانظر مقدمة الأستاذ سيد قطب لكتاب أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٢٦ ، وانظر دراسة عبد الله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية ، دراسة تاريخية لآراء [وات - بروكلمان فلهاوزن] مقارنة بالرؤية الإسلامية ، رسالة ماجستير منشورة .

(١) انظر : ابن تيمية : الصارم المسلول على شاتم الرسول ٥٦٨ ، وما بعدها . و يحيى بن إبراهيم اليحيي : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ١٢٥ .

والمطالب والمعطيات الإسلامية ، وكأن الإسلام لم يعد له من أثر يذكر في حياتها ، وهو ما يستحيل عقلًا ودينًا التسليمُ به في شأن السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وهي في القمة من عدول الصحابة والصحابيات [١] ، بل ويخالف الواقع التاريخي الصحيح الذي سيتضح من خلال هذه الدراسة .

« لقد أصبح التراث الإسلامي في العقود الأخيرة على وجه الخصوص ، ساحة مفتوحة يصول فيها ويجول مفكرون لا يمتلكون قدرًا كافيًا من فهم أسس التصور الإسلامي ومقوماته ، بل هم في كثير من الأحيان في خصام مع هذه الأسس ، وعداء معها ، الأمر الذي كان يقودهم إلى توظيف هذا التراث لتأكيد استنتاجاتهم باعتماد منهج منقوص لا يستقرئ هذا التراث لاستخلاص مؤشراته الأساسية في هذه الدائرة أو تلك من دوائر معطياته المعرفية الخصبة المتشابكة ، ولكنه يمارس عملية انتقاء كيفي فجة تستبعد - بحكم التحزب والهوى - الكثير من عناصره الأصيلة ، ولا تستبقي سوى الشواهد التي تؤكد هذا الاستنتاج المحدود أو ذاك » [٢] .

ولذلك فلعله مما يميز هذه الدراسة أنها تنضم إلى ما يمكن أن يسمى بالمحاولات المنهجية الضرورية لتعديل الوضع الخاطئ الذي يحاول فك الارتباط بين العقيدة وبين الواقع التاريخي لهذه المرحلة التاريخية . وأنها تحاول أن تعيد الأمور إلى نصابها فيما تناولته من مباحث من خلال محاولة تَلَمُّس طبيعة الارتباط المؤكد تاريخيًا وعلميًا بين العقيدة وبين الحدث التاريخي في التاريخ الإسلامي ، على وجه الخصوص [٣] .

---

(١) انظر في هذه الدراسة مبحث : عدالة الصحابة ، وهو أحد ضوابط التعامل مع الروايات التاريخية حسبما ارتأت الدراسة .

(٢) يراجع د . عماد الدين خليل : مدخل إلى إسلامية المعرفة ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) العجيب أن يكون هذا القول الآن غريبًا على ساحة التفسير التاريخي الإسلامي ، وأننا لا نكاد نجد له أثرًا في الدراسات التطبيقية رغم أن القول بهذا يبدو من بداهات النظر البحثي في التفسير التاريخي عند الغرب ، حيث كان قولهم : إنه لا يوجد تاريخ بدون أيدلوجية « تصورات وأفكار » : راجع في هذا ، على سبيل المثال ، أ.د . فيديريكو لارابينادو ، أ.د . مانويل أبيليو رابانال ألونسو : التعليق على النصوص التاريخية : المنهج وجمع النصوص ، منهج في البحث التاريخي ، ترجمه عن الإسبانية وقدم له أ.د . عبد الله جمال الدين ، مستخرج من مجلة حوليات دار العلوم العدد : ٢٥٤ : ١٤ ، سنة ١٩٩٠ م . وانظر فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : الفصل الثامن في : تقدير علم التاريخ عند المسلمين : ٢٦٧ ، وما بعدها . وانظر للأستاذ محمد فتحي عثمان : دولة الفكرة التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة ، تجربة مبكرة للدولة الأيدولوجية في التاريخ : ٣٣ ، وما بعدها .

والخلاصة في هذه القضية المنهجية أن التاريخ الإسلامي في صدر الإسلام وعصر الراشدين هو التطبيق المثالي للإسلام، ومن ثم ينبغي على الباحث المسلم في أثناء الدراسة أن يقوم بشيئين في آن واحد، كل منهما يخدم صاحبه: «أن يدرس ذلك المجتمع من خلال مبادئ الإسلام، وأن يدرس الإسلام من خلال التطبيق الواقعي في ذلك المجتمع» (١).

وإن أخطر ما عانته المباحث الخاصة بالمرأة عبر التاريخ أن الذين كتبوا فيها كانوا يعتمدون منهجًا معكوسًا في البحث، إذ أنهم ينطلقون من فكرة مسبقة عندهم عن المرأة، ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ يستلُّون منها ما يؤيد فكرتهم، ويستبعدون ما دون ذلك، دون مبالاة بحال الخبر: ضعفًا، أو قوةً، فهم أصحاب أفكار يريدون إثباتها وإظهارها، لا طلاب حق يسعون إلى البحث عنه. وهكذا فإن أغلب هذه المباحث قائمٌ على الانتقاء الكيفي، أو التفاسير الاختيارية للنصوص التاريخية (٢).

ولذلك فإن هذه الدراسات التي تناولت الدور السياسي التاريخي للمرأة في القرن الهجري الأول - بما مارسته من أخطاء منهجية في البحث عن الحقيقة التاريخية - قد أدت إلى كثير من الأطروحات الخاطئة. وهو أمر طبيعي، فالخطأ لا ينتج إلا خطأً، والبعد عن الموضوعية لن يؤدي إلا إلى نتائج لا تحمل من روح العلم والجدية إلا قليلا (٣).

ولذلك، ومن أجل الوصول إلى استدلالات راجحة، فإنه كان علينا، وقد واجهتنا الروايات التاريخية بكل تناقضاتها أن نحاول الالتزام - قدر الإمكان - بمنهج علمي محكوم بقواعد ثابتة، تمثل أهم شروط الدراسة التاريخية الجادة، إذا ما أريد لها أن تعتمد على أوثق المصادر، وأدق الأخبار (٤)، ولم يكن أمامنا، في سبيل تحقيق ذلك، أفضل من اللجوء إلى قواعد المحدِّثين في نقد المصادر التاريخية نقدًا يبحث في مصداقية هذه المصادر، ومدى قدرتها على منحنا الحقيقة التاريخية الصادقة، وفي سبيل ذلك قدمنا للدراسة بمبحث في تصنيف هذه المصادر والنظر في جرح العلماء وتعديلهم لأصحابها، ومصنفيها.

---

(١) أ. محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي: ٩٦.

(٢) وهذا الانتقاء الكيفي هو ما جعل أتيين دينيه يقول في كتابه القيم: «الشرق كما يراه الغرب»: لقد أصاب د. سنوك بقوله: «إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالعقم، إذا سُخِّرت لأية نظرية، أو رأي سابق». (٣) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ٢١.

(٤) راجع في هذا المنهج ما ذكره الدكتور: عماد الدين خليل في مخططه لكتاب منهجي أكاديمي مقترح في التاريخ الإسلامي: مدخل إلى إسلامية المعرفة: ٦٣: ٧٩.

معايير التعامل مع الروايات التاريخية التي استخدمتها الدراسة

وبنفس منهج المحدثين أخذنا في التعامل مع الروايات التاريخية في الموضوع الواحد ، وذلك من خلال الإفادة من علم « مصطلح الحديث » ، وكتب « الجرح والتعديل » . ومن خلال هذا المنهج تبين لنا عددٌ من القواعد والمعايير الضابطة في التعامل مع الروايات التاريخية . أخذنا أغلبها من علماء أجلاء سبقونا إلى القول بها ، وبدا لنا بعضها في أثناء طريق البحث ، وهي قواعد تبقى فاعلة فيما يأتي من بحوث ، بلا شك . هذه القواعد والمعايير يمكن تصنيفها في نوعين :

أولها : في معايير وضوابط للخبر التاريخي نفسه .

والثاني : في شروط كلية عامة تحكم البحث التاريخي بصفة عامة ، وهي شروط قد تختلف من بحث إلى آخر ، ومع تراكم الخبرات التطبيقية في البحث التاريخي الجاد فإنه يمكن أن ينضاف إلى هذه القواعد والضوابط الكثير .

فأما النوع الأول من هذه القواعد التي استرشدت بها الدراسة – مع التحلي بقدر من المرونة يقتضيه الفرق بين الحديث والخبر – فإن منها :

* أن الخبر لا يقبل إلا إذا كان مسندًا .

* ولا يقبل الإسناد إلا إذا كان متصلًا ليس فيه انقطاع .

* ولا يقبل الإسناد المتصل إلا إذا كان صحيحًا [١] .

* وبالإضافة إلى صحة السند في الخبر يشترط ألا يكون في المتن علة قادحة في صحة الخبر ، كأن يتناقض مع صريح القرآن ، ويستحيل الجمع والتأويل ، أو يتناقض الخبر مع الحقائق الثابتة في الكون ، أو مع بدهيات العقل ، أو مع ما عرف من أخلاق الصحابة ، ودينهم ، أو أن يكون ركيكًا [٢] .

* هذا مع مقابلة الروايات والنصوص في الموضوع الواحد ، ومناقشتها وصولًا إلى

---

(١) الإسناد الصحيح هو ما رواه العدل الضابط ، عن العدل الضابط إلى منتهاه ، من غير شذوذ ولا علة .

(٢) فالمنهج العلمي لا يعتد بصحة السند وحدها ، مهما تكن أقدار رجال هذا السند ، إذا ما تعارض متن الحديث مع الدلائل الظاهرة ، كما يقول الإمام النووي ، أو مع أصل من الأصول الإيمانية ، كما يقول الأستاذ عرجون ، فصحة المتن شرط مع صحة السند في قبول النص . راجع الأستاذ محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ١/ ٩ .

الحقيقة التاريخية . ومتى أمكن الجمع بين الروايات فهو أولى من الترجيح .

* الأخذ بالراجح [١] [حتى وإن كان المرجوح أكثر روائية وتشويقًا] .

* نرجح الأوثق بالعدالة ، والأضبط في الحفظ .

* نرجح رواية الشاهد بنفسه المباشر لما رواه عن غيره .

* نرجح الرواية المفصلة على الرواية المجملة إذا تعارضت معها .

* إذا جاءت رواية في السيرة ثبتت صحتها بتعدد طرق رواياتها ، وجاءت موافقة لسير الأحداث ، ثم جاءت رواية على أنها من الحديث النبوي ، تخالف شيئًا ثابتًا في السيرة فإن هذا يكون دليلًا ، مع الأدلة والقرائن الأخرى ، على بطلان تلك الرواية ، أو عدم فهمها فهمًا سليمًا .

* ومع كل ذلك فإننا « لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النَّادر ، ولا من الكلام بنَفَس حاد فيمن بينهم ، وبينه شحناء ، وإحنة ، وقد عُلِم أن كثيرًا من كلام الأقران بعضهم في بعض مُهْدَر ، لا عبرة به » [٢] .

وأما النوع الثاني من قواعد البحث التاريخي التي سارت عليها الدراسة ، فإن منها :

* أن الحادثة التاريخية لا تفهم إلا في ضوء الرؤية التاريخية الشاملة للمرحلة التي تحدث فيها ، وحتى يكون فهمنا لها مؤديًا إلى فهم شامل وواضح للحدث ، وحتى لا يكون فهمًا مبتورًا عن سياقه ، وحتى تتأكد لنا صحته المبدئية ، من خلال معرفة : هل يمكن أن تتجانس الحادثة في لحمتها وسداها مع نسيج تلك المرحلة لحمة ، وسدى ، أم لا .

* مراعاة المدركات والمفاهيم السياسية السائدة زمن الواقعة التاريخية المدروسة . وبمعنى آخر فهم الخطاب التراثي فهمًا مستقيمًا بلغته دون إسقاط للمصطلح المعاصر عليه ... حتى لا يتم تلبيس المفاهيم التراثية بالمضامين الأوروبية المعاصرة لعلم السياسة [٣] .

* بناء البحث التاريخي على الحادثة التاريخية نفسها ، حتى لا نقع في مظنة

---

(١) يكون الترجيح باعتبار النظر في الرواة ، أو بالنظر في المرويات ،والمقارنة بينها ، أو باعتبار أمور خارجة عنهما .

(٢) الإمام الذهبي :سير أعلام النبلاء : ٧/ ٤٠ .

(٣) د/ أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى : ٢٣ نصر عارف : في مصادر التراث السياسي الإسلامي : ١٠٣ ، ٨٥ .

اعتماد الهياكل المرسومة مسبقًا ، ووجهات النظر المصنوعة سلفًا ، ومحاولة تطويع الوقائع ، وإرغامها على الانسجام مع هذه الهياكل ، والوجهات ، حتى ولو أدى هذا إلى تشويه ملامح الواقعة التاريخية [١] .

* المقارنة بين الروايات في الموضوع الواحد ، لترجيح الرواية المتفقة مع الروايات الصحيحة ، أو التي تتلاءم مع أخلاق الصحابة وعدالتهم .

* ألا نجعل من أهداف الدراسة ملاحقة معطيات الآخرين بالنظرة النقدية ، كشفًا عن خطأ فيها ، أو تتبعًا لعورة من عوراتها ، إلا أن يكون في العملية النقدية قدرٌ من الانحياز ، يمثل دفاعًا عن قيمة من قيمنا التاريخية ، أو الفكرية [٢] .

وقد حاولت في هذه الدراسة بعد الاستهداء بالمنهج السالف التزام المنهجين : التحليلي ، والموضوعي للأحداث التاريخية .

فأما المنهج التحليلي : فإنه يعني عدم الاكتفاء بسرد الحدث التاريخي ، وإنما الغوص في نصوص هذه الأحداث ، وتأملها ، واستنباط الأحكام والدلالات السياسية منها ، وهو ما نحتاجه في حياتنا السياسية الراهنة بلا جدال .

وهذا المنهج لا يؤتي ثماره إلا بأن يبدأ أولًا بالبحث في مصداقية المصدر الذي نأخذ عنه الرواية ، وإلا بأن نتسلح ثانيًا بأن نكون ملمين إلمامًا وافيًا بالأحداث ، مع قدرة على استيعابها مجتمعة في ظل التناقضات الشديدة بين رواياتها ، وقدرة على الاختيار العلمي الدقيق للرواية الصحيحة ، مع تحليلها لاستخراج الدلالات التي تدخل في نطاق الدراسة ، أو المسألة البحثية .

وأما المنهج الموضوعي : فالمقصود منه الالتزام بجمع المعلومات والأحداث التاريخية المتعلقة بموضوع واحد ، وإعطاء فكرة متكاملة وشاملة عن هذا الموضوع ، من خلال جمع شوارده وتنسيقها ، وترتيبها ، وهو منهج يؤدي إلى نوع من الدراسة العمودية التي تُمكِّنُ من الوصول إلى ملامح الموضوعات البحثية ، وسماتها المتفردة .

هذا المنهج يقف عند جزئيات الوقائع والحوادث التاريخية وقوفًا متأنيًا ، كأساس في البحث التاريخي الذي يبدأ من الواقعة الجزئية لفهمها والوقوف على شكلها ، ثم

---

(١) د/ عماد الدين خليل : في التأصيل الإسلامي للتاريخ ٢٢ .

(٢) راجع السابق نفسه ٢٣ وما بعدها .

ربطها بسياقها في الحركة التاريخية ، ومن ثَمَّ الصعود إلى التحليل الحضاري الكلي لسلسلة الوقائع التي تحدث في الزمان والمكان بحيث تَبْرُزُ لنا في نهاية الأمر المؤشراتُ الأكثر امتدادًا لمعطيات التاريخ الإسلامي [١] .

وفائدة هذا المنهج - كما نعلم - أنه يمكِّن أهل الاختصاص من الاستفادة من المادة المدروسة في مجالات تخصصاتهم التي يتعرض لها « الموضوع البحثي » . ذلك أن مجرد التزام المجرى الزمني ، وغض الطرف عن التكامل في الموضوع يدفع الباحث إلى أن يحشر في النقطة الواحدة ، أو المقطع الواحد مجموعة من الأحداث والوقائع المتناثرة والمتنافرة ، كما تلجئه إلى تقطيع الواقعة التاريخية الواحدة إلى أجزاء متناثرة لا يضمها إطار واحد ، ولا يوحدها تجانس نوعي .

---

(١) تبرز أهمية النظر في القضايا الجزئية لتكوين نظرة كلية من خلال ما قاله الإمام الشاطبي :من أنه من أخذ بنص مثلًا في جزئي ، معرضًا عن كليه فقد أخطأ ، كما أن من أخذ بالجزئي معرضًا عن كليه فهو مخطئ كذلك ، فتلقي العلم بالكلي إنما هو من عرض الجزئيات ، واستقرائها ، فالكلي من حيث هو كلي غير معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات ، ولأنه ليس موجود بالخارج ، وإنما هو مُضَمَّن في الجزئيات ، حسبما تقرر في المعقولات ، فإذًا الوقوف مع الكلي مع الإعراض عن الجزئي وقوف مع شيء لم يتقرر العلم به بعد . الشاطبي : الموافقات : ٣/ ٧، ٨ . ولقد قال الشاطبي أيضًا : في أهمية حدوث الترابط بين الجزئي والكلي ، وصياغة كل منهما باعتبار الآخر : « فالحاصل أنه لابد من اعتبار خصوص الجزئيات مع اعتبار كلياتها ، وبالعكس ، وهو منتهى نظر المجتهدين بإطلاق ، وإليه ينتهي طلقهم في مرامي الاجتهاد .. » وراجع أيضًا ما ذكره الكافيجي في هذا النوع من التحليل التاريخي عند : د/ سليمان الخطيب : فكرة التاريخ بين السخاوي والكافيجي : ٧٧ ، وفيها ذكر الكافيجي أن عدم التعرف على الوقائع الجزئية يحيل البحث التاريخي إلى جهد متخبط وعشوائي ، فيكون صاحبه كحاطب ليل .

مباحث الرسالة جاء هذا البحث للدور السياسي للمرأة في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين ، في مجالاته الأكثر فاعلية وأثرًا في حياتنا السياسية المعاصرة : اعتناق الدين ، والهجرة في سبيله ، والبيعة ، والجهاد ، والموقف من سياسة الحكم ، والسعي في إقامة الحدود .

فالرسالة مقسمة إلى ثلاثة أبواب ، يسبقها مبحث تمهيدي عن مصادر التاريخ الإسلامي للفترة موضوع الدراسة ، ولقد اعتبرتُ هذا المبحث ضابطًا أساسيًا في تكوين طريقة التعامل مع أغلب ما جاء في الدراسة من روايات ، كما قدمتُ للدراسة أيضًا بما اعتبرته ضابطًا ثانيًا ينضاف إلى سابقه في فهم هذه المرحلة التاريخية ، وهو ما يتصل بعدالة الصحابة ، كحقيقة تاريخية مسلَّم بها . فأما أبواب الرسالة الثلاثة فهي :

الباب الأول : دراسة لبعض « الممارسات السياسية العامة للمرأة في عهد النبي ﷺ ، وعهد الخلفاء الراشدين » وأظهرت الدراسة أن السيدة خديجة كانت مع رسول اللّه ﷺ في غار حراء في الليلة التي نزل عليه فيها الوحي . وفي الفصل الأول منه : درست قضية اعتناق المرأة للدين على عهد النبي ﷺ ، من الزاوية السياسية ، من خلال دراسة صورة اعتناق المسلمات الأول للإسلام ، وسبْقهن إليه ، والنظر في طبقاتهن وأدوارهن في مرحلة الدعوة السرية ، ثم دورهن في المرحلة الجهرية وتحملهن الاضطهاد في سبيل الدعوة ، مع إيضاح دورهن في مرحلة دار الأرقم .

وفي الفصل الثاني : عرضتْ الدراسةُ لأدوار المرأة في الهجرة : إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وعرضتُ للقيمة السياسية الواضحة لهاتين الهجرتين ، وحكمهما الشرعي ، كما قمتُ ببحث حجم مشاركة المرأة في هذا الحدث السياسي البارز ، وطبقات النساء المهاجرات ، ومعاناتهن ، ودورهن في هجرة النبي ﷺ ، وهل كانت المرأة مجرد تابع لزوجها في الهجرة ، أم أن هناك صورًا أخرى تعظم فيها قيمة ومعنى مشاركة المرأة في الهجرة ؟، وعرضتُ لما دلَّتْ عليه الحركةُ التاريخية لهن في هذا الحدث من أن الهجرة كانت واجبة عليهن ، كما هي واجبة على الرجال من المسلمين .

وفي الفصل الثالث : عرضتْ الدراسةُ لبيعة النساء لرسول الله ﷺ ، وأظهرت المعنى السياسي لهذه البيعة من خلال تتبع جملة المبَايَعات التي شاركت فيها الصحابيات ، والتي تناثرت في كتب الأصول حتى اختفت معالمها ، ولم يعد في الأذهان منها سوى بيعة العقبة وبيعة الرضوان . ثم عرضتْ لكيفية مبايعة النبي ﷺ ،

لهن ، وللبنود التي كانت تتم البيعة عليها ، وتحريرها بما يؤدي إلى الإجابة عن السؤال القائل : هل كانت هناك بيعة خاصة بالرجال ، وأخرى خاصة بالنساء ، وبما يؤكد على مكان المرأة السياسي في البيعة ، ويدحض كل المحاولات التي حاولت التمييز بين المرأة والرجل في البيعة . مع تقديم ملحق بأسماء النساء المبايعات اللاتي ذكرهن ابن حجر في كتاب « الإصابة في معرفة الصحابة » .

وفي الفصل الرابع : عالجتُ قضية بيعة النساء على عهد الخلفاء الراشدين ، ولماذا اختفت المرأة في بيعات الخلفاء رغم الظهور الكثيف لها في بيعات النبي ﷺ ، وبينتُ أثر النظر إلى هذا الغياب في ترويج بعض المفاهيم السياسية المعاصرة حول دور المرأة السياسي .

وفي **الباب الثاني** من الرسالة ، وعنوانه : « دور النساء في الجهاد على عهد النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين » . في الفصل الأول منه : عَرْضٌ لفلسفة الجهاد في الإسلام ، وصور استشراف الصحابيات للجهاد ، من خلال فهم جديد لرواية أسماء بنت يزيد بن السكن في وفودها باسم النساء على رسول الله ، في شأن الجهاد ، ثم تتبُّعٌ لمشاركة الصحابيات في الغزوات الكبرى على عهد النبي ﷺ ، ثم عرضٌ للغزوات التي لم يرد لهن فيها ذكر، وقد تبين من خلال درسها أنها تنقسم إلى : سرايا وغزوات نتوقع أن تكون المرأة قد شاركت فيها ، رغم سكوت المصادر عن القول بهذا ، وبين سرايا وغزوات لم تشارك فيها ، وتعرضتُ بالمناقشة والتحليل للأسباب الكائنة وراء تَغَيُّبها عنها في ضوء فهم الملابسات التاريخية الشاملة لهذه الغزوات . ثم بينت الأدوار المتعددة التي قامت بها المرأة في هذه الغزوات . ثم عرضت بالتحليل والدَّرس للروايات الموحية بمنع النساء من الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، للوصول إلى التحرير التام للحقيقة التاريخية في هذا الدور .

وفي الفصل الثاني عرضٌ لمشاركة النساء في الجهاد من خلال حروب الردة سواء على عهد الرسول ، أو عهد الصديق ﷺ ، وقد عرضت بالنقد والتحليل لطريقة التسجيل التأريخي لهذا الدور ، ولإشكالية صغر حجم المشاركة النسائية في هذه الحروب ، رغم القيمة العالية لما تم تسجيله في هذا الدور .

وفي الفصل الثالث : عرضتُ لحجم المشاركة النسائية الكثيفة في حركة الفتوحات ، وبينت الإهمال التأريخي في رصد هذا الدور ، والتناقضَ في روايات

الفتوحات ، مع إيضاح طبيعة الأدوار النسائية في هذه الفتوحات ، وقمتُ بتتبع هذه الأدوار في فتوح الشام والعراق كنموذجين . ومن طرائف هذا المبحث أنه عرض لقضية البطولات الخارقة المنسوبة إلى خولة بنت الأزور ، أخت ضرار الفارس المشهور ، وحقيقتها ، ليكشف عن حقيقة هذه البطولات ووهمية الشخصية نفسها .

والباب الثالث عن : « الدور السياسي للمرأة في أحداث الفتنة ، على عهد أمير المؤمنين عثمان ، وأمير المؤمنين عليّ » وقد قسمت أحداثها إلى عدة مراحل ، في عدة فصول :

الفصل الأول : في أحداث الفتنة من بدايتها حتى مقتل عثمان ﷺ ، وفيها استعراض تاريخي لملخص أحداث الفتنة ، وموقف أمهات المؤمنين ، والصحابيات منها .

والفصل الثاني : في دور أم المؤمنين السيدة عائشة خاصة في هذه الأحداث على عهد عثمان ﷺ ، وفيه توضيح لحقيقة مكانته عند السيدة عائشة رضي الله عنها – حسبما دلت عليه الروايات الصحيحة ، ودراسة لموقفها رضي الله عنها من مقتله في ضوء ذلك ، وباعتماد الروايات الصحيحة ، مع نقد وتحليل الروايات التي زعمت تأليبها رضي الله عنها عليه ، وقد عرضتُ لتحليل ونقد روايتين عند الطبري وأربع روايات من عند غيره .

وعلي ضوء ما سبق جاء الفصل الثالث في خروج السيدة عائشة إلى البصرة ، وبدأته بذكر الأحداث السابقة على هذا الخروج ، ثم التتبع التاريخي لكيفية هذا الخروج ، وتوضيح الاستقلال الفكري للسيدة عائشة في الإيمان بضرورة هذا الخروج ، مع توضيح أن خروج الآلاف معها كان من قبيل إيمانهم أيضًا بأهمية هذا الخروج ، وعرضت لموقف أمهات المؤمنين من هذا الخروج ، وطبيعية أن تكون عائشة بالذات هي صاحبة هذا الدور الأبرز ، مع توضيح الدافع لهذا الخروج ، والهدف منه .

وفي الفصل الرابع عن « الأحداث في البصرة » عرضتُ لتحرير وتحليل مسألة مرورها رضي الله عنها على ماء الحوأب ، لمعرفة مدى دلالة هذا الحدث سياسيًّا ، وما جاء فيه من أحاديث نبوية دالة على إدانة خروجها رضي الله عنها من عدمه ، ثم أتبعتُه بالنظر في الممارسات السلمية لها رضي الله عنها في البصرة ، وتحليل ونقد الروايات المخالفة لهذه الممارسات ، وفي ضوء ذلك عادت الدراسة لتحليل ، وتحرير أهداف هذا الخروج ، من خلال الإجابة على هذه الأسئلة : هل خرجوا ليقيموا الحد على قتلة عثمان ﷺ ، وهل فعلًا أمرت السيدة عائشة بالمثلة بالصحابي عثمان بن حنيف ، وهل خرجوا لحرب عليّ ﷺ ، مع توضيح الغاية من خروج أمير المؤمنين علي في أثرهم ، والغاية

منه ، ودلالة ذلك على نظرته إلى هذا الخروج ، وأصحابه . ثم عرضت للأحداث السابقة على موقعة الجمل ، وكيف كان الدور السبئي من وراء نشوبها .

وفي الفصل الخامس تناولت الدراسةُ ما أشاعه ذوو الأهواء من الكراهية المزعومة بين علي وعائشة ﷺ ، والمظاهرَ والأسبابَ التي استند بعضهم إليها في تقرير القول بهذه الخصومة المزعومة في المصادر التاريخية ، وكشفتْ زيف هذا الادعاءات ، كما أوضحتْ الخطأَ المنهجي الذي يقف من وراء القول بها في الدراسات الحديثة .

ومن أجل التحرير الكامل للحقيقة التاريخية عرضتْ الدراسة في الفصل السادس لحقيقة الروايات القائلة برفض الصحابة لخروج السيدة عائشة ، وقمتُ بدراسة بعض هذه الروايات المتمثلة فيما ذكره أبو بكرة تعليقًا على موقعة الجمل ، وفيما ذُكر من رفض السيدة أم سلمة ، ورفض زيد بن صوحان ، وعمار بن ياسر ، وجارية بن قدامة رضي الله عنهم جميعًا . بل وفي دعوى ندم السيدة عائشة رضي الله عنها على هذا الخروج ، كدليل يعتمدون عليه في إدانة دورها السياسي ، وعرضتْ الدراسة في هذا الفصل أيضًا لآراء بعض العلماء في هذا الخروج . وأخيرًا خلاصة القول في الموقف السياسي للسيدة عائشة ، وهي خلاصة تصدق على الموقف السياسي للمرأة عامة ، إذا ما اتسم بما اتسم به موقف السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

مبحث تمهيدي في :

ضوابط أساسية للتعامل مع

الروايات التاريخية

إن المعيارَ الأول الضابط للأخبار في تاريخ كل أمة الوثوقُ في مصادرها . والمعيارَ الثاني الضابطَ لهذه الأخبار هو النظرُ في ملاءمة روايات هذه المصادر الموثوق فيها لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم هذه الروايات ، وهل هي مما يحسن ويصح صدوره عن هؤلاء الأشخاص أم لا ؟ .

من أجل ذلك واعتقادًا مني بصحة هذا الرأي عامةً ، وصحته في مسائل الروايات الخاصة بالدور السياسي للمرأة خاصة ، والدور السياسي لها في أحداث الفتنة على وجه أخص ، كان ضروريًّا الوقوف أمام هذين الضابطين أو المعيارين الأساسيين في التعامل مع الروايات التاريخية لمسألة الفتنة ، وهذان الضابطان هما :

* الضابط الأول : في تصنيف المصادر التي أخذت منها الدراسة .
* والضابط الثاني : في عدالة الصحابة والصحابيات ، وهم مادة هذه الدراسة .

الضابط الأول : في تصنيف المصادر

إنه من الأهمية بمكان أن أشير إلى أنني أقوم بهذه الدراسة في تصنيف المصادر ، لا من قبيل أنها مدخل تقليدي ، درج الباحثون على التمهيد به لبحوثهم التاريخية ، تقويمًا ، وتقييمًا للمادة التاريخية المستخدمة ، وحسب ، وإنما من حيث كونها ضابطًا أساسيًّا في فهم الفروق بين هذه المصادر ، لما لفهم هذه الفروق من أثر في تكوين طريقة التعامل مع ما جاء فيها من روايات .

لقد كُتِبَتْ مصادرنا منذ زمن طويل ، لكنها لا تغني أبدًا - على فضلها في التسجيل والحفظ - فهي - بالحالة التي هي عليها - ليست تاريخنا ، وإنما هي المادة التي يمكن أن يستخلص منها تاريخنا الصحيح .

وإذا كانت طبيعة كل موضوع من الموضوعات في الأبحاث التاريخية هي التي تحدد نوعية مصادره ، فلكل موضوع نوع من المصادر الخاصة التي ترفده من مناحٍ شتى ، لتلبي غرضه ، وتحقق أهدافه ، فإنه في موضوع الدور السياسي للمرأة في العهد النبوي وعصر الخلفاء الراشدين اقتضى الحال أن تتنوع مصادر الدراسة تنوعًا بعيدًا : في القرآن الكريم ، وفي كتب الحديث : الصحاح والمسانيد ، وكتب السيرة والمغازي ، وكتب تراجم الصحابة ورجال الحديث ، والكتب التاريخية ، وكتب السياسة ، وكتب الفقه ، وأصوله ، وكتب اللغة .

ومن ثَمَّ ، كان الرجوعُ إلى طبقة المصادر الأساسية في الموضوع ، وبخاصة تاريخ الطبري ، وسيرة ابن هشام ، وصحيحي البخاري ومسلم] والتعاملُ معها ، وتجاوزُ التَّضخم الذي عانته المصادر المتأخرة ، والارتجالِ الذي مارسته المراجع الحديثة ، أمرين لازمين لبناء صورة أقرب إلى الواقع التاريخي ، قدر المستطاع [١] .

إن كافة المصادر التي ذكرنا فيما سبق ، والتي فيها المادة المستخدمة في هذه الدراسة لا يكفي أي مصدر منها ، بل وكلها مجتمعة على إعطاء صورة متماسكة ، واضحة لأحوال المرأة ، ودورها ، لا نقصًا في مؤلفيها ، بل لأنهم لم يكونوا يهدفون إلى ذلك ، إذ إن مؤلفي كل صنف من هذه المصادر كان لهم هدف محدد ، ولم يكن

(١) في نقد مصادر السيرة انظر : جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام : ٦ : ٢٥ ، ومقاله القيم عن مصادر دراسة السيرة في مجلة المجمع العلمي العراقي : المجلد الأول ، السنة الأولى . وانظر : د/ عماد الدين خليل : دراسة في السيرة : ٥ .

التأريخ لدور المرأة من الأهداف الواضحة لذاتها عند أصحاب هذه المصادر .

وسوف نبدأ الآن جولة نقدية في التعريف بالمصادر التي استخدمتها الدراسة ، وتقويم هذه المصادر .

النوع الأول من مصادر الدراسة :

القرآن الكريم وكتب الحديث

فأما النوع الأول من هذه المصادر فهي القرآن الكريم ، وكتب الحديث الشريف :

أما القرآن الكريم فيقف في مقدمة المصادر عن العصر النبوي وعصر الراشدين ، فالقرآن الكريم وهو كتاب الله ﷻ ، وهو أوثق مصدر عرفته الدنيا يتعرض لهذه الفترة التاريخية في كثير من المواقف ، ويقدم حكمه ووصفه لحال الصحابة ، وما يصدرون عنه من عقيدة ، وإيمان ، ولعل قيمةَ هذا الحكم أن تتضح للقارئ تمامًا عند الحديث عن عدالة الصحابة ، وهي العدالة التي تأكدت لنا من آياته الكريمة ، كما تأكدت لنا من الأحاديث النبوية الصحيحة .

كما يقدم القرآن أحكامَهَ ذاتَ الأهمية الكبرى في بيان النظم الإسلامية ونشأتها ، كما تبين لنا عند البحث في البيعة ، ودور النساء فيها ، تلك النظم التي يتبين لنا فيها كيف كان الخطاب القرآني التكليفي للرجل والمرأة متساويًا في هذا الشأن وغيره ، وهو ما منح الحدث التاريخي الذي اجتهدت الدراسة في البحث عنه توثيقًا بالغًا ، الأمر الذي يجعلنا نستحث الحاجة البحثية في الأدوار التي قامت بها المرأة في هذا العصر ، خاصة والتكليف يشملها كما يشمل الرجل .

ولا يغيب عن الباحث أن القرآن الكريم ليس كتابًا في التاريخ ، بل هو أشمل من ذلك وأوسع ، هو دستور للحياة ، وإننا نستفيد منه من خلال كتب التفسير ، وكتب أسباب النزول .

وأما كتب الحديث : فإنه مما لا شك فيه أن كتب الحديثِ الصحيحة موثقةٌ يجب الاعتماد عليها ، وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة ، ذلك أن هذه الكتب قد حظيت بجهود فائقة في نقدها سندًا ومتنًا ، فهي ثمرة جهود جبارة ، قدمها المُحَدِّثُون عند تمحيص الحديث ونقده سندًا ومتنًا ، وهذا التدقيق والنقد لم تحظ به الكتب التاريخية [1] .

---

(١) د/ أكرم ضياء العمري : مصادر دراسة السيرة : ٣ ، نقلًا عن قريبي :مرويات غزوة بني المصطلق ٨٦ .

ومن هنا تأتي الأهمية القصوى ، التي يحسها الدارس ، للعودة إلى الصحاح ، والمسانيد للبحث فيما يتعلق بالسيرة ، والمغازي ، فثَمَّ أحاديث جمَّةٌ ينبغي أن تُضَمَّ إلى السيرة ، وتُرَتَّب وقد فعل غالب هذا الإمام أبو بكر البيهقي في : « دلائل النبوة »[١] . وهي أحاديث قد بلغت من الصحة مبلغًا نستطيع به ضبط ما انعكس على كتب السيرة ، ودخل فيها .

لذلك كان لابد من عرض كافة الروايات التاريخية على معطيات الكتاب والسنة الصحيحة ، فمن الواضح أن رواة السيرة كانوا يترخصون فيما لا يترخص فيه علماء الحديث ، وحتى تظل للسيرة ، ولتاريخ القرن الأول حجيته ، ومرجعيته التاريخية ، فلابد من تمحيص رواياتها على ضوء ما ثبت من القرآن والسنة .

والحقيقة التي يجب أن تستقر عندنا هي أن البحث في دور المرأة بعيدًا عما في هذه المسانيد ، والصحاح من إضافات ، سيظل يَصِمُ البحوث التاريخية في شأنها بالقصور ، وبوجود الثغرات المُخلة .

ولا يفوتُنا أن نشير إلى أن كتب الحديث أيضًا - بحكم تخصصها - لا تورد تفاصيل الأحداث التاريخية ، ومن ثم فإنها لا تعطي صورة كاملة لما حدث ، وإنما هي تكمل صورة الكتب التاريخية ، وتمنحها درجة من الوثوق ، ما كانت لتبلغها دون هذا العطاء الحديثيّ .

كما لا تفوتني الإشارة إلى التنويه القيم الذي ذكره الدكتور العمري ، حيث قال : إن هناك صعوبةً تبرز أمام الباحث في تحديد الأحاديث زمنيًّا ، على أن كتب السير والتاريخ المرتبة على السنين تسد هذا النقص[٢] .

ومن أهم ما رجعت إليه في هذه الدراسة من هذه الكتب : صحيح الإمام البخاري ، الذي زاده شرح الإمام ابن حجر ثراءً ، وسعة وكذا صحيح الإمام مسلم ، الإمام النووي له .. وقد أفدتُ منهما فوائد جليلة .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٥٢ .

(٢) د/ العمري : المجتمع المدني : ٣٧ . وقد أشار سيادته أيضًا إلى أن كبار المحدِّثين أمثال الحافظ ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير » ، والحافظ الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » عندما كتبا السيرة النبوية اعتمدا على الكتب الستة « البخاري ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنَّسائي ، وابن ماجه « لكنهما لم يتمكنا من الاستغناء عن كتب السيرة والتاريخ . العمري : المجتمع المدني : ٢٦ .

النوع الثاني من مصادر الدراسة :

كتب السيرة وأما النوع الثاني من المصادر فهو كتب السيرة : وتأتي الأهمية الكبرى لكتب السيرة من أنها كتبت في وقت مبكر جدًّا ، وعلى وجه التحديد في جيل التابعين ، حيث كان الصحابة موجودين فلم ينكروا على كتاب السيرة ، مما يدل على إقرارهم ...كذلك فإن التبكير في كتابة السيرة قلل إلى حد كبير من احتمال تعرضها للتحريف ، أو للمبالغة أو للتهويل أو للضياع [١] .

غير أن ثمة ملاحظة غاية في الأهمية يلاحظها الباحث في المرأة ، وأدوارها ، وهي أن كتب السيرة ركزت بحثها على حياة الرسول ، وأعماله ، ولذلك جاء التأريخ للمرأة ودورها عرضيًّا ، مشتتًا ، غير شامل ، ولا متناسق ، وهو مرتكز على ما له علاقة به ، غيرُ مَعْنِيٍّ بإظهار الدور النسائي في ذاته ، فإذا انضاف إلى ذلك أن كتب السيرة الموجودة الآن بين أيدينا ، رغم قدمها قد دونت بعد الرسول بأكثر من قرن ، وهي فترة حدثت خلالها تطورات غير قليلة ، لعلها انعكست في كتب السيرة ، ودخلت فيها . فإن القول بأن المصادر التاريخية لم تعط المساحة المناسبة لحركة المرأة إلى جانب الحركة الجماعية قول صحيح .

وأهم ما رجعت إليه من كتب السيرة : سيرة ابن هشام : لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري [ت : ما بين ٢١٣ و ٢١٨] . نشأ بالبصرة ، ورحل إلى مصر ، وجمع بين معارف اللغة والتاريخ . وأشهر مؤلفاته هو كتاب السيرة الذي اختار فيه من سيرة ابن إسحاق نصًّا محررًا ، أثبت فيه ما رأى أنه صحيح من أخبار العهد النبوي ، واختصر ما أطال فيه ابن إسحاق ، وسلط أضواء النقد على كثير من الروايات التاريخية ، وأضاف ما فات ابن إسحاق من الروايات الصحيحة ، مع إهمال ما ذكره ابن إسحاق من الأخبار التي لا صلة لها بالسيرة النبوية من الإسرائيليات ، والأشعار المنتحلة ، مما جعلها بعد هذا التهذيب موضع رضى العلماء . « والحقُّ أن الصورة التي تعطيها مغازيه عن حياة رسول الله ﷺ ، تقترب إلى حد كبير مما أوردته كتب الحديث الصحيحة ، مما يعطي سيرته توثيقًا كبيرًا [٢] » .

---

(١) انظر د/ العمري : المجتمع المدني ٣٩ .

(٢) انظر : ابن هشام : في صدر كتاب السيرة ، وما ذكره في منهجه في رواية السيرة : ٥ ، وما بعدها ، ومقدمة الأستاذ عبد السلام هارون لتهذيب سيرة ابن هشام : ١٠ ، ١١ ، د/ أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة ٤٧ .

وقد اكتفيت بهذه السيرة ، مع الاستهداء بما جاء من سير أخرى مثل : سيرة ابن سيد الناس [ت : ٧٣٤هـ] عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، « والسيرة الحلبية » ، والجزء الخاص بالسيرة عند ابن كثير في « البداية والنهاية » ، والسيرة النبوية في الأجزاء الأولى من سير أعلام النبلاء وسيرة « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيم الجوزية ، وغيرها مما يجده القارئ في ثبت المصادر .

لقد حاولت قدر المستطاع ألا أعتمد اعتمادًا كليًا على المصادر المتأخرة نسبيًا ، ذلك أن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من تلك المصادر المتأخرة [كالحلبي ، وأبي الفدا ، والمقريزي ، وابن الأثير ، وابن الوردي] كمصادر محورية ، وتغافلهم عن واحد ، أو أكثر من المصادر الأساسية جعلهم يتركون ثغرات عميقة في صلب أبحاثهم .

النوع الثالث من مصادر الدراسة :

كتب التراجم

وأما النوع الثالث فهو كتب التراجم : ومن هذه الكتب ما ترجم للجيل الذي عاش أحداث السيرة من الصحابة والصحابيات ، وهي الكتب التي تخصصت في معرفة الصحابة ، وهي تقدم معلومات تاريخية موثقة . ومنها ما كان في تراجم الرجال ، وهي تفيد في التعريف بحال رجال أسانيد كتب السيرة والحديث ، وأخبار الراشدين ، وهي ما أفاد منه البحث كثيرًا في نقد أسانيد الروايات .

ولقد استعنت من كتب التراجم والطبقات والرجال بكتب عُرف مؤلفوها بالضبط والعدالة ، واشتهروا برسوخ القدم في الدراسات الإسلامية عامة ، وفي علم الحديث خاصة ، فهم من الحفاظ المحدِّثين ، ومن أهم ما رجعت إليه من هذه الكتب :

الطبقات الكبرى

أقدم ما وصلنا من كتب التراجم هو كتاب [الطبقات الكبرى] لمحمد ابن سعد بن منيع الزهري [ت : ٢٣٠ هـ] .

شملت دراسة ابن سعد القرآن ، والحديث ، والفقه ، والأنساب ، والتاريخ ، وعلم الرجال ، والغريب ، واللغة ، والنحو . وقد أفاد من علماء عصره في البصرة ، وبغداد ، والكوفة ، والمدينة ، ومكة .

انفرد يحيى بن معين [1] بتكذيبه ، فيما رواه الخطيب البغدادي ، عن الحسين بن

---

(١) يحيى بن معين بن عون الغَطَفاني مولاهم ، أبو زكريا البغدادي : ، ثقة حافظ مشهور ، إمام الجرح والتعديل . اجتمعت مروياته في الأصول الستة ، ولد سنة ١٥٨ هـ . قال عنه الرازي : إمام . وقال =

فَهْم [١] ، قال : « كنت عند مصعب الزبيري [٢] فمر بنا يحيى بن معين ، فقال له مصعب : يا أبا زكريا ، حدثنا محمد بن سعد الكاتب بكذا وكذا - وذكر حديثًا - فقال له يحيى : كذب . إلا أن الخطيب اعتذر عن ابن سعد ، وصرف نقد ابن معين إلى الواقدي ، أستاذ ابن سعد ، فقال : « ومحمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنه يتحرى في كثير من رواياته ، ولعل مصعبًا الزبيري ذكر ليحيى حديثًا من المناكير التي يرويها ابن سعد عن الواقدي ، فنسبه إلى الكذب » . و قال السمعاني [ت : ٥٦٢ هـ] ، وابن الصلاح [ت : ٦٤٣هـ] ، والذهبي [ت : ٧٤٨ هـ] عنه : إنه من أهل العدالة ، وإنه ثقة ، وإنه صدوق [٣] .

وتمتاز روايات الكتاب بالدقة والتثبت ، فلقد يجد القارئ الأسانيد المتعددة عند إيراده متنًا حديثيًا واحدًا . ولقد خصص الجزء الثامن من كتابه في تراجم الصحابيات ، فكان أول من سنَّ التصنيف في تراجم الصحابيات ، فقدم لنا مادة رصينة ، وأصيلة في الترجمة لهن رضي الله عنهن . وهذا الجزء مع أجزائه السبعة الأخرى يقدم لنا معلومات ثرية عن الدور السياسي للمرأة ، وكم كانت قيمته جليلة عند البحث في الصحابيات المبايعات ، والمهاجرات .

وظل كتاب ابن سعد نموذجًا ، ومصدرًا تابعه أغلب من ألَّفوا في تراجم الصحابة

= النسائي : أحد الأئمة في الحديث ، ثقة مأمون . وقال الإمام أحمد : أعلمُنا بالرجال يحيى بن معين ، وقال يحيى بن معين عن نفسه : ما رأيت على رجل خطأً إلا سترتُه ، وما استقبلت رجلا في وجهه بأمر يكرهه ، ولكن أُبَيِّنُ له خطأه فيما بيني وبينه ، فإن قبل ذلك وإلا تركته . مات في رحلته إلى الحج بالمدينة وعمره خمسٌ وسبعون سنة ، وأخرجت له بنو هاشم الأعواد التي غُسل عليها رسول الله ، فحمل على سرير رسول الله ﷺ ، وبين يديه رجل ينادي : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله. راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١/٧١:٩٦ ، ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/ ٣١٦ ، تهذيب التهذيب : ١١/ ٢٨٠ .

(١) الحسين بن فَهْم : قال الذهبي : هو العلامة ، النَّسابة ، الأخباري ، أبو عليّ ، الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن فهم بن محرز البغدادي . وذكر عن ابن كامل القاضي قوله عنه : كان حسن المجلس ، مفنَّنًا في العلوم ، كثير الحفظ للحديث ، مُسْنَدِه ومقطوعِه ، فصيحًا ، متوسطًا في الفقه ... سمعته يقول : صحبت يحيى بن معين فأخذت عنه معرفة الرجال ، وصحبت مصعبًا فأخذت عنه النسب ، وصحبت أبا خيثمة فأخذت عنه المُسْنَد . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٣ / ٤٢٨ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨/ ٩٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٢/ ٢٠١ .

(٢) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي ، أبو عبد الله الزبيري المدني ، نزيل بغداد ، صدوق عالم بالنسب ، خرج له النسائي وابن ماجة في سننهما . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ١٨٦ ، تهذيب التهذيب : ١٠ / ١٦٢ .

(٣) راجع مقدمة الطبقات الكبرى لابن سعد ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/ ٣٥١ ، ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح : ٥٩٩ .

من أمثال : ابن عبد البر ، وابن الأثير ، والذهبي ، وابن حجر العسقلاني .

الاستيعاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لحافظ المغرب ، شيخ الإسلام ، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي [ت : ٤٦٣ هـ] .

قال الذهبي عنه : صاحب التصانيف الفائقة ، طلب العلم بعد التسعين وثلاث مائة ، طال عمره ، وأدرك الكبار ، وعلا سنده ، وتكاثر عليه الطلبة ، وخضع لعلمه علماء الزمان . وقال أيضًا : كان إمامًا دَيّنًا ، ثقة ، متقنًا ، علامة متبحرًا صاحب سنة واتباع ... بلغ رتبة الأئمة المجتهدين ، ومن نظر في مصنفاته بانت له منزلته مع سعة العلم ، وقوة الفهم ، وسيلان الذهن [١] .

احتوى كتاب « الاستيعاب » على أربعة آلاف ترجمة ، منها اثنين وأربعمائة ترجمة في الصحابيات . والكتاب – على اختصاره – من المراجع الأولى في هذا الباب .

أسد الغابة أسد الغابة في معرفة الصحابة : لعز الدين بن الأثير ، أبي الحسن علي بن محمد الجزري [ت : ٦٣٠ هـ] . وهو الإمام العلامة ، المحدِّث ، الأديب ، النسابة ، كان منزله مأوى طلبة العلم ، ولقد أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالا تامًّا ، وسمع العالي ، والنازل . هو ثالث ثلاثة إخوة عرف كل واحد منهم بعلم من العلوم : الأول هو مجد الدين بن الأثير ، المحدث ، صاحب كتاب : « النهاية في غريب الحديث والأثر » ، والثاني هو ضياء الدين بن الأثير ، صاحب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » .

اعتمد في تصنيف كتابه على كل الكتب الحديثية الصحيحة المشهورة مع ما يتطلبه الموضوع من كتب تاريخية وكتب طبقات وتراجم سابقة ، فاجتمعت لديه معلومات وافرة حول الصحابة ، والصحابيات ، جعلته ينتقي منها ما صح وثبت عنده [٢] . وقد خصص الجزء السابع منه في الترجمة للنساء الصحابيات .

سير أعلام النبلاء سير أعلام النبلاء : للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي [ت : ٧٤٨ هـ] . نشأ الذهبي في دمشق ، واهتم منذ صباه بقراءة القرآن الكريم ، والعناية بدراسة علم القراءات ، وفي الوقت نفسه مال إلى سماع

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣ : ١٦٣ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٥٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٣٤٨ .

الحديث ، واعتنى به عناية فائقة ، حتى استغرق كل حياته ، فرحل داخل البلاد الشامية ، وخارجها إلى مصر ، وإلى الحجاز ، واهتم بالكتب التاريخية ، فسمع عددًا كبيرًا منها على شيوخه في المغازي ، والسيرة ، والتاريخ العام ، ومعجمات الشيوخ والمشيخات ، وكتب التراجم الأخرى .

اتصل الذهبي اتصالا وثيقًا بثلاثة من أكابر شيوخ عصره ، وهم : المزِّي ، والبرزالي ، وابن تيمية ، وكان المزِّي أكبرَهم سنًّا والذهبيُّ أصغرَهم ، وكان بعضهم يقرأ على بعض ، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه . وكان لهذه الصلات أثرٌ في تبلور فكره السلفي المتمثل بميله إلى آراء الحنابلة ، وارتباطه الشديد بالحديث والمحدثين ، ونظرته إلى العلوم والعلماء ، وفلسفتهم تجاه العلوم العقلية ، مما أثر في منهجه التاريخي تأثيرًا واضحًا ، فظهر ذلك في اهتمامه الكبير بالتراجم التي صارت تكون أسس كتبه .

كان مفهوم التاريخ عند الذهبي يتصل اتصالًا وثيقًا بالحديث النبوي الشريف وعلومه . وقد جعلت منه معرفته الواسعة بالرواة ناقدًا ماهرًا في التفاتاته البارعة في أصول النقد ، ورده لكثير من الروايات ، وتخطئته ، ومراجعته لكبار علماء الرجال ، وقدرته الفائقة على البحث والاستدلال .

هذا الكتاب من أضخم مؤلفات الإمام الذهبي ، وفيه مادة ضخمة في تراجم الأعلام ، امتدت قرابة السبع مائة سنة من تاريخ الإسلام . وتختلف تراجم الصدر الأول في كتاب « السير » عن كتاب « تاريخ الإسلام » اختلافًا تامًّا ، فمعظم تراجم الصدر الأول تراجم حافلة لا يمكن مقارنتها من حيث غزارة الأخبار ، وجودة التنظيم بمثيلاتها في « تاريخ الإسلام » ، فقد ترجم الذهبي في « السير » ولأزواج النبي ، وبناته تراجم حافلة ، استغرقت عشرات الصفحات ، مما لا نجد له مثيلًا من حيث غزارة المادة ، والسعة في غير تاريخه : « تاريخ الإسلام » [1] .

الإصابة الإصابة في معرفة الصحابة : للحافظ ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين ، أبو الفضل أحمد بن علي الكناني [ت : ٨٥٢ هـ] ، ولد بمصر ، ورحل إلى الحجاز ، والشام ، وأخذ عن أكابر العلماء فيهما وفي مصر كالعز بن جُمَاعة ، والزَّين العراقي ، وكان جل اعتنائه بالحديث الشريف والتاريخ الإسلامي حتى أصبح

(١) استفدت هذا التعريف من المقدمة الضافية التي قدم بها الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف لكتاب الإمام الذهبي : سير أعلام النبلاء .

يعد أعظمَ المحدّثين والمؤرخين في عصره ، وألف في ذلك التآليف الكثيرة في التاريخ والطبقات ، وأشهرها كتاب « الإصابة » .

أحكم ابن حجر وضع كتابه ، وتحقيق الشخصيات المترجمة ، وعرض أهم الأحاديث والروايات في ترجماتهم ، وقد خصص الجزء الثامن منه في تراجم الصحابيات ، واستفاد من كل ما سبقه من كتب التراجم ، مما جعله كتابًا شاملًا ، وأثرًا جامعًا في تراجم الصحابة ، لم يأت بعده مثيلٌ له في بابه. وقد ترجم ١٥٢٢ ترجمة لأسماء وكنى النساء [١] .

ولقد استفادت الدراسة أيما فائدة من كتاب « التاريخ الكبير » ، وكتاب « الضعفاء الصغير » للبخاري ، « ولسان الميزان » ، « وتهذيب التهذيب » ، « وتقريب التهذيب » لابن حجر ، « وميزان الاعتدال » ، للذهبي ، وكتاب « الضعفاء والمتروكين » للنَّسائي ، و« الكامل في ضعفاء الرجال » لابن عدي ، « والضعفاء والمتروكين » للدارقطني ، وغيرها من كتب الرجال التي يجدها القارئُ في ثبت المصادر ، والمراجع .

وإذا كنتُ قد أكثرتُ من الاطلاع على مختصر « تاريخ دمشق لابن عساكر » لابن منظور إلا أنني لم أكثر الأخذ عنه ، وذلك لأن ابن منظور عندما اختصر « تاريخ ابن عساكر » اختصره من ناحيتي الأسانيد والمتون : هذَّب السند حتى لم يُبْق إلا على جزء يسير منه أحيانًا ، وهذَّب الروايات ، فحذف المتعدد منها تارةً ، وجمع بين روايات في رواية واحدة تارة أخرى ، وقد قرَّبه صنيعه هذا من عمل المؤرخين بقدر ما أبعده من طريقة المحدِّثين [٢] ، وهو ما جعلنا نكتفي عند التحقيق والتمحيص بالمصادر الأخرى [٣] .

النوع الرابع من مصادر الدراسة :

كتب التاريخ العام كتب التراجم ، والسيرة ، والحديث تقف ، إلى حد بعيد ، في موقع الثقة ، على احتياجها إلى التفسير ، والتوضيح السليم . لكن تبقى كتب التاريخ العام ، والتي شاعت الروايات التي بها ، فأثرت – إلى حد بعيد –

---

(١) انظر : د/ محمود الطحان : أصول التخريج ودراسة الأسانيد : ١٥١ .

(٢) انظر : مقدمة المحققين في : ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق : ٩/١ .

(٣) ولقد اطلعت أخيرًا على تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، الجزء الخاص بتراجم النساء ، فراجعت بعض ما في الدراسة عليه ، وأفدت منه بعض الفوائد التي أشرت إليها في هوامش الدراسة .

في البناء الفكري للأمة ، وبخاصة فيما يتصل بشكل الدور السياسي للمرأة في هذا العصر . ومن هنا فإنها في حاجة إلى وقفة جد متأنية ، وهي وقفة نعتبرها من ضرورات ، وضوابط العمل في هذه الدراسة ، حيث إن هذه الكتبَ هي مصدرُ مادة أغلب الأبحاث في هذه الدراسة ، وخاصةً في تاريخ الفتنة ، ودور المرأة فيها .

لقد نظرت فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ العام ، فوجدتها أنواعًا مختلفة من المصادر :

النوع الأول من كتب التاريخ العام : كتبٌ خَلَتْ من السند :

وهي مصادر قدم مؤلفوها موجزًا للأحداث ، دون إسناد لرواياتها ، وهي وإن امتازت بسهولة الألفاظ وتسلسل الموضوعات ، وبساطة الأسلوب ، إلا أنها حافلة بكثير من الأخطاء التاريخية ، مجافية لكثير من الحقائق التاريخية التي نقلها إلينا مؤرخون آخرون كان لهم منهجهم المتميز في اختيار الروايات ، ونقدها والتحري بأمانة عن الحقيقة التاريخية . ولعل من أهم أصحاب مصادر هذا النوع :

أسماء الكتب لا أصحابها

البلاذري وهو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري . قال ابن عساكر : كان أديبًا راوية ، مدح المأمون ، وجالس المتوكل ، وتوفي في أيام المعتمد ، مات على الأرجح سنة ٢٧٩هـ ، وقد جاوز الثمانين من عمره بعدما وسوس [١] في آخر أيامه ، فشُدَّ في المارستان ، ومات فيه [٢] .

وكتب البلاذري مصدر مهم من مصادر التاريخ الإسلامي ، وبخاصة كتابه : « فتوح البلدان » ، وكتاب « أنساب الأشراف » . ولقد ذكرت هذا الكتاب الأخير للبلاذري في هذا النوع من أنواع كتب التاريخ العام ، لأنه وإن كان من كتب الأنساب بسببٍ متين [٣] ، إلا أنه في أثناء التراجم يتطرق إلى موضوعات متشعبة في الأدوار التاريخية لأصحاب التراجم ، وملابسات هذه الأدوار ، مع الالتزام بالترتيب

---

(١) وسوس : مرض مرضًا اختلط معه الذهن ، وتكلم بكلام خفي لم يبينه .

(٢) وكان سبب ذلك أنه شرب البلاذر على غير معرفة ، وهو ثمر كان يستخدم لتقوية الذاكرة ، ومن هنا سُمِّي البلاذري .انظر الحموي : معجم الأدباء : ٢/ ١٢٧.

(٣) حيث إنه يذكر نسب كل قبيلة ، ثم يتبعه بالإشارة إلى عشائر هذه القبيلة ، ثم يعرض بالترجمة لأهم أسماء ، ورجالات هذه القبيلة ، معنيًا بذكر أنسابهم ، وتواريخ وفياتهم ، مع وضوح هدف الأنساب في تسمية الكتاب .

الزمني في أغلب ما قدم له من تراجم ، فلقد عرض ، على سبيل المثال لأغلب أحداث الفتنة خلال الترجمة لعثمان ، وعليّ ﷺ .

والواقع أن النظرة لروايات البلاذري في هذا الكتاب ، وفي أغلب كتبه توقفنا على عدة ملاحظات ، أهمها : أنه لم يكن يعني بمسألة الإسناد ، بل كان يذهب إلى نوع من الإسناد الجماعي إلى عدد من الرواة ، وربما زاد على ذكره لعدد منهم قوله : « وغيرهم » ثم يُتْبعهم بقوله : « قالوا » ، دون أن يفصل قول أحدهم عن الآخر [١] . بل كان يذهب إلى نسبة رواياته إلى طوائف غير محددة ، أو معروفة ، كمثل « أصحاب السيرة [٢] » ، أو « بعض الرواة » [٣] ، هذا إلى شيوع النسبة إلى غير الموصوفين أصلًا ، في مثل قوله : « قالوا » ، « وقيل » ، « ورُوِيَ [٤] » .

وهو وإن كان يرجح بين الروايات التي يرويها ، فيقول بعد سرد أخباره : « والثبت كذا » ، إلا أنه لا يلتزم هذا دائمًا ، بل إن البحث في سلاسل رواته في كتاب « أنساب الأشراف » يوقفنا على حقيقة أن بعض هذه الروايات جاءت عن الضعفاء ، بل وبعض الكذابين ، فضلًا عن أنها لا تتصل بالذين شاهدوا الأحداث ، والوقائع ، بل تنقطع قبل ذلك [٥] ، ومراجعة عدد من رواياته توضح لنا أنه لم يكن يبالي عمن يأخذ الأخبار ، وقد أخذ كثيرًا من أخبار الفتنة عن المجروحين من الرواة من أمثال : هشام بن محمد الكلبي [٦] ، وأبي مخنف ، والواقدي [٧] ومن هنا أُتي ، وصار الضعف من سمات رواياته . ولقد نظر إليه المحدِّثون نظرة تضعيف ، إذ أورد ابن حجر ترجمته في كتابه عن الضعفاء في « لسان الميزان » [٨] .

---

(١) انظر مثلًا : البلاذري : أنساب الأشراف : القسم الخامس : ١ ، ١٩ . وهي طريقة أنكرها العلماء ونعوا على أصحابها . انظر ما يأتي في ذلك عند ذكر الواقدي .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ٥/ ٤٣ ، على سبيل المثال .

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف : ١/ ١٧٤ .

(٤) وهي أكثر من أن تحصى .

(٥) راجع أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٩٠ ، ولقد وجدت هذا القول صحيحًا تمامًا ، وسوف تتبين هذه الصحة في المواضع التي تعرضنا فيها لروايات البلاذري .

(٦) توفي الكلبي سنة ٢٠٤ هـ . انظر في تجريحه على سبيل المثال : البخاري : التاريخ الكبير : ٨/ ٢٠٠ ، الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٧٣ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ٧/ ٨٨ ، وفيه قول ابن عساكر عنه : إنه رافضي ، ليس بثقة ، الحموي : معجم الأدباء : ٧/ ٢٥٠ .

(٧) سنعرض – إن شاء الله – للراويين الأخيرين بالدرس عند الحديث عن مصادر الطبري .

(٨) ابن حجر : لسان الميزان : ١/ ٤٢٩ . الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية .

وإذا كانت النظرة السريعة لرواياته ربما توهم بتشيعه فيما كتب ، إلا أنه ليس من الصواب أن نعد البلاذري شيعيًا ، أو متشيعًا ، وهو الذي نقل إلينا روايات كثيرة عن تقدير الصحابة لعثمان ﷺ جميعًا ، وإقرارهم وجوب طاعته ، ومنهم ابن مسعود ، وأبو ذر ، فابن مسعود ، عندما يسمع أحدهم يقول : « إن دم عثمان ﷺ لحلال » ، يرد عليه قائلًا : « ما يسرني أني سددت إليه سهمًا يخطئه ، وأن لي مثل أحد ذهبًا [١] ، وأبو ذر يرد على من حضه على الثورة ضد عثمان ، فيقول : « لو أن عثمان صلبني على أطول جذع ، لسمعت ، واحتسبت ، وصبرت [٢] » .

غير أننا أيضًا لا نرى أنه كان موضوعيًا في تناوله لسيرة عثمان ﷺ ، على النحو الذي تبدو معه هذه السيرة خروجًا واضحًا على نهج النبي ، ونهج الخليفتين من بعده ، وفي إظهارِ مواقف كبار الصحابة في ناحية المعارضة والرفض لعثمان ﷺ ولسياساته .

المسعودي ومن هذا النوع من المصادر : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلي بن الحسين المسعودي [٣] ، وهو من شيوخ الشيعة وكبارهم ، كما قال صاحب تنقيح المقال [٤] ، الذي ذكر له مؤلفات في الوصاية وعصمة الإمام ، وغير ذلك مما يكشف عن عصبيته ، والتزامه غير سبيل أهل السنة . ومن طبيعة التشيع والتحزب والتعصب البعد بصاحبه عن الاعتدال والإنصاف [٥] .

وقد ذكره الذهبي في عداد المعتزلة ، وقال عنه : « صاحب مُلَح وغرائب وعجائب وفنون [٦] » ، وإذا كان البعض – لما يجدونه في مرويات المسعودي من الوضوح والموضوعية في كثير من المسائل التاريخية – ربما يعتبرون أن حديثه في مسائل الإمامة والوصية ، وسائر ما يتصل بالإمام عليّ ، وآله لم يكن إلا عملًا تاريخيًا ، إلا أن الذي يطالع مروياته في أحداث الفتنة ، على سبيل المثال ، لا يكاد

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف : ٥/ ٣٧ . (٢) السابق : ٥/ ٥٦ .

(٣) المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين من ذرية ابن مسعود ، مات سنة ٣٤٥ هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٦٩/١٥ ، ابن حجر : لسان الميزان ٢٢٤/٤.

(٤) المامقاني : تنقيح المقال ٢/ ٢٨٢ .

(٥) انظر : شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون : ٣٤٠/١ ، محب الدين الخطيب في مقدمته للعواصم من القواصم ٢٦٢ هامش : ٤٩٤ ، د/ محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ : ٧٢ .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٥/ ٥٦٩ .

يجد روايةً منصفةً ، أو بعيدة عن التشيع [١] .

هذا إلى ما في منهج المسعودي من نسبته القول إلى أحد من التابعين ، أو غيرهم ، بدون ذكر الرجال الذين رووا هذا ، أو سمعوه ، مما يوهم بالثقة في الرواية ، وما هي بالموثوقة . وهو ما يدل على أنه لم يكن يولي أي اعتبار لأمر الإسناد [٢] .

ولعل هذا الإهمال لشأن الإسناد ينضاف إلى ما عُرِف عنه من وقْفِه نفسَه للدراسات التاريخية ، دون غيرها من الدراسات الإسلامية - حتى ليكاد أن يكون وحده بين مؤرخي هذه الفترة الشاذَّ بانفراد اهتمامه بالجانب التاريخي وحده ، بعيدًا عما كان عليه أغلب المؤرخين المسلمين من تعدد الاهتمامات بكافة جوانب الدراسات الإسلامية ، فقهًا وحديثًا وتفسيرًا ، وغيرَ ذلك - ليؤكد لدينا القيمة المتضائلة لتاريخه [٣] .

على أن المسعودي لم يدَّعِ - على أي حال - أنه استمع إلى شيخ ، أو شيوخ ، نقل عنهم الأخبار ، وإنما أشار في مقدمة كتابه [مروج الذهب ، ومعادن الجوهر] إلى الكتب التي ألفت في التاريخ حتى عصره ، مما يشير إلى اعتماده على هذه الكتب في الأخبار . وعندما يذكر خبرًا سبقه به أحد المؤرخين - ونادرًا ما يصنع ذلك - يرجع إلى مؤلفاتهم ، فيقول مثلًا : « ذكر الواقدي في كتابه » « فتوح الأمصار أن ... [٤] » ، أو يُرجع الكلام إليهم فيقول مثلًا : « ذكر الواقدي وغيره من أصحاب السير .. [٥] » .

ومن مصادر هذا النوع أيضا : تاريخ اليعقوبي لمؤلفه أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح [ت: ٢٩٢ هـ] ، وهو الأخباري الكاتب [٦] ، وهو

---

(١) راجع الأبواب التي كتبها في : ذكر خلافة عليّ بن أبي طالب ، ﷺ ، ونسبه ، ولُمَع من أخباره ، وسيره ، ونسب إخوته وأخواته . وذكر الأخبار عن يوم الجمل ، وبدئه ، وما كان فيه من الحروب ، وغير ذلك . وذكر مقتل عليّ بن أبي طالب ﷺ . وذكر لمع من كلامه ، وزهده ، وما لحق بهذا المعنى من أخباره ، وسيره . وذكر خلافة الحسن بن عليّ ، ولمع من أخباره وسيره ونوادر من بعض أخباره . وذكر الصحابة ومدحهم ، وعليّ بن أبي طالب ، والعباس ﷺ ، وفضلهم ، إلى آخر ما صنف في هذا الباب .

(٢) راجع مثلًا ما نسبه إلى عبد الله بن عتبة ، أو إلى سعيد بن المسيب ، من أخبار باطلة عن ثروات بعض الصحابة . المسعودي : مروج الذهب : ٢ / ٥٤٤ ، كتاب التحرير ، سنة ١٩٦٦م ، القاهرة . وانظر في مسألة عدم عنايته بالإسناد : د . علي حسني الخربوطلي : المسعودي : ٤٤ .

(٣) أشار إلى هذا الملمح فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ٧٩ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب : ٢/ ٥٣٢ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٩٦٦م .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ٣٩٦/٢ .

(٦) انظر الحموي : معجم الأدباء ٢/ ١٥٦ .

شيعي ، لا يخفى تشيعه على غير المتخصص ، فضلا عن الباحث [١] . وهو لا يذكر مع رواياته مصادره التي يأخذ عنها ، ولا تغني القائمة التي ذكرها في أول الجزء الثاني من تاريخه عمن روى عنهم أي غَناء [٢] ، في إضفاء قيمة تاريخية على رواياته .

ومن هذه الكتب أيضًا : كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب زورًا لابن قتيبة . وكتاب الأخبار الطوال لأحمد بن داود الدينوري [٢٨٢ هـ] .

هذه المصادر لا ينبغي أن تُعتمد كمصادر أساسية يوثق بكل ما ورد فيها من أخبار عن عصر الراشدين ، ولكن يمكن الإفادة من بعض ما ورد فيها من أخبار تتفق مع ما نقله ثقات المؤرخين [٣] .. ولعله من المفيد أن نشير إلى أن هذا الحكم ليس خاصًا بهذا النوع من المصادر ، وإنما يشمل كل المصادر التاريخية ، حتى الطبري أصح هذه المصادر ، غير أن حاجتنا إلى الحذر مع هذا النوع من المصادر أشد ضرورة ، وذلك لعدم وجود الإسناد في أغلب رواياتها .

النوع الثاني من كتب التاريخ العام : كتابات أدبية :

وهي كتابات أدبية كتبها أهل الآداب ، « وأغلب من كتب في المسائل التاريخية منهم كانوا من أهل الأهواء والبدع . وفي هذه الكتب كثير من أحاديث استحقار الصحابة ، والسلف ، والاستخفاف بهم ، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم ، وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى [٤] » ، كما أنها كتب لا تهتم بمصدر الخبر ، أو صحته قدر اهتمامها بالعبارة الجيدة ، وحلاوة اللفظ ، وجودة السبك ، وهذه سمات تتسم بها كثير من الروايات المصنوعة ومن

---

(١) وقد ذكر فرانز روزنتال أيضًا أنه إضافة إلى امتلاء تاريخه بالحواشي الطويلة جدًّا عن العلويين مملوءة بحكمياتهم ، فإنه أيضًا نجح في تصوير عثمان بصورة غير مُرْضية . روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين : ٩٢ . وانظر فيما أورده في دعوى تآمر أبي بكر وعمر يوم السقيفة ، واغتصابهما الخلافة من على ، وما جرى في مجلس الشورى بعد وفاة عمر ﷺ تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٢٣ ، وتجاهله لخلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان ، وإيراده لخبرها تحت عنوان أيام أبي بكر ، وأيام عمر ، وأيام عثمان : تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٦٢ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/ ٦ . ولا تخلو هذه القائمة من أسماء المجروحين من أمثال أبي معشر المدني [انظر فيه : الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٧٠] ، والواقدي ، كما أنه لا قيمة لذكره بعض أسماء الثقات من الرواة ما لم تقترن بالروايات نفسها .

(٣) يراجع د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين : ١.

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٦٠ ، ٢٦١ .

هؤلاء : المُبَرِّد [١] في كتابه الأدبي : « الكامل » ، « وهو ينزع إلى شيء من رأي الخوارج ، وله فيهم هوى ، وإن إمامته في اللغة والأدب لا تغطي على ضعفه في علم الرواية والإسناد [٢] » .

ومنهم الأصفهاني [٣] في كتابه « الأغاني » الذي تتسم رواياته بسمة شيعية واضحة . ومنهم ابن عبد ربه [٤] في كتابه « العقد الفريد » « الذي امتلأ بكثير من الدس على التاريخ بما يزري على الصحابة – رضوان الله عليهم – ويُضِيع الحقيقة التاريخية .

النوع الثالث من كتب التاريخ العام : كتب اعتمدت على رواياتها على السند :

وهي المصادر التي استفاد مؤلفوها من منهج علماء الحديث في التزام ذكر سلسلة إسناد الروايات . ومنها تاريخ الرسل والملوك للطبري ، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ دمشق لابن عساكر . وطريقة هذا النوع من المصادر تمنح الروايات كثيرًا من الثقة ، غير أن المتعامل مع هذه الروايات لا يلبث أن يقع في أزمة حقيقية حين يجد تضارب هذه الروايات المسندة ، وتناقضها. وأهم هذه المصادر ، وأوثقها عامة ، وفي تاريخ الفتنة على وجه الخصوص هو تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر بن جرير الطبري .

---

(١) المبرد : هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، البصري ، النحوي ، الإخباري ، صاحب الكامل في اللغة والأدب ، مات سنة ٢٨٦ هـ ، صاحب نوادر وطرف ، قال حماد النحوي : كان ثعلب أعلم باللغة وبنفس النحو من المبرد ، وكان المبرد أكثر تفننا في جميع العلوم من ثعلب . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٧٦/١٣ ، الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ١٠١:١١٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣١٣/٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٢١٦/٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧٩/١١ ، ابن الجزري : طبقات القراء ٢٨٠/٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٩٠/٢ ، ابن حجر: لسان الميزان ٤٣٠/٥ ، ٤٣٢ .

(٢) محب الدين الخطيب : هامش [٤٩٣] في العواصم من القواصم : ٢٦٢ .

(٣) الأصفهاني : هو على بن الحسن بن الهيثم ، المرواني ، الأموي ، القرشي ، أبو الفرج . توفي سنة : ٣٥٦ هـ . ومادة المرأة في كتابه غنية بما فيه الكفاية ، وأخبارها تحتل مكانًا مرموقًا في أجزائه الأربعة والعشرين ، لكنها مادة لا تُعنَى بالمرأة الشريفة ، وأدوارها الراشدة ، قدر ما تعنى بالجواري ، والمغنيات ، وذوات التحلل من الفضيلة ، يقدمها الأصفهاني في عبارات لا تتورع عن فاحش وبذيء الألفاظ ، وهو ما حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن هذه الروايات من بنات خياله ، وخيال رواته .

(٤) ابن عبد ربه : هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير المرواني ، مولى أمير الأندلس هشام بن الداخل الأندلسي القرطبي ، العلامة ، الأديب ، الإخباري ، كان موثقا نبيلا بليغا شاعرا ت ٣٢٨ هـ. الحموي : معجم الأدباء ٢١١/٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٠/١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٠/٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣١٢/٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٨٣/١٥ ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ٣٨/١ .

ولسوف يكون تركيزنا في بحث الدور السياسي للمرأة عامةً ، وفي أحداث الفتنة خاصةً على تاريخ الطبري كمصدر أساسي ، مع كتب السنة التي حفلت بأصح الروايات في هذا الأمر ، وهي على الرغم من ذلك لا يُستَغنى بها عما سواها ، إذ لا تقدم الواقعة التاريخية على وجه التفصيل ، والتوضيح الذي تقدمه كثير من المرويات التاريخية ، فكلاهما مساعد للآخر ، وكلاهما لا يغني عن صاحبه . و سوف نعاود التوقف مع مصادر تاريخ الطبري تفصيلا في الصفحات التالية .

أنواع أخرى من مصادر الدراسة :

وقد جعلتنا الطبيعة الحضارية لهذا الموضوع في أمسِّ الحاجة إلى الإضاءات الكاشفة التي تقدمها مصادر أخرى مثل كتب السياسة ككتاب « الأحكام السلطانية » « للماوردي ، و « الأحكام السلطانية » للفراء ، و « السياسة الشرعية » لابن تيمية ، و كتاب ترتيب الرياسة وتهذيب السياسة للقلعي ، وكتاب « الطرق الحكمية في إصلاح الراعي والرعية » لابن قيم الجوزية ، وغيرها مما يجدها القارئ في ثنايا البحث ، ويجدها مثبتة في قائمة المراجع والمصادر .

ولأن الموضوع في شأن المرأة حيث كانت الآراء الفقهية الواسعة الانتشار ، والتي تشكل في منظومة المرأة في الإسلام رصيدًا لما يزل يتحكم في كثير من شئونها ، فقد كان لزامًا على الباحثة أن تحاول فهم هذه الآراء الفقهية التي طالما استخدمت للاحتجاج على كيفية شكل الممارسة السياسية للمرأة ، وذلك لتتعرف على مدى اقترابها ، أو بعدها من حقيقة الممارسة السياسية التي تمت على أرض الواقع التاريخي . « ومما لا شك فيه أن الاطلاع على التراث الفقهي لازم في إغناء المصادر التي نأخذ منها لمعالجة قضايانا الراهنة ، ومنهجية التعامل مع الواقع ، إذ إن هذا الدور الذي يلعبه هذا التراث ليس دورًا هامشيًّا ، بل دورًا مركزًا يدخل في التركيب الحي الذي يشكل الأفراد والأمم نفسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا ..بيد أن التراث لا يدخل كاملًا في هذا المركب ، إذ تسقط أجزاء منه على جنبات التاريخ ، والذي يتبقى هو ذاك الجزء الذي يؤدي مصلحة ، أو يعبر عن حاجة [1] » .

ولما كان يحدث الإشكال بين ما كان يأتي به الرأي الفقهي في بعض الممارسات

---

(١) د/ فهمي جدعان : نظرية التراث ، ودراسات عربية وإسلامية أخرى : ١٨ ، وما بعدها ، بتصرف .

السياسية للمرأة وبين ما تدل عليه الممارسة السياسية الفعلية نفسها - وما أكثر ما كان يحدث ذلك - فلقد كان الاحتكام إلى أصول الفقه ، وذلك لما يقدمه لنا من فهم لمقاصد الشريعة وكيفية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الإجمالية ، تلك المقاصد التي كانت تُتَبَيَّن لنا واضحة في شكل الممارسة السياسية للمرأة في هذا العصر الذي ندرسه . ومن هذه الكتابات الفقهية التي اعتمدت عليها : بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ، وسبل السلام للصنعاني ، وفي أصول الفقه : الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي .

وهو فوائد تدخل فيما يمكن أن يسمى بما وراء المنهج .

الطبري ومصادره التي عرضت لها الدراسة

الطبري ومنهجه في عرض الروايات

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، الإمام العَلَم المجتهد ، عالم العصر ، أبو جعفر الطبري ، من أهل آمل طبرستان . ولد سنة ٢٢٤هـ ، طلب العلم بعد ٢٤٠هـ ، وأكثر الترحال ، ولقي نبلاء الرجال ، وكان من أفراد [١] الدهر ، علمًا ، وذكاءً ، وكثرة تصانيف ، قلَّ أن ترى العيون مثله . كان من كبار أئمة الاجتهاد . قال الخطيب : كان حافظًا لكتاب الله ، عارفًا بالقراءات ، بصيرًا بالمعاني ، فقيهًا في أحكام القرآن ، عالمًا بالسنن وطُرُقها ، صحيحها ، وسقيمها ، وناسخها ، ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ، عارفًا بأيام الناس ، وأخبارهم ، وله الكتاب المشهور « أخبار الأمم وتاريخهم » وكتاب « التفسير » . وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم مع عظيم ما يلحقه من الأذى والشناعات . توفي رحمه الله سنة ٣١٠هـ [٢] .

الواقع أن لتاريخ الطبري في هذه الدراسة مكانًا خاصًّا ، حيث كان أكثر اعتمادنا عليه خاصة في الروايات عن عصر الراشدين ، والروايات في أمر الفتنة على وجه الخصوص ، وهو ما يجعل فهم منهجه والبحث في رواته ضرورة من ضرورات هذه المباحث .

وأول ما يستوقفنا في هذا المنهج أن الطبري كان يأخذ أخباره عن مصادر متعددة ، ولذلك فإننا عند النظر في أحداث الفتنة عنده ، على سبيل المثال ، نجد أن الروايات تختلف في تحديد أسباب الفتنة ، وتختلف في تحديد المسئول عن قتل عثمان : أهي عائشة ، أمْ طلحة ، أمْ الزبير ، أمْ علي ، أمْ أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا ، أمْ أهل المدينة ، أمْ أصحاب عبد الله بن سبأ ... ، كما أنها تختلف في حقيقة العلاقة بين علي وعائشة ، وبين عثمان وعائشة ، وبين عليّ وعثمان ، وتختلف في الهدف الذي من أجله خرجت عائشة والزبير وطلحة إلى البصرة ، وتختلف في ذكر المقصود بحديث الحوأب ، والروايات جميعًا مسندة ، تسبقها سلسلة من الرواة . فأي الروايات يمكن للباحث أن يعتمدها في دراسته ؟.

---

(١) الفرد : هو المنقطع النظير الذي لا مثيل له في جودته . المعجم الوسيط .

(٢) انظر ترجمته في المصادر التالية : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٤/ ٢٦٧ : ٢٨٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٢/ ٢٦٠ ، ابن حجر : لسان الميزان : ٥/ ١٠٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٤/ ١٩١ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ١١/ ١٤٥ .

وإذا كان الطبري يحتاط لنفسه من هذه المسألة ، فيقول : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه أو يستبشعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا [١] » .

فالطبري إذن يضع المسئولية في أعناق من نقلَ إليه هذه الأخبار ، كما يضع مسئولية تصحيح الواقعة التاريخية ، وتحقيقها في أعناق الباحثين والدارسين . وهذا ما عبر عنه الأستاذ محب الدين الخطيب حين ذكر الطبري ، وابن عساكر ، وابن كثير ، وهم جميعًا من أصحاب هذا النوع من المصادر ، فقال : « وقد أثبت أكثرُ هؤلاء أسماءَ رواة الأخبار التي أوردوها ، ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه . وقد وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يُستَخرجُ منها تاريخنا ، وهذا ممكن وميسور إذا تولاه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع ، وله من الألمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ، ويجردها عن الذي لم يقع مكتفيا بأصول الأخبار الصحيحة عن الزيادات الطارئة عليها [٢] » .

« والحق أن محمد بن جرير الطبري كان له منهجه الخاص في اختيار الروايات ، وعرضها ، فهو خير من استفاد من منهج المحدثين في كتابة التاريخ ، فإنه لم يكن

---

(١) تاريخ الطبري : ١/ ٨ .

(٢) الشيخ محب الدين الخطيب : في تحقيقه للعواصم من القواصم : ١٧٩ ، وانظر قوله في مقال : « المراجع الأولى في تاريخنا » مشيرًا إلى تاريخ الطبري : « لا يمكن الانتفاع بما فيه من آلاف الأخبار إلا بالرجوع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل . وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ، ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف . ولا نعرف أمة عُنِيَ مؤرخوها بتمحيص الأخبار ، وبيان درجاتها ، وشروط الانتفاع بها كما عُنِيَ بذلك علماء المسلمين ، وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي . أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى رواتها ، ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر إلى الطبري : رواه في صفحة كذا ، من جزئه الفلاني ، يظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألوف الأخبار ، ولو أنهم تمكنوا من علم « مصطلح الحديث » وأنسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة الخبر ، لاستطاعوا أن يعيشوا في جوّ التاريخ الإسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غثّ الأخبار وسمينها ، ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها » . مجلة الأزهر : المجلد ٢٤ ، ج ٢ صفحة : ٢١٠ ، عدد : صفر ١٣٧٢هـ . وانظر أيضًا الأستاذ : فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي : ٨٥ .

مجرد جامع للروايات التاريخية التي بلغته أو نقلت إليه مشافهة أو كتابة ، وإنما كانت له مقاييسه في إيثار رواية على أخرى ، وتقديم خبر نقله راو معروف بالصدق على خبر نقله آخر لا يوثق بروايته ، كذلك كان له منطقه الذي سار على ضوئه في ذكر بعض الروايات ، وترك أخرى لما فيها من بشاعة على حد تعبيره [١] » .

ولقد يخيل إليَّ أنه لو لم يقدم لنا الطبري ، ومن على مثل منهجه ، مصادر الروايات الضعيفة الإسناد والمتن ، والتي شاعت في المصادر الأخرى ، دون أن يذكر معها إسنادها ، ويُعَرِّفنا بأصحابها ونَقَلَتِها لما كان من الممكن الاستفادة من جهد علماء الرجال ، في رفض هذه الروايات ، وبيان زيفها ، سواء منها ما كان عندهم ، أو عند غيرهم ممن لم يكن معنيًّا بالإسناد ، ولما كان من اليسير علينا الوصولَ إلى آراء قويةٍ نستطيع – بفضل الله – الوصول إليها من خلال مقارنة الروايات ، خاصةً إذا ما اطلعنا على هذه الروايات الضعيفة في أنواع المصادر الأخرى التي لا تعنى بمسألة الإسناد « ومن أسند لك فقد أحالَكَ » ، ولهذا قيل : « إنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل [٢] » .

على الرغم من هذا الاحتياط ، وذلك التنبيه الذي ذكره الطبري ، فإن الروايات التاريخية ظلت تُتناول على عِلاتها دون نظر في حال رواتها ، أو في صحة الروايات بمقارنتها بالروايات الأخرى المذكورة في نفس الحدث ، وتكاد مسألة الدور السياسي للمرأة عامة ، والدور السياسي لها في أحداث الفتنة خاصة ، أن تكون أرضا بكرا في هذا الأسلوب من الدراسة – حسبما أعلم – حيث درج كثير من كتَّابنا على تناول الروايات على غير منهج واضح ، أو على أساس تبني الروايات التي يرتضيها الهوى الشخصي للباحث ، أكثر مما يؤدي إليه النظر والبحث . وهو الأمر الذي لبَّسَ على الأمة كثيرا من قضاياها الفكرية التي لم يتحر في فهمها وتأصيلها الصحيح من الأخبار .

---

(١) راجع : أ . د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين : ٣ .

(٢) الأستاذ : فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي : ٧٢ .

الترجيح بين الروايات في تاريخ الطبري

وفي محاولتنا للترجيح بين روايات الطبري المتناقضة مع بعضها البعض ، ينبغي أن نؤكد على أننا لا نستطيع الترجيح بالتعامل مع المتن فقط ، وإنما ينبغي أن نتعامل - وبنفس المستوى - مع الإسناد .

وفي التعامل مع الإسناد تكون وسيلتنا الأولى هي كتب الجرح والتعديل ، وهي كتب تقيس الرجال بمقياس شديد الصرامة [١] ، ذلك أن علم الرواية والإسناد قد وضع أساسا ليقاس بمقتضاه ما روي من حديثٍ نسبه رُواته إلى رسول الله ﷺ ، من قول أو فعل ، فالأمر يتعلق بإرساء قواعد الدين ، وتأصيل أصول الإسلام .

وعليه فإن تطبيق هذا النهج المتشدد إن كان له ما يبرره عند إرساء قواعد الدين ، فلعله أن يكون تعنتا أن نطبقه بكل تفاصيله على المرويات التاريخية ، ذلك أننا حين نبحث اليوم عن رواة هذه الأخبار في مصادر وضعت في جملتها أصلًا لرواة الحديث إنما نسلك - أردنا أو لم نرد - ذلك النهج المتشدد ، ومن هنا وجب على الباحث أن يتعامل بشيء من المرونة مع رواة المادة التاريخية ، خاصة إذا ما علمنا أن قدرًا لا يستهان به من الروايات قد وصلنا من طريق بعض ممن لم يوثقهم علماء الجرح والتعديل .

ولا يعني ذلك التساهل في توثيقها وتحقيقها ، وإنما يعني بذل غاية الجهد في محاولة التوثيق من جهات أخرى غير مسألة السند وحدها ، فهذه الأحداث التي جاءت بها المرويات هي في نهاية التحليل سوابق في التجربة الإسلامية لا يزال المسلمون يستمدون منها أصول تعاملهم مع القضايا الحديثة ، خاصة وأن القائمين بهذه السوابق التاريخية هم معدن [٢] الدين ومُتَلَقُّوه الأول ، فالصلة بين هذه المسائل التاريخية ، وبين الأحكام التشريعية صلة غير بعيدة ، بل هي في رأيي صلةٌ وثيقة ، لمقام الصحابة واعتبار أعمالهم وتصرفاتهم في المسائل الشرعية ، حيث إنهم لم يكونوا ليفعلوا الفعل لو لم يكن لديهم فيه من الله أو من رسوله نور وبرهان .

---

(١) كان علماء الحديث أنفسهم يعترفون بهذه الصرامة ، فلقد روي أن ابن أبي حاتم الرازي كان يقرأ كتابه الجرح والتعديل على الناس ، فقال له يحيى بن معين : « إنا لنطعن على أقوام لعلهم حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة ! » ، فبكى عبد الرحمن ، وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب من يده . السبكي : قاعدة في الجرح والتعديل : ٥٣ الهامش . ولعل هذا يشير إلى اتجاه الطعن إلى الرواية عنهم ، لا إلى أشخاصهم .

(٢) معدن الدين : مركز كل شيء معدنه . لسان العرب .

وهو قول يذهب إلى عكس ما ذهب إليه البعض من القول بأن الحديث مصدر من مصادر التشريع تقام عليه الأحكام ، فلابد من توثيق رواياته أو تضعيفها ، أما التاريخ فلا تقام أحكام شرعية عليه [١] . فالشطر الأول صحيح بلا جدال ، أما الشطر الثاني منه فإنه لا يصح تمامًا على الفترة الأولى من صدر الإسلام ، حيث مرجعية أفعال الصحابة ، التي تترجمها الأحداث التاريخية [٢] .

لعل هذا هو السبب الذي جعل العلماء يشترطون في المؤرخ ما يشترطونه في المحدِّث من صفات العقل والضبط والإسلام والعدالة ليكون كل واحد منهما معتمَدًا في أمر الدين وأمينًا فيه [٣] . وهذه الصلة التي نقول بها بين الأحداث التاريخية ، والأحكام الشرعية لا وجود لها إلا في التاريخ الإسلامي ، وإلا في هذه القرون الأولى ، على كل حال .

وتعني هذه المرونة أيضًا أننا نتعامل مع المادة التاريخية واضعين في اعتبارنا أن كمًّا لا يستهان به من هذه المادة قد وصلنا من خلال المجروحين بمنهج أهل الحديث ، والذين ذهب بعضٌ من علية علمائنا - رغم ذلك - إلى تقرير حقيقة أنهم عُمُد في التاريخ ، وإن جرحوا بمنهج أهل الحديث [٤] .

---

(١) ذكر ذلك الدكتور الحوفي في معرض تعليله لظاهرة عدم تعديل الطبري أو تجريحه لرواة الأخبار التي أوردها . انظر : الحوفي : الطبري : ٢٠٤ . وهو تعليل غير كاف لأن الطبري سلك نفس المسلك في تفسيره للقرآن الكريم وهو متعلق بالتأكيد بأمور التشريع ! .

(٢) قضايا تاريخ القرن الأول الهجري ، والتي نستمد منها فهم الأحكام التشريعية ، بل نستمد منها كثيرًا من الأحكام الشرعية نفسها أكثر من أن تحصى ، وهي تحتاج دراسات قائمة بذاتها .

(٣) راجع ما ذكره الكافيجي عن شروط المؤرخ في : المختصر في علم التاريخ : ٣٣٦ ، ٤٨٢ . ضمن كتاب روزنتال :علم التاريخ عند المسلمين ، وقارنه بما ذكر في شروط المحدث : د/ محمد علي قاسم العمري : دراسات في منهج النقد عند المحدثين : ٢٥٠ ، وبما ذكره ابن الصلاح من شروط فيمن يحتج بروايته . مقدمة ابن الصلاح : ١٠٤ ، وما بعدها ، و د/ سليمان الخطيب فكرة التاريخ بين السخاوي والكافيجي : ٨٥ . وقد استطرد الكافيجي فقال : فإن قلتَ ، فهل يجوز له أن يروي في تاريخه قولًا ضعيفًا ، قلتُ : نعم ، يجوز له ذلك في باب الترغيب والترهيب والاعتبار ، مع التنبيه عل ضعفه ، لكن لا يجوز له ذلك في ذات الباري ﷻ وفي صفاته ، ولا في الأحكام ... . ولابد له من مستند في تاريخه . وإن قلتَ : فما المستند ، قلتُ المستند هو ما يصح له من أجله أن يروي ما رواه ويقبل منه ، فإن لم يحصل له مستند له لم يجز له شيء من ذلك شرعًا .

(٤) ويُلاحظ أنه لم يكن من العقل ، ولا من المنهجية أن نتعامل بحرفية منهج المحدثين مع رواة روايات الفتوح والفتنة - على سبيل المثال - حيث لم تصلنا تفاصيل هذه المسائل إلا من طريقهم ، وما كان أخذنا برواياتهم إلا لما رأينا من كونها لا تتعارض مع الروايات الصحيحة في المصادر الأخرى ، ولما وجدنا من اتساقها مع بعضها البعض ، وانسجامها مع المعروف من أخلاق الصحابة وعدالتهم ، كما سوف نرى .

من أمثال هؤلاء الرواة سيف بن عمر . ولعله من المناسب أن أشير إلى أن الكلمة الفصل في تعديل هذا الراوية وتجريحه لم تُقَل بعد ، فما جاء في جرحه لا يكاد يتسق مع روايته المعتدلة ، والمتكاملة ، في غير تناقض ذي بال ، لأغلب ما جاءت فيه روايته [١] .

تاريخنا الإسلامي - على كل حال - في جملته محكم مترابط ، كثير وجوه الإسناد ، ولا يعيبه ضعف بعض أسانيده ، ومن القواعد المعمول بها أن الحديث الضعيف عند تعدد الطرق يرتقي عن الضعف إلى الحُسن ، ويصير مقبولًا معمولًا به [٢] . وسوف يضبط ميزان هذه المسألة - على كل حال - أن يتم التحليل الشامل للروايات ، ومقارنتها بعضها ببعض ، وأن تكون أعيننا على كتب التفسير والحديث ، وكتب الرجال في الوقت ذاته ، فهي كتب ستضعنا ، في كثير من الحالات عند الحد الصحيح في التعامل مع شخصيات هذه الروايات ورواتها ، كما سوف يتبين لنا عند دراسة الضابط الثاني وهو عدالة الصحابة .

ينبغي أن نبدأ أولا باستعراض لأهم رواة الطبري ، والنظر في موقعهم من الصدق والتثبت والأمانة في النقل ، وما إذا كان لبعضهم نزعات حزبية أو مذهبية قد يجنح معها إلى الهوى ، حتى نكون عند دراسة الأحداث أو الاطلاع عليها ملمين بنواحي القوة والضعف في هذه الأخبار .

---

(١) راجع الآتي في الحديث عنه تفصيليا .

(٢) محمد جمال الدين القاسمي : قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ٩ ، نقلًا عن أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٦١ . وقد أشار الأستاذ أحمد عادل كمال في المرجع السابق نفسه إلى أن ضعف الراوي لا يعني أنه كذاب ، وأن الراوي الذي عرف عنه الكذب قد يصدق أحيانًا .

أهم مصادر الطبري التي تعاملت معها الدراسة

أبو مخنف أما أبو مخنف ، لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي [١] - توفي سنة ١٥٧ هـ - فقد كان له عدد من المؤلفات عن عصر الراشدين ، منها كتاب « الردة » ، و « مقتل عثمان » ، و « أخبار محمد بن أبي بكر » ، و« فتوح الإسلام » ، و« صفين » ، وكتاب « فتوح العراق » ، وكتاب « مقتل عليّ ﷺ » ، وغيرها من المؤلفات [٢] .

وتشيع أبي مخنف محل إجماع بين السنة والشيعة [٣] ، ولم يشذ عن هذا الإجماع سوى ابن أبي الحديد الذي نفى عنه التشيع [٤] ، ولكن المامقاني ، وهو من شيوخ الشيعة قال : إن كلام ابن أبي الحديد لا يُعتدُّ به ، وقال : « وبالجملة فكون الرجل شيعيا إماميًّا مما لا ينبغي الريب فيه » [٥] .

ولقد أجمع نقاد الحديث على تضعيفه ، بل وعلى تركه ، قال ابن معين : « ليس بثقة » ، وقال مرة : « ليس بشيء [٦] » ، وقال ابن عدي [٧] : « هذا الذي قاله ابن

---

(١) راجع ترجمته في : التاريخ الكبير : ٧/ ٢٥٢ ، سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٠١ ، الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٤٦ ، ابن قتيبة : المعارف ٢٣٤ ، وقد ذكر أن جده مخنف بن سليم قد روى عن النبي ﷺ ، وصحبه . الحموي : معجم الأدباء ٤١/١٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٦/ ٣٥ ، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ٩٧/١ .

(٢) راجع في مؤلفاته : يحيى بن إبراهيم بن عليّ اليحيي : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ٤٧ : ٤٥ . وقد بلغت عنده خمسًا وأربعين مؤلَّفًا . وانظر : ابن النديم : الفهرست : ١٢٩ ، الزركلي : الأعلام : ١/ ٢٤٥ ، سيزكين : تاريخ التراث العربي ٢/ ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) انظر في كتب أهل السنة ما مر بالهامش رقم (١) ، والكامل لابن عدي ٧/ ٢٤١ ، طبعة الكتب العلمية ، وميزان الاعتدال للذهبي : ٥/ ٥٠٨ طبعة دار الكتب العلمية ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٨/ ٢٠٢ . ومن الكتب الشيعية : تنقيح المقال للمامقاني : ٣/ ٤٤ ، أغا برزك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة : ١/ ٣١٢ .

(٤) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة :١/ ١٤٧ . (٥) المامقاني : تنقيح المقال : ٣/ ٤٤ .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٠٢ ، وانظر : تاريخ يحيى بن معين : ٢/ ٥٠٠ ، نقلا عن اليحيي : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ٤٣ .

(٧) ابن عدي : هو الإمام الحافظ الناقد ، الجوّال ، عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن القطان الجرجاني ، صاحب كتاب الكامل في الجرح والتعديل . قال الذهبي عنه : يذكر في كتاب « الكامل » كل من تُكُلِّم فيه بأدنى شيء لو كان من رجال « الصحيحين » ، ولكنه ينتصر له إذا أمكن ، ويَروي في الترجمة حديثًا أو أحاديث مما استنكر للرجل . وهو منصف في الرجال بحسب اجتهاده . ولد سنة : ٢٧٧هـ ، وتوفي سنة ٣٦٥ هـ . راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٦/ ١٥٤ .

معين يوافقه عليه الأئمة » ، وقال : « حدث بأخبار من تقدم من السلف الصالحين ولا يبعد منه أن يتناولهم ، وهو شيعي محترق ، صاحب أخبارهم ، وإنما وصفته للاستغناء عن ذكر حديثه [١] » ، وقال الدارقطني [٢] : « أخباري ضعيف [٣] » وقال الذهبي وابن حجر : « إخباري تالف لا يوثق به [٤] » .

والذي يلفت الانتباه أنهم لم يجرحوه في الحديث فقط ، وإنما جرحوه في الأخبار أيضًا ، قال الدارقطني : أخباري ضعيف . ولعلنا لأجل ذلك لم نر الطبري خرج له شيئا من أحداث الفتنة على عهد عثمان [٥] ، وإن كان قد خرج له الكثير من الروايات على عهد علي ﷺ ، وهي روايات قد اشتملت على غرائب وأمور منكرة [٦] ، ظهر فيها تشيعه الواضح وقوله بالوصية لعلي بن أبي طالب [٧] ، وروايته للروايات التي تقدح في خروج السيدة عائشة رضي الله عنها وإظهار هذا الخروج كمعصية لله ﷻ ، وكذلك روايته للروايات التي تسيء إلى عثمان ﷺ[٨] .

وإذا كان من الغريب الذي أُشير إليه في هذه العجالة هو أن أبا مخنف قد قُرِّظَ من المستشرقين أشد التقريظ ، حتى قالوا : إنه لو لم يكتب أبو مخنف لخسر التاريخ خسارة

---

(١) ابن عدي : الكامل: ٦/ ٢١١٠ .

(٢) الدارقطني : هو الإمام الحافظ المجوِّد ، شيخ الإسلام ، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي ، من أهل محلة دار القطن ببغداد ولد سنة ٣٠٦ هـ . قال الذهبي : كان من بحور العلم ، ومن أئمة الدنيا ، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله ، مع التقدم في القراءات وطرقها ، وقوة المشاركة في الفقه ، والمغازي و أيام الناس ، وغير ذلك . راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٤٤٩ : ٤٦١ . (٣) الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٤٦ .

(٤) الذهبي : ميزان الاعتدال : ٥/ ٥٠٨ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية . وقال مثل ذلك ابن حجر في لسان الميزان ٤/ ٥٩٣ ، ط ١ لدار الكتب العلمية .

(٥) وإنما خرج له روايتين فقط اشتملتا على موضوعات عدة لا صلة لها بمسألة الدور السياسي للمرأة في أحداث الفتنة ، أو بالدور السياسي للمرأة عامةً . انظر تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٧١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ . ولعل تفسير هذا الموقف للطبري هو أنه قد وجد رواية أوثق ، وأكثر تفصيلًا من رواية أبي مخنف ، وهي رواية سيف .

(٦) انظر هذه الروايات مجتمعة في : اليحيى : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ١٩١ : ٤٨٤ .

(٧) معنى الوصية عندهم أن رسول الله ﷺ أوصى ونص على استخلاف علي ﷺ بعده ، وأن أكثر الصحابة ﷺ ضلوا بتركهم العمل بهذه الوصية ، وأنهم ظلموا بمبايعة غيره بالخلافة . فراحوا يروون المثالب ، ويلصقون المعايب في الصحابة ، ومن هنا نشأت عندهم الاستهانة بالصحابة ، حتى أضاع هذا الاتجاه حب الصحابة عند أتباعه ، مما اقتضى التنبيه على أهمية محبتهم في الدلالة على حسن الاعتقاد . راجع : الشهرستاني : الفرق بين الفرق ٣٥ ، الأشعري : مقالات الإسلاميين ٦٥ .

(٨) عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ١٣٣ .

كبيرة ، مع نفيهم شبه التام لأية شبهة من شأنها تزييف الوقائع تزييفًا إيجابيًا [١] .

فإنه من الموضوعية أن نوضح أن اتفاق بعض العلماء على تشيعه لا يمنع الأخذ بروايته عندما لا تتناقض مع الروايات الصحيحة [٢] ، ولعله لأجل ذلك اعتمد الطبري عليه في تاريخ فترة طويلة من تاريخ الدولة الإسلامية تمتد من معركة صفين إلى أواخر الدولة الأموية [٣] .

وإذا كان من الواضح للمطالع لرواياته أنه كان يأخذ رواياته عن مصادر شيعية غير جديرة بالثقة ، وأنه كان يأخذ عن محمد بن السائب الكلبي [٤] ، والواقع أن الذهبي لم يذكر لحكمه على أبي مخنف بأنه أخباري تالف سببًا صريحًا ، إلا أنه قال : روي عن الصعق بن زهير [٥] ، وجابر الجُعْفي [٦] ، ومجالد [٧] وهو ما يكاد يلقي بالتهمة

(١) فلهوزن : الدولة العربية : المقدمة : ب ، ش .

(٢) يرى ابن حجر أن انتماء أحد الرواة إلى مذهب سياسي ليس مبررًا لترك روايته ، حتى في مجال الحديث ، ويضع شروطًا لترك روايتهم . انظر :الذهبي : ميزان الاعتدال : ١/ ١٠ ، ١١ .

(٣) ولعل هذا كان نتيجة أنه لم يجد روايات أخرى تغطي الجوانب التي تناولتها رواية أبي مخنف ، إضافة إلى السبق التاريخي الذي حظي به بين مؤرخي العراق .

(٤) محمد بن السائب الكلبي : الكوفي ، النسابة ، الأخباري . قال الثوري : اتقوا الكلبي ، فقيل : فإنك تروي عنه ، قال : أنا أعرف صدقه من كذبه . وقال يزيد بن أبي زريع : حدثنا الكلبي ، وكان سبئيًا . قال الأعمش : اتق هذه السبئية ، فإني أدركت الناس ، وهم يسمونهم الكذابين . وقال ابن حبان : كان الكلبي سبئيًا من أولئك الذين يقولون إن عليًا لم يمت ، وإنه راجع إلى الدنيا ، ويملؤها عدلًا ، كما ملئت جورًا ... وإن مذهبه في الدين ، ووضوح الكذب فيه لأظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه . و عن ابن معين قال : ليس بثقة . وقال الجوزجاني وغيره : كذاب . وقال الدارقطني وجماعة :متروك . انظر:الذهبي :سير أعلام النبلاء : ١٠/١٠١ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ٣/ ٥٥٦ ، البخاري : التاريخ الكبير : ١/ ١٠١ ، البخاري : كتاب الضعفاء الصغير : ١٠٥ ، ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٧٨ .

(٥) لم أعثر له على ترجمة .

(٦) جابر بن يزيد الجُعفي ، أبو عبد الله الكوفي ، قال النسائي : متروك ، وذكره أبو زرعة في المدلسين : ٣٨ ، وذكره البخاري في الضعفاء الصغير : ٢٩ ، وفي التاريخ الكبير : ٢/ ٢١٠ والذهبي في : المغني في الضعفاء: ١/ ١٤٩ ، وقال ابن حجر في تقريب التهذيب ١/ ١٥٤ ، وتهذيب التهذيب ٢/ ٤٦ : ضعيف رافضي .

(٧) مجالد بن سعيد بن عمير الكوفي الهمداني : قال الذهبي : ولد في أيام جماعة من الصحابة ، ولكن لا شيء له عنهم ، ويدرج في عداد صغار التابعين . وفي حديثه لين . وقال يحيى بن معين : لا يحتج به . وقال ابن سعيد الأشج : شيعي ، قال عمرو بن علي: سمعت يحيى بن سعيد يقول لعبيد الله : أين تذهب ، قال أذهب إلى وهب بن جرير ، أكتب السيرة – يعني عن أبيه عن مجالد – قال : تكتب كذبًا كثيرًا . لو شئت أن يجعلها مجالد كلها عن الشعبي عن مسروق ، عن عبد الله ، فعل . وقال البخاري في الضعفاء الصغير : ١١٦ : كان يحيى القطان يُضَعِّفه ، وكان ابن مهدي لا يروي عنه عن الشعبي ، وقيس بن أبي حازم ، وقال أحمد : ليس بشيء . الذهبي : ميزان الاعتدال : ٦/ ٢٣ ، ٢٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٦/ ٢٨٥ .

على عاتق المصادر التي أخذ عنها ، غير أن هناك دراسة حديثة [١] قد انتهت إلى عدة نتائج في شأن أبي مخنف ، كان أهمها إجماع العلماء على ترك أبي مخنف ، وعدم الاعتبار به ، وثبوت تشيع أبي مخنف ، وقد أكدت ذلك مروياته بما أضفاه عليها من الصبغة الشيعية ، و تعمد أبي مخنف التزوير ، والتحريف في الروايات .

ولعل الفائدة التي نفيدها من هذه المرويات التي ذكرها الطبري عن أبي مخنف تأتي من حيث هي تأريخ لأفكار الشيعة ومعتقداتهم ، لا من حيث هي تأريخ حقيقي للأحداث . وهو ما يؤكده فلهوزن بقوله : إنه أثبت حجة في تاريخ الشيعة [٢] .

وفيما يتصل بدور المرأة في أحداث الفتنة على سبيل المثال ، أخرج له الطبري عدة روايات ، منها على سبيل المثال :

الرواية التي فيها أن أم سلمة رضي الله عنها قامت لعلي فقالت : « يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصي الله عز وجل وأنك تقبله مني لخرجت معك ، وهذا ابني عمر [٣] – والله لهو أعز علي من نفسي– يخرج معك فيشهد مشاهدك » . فخرج فلم يزل معه ، واستعمله على البحرين ثم عزله [٤] .

والرواية التي فيها الخلاف بين والي البصرة وأم المؤمنين عائشة ومن معها ، وأمر عائشة بنتف لحية عثمان بن حنيف ، وضربه [٥] .

والرواية التي فيها المكاتبة بين عائشة وزيد بن صوحان ، وإنكار زيد لخروجها ، ونسبة المخالفة الشرعية لها [٦] .

والرواية التي قال فيها : « وأمر على محمد بن أبي بكر فضرب عليها – يعني عائشة – قبة ، وقال انظر ، هل وصل إليها شيء ، ... » وهي روايات سنعرض لها جميعًا في ترتيبها من الأحداث وسوف يتبين لنا عدم مصداقيتها ، بحيث يتأكد كلام العلماء في تجريح رواياته .

---

(١) يحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري . ماجستير منشور .
(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ٩٨ .
(٣) عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، ربيب رسول الله ﷺ ، مات في خلافة عبد الملك . ابن حجر : الإصابة ٢/ ٥١٩ .
(٤) تاريخ الطبري : ٤/٤٥١ .
(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٨ .
(٦) تاريخ الطبري ٤/٤٨٣ .

الواقدي وهو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي ، مولاهم ، المديني ، صاحب التصانيف والمغازي ، العلامة الإمام أبو عبد الله . ولد بعد العشرين ومائة ، وطلب العلم عام بضعة وأربعين . قال محمد بن سعد : « كان الواقدي مولى لبني أسلم ، ثم بني سهم ، بطن من أسلم ، ولي قضاء بغداد للمأمون أربع سنين ، وكان عالما بالمغازي ، والسيرة ، والفتوح ، والأحكام ، واختلاف الناس ، وقد فسر ذلك في كتب استخرجها ووضعها ، وحدَّث بها . أخبرني أنه ولد سنة ثلاثين ومائة . ومات سنة سبع ومائتين » [١] . و سمع من صغار التابعين ، فمن بعدهم بالحجاز والشام وغير ذلك [٢] . وقال الخطيب : هو ممن طبَّق ذكره شرق الأرض وغربها ، وسارت بكتبه الركبان في فنون العلم من المغازي والسير ، والطبقات ، والفقه ، وكان جوادا كريما مشهورا بالسخاء [٣] .

وقال محمد بن سلام الجمحي [٤] : الواقدي عالم دهره [٥] . وقال إبراهيم الحربي [٦] : الواقدي أمين الناس على أهل الإسلام ، وكان أعلم الناس بأمر الإسلام . قال : فأما الجاهلية فلا يعلم فيها شيئا [٧] . وقال مصعب الزبيري : حدثني من سمع عبد الله بن المبارك [٨] يقول : « كنت أقدم المدينة ، فما يفيدني ويدلني على الشيوخ إلا الواقدي [٩] » . وقال أحمد بن علي الأبار [١٠] : سمعت مجاهد

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٧ . (٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٤ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ٣/٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٧ .

(٤) محمد بن سلام الجمحي : العلامة ، أبو عبد الله ، كان أخباريًّا ، أديبًا بارعًا ، صاحب كتاب : « طبقات الشعراء » حدث عن مبارك بن فضالة ، وحماد بن سلمة ، وأبي عوانة وطبقتهم ، وحدَّث عنه أحمد ابن زهير ، وثعلب ، والأبار ، وعدد كثير . ت: ٢٣٠هـ . راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٦٥١ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ٥/٣ .

(٦) إبراهيم الحربي : هو الشيخ الإمام ، الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن إسحاق ابن إبراهيم بن بشير البغدادي الحربي ، صاحب التصانيف . قال عنه أبو بكر الخطيب : « كان إمامًا في العلم ، رأسًا في الزهد ، عارفًا بالفقه ، بصيرًا بالأحكام ، حافظًا للحديث ، مُمَيِّزًا لعلله ، قَيِّمًا بالأدب ، جمَّاعةً للغة ، صنف غريب الحديث » ، وكتبًا كثيرة . راجع : أبو بكر الخطيب : تاريخ بغداد : ٦/ ٢٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٣٥٦ : ٣٧٢ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٨ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ٥/٣ .

(٨) عبد الله بن المبارك : المروزي ، مولى بني حنظلة ، ثقة ، ثبت فقيه عالم جواد مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير ، مات سنة ٨١هـ ، وله ثلاث وستون ، اجتمعت رواياته في الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٥٢٧ . (٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ٩/٣ .

(١٠) الأبّار : قال الذهبي : هو الحافظ المتقن الإمام الرباني ، أبو العباس ، أحمد بن علي بن مسلم ، من علماء الأثر ببغداد .... جمع وصنف وأرّخ . جمع حديث الزهري ، ووثقه الدارقطني ت : ٢٩٠ هـ . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٤٤٣ .

ابن موسى [١] يقول : ما كتبنا عن أحد أحفظ من الواقدي [٢] . وقال إبراهيم الحربي : سمعت مصعب بن عبد الله يقول : الواقدي ثقة مأمون . وقال أبو بكر الصاغاني [٣] : لولا أنه عندي ثقة ما حدَّثت عنه [٤] .

وذكر الذهبي أنه كانت للواقدي في وقته جلالة عجيبة ، ووقع في النفوس ، بحيث إن غير واحد [٥] سئل عنه ، فقال : أنا أُسأل عن الواقدي ، الواقدي يسأل عني ما كان يفيدنا الشيوخ والحديث إلا الواقدي ، وقال : « سألت ابن نمير عنه ، فقال : أما حديثه هاهنا فمستو ، وأما حديث أهل المدينة ، فهو أعلم به [٦] » .

وإذا كان هذا هو رأي هؤلاء العلماء الكبار في الواقدي ، فإن العجيب أن يكون هناك رأي يخالفه تمامًا لغيرهم من العلماء الكبار أيضًا : قال أبو داود السجستاني [٧] : أخبرني من سمع عن علي بن المديني يقول : روى الواقدي ثلاثين ألف حديث غريب . وروى عبد الله بن علي بن المديني ، عن أبيه [٨] ، قال : عند الواقدي عشرون ألف حديث لم أسمع بها ، ثم قال : لا يروي عنه ، وضَعَّفه [٩] . وعن يحيى بن معين ، قال : أغرب الواقدي عن رسول الله ﷺ ، عشرين ألف حديث .

---

(١) مجاهد بن موسى الخوارزمي ، وهو الختُّلي ، أبو علي ، نزيل بغداد . ثقة ، أخرج له مسلم في صحيحه ، وله عند سوى الشيخين ، راجع ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/ ١٥٩ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ١١/٣ .

(٣) أبو بكر الصاغاني : محمد بن إسحاق ، نزيل بغداد ، ثقة ثبت . أخرج له مسلم . راجع ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٥٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦١ .

(٥) منهم : معن بن عيسى ، وأبو عامر العقدي ، وعبد الله بن المبارك .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ١١/٣ .

(٧) أبو داود السجستاني : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي ، ثقة حافظ ، مصنف السنن وغيرها من كبار العلماء . راجع : ابن حجر :تقريب التهذيب : ١/ ٢٨٣ ، تهذيب التهذيب : ٤/ ١٦٩ .

(٨) علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح ، السعدي ، مولاهم ، أبو الحسن بن المديني البصري ، ثقة ثبت إمام ، أعلم أهل عصره بالحديث وعلله ، حتى قال البخاري : « ما استصغرت نفسي إلا عند علي بن المديني » . وقال فيه شيخه ابن عيينة : « كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني » ، وقال النسائي : « كأن الله خلقه للحديث » . خرج له البخاري في صحيحه ، والترمذي والنسائي وأبو داود في سننهم ، وابن ماجه في التفسير . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦٩٧ ، تهذيب التهذيب : ٧/ ٣٤٩ .

(٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : ١٢/٣ .

وذكره البخاري ، فقال : سكتوا عنه ، تركه أحمد وابن نمير [١] ، وقال أيضًا : « ما عندي للواقدي حرف ، وما عرفت من حديثه ، فلا أقنع به [٢] » .

قال مسلم وغيره : « متروك الحديث » . وقال النسائي : ليس بثقة [٣] ، ولقد ذكر المعروفين بوضع الحديث على رسول الله ﷺ ، فكان منهم الواقدي [٤] . وقال أبو بكر الخطيب : « كان الواقدي مع كثرة حفظه لا يحفظ القرآن ، وكان المأمون يقول فيه : هذا رجل يحفظ التأويل ، ولا يحفظ التنزيل [٥] » .

قال الشافعي ، وابن حنبل : كُتُب الواقدي كذب [٦] ، وذكر النَّسائي في « الكنى » عن إسحاق قوله : هو عندي ممن يضع الحديث ، وقال أبو داود : لا أكتب حديثه [٧] .

ولقد يتبين للبحث أن الذين عدَّلوا الواقدي كانوا من أهل زمانه الذين باشروه ، بينما الذين رفضوه كانوا من أهل التحقيق ، والبحث العلمي ، وهو ما يجعلني أقول بأن المتهم هو روايته ، لا شخصه ، والذي يعنينا في المقام البحثي هو الرواية – بلا شك – ولعل هذا هو ما جعل ابن كثير يقول عنه في شأن المغازي : « والواقدي » – رَحِمَهُ اللَّهُ – عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالبًا ، فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق في نفسه ، مكثار [٨] ، وجعل الذهبي يقول عنه : هو أحد أوعية العلم ، على ضعفه المتفق عليه [٩] .

في مجال التقييم العلمي قال عنه الذهبي : جمع ، فأوعى ، وخلط الغث بالسمين ، والخرز بالدر الثمين ، فاطَّرحوه لذلك . ومع هذا فلا يستغنى عنه في

---

(١) ابن نمير : هو عبد الله بن نُمَيْر ، الهمداني ، أبو هشام الكوفي ، ثقة ، صاحب حديث ، من أهل السنة ت : ٩٩هـ ، وله ٨٤ عامًا . اجتمعت روايته في الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٥٤٢ ، تهذيب التهذيب : ٦/ ٥٧ .

(٢) البخاري : التاريخ الكبير: ١٧٨/١ الذهبي : سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٦٣ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٧ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦٣ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦١ .

(٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦٢ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦٣ .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية : ٣/ ٢٣ . وذكر ابن كثير : « أنه قد بسط القول في عدالته ، وجرحه في كتابه : التكميل في معرفة الثقات ، والضعفاء ، والمجاهيل » .

(٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٤ .

المغازي ، وأيام الصحابة وأخبارهم [١] . وقال : لا شيء للواقدي في الكتب الستة إلا حديث واحد ، عند ابن ماجه [٢] ، قال : حدثنا ابن أبي شيبة ، حدثنا شيخ لنا ، فما جسر ابن ماجة أن يفصح به ، وما ذاك إلا لوهن الواقدي عند العلماء [٣] .

ثم ذكر الذهبي « أنه قد تقرر أن الواقدي ضعيف ، يُحتاج إليه في الغزوات ، والتاريخ ، ونورد آثاره من غير احتجاج ، أما في الفرائض فلا ينبغي أن يذكر ، فهذه الكتب الستة ومسند أحمد وعامة من جمع في الأحكام ، نراهم يترخصون في إخراج أحاديث أناس ضعفاء ، بل ومتروكين ، ومع ذلك لا يخرجون لمحمد بن عمر شيئًا ، مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفه يُكتَب حديثه ، ويُروَى ، لأني لا أتهمه بالوضع ، وقول من أهدره فيه مجازفة من بعض الوجوه ، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه ، كيزيد ، وأبي عبيد ، والصاغاني ، والحربي ، ومعن ، وتمام عشرة محدثين ، إذ قد انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس حجة ، وأن حديثه في عداد الواهي ، رحمه الله[٤].

والواقع أننا – رغم ما قاله ابن كثير من صدقه في نفسه ، وما قاله الذهبي من عدم اتهامه للواقدي بالوضع – لا نستطيع الجزم بأنه لم يكن ممن يضعون الحديث ، ففي مجال النظر في رواياته وجدنا أن احتمال الوضع عنده لم يكن منتفيًا تمامًا [٥] .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٥٤ .

(٢) سنن ابن ماجة :حديث رقم ١٠٩٥ في إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال على المنبر : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته » .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء :٩/٤٦٤ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦٩ . وانظر أيضًا : ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١/ ٤١١ ، وانظر ابن تيمية : الصارم المسلول : ٧٩ ، الدهلوي : مختصر التحفة الاثني عشرية : ٣٢١ ، ومقدمة ابن الصلاح : ١٠٦ ، ١٠٧ ، وانظر ما قاله الأستاذ عرجون : محمد رسول الله ﷺ : ١/ ٣٩٧ : الواقدي معروف بالضعف ، لا يقبل الجهابذة من المحدِّثين روايته إلا إذا اعتضدت بروايات الثقات . وانظر أيضًا د/ إبراهيم شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ : ٦٠ ، د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين : ١٠ .

(٥) في مبحث للطالبة (غير منشور) عن قتل النساء لأسباب سياسية على عهد النبي ﷺ ، أوضحت الدراسة أن الرواية التي تقول بأن هندًا بنت عتبة كانت ممن أهدر الرسول دماءهم في فتح مكة ، هي من موضوعات الواقدي . وقد ارتبط عندنا القول بوضعه لهذه الرواية بأنه كان يجامل الخلفاء العباسيين بثلب من كانت بينهم وبينه عداوة أو منافسة وقد كان متقدما عندهم ومعدودا في الخاصة من ندمائهم كان أيضا معلما لأبنائهم ، وليس أقوى في ذلك من رواية تقدح في أم معاوية مؤسس الدولة الأموية . راجع ذلك في مكانه من الدراسة المذكورة . وقد أشار الأستاذ محمد فتحي عثمان أيضًا في كتابه : المعالم =

ولقد ذكر بعض الباحثين أن الدراسة لمغازي الواقدي تكشف عن صحة ما يقوله المحدثون - من رميه بالوضع والتضعيف - فكثير من الرواة الذين يسوق الواقدي الروايات بواسطتهم لا نجد لهم تراجم في كتب الرجال [١] ، أو هم من المجهولين أمثال خيثمة بن محمد الأنصاري [٢] .

وفي مجال النظر في رواياته في الفتنة - على سبيل المثال - يتبين لنا أن هذه الروايات يكاد ينتظمها معنى واحد ، ألا وهو تأليب الصحابة رضوان الله عليهم على عثمان ﷺ ، بل وتشاتمهم ، و ذكرهم بعضهم البعض بما يسوء ، ويكفي أن نستعرض موضوعات عدد من هذه الروايات في تاريخ الطبري ، لتتبين لنا المسألة :

* الرواية التي فيها تشاتم نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان ﷺ ، ومروان بن الحكم ، وفيها أيضا الزعم بأن مروان بن الحكم قد خرج على الناس قائلا : « جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا .. [٣] » .

* الرواية التي تزعم أن أصحاب رسول الله ﷺ ، كتب بعضهم إلى بعض : « أن اقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد ، فعندنا الجهاد . وأن الناس قد كَثَّروا على عثمان ونالوا منه أقبح ما نِيل أحد ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفير منهم ... » إلى آخر الرواية الطويلة التي لا تكاد تخلو فقرة من فقراتها من غمز ، ودس على الصحابة [٤] .

* الرواية التي فيها طلب عائشة من عبد الله بن عباس - وقد ولاه عثمان على الحج - بأن يُخَذِّل الناس عن عثمان ﷺ ، ودعوتها إلى تولية طلحة بن عبيد الله ، ابن عم أبيها الخلافة بعد عثمان [٥] ! . وسوف نعرض لهذه الرواية في ثنايا الأحداث .

وثمة روايات أخرى لا يأتي التصريح فيها بذكر النساء ، إلا أنها تغمز الموقف النسائي للصحابيات مع الصحابة بلا شك ، كما سوف يلاحظ القارئ الكريم عند

= البارزة في التاريخ الإسلامي: ٢٣ ، إلى أن الواقدي كان على صلة بالعباسيين ، وقد حذف اسم العباس من جملة أسماء أسرى بدر ، وأحيانًا كان يكنى عنه بفلان ، ولا يصرح باسمه .

(١) د/ أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني : ٢٧ .

(٢) راجع : الذهبي : ميزان الاعتدال : ٢/ ٤٦٣ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٤) السابق نفسه : ٤/ ٣٣٦ : ٣٣٩ .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٠٧ .

الاطلاع على الأحداث في موقعها من الفصول البحثية .

* ومن هذه الروايات : الرواية التي فيها تشاتم عمرو بن العاص وعثمان بن عفان ﷺ ، بل وتفاخرهما بالجاهلية فقد جاء فيها أن عثمان ﷺ قال لعمرو بن العاص : « والله لقد استعملتك على ظلَعك ، وكثرة القالة فيك » . ولو كان فعل هذا ﷺ لكان خائنًا للأمانة ، مفرطًا في الأمانة التي استرعاه الناس عليها ، وهو ما لا يجوز على عثمان ﷺ .

* وفيها أيضًا أن عَمرًا ﷺ قال : « قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض » . قال : فقال عثمان : « وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمتَ ، ولكني لِنْتُ عليك فاجترأتَ » .

* ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تزعم الرواية أن عثمان قال : « أما والله لأنا أعز منك نفرا في الجاهلية ، وقبل أن ألي هذا السلطان » . وهو ما لا يمكن تصديقه في عثمان ﷺ . وفيها رد عمرو على هذا القول من عثمان بقوله : « دع عنك هذا ، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ، وهدانا به ، لقد رأيت العاصي بن وائل ، ورأيت أباك عفان ، فو الله للعاص كان أشرف من أبيك » ، وهو قول متناقض مع نفسه تمامًا ، فلك أن تتأمل : نهي عمرو لعثمان عن ذكر أمور الجاهلية ، وعودته في نفس الموقف إلى نفس حديث الجاهلية ..... هذا إلى آخر ما في الرواية من حقد عمرو بن العاص على عثمان ﷺ ، وتأليب عمرو الشديد على عثمان ، حتى إن الواقدي ليزعم أن عمرًا كان يقول : والله إن كنت لألقى الراعي ، فأحرضه عليه [1] » .

* الرواية التي فيها استنجاد عثمان ببعض الصحابة ليردوا عنه أهل مصر ، وفيها زعم الواقدي أن عثمان أرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمار بن ياسر ، ثم أرسل في أثره كثير بن الصلت ، ليسمع ما يقول سعد ، وما يرد عليه عمار [2] ، وهي صورة واضحة من التجسس وسوء الطوية بين الصحابة ، تنزهوا عنها رضوان الله عليهم جميعًا ، وهي صورة تنقضها الروايات الصحيحة كما سوف نرى .

* الرواية التي فيها دخول علي ﷺ على عثمان مغضبًا ، وقوله له : « أما رضيت من مروان ، ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

حيث يسار به ، والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه .. [١] » .

* الرواية التي فيها دعوى أن عليًا ﷺ قد أعرض عن عثمان ، فلم يزل منكبًا عنه لا يفعل ما كان يفعل من ذب عنه ودفع ، إلا أنه قد كلم طلحة حين حصر في أن يدخل عليه الرَّوايا ، وغضب في ذلك غضبًا شديدا [٢] .

* الرواية التي تذكر صعود عثمان ﷺ المنبر ، وقيام رجل [غير معروف] له ، وقوله : أقم كتاب الله .. ، وزعمه أن الصحابة تحاثوا بالحصباء حتى ما ترى السماء ! [٣] .

* الرواية التي نسبت لمحمد بن مسلمة قوله لعثمان : الله الله يا عثمان في نفسك ! إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، لا بل هم يقوون عدوك عليك ، فأعطاه الرضا ، وجزاه خيرًا ، بعدما خرج في نفر من قومه للقاء المصريين ، وعَظَّم عليهم حق عثمان ، وخوَّفهم الفتنة . لكن الرواية تعود فتذكر أن عثمان كذب على المصريين ، ولم ينزع عن الأمور التي ضمن محمد بن مسلمة لهم النزوع عنها ، ولأجل ذلك رفض محمد بن مسلمة طلب عثمان منه أن يخرج مرة أخرى إلى المصريين [٤] .

* الرواية التي فيها تأليب طلحة بن عبيد الله على عثمان ﷺ [٥] .

هذا إلى آخر رواياته جميعًا ، والتي غصت بكل ما هو إزراء على الصحابة ، وتشويه للعلاقة الحقيقية بينهم ﷺ ولم يكن هذا فحسب هو مستوى رواياته جميعا ، فلقد ذكر الطبري : أنه أعرض عن ذكر أمور ذكرها الواقدي كراهة منه لبشاعتها [٦] . ولقد ذكر الطبري أيضا روايات الواقدي هذه في أكثر من موضع بصيغة التمريض ، فكان يقول : زعم ، أو يزعم الواقدي . لكن هذه الروايات للواقدي قد جاءتنا من طريق آخر ، غير طريق الطبري ، هو طريق ابن سعد في طبقاته الكبرى ، ولقد نقلها بلا تحفظ دون أن يعلق عليها بشيء ، ولم يعرضها معرض النقد ، أو يقارنها بغيرها من الروايات ، أو يحاول النظر إلى الأبعاد المتعددة للرواية لمحاولة التعرف على وجه الحقيقة فيها . ولعل السبب في ذلك أنه وقف من الواقدي موقف التلميذ من

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦٢ .
(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦٤ .
(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٧٩ .
(٦) تاريخ الطبري ٤/٣٥٦ . وفي مصادر أخرى لشناعتها .

أستاذه ، فلم يجرؤ على نقد روايات [١] . ومن هنا فإننا ينبغي أن نكون حذرين من هذه الروايات عند ابن سعد أيضًا ، رغم ما قيل من أن « مارواه عنه كاتبه في الطبقات هو أمثل قليلا من رواية الغير عنه [٢] » . على أنه ينبغي أن نؤكد على أن ابن سعد كان في نفسه من أهل العدالة في الدين والجلالة في العلم [٣] .

ابن إسحاق محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ، وقيل ابن كوثان العلامة ، الحافظ الأخباري أبو بكر ، وقيل أبو عبد الله القرشي المُطَّلبي ، مولاهم المدني ، صاحب السيرة النبوية ، كان جده يسار من أول سبي دخل المدينة من سبي عين التمر [٤] من العراق ، ولد ابن إسحاق سنة ٨٥ من الهجرة على الأرجح ، وتوفي عام ٢١٥هـ .

توزعت فيه أقوال العلماء توزعًا بعيدًا ، ما بين مادح له ، وقادح فيه . فأما مادحوه : فقد كان الزهري من الذين وثقوه ومالوا إلى تعديله وقال : « من أراد المغازي فعليه بابن إسحاق [٥] » ، وقال : « لا يزال بالمدينة علم مادام فيها ابن إسحاق [٦] » ، وقال مثله عاصم بن عمر بن قتادة [٧] . وقال الشافعي : « من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عِيال على ابن إسحاق » . وقال البخاري : « رأيت علي بن عبد الله يحتج بحديث ابن إسحاق » ، وقال الذهبي : « كان في المغازي

---

(١) د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين : ١٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٤٦٤ .

(٣) راجع أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٧٧ : ٨٠ . ولا تفوتني أخيرًا الإشارة إلى عدم الاعتداد بالكتاب المنسوب إليه ، والمعروف « بفتوح الشام » لنؤكد على ما انتهى إليه العلماء من عدم صحة نسبته إلى الواقدي ، ولعل ما سوف نذكره في مبحث الفتوح أن يكون دليلًا ينضم إلى الأدلة التي ذكرها بعض الباحثين في تأكيد عدم صحة هذا الكتاب ، لا في نسبته إلى الواقدي ، ولا في مادته التاريخية .

(٤) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار ، غربي الكوفة ، افتتحها المسلمون في خلافة أبي بكر الصديق على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ هـ ، وكان فتحها عنوة . انظر : الحموي : معجم البلدان ١ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية : صفحة .

(٦) هذا المدح من الزهري في ابن إسحاق له قيمة خاصة ، حيث إن الزهري من طبقة شيوخ ابن إسحاق ، وهو أيضًا ممن روى عن ابن إسحاق ، كما روى عنه ابن إسحاق . ولعل هذه صورة من صور التعاون العلمي في رواية السيرة ، كما قال الأستاذ / مطاع الطرابيشي في : رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي ، والسير ، وسائر المرويات : ٢٩ .

(٧) عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الأوسي الأنصاري ، أبو عمر المدني ، ثقة عالم بالمغازي . اجتمعت روايته في الأصول الستة . راجع ابن حجر : تقريب التهذيب ١/ ٤٥٨ ، وتهذيب التهذيب : ٥/ ٣٥ .

علامة [١] » ، وكان شعبة [٢] يصفه بالصدق ، وبأنه أمير المؤمنين في الحديث [٣] . وذكره البخاري في تاريخه الكبير ولم يذكره في الضعفاء . وقال ابن المديني : « حديثه عندي صحيح ، ووصفه ابن معين بأنه صدوق وليس بحجة » .

وممن ضعفوه مالك بن أنس [٤] ، قال : « دجال من الدجاجلة » وذلك لما نقل إليه قول ابن إسحاق : « اعرضوا عليَّ علم مالك فإني بيطاره [٥] » . وقد تابع أئمة الحديث من أمثال النسائي والدارقطني ويحيى بن سعيد الأنصاري ، ويحيى بن سعيد القطان ، الإمامَ مالك في تكذيب ابن إسحاق وتوهينه [٦] . وكان مالك ينكر عليه تتبعه غزوات النبي ، من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير إلى غير ذلك من أسلافهم [٧] .

وقال يعقوب بن شيبة [٨] عنه : « إذا حدث عمن سمع منه من المعروفين ، فهو حسن الحديث صدوق ، وإنما أُتي من أنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة » [٩] .

وقال الذهبي : وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأشياء ، منها تشيعه ، ونسبته إلى القدر ، ويُدلِّس في حديثه ، فأما الصدق

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٧ .

(٢) شعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكي ، أبو بسطام الواسطي ، ثم البصرين ثقة حافظ متقن ، كان الثوري يقول : « هو أمير المؤمنين في الحديث ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال ، وذب عن السنة ، وكان عابدًا » ، ت : ٦٠هـ . روايته في الأصول الستة . راجع ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٤١٨ ، تهذيب التهذيب : ٤/ ٣٣٨ .

(٣) مقدمة ابن هشام : السيرة النبوية صفحة هـ .

(٤) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي ، أبو عبد الله المدني ، الفقيه ، إمام دار الهجرة ، رأس المتقنين وكبير المثبتين ، حتى قال البخاري : « أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر » . ت : ٧٩هـ . روايته في الأصول الستة . راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٨/ ٤٨ ، ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ١٥١ .

(٥) بطر الشيء : شقه ، والبيطار : معالج الدواب .

(٦) د . صلاح الدين بن أحمد الأدلبي : منهج نقد المتن عند علماء الحديث ص١٦٣ ، ١٦٤ .

(٧) مقدمة ابن هشام : السيرة النبوية صفحة : و .

(٨) يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور ، قال الذهبي : « الحافظ الكبير ، العلامة الثقة ، أبو يوسف السَّدوسي البصري ثم البغدادي ، صاحب « المسند » الكبير ، العديم النظير المعلل ، راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٤٧٦ .

(٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٩ . وفيه أيضًا : وسمع محمد بن إسماعيل يقول : « محمد ابن إسحاق ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد » ، وانظر : أبو زُرْعة : كتاب المُدَلِّسين : ٨١ .

فليس بمدفوع عنه . وقال ابن نمير : يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة ، وكان يُرمى بالقدر ، وهو أبعد الناس منه [١] .

وقال البخاري : « لو صح عن مالك تناوله من ابن إسحاق ، فلربما تكلم الإنسان فيرمي صاحبه بشيء واحد ، ولا يتهمه في الأمور كلها ، وروي عن إبراهيم بن المنذر قوله : ولم يلتفت أهل العلم في هذا النحو إلا ببيان وحجة ، ولم تسقط عدالتهم إلا ببرهان ثابت ، وحجة ، والكلام في هذا كثير » [٢] .

ولقد ذكر الأستاذ أحمد راتب عرموش في مقدمته للسيرة النبوية [٣] أن المحدثين لا يتهمون ابن إسحاق بالكذب إنما يتهمونه بالتدليس والإرسال ، وذلك بأن يُسقط من بعض الأخبار رجالًا متهمين بالكذب والوضع .

وقال أحمد بن حنبل ، وقد سُئل : إذا انفرد ابن إسحاق بحديث تقبله ، قال : لا والله ، إني رأيته يحدث عن جماعة بالحديث الواحد ، ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا . وقال أيضا : قدم ابن إسحاق بغداد ، فكان لا يبالي عمَّن يحكي ، عن الكلبي وعن غيره . وقال : ليس بحجة ، وقال النسائي وغيره ، ليس بالقوي . وقال يحيى : ثقة ، وليس بحجة [٤] .

وقال القاضي أبو يوسف : من تتبع غريب الحديث كُذِّب ، وهذا أكبر عيوب ابن إسحاق ، فإنه يكتب عن كل أحد ، ولا يتورع سامحه الله . وقال الدارقطني : ابن إسحاق لا يحتج به . لم يخرج البخاري عنه ، وإن كان وثقه . وروى له مسلم في المتابعات [٥] .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٣٩ .

(٢) وقال الذهبي : لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر ، ولا من الكلام بنَفَسٍ حادٍّ فيمن بينهم وبينه شحناء وإحنة ، وقد عُلِم أن كثيرًا من كلام الأقران بعضهم في بعض مهْدَر لا عبرة به ، ولا سيما إذا وثَّق الرَّجُلَ جماعة يلوح على قولهم الإنصاف ، وهذان الرجلان [يعني مالكًا وابن إسحاق] كل منهما قد نال من صاحبه ، لكنْ أثَّر كلام مالك في محمد بعض اللين ، ولم يؤثر كلام محمد فيه ولا ذرة ، وارتفع مالك ، وصار كالنجم ، والآخر ، فله ارتفاع بحسبه ، ولا سيما في السِّيَر ، وأما في أحاديث الأحكام ، فينحط حديثه فيها عن رتبة الصِّحة إلى الحسن ، إلا فيما شذ فيه ، فإنه يُعَدُّ مُنْكرًا . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٤٠ .

(٣) عرموش : الفتنة ووقعة الجمل – المقدمة ٧ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٧/ ٤٧ .

(٥) ومعنى المتابعة : أن يروي الثقة حديثًا ما بإسناد إلى رسول الله ﷺ فإن انفرد هذا الثقة بالحديث ، ولم يشاركه فيه أحد أصلًا ، فهذا حديث فرد ، وإن شارك هذا الثقة راوٍ آخر في روايته ، فرواه بهذا الإسناد عن شيخ الثقة الأول ، أو عن شيخ شيخه ، فهذه الرواية التي شارك بها الثقة الآخر تسمى « متابعة » . والمتابعة =

وعلي الرغم من أن الخطيب البغدادي قد عقد فصلًا في تبرئته ، وكذلك فعل ابن سيد الناس في عيون الأثر إلا أننا في أثناء البحث حاولنا عرض رواياته التي نستشهد بها معرض البحث والتحقيق .

عمر ابن شبة ابن عبدة بن زيد بن رائطة [١] ، العلامة الإخباري الحافظ الحجة ، صاحب التصانيف ، أبو زيد ، النميري البصري ، النحوي ، نزيل بغداد ، ولد سنة ١٧٣ هـ ، ومات سنة ٢٦٢ هـ . له من الكتب ما يزيد على ٢٢ كتابًا ، معظمها تاريخي . ومنها : كتبه عن الكوفة ، والبصرة ، والمدينة ، ومكة ، وكتبه عن أخبار بني نمير ، ومقتل عثمان ، وغيرها [٢] .

قال الذهبي : العلامة ، الأخباري ، الحافظ ، الحجة . وقال : وثقه الدارقطني ، وغير واحد [٣] ، وحدَّث عنه ابن ماجة بحديثين ، وكان عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي يقول : « كتبتُ عنه مع أبي ، وسئل عنه أبي فقال : نميري صدوق وهو صدوق ، صاحب عربية ، وأدب ، قال عنه أبو بكر بن الخطيب : كان ثقة ، عالمًا بالسير ، وأيام الناس ، وله تصانيف كثيرة » [٤] .

والواقع أنني كنت أعجب من اجتماع القول الطيب في عمر بن شبة مع الروايات الشديدة الضعف التي رواها في أحداث الفتنة ، غير أنني اطلعت على قول لابن حجر في مسألة شبيهة بهذه الحالة التي نحن بصددها ، من روايات ابن شبة الواهية ،

= مفيدة فيما إذا كان في السند راوٍ ضعيف ، فإنه يتقوى بالمتابع ، ويصح حديثه ، لكن ذلك مقيد بما إذا كان الضعف خفيفًا كسوء الحفظ أو التدليس أو الإرسال . وصاحب المتابعات لا يقال له : من رجال الصحيح . راجع : السيوطي : تدريب الراوي ١٥٧ ، وانظر شرح المحقق بهامشه ، ومقدمة ابن الصلاح : ٨٢ وما بعدها ، وشرح محقق سير أعلام النبلاء ٥٥/٧ ، ابن حجر : نزهة النظر : ٤٨ .

(١) ثمة اختلافات في هذا الاسم ، ففي الجرح والتعديل للرازي : ٦/ ١١٦ : « ابن عبيدة » ، وفي معجم الأدباء للحموي ١٦/ ٦٠ : ابن عبيدة بن ريطة ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٨٦ ط : ١ دار الكتب العلمية : رايطة ، وما أثبتناه هو ما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٦٩ .

(٢) انظر : شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون : ١/ ١٨٩ . فقدت مصنفاته سوى تاريخ المدينة .

(٣) منهم : ابن أبي الدنيا ، وابن صاعد ، وأبو العباس السَّرَّاج ، والقاضي المحاملي ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم ، وغيرهم .

(٤) راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٣٧٠ . ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٦٠/٧ ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢٠٨/١١ ، الرازي : الجرح والتعديل ١١٦/٦ .

على صدقه والثقة فيه ، وهو ما رواه ابن حجر عن ابن سيرين [١] ، إذ قال لأبي معشر : إني أتهمكم في كثير مما تقولون عن عليّ . قال ابن حجر : وأبو معشر المذكور هو زياد بن كليب الكوفي ، وهو ثقة ، مُخَرَّجٌ له في صحيح مسلم ، إنما أراد ابن سيرين تُهمةَ من يروي عنه زياد ، ..... [٢] .

نفس الشيء إذن يمكن قوله في عمر بن شَبَّة ، فلا ينبغي أن تلفتنا الثقة الكبيرة فيه عن الضعف الشديد ، بل والشنيع في رواياته عن الفتنة ، وهو ضعف ينتظم هذه المرويات جميعًا ، وبلا استثناء ، فالمستعرض لهذه المرويات ، غير ما رواه عن أبي مخنف ، والذي قمت بتصنيفه في مرويات أبي مخنف ، يهوله حجم التناقض فيها مع الروايات التي عند الرواة الآخرين ، والتي تتسق مع المصادر الصحيحة في كتب السنة ، والمسانيد . ويكفي أن نذكر هنا بعضًا مما ذكرت هذه الروايات لابن شَبَّة ، في تاريخ الطبري ، ليتبين صدق ما انتهينا إليه :

* الرواية التي فيها قول علي لطلحة : أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان! قال : لا والله حتى تُعْطىَ بنو أمية الحق من أنفسهم [٣] . وهي رواية تنسب لطلحة ﷺ غير ما صحت به الروايات عنه من دفاع حميم عن عثمان ﷺ .

* الرواية التي ذكرت أن طلحة والزبير ﷺ بايعا عليًّا ﷺ أول من بايع ، وفيها أيضا قول عليّ لعبد الله بن عمر : إنك - ما علمت - لسيئ الخلق صغيرًا وكبيرًا [٤] . وهي رواية غير صحيحة ، فإنما بايع طلحة والزبير والسيف فوق رأسيهما ، ولم يكونا أولَ الناس ، وما عرف من أخلاق ابن عمر السوء ، فضلا عن أن يخاطبه عليّ بهذا .

* الرواية التي فيها أن نفيرًا من الأنصار لم يبايعوا عليًّا ، وفيها أن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال : ما لنا من هذا الأمر إلا كحِسَّة أنف الكلب [٥] .

* الرواية التي فيها تأمير عائشة عبد الله بن الزبير على الصلاة [٦] . وسوف

---

(١) ابن سيرين : هو محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري ثقة ، ثَبْت ، عابد ، كبير القدر ، كان لا يرى الرواية بالمعنى ، مات سنة ١١٠هـ . اجتمعت روايته في الأصول الستة . راجع ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/ ٨٥ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٩٢ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤٠٥/٤ .

(٤) المصدر السابق : ٤٢٨/٤ .

(٥) المصدر السابق : ٤٢٩/٤ .

(٦) المصدر السابق : ٤٥٤/٤ .

نعرض لها تفصيلا فيما بعد .

* الرواية التي فيها أن طلحة والزبير كانا يطمعان في الخلافة لأنفسهما ، والمجادلة بين عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة في أمرها ، بل والخلاف بين أصحابهما في هذا [١] .

* الرواية التي فيها أن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريكَ عثمان في الجاهلية ، وأن ابنه العباس قد قال لعثمان : اكتب لي إلى ابن عامر يُسلِفني مائة ألف ، فكتب ، فأعطاه مائة ألف وصله بها وأقطعه داره [٢] ..، وهي رواية تنسب إلى عثمان رضي الفساد في تصريف المال ، وتجعل مجتمعه مجتمعا للمحسوبية . وهذا عكس تام للحقيقة التاريخية في صفة المجتمع أيام عثمان ﷺ .

* الرواية التي فيها أن رجلا يقال له أخضر قدم على عائشة بمكة فقال لها : قَتَلَ عثمانُ المصريين ، وقولها .. أيقْتُلُ قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ! [٣] . وهو قول يناقض ما صح من رأي لها في هؤلاء المصريين ، وسوف نعرض له في ثنايا البحث .

نصر ابن مزاحم ابن يسار وهو أبو الفضل المنقري التميمي ، وهو كوفي وأخباري بارز ، ولد في الكوفة سنة ١٢٠ هـ ، وفيها نشأ ، وتشيع إلى حد الغلو ، ثم تحول إلى بغداد ، وفيها مات سنة ٢١٢هـ .

ذكر الذهبي قول بعضهم : « رافضي ، جلد » ، وذكر قول العقيلي : « شيعي ، في حديثه اضطراب وخطأٌ كثير » . وقول أبي خيثمة : « كان كذابًا » ، وقول أبي حاتم عنه : » واهي الحديث متروك ، تركوه [٤] . ويذكر بروكلمان أنه « أول إخباري شيعي » ، إلا أن ذلك ليس صحيحًا فهناك أبو مخنف [ت : ١٥٧ هـ] ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وهما أقدم منه بكثير . وقد دارت مواضيع كتبه في نفس المحور الشيعي المعروف ، في تاريخ : وقعة الجمل ، صفين ، مقتل الحسين ، مقتل حجر بن عدي ، أخبار المختار ، مناقب الأئمة .

لم يبق من كتبه شيء ، غير أنه طبع له كتاب صفين الذي جمع من المقتطفات

---

(١) المصدر السابق : ٤٥٣/٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٤٠٤/٤ .
(٣) السابق نفسه ٤٤٩/٤ .
(٤) الذهبي : ميزان الاعتدال : ٧/ ٢٤ ، طبعة دار الكتب العلمية ، وانظر الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٦٩ .

التي وجدت من مروياته عند الطبري وابن أبي الحديد بصورة خاصة [١] . ورواياته في الفتنة تسير على نفس المنهج الذي عليه كل رواياته حيث أسلوب الأيام والقصص والشعر والحوار والخطب . وكثير من ذلك موضوع ، كما سوف يتبين لنا .

جعفر بن عبد الله المحمدي

ومن أسوأ من نقل عنهم الطبري أخبار الفتنة هو جعفر بن عبد الله المحمدي ، ولقد نقل عنه دون تعليق أو نقد رغم أن رواياته من الضعف والوهن بحيث لا تستقيم أبدا مع الروايات الصحيحة ولا مع ما ثبت للصحابة من عدالة .

ويستطيع القارئ أن يراجع عددًا من روايات المحمدي ، ليتبين له كم كان هذا المحمدي حريصًا على إثبات أن الصحابة رضوان الله عليهم فرادى ، ومجتمعين ، كانوا وراء مقتل عثمان ﷺ ، بل كانوا في أغلب هذه الروايات هم قاتلوه ﷺ ، وهو حرص يحتاج منا دراسةً لفهم السبب من ورائه ، فلعلنا أن نعرف شيئًا عن هذا الراوية الذي تكاد كتب الرجال أن تكون قد تجاهلته تمامًا ، فلقد راجعت عددًا غير قليل منها ، فلم أعثر له على أثر [٢] .

وهذه صورة لبعض رواياته عند الطبري :

* الرواية التي فيها دعوى أن ناسًا من المسلمين جاءوا عثمان فقالوا له : قد ركبت أمورًا عظامًا ، وفيها تشاتم عثمان ﷺ مع بعضهم ، ومنهم عامر بن عبد قيس [٣] .

* الرواية التي فيها تشاتم عمرو بين العاص ، وعثمان ﷺ [٤] .

* الرواية الشنيعة التي زعم فيها أن أصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة ، قد كتبوا

---

(١) كتاب : صفين لنصر بن مزاحم – تحقيق وشرح : عبد السلام هارون .

(٢) لقد راجعت : سير أعلام النبلاء للذهبي ، وتهذيب التهذيب لابن حجر ، والتاريخ الكبير ، وكتاب الضعفاء الصغير للبخاري ، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور ، والضعفاء والمتروكين للنسائي ، وتاريخ مولد العلماء ، ووفياتهم لابن زَبر الرَّبعي ، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٣٣ . لو بحثت في ترجمة عامر بن عبد قيس المذكور ، لوجدت أنه لم يكن بالحجاز ، ولا بالعراق عند الفتنة ، وإنما كان مرابطًا بسواحل الشام منذ سُعِيَ به إلى عثمان ، وسيره إلى معاوية بالشام . ولما ثبت لمعاوية أنه برئ مما نسب إليه ، قال له : ارجع إلى بلدك ، فقال : لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا ، فكان يقيم بسواحل الشام ، ويخرج إلى الجهاد . انظر : ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٣٤ . وانظر كذلك الرواية صفحة ٣٣٥ .

إلى من بالآفاق منهم – وكانوا قد تفرقوا في الثغور – : إنكم إنما خرجتم تجاهدون في سبيل الله ﷻ تطلبون دين محمد ﷺ ، فإن دين محمد قد أُفسد مِن خلفكم ، وتُرِك ، فهلموا فأقيموا دين محمد ، فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه (١) .

* الرواية التي تزعم أن عثمان ﷺ قد بعث إلى أمير مصر بعد انصراف المصريين عنه راضين ، بأن يقتل بعضهم ، وأن يصلب بعضهم (٢) .

* الرواية التي فيها اتهام أهل المدينة بالكفر ، وأنهم قاموا بتهديد عثمان ﷺ بالقتل (٣) .

* الرواية التي زعمت أن عثمان ﷺ قد نُبِذ جثمانه ثلاثة أيام لا يدفن ، وفيها أيضًا أن الناس حاولوا أن يرجموه عند دفنه (٤) .

أحمد ابن زهير هو أحمد بن أبي خيثمة ، زهير بن حرب بن شداد الحَرَشي ، ثم البغدادي . مات سنة ٢٧٩ هـ . له كتاب : « التاريخ الكبير » ، روى عنه جماعة من الحفاظ ، وقال عنه الخطيب البغدادي : كان ثقة ، عالمًا متقنًا ، حافظًا بصيرًا بأيام الناس ، راويةً للأدب . أخذ علم الحديث عن أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعلم النسب عن مصعب الزبيري . وأخذ أيام الناس عن المدائني ، والأدب عن محمد بن سلام الجُمَحي . وقد ذكره الدارقطني ، فقال : مأمون ثقة (٥) .

هذه الأقوال في أحمد بن زهير مع رواياته القادحة في عدالة الصحابة ، والمناقضة للروايات الصحيحة ، تضعنا في نفس الحالة التي تضعنا فيها روايات عمر بن شبة من تناقض القول في توثيقه مع الروايات الواهية والضعيفة التي هي سمة كل ما يرويه في أحداث الفتنة ، مثلًا .

ولقد راجعت سلاسل الإسناد لمن يروي عنهم أحمد بن زهير ، فوجدتها سلسلةً واحدة : « عن أبيه أبي خيثمة (٦) ، زهير بن حرب ، قال : حدثنا وَهْبُ (٧) بن جرير

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٦٧ . (٢) المصدر السابق : ٤/ ٣٦٨ . (٣) المصدر السابق : ٤/ ٣٦٩ .
(٤) المصدر السابق : ٤/ ٤١٢ . (٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١١/ ٤٩٢ .
(٦) زهير بن حرب بن شداد : أبو خيثمة النسائي ، نزيل بغداد ، ثقة ثبت ، روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث ، وروى له البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والنسائي جمع وصنف ، وأكثر التطواف في العلم ، وبرع في هذا الشأن هو وابنه وحفيده . وقلَّ أن اتفق هذا لثلاثة . مات سنة أربع وثلاثين ومائتين . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٣١٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١١/ ٤٧٩ .
(٧) وهب بن جرير بن حازم بن زيد : أبو عبد الله الأزدي ، البصري ، ثقة ، مات سنة ٢٠٦ هـ . ابن =

ابن حازم ، قال : سمعت أبي [١] ، قال : سمعت يونس بن يزيد الأيلي [٢] ، عن الزهري [٣] ، قال : ... » .

والناظر في هذه السلسلة يجد أن مدارها على الثقات من الرواة ، غير أنه قد تُحُدِّث في رواية يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري ببعض الحديث [٤] . على أن ما ينال هذه الحلقة في سلسلة الإسناد لا يمكن أن يؤدي ، على كل حال إلى أن تكون الروايات عن هذه السلسلة كلها ذاتَ سمةٍ واحدة منكرة ، قال بها المحدثون .

وإذا كان ابن حنبل وغيره قد ذكروا « أن في رواية يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري منكرات [٥] . فإن هذا الذي ذكروه ، وإن كان يضع الشبهة في هذه الحلقة بين الأيلي والزهري ، إلا أن استمرار روايات ابن زهير ، عن أبيه ، أبي خيثمة ، عن

= حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٢٩١ .

(١) أبو النضر الأزدي : أبو وهب ، السابق ، ثقة ، وله أوهام إذا حدث من حفظه ، وفي حديثه عن قتادة ضعف ، مات سنة سبعين بعدما اختلط ، ولكنه لم يحدث في حال اختلاطه . ابن حجر : تقريب التهذيب ١/ ١٥٨ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٢/ ٢١٣ . الذهبي : تذكرة الحفاظ : ٢/ ٧٤٢ ، ٧٤٣. ابن النديم : الفهرست : ٧٤٣ .

(٢) يونس بن يزيد الأيلي : أبو النجاد ، مولى آل أبي سفيان ، قال ابن حجر : ثقة ، إلا أن في روايته عن الزهري وهمًا قليلًا ، وفيها عن غير الزهري خطأ من كبار السابعة ، ت ٥٩ هـ على الصحيح . قال الذهبي : احتج به أهل الصحاح أصلًا وتبعًا . راجع : البخاري : التاريخ الكبير : ٨/ ٤٠٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٩٧/٦ : ٣٠١ ، ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٥٠ .

(٣) الزهري : محمد بن مسلم بن عبيد الله ، الإمام العلم ، حافظ زمانه أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام ، ولد سنة ٥١ هـ ، روى عن ابن عمر وجابر بن عبد الله شيئًا قليلا ، روى عنه عطاء بن أبي رباح (وهو أكبر منه) ، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك والأوزاعي والليث بن سعد وصالح بن كيسان وغيرهم من الثقات ، وتوفي سنة ١٣٤ هـ . راجع ترجمته الضافية في الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٥ : ٣٥٠ .

(٤) قال عنه ابن سعد : « حلو الحديث ، كثيره ، وليس بحجة ، وربما جاء بالشيء المنكر » . قال الذهبي : « ليس ذاك عند أكثر الحفاظ منكرًا ، بل غريب » . وذُكر أن ابن المبارك ضَعَّفَ أمر يونس ، وقال الأثرم : « أنكر أبو عبد الله على يونس فقال : كان يجيء عن سعيد بأشياء ليست من حديث سعيد ، وضعَّف أمر يونس ، وقال : « لم يكن يعرف بالحديث ، وكان يكتب « أُريَ » أول الكتاب ، فينقطع الكلام فيكون أوله عن سعيد وبعضه عن الزهري فيشتبه عليه » . وقال أبو عبد الله : « ويونس يروي أحاديث من رأي الزهري يجعلها عن سعيد : يونس كثير الخطأ عن الزهري . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٩٧/٦ : ٣٠١ ، ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٥٠ . تهذيب التهذيب : ١١/ ٤٥٠ ، طبعة حيدر آباد ، ودار المعارف العثمانية ١٣٢٩ ، وما بعدها .

(٥) راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٩٧/٦ : ٣٠١ .

وهب بن جرير بن حازم ، عن أبيه ، في رواية هذه « المنكرات » ، وهم جميعًا من ثقات الرواة ، مع ما عرف من « احتجاج أرباب الصحاح بيونس بن يزيد الأيلي ، أصلًا وتبعًا » [١] ، مع عدم ذكره بشيء من الجرح في شخصه [٢] ، يفتح لنا بابًا لتفسير بعض الروايات الموضوعة التي يقال إنه نقلها مؤرخون ثقات مثل عمر بن أبي شبة ، وأحمد بن زهير ، وغيرهما » .

ونستطيع أن نرجح ، اعتمادًا على هذا أن الذين نشطوا لتزييف أحداث التاريخ الإسلامي قد مارسوا عملهم في وقت مبكر ، يرجع إلى عهد التابعين ، وربما كان لأبناء اليهود ، والموالي من الفرس وغيرهم دور في هذا التزييف والوضع ، الذي لم يستطع أحد من المؤرخين الأوائل أن يسلم منه ، أو يتجنبه ، حتى أكثر هؤلاء المؤرخين إنصافًا للحقيقة التاريخية وسيرة الصحابة من أمثال سيف بن عمر [٣] ، ولعل ما جاء من منكرات ، أو غريب في رواية الأيلي عن الزهري من موضوعات وأكاذيب هذه المرحلة . ولعله من قبيل وضع الأسانيد من ثقات الرواة للروايات الضعيفة [٤] .

واستعراض بعض من قضايا روايات أحمد بن زهير على كل حال ، يؤكد لنا ما انتهى إليه المحدِّثون في شأن هذه الروايات :

* إنها روايات معنيةٌ بإثبات أن طلحة والزبير لما خرجا على عليّ ﷺ كانا طامعين في الإمرة على الكوفة والبصرة ، ولكن عليًّا لم يؤمرهما ، وهي روايات ترمي من طرف خفي إلى أن هذا كان السبب ، أو فلنقل أحد الأسباب التي جعلتهما يخرجان عليه . ولقد ذهب في روايتين أخريين إلى أنهما قد طمعا في الخلافة نفسها ، وخرجا عليه لأجل ذلك ، ولأجل أنهما لم يكونا يريان عليًّا ﷺ أهلًا لها [٥] ، فهل يصح عقلًا أنهما قد رفضا الخلافة ليتنازعا على ولاية مصر من الأمصار ، ! .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٩٧/٦ .

(٢) راجع فهرس أعلام المجروحين والمترجم لهم في فتح الباري : ٥٣٥/١٥ ، وما بعدها .

(٣) من كلام للأستاذ الدكتور فهمي عبد الجليل .

(٤) كان الشيعة يضعون الأسانيد كما يضعون المتون ، راجع صفحة ٤٧ ، هامش ٣ من الرسالة ، وتأمل قول يحيى بن سعيد عن مجالد في الموضع المذكور .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٩ ، ٤٦٩ . انظر الرواية في الطبري : ٤/ ٤٢٩ ، ٤٦٩ . وهي رواية تتفق مع ما رواه كل من البلاذري : أنساب الأشراف : ٢/ ٢١٨ ، واليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٨٥ في أسباب هذا الخروج .

* وفي نفس هذه الرواية الأخيرة ، وهي رواية متخمة بما يربو على عشرين مسألة تاريخية تناقض الروايات الصحيحة ، وتقلب أحداثها على نحو يقدح في مقام الصحابة ونواياهم ، ويضاد القول بخروج السيدة عائشة رضي الله عنها إلى البصرة للإصلاح بين الناس ، بحيث تعبر الروايات عن أن خروجها كان حربًا ، يشوبها الطمع المادي ، لعلي رضي الله عنه ، ويصور الأحداث في الجمل تصويرًا منافيًا للحقيقة من جميع جوانبها .

* وقد ذهب في رواية أخرى إلى نسبة الكذب إلى عبد الله بن الزبير في أمر الحوأب ، وفيها أيضا تكرار القول بأن طلحة والزبير ، لم يكونا يريان عليًا أولى بالخلافة منهما [١] .

وسوف نعرض لبعض مما ورد في هذه الروايات في ثنايا البحث ، ونكتفي بالإشارة إلى هذا الضعف في هذه الروايات لضيق المقام ، وهو ضعف نقول به بعد المقارنة بين الروايات ، وباستعمال كافة القرائن التحليلية المتاحة للبحث [٢] . ونشير في عجالة أيضًا إلى أن روايات محمد بن عمارة ، وأحمد بن شَبّوِيه [٣] ، أيضًا من المرويات الواهية التي ينبغي للباحث أن يترفع عن الأخذ بها لمناقضتها لصحيح الروايات . والراويين كليهما ممن لم نعثر لهم على ترجمة في أيٍّ من الكتب التي أشرنا إليها عند ذكر المحمدي [٤] .

سيف ابن عمر

أما سيف بن عمر الضبي [٥] ، الأسدي فهو أهم راوية عندنا في مسألتي الفتنة والفتوح ، وهو من أبرز رواة الفتوح والفتنة ، وأغزرهم

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .

(٢) على أنه ينبغي الإشارة إلى أن هذه المرويات عن أحمد بن زهير ، وسلسلة الثقات من الرواة الذين أخذ عنهم تحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها . ومثل هذه الدراسة تحتاجها أيضًا روايات عمر بن شبّة لنفسر بها : لماذا كان يأخذ هؤلاء الثقات ، أو ينقلون هذه الروايات شديدة البعد عن الروايات الصحيحة ، .

(٣) أحمد بن شَبّوِيه : المروزي ، أبو الحسن الخزاعي ، مات سنة : ٢٣٠ هـ . البخاري : التاريخ الكبير : ٢/٥ .

(٤) وإنما عثرت عند البحث عن محمد بن عمارة على روايتين عنه ، إحداهما عند ابن منظور في تاريخ مدينة دمشق ٢٣/ ١٤٤ ، وهي أحداث وقعة الحرة ، وفيها تناقض واضح مع روح الشريعة الإسلامية . والثانية في رواية له ذكرها الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٦/ ٧٢ عند ترجمة أبي مسلم الخراساني ، وهي رواية تحتاج إلى النظر في مقامها هي الأخرى . والروايتان على كل حال على نفس مستوى الرواية الضعيفة له عند الطبري في مسألة الفتنة ، وأحداثها . ولم أعثر على ما يمكن أن يزيدنا معرفةً بهذا الراوي .

(٥) انظر ترجمته عند : الذهبي : ميزان الاعتدال : ٢/٢٥٣ ، ابن حِبّان : المجروحين : ١/ ٢٥٥ . توفي في بغداد سنة ٢٠٠هـ ، وقيل سنة ١٨٠هـ .

مادة ، وله من المؤلفات في عهد الراشدين كتاب « الردة والفتوح » ، وكتاب « الجمل ، ومسير عائشة وطلحة » [١] .

ليس بين أيدينا كثير عن الرجل ، بل لعله أقل من القليل رغم وفرة ما رواه [٢] ، وهذا الغياب - في تصوري - ربما يقودنا إلى النظر بعين التساؤل إلى هذه الحالة من التجاهل لهذا الراوية ، غزير الرواية ، مهما تكن قيمة مروياته ، ومصداقيتها . بل إنه على افتراض التضعيف في هذه المرويات ، بل والتجريح أيضًا في شخصه ، لا يجد الباحث مبررا لهذا التجاهل .

ولقد ظلت صلة الباحثين ، والدارسين بروايات سيف بن عمر قائمة على ما ورد منها في كتب الذين جاءوا من بعده ، حتى نشر له قريبًا كتاب : الردة والفتوح ، والجمل ومسير عائشة وعلي ، وهما في مجلد واحد [٣] .

وعلى روايات سيف كان أكثر اعتماد الطبري فيما يرويه عن الردة وعن الفتوح وعن الفتنة ، كما اعتمد عليه كثيرا الحافظ ابن عساكر ، وكلا منهما يأخذ الرواية عنه بالإسناد : سماعًا ، وكتابة ، وليس بمجرد النقل عن كتبه [٤] ، رغم طول الزمن بين كل منهما وبين سيف ، فيقول الطبري : حدثني السري ، قال حدثني شعيب عن سيف .. ، أو يقول كتب إلى السري عن شعيب عن سيف .. ، وأما ابن عساكر فإن العجيب أن روايات سيف التي عنده لم يأخذها عن الطبري ، وإنما هي عنده بسلاسل من الرواة طويلة تتصل بذات السلاسل التي أخذ عنها الطبري .

---

(١) انظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ٣/ ٣٦ .

(٢) فلم يذكره ابن سعد في « الطبقات الكبرى » ، ولا ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ، ولا الكتبي في « فوات الوفيات » ، ولا الخطيب في « تاريخ بغداد » ، ولا ياقوت في « معجم الأدباء » ، ولا الذهبي في الثقات الذين ضمنهم كتابه « تذكرة الحفاظ » ، ولم يذكره البخاري في كتابه عن الضعفاء ، ولا النسائي في كتابه « الضعفاء والمتروكين » ، كما لم أجده في « أسماء الرواة الذين تكلم فيهم ابن حزم جرحًا وتعديلًا مقارنة مع أقوال أئمة الجرح والتعديل » ، ولا في الرجال الذين تكلم فيهم ابن حزم في « الفصل » ونسبهم إلى بدعة في كتاب عمر بن محمود أبو عمر ، حسن محمود أبو هنيه : تجريد أسماء الرواة الذين تكلم فيهم ابن حزم .

(٣) وهو تحقيق ودراسة الدكتور : قاسم السامرائي : ليدن - هولندا ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

(٤) كانت طريقة علماء السنة أن يجمعوا بين السماع ، والكتابة / توثيقًا للحديث ، ولعل منهم من صنع ذلك أيضًا في مجال الأخبار ، وهذا ما صرح به الطبري في روايته عن سيف ، حيث قال في غير موضع : « كتب إليّ السري ، عن شعيب ، عن سيف .

بل إنه حتى في الكتابين المنشورين اللذين أشرنا إليهما نجد أنهما ليسا عن سيف مباشرةً ، وإنما هما عن السري [١] ، عن شعيب [٢] عن سيف ، الأمر الذي ربما أشار إلى كون هذه الكتب ليست إلا كتبًا للسري بن يحيى ، جمعها من مروياته عن شعيب ، عن سيف [٣] . وعلى كلٍّ فإننا سوف نكتفي في دراسة هذه الروايات بما ذكره الطبري [٤] .

وإذا كان علماء الحديث قد تناولوه بالتضعيف ، فيحيى بن معين قد قال فيه : « ضعيف ، فَلْس [٥] خير منه » ، وقال أبو داود : « ليس بشيء » . وقال أبو حاتم : « متروك » . وقال ابن حبان : « اتهم بالزندقة » . وقال ابن عدي : « عامة حديثه منكر .. وكان يضع الحديث » .

إلا أن الذهبي قال عنه : « كان إخباريا عارفا . . روى عنه جماعة [٦] » . ولم يذكره ابن حجر في الضعفاء الذين ضمنهم كتابه « لسان الميزان » ، ولكن ذكر عنه في « تقريب التهذيب » أنه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ [٧] .

والذي يلفت الانتباه في هذه الأقوال أن التجريح لم ينل مكانته في الأخبار ، بل

---

(١) السري بن يحيى بن إياس بن حرملة الشيباني البصري ، ثقة . قال ابن حجر أخطأ الأزدي في تضعيفه . روى له البخاري والنسائي ووثقاه . ابن حجر : تقريب التهذيب ١/٣٤١ .

(٢) شعيب بن إبراهيم الكوفي : الواقع أن المتأمل في النذر القليل الذي جاءنا عن شعيب بن إبراهيم يوقفنا على مشابهة قوية بين ما قيل عن سيف بن عمر وما قيل عن شعيب ، فلقد ذكره ابن حجر ، وقال : راوية كتب سيف عنه ، فيه جهالة . ابن حجر : لسان الميزان ٣/ ١٧٢ ، الذهبي ميزان الاعتدال : ٣/ ٣٧٧ ، وذكره ابن عدي ، وقال : ليس بالمعروف .. فيه بعض النكرة لأن في أخباره وأحاديثه ما فيه تحامل على السلف . الكامل في ضعفاء الرجال ٥/ ٦ .

والواقع أن مراجعة روايته ، التي هي رواية سيف بن عمر تنفي عنه أي تحامل على السلف ، بل تؤكد معرفته بحالهم ﷺ ، وتؤكد على عدالتهم ، واتساق روايته مع ما جاء في الكتب الصحيحة من روايات . ولقد يؤكد على هذا القول أن ابن حبان قد ذكره في الثقات . راجع لسان الميزان : ٣/ ١٧٢ وهو ما يوحي بأن صورة هذا الراوية قد نالها شيء من التشويه المتعمد ، وهو ما سوف تؤكده الدراسة التي بالمتن عن سيف بن عمر .

(٣) ولا يزال الأمر في حاجة إلى دراسة متأنية .

(٤) لعله من المهم أن أشير إلى أن دار النفائس قد أخرجت للأستاذ أحمد راتب عرموش « الفتنة ووقعة الجمل » وهي عبارة عن مرويات سيف بن عمر في المصادر المختلفة عن الموضوع المذكور ، والكتاب في نحو من مائة وخمسين صفحة ، وهو دليل واضح على غزارة مروياته في موضوعنا .

(٥) الفلس : عملة يتعامل بها مضروبة من غير الذهب والفضة وكانت تقدر بسدس الدرهم . المعجم الوسيط ٢/٧٢٦ .

(٦) الذهبي : ميزان الاعتدال : ٣/ ٣٥٣ .

(٧) ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٤٠٨ ، وانظر : أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ٦٥ .

إنه كما بدا من أقوال الذهبي وابن حجر كان فيها عارفا ، وعمدة . ولم يلتفت الناظرون في هذه الأقوال إلى هذا الملمح ، فبقيت الصورة العامة المجروحة لسيف بن عمر في أقوال المستشرقين من أمثال فلهوزن وكايتاني ، حيث ذكرا أنه أقل دقة من غيره من ثقات المحدثين ، وإن كان أكثر تفصيلا [١] .

وقد رد الأستاذ أحمد عادل كمال عليهما بأننا لا نستطيع مشاركة المستشرقين في أنه كان أقل دقة ، ولا ندري الأساس الذي استندا إليه في حكمهما ، كما أن الأستاذ الدوري لا يأخذ شيئا على سيف ولا يبدي شكا في حيدته المذهبية أو القبلية ، سوى أنه يؤكد على دور بني تميم في رواياته (جريا على الرواية التي ذكرت أنه من تميم) ، فإذا عرفنا أن انتسابه إلى بني تميم كان من دواعي الثقة في رواياته [٢] فلا مجال لهذا المأخذ .

وبهذا يصبح سيف في موضع أفضل من المؤرخين الذين عاصروه ، وكانت لهم ميولهم الإقليمية أو المذهبية مثل أبي مخنف وعوانة بن الحكم [٣] .

ولا أصل يعلم في اتهامه بالزندقة ، ومن هنا فإنه لا يُقبل جرحه من غير بيان الأسباب [٤] ، بل إن مروياته في مجملها تدفع بهذه التهمة بعيدا عنه ، وتضعه في

---

(١) فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي ٦٥ .

(٢) كان بنو تميم ممن اعتزلوا الفتنة مع سيدهم الأحنف بن قيس يوم الجمل ، ولم يشترك منهم أحد في مقتل عثمان ثم اشتركوا مع علي يحاربون بجانبه في صفين ، وسايروا الأمويين بعد ذلك ، ثم دخلوا إلى جانب ابن الزبير وحاربوا عبد الملك لأجله ، لكنهم عادوا إلى حظيرة بني أمية فلم تكن لهم سياسة موحدة معاندة ، بل كانوا يسيرون حسبما يؤدي إليه اجتهادهم في المسائل المختلفة . وكان منهم عدد التحقوا بالخوارج ، فعرفوا أخبارهم . وهكذا فلقد أدى اتصالهم بالأطراف المختلفة إلى أن تكون مروياتهم شاملة ، ولقد كان سيدهم الأحنف بن قيس من المباشرين لأحداث الجمل ، وصفين وكان حكيما عاقلا . ومن هنا فلا عجب أن يكون سيف قد اطلع على الحوادث بالتفصيل والدقة من قبيلته التي كانت على الحياد في مجمل أمرها ويتأكد هذا بأن نجد رواية سيف لا تتعارض مع رواية الأحنف بن قيس ، ومع الروايات الأخرى الموثوقة . انظر الطبري : ٤/ ٥٠٤ ، من رواية سيف ، د . يوسف العش : الدولة الأموية ٩٨ .

(٣) انظر : أ . د / فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين ، هامش صفحة ١٥ ، وانظر الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ١٢٣ .

(٤) راجع : ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح : ١٠٦ ، د/ محمود الطحان : أصول التخريج ، و دراسة الأسانيد ، ١٤٢ ، ، وقد أشار إلى أقوال ابن الصلاح ، والخطيب البغدادي في أنه من المقرر في الفقه وأصوله وعند حفاظ الحديث ونقاده مثل البخاري ومسلم أن الجرح لا يقبل إلا مفسرًا ، مُبَيِّنُ الأسباب ، لأنه لا يصعب ذكر سببه ، ولأن الناس يختلفون في أسباب الجرح ، فقد يجرح أحدهم بما ليس بجارح ... ولذلك احتج البخاري بجماعة سبق من غيره الجرح لهم ، كعكرمة مولى ابن عباس ﷺ . =

موقف رجال السلف ، من حيث احترام الصحابة وتنزيههم عما لا يليق بهم . وتقديم رواية تاريخية متسق بعضها مع البعض ، بما يؤكد أنها حقيقة تاريخية متكاملة يعجز الوضاعون عن تكوينها من عند أنفسهم .

ويتهمه بروكلمان بأنه كان يحرف الأحاديث والأحداث ، ثم يعترف بأنه كان يُحسن الوصف والبيان ، كما يتهم الطبري بأنه خدع في رواياته واغتر بأسلوبه ، فاختار كتبه مصدرا أصيلا في تاريخه [١] . ولم يقدم بروكلمان دليلا على اتهامه لسيف أو اتهامه للطبري ، ولذلك لم ير البعض من هدف وراء هذه الأقوال الاستشراقية سوى رغبة التشكيك في مصداقية تاريخنا وأمانة مؤرخينا [٢] .

والذي يدعو إلى التأمل أيضًا أن صورة سيف بن عمر لم تكن أحسن حالا لدى كتاب الشيعة ومؤلفيهم ، فلقد وصل الأمر بعلمائهم إلى القول بزيف التاريخ الإسلامي كله على أساس الطعن في سيف بن عمر ، كأحد أكبر مصادر شيخ مؤرخي التاريخ الإسلامي ، الطبري . وليس ذلك لشيء كما بدا من أقوالهم إلا لمروياته عن أمجاد أبي بكر وعمر وعثمان ، وما رواه في أحداث الفتوحات الإسلامية ، وما رواه عن عائشة والصحابة من أحداث الجمل والفتنة ، وهي مرويات – كما سوف نرى – تخالف مرويات الشيعة وموضوعاتهم .

= ذكر ابن الصلاح أنه لقائل أن يقول إنما يعتمد الناس في جرح الرواة ورد حديثهم على الكتب التي صنفها أئمة الحديث في الجرح أو في الجرح والتعديل ، وقلما يتعرضون فيها لبيان السبب . بل يقتصرون على مجرد قولهم : « فلان ضعيف ، وفلان ليس بشيء » ونحو ذلك « أو هذا حديث ضعيف ، وهذا حديث غير ثابت » ونحو ذلك فاشتراط بيان السبب يفضي إلى تعطيل ذلك ، وسد باب الجرح في الأغلب الأكثر وجوابه كما قال ابن الصلاح : « أن ذلك وإن لم نعتمده في إثبات الجرح والحكم به ، فقد اعتمدناه في أن توقفنا عن قبول حديث من قالوا فيه مثل ذلك ، بناء على أن ذلك أوقع عندنا ريبة قوية يوجبُ مثلها التوقف . ثم من انزاحت عنه الريبة منهم ببحث عن حاله أوجب الثقة بعدالته ، فقبلنا حديثه ولم نتوقف . كالذي احتج بهم صاحبا الصحيحين وغيرهما ممن مسهم مثل هذا الجرح من غيرهم فافهم ذلك فإنه مَخْلَصٌ حسن . ابن الصلاح ١٠٩ .

هل بطل محكومًا بجرحه .

أم أنه لا يحتج به لعدم استبقاء شروط العمل برواية .

قال ابن الصلاح : إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل ، فالجرح مقدم لأن المعدل يخبرنا ظهر من حاله والجارح غير عن باطن خفي على المعدل فإن كان عدد المعدلين أكثر فقد قيل التعديل أولى : ابن الصلاح .

(١) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٣٦/٣ ، ترجمة د . عبد الحليم النجار .

(٢) انظر د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين ١٥ .

وليتأكد ذلك عندك ، تأمل قول أحدهم ، إذ يقول [١] : « وراجت أكاذيب سيف وشاعت في مدونات التاريخ الإسلامي ثلاثة عشر قرنًا ، ولم ينتبه العلماء إلى أكاذيبه كل هذه المدة ، بل استطابوها لأنه زينها بإطار من الثناء على أبي بكر [٢] » ، وتأمل قوله أيضًا : « وهكذا استطاع سيف أن يحرف ويصحف ويقلب ويختلق أمة من الصحابة والتابعين ورواة الحديث وقادة الفتوح والشعراء وعددا كبيرا من الأماكن وكتبا سياسية وأراجيز وخطبا وغيرها » [٣] .

فكذب سيف بن عمر واختلاقه عند العالم الشيعي قائم على قدرة رواياته على التعبير – الذي لا يوافق وجهة نظره الشيعية – عن أمة من الصحابة والتابعين ورواة الحديث وقادة الفتوح .. إلخ .

ونعود فنقول : إن بعض علماء الرجال قد ذهبوا إلى أنه حين يُجْهَل حال راو نظروا ، فإذا روى عنه اثنان من الثقات اعتبروها شهادة له فوثقوه [٤] ، وعلى هذه القاعدة وجدنا أن سيف بن عمر قد روى عنه السري بن يحيى ، وروى عنه محمد ابن عيسى الطباع [٥] ، وعبيد الله بن سعد الزهري [٦] .

هذا ولقد تأيدت مرويات سيف في الفتنة بكثير مما ورد في كتب السنة وأقوال الأئمة ، وإن اختلفت هذه المؤيدات عن روايات سيف في بعض الجزئيات ، فزاد عنهم أو زادوا عنه في بعض التفاصيل ، فهذا لا يقدح في مجموع رواياته ، ومدى

(١) مرتضى العسكري : في مؤلف له عن عبد الله بن سبأ ، وأساطير أخرى ، يرمي من ورائه إلى التشويش على الصحابة ﷺ ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان وعائشة ، والطعن في عدالتهم ، مع ادعاء أن حق عليّ في الإمامة [الذي ادعته الشيعة الغلاة] مصدره الكتاب والسنة ، لا مؤامرات ابن سبأ التي فضحتها مرويات سيف .

(٢) مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ ٢/٣٣ .

(٣) مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ ٢/ ١١١ .

(٤) أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٦٩ .

(٥) محمد بن عيسى بن نَجيح : أبو جعفر بن الطبّاع ، الحافظ الكبير الثقة ، تحول إلى الشام ، ورابط بأذَنة من بلاد الثغور ، حدث عنه أبو داود والبخاري والنسائي وغيرهم ، وكان من مشايخ الإسلام ، كان أبو حاتم يقول : حدثنا محمد بن الطباع الثقة المأمون ، ما رأيت من المحدثين أحفظ للأبواب منه ، مات سنة ٢٢٤ هـ بالثغور . الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠/٣٨٦ ، والبخاري : التاريخ الكبير ١/٢٠٤ ، والمزي : خلاصة تهذيب الكمال ٣٥٥ .

(٦) عبيد الله بن سعد الزهري [٢٩٠– ٣٨١ هـ] : الثقة العابد ، مسند العراق ، قال الدارقطني : ثقة ، صاحب كتاب ، وأباؤه كلهم قد حدَّثوا . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٣٩٢ . وانظر من روايته عن سيف : تاريخ الطبري : ٤/ ٢٢٨ .

مصداقيتها ، هذا مع ما لاحظناه جيدا من اتساق مروياته مع ما ثبت للصحابة ﷺ من عدالة وصدق ، وهو ضابط هام في التعامل مع مسألة الفتنة ، كما سوف نرى .

وقدم الطبري روايات سيف على غيرها من الروايات ، وهذا دليل عندنا على اعتباره لها ، إذ المعروف عن الطبري أنه كان يقدم الخبر الذي نقله راو معروف بالصدق على خبر نقله آخر لا يوثق بروايته . وتتجلى لنا قيمته عند الطبري إذا عرفنا أنه « ينقل عنه في أكثر من ثلاثمائة موضع » [١] ، فلقد كانت كتب سيف هي المصدر الأول ، والأساسي عند الطبري في حروب الردة ، والفتوح ، وأخبار وقعة الجمل .

والطبري ، وهو من علماء الحديث والتفسير ، لم يكن غافلا حسبما أعتقد عن تجريح علماء الحديث والرجال له [٢] ، إذ إن هذا الرأي عندهم كان في الحديث ، ولم يكن في التاريخ - كما وضحنا من قبل - وعليه فإننا نذهب إلى ما ذهب إليه قبلنا بعض الأساتذة [٣] من القول بأن رواية سيف عندنا معتمدة ما لم تصطدم بما هو أوثق وأرجح منها ، وهو على ظننا فيه ليس إلا راوية يؤدي إلينا ما أدي إليه غير متهم بوضع أو تحريف .

والملاحظة القيمة هنا ، والقادرة على الرد على ما رُمِي به سيف ، هي أن كل من تعامل مع مرويات سيف بن عمر تعاملًا بحثيا حميمًا ورصينًا ممن اطلعتُ على أبحاثهم قد انتهى إلى الثقة شبه التامة في هذه المرويات [٤] ، وهي ثقة بتُّ أحس بها تماما في تعاملي مع مروياته في « الفتنة » ، إذ تأتي مروياته في أغلب الأحيان مفسرة

---

(١) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ١/ ١٨٠ ، ١٨١ . ويرد اسم سيف لأول مرة في ذلك التاريخ سنة ١٠ هـ ، السنة التي ادعى فيها مسيلمة النبوة في حياة الرسول ، وينتهي النقل عنه لآخر مرة سنة ٣٦ هـ ، في ابتداء خروج علي بن أبي طالب إلى صفين .

(٢) وتأتي هنا أهمية ما قاله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في شرحه لقول الذهبي : « لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن على توثيق ضعيف ، ولا على تضعيف ثقة » ، قال : أي أنه لم يقع الاتفاق من العلماء على توثيق « ضعيف » ، بل إذا وثقه بعضهم ضعفه آخرون ، كما لم يقع الاتفاق من العلماء على تضعيف « ثقة » ، فإذا ضعفه بعضهم وثقه آخرون ، فإنهم لم يتفقوا على خلاف الواقع في جرح راوٍ ، أو في تعديله ، فهم بمجموعهم معصومون من الخطأ . ولفظ اثنان في قول الذهبي ، المراد به الجميع . من تعليق محققي ابن حجر : مصطلح أهل الأثر ١١٤ .

(٣) منهم : أ . د/ فهمي عبد الجليل ، والأستاذ أحمد عادل كمال ، و أ . د/ يوسف العش .

(٤) انظر على سبيل المثال : الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقاته على العواصم من القواصم ١٧٩ ، وفيها وصف سيف بأنه « العراقي المعتدل » . وللأستاذ الدكتور فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين ، =

وموضحة للروايات الموثوقة ومنسجمة معها ، وهي تزيد على هذه الروايات الصحيحة في أنها تقدم الحادثة التاريخية على نسق تاريخي واحد ، بينما الروايات الصحيحة عبارة عن روايات مقطعة ، تعطي أجزاء من الواقعة التاريخية ، دون أن تكمل سياقها .

والواقع أنه ما من رواية في مصدر من مصادرنا التاريخية إلا وهي في حاجة إلى مراحل جادة من النظر والتحليل ، والنقد ، مهما تكن عدالة رواة هذه الرواية ، ويكفي هنا للتدليل على ما نقول أن نعرض لرواية عند الطبري جاءت عن عدد من ثقات الرواة ، وكل ما أريده هو أن نتأمل جيدًا كيف كانت الطريقة التي رويت بها : قال أبو جعفر الطبري : أخرج إليَّ زياد بن أيوب [١] كتابا فيه أحاديث عن شيوخ ذكر أنه سمعها منهم ، قرأ عليّ بعضا ولم يقرأ عليّ بعضا ، فمما لم يقرأ علي من ذلك فكتبته منه ، قال : حدثنا مصعب بن سلام التميمي [٢] ، قال : حدثنا

= وللدكتور حمدي عبد العال : السبئيون منهجًا وغاية . ود . يوسف العش : الدولة الأموية . وللأستاذ أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ، والطريق إلى المدائن ، والقادسية ، وسقوط المدائن ، وقد ذكر أنه في دراساته « الطريق إلى المدائن ، القادسية ، وسقوط المدائن » التي تقع في أكثر من ١١٥٠ صفحة كان جل اعتماده على روايات الطبري عن السري بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف بن عمر . قال « ورأينا فيها من روائع الفن الحربي على أيدي أكابر القادة المسلمين . . ومن وراءهم حتى أصغر جندي في هذه الجيوش وفقا لما طابقته أراء المحللين العسكريين والمعقبين الحربيين ما يستحيل على سيف بن عمر أو غيره من أبناء عصره ومن بعده بقرون كثيرة أن يضعه أو يؤلفه من عندياته ، ما لم يكن قد حدث فعلا في جملته ، وفي أكثر تفاصيله ، بحيث نستطيع أن نطمئن إلى صحة ما لا يقل عن ٩٥٪ من روايات سيف . تلك التجربة وما أبانت عنه في دراسة فتوح المشرق لا شك تمنح روايات سيف بن عمر من الثقة أكثر بكثير مما جاء في تجريحه أو إغفال ذكره ، أو ما قيل عن بعض شيوخه من أنه كان يروي عن المجهولين . أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ٦٧ .

(١) زياد بن أيوب : الإمام المتقن أبو هاشم الطوسي ، ويلقب ابن دَلُّوَيْه . ولد سنة ١٦٦هـ ، حدث عنه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم ، قال : طلبت الحديث سنة ١٨١هـ ، قال إبراهيم ابن أرومة : ليس على بسيط الأرض أحد أوثق من زياد بن أيوب . وتوفي سنة : ٢٥٢هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٢/ ١٢٢ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٣/ ٣٤٥ . ابن كثير : البداية والنهاية ١١/ ١١ .

(٢) مصعب بن سلام التميمي : الكوفي ، قال ابن حجر : ضعفه عليّ بن المديني ، وقال أبو حاتم : محله الصدق ، وقال ابن حبان : كثير الغلط ، لا يُحتج به . ابن حجر : لسان الميزان : ٦/ ٤٣٦ . ط : ١ ، دار الكتب العلمية . وذكره ابن عدي ، وذكر بنفس الإسناد المذكور في الرواية أعلاه ، قال : « انتهينا إلى عليّ ، فذكر عائشة ، فقال : حليلة رسول الله ﷺ » . وقال : هذا من ابن سوقة بهذا الإسناد لا يرويه عنه غير مصعب . وأشار إلى أن المذكور هنا اختصار لرواية أخرى ذكرها محمد بن يوسف بن عصام في « صحيح البخاري » ، وهي بنفس الإسناد عن مصعب بن سلام . وقال ابن عدي : ولمصعب غير ما ذكرت غرائب ، وأرجو أنه لا بأس به . ابن عدي : الكامل في ضعفاء الرجال : ٨/ ٨٧ ، ٨٨ . ط : ١ ، دار الكتب العلمية .

محمد بن سُوقة [١] عن عاصم بن كليب الجرميّ ، عن أبيه [٢] قال : رأيت فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان أن رجلا يلي أمر الناس مريضا على فراشه ، وعند رأسه امرأة والناس يريدونه ، ويهشون [٣] إليه ، فلو نهتهم المرأة لانتهوا ، ولكنها لم تفعل فأخذوه فقتلوه . فكنت أقصّ رؤياي على الناس في الحضر والسفر ، فيعجبون ولا يدرون ما تأويلها ، ! فلما قتل عثمان ﷺ أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا ، فقال أصحابنا : رؤياك يا كليب .

فانتهينا إلى البصرة فلم نلبث إلا قليلا حتى قيل : هذا طلحة والزبير معهما أم المؤمنين ، فراعَ الناسَ وتعجبوا ، فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضبا لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلان ، وإن أم المؤمنين تقول : غضبنا لكم على عثمان في ثلاث : إمارة الفُتيّ ، وموقع الغمامة ، وضربة السوط والعصا ، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه : حرمة الشهر ، والبلد ، والدم . فقال الناس : ألم تبايعوا عليًّا وتدخلوا في أمره ! ، فقالوا : دخلنا واللُّج [٤] على أعناقنا . وقيل هذا علي قد أظلكم ، فقال قومنا لي ولرجلين معي : انطلقوا حتى تأتوا على وأصحابه ، فسلوهم عن هذا الأمر الذي اختلط عليكم ، فخرجنا حتى إذا دنونا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة ، فقلت لصاحبيّ : أرأيتم المرأة التي كنت أحدثكم عنها التي كانت عند رأس الوالي ، فإنها أشبه الناس بهذا ففطن أنّا نخوض فيه ، فلما انتهوا إلينا قال : قفوا ، ما لذي قلتم حين رأيتموني ، فأبينا عليه ، فصاح بنا وقال : والله لا تبرحون حتى تخبروني ، فدخلتنا منه هيبة ، فأخبرناه فجاوزنا وهو يقول : والله لقد رأيتَ عجبا ، فقلنا لأدنى أهل العسكر إلينا من هذا ، فقال : محمد ابن أبي بكر ، فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضي الله عنها ، فازددنا لأمرها كراهية وانتهينا إلى

---

(١) محمد بن سوقة : الإمام العابد ، الحجة ، أبو بكر الغنوي ، الكوفي ، حدَّث عن أنس بن مالك ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وجماعة ، روى عنه سفيان الثوري ، وأبو معاوية ، وابن عيينة ، وآخرون . يقال إنه أنفق في أبواب الخير مائة ألف درهم . قال سفيان بن عيينة : كان محمد بن سوقة لا يحسن أن يعصي الله تعالى ، وقال النسائي : ثقة مرضيٌّ . توفي سنة نيف وأربعين و مائة . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٦/ ١٣٥ .

(٢) عاصم بن كليب الجرمي ، الكوفي : قال الذهبي : وثقه ابن معين ، وغيره . وقال ابن المديني : لا يحتج بما انفرد به . ميزان الاعتدال : ٤/ ١٢ ط : ١ ، دار الكتب العلمية . وكليب بن شهاب : والد عاصم ، صدوق . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٤٤ .

(٣) يهشون : يخفون .

(٤) اللُّج : السيف .

عليّ فسلمنا عليه ثم سألناه عن هذا الأمر فقال : عدا الناسُ على هذا الرجل وأنا معتزل ، فقتلوه ، ثم ولّوني وأنا كاره ولولا خشية على الدين لم أجبهم ، ثم طفق هذان في النّكث فأخذت عليهما وأخذت عهودهما عند ذلك ، وأذنت لهما في العمرة ، فقدما على أمهما حليلة رسول الله ﷺ ، فرضيا لها ما رغبا لنسائهما عنه ، وعرضاها لما لا يحل لهما ولا يصلح ، فاتّبعتُهما لكي لا يفتقوا في الإسلام فتقا ولا يخرقوا جماعة [1] . . . إلى آخر الرواية التي تمتد إلى صفحتين أخريين مليئتين بمثل هذه التُّرّهات .

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٩٠ إلى ٤٩٣ .

الضابط الثاني : عدالة الصحابة

تعرضنا في المباحث السابقة للمعيار الأول الضابط للأخبار في تاريخ كل أمة ، وهو ما يتصل بتقويم المصادر التاريخية التي وصلنا من خلالها الخبر عن هذا التاريخ . ويبقى لنا في هذه الصفحات التاليات أن ننظر في المعيار الثاني ، وهو ما يتمثل في النظر في ملاءمة روايات هذه المصادر ، الموثوق فيها ، لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم هذه الروايات .

هذا النظر الذي لا يتم إلا بأن نتعرض لهؤلاء الأشخاص بالتعريف لهم ، والتوضيح لأخص خصوصياتهم ، وهي « عدالتهم » المقررة ، قرآنًا وسنة .

إن التعرض لقضية عدالة الصحابة فيما نحن بصدده من البحث في الدور السياسي للمرأة ، أمر جد هام ، وذلك لما يؤدي إليه من تجنب خطر فهم الحركة السياسية « لأهل الصحبة » على النحو الذي نفهم به مؤامرات السياسيين المعاصرين ، وما هم منهم بشيء ، فلقد كانت هذه الطريقة في فهم الحركة السياسية للصحابة – رضوان الله عليهم – وراء كثير من التفسيرات ، والتحليلات الخطأ لهذه الحركة ، وربما وراء الآراء الفقهية التي تأسست على فهم خاطئ لهذه الحركة السياسية الراشدة برشادة أصحابها .

إن البحث في صور العلاقات بين الصحابة [١] ، دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراء أفعال هؤلاء الصحابة لن يؤدي إلى شيء ، وليس هذا كلامًا تمليه العاطفة العقدية التي تؤمن بها الباحثة ، كما قد يتصور من لا يعرفون حقيقة العقيدة الإسلامية ، وقدرتها على الفعل في النفوس ، كما لا يعرفون حقيقة إيمان هؤلاء الصحابة وعدالتهم [٢] .

---

(١) واسم صحبة النبي ﷺ ، مستحق لمن صحبه أقل ما يطلق عليه اسم الصحبة لغةً . وإن كان العرف يخص ذلك ببعض الملازمة ، إلا أن البخاري قد جزم بأن : « من صحب النبي ﷺ ، أو رآه من المسلمين ، فهو من أصحابه » . وزاد ابن حجر التعريف بقوله : « ومات على ذلك » ليخرج من ارتد من هذا التعريف . وصحبة النبي ﷺ صفة للرجال والنساء ، كما لا يخفى .

(٢) العدالة ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور ، ورجل عدل : بيِّن العدالة ، و عدول : أجري مجرى الوصف الذي ليس بمصدر ، حيث الأصل ألا يجمع هذا الوصف لأنه مصدر . لسان العرب . وقال الجرجاني : العدالة في الشريعة الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور . الجرجاني : التعريفات ١٤٧ .

فعدالة الصحابة ﷺ لا يسأل عنها أحد وتلك خصيصة لهم ، كما قال ابن حجر ، وذلك أمر مسلم به عند كافة العلماء ، لكونهم على الإطلاق معدلين بنصوص الشرع من الكتاب والسنة وإجماع من يعتدُّ به في الإجماع من الأمة [١] . ولقد ذُكِرتْ في تعديل الله لهم كثيرٌ من الآيات القرآنية ، و منها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [٢] ، والخطاب وإن كان للأمة كلها ، فأحق من صدق فيهم هذا الخطاب أصحاب محمد ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [٣] ، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [٤] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥] ، ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [٦] .

ولقد قال عبد الله بن هاشم الطوسي [٧] : حدثنا وكيع بن الجراح [٨] ، قال : سمعت سفيان بن سعيد [٩] يقول في قوله تعالى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [١٠] : هم أصحاب محمد ، [١١] . قال الألوسي وقال ابن عباس أيضًا : ولا يظن بمثل سفيان أن يقول ذلك من غير تثبت [١٢] .

وأخبر سبحانه أن جميع الصحابة قد بلغوا غاية السمو الخلقي ، فيما يربطهم من الحب والرحمة ، وأنه سبحانه قد أكرمهم بهذا ليغيظ بهم الكفار : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ

---

(١) ابن حجر : الإصابة ١٧/١ .
(٢) آل عمران ١١٠ .
(٣) البقرة ١٤٣ .
(٤) التوبة ١٠٠ .
(٥) الأنفال ٦٤ .
(٦) الفتح ١٨ .
(٧) عبد الله بن هاشم بن حيان العبدي ، أبو عبد الرحمن الطوسي ، سكن نيسابور ، ثقة ، صاحب حديث ، [ت : ٢٥٩هـ] . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٥٤٢/١ .
(٨) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي : أبو سفيان الكوفي ، ثقة ، حافظ عابد ، سمع الثوري ، ولد سنة : ١٢٩ هـ ، ومات سنة : ١٩٧هـ . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١٥٧/١ ، ٢٣٨/٢ .
(٩) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله الكوفي ، ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة [ت : ١٦١هـ] . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢٣٧/١ .
(١٠) النمل : ٥٩ .
(١١) الألوسي : صب العذاب على من سبَّ الأصحاب : ٣٩٠ . وقال الطبري عند تفسيره الآية : إن عبد الله بن المبارك سئل فيها ، فحدث الحديث السابق عن سفيان .
(١٢) الألوسي : السابق : ٣٩١ .

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (١) .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون (٢) قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٣) وقال ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (٤) . وثبت عنه ﷺ أنه قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور . . الحديث » . وقال ﷺ : « إن الله اختار أصحابي على الثَّقَلَين سوى النبيين والمرسلين » (٥) .

وكان من قول عبد الله بن مسعود : « أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بدينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » (٦) . وكان الإمام أحمد يقول : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ » (٧) .

وذهب الجمهور إلى أن من أسباب فضل الصحبة وكونها لا يعدلها عمل ، أنهم

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) القرن : أهل زمان واحد متقارب ، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، وقد اختلفوا في تحديد القرن : من عشرة أعوام إلى مائة سنة وعشرين ، والمشهور مائة . ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٣ .

(٣) رواه البخاري عن عمران بن حصين ، وعن عبد الله بن مسعود ، فتح الباري ٧/ ٣ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ومن صحب النبي ، أو رآه من المسلمين فهو من الصحابة . وحديث ابن مسعود عند الإمام أحمد في مسنده ، وفي صحيح مسلم ، وفي سنن الترمذي ، وروى الإمام مسلم مثله في صحيحه . وروى الطبراني من طريق بلال بن سعد بن تميم ، عن أبيه ، قال : قلت : يا رسول الله ﷺ : أي الناس خير ، قال : « أنا وقرني » ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٨ .

(٤) الحديث مخرج في الصحيحين . رواه البخاري ، عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، فتح الباري : كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ٧/ ٢٤ .

والمُدُّ : مكيال قديم ، اختلف الفقهاء في تقديره ، فقدره الشافعية بنصف قدح ، وقدره المالكية بنحو ذلك . وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، وعند أهل العراق رطلان . والنصيف : نصف الشيء . المعجم الوسيط .

(٥) قال ابن حجر : رواه البزار في مسنده بسند رجاله ثقات . ابن حجر : الإصابة ١/ ١٦٥ .

(٦) فتاوى ابن تيمية : ٤/ ١٣٧ . (٧) فتاوى ابن تيمية : ٤/ ١٥٥ .

قاموا بضبط الشرع المتلَقى عنه وتبليغه لمن بعده ، لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها بعده ، فظهر فضلهم . فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده [١] .

ولولا الصحابة ﷺ ما وصل إلينا من الدين أصل ، ولا فرع ، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ، ولا فرضا ، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئًا ، فمن طعن فيهم أو سبهم – والطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم ، وإضمار الحقد عليهم ، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم ، وما ذكره الرسول ﷺ من ثنائه عليهم وفضائلهم – فإنما يطعن في الوسائط التي وصلتنا من خلالها الشريعة ، والطعن في الوسائط طعن في الأصل ، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول [٢] .

ولقد قصد الوضاعون إلى ذكر الأكاذيب عنهم لإسقاط عدالتهم وأمانتهم ، والتشكيك في أهليتهم كسند يعتمد عليه في نقل الكتاب والسنة [٣] ، كما ذكر أبو زرعة [٤] .

وقال الإمام مالك : « إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ فلم يمكنهم ذلك ، فقدحوا في أصحابه حتى يقال : رجل سوء ، ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين ، أو كما قال ، وذلك أنه ما منهم إلا رجلا كان ينصر الله ورسوله ، ويذبُّ عن رسول الله ﷺ بنفسه وماله ويعينه على إظهار دين الله وإعلاء كلمته ، وتبليغ رسالات الله ، وهو حينئذ لم يستقر أمره ، ولم تنتشر دعوته ، ولم تطمئن قلوب أكثر الناس بدينه [٥] .

الواقع أن العقل المجرد من الهوى والتعصب ، يُحيل على الله في حكمته

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ٧/ ٨ .

(٢) انظر هامش ص ٢٦١ من العواصم من القواصم للمحقق الأستاذ محب الدين الخطيب .

(٣) قال أبو زرعة في ذلك « إذا رأيت الرجل يتَنَقَّص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى » . الكفاية في علم الرواية ٩٧ ، نقلا عن : الألوسي : صب العذاب ٣٩١ .

(٤) وأبو زرعة هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، ولد سنة [١٩٤ هـ] على أرجح الأقوال . قال ابن حجر : إمام ثقة مشهور . قال فيه اللالكائي في أصول الاعتقاد ١/ ٤٨ : هو في جملة من رسم بالإمامة في السنة والدعوة إلى طريق الاستقامة . ت : ٢٦٤هـ .

(٥) ابن تيمية : الصارم المسلول ٥٨٢ ، ٥٨٣ بتصرف .

ورحمته ، أن يختار لحمل شريعته الختامية أمةً مغمورة ، معيبة ، أو طائفة ملموزة ، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا ، ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة الكريمة ، طبقة الصحابة ، وهو توثيق قائم على أصح مصادر الدنيا على الإطلاق : « القرآن والسنة » ، يعتبر دفاعًا عن الكتاب والسنة ، وأصول التشريع الأخرى ، ويعتبر إنصافا أدبيا لمن يستحقونه من ناحية ثانية ، وهو في موقفنا الآن يعتبر ضابطا لا يستهان به في التعامل مع المرويات التاريخية .

فتوثيقهم هام للباحث لكي يكون راسخا لديه قبل أن يتناول المرويات عنهم : أي قوم هم ، بحيث ينبغي له أن يعرض كل خبر عن الصحابة على سجاياهم ويقارنه بسيرتهم وهل هو مما ينتظر وقوعه ممن نسب إليه ، ويلائم المعروف من سابقته وأخلاقه أم لا [١] ! ، وهو ما سوف يعينه في نهاية التحليل على الوصول إلى الرأي الراشد .

على أن هذا لا يعني أن الباحث مدعو إلى النظر في هذا الملمح وحده في التعامل مع الروايات دراسة ، ونقدا ، بل إنه ينبغي أن يكون واضحًا أيضًا ، وبنفس القدر ، أن غير النبي ، ، ولو بلغ الغاية من الفضل ، فليس بمعصوم [٢] ، ولا يلزم من ثبوت شيء من الفضائل ثبوت الفضل المطلق [٣] . وأن تبرئة الأشخاص - إن صحت نسبة الأخطاء إليهم - لا تساوي تشويه المنهج وتحريفه لأجل هذا التبرير . فهذا التحريف والتشويه أخطر على الإسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف عن النهج السديد ، فالمنهج أكبر وأبقى من الأشخاص مهما تكن منازلهم ، وأقدارهم .

ولقد سئل الإمام ابن تيمية رحمه الله عما شجر بين الصحابة : فقال : ما يحكي عنهم كثير منه كذب . والصدق منه كانوا فيه مجتهدين . فالمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر ، وخطؤه يغفر له [٤] .

ففي دائرة الاجتهاد الذي اجتهدوه صوابًا وخطأً ينبغي على الباحث المسلم الأمين

---

(١) انظر هامش الشيخ محب الدين الخطيب على العواصم من القواصم ١٤٥ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٣١ .

(٣) السابق : ١٣٦/٧ .

(٤) ابن تيمية : فتاوى ابن تيمية : ٤/ ٤٣٢ . وابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

أن يناقش ويحلل ، ويستنتج الاستنتاجات الصائبة التي هي خلاصة تجربتنا الإسلامية الماضية ، ولا مجال للفت الباحث المسلم الأمين إلى أنه ينبغي ألا تلفته عقيدته التي يؤمن بها عن الموضوعية وإظهار الحقيقة ، فعقيدته نفسها تأمره بهذه الأمانة وهذا التحري . هذا والنظر في جميع أبعاد الروايات إسنادا ومتنا كفيل - إذا ما استفرغ الباحث جهده - بأن يوصلنا إلى الرأي الصواب فيها .

الباب الأول

ممارسات سياسية عامة للمرأة في العهد النبوي والراشدي

الفصل الأول : اعتناق المرأة للدين على عهد النبي ﷺ .

الفصل الثاني : دور المرأة في الهجرة .

الفصل الثالث : بيعة النساء على عهد النبي ﷺ .

الفصل الرابع : بيعة النساء للخلفاء الراشدين .

الفصل الأول

اعتناق المرأة للدين على عهد النبي ﷺ

اعتناق الدين من الزاوية السياسية

إن جوهر العقيدة الإسلامية هو : علم بـ « لا إله إلا الله » وعمل بها . وتوحيد الألوهية ، توحيد بكل خصائصها : فالخلق والرزق من خصائص الألوهية ، والتقدير والتدبير من خصائص الألوهية ، والحكم والتشريع من خصائص الألوهية ، والإشراك في واحدة منها شرك بالله وكفر به .

واعتناق هذا الجوهر هو عمل سياسي، ذلك أن أصحاب الجاهلية الأولى لم يكونوا يمارون في أن الله يخلق ويرزق ، و أنه يقدر ويدبر : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (١) ، لكنهم كانوا يمارون في أن له سبحانه الشرع ابتداء ، ولأجل ذلك كان تركيز القرآن منذ العهد المكي ومن قبل أن تقوم دولة الإسلام على تأكيد أن الحكم لله وحده ، ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ (٣) ، وهكذا فلقد كان أصل المعركة بين الحق والباطل حول « لمن الشرع والحكم ؟ » (٤) .

وإذا كان رأس العملية السياسية هو الحكم والتشريع ، فلقد كانت السياسة من هذا المعنى جزءا من إيمان المؤمنين ، فهم حين يُعْنَون بالسياسة إنما يحرسون إيمانهم حتى لا يَعْلو عليهم إلا شرع الخالق المعبود . ومن هنا كان فهم المسلمين الأُوَل للعمل السياسي ، كجزء لا يتم ، بل لا يكاد يفهم ، بدونه معنى اعتناق الدين (٥) .

---

(١) يونس : ٣١ . (٢) يوسف : ٤٠ . (٣) الشورى : ١٠ .

(٤) انظر في تفصيل شرح العقيدة الإسلامية ، الإمام أبي حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٧٩/١ ، وأبو الأعلى المودودي : نظرية الإسلام السياسية ٩ ، ١٠ ، والمستشار جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ٥١ ، ٥٢ ، والشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ٢٩ ، والشيخ محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن : ٧ . وانظر الشيخ سيد سابق: عناصر القوة في الإسلام ١١:٢١ ، ١٩٧ .

(٥) هذه النظرة للعلاقة بين ما هو دين ، وما هو سياسة لم تعد غريبة حتى على الفكر الغربي الذي ذهب أحدهم وهو توينبي إلى القول بأن العلاقة بين الجانبين الديني والسياسي من نظام الدولة الإسلامية ليست علاقة مصطنعة تعوق سير الدولة وتقدمها ، إذ يلتئم الجانبان في وحدة أصيلة وأساسية ، بحيث ينتفي في =

وإذن فإن العمل السياسي قد نبع في الإسلام من أصل عميق مكين .. من الإيمان ذاته [١] .

على أننا لا يفوتنا أن نؤكد على أن العقيدة [٢] هي الأصل الذي تبنى عليه الشريعة [٣] . ولا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما أنه لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة ، وإذن فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى ، على أن تكون العقيدة أصلا تبنى عليه الشريعة .

ومن هنا سوف يعمد هذا الفصل إلى دراسة دور المرأة في الفترة الأولى من الدعوة معنيا بإظهار :

١- اعتناق المسلمة الأولى للدين : في مكة ، وفي المدينة .

٢- السابقات إلى الإسلام : أسماؤهن ، وطبقاتهن ، ودورهن في المرحلة السرية.

٣- دور السابقات للإسلام في مرحلة الإصداع بالدعوة ، وتحملهن الأذى في سبيل ذلك .

٤- النساء في دار الأرقم .

٥- مرحلة الدعوة خارج مكة .

وسوف يكون الحديث في هذه المباحث باعتبار المراحل التاريخية المعروفة للدعوة

= علم الاجتماع الإسلامي مبرر السعي للتوفيق بين التشعب القائم بين « الدينية والدنيوية » و « الكهنوتية والعلمانية » ، فإن اللاهوت والدولة متماثلان متطابقان في المجتمعات الإسلامية . انظر : فؤاد محمد شبل : حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ : ٢٠ ، وما بعدها .

(١) كل ذلك قبل أن يحدث الفصام الزائف بين الدين والسياسة مع ضرورة لفت النظر إلى أهمية الفصل بين مفهوم السياسة في العصر الحديث ومفهوم السياسة الشرعية التي كان يفهمها المسلمون الأول على أنها عدل الله ورسوله ، وأنها القيام على الشيء بما يصلحه . راجع ، على سبيل المثال : ابن القيم : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ١٦ ، الأستاذ / عبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية : ١٤ ، وما بعدها .

(٢) العقيدة : هي الحكم الذي لا يُقْبَلُ الشك فيه لدى مُعْتَقِدِه ، وهي في « الدين » ما يقصد به الاعتقاد دون العمل ، كاعتقاد وجود الله . المعجم الوسيط .

(٣) الشريعة هي المواضع التي يُنْحَدَر إلى الماء منها ، وبها سُمِّي ما شرع الله للعباد من الصلاة والصوم وغيره من أعمال البر شريعةً . ومنه قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، وقيل في تفسيره : الشرعة والمنهاج جميعا : الطريق ، والطريق هنا هو الدين . لسان العرب .

بمكة وهي مرحلة الدعوة السرية في الثلاث سنوات الأولى ، ثم مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة ، وأخيرًا مرحلة الدعوة خارج مكة وفشوها فيهم من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ .

المبحث الأول :

اعتناق المسلمات الأول للدين

كان من الطبيعي ، ومن الحكمة كذلك أن يعرض النبي ﷺ الإسلام أولا على ألصق الناس به وآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرًا ، فأجابه مِن هؤلاء الذين لم تخالجهم ريبة في عظمة الرسول ﷺ وجلال نفسه وصدق خبره جَمْعٌ ، عرف في المصادر التاريخية بالسابقين الأولين ، وكان في مقدمتهم السيدة خديجة رضي الله عنها .

إسلام السيدة خديجة

« كان موقف السيدة خديجة من رسول الله ﷺ أشرف موقف لامرأة في الأولين والآخرين ؛ طمأنته حين قلق ، وأرضته حين جهد ، وذكرته بما فيه من فضائل مؤكدةً له أن الأبرار أمثاله لا يُخْذَلون أبدًا » [١] . قال ابن سعد : « اجتمع أصحابنا على أن أول أهل القبلة استجاب لرسول الله ، خديجة بنت خويلد » [٢] . وهي أول من صلى بعد رسول الله ﷺ [٣] ، وقال ابن الأثير : « خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة » [٤] .

وقال صاحب السيرة الحلبية : « نقل الثعلبي المفسر اتفاق العلماء عليه » [٥] . وقال النووي : إنه الصواب عند جماعة من المحققين .

وإذا كان الحديث عن السيدة خديجة من مشهور القول إلا أنه من الأهمية بمكان أن ننوه إلى عدة نقاط في شخصيتها من الجانب السياسي منها :

---

(١) الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة ٩٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٣١٧:٣٠٧/٢ ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ١٣٧/١ ، أبو الفدا : المختصر ١١٥/١ ، ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير ٢١ ، المقدسي : البدء والتاريخ ١٤٦،١٤٥/٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ١٤/٣ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ١٠/٢ ، ابن عساكر : الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين : ٥٠ ، الخزاعي : تخريج الدلالات السمعية : ٢٤٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٣١١/٢ ، ٣١٢ ، المقدسي : البدء والتاريخ : ١٤٣/٤ ، ١٤٥ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ٩٠/١ : ٩٢ ، ابن عساكر : الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ١/ ٥٨٢ .

(٥) علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ٤٣١/١ .

أنها كانت على درجة عالية من الوعي بما يجري حولها من أمور وقضايا ، وما كان يُتَحدث به من قرب مبعث نبي منتظر [١]. أهَّلها ذلك الوعي لأن تُحْسِنَ فَهْمَ ما ذكر لها الرسول ﷺ من أمر الوحي والرسالة ، ومكّنَها من الثبات في هذا الظرف الذي كان من الطبيعي فيه أن يطيش عقل أية امرأة أخرى ، لو جاءها زوجها بمثل هذا الخبر عن الوحي ، ودل على ذلك قولها لرسول الله ﷺ حين أخبرها برؤية جبريل : « أبشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » [٢] .

وهذا القول يؤكد أهمية أن تكون المرأة متواصلة مع المجتمع ، مَعْنيةً بشئونه ، مدركةً لما يجري حولها من أحداث وقضايا، كي تستطيع تكوين الوعي الذي يمكنها من الاختيار الراشد لوجهتها في الحياة .

إن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت على بقية صالحة من دين إبراهيم عليه السلام ، دل على ذلك احترامها البالغ لنسك محمد ﷺ ومجاورته في حراء في كل عام شهرا ، يَتنسَكُ فيه ، ويُطْعِم من جاءه من المساكين ، وكانت تزوده لذلك ، بل وترافقه في بعض هذا التحنث ، وهو الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأنها كانت حنيفية تعرف أن للكون خالقًا واحدًا عظيمًا .

ولعل هذا تقدير من الله سبحانه ، فإذا كان قد هيأ محمدًا ﷺ لتلقي الوحي ، فلابد أن يكون قد هيأ خديجة أيضا لتَلْقى محمدًا بعد أن جاءه الوحي ، وأتاها خائفًا ، ثابتة الجنان لم تنزعج ، ولا هي شكَّتْ فيه ، وإنما صدقته [٣] .

أن قولتها الشهيرة للنبي ﷺ : « كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتُكْسَبُ المعدوم [٤] ، وتُقْرِي الضيف ، وتعين على نوائب

---

(١) انظر إنذار اليهود برسول الله ﷺ قبل مبعثه .ابن هشام : السيرة النبوية : ١/ ١٦٤ ، ١٦٥.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ١/ ١٨٦ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر : ١/ ٨٧ .

(٣) راجع د/ حسين مؤنس : دراسات في السيرة النبوية : ٩٠ .

(٤) رووا « تُكْسِب » ، وعليه فقد قال الخطابي فيما نقله عنه ابن حجر : أن الصحيح هو أن يقال : المُعْدَم : أي الفقير ، لأن المعدوم لا يكسب . وقد أجاب ابن حجر قائلًا : لا يمتنع أن يطلق على المُعْدَم المعدوم ، لكونه كالمعدوم الميت الذي لا تصرُّف له . والكسب هو الاستفادة ، فكأنها قالت : إذا رغب غيرك أن يستفيد مالًا موجودًا ، رغبت أنت أن تستفيد رجلًا عاجزًا فتعاونه . راجع ابن حجر : فتح الباري : ١/ ٣٢ .

الحق » [١] ، كانت دليلًا على كمال عقلها ، فلقد استدلت على ما أقسمت عليه من نفي أن يُخْزِيه الله أبدًا بأمر استقرائي ، وصفته بأصول مكارم الأخلاق [٢] ، وأكدت على ذلك بقولها « وتعين على نوائب الحق » وهي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ، وما لم يتقدم [٣] .

إنها رضي الله عنها كانت تجاور معه في حراء [٤] في العام الذي أكرمه الله فيه بالنبوة ، وهو ما لم تحتفل به معظم الدراسات ، رغم الروايات العديدة في ذلك [٥] ، فلقد ذُكِرَ أن خديجة جاءت إلى النبي ﷺ بحَيْسٍ [٦] ، وهو بحراء ، فجاءه جبريل ، فقال : « يا محمد هذه خديجة قد جاءت ، تحمل حيسا معها ، والله يأمرك أن تُقْرئها السلام ، وتبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » فلما أن رقيت خديجة أخبرها النبي ﷺ ..، فقالت : الله السلام ومن اللّه السلام وعلى جبريل السلام [٧] .

وربما اعتقد الباحث للوهلة الأولى أنها رضي الله عنها جاءته زائرة .. إلا أن المدقق في روايته ﷺ عن لقائه بجبريل في الليلة التي أكرمه الله فيها بالرسالة ، والتي خرج فيها ﷺ من الغار متأملا في ملكوت الله ، يجد الدليل على أنها كانت في حراء تلك الليلة ؛ قال ﷺ : « وما زلت واقفا ، ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم

---

(١) فتح الباري : كتاب بدء الوحي : ٢٨/١ .

(٢) لأن الإحسان إما إلى الأقارب ، أو إلى الأجانب ، وإما بالبدن أو بالمال ، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل ، وذلك كله مجموع فيما وصفته به . انظر فتح الباري : ١/ ٣٢ .

(٣) انظر : ابن حجر : فتح الباري : ١/ ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) حراء : جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها ، عن يسار المار إلى منى . ابن كثير : البداية والنهاية : ٥/٣.

(٥) بل ولم تنتبه لذلك كثير من الدراسات . انظر مثلا : وداد سكاكيني : أمهات المؤمنين ٣٦،٣٧ ، على إبراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب ٢١ ، سليمان البواب :مائة أوائل من النساء ٧٦ .

(٦) الحيس : تمر وأقط وسمن تخلط تعجن وتسوى كالثريد . المعجم الوسيط .

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ، فتح الباري ، كتاب المناقب ، باب تزويج النبي ﷺ خديجة ، وفضلها رضي الله عنها ٧/ ١٦٧ ، ومسلم في صحيحه : صحيح مسلم بشرح النووي : باب فضائل أم المؤمنين ٧ / ١٣٣ ، بلفظ : « قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام » ، وراجع : الأزرقي : تاريخ مكة ٢/٦٠٢،٦٠٣. وابن كثير : البداية والنهاية ٩/٣ . قال : إسناده حسن وشواهده في الصحيح وانظر ابن عساكر : الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين ٥٣ ، ابن الجوزي : صفة الصفوة ٤٣/٢ ، وانظر : محمد صديق حسن خان:حسن الأسوة ٦٠١/٢ . والقصب : اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر المنيف ، والنصب : التعب والصخب : بالصاد والسين اختلاط الأصوات وارتفاعها ، وقيل ليس فيه ما يؤذي صاحبه .

انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة [١] » .

وبيت السيدة خديجة رضي الله عنها من المعالم العمرانية الواضحة في مكة فلم يكن خارج مكة [٢] ، وعليه فبلوغ رسلها مكة ثم عودتهم ، لا معنى له غير كونها رضي الله عنها كانت في الغار آنئذ . وفي رواية وهب بن كيسان [٣] ، عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي [٤] عن بداية الوحي التصريحُ أيضا بوجودها رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ بحراء ، قال : « ... خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله » [٥] .

إن عقيدتها ، وإن كان قد مهد لها ما عَرَفَتْ من شخصية محمد ﷺ وصدقه ، وأن الله لا يصنع بمثله إلا خيرًا ، كانت عقيدة قوية اختبرتها رضي الله عنها بنفسها ، فلم تكن فيها تابعة أو مقلدة مأسورة بعظمة شخصية الرسول ﷺ ؛ فلقد روى البيهقي أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا ابن عم تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ فقال : نعم . فبينا رسول الله ﷺ عندها جاء جبريل فرآه رسول الله ﷺ فقال : ياخديجة هذا جبريل ! فقالت : أتراه الآن ؟ قال : نعم . قالت : فاجلس إلى شقي الأيمن ، فتحول فجلس ، فقالت : أتراه الآن ؟ قال : نعم . قالت : فتحول فاجلس في حجري ، فتحول فجلس في حجرها . فقالت : هل تراه الآن ؟ قال :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١٨٢/١، ١٨٣، ١٨٤ . والعجيب أن يتوقف الدكتور حسين مؤنس أمام هذه الرواية ليعتبرها دليلا على أن الرسول ﷺ كان يعود إلى بيته في نهاية كل يوم عند اقتراب نزول الوحي عليه ، وهو مالا نجد له دليلا . على أنه رضي الله عنه عاد ليشير إلى أن السيدة خديجة كانت ترافقه ﷺ في ذهابه إلى الغار ، قال : فإما بقيت معه وإما عادت تنتظر أوبته . انظر حسين مؤنس : دراسات في السيرة ٩٠ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ٦٤٣/٢ ، ٦٥٦ ، د. صالح أحمد العلي : الحجاز في صدر الإسلام : دراسات في أحواله العمرانية والإدارية ٦٥١ ، ٦٥٢ .

(٣) وهب بن كيسان : القرشي ، مولاهم ، أبو نعيم ، المعلم ، ثقة ، مات سنة ٢٧ هـ . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٢٩٣.

(٤) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي : تابعي مشهور ، ولد في حياة الرسول ﷺ ، وحدث عن أبيه وعن عمر بن الخطاب ، وغيره من الصحابة ، وكان يذكّر الناس فيحضر ابن عمر مجلسه ، وهو من ثقات التابعين. ابن حجر : الإصابة : ٤/ ٦٠١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٥٦/٤ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية : ١٨٢/١، ١٨٣، ١٨٤ ، تاريخ الطبري : ٣٠٠/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٣ ، ١٤ ، وقد ذكر المقريزي : تحنث النبي ﷺ بحراء ومعه زوجته خديجة ، إمتاع الأسماع : ١٢/١ ، وذكره سيديو : تاريخ العرب العام ٦٧ ، ونوه به عرضا مونتجمري وات نقلا عن د .عماد الدين خليل: دراسات إسلامية ٢٥ ، وانظر الرواية الآتية بعد .

نعم ، فتحسرت رأسها، فشالت [١] خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها فقالت : هل تراه الآن ، قال : لا . قالت : ما هذا بشيطان ، إنَّ هذا لمَلَك يا ابن عم فاثبت وأبشر، ثم آمنت به وشهدت أن ما جاء به هو الحق . قال البيهقي : وهذا شيء كان من خديجة تصنعه تستثبت به الأمر احتياطا لدينها وتصديقا [٢] .

إنها رضي الله عنها قد أخذت بكل أسباب التحقق من صدق الدعوة ؛ فلم تكتف بالثقة التامة في شخصه ﷺ ، ولا بالاختبار الذي فعلته في أمر الوحي ، بل جمعت عليها ثيابها ، وتركت الغار ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل [٣] ، فأخبرته ، فقال ورقة : لئن كنتِ صَدقْتِني ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر .. وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته [٤] .

إن إيمانها العميق والقوي كان ذا أثر عميق في تقوية معنوية الرسول وهو يجابه بالتوحيد شرك العرب جميعا ، فكان لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد أو تكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس [٥] . ذلك أنه ليس آكد ليقين الإنسان وأوثق لاعتقاده من انضمام إنسان آخر له في رأيه.

كيفية اعتناق الصحابيات للإسلام

ولعل صورة إيمان السيدة خديجة ، هي الصورة التي تكاد أن تكون الوحيدة – فيما أعلم – التي جاءتنا بها المصادر التاريخية ، عن كيفية اعتناق المسلمة الأولى في مكة للدين : كيف كونت قناعتها بهذه العقيدة ، وكيف تأثرت واستجابت . وهي صورة وازتها صورة إسلام المرأة في المدينة متمثلة في إسلام أم سليم ، على ما سوف نرى ،

---

(١) تحسرت : خلعت ما على رأسها ، وشالت : رفعت .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٠٣/٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٨٦/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦،١٥/٣ ، المقدسي : البدء والتاريخ ١٤٣ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٨٣/٧ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ٨٧/١ ، ابن الجوزي : المنتظم ٣٥٢،٣٥١/٢ .

(٣) ورقة بن نوفل : ابن عم السيدة خديجة ، كان أبوه نوفل أخا لخويلد بن أسد بن عبد العزى والد خديجة وكان أخا لعمرو بن نوفل الذي زوجها من محمد ، وذكر بعض المؤرخين أنه كان قد تنصر وقرأ الكتاب ، وسمع من أهل الكتاب الإنجيل . وشكك بعض الباحثين في تنصره . انظر حسين مؤنس : دراسات في السيرة ١٠٠ .

(٤) فتح الباري ١/ ٢٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ١٨٦ .

(٥) راجع تاريخ الطبري : ٣٠١/٢ ، ٣٠٢ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ٨٢/١ ، ٨٣ .

وهي الأخرى صورة وحيدة ، فيما مرَّ بي من نصوص ، على أنها إذا ما قورنت في تأريخها بالتأريخ لكيفية إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها تعد صورة تأريخية متواضعة .

إنه على حين كان هناك التفصيل لما صاحب التأريخ لاعتناق كثير من الصحابة للإسلام : ظروف اعتناقهم ، وسببه ، وكيفيته ، حتى لقد استُقْصِيَت كيفية إسلام بعضهم ، وما ورد فيها من الأحاديث والآثار استقصاء مطولا [١] ، فإننا في الوقت نفسه لا نكاد نجد عن كيفية اعتناق المسلمات الأول للإسلام إلا النذر اليسير من الروايات كما ذكرنا .

وهذا ملمح هام نسجله ، وسنجدنا بكل أسف نعاود التوقف عنده في كثير من حالات التأريخ لمواقف المرأة المسلمة في هذه الآونة ، الأمر الذي يدعونا إلى الحذر التام إزاء اعتبار المادة المقدمة في المصادر وحجمها دليلا على حجم المشاركة النسائية.

هذه الصورة لإسلام السيدة خديجة - على كل حال - كانت صورة نموذجا لعقل المرأة العربية آنئذ وقدرتها على الاختيار ...، ذلك أنه إذا كانت السيدة خديجة - وهي من هي تعلقا برسول الله ﷺ ، وثقة في كمال شخصه ، قد وقفت أمام الوحي بعقلها ، ووعيها ، مُخْتَبرةً ومُسْتَنبطةً ، ومستدلةً بقرائن الحال على صدق هذه الرسالة ..، بل وراجعة إلى مصدر موثوق تتحرى منه كورقة بن نوفل ، زيادة منها في الاستيثاق لهذه العقيدة .

نقول : إنه إن كان كل ذلك قد حدث مع السيدة خديجة ، فإن مثله وأكثر يتعين حدوثه مع المسلمات الأول . وإن ما حدث لهن بعد اعتناق الدين من تعذيب ، وتشريد ، وتهجير ، وقتل هو أقوى القرائن والأدلة على أن هذا الدين كان لديهن عقيدةً راسخةً ورصينةً ، اختبرها العقل ، واستوثق لها الضمير .

وفي النماذج الآتية نساء سبقن في الإسلام آباءهن وأزواجهن وذويهن . الأمر الذي يؤكد أن اعتناقهن للدين لم يكن يحمل من أمارات التقليد والتبعية الفكرية أدنى إشارة .

---

(١) انظر مثلا علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ١/٤٣١ : ٤٥٦ ، وانظر استقصاء ابن كثير لإسلام عمر على سبيل المثال في بداية سيرة عمر .

نساء سبقن الرجال واعتنقن الإسلام عن عقل وروية

سبقت أم حبيبة أباها أبا سفيان [١] إلى الإسلام ، وأبو المرأة منها بمكان ، وثبتت رضي الله عنها على دينها وهجرتها رغم ارتداد زوجها ، فلقد تزوجها عبيد الله بن جحش [٢] وهاجرا معا إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ، فتَنَصَّر ، وارتد عن الإسلام ، وتوفي بأرض الحبشة [٣] .

وسبقت أم الفضل ، لبابة بنت الحارث الهلالية [٤] امرأة العباس زوجها : ففي إشارة ابن عباس إلى الآية الكريمة ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [٥] قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء . قال البخاري في ترجمة الباب : كان ابن عباس رضي الله عنهما مع أمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه [٦] .

وسبقت زينب بنت رسول الله ﷺ زوجها أبا العاص بن الربيع [٧] . قال ابن

---

(١) أبو سفيان : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، مشهور باسمه وكنيته ، ويكنى أيضًا أبا حنظلة . كان أسن من النبي ﷺ . أسلم عام الفتح ، وشهد حنينًا ، والطائف ، كان من المؤلفة ، وكان قبل ذلك رأس المشركين في أحد ، ويوم الأحزاب . أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، روى الزبير من طريق سعيد بن عبيد الثقفي ، قال : رميت أبا سفيان يوم الطائف ، فأصبتُ عينه ، فأتى النبي ﷺ ، فقال : هذه عيني أصيبت في سبيل الله . قال « إن شئت دعوت ، فرُدَّت عليك ، وإن شئت فالجنة » . قال : الجنة . ابن حجر : الإصابة : ٣/ ٣٣٢ : ٣٣٥ ، ٧/ ١٥٤ .

(٢) عبيد الله بن جحش : أخرج ابن سعد من طريق إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأموي ، قال : قالت أم حبيبة : « رأيت في المنام كأن زوجي عبيد الله بأسوأ صورة ، ففزعت ، فأصبحت ، فإذا به قد تنصر ، فأخبرته بالمنام ، فلم يحفل به ، وأكَبَّ على الخمر حتى مات » . ابن حجر : الإصابة : ٨/ ١٤٠ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/٩٩ ، ابن حجر : الإصابة ٨/١٤٠ .

(٤) لبابة بنت الحارث الهلالية : هي أم الفضل وعبد الله ابنا العباس ، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة وفيها وأخواتها قال ﷺ : « الأخوات الأربع مؤمنات : أم الفضل ، وميمونة ، وأسماء ، وسلمى » . وسلمى وأسماء أختاهما لأمهما وهما بنتا عميس . وقد تزوج سلمى حمزة عم النبي ﷺ ، وتزوج جعفر أسماء بنت عميس ، فكانت أمُّ أمِّ الفضل أكرم الناس أصهارًا . ابن حجر : الإصابة ٨/٤٤٩ ، ٢٢٩، ابن الأثير : أسد الغابة ٧/ ٢٤٦، ابن عبد البر : الاستيعاب ٤/٤٦١ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر : ٣٢١ .

(٥) النساء : ٧٥ . (٦) فتح الباري : كتاب الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي .. ٣/٤٦٢ .

(٧) أبو العاص بن الربيع : ابن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمي . أمه هالة بنت خويلد . قال الزبير بن بكار : كان يقال له الأمين . لم يتفق أن أسلم إلا بعد الهجرة . فادته زينب بنت رسول الله ﷺ لما =

سعد : أسلمت زينب وأبى أبو العاص أن يسلم [١] .

وسبقت فاطمة بنت الخطاب [٢] أخاها عمر بن الخطاب ، قال الحافظ ابن حجر : كان إسلام عمر متأخرًا عن إسلام أخته فاطمة وزوجها ، لأن أول الباعث له على دخوله في الإسلام ما سمع في بيتها من القرآن [٣] .

وسبقت أم كلثوم بنت عقبة [٤] أهلها جميعا : كانت ممن خرج إلى رسول الله ﷺ بعد الحديبية . قال ابن سعد : لم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة [٥] .

وإذا كانت صورة اعتناق المسلمة الأولى في مكة للدين على هذا النحو ، فلقد كانت كذلك المسلمة الأولى في المدينة ، فكان إيمان أم سليم بنت ملحان الأنصارية [٦] وهي من السابقات إلى الإسلام من الأنصار ، مثيرًا لزوجها مالك بن النضر ، فخرج إلى الشام فمات بها ، وقد روى عنها ابنها أنس بن مالك بن النضر : أن أبا طلحة [٧] خطب أم سليم - يعني قبل أن يسلم - فقالت : يا أبا طلحة : ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد شجرة تنبت من الأرض نجرها حبشي ابن فلان ،..

= كان مع أسرى المشركين في بدر بقلادة أمها خديجة ، وأجارته بعد ذلك لما أسره المسلمون ، وكان قدم في عير لقريش ، ثم أسلم بعد ذلك ، ورد الرسول عليه زوجته بالنكاح الأول . ابن حجر : الإصابة: ٧/ ٢٠٨ .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٣١/٨ .

(٢) فاطمة بنت الخطاب : أخت عمر ، القرشية العدوية ، أم جميل (قيل اسمها : أميمة ، وقيل : رملة) ، أسلمت قديما مع زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .. خبرها في إسلام عمر مشهور ابن حجر : الإصابة ٢٧١/٨ ، ٣٦٨ .

(٣) فتح الباري : كتاب المناقب ، باب إسلام عمر بن الخطاب ٧/ ٢٢٤ ، وباب إسلام سعيد بن زيد : ٧/ ٢٢٣.

(٤) أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية ، أسلمت قديما ، وبايعت ، وخرجت إلى المدينة مهاجرة تمشي . ابن حجر : الإصابة ٤٦٢/٨ .

(٥) انظر مبحث الممتحنات ، وفتح الباري : كتاب الشروط ، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام ٢٤٠/٦ .

(٦) أم سليم بنت ملحان بنت خالد بن زيد بن حرام : اختلف في اسمها ، فقيل سهلة ، وقيل مليكة ، وقيل الرميصاء . كان النبي يزورها فتتحفه بالشيء تصنعه له. ابن حجر : الإصابة ٤١٠/٨ .

(٧) أبو طلحة : هو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصاري ، النجاريّ . كان من فضلاء الصحابة ، وهو الذي كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد . وهو الذي نزل عن أحب أمواله إليه ، لما أُنزل عليه ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وقال : « صدقة أرجو برها وذخرها ، فقال له النبي » : « بخ بخ ، مال رابح » . ابن حجر : الإصابة : ٢/ ٥٠٢ ، ٧/ ١٩٤ .

أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التي تعبدون لو أشعلتم فيها نارا لاحترقت ، .. أرأيت حجرًا تعبده لا يضرك ولا ينفعك ، فقال : بلى . قالت : أفلا تستحي تعبد شجرةً ! إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقا غيره [١] - أي غير الإسلام - . مع أنه « كان أكثر أنصاري بالمدينة مالا من نخل [٢] » . قال ثابت البناني [٣] : فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم : الإسلام [٤] .

ويلفت النظر في الشكل التأريخي أن هذه الصورة لإسلام أم سليم إنما جاءت في معرض الحديث عن كيفية إسلام أبي طلحة ، ولم تكن عامدة إلى الحديث عن إسلام أم سليم رضي الله عنها .

وإذ صح ما ذهبنا إليه من استقلال موقف المرأة الحرة إزاء اعتناق الدين ، فإننا نذهب إلى مثله مع المرأة في صفوف الموالي والأرقاء والعبيد السّابقين إلى الإسلام ، فقد سبقت السيدة سمية أسيادها ومواليها ، عن عمار بن ياسر قال : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر . وكانت سمية ضمن الأعبد الخمسة [٥] .

ذلك أن هؤلاء العبيد الذين اقتضت مسيرة حياتهم أن يتنقلوا بين البلاد طائعين أحيانا ومكرهين غالبا ، أهَّلَتْهم هذه الحالة لأن يكونوا أكثر اطلاعا على طباع البشر ، وما آلت إليه أحوالهم ، وأكثر إدراكا لحاجة البشرية إلى إنقاذ سماوي ، وهم بطبيعة آلامهم وعذاباتهم أكثر تأملا في حياتهم ومغزاها، هؤلاء العبيد ربما حملوا عقولًا أكثر تحررًا من عقول كثير من الأحرار ..، وهو ما دفع من اعتنق الإسلام منهم في اعتقادنا إلى اعتناق هذا الدين اعتناقًا واعيًا وراشدًا ، ودفعهم دفعًا سريعًا وقويًّا إلى

---

(١) ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٦٩ ، ٣٢٢ ، ابن حجر : الإصابة ٤٠٨/٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤٤٦/٨ ، الأصبهاني : حلية الأولياء :٥٧/٢ .

(٢) فتح الباري : كتاب الأشربة ، باب استعذاب الماء ١٠/ ٩١ ، ومسلم : صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الصدقة ، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج ٧٩/٣ .

(٣) ثابت بن أسلم البناني البصري : الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، حدث عن عدد من الصحابة ، وكان من أئمة العلم والعمل . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٢٠/٥ .

(٤) النسائي : السنن : كتاب النكاح ، باب التزويج على الإسلام ٧٠٣/٢ .

(٥) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب فتح الباري : كتاب المناقب ، باب إسلام أبي بكر الصديق ٧/ ٢١٥ ، وراجع ابن حجر في الفتح : ٧/ ٢٨ ، وكتاب فضائل الصحابة ، باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٧/ ٢١ . قال ابن حجر : ينبغي أن يكون منهم - أي من الأعبد - عمار وأبوه وأمه ، فإن الثلاثة كانوا ممن يعذب في الله . وأمه أول من استشهد .

صفوف المؤمنين ، أكثر مما دفعهم العامل الاقتصادي ، الذي لما تزل تقول به التفسيرات المادية لحركة التاريخ .

وفي كل ما مر من واقع تاريخي لسبق النساء إلى الإسلام دليل يقدح في القول بأن عقلية المرأة وآفاقها كانت محدودة في تلك الفترة ، ولا تزيد كثيرًا عن إدراك الطفل إلا فيما يتعلق بطبيعتها كأم وزوجة وربة بيت [١] ، وأن شخصيتها لم تكن ناضجة إلى الحد الذي تستطيع فيه أن تجادل وتناقش وتصد ما يلقى عليها إن كانت مقتنعة بضده [٢] .

ويقدح كذلك في دعوى كون التقليد شديد التأثير في نفوس النساء ، وهي دعاوى قالت بها بعض الدراسات الحديثة [٣] .

وأهم من كل ذلك أن هذه الممارسة التاريخية تؤكد على الحقيقة الإسلامية الراسخة ، التي فهمتها المسلمة الأولى ، وهي أن خطاب الله تعالى بالدين ومسئولياته

---

(١) هذا الرأي الحديث للدكتور محمود علي مقداد [الموالي ونظام الولاء : ١٠٨] ليس غريبا على الفكر الإسلامي ، ولعله من الطريف ، والباعث على الأسى من موقف بعض التفاسير من المرأة أن نشير هنا إلى ما قال الإمام الفخر الرازي ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. ﴾ الروم : ٢١ . قال الرازي : قوله : « خلق لكم » دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب ، والنبات ، وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة ، والتكليف . فنقول : خلق النساء من النعم علينا ، وخلقهن لنا ، وتكليفهن لإتمام النعمة علينا ، لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا ، وذلك من حيث النقل ، والحكم ، والمعنى . أما النقل ، فهذا وغيره ، وأما الحكم ، فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة ، كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق ، سخيفة ، فشابهت الصبي ، لكن الصبي لم يكلف ، فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن ، لتخاف كل واحدة منهن العذاب ، فتنقاد للزوج ، وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد . الفخر الرازي : تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير، ومفاتيح الغيب: ١٣ / ١١١ .

(٢) ولعله مما يزيد قولنا تأكيدًا أن نعرف أن أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ، شقيقة معاوية ، وأخت أم المؤمنين أم حبيبة لأبيها لم تسلم رغم إسلام زوجها عياض بن غنم ، وفيها ، وفي غيرها ، كان قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ الممتحنة : ١٠ ، ففارقها عياض ، وتزوجها رجل ثقفي ، ولم تسلم إلا في فتح مكة ، وقيل مع أهل الطائف . انظر: ابن حجر : فتح الباري : ٩/ ٥٢٧ . كتاب الطلاق ، باب إذا أسلمت المشركة ، أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي ، ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٣٧٨ .

(٣) انظر في هذا القول : د. محمود علي مقداد : الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي ١٠٨ .

كان خطابًا موجهًا للمرأة مع الرجل ، فكانت المرأة مسئولة أمام الله ﷻ مسؤولية ، فردية ، ومستقلة عن مسئولية الرجل إزاء هذه العقيدة .

ولقد دلت النصوص القرآنية بشكل قاطع ، ودل الخطاب النبوي لهن على ذلك ، وهو ما أكد عليه ابن حزم ، حيث قال : « لما كان رسول الله ﷺ مبعوثًا إلى الرجال ، والنساء بعثًا مستويًا ، وكان خطاب الله تعالى ، وخطاب نبيه ، خطابًا واحدًا ، لم يجز أن يخص بشيء من ذلك الرجال دون النساء إلا بنص ، أو إجماع ، لأن ذلك تخصيص للظاهر ، وهذا غير جائز » (١) .

ولعله من المناسب أن أشير إلى أن غياب هذه النظرة الإسلامية الكلية ، التي ذهب إليها الإمام ابن حزم ، والتي صدقها الواقع التاريخي ، الذي تم على عين رسول الله ﷺ ، عن بعض علماء السلف قد أدى إلى ذهابهم في التمييز بين الرجال ، والنساء إلى مذاهب بعيدة ، تخالف صريح الآيات القرآنية ، و صحيح الممارسة الفعلية التي قامت بها المرأة الصحابية على عهد النبي ﷺ (٢) .

---

(١) الإمام ابن حزم الأندلسي : الإحكام في أصول الأحكام : ٣/ ٣٣٧ .

(٢) ففي علوم القرآن اختلف العلماء في دخول النساء في الخطاب القرآني ، ورأوا أنهن يدخلن في خطاب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ . وبدلًا من أن يتفقوا على أن النساء يدخلن تغليبًا في جمع المذكر السالم ، ولا يخرجن إلا بقرينة انطلاقًا من الاستخلاف ، اختلفوا حول دخولهن فيه ، ورأوا ، على العكس أنهن لا يدخلن إلا بقرينة . [راجع : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ٣/ ٣٠٢] .

- وذهب كثير من علماء أصول الفقه إلى نفس الرأي [الجويني ، إمام الحرمين : البرهان في أصول الفقه : ٣٥٨] .

- وانعكست هذه الرؤية على كتب التفسير ، فجاء تفسير الآيات المختلفة ، يضع المرأة في منزلة أدنى من الرجل [راجع ، على سبيل المثال : تفسير ابن كثير لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ النساء : ٥ ، وشرحه للسفهاء بأنهم النساء ، والأطفال] .

- كما ذهبت أكثر الكتابات المعاصرة إلى تأكيد الاختلاف بين النساء ، والرجال في الخطاب القرآني ، وأساءت فهم المساواة بالمفهوم الإسلامي ، فقاسته بالمفهوم الغربي الذي يلغي الفروق بين الرجل ، والمرأة تمامًا ، فاجتهدت في إثبات ضعف المرأة النفسي ، والعضوي ، فخالفت بذلك الرؤية القرآنية ، والسنة النبوية القولية ، والفعلية .

- ونرى بذلك التطرف في كلا الرأيين ، بينما تمتاز الرؤية الإسلامية بالوسطية . واستقصاء هذا التمييز مما يحتاج إلى دراسات قائمة بذاتها . راجع في ذلك دراسة هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي ،رؤية إسلامية : ٥٩ وما بعدها .

السابقات إلى الإسلام

لما أكرم الله ﷻ رسوله بنبوته ، آمنت به خديجة وبناته ، فصدقنه وشهدن أن ما جاء به هو الحق ، ودِنَّ بدينه ، وكانت بنات النبي الأربع موجودات عند البعثة ، ويَبْعُد تأخرُ إيمانهن . كانت زينب متزوجة آنئذ من أبي العاص بن الربيع وكانت رقية وأم كلثوم متزوجتان على أنهما لم يُدْخل بهما [١] . قال ابن إسحاق : وأما بناته ﷺ فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن [٢] . والظاهر أن أهل بيته ﷺ آمنوا قبل كل أحد ، و اتفقت على ذلك جميع الكتب التي ترجمت لبنات رسول الله ﷺ . وآمنت معهن أم أيمن زوجة زيد [٣] . وقال ابن سعد : وأول من أسلم من النساء بعد خديجة ، أم الفضل زوج العباس [٤] .

وممن ذكرتهن المصادر في عداد السابقات إلى الإسلام من الصحابيات : أمينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية ، امرأة خالد بن سعيد بن العاصي ، وأسماء بنت أبي بكر . والسيدة عائشة ، والسيدة أم سلمة ، والسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان الأموية [٥] ، وفاطمة بنت الخطاب ، وأسماء بنت عميس [٦] ، وفاطمة بنت المجلل ، وفكيهة ، وبركة ابنتا يسار ، ورملة بنت أبي عوف من بني سهم بن عوف ، وسهلة ، وأم كلثوم ابنتا سهيل بن عمرو القرشيتان العامريتان ، وليلى بنت أبي حثمة القرشية العدوية ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، وأم حرملة (خولة بنت الأسود) ، وريطة بنت الحارث من بني تيم بن مرة ، وحسنة أم شرحبيل بن حسنة ، وفهيرة أم عامر بن فهيرة [٧] ، وأم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وآمنة بنت قيس [٨] . وأم رومان ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٦٧/٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١٤٧/١ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ٨/ ٣٥٩ ، علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ٤٣١/١:٤٣٥ .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٤٤٩ : ٤٥١ ، علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ٤٤٥/١ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٢٩٨/٢ . ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٤٤٩ : ٤٥١ . سبق التعريف بها صفحة ٩٣ .

(٥) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٤٠ ، ٤٢ .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٨/ ٣٨٩ ، ابن خلدون : المقدمة ٨/٢ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء : السيرة النبوية : ١/ ١١٢ ، وانظر القوائم التي وضعها صالح أحمد العلي لأسماء المسلمين في العصر المكي . صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ٣٨٧/١ : ٣٩٠ ، والملحق الأخير لمنتجمري : محمد في مكة ١٤٤ : ١٤٧ .

(٨) راجع هذه الأسماء أيضا في فصل الهجرة .

زوج أبي بكر ، وأم عائشة ﷺ[١] .

وأسلم من موالي النساء ومستضعفيهن : سمية أم عمار ، وأم عبيس ، وزنيرة ، والنهدية ، وابنتها ، وجارية بني المؤمل ، وحمامة أم بلال .

طبقات السابقات

والناظر في أنساب المسلمات الأول يجد أنهنَّ ينحدرن من معظم القبائل القرشية ، ففيهن من بني هاشم ، ومن بني أمية ، ومن بني مخزوم ، ومن بني تيم بن مرة ، ومن بني سهم بن عمرو ، ومن بني عدي بن كعب ، ومن بني عامر بن لؤي .. بل إن فيهن من غرائب نساء العرب كأسماء بنت عميس الخثعمية ، وأم رومان ، ولبابة بنت الحارث ، أم الفضل . وفيهن أيضا من نساء الموالي والعبيد .

والمتتبع لأسماء من عرفن في كتب التراجم بالمسلمات قديما ، والسابقات للإسلام ، يجد التناقض مع الروايات الشهيرة والمستقرة بأنه قد تابع الرسول أناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء ، كما قال ابن عبد البر : « استجاب له من شاء الله من الأحداث والكهول وضعفة الناس »[٢] ، وكما قال صاحب السيرة الحلبية[٣] ، وتابعتهم على هذا كثير من الدراسات الحديثة[٤] .

والحقيقة التاريخية أنه بينما بلغ عدد الحرائر من المسلمات السابقات إلى الإسلام في المرحلة السرية العشرين صحابية ، وزاد على ذلك ، فإن عدد الإماء لم يتعد الثمانية ، وهذا التناقض يصدق عند المقارنة بين المجموع الكلي من الرجال والنساء أيضا ، فلقد كان من مجموع الثلاثة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم ، فهم إذن نحو خُمْس المجموع . وما كان كذلك لا يقال عنهم « أكثرهم ولا معظمهم ولا عامتهم »[٥] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٨/ ٣٨٧ .

(٢) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٨ .

(٣) علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ١/ ٤٣١ .

(٤) انظر على سبيل المثال : د/ سعيد رمضان البوطي : فقه السيرة : ٧٧ .

(٥) انظر صالح أحمد الشامي : من معين السيرة : ٣٧ : ٤٠ ، وقد حاول في دراسته المذكورة البحث عن أصل هذا القول الشائع ، ومقارنته بالأسماء المذكورة لمن آمن في أول الدعوة ، ليؤكد على ما ذهبنا إليه من عدم قيام الدعوة على الغالبية من الضعفاء ، والأرقاء ، لأن هذا هو الحقيقة الثابتة ، التي تؤكد أن الإسلام ليس دعوة طبقية ، وإنما هو حاجة إنسانية لكرام الأقوام ، وضعفائهم معًا . وراجع : د/مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية : ١٦١ .

وهذا يستلفتنا إلى قضية هامة في هؤلاء المستضعفين ، والذين كان المفروض أن يسارعوا إلى الإيمان بالدين الجديد ، لأنه هو مخلصهم ومحررهم من ذلك الطاغوت الذي يتسلط على رقابهم ، ومع ذلك فإنهم يقفون صفا وراء الملأ [١] في مبدأ الأمر، ولا يُسْلِمون ، إلا قلة قليلة هي التي تفتح عقلها وضميرها وتؤمن بالنبي فيقع عليها الاضطهاد والتعذيب ..كما سوف نرى .

والمسألة على هذا النحو الغريب لا يفسرها إلا حالة العبودية التي يعيشونها بأفكارهم وأرواحهم . وهي العبودية التي قد تشمل الكثيرين ممن يُعَدُّون في صفوف الأحرار ، حين لا يحترمون العقل الذي أودعهم الله ، ولا يُعْمِلونه فيما حولهم من أدلة وبراهين . وربما كانت قسوة التعذيب التي حدثت لإخوانهم هي التي حالت بينهم وبين الإسلام ، وربما كان كثير من هؤلاء العبيد لا يجدون الفرصة للقاء رسول الله ﷺ ، أو لسماع القرآن ، والدعوة إلى الإسلام من ألسنة المسلمين السابقين .

لقد أنشأ التوحيد من الأحرار على اختلاف قبائلهم ، ومن العبيد معهم أمة فريدة في التاريخ ، لم يقم تجمعها على أساسٍ لون أو عرق أو لغة ، أو أية عصبية من العصبيات ، وإنما على أساس عقيدة ، شكّلت القاعدة لكل حركة الجماعة المسلمة : سياسة ، واقتصادًا ، واجتماعًا . وهذا التنوع الذي جمع بنات علية قريش بنساء الموالي دليل على أن الإسلام حاجة إنسانية لكل البشر أيما كانت مواقعهم وأنسابهم ، وليس حاجة للطوائف أو الطبقات المهمشة والمضطهدة وحسب .

---

(١) الملأ : أشراف القوم وسراتهم . المعجم الوسيط .

المبحث الثاني :

أدوار الصحابيات في المرحلتين السرية والجهرية

دورهن في المرحلة السرية

أسلم هؤلاء سرًّا ، وكان الرسول ، يجتمع بهم ، ويُرْشِدهم إلى الدين مُتَخَفِّيًا لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية . كان سعيد ابن زيد يقول : استخفينا بالإسلام سنة ، ما نصلي إلا في بيت مغلق ، أو في شِعْبٍ [١] خال ينظر بعضنا لبعض [٢] .

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا فرادى ومثنى [٣] . قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا [٤] من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتُحدِث به [٥] .

وكان دور المرأة في هذه المرحلة السرية واضحا : فمعظم الشباب المتزوجين في هذا المجتمع أسلمت معهم زوجاتهم ، وعِشْنَ المرحلة السرية دون أن يدري بهن أحد ، فحافظن على السر وكتمنه دون أن يسمع شيئا عن إفشائهن له [٦] .

وترامت الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما ، ولعلها حسبت محمدًا أحد أولئك الدَّيَّانين [٧] ، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها كأمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة ... وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته [٨] . ومرت ثلاث أو أربع سنين لم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين مسلما ، ذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن قد كلف بالجهر بالدعوة ، وهو عدد قليل إذا ما قورن بسكان مكة الذين كانوا عدة آلاف [٩] .

ولم يتوقف دور المرأة على كتمان السر ، بل لقد بدأت منذ هذا العهد المبكر بالدعوة إلى الدين ، فأم شريك ، مثلًا ، أسلمت . ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرا فتدعوهن وترغبهن في الإسلام حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا لها

(١) الشِّعْب : ما انفرج بين جبلين .
(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ١/١١٦ .
(٣) السابق نفسه ١/١١٧ .
(٤) الرَّسَل : القطيع من كل شيء .
(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ١/١٩٨ .
(٦) الغضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية ١/٢٧ .
(٧) الدَّيَّانين : جمع ديَّان .
(٨) محمد الغزالي : فقه السيرة ١/٧٦
(٩) جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ١٥٨ .

لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكنا سنردك إليهم [١] .

لقد فهمت المرأة المسلمة الدين في هذا الوقت فهما رائقا ومسئولا ، فهمت أنه كما أنها مسئولة مسئولية خاصة عن نفسها فيما يختص بدينها وعقيدتها ، فإنها مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الدين ، ومن ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أكبر المسئوليات في نظر الإسلام ، بل جوهر كل المسئوليات الأخرى ، فهمت ذلك فلم تلق حظها من تلك المسئولية اعتمادًا على ظن أو وهم أنه شأن خاص بالرجال ، ولم تتعلل بأن الرجل أقدر منها عليه أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب . وفي الفقرات التالية الدليل الآكد على ما أقول .

دور المرأة في مرحلة الجهر بالدعوة

أمر الله ﷻ نبيه محمدا ، بعد مبعثه بثلاث سنين [٢] أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادي الناس بأمره ، ويدعو إليه ، فقال : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٣] ولما أعلن رسول الله ﷺ بالدعوة نابذته قريش ، ورموه بالبهتان ، وجاهروا في عداوته وأظهروا له البغضاء ، وآذوه وآذوا من اتبعه بكل ما أمكنهم من الأذى [٤] ، لكنه ، ظل قائما في طاعة الله أتم قيام ، يدعو إلى الله تعالى الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجال والنساء .

ومنذ اليوم الأول للجهر بالدعوة يعلن ، تساوي الرجل والمرأة في المسئولية والجزاء ، وهي مسئولية تلقي على المرأة ، لتؤكد المساواة في القيمة الإنسانية بينها ، وبين أخيها الرجل ، كما تؤكد نظرة الإسلام لها كمُسْتَخلف في الأرض ، جدير بحمل الأمانة [٥] ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه

---

(١) تاريخ الطبري : ١٦٨/٣، ابن حجر : الإصابة التراجم :١١٤٣٠، ١٢١٠٢،١٢١٠١ ، ١٢١٠٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٧٦/٧ ، وفي نسبها رضي الله عنها خلاف بعيد راجعه في التراجم السابقة .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١٩٨/١ ، تاريخ الطبري : ٣٢٢/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٥٧/٣ ، وقيل دعا مستخفيًا أربع سنين . المقريزي : إمتاع الأسماع ٤١/١ . (٣) الحجر : ٩٤ .

(٤) راجع البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : كتاب الوضوء: باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد صلاته : ١/ ٤٥٩، ٤٦٠ . وصحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الجهاد والسير :باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، وتاريخ الطبري : ٣١٨/٢ .

(٥) تأمل في تقرير القرآن لهذه المساواة الآيات القرآنية الآتية ، على سبيل المثال :
﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥].
﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا =

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [١] : « يا معشر قريش : اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا بني عبد المطلب : لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب : لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله : لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت رسول الله : سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا » [٢] .

وفي تخصيصه فاطمة من بين بناته مع أنها أصغرهن وتخصيصه صفية من بين عماته حكمة لا تخفى فلقد ذكر الصغيرات ليشمل الأمر الكبيرات بطريق الأولى ، ولقد خص ﷺ أقرب الناس إليه رجالا ونساء ، فمسئولية غيرهم تتقرر بطريق الأولى كذلك .

وفي رواية ذكرها مسلم ، عن أبي هريرة ، قال : لما أنزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا فعم وخص .. [٣] وعلى الرغم من هذا التعميم والتخصيص الذي لم تغب فيه النساء ، بل إنه على الرغم من شمول النداء صفية وفاطمة فيمن خصهم ﷺ ، فلقد أجمعت المصادر التاريخية على ذكر جمع العشيرة بالقول : « جمع رسول الله ﷺ عشيرته فكانوا أربعين رجلا ، يزيدون رجلا أو ينقصونه [٤] » !! ، وقد ذكر صاحب السيرة الحلبية أنه في الإمتاع : خمسة وأربعون رجلا وامرأتان [٥] .

وهي رواية لم يذكرها غيره فيما أعلم ، ولم أعثر عليها في الإمتاع ، وكلتا الروايتين لا يتناسب العدد المذكور فيهما مع بقية الروايات التي ذكرناها في عموم النداء وخصوصه ، بل لا تتناسب مع الرواية الصحيحة التي ظهرت فيها أسماء

= ﴿ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .
﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

(١) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ٤٨٣/١ . وفي رواية : « يا فاطمة بنت محمد » .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٨٢/١ ، وراجع الأحاديث من رقم ٣١٦ إلى ٣٢٠ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء: السيرة النبوية : ١/ ١١٦ .

(٤) تاريخ الطبري : ٣٢٠/٢ ، تاريخ اليعقوبي : ٢٧/٢ .

(٥) الحلبي : السيرة الحلبية ٤٦٠/١ .

فاطمة ، وصفية ﵂ ، كما أنها لا تتناسب مع ما ذكره اليعقوبي مثلًا ، قال : اجتمعت إليه بطون قريش حتى لم يبق منهم أحد [١] .

والذي يعنينا هو أن نسأل : أين النساء إذن في هذه المصادر ، هل يدخلن تحت هذا التعميم ، أم يتم تجاهلهن على هذا النحو المُوهِم بأن أمر العقيدة لم يكن مما يعنيهن ، ويدخل في اهتمامهن ؛ وهنا نكرر أيضا القول بأن التأريخ للمرأة لم يكن هو صورة الواقع الذي كان .

لقد كانت الصيحة النبوية في النساء والرجال عند أول إنذار جهري بالدعوة ، والتي جاءت بها أصح المصادر هي غاية البلاغ عن إنسانية الرسالة وشمولها الرجل والمرأة على قدم المساواة ، وعن تقرير المسئولية الفردية لكلٍّ منهما عن موقفه أمام الله ﷻ إزاء هذه العقيدة .

والنداء النبوي في الرجال ، والنساء منذ البدايات الأولى للدعوة ، ذلك النداء الذي كان تنفيذًا للأمر الإلهي بإنذار ذوي القربى ، هو أكبر دليل على ما عمد إليه الإسلام من إنهاء واحدة من أعظم الأوضاع الفاسدة في حياة الأفراد والجماعات ، وهي مسألة التبعية عامة عند الرجل وعند المرأة ، وهي مسألة عاشتها المرأة قرونا قبل الإسلام ، ومما يدعو للعجب أن تستمر معايشتها لها بعده .

لقد كان هذا النداء يُرَسِّخ ، ويؤكد المبدأ الأصل الذي ينبغي أن تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية ، والعلائق الإيمانية بين الرجال والنساء في الإسلام ، ذلك المبدأ هو أن الموالاة بين المؤمنين رجالًا ، ونساءً ترتبط بالأعمال ، لا بالأشخاص ، والذوات ، ولا بنوع المؤمنين : رجالًا كانوا ، أو نساءً [٢] .

الاضطهاد في سبيل العقيدة

قال ابن إسحاق : ثم إنهم عَدَوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، .. فمنهم من يفتن من شدة البلاء

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢٧/٢ .

(٢) تأمل قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، فلقد انصب الإنكار في الآية على العمل السيئ ، ولم يشر إلى العامل المسيء ، فضلًا عن نوع العامل المسيء ، أو جنسه : رجلًا كان ، أو امرأة . وإذا كانت البراءة من العصاة ترتبط بالعمل على هذا النحو ، فإن الموالاة الإيمانية ترتبط هي الأخرى بالعمل ، ولا شك .

الذي يصيبه ، ومنهم من يصْلُب لهم ويعصمه الله منهم [١] .

وكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام ، نفَّس الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه وكان التنفيس على أشده في أشخاص الموالي لأنه لم تكن لهم منعة ، فكان العذاب أقسى وأفظع ، عن سعيد بن جبير [٢] ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب مايُعذَرون به في ترك دينهم ، قال : نعم . والله إنْ كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويُعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضُّر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ، فيقول : نعم ، حتى إن الجعل ليمر به ، فيقولون له أهذا الجُعْل [٣] إلهك من دون الله ، فيقول نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده [٤] ، وفي مثل هذا أنزل الله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [٥] .

لقد لاقت المرأة مع الرجل تنكيلا تقشعر من هوله الأبدان فلقد « كانوا يسوون بين الرجال والنساء في التعذيب » [٦] ، وتفاعلت المرأة مع الرجل بنفس المسئولية وبنفس قدر المواجهة :

كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول : صبرا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٦/١ ، وانظر ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٨ ، ٢٩ ، تاريخ الطبري : ٣٢٧/٢ .

(٢) سعيد بن جبير بن هشام : أبو محمد ، [أبو عبد الله] الأسدي الوالبي ، مولاهم ، الكوفي ، الإمام الحافظ، المقرئ ، المفسر ، الشهيد ، أحد الأعلام . قرأ القرآن على ابن عباس ، . قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء ، وطائفة . كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه ، يقول : أليس فيكم ابن أم الدَّهماء ، يعني سعيد بن جبير . انظر ترجمته في الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٤/ ٣٢١ : ٣٤٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢/ ٣٧٢ .

(٣) الجُعَل : دابة سوداء من دواب الأرض ، قيل : هو أبو جعران . لسان العرب .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٨/١ ، ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٥ ، تاريخ الطبري : ٣٢٧/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٥٧/٣ .

(٥) النحل : ١٠٦ .

(٦) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير : ٤٣ ، ٤٤ .

آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى إلا الإسلام [١] . روى الإمام أحمد عن مجاهد قال : أول شهيد كان في الإسلام أم عمار سمية طعنها أبو جهل بحربة في قُبُلِها [٢] .

إن القدر الإلهي الذي شاء لأول شهيد في الإسلام أن يكون امرأة ليُعَدُّ واحدًا من أبلغ الأدلة على ما كان يراد للمرأة المسلمة من قيامٍ مسئول ، وجاد في سبيل الدين ، وما يدعو إليه ، كانت سمية سابع سبعة في الإسلام وكانت من السابقين وممن أظهر الإسلام بمكة أول الإسلام ، عن ابن مسعود قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد .

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون ، فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ ، فأعطوهم ما سألوا ، فجاء إلى كل واحد قومه بأنطاع الأدم [٣] فيها الماء ، فألقوهم فيها ، .. فلما كان العشي جاء أبو جهل ، فجعل يشتم سمية ويرفث ، ثم طعنها في قبلها فقتلها فهي أول شهيد في الإسلام [٤] ، وروي هذا الحديث عن منصور عن مجاهد [٥] .

وكانت النهدية وابنتها لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، وهي تقول لهما : والله لا أعتقكما أبدًا ، فقال أبو بكر : حل [٦] يا أم فلان ، فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتِقهما ، قال الصديق : فبكم هما ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٨/١ ، الفاسي : العقد الثمين ٢٤٣/٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٥٧/٣ رواية عن البيهقي ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١٩/١ ، البيهقي : دلائل النبوة ٢٨٢/٢ ، البلاذري : أنساب الأشراف ١٩٠/١ .

(٣) أنطاع الأدم : سير من الجلود ، والأدم : الجلد ، ما كان ، وقيل : الأحمر ، وقيل :المدبوغ . وأديم كل شيء ظاهر جلده .

(٤) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٥. وصهروهم :جعلوهم تحت أشعة الشمس تمس جلدهم .

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤١٩/٤ ، وقال ابن عبد البر في الدرر صفحة ٢٥: ولم يذكر في هذا الخبر خديجة ولا علي وهما أول من أسلم .. لأنهما كانا في بيت رسول الله ﷺ ، ومن كان في بيته كان في جوار عمه . ومع ذلك فإنه لم يظهر إلى قريش منهما ذلك ، فلم يؤذيان وهؤلاء السبعة ظهر منهم ذلك فلقوا الأذى الشديد من قومهم .

(٦) أي تحللي من قسمك .

قالت المرأة العبدرية : بكذا ، وكذا ، فقال الصديق ﷺ : قد أخذتهما ، وهما حرتان ، أرجعا لها طحينها . قالت النهديتان : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، قال : ذلك لكما إن شئتما (١) .

وأعتق ﷺ أيضا جارية بني المؤمل ، حي من بني كعب ، وكانت مسلمة وعمر ابن الخطاب يعذبها ، وهو يومئذ على الشرك ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك (٢) .

وأعتق أبو بكر أيضا أم عُبَيس ، وكانت فتاة لبني تيم بن مرة ، فأسلمت ، وكانت ممن يعذب في الله تعالى ، فاشتراها أبو بكر وأعتقها (٣) ، وزنيرة ، قال هشام ابن عروة : وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذبون في الله ، فاشتراهم أبو بكر ، وكانت رومية لبني عبد الدار فلما أسلمت عميت ، فقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . فرد الله بصرها (٤) . وأعتق أيضا حمامة أم بلال (٥) .

ولم يقتصر التعذيب على المستضعفين من الموالي والأرقاء ، فقد تفنن كل بطن من بطون قريش في التنكيل بمن أسلم من أبنائها ، فكانوا يحبسونهم في الظلام ويقيدونهم بالحبال ويحرمونهم الطعام والشراب ، ويذيقونهم من ألوان الأذى (٦) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٥٦/٣ . تأمل قول الأستاذ محمد الصادق عرجون في هذا الموقف للنهدية وابنتها : كانت الطبيعة البشرية المنطلقة من أغلال العبودية ، المُخَلَّصَة من بلاء العذاب .. مهيئِة أن تستبد بها الفرحة ، ويستفزها شعور الحرية ، وإحساس المساواة في الحقوق والواجبات بهاتين الجاريتن اللتين كانتا من لحظة تفرض عليهما أحكام العبودية في صلف واستكبار من سيدتهما الظالمة ... للوثبة والرد على الظلم والتعالي على الظالمين ، ولا أقل من أنهما كانتا ترميان بطحين هذه السيدة الظالمة التي ساوياها في الحرية ، وتساميا عليها بالإسلام ... لكن أدب الإسلام ومكارم الأخلاق التي قامت دعائمه عليها ، ومعرفة الله تعالى بجلال وحدانيته أبت عليهما إلا أن تكونا متفضلتين بالإحسان على من طالما أساءت إليهما ..... فلله هذا الدين الحنيف ... ولله قوم ادّرعوه عقيدة وعملًا . الصادق عرجون : محمد رسول الله : ٢/ ٢٣٠ .

(٢) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير : ٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٥٦/٣ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين : ٨ /٣٤٤ ، علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية : ٤٨٢/١ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢٣٨،٢٣٧/١، ابن كثير : البداية والنهاية : ٥٦/٣ ، الفاسي : العقد الثمين : ٢٣٩/٨ .

(٥) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير : ٢٩ .

(٦) تاريخ الطبري : ٣٢٧/٢ .

قال سعيد بن زيد : والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم [١] . وفي رواية : لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام وأخته وما أسلم .. [٢]

ولم تكن إذاية المشركين للمؤمنات في مكة وحدها ، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة ، فقد روى ابن سعد أن أم شريك غزية بنت جابر [٣] أسلمت هي وزوجها ، ولما هاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها ، جاءها أهل زوجها أبي العَكَر [٤] ، فسألوها إن كانت على دينه ، فأقرت بإسلامها ، فأقسموا على تعذيبها عذابًا شديدًا ، فارتحلوا بها من ديارهم ، وحملوها على شر ركابهم وأغلظه ، ثم أطعموها خبزا وعسلا ، ومنعوا عنها الماء ، وتركوها في الشمس ثلاثة أيام ، حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها.وفي اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها ، فلم تفعل غير الإشارة بإصبعها إلى السماء بالتوحيد ، ولا تعي ما يقولون من شدة الإغماء والإعياء [٥] .

ولقد كان الإسلام قد وجد طريقه إلى المدينة قبل الهجرة ، وكانت حواء بنت يزيد بن سنان الأنصارية مسلمة ، قد أسلمت قديما ورسول الله ﷺ بمكة ، وكان زوجها قيس بن الخطيم [٦] يصدها عن الإسلام ، ويعبث بها وهي ساجدة فيقلبها

---

(١) الإمام أحمد : كتاب فضائل الصحابة ٢٨٧/١ .

(٢) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب فتح الباري : كتاب المناقب ، باب إسلام عمر بن الخطاب : ٧/ ٢٢٥ .

(٣) أم شريك : ذكر نسبها ابن الكلبي ، فقال : بنت دودان بن عوف بن عمرو .. بن عامر ، وقال غيره : عمرو بن عامر بن رواحة بن حجير . واختلف آخرون في تسميات مختلفة . راجع الإصابة ١٢١٠٣ . واختلف في نسبها كثيرا . قال ابن حجر : والذي يظهر في الجمع أن أم شريك واحدة ، اختلف في نسبها أنصارية أو عامرية من قريش ، أو أزدية من دوس ، واجتماع هذه النسب ممكن ، كأن يقال : قرشية تزوجت في دوس فنسبت إليهم ، ثم تزوجت في الأنصار فنسبت إليهم ، أو لم تتزوج بل هي نسبت أنصارية بالمعنى العام . ابن حجر : الإصابة ٤٢٠/٨ .

(٤) أبو العَكَر : هو مسلم بن سلمى ، هكذا أورده أبو عمر مختصرًا . وقال أبو عمر : أبو العكر بن سمي بن الحارث الدوسي . ابن حجر : الإصابة : ٧/ ٢٣٥ .

(٥) ابن حجر : الإصابة : ٧/ ٢٣٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبري : ٣٢٤/٨ . من رواية ابن سعد ، عن الواقدي، عن الوليد بن مسلم ، عن منير بن عبد الله الدُّوسي .

(٦) قيس بن الخطيم : الأنصاري ، الشاعر المشهور ، وهو من الأوس . قال ابن حجر : ذكره علي بن سعيد العسكري في الصحابة ، وهو وهم ، فقد ذكر أهل المغازي أنه قدم مكة ، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام ، وتلا عليه القرآن ، فقال : إني لأسمع عجبًا ، فدعني أنظر في أمري هذه السنة ، ثم أعود إليك ، فمات قبل الحول . ابن حجر : الإصابة : ٥/ ٤١٧ .

على رأسها ، وكان رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة يخبر عن أمر الأنصار ، فأخبر بإسلامها ، وبما تلقى من قيس ، فلما كان الموسم أتاه النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام فقال : « يا أبا يزيد إن صاحبتك حواء قد بلغني أنك تسيء صحبتها مذ فارقت دينك ، فاتق الله واحفظني فيها ولا تعرض لها » [١] وفي رواية : « إن امرأتك قد أسلمت ، وإنك تؤذيها ، فأحب أنك لا تتعرض لها » [٢] .

وهكذا لم تكن القضية قضية قريش وحدها ، وإنما كانت قضية كل قبيلة في الجزيرة العربية وصلتها الدعوة . وقصر الحديث على قريش أو تركيزه ، قبولاً للدعوة ، أو رفضًا لها ، يعطي الدارس إيحاء خاطئا بأنها معركة محلية ، أو شخصية بين قريش وبين محمد ﷺ ، والملابسات وحدها هي التي جعلت قريشا أشد القبائل اشتباكا به ، بحكم أنهم قوم الرسول المباشرون . وهكذا وقفت الجاهليات جميعا من هذه القضية موقفا واحدا ، هو الرفض لـ « لا إله إلا الله » بمعناها الشامل ، وذلك لما يترتب عليها في التاريخ كله : أن يكون الناس أحرارًا في عالم الواقع أم عبيدًا بعضهم لبعض ، كما يترتب عليها أن يمارسوا العدل في ظل منهج الله ، أم يمارسوا المظالم في ظل المناهج البشرية [٣] .

ولقد يؤدي بنا التفكير الذي استمرأ تهميش دور المرأة ، واعتباره فرعا لا أصلا أن نتساءل : ألم يكن يسع النساء ، لأنهن نساء أن يدارين ولا يظهرن إسلامهن ، خلوصا من هذا العذاب ، ولم يكن هذا أمرًا مرفوضًا في الدين ، لا مع الرجال ولا مع النساء [٤] .

وإن إجابة ذلك أن النساء - حسبما دلت مطالعتنا في هذا العهد الكريم - لم يعرضن لهذا القول ، بل ولم يعرض له بقية المسلمين من الرجال ، وكانت المسئوليات تتدوال بين جميع المكلفين من الرجال والنساء ، متى قدر الواحد منهم على هذه المسئولية ، ولو جاز أن تعفى المرأة من تبعة موقف جماعي ، لكان هذا الموقف هو الاضطهاد والتعذيب ، ويكفي أن نتذكر بشاعة القِتْلة التي قُتِلَتْها سمية رضي الله عنها وأرضاها ، لنتعرف مصداق ما نقول . ولقد مر رسول الله ﷺ بآل ياسر يعذبون ، فلم يقدم الرخصة بالمداراة لسمية لأنها امرأة ، على حين أنه لما ضعف

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٢٣/٨ . (٢) ابن حجر : الإصابة: ٩١/٨ .

(٣) محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي ٧٠ ، وما بعدها بتصرف .

(٤) انظر مسلم بشرح النووي ٣٦٠/١ ، باب جواز الاستسرار بالإيمان للخائف .

احتمال عمار تحت سياط التعذيب ، وهو الفتى الشاب ، وفاه بكلمات أجبره الطغاة على التفوه بها ، قال له رسول الله ﷺ : « إن عادوا فعد » .

فالمسألة إذن ليست نساء أو رجال ، إنما هي مسألة قدرة واستطاعة ، ولقد تقدر المرأة في مواقف لا يقدر عليها كثير من الرجال .. وإن الواحدة من المعذبات لم تكن تعطي السادة والطغاة شيئا من لسانها فضلا عن قلبها ، بل إنه لم يكن يخرج من لسانها إلا ما يسوء الكافرين ، كما كانت تفعل جارية بني المؤمل وزنيرة . وإن هذه الصور لاحتمال المرأة المسلمة في سبيل عقيدتها هي أقوى الأدلة على أن المسئولية الإيمانية عندها كانت جزءًا من الاعتقاد نفسه .

صورة لدور المرأة في القبائل الأخرى

ولم تغب عن المصادر صورة المرأة في القبائل الأخرى ، ذلك أنه لما وجد الرسول ﷺ أن الدعوة قد وصلت إلى طريق مسدود مع أهل مكة لم ييأس ﷺ وقرر أن يستمر في عرض دعوته على قبائل العرب القادمة إلى مكة في مواسم الحج والعمرة والتجارة ، بل والخروج إلى منازل القبائل حول مكة ، ليخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين ما بعثه الله به.

وكان للمرأة المسلمة حضورها في هذه القبائل في هذه المرحلة المبكرة – كما في كل المراحل – فلقد ذكر ابن حجر .. عن عبد الرحمن العامري [١] ، عن أشياخ من قومه : قالوا أتانا رسول الله ﷺ ونحن بعكاظ فدعانا إلى نصرته ومنعته ، فأجبناه حتى إذا جاء بَيْحَرَة بن فِهْراس القُشَيري ، فغمز شاكلة ناقة رسول الله ﷺ فقمصت به ، فألقته ، وعندنا يومئذ ضباعة بنت عامر ، وكانت من النسوة اللائي أسلمن مع رسول الله ﷺ بمكة ، فجاءت زائرة بني عمها ، فقالت : يا آل عامر ولا عامر لي ، يصنع هذا برسول الله بين أظهركم ولا يمنعه أحد منكم، فقام ثلاثة من بني عمها إلى بَيْحَرَة فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ، ثم جلس على صدره ، ثم علا وجهه لطما . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك على هؤلاء » ، فأسلموا وقتلوا شهداء [٢] .

لقد كان موقفها رضي الله عنها واستنفارها بني عمها لنصرة رسول الله ﷺ موقفا واضحا في الدلالة على الاحساس بالمسئولية ، بل والشعور بالقوة في ذلك ، تلك القوة التي

(١) ذكر ابن حجر : عبد الرحمن بن عامر ، المكي ، قال : مقبول . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٥٧٦ .
(٢) ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٢٢١ .

يبثها الدين في قلوب أتباعه ، فلقد قامت رضي الله عنها بهذا الدور بينما كان الإسلام لما يزل غريبًا ، قليل الأتباع ، معدوم النصير ، ولم يؤثر هذا الحال في قوة استنفارها لبني عمها كي تخلِّص الرسول ﷺ مما كان فيه .

كيف استطاعت المرأة كل ذلك ؟

لقد قدمت معظم الكتابات في هذا الشأن معطياتها متخطية الإجابة عن السؤال الهام : كيف حدث هذا ، إننا نعجب بالبطولة ونمتدح التضحية والفداء ونزدهي بالشجاعة ، ولكننا قلما نفكر في السبب الكامن وراء هذه البطولة ، وهو الحقيقة التاريخية الأساسية التي ينبغي للباحث أن يحاول استجلاءها واستخراجها للناس .

كيف غَيَّر الإسلام ملامح الشخصية العربية ذاتها ، بينما كانت لا تزال في بيئتها ذاتها التي شكلتها من قبل .... لقد جاء الإسلام وما تغير في هذه البيئة شيء ، لاطبيعتها المادية ، ولا أحوالها الاقتصادية .. وإنما تغيرت النفوس . وكان تغيرًا هائلا هز قريشًا وهي تضطهد المؤمنين وتعذبهم بأقصى ما في طوقها من صنوف التعذيب ... والمسألة في نفوس أولئك الأفراد غاية في البساطة : لقد خلعوا الأرباب التي كانوا يتعبدونها في الجاهلية ، فما عاد لها عليهم سلطان . وإذن فإن كل ما تغير هو العقيدة الجديدة التي عمرت هذه القلوب فغيرت كل شيء فيها (١) .

النساء في فترة دار الأرقم

دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم بن أبي الأرقم (٢) ، وبقي فيها مختفيا مع جماعته إلى أن أذن الله لهم بالخروج . وكان ، يلتقي بالرجال والنساء في هذه الدار (٣) .

---

(١) إن علم الاجتماع يقول : إن البيئة هي التي تشكل عادات الإنسان وأخلاقه وطريقة تفكيره ، ويأتي التفسير المادي للتاريخ فيقول : إن الطور الاقتصادي الذي يعيش فيه الإنسان هو الذي يشكل العادات والأخلاق والتنظيمات والمؤسسات . وكلاهما قد يكون صادقا إلى حد كبير في تفسير أوضاع الناس .. ولكن عيبهما أنهما يغفلان دور العقيدة في تشكيل حياة الإنسان ، ومن ثم يفشلان في تفسير تاريخ الإسلام منذ آدم إلى محمد ﷺ إلى آخر التاريخ . انظر الأستاذ محمد قطب : كيف نكتب التاريخ ٨٢ وما بعدها .

(٢) الأرقم بن أبي الأرقم : كان اسمه عبد مناف بن عبد مناف بن أسد بن عبد الله ، المخزومي ، يكنى عبد الله . كان من السابقين الأولين ، قيل أسلم بعد عشرة ، كان من عقلاء قريش قال البخاري : ذكره ابن إسحاق ، وموسى بن عقبة فيمن شهد بدرًا . كانت داره المذكورة عند الصفا ، عاش إلى دولة معاوية . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ت ٩٦ ، وطبقات ابن سعد ٢٤٢/٣ ، والبخاري : التاريخ الكبير ٤٦/٢ ، والطبراني : معجم الطبراني ٢٨٤/١ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٦١/١ ، ابن حجر : الإصابة ١/ ١٩٦ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٧٧/٣ ، تاريخ ابن الوردي ١٤٠/١ .

وكان أمر هذه الدار من الأسرار العظيمة لدى جماعة المؤمنين رجالًا ونساء : اؤتمنوا عليه ، وأحاطوه بذات نفوسهم ، فلقد روي أنه لما خطب أبو بكر ﷺ في مسجد قريش عند الكعبة .. قام إليه المشركون فضربوه ضربا مُبْرِحا وحمل إلى بيته . فلما أفاق ، قال : ما فعل رسول الله، فقالت أمه : والله ما لي علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب [١] ، فاسأليها عنه . فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله . وإن كنت تحبين أن أذهب معك ، قالت : نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنَفِا [٢] ، قد أشفى على الموت [٣] .

فدنت أم جميل ، وقالت : إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ؟ قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال أين هو ، قالت : في دار الأرقم بن أبي الأرقم . قال : فإن لله علي ألا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتي رسول الله . فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكأ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ، فأكب عليه رسول الله فقبله وأكب عليه المسلمون [٤] .

وفي ظل هذه الأحداث ، وفي واحدة من أدق أسرار الجماعة في هذه المرحلة ، كان الحضور النسائي الحميم ، والدقيق فلقد علمت أم جميل بنت الخطاب بمكان رسول الله ، في دار الأرقم ولما يكن قد مر زمن طويل على استخفائه ، بها.

ولعل الرسول ﷺ كان يلتقي بأصحابه في أكثر من مكان ، وهو أمر ندلل عليه بعدم معرفة أبي بكر ﷺ بمكان رسول الله ﷺ بعدما أفاق . و لو كان ﷺ عالما لما بقي هناك معنى لإلحاحه أن يطمئن على رسول الله ﷺ ، ويعرف مكانه ، ونشدانه ذلك ، بإرساله أمه إلى أم جميل بنت الخطاب [٥] .

---

(١) سبق التعريف بها

(٢) والصريع : الواقع ، والدنف : من اشتد مرضه وأشفى على الموت . وأكب عليه : أقبل عليه ولزمه وشغل به

(٣) أشفي على الموت : أشرف عليه . ولا يكاد يقال أشفى إلا في الشر . لسان العرب .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية .

(٥) ذكر الأستاذ صالح أحمد الشامي أن سؤال أبي بكر عن مكان وجود الرسول ﷺ ، وهو الرجل الذي قلما يفارقه ، يعني أن هناك أكثر من مركز يلتقي به المؤمنون سرًا ، ويكون تحديد اللقاء في أحدها آنيًا ، وإلا فكيف تعرف أم جميل المكان ، ويجهله أبو بكر ، وهو لم يغب عن رسول الله إلا يومًا واحدًا . صالح الشامي : من معين السيرة :٦٤.

كانت أم جميل تقدر المسئولية تقديرًا واعيًا ، فالمتأمل في رواية أم جميل يجد الحذر البالغ والحرص على حماية سر دار الأرقم حفاظا على الجماعة المستضعفة وقائدها : أنكرت فاطمة بنت الخطاب معرفتها بأبي بكر ومحمد ﷺ ومكان وجوده ، لكن تمام إحساسها بالمسئولية لم يجعلها تستطيع أن تكتفي بالإنكار ، فحاولت أن تجد منفذا تعين به أبا بكر ، فعرضت على أمه أن تصحبها إليه ، ولما ضاقت بما وجدت عليه أبا بكر من ضر وأذى سَارَّته بالتعبير عن هذا الضيق ، ولم تكن لتخرج السر حتى تطمئن تماما أنه ليس عليها من أمه بأس ، بل ليس على رسول الله والجماعة المؤمنة بأس.. ولا يغيب عنا موقف أم الخير بنت صخر ، أم أبي بكر ، وقد أسلمت في غضون هذه الحادثة ، دعاها رسول الله فأسلمت ، فكانت ممن أسلم قديما [١] .

وإن هذا الحضور المسئول يدعونا إلى التأمل والعجب مما حدث بعدُ في تاريخ المسلمين من تغييب ، وربما إبعاد للمرأة عن الحضور الواعي فيما يخص شئون الجماعة المسلمة .

ونعود إلى دار الأرقم ، إننا لا نجد في كتب الأخبار والتواريخ والسير تاريخًا مضبوطًا للوقت الذي استخفى فيه الرسول ، والمسلمون في دار الأرقم ، فالروايات في ذلك مضطربة ، ولكن المرجح على ما يبدو من النظر فيها ، ومقارنتها بالأحداث الأخرى الشهيرة ، أنها كانت في السنة الرابعة حيث كان ، قد جهر بالدعوة ، وكانت الحملة المسعورة على المسلمين قد بدأت ، في نفس الوقت الذي كان ينبغي للرسول أن يواصل إبلاغ أصحابه بما ينزل عليه من الوحي [٢] .

والأرجح كذلك أن استخفاءه في هذه الداركان لفترات قصيرة خلال اليوم ، كي يتسنى له أن يلتقي بالداخلين في الإسلام ، وأن يبلغ المؤمنين ما ينزل من الوحي ، وليلتقي بأكبر عدد منهم .

---

(١) أخرج بن عاصم والطبراني بسند بيّن ، عن ابن عباس قال: أسلمت أم أبي بكر ، وأم عثمان، وأم الزبير ، وأم عبد الرحمن بن عوف وأم عمار . ابن حجر : الإصابة ٣٨٦/٨ .

(٢) ذهب د. عماد الدين خليل إلى أنها كانت في أواخر السنة الثالثة ، أو في السنة الرابعة من النبوة ، أي في أواخر عهد الكتمان . عماد الدين خليل : دراسات في السيرة : ٥٤ . وهو ما يتناقض مع الرواية المذكورة عن فاطمة بنت الخطاب كما ذكرنا بل ويتناقض مع الرواية الشهيرة في إسلام عمر في دار الأرقم وكان إسلامه بعد هجرة المهاجرين إلى الحبشة . وهو ما تؤكده رواية الحافظ أبي الحسن خيثمة بن سليمان . ابن كثير : البداية والنهاية : ٧٧/٣ .

وأرجح من خلال البحث ودراسة الروايات المختلفة أن مدة الاستخفاء كانت قرابة العامين [١] وهي مدة ليست باليسيرة ليحتفظ فيهاالمؤمنون من الرجال والنساء بسرية المكان الذي تلتقي فيه الجماعة المسلمة . ولقد كان خروج الرسول والصحابة من الدار بأمر نبوي ولم يكن عن كشف لسرها ، أو اكتشاف له.

وعلى الرغم من استنتاجاتنا التي مرت إلا أننا نشعر بأسف - ولاشك - أن تفاصيل الاستخفاء لم تصل إلينا على نحوٍ مُرْضٍ ، ولقد كانت معرفة تلك التفاصيل قمينة بإيضاح حركة المرأة ودورها في هذه الفترة اللاحبة ، حيث كانت جهرية الدعوة ، وسرية دار الأرقم ، وبداية مرحلة التعذيب والاضطهاد في آن واحد . وأيضا إيضاح نوع التربية التي كانت تتلقاها المرأة المسلمة مع أخيها المسلم لحمل أمانة هذه الدعوة . ومن أسف أن شيئا من هذا لم تأتنا به المصادر ، وهو أمر نسجله .

---

(١) الواقع أن الروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الأرقم ،فهناك من يجعل مدتها شهرا فقط ، وهناك من يجعلها أربع سنين . ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٢٢٤ ، الحلبي : السيرة الحلبية ١/٣١٩ ، ٤٥٧ . ولعل الذين قالوا بأن الإقامة في دار الأرقم كانت شهرًا ، جاء من فهمهم للرواية القائلة : « أقاموا في تلك الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون رجلًا » فالواقع أن هذه العبارة تدل على أن عدد المسلمين لم يزد طيلة شهر كامل عن هذا العدد ، وهو ما رجحه الحلبي ، فقال : وقد يقال الإقامة شهرا مخصوصة بالعدد المذكور .

وأقول بأن مدة الاستخفاء كانت ما بين العامين و التسعة عشر شهرا ، فلقد بدأ الاستخفاء في بداية العام الرابع من البعثة وانتهى بعد إسلام عمر بن الخطاب في أوائل السنة السادسة من البعثة ، وكان إسلامه بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله إلى الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة . ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٧٧ ، و كان الجهر بالدعوة قد بدأ في أواخر السنة الثالثة من البعثة ، كما ذكر ابن إسحاق في روايته المذكورة عند ابن سيد الناس : عيون الأثر : ١/ ١٢٢ ، والمشهور في المصادر التاريخية أنه بعدما عز جانب المسلمين بإسلام عمر ، ومن قبله حمزة خرج المسلمون من دار الأرقم .

وذكر البعض أن الروايات متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء ، هل كان استخفاء تاما من الناس في تلك الدار فلا يخرج منها أحد ، أو كان استخفاء في أوقات قصيرة من النهار ، لأجل الصلاة وتوضيح الإسلام ، وقبول أحد فيه . جواد علي : تاريخ العرب في الإسلام ١٦٥ .

إلا أنني أميل إلى القول بأن الإقامة فيها لم تكن دائمة ، ذلك أن اختفاء العدد غير القليل من المسلمين في دار الأرقم وافتقاد قريش لبعضهم - وهم من أبنائها وذوي أرحامهم ومواليهم - مما قد يثير الشك ويدفع إلى سرعة اكتشاف سر هذه الدار ، وهو ما لم تقل به أي من المصادر التاريخية . وتجدر الإشارة إلى أن دار الأرقم كانت قرب الصفا ، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية ، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض ، كما أن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس مع بني هاشم ، فيستبعد أن يختفي الرسول عنده ، وتنصرف الأذهان في هذه الحالة إلى منازل كبار الصحابة. المباركفوري : الرحيق المختوم ٤٩ .

لكننا على كل حال نستطيع الاستدلال بالنتيجة على المقدمة في هذا الصدد ، ذلك أن الجماعة الصغيرة التي خرجت من مرحلة التربية في دار الأرقم ، قد خرجت وكأنما قد هُيئت وأُعِدتْ إعدادا لما وقع عليها بعد من بلاء ، وطَّنوا أنفسهم على الصبر وتركوا الجزع وتوثقت الصلة بينهم وبين خالقهم ، فتجاوزوا الروابط الأخرى التي تربطهم بالأهل والأولاد والقوم ، بل تجاوزوا روابط النفس وأهواءها ، فتكون لديهم الوعي الأصيل الذي مكنهم من احتمال الاضطهاد والتضحية والمعاناة وهو أمر لا نرجعه إلا إلى نوع التربية التي تمت في دار الأرقم .

لقد كانت الفترة التي قضاها الرسول ﷺ في هذه الدار فترة هامة في الدعوة الإسلامية بمكة ، ولقد كانت كذلك مرحلة واضحة المعالم في تاريخ الجماعة المسلمة ، حتى إن الكثيرين من المسلمين يؤرخون كثيرًا من أحداث الإسلام بتلك الأيام التي كان الرسول ﷺ يبث فيها الدعوة بدار الأرقم [١] .

ولقد ذكرت المصادرفيمن أُرِّخَ إسلامهن بدخول دار الأرقم : رملة بنت أبي عوف السهمية [٢] ، وأسماء بنت عميس [٣] : أسلمتا قبل دخول دار الأرقم . وقال ابن سعد: أسلمت فاطمة بنت الخطاب هي وزوجها .. قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم [٤] .

الخلاصة كانت المسلمة الأولى نقطة تفوق للمرأة في ظل الإسلام ، لم تعزل عن حادثة وإن دقت وعظم خطرها ، ولا أبعدت عن مسئولية ، وإن عظمت تبعاتها ، وتلك في الحق بداية للطريق الجديدة التي كان يراد من المرأة المسلمة أن تسير فيها في ظل الإسلام .

على أن المصادر التاريخية لم تكن معنية العناية الكافية بتأريخ كيفية اعتناق المرأة للدين ، وإذا كانت قد قدمت لنا كيفية اعتناق السيدة خديجة رضي الله عنها – وهو تقديم متناثر عبر مفازات المصادر ، وغير ملتحم البنية – فإننا نرجح أن هذا التقديم لم يكن إلا لاقتران التأريخ له بالتأريخ للخطوات الأولى للحبيب المصطفى ﷺ . والشيءُ

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : ٣٨ ، وعن دار الأرقم انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ١٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن حجر : الإصابة ١٤٣/٨ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ١٤/٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/ ٣٨٩ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٨٣/٨ .

نفسه حدث عند التأريخ لكيفية اعتناق أم سليم للإسلام بالمدينة ، فلقد جاء إما في معرض الحديث عن إسلام أبي طلحة وإما عند الحديث عن المهر ، وظهرت قلة العناية أيضا بتأريخ دور المرأة في ذاته عند الإصداع بالدعوة ، حيث الإهمال الواضح لتقرير دورها ، كما تبين لنا خلال الدراسة .

على أن الروايات القليلة والمتناثرة عبر المصادر ، والتي لم يكن المؤرخ يعمد إليها تعبيرا عن موقف المرأة ودورها ، وإنما كان يأتي ذكر المرأة فيها عرضا في ثنايا القضايا التاريخية الأخرى ، هذه الروايات رغم ذلك كانت معينة للبحث على إيضاح وتصور دور المرأة .

وهذه الصورة التي قدمتها المصادر ، رغم أنها ليست الصورة الكاملة ، هي صورة على درجة رفيعة من مستوى التضحية والفداء في سبيل العقيدة ، كانت مجبرة للمؤرخ على إظهارها وهو ما يدعونا إلى القول بأن اعتبار دور المرأة واحترامه إنما يأتي من عند نفسها أولا ، على أنه لا يمكنها ذلك إلا بأن تحسن الفهم للمنهج الرباني وتتمثل به ، وتتمسك بما أراده لها ربها من عزة وما رفعها إليه من مكان معتبر ومسئول .

وأخيرًا فإنه من الأهمية بمكان دراسة البيئة الثقافية والاجتماعية لمؤرخي المصادر الأولى ، تلك البيئة التي نرجح أنها قد حكمت شكل تأريخهم لدور المرأة ، وهذه قضية بحثية تنتظر من يتناولها في مدى المصادر التاريخية كلها .

الفصل الثاني

دور المرأة في الهجرة

دُرس حدث الهجرة من جوانب عدة ، وكُتب فيه العدد الهائل من البحوث والدراسات ، والذي يعنينا هنا في هذا المبحث هو أن نرصد ، ونبحث عن موقع المرأة في هذا الحدث مع التركيز على زاويته السياسية .

ما هو تعريف الهجرة ؟ وما الدور الذي قامت به المرأة في هذه الحركة التاريخية ؟ وهل كانت المرأة ملزمة بالهجرة كما كان الرجل ؟ وما هي النتائج التي نفيدها في هذا الشأن ؟ .

تعريف الهجرة

أصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن . والهجرة الخروج من أرض إلى أرض . والمهاجرون الذين ذهبوا مع النبي ، مشتق منه ، وُسمُّوا بذلك لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشأوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال . والهجرة هجرتان : هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة . فإذا أطلق ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة [١] .

كانت الهجرة تحولًا سياسيًا ضروريًا للخروج بالدعوة الإسلامية إلى آمادها التي أرادها الله لها ، لم تكن الجماعة المسلمة تملك من العدد والعدة ما تستطيع به مواجهة قريش فضلا عن أن تقيم دولة تحيا لإقامة المشروع الإسلامي ، وإبلاغ شريعة الله إلى الناس جميعا . لقد مرت أيام عصيبة على الفئة المؤمنة في مكة حتى لم يكن يقيم بين ربوعها إلا مُسْتَخْفٍ أو من هو في جوار ، بل إنه حتى السنة العاشرة من البعثة عندما عاد الرسول ﷺ من رحلته إلى الطائف وكان قد لاقى ما لاقى فيها من نصب ومهانة ، دخل ، مكة في جوار المطعم بن عدي [٢] !!. لقد كانت الهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة حركة سياسية واعية تمت على عين الله ، للحفاظ على الدعوة وتأمين سياستها .

---

(١) لسان العرب : مادة هجر ، الفراء : الأحكام السلطانية ١٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٤٧/٢ . والمطعم بن عدي : هو أحد شرفاء مكة ، وأحد الذين قاموا في نقض الصحيفة ، مات قبل بدر على شركه ، وفيه قال ﷺ لابنه جبير عن أسارى بدر : « لو كان الشيخ أبوك حيًا فأتانا فيهم لشفعناه » . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥١٥/١ .

المدى الزمني للهجرة وحكمها

امتد زمان الهجرة منذ أمره ﷺ للصحابة بالهجرة إلى الحبشة ، وتبعتها الهجرة إلى المدينة والتي بدأت بعد بيعة العقبة الثانية ولقد كانت الهجرة إلى الحبشة مندوبة لمن أراد الفرار بدينه ، إلا أن الهجرة إلى المدينة كانت واجبة على كل المسلمين ، وظل هذا حكمها حتى فتح مكة ، حين قوي الإسلام وعز ودانت أرض العرب له ولقيادته وانتظم الناس في مجتمعه ، وصارت مكة دار إسلام ، فلم يعد هناك سبب للهجرة منها ، ولهذا قال ﷺ في فتح مكة : « لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفرُّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله ﷺ مخافة أن يُفْتَن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يَعْبُد ربَّه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية »[1] . أي أن العلة التي كانت وراء الهجرة أنها كانت فرارًا بالدين ، ومخافة من الفتنة فيه ، وحيث قد أُمن ذلك فلا هجرة[2] .

فالهجرة الفاضلة للصحابة ، والتي يمتاز بها أهلها امتيازًا ظاهرًا ، انقطعت بفتح مكة وانقضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ، لِما دلت عليه هجرتهم قبل أن تعز دولة المسلمين من تضحية وإيمان ، ونصرة للحق .

---

(١) فتح الباري : ٧/ ٢٨٦ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ ، وأصحابه . صحيح مسلم بشرح النووي ٥٢٨/٤ : ٥٢٩ ، النسائي ١٤٥/٧ . حدث مجاشع بن مسعود السُلَمي : قال أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال : « إن الهجرة قد مضت لأهلها ، ولكن على الإسلام والجهاد والخير (مسلم ٥٢٨/٤) . ومعنى توقف الهجرة أن تحصيل الخير بسببها قد انقطع بفتح مكة ، لانقطاع موجبها بالنسبة للجماعة المسلمة في هذه المرحلة ، ولكن حصلوه بالجهاد والنية الصالحة .

(٢) وهنا تأتي أهمية معرفة أن الهجرة لم يتوقف حكمها في حياة المسلمين ، وأنه يظل باقيًا وواجبًا ، ما وجد الباعث عليها ، وهو الفرار بالدين ، ومخافة الفتنة فيه .

المبحث الأول :

الهجرة إلى الحبشة

اشتهر بين الناس النظر إلى الهجرة باعتبارها الهجرة إلى المدينة وحسب ، وربما يرجع ذلك إلى مكان الهجرة إلى المدينة وكونها البداية الحقيقية لقيام الدولة الإسلامية من جانب ، وهجرة المصطفى ﷺ مع أصحابه إلى المدينة من جانب ثان ، ولزوم الهجرة إلى المدينة على كل مسلم ومسلمة ، وعدم تحقق هذا اللزوم في الهجرة إلى الحبشة من جانب ثالث ، هذا إلى ما حدث بعدُ من التأريخ الإسلامي بالهجرة إلى المدينة .

و في هذا البحث سنعرض لحركة المرأة في الهجرة إلى الحبشة لدخولها في المعنى العام للهجرة وترك الأوطان لأجل العقيدة ، وفي سبيل ما يؤمن به الإنسان ، ولما ورد عن رسول الله ، من اعتبارها هجرة كاملة ، ينزل بها أصحابها منزلًا فاضلًا يتساوى مع فضل الهجرة إلى المدينة ، بل ويعلو بها أصحابها على المهاجرين إلى المدينة باعتبارهم هاجروا الهجرتين [١] . وهو أمر يدعو إلى البحث في قيمتها السياسية .

قيمتها السياسية قال محمد بن إسحاق : لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ﷻ ، ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم وشرعتهم [٢] . وكان ذلك في رجب سنة خمس من المبعث [٣] .

لقد كانت الدعوة في بدايتها ، فهي في مسيس الحاجة إلى حياة الجماعة المسلمة ، وفناؤها الواحد تلو الآخر لا يحقق نصرا إلا للفئة الطاغية ، وكان على المسلمين أن يفوتوا عليهم هذه الفرصة . لقد كان المسلمون في قلة عدد ، وضعف

---

(١) انظر رواية أسماء بنت عميس عن الهجرة إلى الحبشة الآتية بعد .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٣٠/٢ ، ٣٣١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦٤/٣ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣٢٩/٢ ، علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ٥/٢ .

من العدة ، بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير نكاية في أعدائهم ، إذا ما استسلموا لأوضاعهم الأليمة في مكة ، أو حاولوا الدخول في حرب مع أهلها، فينبغي هنا أن تقدم مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة الأولى ، والأَولَى ، وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع [١] حال وجودهم في مكة .

بل إنه من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإن هذه الهجرة في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى ، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضرارا بالدين ذاته ، وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودا أمامهم من السبل [٢] .

لقد كانت غاية المسلمين المهاجرين إلى الحبشة هي أن يفروا بدينهم إلى أرض يطمئنون فيها على دينهم ، ولا يتعرضون لبطش أو أذى ، فلقد روي ابن إسحاق عن ليلى بنت أبي حثمة ، قالت : والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا إذ أقبل عمر فوقف عليَّ وهو على شركه ، فقالت وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا ، قالت : فقال إنه الانطلاق يا أم عبد الله ، قلت : نعم ، والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا [٣] .

كانت هذه الهجرة إلى الحبشة إذن تطبيقا عمليا لما فهمه المسلمون من أولوية العقيدة في حياة المسلمين ، و تطبيقًا لما أراده الإسلام لمعتنقيه من تحرر من المكان والبيئة والعلائق ، وارتباط أمام الضمائر بعقيدة يسير المؤمن طوعا لها ، فلا يجد طمأنينته إلا حيث تقر عقيدته وتلقى الرحب والسعة [٤] ، فلقد روى ابن اسحاق عن مهاجري الحبشة ، قالوا : جاورنا بها خير جار ، أَمِنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه [٥] .

وعليه فلم تكن الهجرة إلى الحبشة إلا هجرة مؤقتة (حتى يجعل الله لهم مخرجا

---

(١) العز بن عبد السلام : قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/١١١- ١١٣ .

(٢) محمد سعيد البوطي : المصلحة في الشريعة الإسلامية ٢٦١ ، وفقه السيرة ٧٧ . قال هذا في حديثه عن امتناع المسلمين عن القتال في مكة .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٧٧ .

(٤) فهي درس عملي في التربية السياسية التي تصنع المؤمنين بالفكرة صنعًا عميقًا .

(٥) تاريخ الطبري : ٢/٣٢٩ .

مما هم فيه) ، لذلك لم تكد إشاعة عن إسلام أهل مكة تبلغهم بالحبشة حتى عادوا إلى مكة ، كما سوف نرى ، فهذه الهجرة إلى الحبشة لم تكن مشروعًا يراد منه تأسيس الدولة الإسلامية بالحبشة .

النساء في الهجرة الأولى إلى الحبشة

خرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة في السنة الخامسة من البعثة متسللين حتى انتهوا إلى الشعيبة [١] - وهي مسافة ليست بالهينة مع وعورة الطريق - منهم الراكب والماشي ، فلقد عجز بعضهم عن توفير دابة يركبونها ، وطاردتهم وهم على هذه الحال قريش ، خرجت في آثارهم ، حتى جاءوا البحر ، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا [٢] ، فقد وفق الله لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة .

ولعله من الملاحظات اللافتة للنظر أن الدراسات الحديثة التي تناولت الهجرة إلى الحبشة لم تكن تذكر أسماء النساء بشكل مستقل ، وكان ذكرهم للمهاجرين إلى الحبشة وإحصائهم لا يعمد إلا إلى الرجال ، وتُذْكَر النساء في ذيل أزواجهن ، الأمر الذي غيب - في نظري - عن الفكر الموقف النسائي وقيمته ودلالاته على إيمانهن ورسوخه ، بحيث ظلت المرأة تبدو في المواقف السياسية ، وكأنها غيرُ ذات دور ، وفي أحسن أحوالها تابعة للرجل [٣] .

وقد ضمت هذه الدفعة الأولى من المهاجرين أربعا من المهاجرات هن [٤] :

١ - رقية بنت رسول الله ﷺ . قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته . قال : « على أي حال رأيتهما ؟ » قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ، وهو يسوقها ، فقال رسول الله ﷺ : « صحبهما الله ، إن عثمان أول من

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٢٩/٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، و مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وقد كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٢٩/٢ .

(٣) انظر مثلا صالح أحمد الشامي : من معين السيرة ٥٥ .

(٤) ذكر ابن سيد الناس في عيون الأثر ١٥٥/١ أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، زوجة أبي سبرة ، فيصير العدد عنده خمسا . وما أثبتناه هو رواية ابن سعد ، وابن حجر : الإصابة : ٤٦٢/٨ ، وهو الذي اختاره ابن القيم : زاد المعاد : ٢٣/٣ .

هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام » [١] . وكانت رضي الله عنها قد أسقطت من عثمان سقطا في هذه الهجرة الأولى [٢] .

٢ - سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشية العامرية [٣] : مع زوجها أبي حذيفة بن عتبة ، وقد ولدت له بالحبشة محمد بن أبي حذيفة ، أسلمت قديما بمكة ، وأمها فاطمة بنت عبد العزى من المسلمات الأول بمكة ولكنها لم تهاجر ، وهي التي تبنت سالما مولى حذيفة ، وكانت لهما القصة الشهيرة في إرضاعه وهو رجل بعدما شهد بدرا ، فكانت تحلب في قصعة أو إناء قدر رضعة فيشربه سالم في كل يوم خمسة أيام ، رخصة من رسول الله ﷺ فكان يدخل عليها وهي حاسر .

٣ - ليلى بنت أبي حثمة القرشية العدوية [٤] : مع زوجها عامر بن ربيعة .

٤ - أم سلمة رضي الله عنها [٥] : واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله القرشية المخزومية أم المؤمنين ، مع زوجها أبي سلمة بن عبد الأسد ، قيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة ، وأول ظعينة دخلت المدينة ، ويقال إن ليلى امرأة عامر بن ربيعة شركتها في هذه الأولية [٦] . وكانت مع زوجها أبي سلمة ممن أسلم قديما ، وقد ولدت سلمة بالحبشة. وروايتها في الهجرة إلى الحبشة من الروايات الدالة على عمق تتبعها للأحداث وحفظها لتاريخ الجماعة المسلمة الأولى [٧] .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٦٥/٣ ، ٦٤ ، تاريخ الطبري : ٢٢٩/٢ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٦١/٨ ، وقيل أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس . المقريزي : إمتاع الأسماع ٤٥ . والدبابة : الضعيفة التي تدب في الأرض .

(٣) ابن حجر : الإصابة : ١٩٣/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٥٤/٧ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٧٦ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٤٣٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٨٤/٨ . ذكر بعضهم في المهاجرات إلى الحبشة ثبيتة بنت يعار امرأة أبي حذيفة ، وقالوا هي التي أعتقت سالما ، وفي ذلك نظر ، لأن نسبها في الأنصار ، وفي قولهم إنها امرأة أبي حذيفة نظر آخر ، فقد تقدم أن اسم امرأة أبي حذيفة التي أرضعت سالما هي سهلة بنت سهيل ، قال إلا أن يقال كانت له امرأتان : التي أعتقت سالما ، والتي أمرت أن ترضعه ، فيحتمل على بعد (انظر ابن حجر: الإصابة : ٦٠/٨) . وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين « ثبيتة » في المهاجرات إلى الحبشة (عصمت الدين كركر : المرأة في العهد النبوي ٩٧) وهذا بعيد .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٣٠٣/٨ .

(٥) ابن حجر : الإصابة : ٤٠٤/٤ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٢٩/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٥٠٠/٤ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٢١ ، ٣٦٤ .

(٦) ابن حجر : الإصابة : ٤٠٥/٨ .

(٧) انظر ابن عبد البر : الدرر ١٣٧ - ١٤٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٧٠/٣ ، ٧١ ، ابن الجوزي : المنتظم ٣٨١ : ٣٨٥ .

الدفعة الثانية من المهاجرات إلى الحبشة

قال ابن إسحاق : ثم خرج جعفر بن أبي طالب [١] ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه [٢] ، فكانت عدتهم ثلاثة وثمانون رجلا [٣] .

واخْتُلِفَ في عدد المهاجرات إلى الحبشة في الدفعة الثانية اختلافًا بينًا [٤] ، إلا أن تتبعنا المستقصي في كتب التاريخ والتراجم قد أخرج لنا قائمة بها إحدى وعشرون مهاجرة في الدفعة الثانية إلى الحبشة ، عدا الأربع مهاجرات اللاتي ذكرن في أول الهجرة إليها ، وعليه فإن عددهن يصبح خمسًا وعشرين مهاجرة . أضف إليهن بنات الصحابيات اللاتي ولدن بالحبشة وهن : أمة بنت خالد بن سعيد ، وعائشة وزينب وفاطمة بنات ريطة بنت الحارث . وهذا العدد ليس بالقليل ، إذا قورن بعدد المسلمين في ذلك الوقت ، والقائمة المستفادة هي :

١- أسماء بنت عميس : مع زوجها جعفر بن أبي طالب [٥] . كانت رضي الله عنها تفهم

---

(١) قال ابن إسحاق : إن جعفر بن أبي طالب كان في الرعيل الأول ، لكنه كان في زمرة ثانية من المهاجرين أولا ، وهذا ما ذكره ابن كثير ، قائلا : وهذا أظهر من رواية موسى بن عقبة القائلة بأنه كان في الدفعة الثانية . راجع ابن كثير : البداية والنهاية ٦٥/٣ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٣١/٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ١٤٥/١ .

(٣) وقيل اثنان وثمانون ، إذا اعتبر أن عمار بن ياسر ليس فيهم . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٦٤/٣ .

(٤) ذكر ابن سعد في الطبقات أن عدد النساء فيها : إحدى عشرة امرأة (٢٠٧/١) ، قال ابن هشام : وجميع من هاجر إلى أرض الحبشة من النساء ، من قدم منهن ومن هلك هنالك ست عشرة امرأة ، سوى بناتهن اللاتي ولدن هنالك ، من قدم منهن ومن هلك هنالك ومن خرج به معهن حين خرجن (السيرة النبوية ٢٣٨/٣) ،قال المقريزي : ثماني عشرة امرأة ، (إمتاع الأسماع ٢٦/١) ، وذكر ابن عبد البر (الدرر في اختصار المغازي والسير ٣٣ - ٣٦) أسماء ثمانية عشرة مهاجرة ، وقال الحافظ ابن حجر: بلغنا ثماني عشرة امرأة (فتح الباري ٨/ ١٨٧) ، وذكر ابن القيم نقلا عن ابن إسحاق أنهن تسع عشرة امرأة (زاد المعاد ٢٦/٣) ، وروى الإمام أحمد في مسنده (١٨٥/٦) أن ابن مسعود قال في مهاجري الدفعة الثانية ثمانين رجلا ولم يذكر عدد النساء ! ، وقد ذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن (تاريخ الإسلام السياسي ٧٥/١) أنهن جميعا سبع عشرة امرأة ، وأوردت عصمت الدين كركر (المرأة في العهد النبوي ٩٧) أسماءَ أربع وعشرين صحابية لا يبقى منهن عند التحقيق سوى اثنين وعشرين صحابية ، حيث ذكرت فيهن ثبيتة بنت يعار ، ونسبها في الأنصار ، ولم تلتفت إلى كون أم حرملة هي نفسها أم خزيمة . وذكر الأستاذ صالح الشامي أنهن ثماني عشرة امرأة . من معين السيرة ٧٨ .

(٥) أسماء بنت عميس : أسلمت أسماء قبل دخول دار الأرقم وبايعت ثم هاجرت إلى الحبشة . هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة ، وقد ولدت له بها عبد الله بن جعفر ، ثم قتل عنها جعفر بمؤتة شهيدا ، فتزوجها أبو بكر ، ثم مات عنها ، فتزوجها علي . ابن حجر : الإصابة : ١٤/٨.

المغزى العظيم في شرف الهجرة ، فلم تحتمل أن يغمز رجال من المسلمين في هجرتهم إلى الحبشة فيزعمون أنهم ليسوا من المهاجرين الأولين ، أو أن المهاجرين إلى المدينة أولى برسول الله منهم ، وقد كانوا بالحبشة ، فلم يلحقوا برسول الله في المدينة إلا في غزوة خيبر .

فلما قدمت أسماء من أرض الحبشة دخلت على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة .. فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها . فقال عمر : من هذه ، قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر آلحبشية هذه ؟ آلبحرية هذه ؟ فقالت أسماء : نعم . فقال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم . فغضبت وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا في أرض البُعَدَاء البغضاء بالحبشة [١] ، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ [٢] . وايْمُ الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نُؤْذَى ونُخَاف ، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله . والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

فلما جاء النبي ﷺ ، قالت : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : فما قلت له ، قالت : قلت له كذا وكذا . قال : ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، لكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالا [٣] يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرحَ ولا أعظمَ في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ . قال أبو بردة (راوي هذا الحديث) : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني [٤] .

٢- أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو [٥] القرشية العامرية ، أخت أبي جندل : مع زوجها أبي سبرة بن أبي رُهْم العامري ، أسلمت قديمًا بمكة ، وبايعت وهاجرت .

---

(١) قال النووي : قال العلماء : البعداء في النسب ، البغضاء في الدين لأنهم كفار إلا النجاشي وكان يستخفي بإسلامه عن قومه ويوري لهم . (٢) أي في سبيلهما .

(٣) أفواجًا : ناسا بعد ناس .

(٤) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ٦١٦/٧ . صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس ٣٧٢/٥ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٨٤/٨ ، ابن حجر : الإصابة : ٤٦٢/٨.

٣- أمينة (همينة ، ويقال أميمة) بنت خلف بن أسعد الخزاعي [١] : مع زوجها خالد بن سعيد بن العاص ، وقد ولدت بالحبشة سعيدا ، وأمة التي تزوجها بعدُ الزبير . وظلت أمينة بأرض الحبشة حتى قدموا في السفينتين أيام خيبر ، وقد بلغت أمة وعقلت ، وقد روت أمة : سمعت النجاشي يوم خرجنا يقول لأصحاب السفينتين : أقرئوا جميعا رسول الله مني السلام . قالت أمة : فكنت فيمن أقرأ رسول الله ﷺ من النجاشي السلام [٢] .

٤- أم حبيبة بنت أبي سفيان الأموية أم المؤمنين ، مع زوجها عبيد الله بن جحش ابن رئاب . تنصر زوجها بالحبشة ، ففارقته ، وثبتت هي على دينها وهجرتها [٣] .

٥- بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان : مع زوجها قيس بن عبد الله . ذكرها ابن هشام في غرائب نساء العرب المهاجرات [٤] .

٦- فاطمة بنت صفوان بن أمية [٥] ، مع زوجها عمر بن سعيد بن العاص . وقد ماتت بأرض الحبشة ، ذكرها ابن إسحاق في تسمية من هاجر من بني أمية إلى الحبشة ، وذكر نسبها في كنانة ، وإنما عدها في بني أمية لزواجها ، و ذكر ابن هشام نسبها في بني كنانة فعدها في غرائب نساء العرب ، وقال ابن سعد : أسلمت بمكة قديما [٦] .

٧- أم حرملة (أم خزيمة) خولة بنت عبد الأسود بن خزيمة ، مع زوجها جهم ابن قيس العبدري ، أسلمت قديما بمكة . وماتت بأرض الحبشة [٧] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٨٧/٨ ، ابن حجر : الإصابة : ٣٠/٨ . ذكرها ابن هشام في تضاعيف الحديث عن الهجرة إلى الحبشة ، لكنه لم يعد ذكرها حين قدم إحصاءه لمن هاجرن إلى الحبشة .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٦٧/٨ . (٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٣٠/٨ .

(٤) ذكر هجرتها ابن إسحاق وابن سعد ، وهي من حلفاء بني عبد الدار ، وأصلها من كِنْدة ، واختلطت ترجمتها بترجمة بركة الحبشية خادم أم حبيبة التي شربت بول النبي ﷺ ، وليست هي وإن كانتا اشتركتا في كونهما كانتا في أرض الحبشة مع المهاجرين . راجع ابن حجر : الإصابة : ٤٧/٨ ، ٤٨ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٩٢/٨ ، ابن حجر : الإصابة : ٢٧٢/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٢٢/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٥٩/٤ .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٨/٣ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٩٢/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٩٧/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٨٩/٤ . هي نفسها أم خزيمة التي ذكرها البلاذري ، قال : هي زوج جهم بن قيس ، هاجرت معه إلى الحبشة وماتت بها . ولقد وهم أصحاب التراجم فعدوهما شخصيتين ، ولعل الكنية الصحيحة هي أم خزيمة لمكان ابنتها خزيمة التي نذكرها بعد في أصحاب هجرة الحبشة . قارن ابن حجر : الإصابة : ٨٤/٨ /٨/٣٨٥ .

٨- رملة بنت أبي عوف بن ضبيرة : من بني سهم بن عمرو ، هاجرت مع زوجها المطلب بن أزهر بن عبد عوف الزهري ، وولدت بها عبد الله . أسلمت قبل دخول دار الأرقم [١] .

٩- ريطة بنت الحارث بن جبيلة : من بني تيم بن مرة ، هاجرت مع زوجها الحارث بن خالد بن صخر التيمي ، أسلمت قديما بمكة ، وبايعت وهاجرت إلى أرض الحبشة ، وولدت بها موسى وعائشة وزينب وفاطمة ، فتوفي موسى بأرض الحبشة وماتت ريطة وعائشة وزينب بالطريق وهن راجعات [٢] .

١٠- فاطمة بنت المجلل القرشية العامرية [٣] : من بني عامر بن لؤي ، هاجرت مع زوجها حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي ، وتوفي زوجها هناك ، وقدمت المدينة هي وابنها مع أهل السفينتين .

١١- فكيهة بنت يسار : من غرائب نساء العرب ، هاجرت مع زوجها خطاب ابن الحارث بن معمر . ذكرها ابن إسحاق فيمن أسلم بمكة قديمًا ، بايعت ، وهاجرت الهجرتين [٤] .

١٢- حسنة أم شرحبيل بن حسنة [٥] : من غرائب نساء العرب ، هاجرت مع زوجها سفيان بن معمر بن حبيب ، وقال ابن سعد مع ابنها شرحبيل ، وقالوا أيضا مع أبيها .

١٣- سودة بنت زمعة القرشية العامرية أم المؤمنين : من بني عامر بن لؤي ، هاجرت مع زوجها السكران بن عمرو [٦] .

١٤- عمرة بنت السعدي [٧] : من بني عامر بن لؤي ، هاجرت مع زوجها مالك بن ربيعة .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٨٣/٨ ، ابن حجر : الإصابة : ١٤٣/٨ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/ ٣٧٧ ، ابن حجر : الإصابة : ١٣٠/٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/ ٣٨٥ ،ابن حجر : الإصابة : ٢٧٧/٨ ، ٣٦٩/٨ ،و قد ترجمتها في الترجمة الثانية باسم أم جميل بنت المجلل ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٢٥/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٤/ ٤٦١ .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٢٨٢/٨ ، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٣٢/٧ ، الذهبي : تجريد أسماء الصحابة ٢٩٧/٢ .

(٥) ابن حجر : الإصابة : ٨ /٨٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٦٧/٧ ، وابن عبد البر : الاستيعاب ٤/ ٣٧٢ .

(٦) ابن حجر : الإصابة : ١٩٦/٨ ، ابن قتيبة: المعارف ١٣٣ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣٤/١ .

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة ١٩٩/٧ ، ابن حجر : الإصابة : ٢٤٥/٨ ، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨/ ٣٩٢ .

١٥- آمنة بنت قيس بن عبد الله بن رئاب ، بنت عم أم المؤمنين زينب بنت جحش . ذكر ابن إسحاق أنها كانت هي وأبوها بالحبشة مع أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكان مع أبيها امرأته بركة بنت يسار ، وقال ابن سعد : أسلمت قديما بمكة وهاجرت مع أهل بيتها إلى المدينة [١] .

١٦- حبيبة بنت عبيد الله بن جحش الأسدية : وهي بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان وقد اختلف فيها كثيرا [٢] ، هاجرت مع أمها إلى الحبشة ورجعت معها إلى المدينة ، وحكى ابن إسحاق قولا أنها ولدت بأرض الحبشة .

١٧- خزيمة بنت جهم بن قيس العبدرية : هاجرت مع أبيها وأمها خولة بنت الأسود أم حرملة إلى الحبشة [٣] .

١٨- فارعة بنت أبي سفيان بن حرب : قال ابن إسحاق : كان أول من خرج إلى الحبشة مهاجرا عبد الله بن جحش ، حليف بني عبد شمس احتمل بأهله وأخيه ، وهو أبو أحمد ، وكانت عنده فارعة [٤] .

١٩- أسماء بنت سلامة بن مخربة بن جندل التميمية [٥] : أسلمت قديما بمكة وهاجرت الهجرة الثانية مع زوجها عياش بن ربيعة .

٢٠- فاطمة (أم قهطم) وقيل أم يقظة بنت علقمة العامرية : أسلمت قديما بمكة وبايعت وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها سليط بن عمرو بن عبد شمس [٦] .

٢١- أم حبيب بنت سعيد بن يربوع : قال ابن حجر : ذكر البلاذري أنها

---

(١) قال ابن الأثير أظنها آمنة بنت رقيش ، وأيده ابن حجر (الإصابة : ٤٢/٨ ، ٤/٨) .

(٢) وذُكِرت باسم حبيبة بنت أبي سفيان ولا يعرف لأبي سفيان ابنة يقال لها حبيبة . ابن حجر : الإصابة : ٨٠/٨ . وذكرت باسم حبيبة بنت عبد الله بن حجير الأسدية بنت أم المؤمنين . ابن حجر : الإصابة : ٨٣/٨ . والصحيح ما أثبتناه . ابن حجر : الإصابة : ٨٠/٨ .

(٣) ابن حجر : الإصابة : ١٠٦/٨ .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٢٥٩/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢١١/٧ .

(٥) وقد خلط الرواة ترجمتها بترجمة عمتها أسماء بنت مخربة ، انظر ابن حجر : الإصابة : ٨/ ١١، ٨/ ١٦، ولعل هذا وراء عدم ذكر ابن هشام لها في المهاجرات إلى الحبشة ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤٢٤٥ .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤٢٠٧ ، ابن حجر الإصابة : ٢٧٦/٨ ، ٤٩١/٨ .

هاجرت إلى الحبشة [١] .

كان كل مهاجرات الحبشة من السابقات إلى الإسلام ، واللاتي اصطلحت المصادر التاريخية على ذكرهن تحت مسمى : « من أسلم قديما بمكة » ، وفي هجرتهن رضوان الله عليهن - بما هي مشاق السفر وعذاباته - تجرد من كل ما تهفو إليه النفس ، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه ، الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال ، وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء مرضاة الله ، وتطلعا إلى ما عنده ، وهو خير مما في الأرض جميعًا .

طبقات المهاجرات إلى الحبشة

واللافت للنظر أن النساء المهاجرات إلى الحبشة قد مثلن معظم القبائل القرشية ، فكانت المهاجرات من بني هاشم ومن بني أمية ومن بني مخزوم ومن بني تيم بن مرة ومن بني سهم بن عمرو ومن بني عدي بن كعب ، ومن بني عامر بن لؤي ، بل خرجت المهاجرات من غرائب نساء العرب ، فكانت معهن أسماء بنت عميس الخثعمية ، وفاطمة بنت صفوان الكنانية ، وفكيهة وبركة ابنتا يسار وحسنة أم شرحبيل .

وكان في المهاجرات أيضا عدد من بنات علية زعماء قريش الذين كانت لهم آنئذ يد طولى في حرب المسلمين : فسهيلة وأم كلثوم ابنتا سهيل بن عمرو ، وأم حبيبة وفارعة ابنتا أبي سفيان . بل إن أغلبهن ينتمين إلى أسر شريفة .

ولقد كان في المهاجرات إلى الحبشة ثلاث من أمهات المؤمنين هن : أم سلمة ، وأم حبيبة ، وسودة . وهكذا فإن شرف البيت واستيعاب القبائل القرشية يدفعان الزعم بأن هذه الدعوة الكريمة قد قامت بدافع العصبية القبلية ، أو أنها كانت حركة طبقة مستضعفة فقيرة ضد الأغنياء ، وجدت في الإسلام سبيل خلاصها [٢] ، ذلك أن الإسلام قد شمل كافة الطبقات .

وثمة ملاحظة قيمة ذكرها الأستاذ دروزة ، وهي أنه باستثناء النفر من حلفاء قريش ونسائهم ، لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين . وأن تعليل ذلك يعود إلى أن ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم ، لأنهم

---

(١) ابن حجر : الإصابة : ٣٧٢/٨ .

(٢) انظر في القول بهذا على سبيل المثال عبد العزيز الدوري : تفسير التاريخ ١٥ . وتأمل كيف يكون إلقاء الأحكام دون اعتماد على « الواقعة التاريخية » .

تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس ، وسائر شباب الأسر ، في حين أنه لم يكن هناك ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء والفقراء والغرباء. إن هذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان [١] . وهي أيضا دليل - في رأينا - على أن المسلمين جميعا قد تقاسموا المحنة بالإسلام ، فعلى حين كان النصيب الأعظم من التعذيب والاضطهاد من نصيب الأرقاء والمساكين ، فإن التشريد والتهجير ومعاناة أهوال السفر والمطاردة وركوب البحر كانت من نصيب أبناء الأُسَرِ والأحرار .

عودة المهاجرات من الحبشة

عادت مجموعة من مهاجرة الحبشة إلى مكة ، حين بلغهم الخبر الكاذب بإسلام أهل مكة ، وكان ما ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله ﷺ جلس يوما مع المشركين ، وأنزل الله عليه ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [٢] ، يقرؤها عليهم حتى ختمها وسجد . فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس ، فظن من رأى المشركين قد سجدوا ، أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه ولم يبق نزاع بينهم . فطار الخبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة ، فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك .

وذكر ابن إسحاق منهم [٣] رقية بنت رسول الله مع زوجها وسهلة بنت سهيل مع زوجها وأم سلمة بنت أبي أمية مع زوجها وليلى بنت أبي حثمة مع زوجها وأم كلثوم بنت سهيل وسودة بنت زمعة، وأسماء بنت عميس ، وريطة بنت الحارث بن جبيلة ، وفارعة بنت أبي سفيان بن حرب [٤] ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيا. وكان ممن دخل منهم بجوار أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وامرأته ، دخل بجوار من أبي طالب بن عبد المطلب [٥] .

---

(١) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ٢٧٢/١ . (٢) النجم : ١ .

(٣) يلزمنا هنا التنبيه إلى تجاهل بعض المصادر المتأخرة لتأريخ دور المرأة . انظر على سبيل المثال : تاريخ ابن الوردي ١٤١/١ ، والمختصر لأبي الفدا ١١٨/١ ، وتاريخ ابن خلدون ٨/٢ ، ٩ ، لم يعرض أحدهم للنساء بكلمة واحدة في هجرة الحبشة . وهذا أمر يدعونا إلى أهمية العودة للمصادر الأولى عند إعادة النظر في تاريخنا .

(٤) انظر ابن كثير (البداية والنهاية) ٩٨/٣ ، ٩٩ ، ولم تذكر المصادر فارعة في العائدات ، وإنما ذكرناها لأن زوجها كان في هذه الزمرة العائدة ، وليس طبيعيا أن تبقى بعد رجوع زوجها .

(٥) أم أبي سلمة هي برة بنت عبد المطلب ، وقد روى عمر بن أبي سلمة أنه لما استجار أبو سلمة بأبي طالب ، مشى إليه رجال من بني مخزوم ، فقالوا يا أبا طالب : لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ، قال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي (السيرة النبوية ١٥/٢) .

كان ممن قدم مكة ، منهم من أقام بها حتى هاجر إلى المدينة ، فشهد بدرا ، ومنهم من حُبِس حتى فاته بدر ، وغيرها ، ومنهم من مات بمكة [١] . وأما المهاجرات العائدات فإنهن قد أعدن الكرة بالهجرة إلى المدينة عدا ريطة - رضي الله عنها - ماتت مرجعها من الحبشة .

والملاحظ أن هذه الزمرة من العائدات كانت تشمل كل المهاجرات في الدفعة الأولى ، وفي ذلك دلالة واضحة على ما كان عليه توقهم الشديد إلى موطنهم ، وما كانوا يفهمونه من كون هذه الهجرة إلى الحبشة ليست إلا هجرة مرحلية. أما الذين لم يعودوا فقد أقاموا بالحبشة حتى طلب ، عودتهم وذلك عام خيبر [٢] .

معاناة المهاجرات إلى الحبشة

عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة أرسلت قريش خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور ، وعندما استقروا بها أرسلوا في طلبهم ، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة والوقيعة بين المسلمين والنجاشي [٣] .

ومات من المهاجرات بالحبشة فاطمة بنت صفوان بن أمية ، و أم خزيمة (أم حرملة) ، و توفيت ريطة بنت الحارث بن جبيلة بالطريق وهي راجعة وتوفي معها ابنها موسى وابنتاها : عائشة وزينب ، بنات الحارث من ماء شربوه بالطريق [٤] .

أما النساء اللاتي مات عنهن أزواجهن بالحبشة فهن : فاطمة بنت المجلل ، مات عنها زوجها حاطب بن الحارث بن معمر ، فقدمت وابناه وهي أمهما في إحدى السفينتين [٥] ، ورملة بنت أبي عوف بن ضبيرة : مات زوجها المطلب بن أزهر وولدت له هنالك عبد الله بن عبد المطلب ، فكان يقال له : إن كان لأول رجل ورث أباه في الإسلام [٦] ، وفكيهة بنت يسار مات عنها زوجها حطاب بن الحارث [٧] ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان : مات زوجها عبيد الله بن جحش بها نصرانيا .

قالت : رأيت في المنام كأن زوجي عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة ففزعتُ فأصبحتُ فإذا به قد تنصَّر فأخبرته بالمنام فلم يحفل به ، وأكب على الخمر حتى

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١١/٢ ، ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٤٠ .
(٣) ابن القيم : زاد المعاد ٢٦/٣ وما بعده .
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٨/٣ .
(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٦/٣ .
(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٥/٣ .
(٧) السابق ٢٣٦/٣ .

مات . فأتاني آت في نومي فقال : يا أم المؤمنين [١] .

لقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله سبحانه مستعدين لكل مصير ، فتكفل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ .. ﴾ الآية [٢] .

(١) السابق ٢٣٧/٣ .

(٢) الحج : ٥٨ .

المبحث الثاني :

الهجرة إلى المدينة

قيمتها السياسية لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار بيعة العقبة الثانية قال للمسلمين :"إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها . فخرجوا أرسالا [١].

وكانت الهجرة إلى المدينة كهجرة الحبشة فرارًا بالدين ، لكنها أيضا ، وهذا هو الجديد في هجرة المدينة كانت تحولًا وتأسيسًا لوطن يحتمي به هذا الدين ، فلقد كان الإسلام طوال ثلاثة عشر عامًا دينًا بلا وطن وشعبًا بلا دولة .

وإن الدولة [٢] لا يمكن لها أن تقوم إلا على أساسٍ من مجتمع يجب أن يستقر على صورة من النظام الاجتماعي الدائم ، الذي تمتزج خصائصه المادية والمعنوية ، فتصبح عنصرًا واحدًا تقوم عليه شخصية المجتمع الموحد في عقيدته ، وتعبداته ، وأنظمته السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسلوكية ، والتربوية المُتَلَقاةِ من وحي الرسالة كتابًا منزلًا ، وحكمة ملْهَمة ، وقدوة عملية [٣] .

لذلك فقد قام نظام المواطنة وحقوقها السياسية على أساس الهجرة ، فالولاء للدولة الإسلامية الجديدة والتمتع بحقوق المواطنة فيها أساسه الهجرة إليها والاهتداء بما قام به الرسول الكريم في الهجرة من موطن الشرك والضلالة القبلية إلى وطن الهدي ونصرة الدين وكرامة الإنسان [٤] . وكانت هذه الأهداف ، وتحققها بالهجرة هو ما جعل حدث الهجرة إلى المدينة أخطر حركة سياسية لم يحمل مُحْدِثُوها لهاسلاحًا، ولم يُعدوا لها عدة إلا الإيمان ، والسعي لنصرة عقيدتهم .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٩٦/٢ .

(٢) لابد لقيام الدولة من شعب ، وإقليم ، وسلطة حاكمة ، وفي مكة كان الشعب ممثلًا في جماعة المؤمنين ، مع السلطة التي مثلها المنهج القرآني ، وظل قيام الدولة يُعْوزه الإقليم ، خاصة ، وقد ثبت أن مكة لا تصلح أن تكون محضنًا للدعوة ، أو الدولة الإسلامية .

(٣) الأستاذ عرجون : محمد رسول الله : ٢/ ٤٩٣ .

(٤) د. إبراهيم العدوي : نهر التاريخ الإسلامي ١١٤ .

حجم مشاركة المرأة في الهجرة إلى المدينة

وكان أبو سلمة أول من قدم المدينة من المهاجرين ،ثم عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة . ثم عبد الله بن جحش، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش [١] .

ثم قدم المهاجرون أرسالا ، وكان بنو مظعون ، من بني جمح ، وبنو جحش بن رئاب ، حلفاء بني أمية ، وبنو البكير ، من بني سعد بن ليث ، أهل إسلام ، قد أوعبوا [٢] إلى المدينة مع رسول الله هجرة رجالهم ونساؤهم حتى غُلِّقتْ أبوابهم ، ليس فيها ساكن [٣] .

ومن نساء بني جحش المهاجرات زينب بنت جحش وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وآمنة بنت رُقيش ، أسلمن قديما وهاجرن إلى المدينة مع أهل بيوتهن ، وأم حبيب بنت ثمامة ، وسخبرة بنت تميم ، وحمنة بنت جحش [٤] .

والمتتبع لتسمية ابن سعد للنساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم يجد أغلبهن من المهاجرات ، ولقد ذكر أيضا ما يقرب من الستين مهاجرة من غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات [٥] ، هذا سوى المهاجرات من بناته ﷺ ، وعماته ، وبنات عمومته وأزواجه [٦] .

ومن الصحابيات المهاجرات نذكر على سبيل المثال هنا : آمنة بنت الأرقم ، وأروى بنت عبد المطلب ، وأروى بنت كريز والدة عثمان بن عفان وأم كلثوم بنت عقبة ، وبسرة بنت صفوان بن نوفل ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وخالدة بنت الأسود الزهرية ، والشفاء بنت عبد الله العدوية ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو

---

(١) أبو أحمد : أخو أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وكانت عنده الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، ابن هشام : السيرة النبوية ٧٩/٢ ، تاريخ الطبري : ٣٦٩/٢ ، ابن تيمية : الصارم المسلول ١٦٤ .

(٢) الإيعاب : الاستئصال والاستقصاء في كل شيء . وأوعب بنو فلان جَلَوا أجمعون . ابن منظور : لسان العرب مادة : وعب .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١٠٠/٢ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٨٠/٢ ، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٧٠/٨ ، ٣٧١ .

(٥) راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٦١/٨ : ٤٠٣ .

(٦) راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٥٢/٨ :٣٢١ .

العدوية ، وفاختة بنت غزوان ، أخت عتبة ، وفاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة العبشمية ، وقيلة بنت مخرمة التميمية ، وأم حكيم بنت وداع الخزاعية ، وطَفْيَة بنت وهب ، وقيل ظبية ، أم أبي موسى الأشعري ، وأم حبيب بنت نباتة الأسدية ، وأم قيس بنت محصن الأسدية [١] .

معانات المهاجرات إلى المدينة

هذا ، ولقد كانت هجرة الصحابيات عملًا بطوليًا اتسم بالمغامرة والإقدام والجرأة والمخاطرة واقتحام الصعاب والاستعداد للتضحية بأثمن الأشياء ، لقد أُكْرِهتْ الصحابياتُ على هجرة أوطانهن ، وليس شيء أقسى على النفس من ذلك ، لكنهن استعذبن هذه القسوة حين تعارض حب الوطن مع مصلحة العقيدة ، لقد فهمن أن إنسانية الإنسان فيهن ليست إلا بالدين وبالعلاقة الرائعة مع الله ﷻ . وهنا صار فراق الوطن واجبًا مفروضًا [٢] .

هاجرت الصحابيات مع الصحابة ، وكان حجم التضحيات بالأرض والديار والأموال ، بله بالأهل والولد بالغًا ، أضف إلى ذلك ما كانوا يُلاقون من أهوال السفر ومشاقه ، فلقد كانت الهجرة ضربًا من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين ، وتضحيةً بالوطن والمال ، وتبديلَ محنةٍ أقسى بأخرى أقل قسوة [٣] .

ومن أمثلة معاناتهن ، ما رواه ابن إسحاق : في هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ أنها لما فرغت من جهازها قَدَّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج يقود بها نهارًا ، وهي في هودج لها ، وتحدث بذلك رجال قريش ، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها ، فكان أول من سبق إليها هبَّار بن الأسود ، فرموها بالرمح ، وكانت حاملا فيما يزعمون ، فرجّعَت ذا بطنها [٤] .

---

(١) ابن حجر : الإصابة . وأرقام تراجمهن بالترتيب كما ورد في المتن هي: ١٠٧٦١ ، ١٠٧٩١ ، ١٠٧٩٣ ، ١٠٩٣٧ ، ١١٠٥٣ ، ١١٠٨٣ ، ١١٣٧٩ ، ١١٤٥٢ ، ١١٥٧٥ ، ١١٦١٣ ، ١١٦٥٨ ، ١١٩٩٢ ، ١١٤٤٣ ، ١١٩٦٤ ، ١٢٢١٣ . وذكرنا هذه الأمثلة للمهاجرات ، وتحرينا أن تكون الأمثلة ممن لم يرد اسمهن مع المهاجرات في ثنايا البحث .

(٢) قال الشاطبي (الموافقات ٤٢/٣) : الدين هو أصل ما دعا إليه القرآن والسنة وما نشأ عنهما .

(٣) د. مهدي رزق الله :السيرة النبوية ٢١ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤٦٩/٢ ، ٤٧٠ . وتكركر : رجعوا وانصرفوا .

ومن الأمثلة أيضا ما ذكره يونس بن بكير [١] في رواية السيرة عن أبي هريرة ، قال : كانت امرأة من دوس يقال لها أم شريك أسلمت في رمضان فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله ﷺ ، فلقيت رجلا من اليهود ، فقال : مالك يا أم شريك ؟ قالت أطلب من يصحبني إلى النبي ﷺ . قال : تعالي ، فأنا أصحبك ... وذكر الحديث بطوله .

وأخرجه ابن سعد من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري [٢] مرسلا ، قال : ... فأمست صائمة ، فقال اليهودي لامرأته : لئن سقيتها لأفعلن ، فباتت كذلك حتى إذا كانت أخر الليل إذا على صدرها دلو موضوع وصفن [٣] ، فشربت ، فقال اليهودي ، لقد شربت ، فقالت : لا ، والله إنْ سَقِيَتْني [٤] . وأم أيمن هاجرت إلى المدينة ماشية ليس معها زاد [٥] .

وروى ابن إسحاق أيضا .. عن أم سلمة قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج للمدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في حجري ، ثم خرج يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه قالت وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة .

قالت : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح [٦] فلا أزال أبكي حتى أمسي : سنة أو قريبا منها حتى مر بي رجل من بني

---

(١) يونس بن بكير : قال الإمام الذهبي : هو الإمام الحافظ ، الصَّدوق ، صاحب المغازي والسير ، اختلف العلماء في تعديله ، بين التوثيق والتضعيف ، حتى قال أبو إسحاق الجوزجاني ينبغي أن يُتَثَبَّتَ في أمره . وعلل بعضهم تضعيفه بأنه كان قريبًا من السلطان ، إذ كان مع جعفر البرمكي . راجع : البخاري : التاريخ الكبير: ٨/ ٤١١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٢٤٥ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ٤/ ٤٧٧ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب : ١١/ ٤٣٤.

(٢) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري ، المدني ، أبو سعيد القاضي ، ثقة ثبت . مات سنة أربع وأربعين ، أو بعدها . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٠٣ .

(٣) الصفن : مثل الجراب أو المزود . (٤) ابن حجر : الإصابة : ٨/٤١٦ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨/٣٦٢ .

(٦) أبطح مكة : قال ابن الأثير هو مسيل واديها الذي صلى فيه رسول الله ﷺ : لسان العرب .

عمي ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة ، فرَّقتُم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت فقال لي الحقي بزوجك إن شئت ، قالت وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني .. فرحَّلتُ بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي في المدينة .. وما معي أحد من خلق الله ، أَتَبَلَّغ [١] بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم ، لقيت عثمان بن طلحة فقال لي أين يابنة أبي أمية ، قلت أريد زوجي بالمدينة فقال هل معك أحد ، فقلت لا والله إلا الله وابني هذا . قال والله ما لك من مترك ، فأخذ خطام البعير فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه .

والقصة وحدها ، وبلا تعليق كافية للتدليل على قدر المعاناة والنصب الذي لاقته أم سلمة رضي الله عنها ، وقد حبست عن زوجها بمكة نحو السنة ، ثم حيل بينها وبين وليدها ، وليس أدل من قولها : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة [٢] .

وقصة أم سلمة والصحابيات ، ومعاناتهن تؤكد على أنه لم يكن مقبولا ، لا من المسلم ولا من المسلمة إلا أن يهاجر . وإن وحدة أم سلمة في هجرتها ثم استكمالها الرحلة مع غير ذي محرم لها ، وكان على شركه ، مع هجرة أم شريك مع يهودي ، كل ذلك يدلل على قدر أهمية الهجرة ، وأثرها في كمال الإيمان بالدين [٣] .

دور النساء في هجرة النبي إلى المدينة

ولم تغب الصحابيات عن هجرة النبي ، وإنما كان حضورهن ظاهرا في كافة مراحلها ، ودقيق أدوارها ، وتلك هي الأمثلة :

رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم [٤] : وكانت رقيقة هي التي حذرت رسول الله ﷺ مما بيَّته له المشركون ، حدثت أنها قالت

---

(١) أتبلَّغ : أكتفي . ، والبُلْغة ما يكفي لسد الحاجة ، ولا يَفْضُل عنها .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٧٨/٢ .

(٣) من المعلوم أن الإسلام جاء بالمحافظة على الضرورات الخمس وهي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والمال ، والنسل ، والهجرة بالدين من أولى الضرورات ، والمحافظة على الدين مقدمة على النفس والمال . راجع : د . محمد عبد القادر أبو فارس : السيرة النبوية دراسة تحليلية ٢٤٢ .

(٤) رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف : أسلمت وهاجرت وروت من أخبار عبد المطلب ، وكانت أسن من عبد المطلب ، وقد أدركت رسول الله وكانت من أشد الناس على ابنها مخرمة ، يعني قبل أن يسلم . ابن حجر : الإصابة : ١٣٦/٨ ، كحالة : أعلام النساء ٣٩٣/١ ، تجريد أسماء الصحابة ٢٦٨/٢ .

لرسول الله ﷺ : إن قريشا قد اجتمعت تريد بياتك [١] الليلة . قال راوي الحديث [٢] : فتحول رسول الله ﷺ عن فراشه وبات عليه علي بن أبي طالب ﷺ[٣] .

ولعل هناك من يقول : وأي عظمة تجدها في امرأة سمعت خبرًا فألقته كما سمعته ؟ ذلك قول من لم يستبطن الأمر ، ويتبين دخيلته ، فإن فئة قليلة العدد خطيرة الغرض من هامات القوم وأشداء فتيانهم ، بيتوا أمرهم واحتجزوا خبرهم عن بقيتهم ، .. وتعاقدوا وتعاهدوا ألا يذيعوه حتى يُمْضُوه ، فئة ذلك شأنها .. ليس بالهين كشف أمرها واستنقاذ رسول الله ﷺ من كيدها وشر غائلتها ، ولنا أن نتخيل حجم الجهد والتدبير ونفاذ الحيلة الذي بذلته تلك المرأة وقد أنافت على المائة ، ولم تأمن على نقل الخبر ابنها مخرمة وهو من لحمة النبي وذوي صحبته [٤] .

مارية خادم الرسول : وكانت هي التي تطأطأت للنبي ﷺ حين صعد حائطا ، ليلة فر من المشركين [٥] .

أسماء وعائشة بنتا أبي بكر الصديق : قال ابن إسحاق : ولم يعلم – فيما بلغني – بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي وأبو بكر وآله ، وقال عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله لرسوله فيه بالهجرة .. أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها .. فجلس رسول الله ﷺ وليس عنده أحد إلا أنا وأختي أسماء فقال رسول الله ﷺ : أخرج عني من عندك ! قال يا رسول الله ليس علينا عين ، إنما هما ابنتاي .. ، قال إن الله

---

(١) البيَات : الفجأة في جوف الليل . المعجم الوسيط .

(٢) القائل هو المسور أبو أم بكر بنت المسور .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٦١/٨ ، والرواية ذكرها ابن حجر عن أم بكر بنت المسور عن أبيها ، عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة .

(٤) عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢/ ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف .

(٥) ابن حجر : الإصابة : ٣١١/٨، ٣١٢ .قال أبو عمر : حديثها عند أهل البصرة أنها هي التي تطأطأت للنبي ﷺ حين صعد حائطا ليلة فر من المشركين . وذكر ابن حجر عن ابن السكن هذا الحديث من طريق يعلي بن أسد ، عن محمد بن حُمران ، عن عبد الله بن حبيب ، عن أم سليمان ، عن أمها ، عن جدتها مارية وقال ابن حجر أخرجه ابن منده من طريق يعلى بن أسد ، عن عبد الله بن حبيب ، عن أم سليمان ، عن أمها ، عن جدتها مارية قالت : تطأطأت للنبي .. فذكره .

أذن لي في الخروج والهجرة [١] .

قالت عائشة : فجهزناهما أحَثَّ الجهاز وصنعنا سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من جرابها فربطت به على فم الجراب [٢] . وإذا كان ابن إسحاق قد ذكر أن سر الهجرة كان عند علي وأبي بكر وآله ، فإننا نضيف رقيقة ومارية .

ولما استقر برسول الله ﷺ المقام بالغار ، كانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما ، وقصتها في ذلك مشهورة . ولم يقف الأمر عند ذلك ، قالت أسماء لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، .. فخرجت إليهم فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبي بكر قلت : لا أدري والله أين أبي ! قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ، ثم انصرفوا [٣] .

ولا يصح إهمال دور أسماء في طمأنة جدها ، حين تفقد المال الذي أخذه معه أبو بكر في هجرته ، وجعل يسأل عنه في جزع ، ويقول لأسماء : والله لقد فجعكم بماله مع نفسه . فقالت أسماء : كلا ، لقد ترك لنا خيرًا كثيرًا ، وأخذت بيده ، ووضعتها على كوم من الحجارة قد غطته - وكان قد عمي - فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . قالت أسماء : لا والله ، ما ترك لنا شيئًا ، ولكن أردت أن أُسكن الشيخ بذلك [٤] .

وإن رواية أسماء لحديث الهجرة والدقة فيه ليحمل دلالة قوية على شدة وعيها بما كان يجري في مكة وشدة اهتمامها بالدعوة ، ومتابعتها لأحداثها [٥] . ثم لحقت أسماء بالمهاجرين بعد ذلك ، ومما يسترعي الانتباه أنها رضي الله عنها قد هاجرت في أيام حملها الأخيرة ، عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير ، قالت فخرجت وأنا مُتِمٌّ فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته [٦] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٣٧٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٩٠ .

(٢) فتح الباري : كتاب المناقب . باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٩٣ . أحث الجهاز : أسرعه ، والسفرة : الزاد ، والنطاق : ما يشد به الوسط .

(٣) فتح الباري السابق نفسه ، تاريخ الطبري : ٢/٤٠١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢/ ٢٣٦ . (٥) بريغش : ذات النطاقين ١٩١ .

(٦) فتح الباري : كتاب المناقب ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة : ٧/ ٣١٥ ، الإمام مسلم : الجامع الصحيح : باب استحباب تحنيك المولود بعد ولادته ٦/ ١٧٥ . والمتم من أتمت أشهر حملها .

وهكذا وُطِّئت هجرة المصطفى ﷺ بيد المرأة ، فلم تغب كما رأينا عن واحد من أدوارها : محذرة ومشيرة ، ومعينة بنفسها لتيسير خروج النبي ﷺ ، وأمينة على سر الهجرة ، ثم أحد العناصر الهامة في إيصال المؤن إلى رسول الله ﷺ وصحبه في الغار .. هذا إلى ما لاقته من نَصَبٍ لإتمام هذا الأمر ، وما لاقته من فحش المشركين وخبثهم .

الممتحنات كان رسول الله ﷺ قد صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام ، أبى الله أن يرددن إلى المشركين إذا هن امتحن ، فعرفوا أنهن إنما جئن رغبة في الإسلام ، وأمر برد صدقاتهن إليهم إن احتبسن عنهم .. فأمسك رسول الله ﷺ النساء ورد الرجال ، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله ﷺ النساء كما رد الرجال ، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش لأمسك النساء ولم يرد لهن صداقا [١] .

وجاء المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق [٢] ، قال ابن سعد : ولم نعلم قرشية خرجت من بين أبويها مهاجرة إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم ، خرجت من مكة وحدها ، وصاحبت رجلا من خزاعة حتى قَدِمَتْ المدينة [٣] ، فجاء أهلها يسألون النبي ، أن يرجعها إليهم [٤] ، فقالت : يا رسول الله أتردني على المشركين فيستحلوا مني ما حرم الله ، ويفتنوني في ديني [٥] . فأنزل الله فيهن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ

---

(١) فتح الباري ٤٣٧/٥ : كتاب الشروط ، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢١٠/٣ .

(٢) العاتق هي الشابة أول ما تدرك ، وقيل هي التي لم تَبِن من والديها ، ولم تزوج ، وقد أدركت وشبت وتجمع على العتق والعواتق . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٧٨/٣ ، ١٧٩ . فتح الباري – كتاب الشروط ، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة ٣٩١/٥ . لما قدمت المدينة زوجها رسول الله ﷺ من مولاة زيد بن حارثة ، فقتل عنها يوم مؤتة ، فتزوجها الزبير بن العوام ، فولدت له زينب ، ثم طلقها فتزوجها عبد الرحمن بن عوف ، ومات عنها فتزوجها عمرو بن العاص ، فمكثت عنده شهرا وماتت. الفاسي: العقد الثمين ٣٤٨ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٦٥/٨ .

(٤) راجع : فتح الباري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢٠٩/٣ ، إبراهيم بن إبراهيم قريبي : مرويات غزوة بني المصطلق : ١٣٥:١٤٠ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ٢٤٨ ، الزبيري: نسب قريش ١٤٥ .

﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

وإذن فلقد كانت المرأة تمتحن بعد هجرتها ، بل وتبايع على هذه الهجرة (٢) . وإذا أردت أن تعرف دلالة هذه المبايعة لهن على قدر إيمانهن من جانب ، وعلى تمام أهليتهن للمسئولية والتكليف ، فاعلم أن رسول الله ﷺ كان يبايعهن على الهجرة في الوقت الذي كان ﷺ يأبى على بعض الأعراب أن يبايعهم عليها ، لما كانوا عليه من الضعف ، فكان ﷺ يخاف ألا يقووا عليها ولا يقوموا بحقوقها وأن ينكصوا على أعقابهم ، لأن أمر الهجرة شديد (٣) .

وسمي ابن حجر من المؤمنات الممتحنات ، فذكر منهن : أميمة بنت بشر (٤) ، وكانت تحت حسان بن دحداحة (٥) ، فنفرت ، وهو كافر يومئذ ، فزوجها النبي سهل بن حنيف (٦) . ومنهن أيضا سنية بنت الحارث ، روى ابن عباس أنها كانت ممن هاجر في الهدنة ، فامتحنت ، فقالت ما جئت إلا رغبة في الإسلام (٧) . ومنهن

---

(١) الممتحنة ١٠ ، وانظر النيسابوري : أسباب النزول ٢٤١ ،٢٤٢ ، و الطبري : جامع البيان ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، في تفسير الآية .

(٢) سنن النسائي ، كتاب البيعة على الهجرة ١٤٣/٧ .

(٣) حدث الأوزاعي عن عطاء بن يزيد .. أن أعرابيا سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال : « ويحك إن شأن الهجرة شديد ، فهل لك من إبل قال نعم ، قال فهل تؤدي صدقتها قال نعم ، قال فاعمل من وراء البحار فإن الله ﷻ لن يترك من عملك شيئا » (مسلم بشرح النووي ٥٣٠/٤ باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ، سنن النسائي . شأن الهجرة ١٤٣/٧ ، وقال السندي في حاشيته تعليقا على ذلك : خاف ﷺ لما كان عليه الأعراب من الضعف حتى أن أحدهم ليقول إن حصل له مرض في المدينة أقلني بيعتك ونحو ذلك ، ولذلك قال إن أمر الهجرة شديد) .

(٤) ذكرها ابن منده في الممتحنات ، واستبعد ذلك ابن الأثير ، لأنها من بني عمرو بن عوف وهم من أهل المدينة ، والآية إنما نزلت في المهاجرات . وقال ابن حجر: لعل زوجها كان من غير الأنصار ، فنقلها إلى مكة مثلا ، فكان حكمها حكم المهاجرات . ابن حجر : الإصابة : ٢٩/٨ .

(٥) قال ابن حجر : أظنه ابن الدحداح . مات في حياة النبي ﷺ فصلى عليه. ابن حجر : الإصابة : ٥٨/٢ .

(٦) سهل بن حُنيف بن ثعلبة الأوسي ، شهد بدرا والمشاهد كلها ، وثبت يوم أحد ، واستخلفه عليا على المدينة حين خرج إلى البصرة . ابن عبد البر : الاستيعاب ٢٢٣/٢ .

(٧) ابن حجر : الإصابة : ١٩١/٨ ، ١٩٢ .

أم الحكم بنت أبي سفيان ، وبروع بنت عقبة ، وكانت تحت شماس بن عثمان [١] ، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة ، وكانت تحت عمرو بن عبد ود [٢] ، وأيضا منهن بنت حمزة بن عبد المطلب [٣] . وكان ممن خرج من النساء في تلك المدة سبيعة بنت الحارث [٤] ، وقد ذكر الفاكهي [٥] أنها أول امرأة أسلمت بعد صلح الحديبية إثر العقد وطي الكتاب ولم تخف ، فنزلت آية الامتحان فامتحنها النبي ﷺ ورد على زوجها مهر مثلها وتزوجها عمر [٦] .

إن إقدام هؤلاء الصحابيات الجليلات على الهجرة بعدما أبرم العقد وعلمن - ولاشك - شروطه ، « ولم تخفن » ، حتى قيل إن أم كلثوم مشت على قدميها من مكة إلى المدينة [٧] ، ليُدلل دلالة قوية على حجم إحساسها بالمسئولية . ولم يعلم أن امرأة من المسلمين لحقت بالمشركين [٨] . قال الإمام الزهري : « وما نعلم أحدا من المهاجرات ارتدت بعد إيمانها » [٩] .

ولقد كان موقف المشركين من الدعوة موقف المعارض الذي لا يعطي النَّصَفَةَ من

---

(١) لم أعثر له على ترجمة ، وربما مات قبل أن يسلم

(٢) قال ابن حجر : لكن عمرا قتل بالخندق وكأنها فرت بعد قتله ، وكان من سنة الجاهلية أن من مات زوجها كان أهله أحق بها . راجع ابن حجر : فتح الباري ٥/٤٣٧ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري : ٥/٤٣٧ كتاب الشروط .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٨/١٧١،١٧٣ .

(٥) الفاكهي : هو الإمام أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن العباس المكي . سمع أبا يحيى بن أبي مسرَّة ، فكان آخر من حدث عنه ، روى عنه الحاكم ، والبزَّار ، شيخ البيهقي ، وغيرهما ، له تصانيف في أخبار مكة ، توفي سنة ثلاث وخمسين . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٦ / ٤٤ .

(٦) وقيل كانت أم كلثوم بنت عقبة هي أول امرأة أسلمت بعد الحديبية .

(٧) الفاسي : العقد الثمين ٢٤٨ .

(٨) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : كتاب الشروط ، باب : الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٥/ ٤١٧ ، كتاب الطلاق : ٩/ ٥٢١ . وانظر : المقريزي : إمتاع الأسماع ١/٣٠٥ . وأما ما ذكره الحسن من أن نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ، وأنها ارتدت فتزوجها رجل ثقفي ، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها ، ثم أسلمت مع ثقيف حين أسلموا . فالأصح منه كما قالت رواية ابن عباس « أنها كانت تحت عياض بن غنم ، وظاهر سياقه أنها كانت عند نزول الآية المذكورة مشركة ، وأن عياض فارقها لذلك » . انظر الصفحة المذكورة في فتح الباري .

(٩) راجع ابن حجر : فتح الباري : كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة ٥/ ٤١٧ ، ٩/ ٥٢٧ ، كتاب الطلاق .

نفسه ، والخصم الذي لا يعرف الشرف في خصومته .. ، قال البعض في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ، « بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة ، إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا : إنما خرجت تفجر » (٢) .

وإذا كان سَبُّ المهاجرات وقذفهن يكاد يبدو كأمر شخصي أو اجتماعي على أقوى تقدير ، فإن المتمعن فيه يدرك أنه كان أمرًا سياسيًّا من قِبَلِ المشركين ، أُرِيْدَ به قذفُ المؤمنات قذفًا يصدهن به عن الإسلام ، و ذم المؤمنين لينفر الناس عن الدين ، وهو فوق ذلك قدح في رسول الله ﷺ ودعوته (٣) .

الامتحان روى البخاري ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى النبي ﷺ يمتحنُهنّ بقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ (٤) إلى آخر الآية ، قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة ، فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن : « انطلقن فقد بايعتكن » (٥) .

والسيدة عائشة رضي الله عنها تشير إلى شرط الإيمان ، ويوضح هذا ما أخرجه الطبري عن ابن عباس ، قال : « كان امتحانهن أن يشهدن ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » (٦) .

وروى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أيضًا قالت : إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النور : ٢٣

(٢) الفخر الرازي : تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٩٤ ، ابن تيمية : الصارم المسلول : ٥٥ .

(٣) قال ابن تيمية : وهو بمنزلة من سب النبي (الصارم المسلول ٥٥) . وهذا الأثر يشبه ما يفعله الإعلان الغربي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين .

(٤) سورة الممتحنة : ١٠ .

(٥) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : كتاب الطلاق : باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي ٩/٥٢٥ .

(٦) ابن حجر : فتح الباري : ٨/٨٢٢ .

(٧) الممتحنة : ١١ .

فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : قد بايعتك ، كلامًا [١] ، وهذا الحديث يدل على أن المحنة المذكورة في قوله « فامتحنوهن » هي أن يبايعهن بما تضمنته الآية المذكورة [٢] ، وهي الآية التي يبايع عليها المؤمنات عامة . غير أنه كانت هناك زيادات في « الامتحان » لم تكن في « البيعة » الأساسية اقتضتها طبيعة الموقف ، وأهمية تمحيصه ، ففي رواية عن ابن عباس : « كان يمتحنهن : والله ما خرجت من بغض زوج ، والله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، والله ما خرجت التماس دنيا ، والله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله [٣] » .

هذا الذي كان يحدث للمؤمنات المهاجرات من التحليف والمبايعة ، أو الامتحان والمبايعة لم يكن أمرًا ترفيًا ، بل كان محنة للمرأة ، وامتحانًا ، بتعبير القرآن الكريم ، فلقد كان يترتب عليه أن يستمر مقام الواحدة من الممتحنات بين المسلمين ، أو يتم إرجاعها إلى زوجها من المشركين لو تبين للمسلمين أنها قد خرجت لغير العقيدة ، ولغير الدين [٤] ، وهما الأمران اللذان يمثلان الإيمان بالقضية ، ويعنيان الوجهة السياسية لها .

وحدوث ذلك بنص قرآني صريح يعد واحدًا من أعظم الأدلة على اعتبار الإسلام العظيم لمسئولية المرأة ، وتحقق معنى كونها مستخلفة في الأرض ، بنفس درجة تحققه في الرجل .

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : ٨/ ٨٢٠ كتاب التفسير ، باب إذا جاءك المؤمنات مهاجرات . (٢) راجع فصل بيعة الرسول ﷺ للنساء .

(٣) ابن حجر : فتح الباري : ٨/ ٨٢٢ ، ٩/ ٥٣٠، ٥٣١ ، وقد أخرجها الطبري ، والبزّار من طريق أبي نصر . ومن طريق قتادة : « كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ، ما أخرجكن نشوز ، وما أخرجكن إلا حب الإسلام ، وأهله . فإذا قلن ذلك ، قُبِل منهن » . ولعل من أسباب ذلك - كما ذكرت رواية الطبري ، وأبي حاتم - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [وهو ضعيف . راجع ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٥٧٠] « أن المرأة من المشركين كانت إذا غضبت على زوجها قالت : والله لأهاجرن إلى محمد » ، فنزلت : « فامتحنوهن » وكان السبب في ذلك كما ذكرت رواية الطبري ، وأبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المرأة من المشركين كانت إذا غضبت على زوجها قالت : والله لأهاجرن إلى محمد ، فنزلت : « فامتحنوهن » . ابن حجر : فتح الباري : ٨/ ٨٢٢ ، كتاب التفسير ، باب : إذا جاءك المؤمنات مهاجرات « ابن حجر : فتح الباري : ٨/ ٨٢٢ ، كتاب التفسير ، باب : إذا جاءك المؤمنات مهاجرات » .

(٤) وقد روي من طريق مجاهد : « فاسألوهن عما جاء بهن ، فإن كان من غضب على أزواجهن ، أو سخطة ، أو غيرة ، أو لم يؤمنّ فأرجعوهن إلى أزواجهن » . ابن حجر : فتح الباري : ٩/ ٥٣١ ، كتاب الطلاق ، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي .

وجوب الهجرة على الرجال والنساء

إن أهم ما نفيده بعد هذا الاستعراض التاريخي أن هجرة المسلمين كانت استيعابا وتحقيقا للأمر الإلهي في هذا الصدد ، فلقد توزعت آيات القرآن النازلة في شأن الهجرة بين محورين :

الأول : تحريض على الهجرة وإعلاء لشأن المهاجرين وإزراء بالقاعدين عن الهجرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [١] .

وإذا كانت رحمة الله قد أحاطت المستثنون من ذلك ، الذين يعجزون عن الهجرة من الرجال و النساء والولدان ، إلا أن الآية قد عبرت عن هذا الاستثناء بـ « عسى » الدالة على الرجاء ، أطمعهم الله تعالى بالعفو عنهم ولم يجزم به إيذانا بأن أمر الهجرة مُضَيَّق فيه وأنه لابد منه ، ولو باستعمال دقائق الحيل والبحث عن مضايق السبل [٢] . وإذا كان هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين [٣] ، فإنه ليس في هذا التحريض والترغيب معني الجواز والإباحة ، فالهجرة من الضعف والتخلص منه أمر واجب في حق كل مسلم ومسلمة [٤] . وإن القرآن يتخذ موقفا مشددًا بل غاية في القسوة من أولئك الذين يسترخون للاستضعاف ويستمرؤن الاستذلال ، ويؤثرون أن يعيشوا كميات مهملة على أن يكون لهم كيان يعتزون به ، وقد سماهم القرآن ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

---

(١) النساء ٩٧ - ١٠٠ .

(٢) المفسرون على أن « عسى » في كلام الله للتحقيق ، وقد ذهب إلى غير ذلك الإمامان رشيد رضا ومحمد عبده ، قالوا : ولا يصح على إطلاقه لأنه يسلب الكلمة معناها وكأن لا محل لها - وهو رأي جدير بالاعتبار - . تفسير المنار الجزء الخامس ، سورة النساء ٩٧ .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٥٤٢/١ .

(٤) قال الزين بن المنير : الآية لا تدل على اختصاص النساء بالضعف بل على المساواة (فتح الباري ٤٢٥/٣) ، وانظر في ذلك : محمد عبد الله السمان : الهجرة : بداية مراحل التحول والانطلاق ٦٥ .

وقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

والمحور الثاني : إعلان قوي حاسم بإخراج من لم يهاجر من ولاية المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ﴾ (٣) فلا ولاية بين المسلمين في دار الإسلام وبين غيرهم ممن هم في دار الحرب . ودار الحرب هي يومئذ مكة ، موطن المهاجرين الأول ، ذلك أن بقاءهم في دار الكفر مناصرة لأعداء المسلمين ، وتكثير لسوادهم (٤) .

« إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي إلا إذا تمثل في تجمع حركي ذي ولاء واحد وقيادة واحدة ، فوجوده في صورة عقيدة هو وجود حُكمي ، لا يصبح حقا إلا حين يتمثل في صورة واقعية . وإذا كان المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد ، إنما يتحرك ككائن عضوي ، يتحرك فيه الرجال والنساء والولدان كل بما قدر عليه فإن الإسلام لا يملك إلا أن يواجههم في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى » (٥) . وفي هذا إيضاح لمدى الأهمية التي يعلقها هذا الدين على التجمع والتنظيم السياسي الذي يمثل وجوده الحقيقي .

كانت الهجرة واجبة على كل مسلم قادر رجل أو امرأة ، ليسهم في بناء هذا

---

(١) آل عمران ١٩٥ .

(٢) البقرة ٢١٨ . و راجع في هذا المحور آيات الحشر ٩ ، والأنفال ٧٤ ، ٧٥ ، والتوبة ٢٠ ، والنحل ٤١، ١١٠، والنساء ٩٧ ، ١٠٠ ، والممتحنة ١٠ ، والنور ٢٢ ، والأحزاب ٦ ، ٥٠ .

(٣) الأنفال ٧٢ ، وراجع أيضا آية ٨٩ في سورة النساء .

(٤) عن عكرمة ، قال ابن عباس : إن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ .. ﴾ رواه الليث عن أبي الأسود . ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٥٤٢/١ .

(٥) سيد قطب : الظلال ١٥٥٩/٣ - ١٥٦١ . بتصرف ، وراجع أيضًا عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية : ٢٦٨ .

الوطن الجديد ، وليبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه ، وكان ترك المدينة بعد الهجرة إليها نُكوصًا عن تكاليف الحق ونصرة الله ورسوله وتأييده وتقويته وإعانته على قتال المشركين ، فالحياة بها دين لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها [١] . وليس يصح أن يقوم دين بغير دولة .. ولقد كانت هذه بدهية أحسها المسلمون حين اندفعوا يهاجرون ، ويهجرون أموالهم وديارهم ليقيموا أول دولة للإسلام بالمدينة ، وأحسها المسلمون حين اندفعوا يحافظون على هذه الدولة ضد هجمات الحاقدين والكافرين [٢] .

لقد كان واضحا لدى المؤمنين والمؤمنات أنه إذا كانت الولاية بين المؤمنين المهاجرين هي العروةَ التي تتجمع عليها الجماعة في هذه المرحلة من تأسيس الدولة ، فإن الولاية الإيمانية بين المؤمنين والمؤمنات هي العروة التي تجتمع عليها الأمة في كل مراحلها. وإذا كان العمل كل العمل في الإسلام ، قائمًا على اعتبار تحقق المقاصد الشرعية ، فإن الهجرة كعمل سياسي يقصد إلى إقامة الدولة وحفظ الدين وموالاة المؤمنين والتبرؤ من المشركين وإن قرب نسبهم [٣] ، كانت ضرورة شرعية يتوجب قيام الجماعة المسلمة بها .ولم يكن يسع أحدهم رجلا أو امرأة أن يتركها.

شرف المهاجرات وكرامتهن

ولقد كانت الهجرة شرفا وكرامة حظيت به المهاجرات من أقارب النبي دون غيرهن ممن لم يهاجرن إكراما للمهاجرات ، فلقد قيد الله لرسوله من يحل له الزواج بهن من أقاربه ، وشرطه بأن يكن من المهاجرات ، إكراما لهن ، فمن هاجرت من أقارب النبي ﷺ أشرف

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه ٥٢٧/٤ ، الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة ١٦٣ ، و انظر حاشية السندي على سنن النسائي ، وانظر في مكان الهجرة ودلالتها على إلزام صاحب العقيدة على أن يعمل على حماية عقيدته ، وأن لا يقف موقفًا سلبيًا : الأستاذ عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية : ٢٦٨ .

(٢) إن الفكرة في حس الكثيرين من الناس ترتبط بالقوة التي تحيط بها وتحميها ، لا بحقيقة هذه الفكرة في ذاتها . انظر كيف أن أوروبا لا تكتفي في أثناء محاولاتها للقضاء على الإسلام بالدعوة ضده بالوسائل السلمية من صحافة وإذاعة وكتب ، .. رغم قيامها بكل ذلك ، وعملت على إزالة الدولة العثمانية ، فلقد كانت تعلم أن هذا كله جهد ضائع طالما كان للإسلام دولة ، ذات جيوش مرهوبة تحميه ، وليس ما حدث في روسيا الشيوعية عنا ببعيد ، فكم بذلت من جهود فكرية لإظهار فساد الشيوعية في أرجاء الأرض لكنها جميعا باءت بالفشل .. لكن تأمل ماذا حدث للفكر الشيوعي حين تخلت عنه دولته..؟ .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي :باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم والإعلان بذلك ما لم تخف فتنة .

ممن لم تهاجر [١] ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ .. ﴾ الآية [٢] . وروى السدي [٣] عن أبي صالح [٤] مولى أم هانئ قال : خطب النبي ، أم هانئ فقالت : إني مؤيمة ، فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه ، فقال : « أما الآن فلا » ، لأن الله أنزل عليه في قوله .. ﴿ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ، ولم تكن من المهاجرات [٥] .

الخلاصة لقد مثلت الهجرة التجمع السياسي للمجتمع تمثيلا قويا ودالا ، حيث هاجرت الصحابيات تحت أقسى الظروف وأعتاها ، دون تعِلّةٍ يتعلل بها من أنوثة أو عدم قدرة أو خروج من التكليف الشرعي بهذه الهجرة ، لقد هاجرت الزوجة وغير ذات الزوج الصغيرة والكبيرة ، مع زوجها وبدون زوجها ، وهاجرت الحامل المتم ، والحامل أوائل حملها رغم ما يعرضها ذلك إلى خطر إسقاط الحمل كما حدث مع رقية بنت رسول الله ، وهاجرت مع جماعة ومنفردة ، وهاجرت مع غير ذوي الأرحام ، بل هاجرت في صحبة يهودي يدلها على الطريق ، وهاجرت رغم ما رميت به في عفتها وشرفها . وهو ما يدل على أهمية الهجرة ووجوبها على على النساء ، وأنها كانت ضرورة أبيحت لها كثيرٌ من المحظورات ، فما كان يسع النساء أن يتخلفن عنها .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢٠/١٣ ، وانظر سيد قطب : في ظلال القرآن ٢٨٧٦/٥ .

(٢) الأحزاب ٥٠ .

(٣) السُّدِّي : الواقع أنني لم أتعرف عليه تمامًا فثمة إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي ، أبو محمد الكوفي: صدوق يهم ، ورمي بالتشيع مات سنة ٢٧هـ [تقريب التهذيب ١/ ٩٧] وثمة محمد بن مروان بن عبد الله بن إسماعيل السدي ، وهو الأصغر ، كوفي متهم بالكذب [تقريب التهذيب : ٢/ ١٣١] .

(٤) أبو صالح : اسمه باذان ، ويقال ذكوان قال ابن حجر : ضعيف يرسل . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١٢١/١.

(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٩/٣ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤٧/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٩٣/٧ ، ابن حجر : الإصابة : ٤٨٥/٨ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٥١٨/٤ ، ابن قتيبة : المعارف ٣٦ ، ١٢٠ .

الفصل الثالث

بيعة النساء على عهد النبي ﷺ

تعريف البيعة

لاشك أن البيعةَ كانت واحدة من أبرز جوانب العمل السياسي الذي مارسته المرأة في العهد النبوي ، وما ذلك إلا لدلالة المبايعة على التزام المجتمع السياسي الإسلامي رجالا ونساء بالمنهج والشريعة .

والبيعة : المبايعة والطاعة ، وهي المعاقدة والمعاهدة ، كأن كل واحد منهما - المبايع ، والمُبَايَع - باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالِصَة نفسه وطاعته ودخيلة أمره[١] . والبيعة هي العهد على الطاعة ، كأن المبايع يعاهد أميره على أن يُسَلِّم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين ، ولا ينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر في المنشط والمكره [٢] ، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد ، فأشبه ذلك فعلَ البائع والمشتري ، فسُمِّيَ بيعة، مصدر باع ، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي . هذا هو مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع [٣] .

والبيعةُ « هي ميثاق الولاء للنظام السياسي الإسلامي أو الخلافة الإسلامية والالتزام بجماعة المسلمين والطاعة لإمامهم » [٤] ، وهي ميثاق إنساني يتضمن ثلاثة أطراف هي الخليفة نفسه ، والقائمون على البيعة أي الأمة ، والمبايع عليه وهو الشريعة . ولا تنتهي مسئولية الأمة بعقد البيعة بل تستمر في تَحَمُّلِ تبعة حفظ الدين وتطبيق الشريعة من خلال الشورى ، والرَّقَابة على الحاكم ، ونُصحه إذا حاد ، وعزله إذا لزم الأمر [٥] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة بيع .

(٢) ما ينشط له الإنسان ويحبه ، وما يكرهه ويبغضه .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ٦٠٨/٢ ، ٦٠٩ .

(٤) أحمد صديق عبد الرحمن : البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة ٣٥ .

(٥) د . مصطفى حلمي : نظام الخلافة في الفكر الإسلامي ١٥ ، نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة ، مختصر الكتاب السابق ، ص ٢٥ .

البيعة في المصادر التاريخية

لقد تعددت المناسبات التي بايع فيها النبي ﷺ الصحابيات ، وتعددت الصيغ التي كان ﷺ يبايعهن بها ، والواقع أن الدارس لموضوع البيعة في المصادر التاريخية الأصيلة يستلفته أن هذه المصادر قد تعرضت لقضية البيعة بشكل تجميعي ، تذوب فيه الحدود بين البيعات المختلفة ، دون توضيح شاف لعدد مرات هذه المبايعة وظروف كل بيعة وما كانت تتم عليه المبايعة ، وتَبِعَة تلك المبايعات ، حتى صار البحث فيها موضوعا متناثراً ، يأتي الحديث عنه بحسب الترتيب الزمني للمبايَعات ، ومختلطاً إذا ما تُعُرِّضَ إليه جملة، فهو يحتاج إلى كثير من التصنيف والتوضيح .

واستمر بعض الباحثين المحدثين في عرض هذا الموضوع بهذا الشكل غير الواضح المعالم حتى إنهم لم يكادوا يلتفتون إلى المرات العديدة التي تمت فيها مبايعة النساء ، فكانوا إما يتوقفون عند الشهير من المبايعات كبيعة العقبة الثانية وبيعة الرضوان والبيعة عند فتح مكة ، وإما يخلطون بين نصوص كل بيعة والبيعات الأخرى .

إضافة إلى تركيز الكتابات التراثية والإسلامية المعاصرة [١] على أحكام غير ذات صلة بجوهر العملية السياسية عند الحديث عن بيعة النساء ، مثل التركيز على هند بنت عتبة وتساؤلاتها بشأن الأخذ من مال الزوج بغير إذنه على سبيل المثال - كما سوف نرى عند مبايعة النساء بمكة - والتركيز المبالغ فيه على حكم المصافحة في بيعة النساء ، وتضييق المعاني الواسعة « للمعروف » الذي بايعت عليه المرأة ، بحيث بدت مبايعاتهن كما لو كانت مبايعة على بعض أحكام خاصة بالنساء كعدم التبرج والنياحة . وكل ذلك على حساب توضيح الأهمية السياسية لعملية البيعة .

على أن هذه المصادر قد قدمت من المادة - وإن ترامت أطرافها وتباعدت عناصرها - ما يستطيع بها الباحث تقديم هذا الموضوع بشكل أكثر وضوحا . ولعلنا في هذه الصفحات المقبلات أن نقدم صورة تاريخية صحيحة ، وواضحة لما كان يتم في أمر بيعة النساء على عهد النبي ﷺ .

---

(١) انظر على سبيل المثال : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، سنن النسائي ، ابن كثير : البداية والنهاية ، تاريخ الطبري ، ومن المحدثين : عصمت الدين كركر : المرأة في العهد النبوي .

المبحث الأول :

التتبع التاريخي لمشاركة الصحابيات في البيعات المختلفة

بيعة على الإيمان قبل الهجرة

لقد أرادت العناية الإلهية أن توجه المسلمين نحو طريقة من الالتزام تُقَوِّي اللُّحمة بين كل مسلم وبين دينه ، وبين كل مسلم وبين بقية المسلمين ، فكانت المبايعة للرسول الكريم ، والامتثال لربهم ولرسوله وللجماعة الإسلامية بكل عمل يضمن بقاءهم على الإسلام وشريعته وأخلاقه [١] .

فبدأت مبايعة النبي ﷺ للنساء مبكرة في السنوات الأولى للبعثة - وهو ما لم تلتفت إليه أي من الدراسات الخاصة بالبيعة ، التي اطلعتُ عليها - دل على ذلك ما روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن [٢] ، قال : كان عمر وعائشة إذا أتيا مكة نزلا على ابنة ثابت ، وكانت من النسوة السبع اللاتي بايعن رسول اللّه ﷺ بمكة [٣] .

وإذا كنت لم أستطع التعريف بابنة ثابت ، فإن هناك قائمة غير قليلة من الصحابيات السابقات إلى الإسلام واللاتي ذكرتهن المراجع في المبايعات بمكة قبل الهجرة ، ويلاحظ أن هؤلاء المبايعات الأوَل كُنَّ جميعا من المهاجرات إلى الحبشة وفيهن من أسلم قبل الدخول إلى دار الأرقم ، و نذكر منهن : رملة بنت أبي عوف السهمية [٤] ، وفكيهة بنت يسار [٥] ، وليلى بنت أبي حثمة القرشية العدوية [٦] ، وأم جميل بنت المجلل [٧] ، وريطة بنت الحارث [٨] ، وسهلة بنت سهيل بن عمرو

---

(١) عصمت الدين كركر : المرأة في العهد النبوي (بتصرف) ١٣٧ ، وما بعدها .

(٢) أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، الحافظ ، أحد الأعلام بالمدينة ، كان طلابة للعلم ، فقيهاً ، مجتهداً ، حجة ، ولد سنة بضع وعشرين . توفي عبد الرحمن بن عوف وهو صغير ، وأمه تماضر بنت الأصبغ بن عمرو من أهل دُومة الجندل . قال ابن سعد توفي أبو سلمة بالمدينة سنة ٩٤ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، وعائشة خالته من الرضاعة . راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٥٥/٥ ، ابن قتيبة : المعارف ٢٣٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٦/٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ٧٦/٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٨٧/٤ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٤٦/٨ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ١٤٣/٨ ، أسلمت قبل دخول دار الأرقم .

(٥) السابق : ٢٨٢/٨ .

(٦) السابق : ٣٠٣/٨ .

(٧) السابق : ٣٦٨/٨ .

(٨) السابق : ١٣٠/٨ ، وقيل اسمها رايطة .

القرشية العامرية [١] ، وفاطمة بنت علقمة بن عبد الله بن أبي قيس [٢] ، والشفاء بنت عبد الله العدوية [٣] ، وجذامة بنت جندل [٤] ، وبسرة بنت صفوان بن نوفل ابن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية [٥] ، وعائشة بنت قدامة بن مظعون القرشية الجمحية [٦] ، وأم أبي بكر الصديق أم الخير بنت صخر بن عامر [٧] ، وأسماء بنت عميس [٨] ، ورقية بنت سيد البشر ، . بايعت هي وأخواتها [٩] .

هذه الأسماء الأولى من المبايعات اللاتي كن في السابقين الأولين من المسلمين ، فبايعن النبي ﷺ ، في هذا الوقت المبكر ، على الإيمان والعقيدة .

بيعة على النصرة والجهاد في العقبة الثانية

اجتمع النبي ﷺ بالأنصار ثلاث مرات بعقبة منى ، ففي الأولى كانوا قليلا جدا ، ورجعوا مسلمين يختفون بإسلامهم ، فأسلم جماعة ممن أكرمهم الله خفية ، ثم في السنة الثانية بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى .

ولما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار ثلاثة وسبعون رجلا [١٠] وامرأتان من نسائهم . قال كعب بن مالك [١١] ، وهو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها : « نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة .. ومعنا امرأتان من نسائنا هما نسيبة بنت كعب بن عمرو بن مازن بن

---

(١) السابق : ١٩٣/٨ .
(٢) السابق : ٢٧٦/٨ .
(٣) السابق : ٢٠١/٨ .
(٤) السابق : ٣٥/٨ .
(٥) السابق : ٥١/٨ .
(٦) السابق : ٢٣٦/٨ .
(٧) الفاسي : العقد الثمين ٣٣٧ .
(٨) ابن حجر : الإصابة ١٤/٨ ، أسلمت قبل الدخول لدار الأرقم .
(٩) السابق : ١٣٨/٨ .
(١٠) ورد في بعض الأحاديث أنهم كانوا سبعين ، والواقع « أن العرب كثيرا ما تحذف الكسر » . ذكره ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٧/٣ .
(١١) كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري ، السّلمي ، المدني ، صحابي مشهور ، وهو أحد الثلاثة الذين خلّفوا ، مات في خلافة عليّ ﷺ . اجتمعت روايته في الأصول الستة . راجع : ابن عبد البر : الاستيعاب : ٣/ ٣٨١ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٤/ ٤٦١ ، ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/ ٤٣ ، تهذيب التهذيب ٨/ ٤٤٠ .

النجار، أم عمارة [١] » . وقد حضرت ليلة العقبة وبايعت الرسول ، وعادت تدعو إلى الإسلام في المدينة بين صفوف النساء ، والثانية أسماء بنت عمرو بن نابي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع [٢] .

وكانت البيعة ليلة العقبة على حرب الأسود والأحمر ، وأخذ لنفسه ، ، واشترط عليهم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة [٣] . وكانت البيعة هذه المرة صريحة وواضحة على كل جوانب الإسلام سلماً وحرباً .

كان حضور النساء لهذه البيعة دالاً على تمام وعيهن بما يجري ، فلقد رُوِي عن أم عمارة نسيبة بنت كعب وأم منيع أسماء بنت عمرو قالتا : اجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال : « يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار » الخزرج « ، خزرجها و أوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزة من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه » [٤] .

قال كعب بن مالك : « فقلنا له قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » ، قال فتكلم رسول اللّه ﷺ .. قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم

(١) الإمام أحمد : المسند ٤٣٩/٦ ، ابن سعد الطبقات الكبرى ٤٤٠/٨ ، و ابن حجر : الإصابة : ٤٤١/٨ ، ابن حجر : تقريب التهذيب : ٦٦١/٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ٤٥٥/١٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢ /٢٧٨.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٩/٢ ، ابن سعد : الطبقات : ٤٣٨/٨ ، ابن حجر : الإصابة : ٤٨٠/٨ ، وراجع : أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ١٢٢/١ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٥/١ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣٦١/٢ ،٣٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ١٥٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٥٩/٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٧٨/٢ ، د. مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٢٤٦ - ٢٥٦ ، ٥٧٢ .

(٤) تاريخ الطبري : ٣٦٢/٢ .

ولكم الجنة » [١] .

وهكذا شاركت الصحابيات في هذه البيعة ، رغم أنها بيعة على النُّصرة والجهاد ، ورغم ما يعنيه ذلك من تبعات شديدة ، فلقد كان أمر البيعة شديداً ، وكان المبايعون يعلمون هذا على سبيل اليقين ، فلقد قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري [٢] ، لما اجتمع الصحابة لبيعة رسول الله ﷺ : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ، قالوا : نعم ! ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا انهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا، قال : « الجنة » [٣] .

وكانت بيعة العقبة الثانية من أفضل مشاهد الصحابة حتى إن كعباً بن مالك كان لا يراها دون مشهد بدر [٤] . بايع رسول الله ﷺ من بايع من الأوس والخزرج في العقبة الآخرة ، وكانت بيعة على الحرب - كما رأينا - حين أذن الله ﷻ في القتال ، وأما العقبة الأولى فإنما كانت على بيعة النساء ، كما ذكرت رواية عبادة بن الصامت [٥] .

وعلى مثل هذه البيعة الثانية كانت البيعة على الجهاد ، والتي أشار إليها الصحابة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ١٥٧ ، وقد جاءت هذه الرواية عن عبادة بن الصامت أيضا (٣/١٦١) ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٠٢ .

(٢) العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري الخزرجي ، شهد بيعة العقبة ، وقيل : شهد العقبتين ، وقيل : بل كان في النفر الستة من الأنصار الذين لقوا رسول الله ﷺ ، فأسلموا قبل جميع الأنصار ، وهو الذي قال للنبي ﷺ : « لئن شئت لَنَميلنَّ عليهم غداً بأسيافنا » ، فقال النبي ﷺ : « لم نُؤمر بذلك » . ثم إن عباساً خرج إلى رسول الله ﷺ ، وهو بمكة ، وقام معه حتى هاجر إلى المدينة ، فكان أنصارياً مهاجرياً ، قتل يوم أحد شهيداً . راجع : ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ١٦٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٥٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ١٦٢ تاريخ الطبري : ٢/٣٦١ ، ٣٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ١٥٨ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/٢٧٨ ، د. مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٢٤٦ - ٢٥٦ ، ٥٧٢ .

(٤) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٥٧٣ .

(٥) تاريخ الطبري : ٢/٣٦٨ .

في غزوة الخندق [١] ، في قولهم : « نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدًا » [٢] . والبيعة على الجهاد لا تنقطع ما بقي موجبها ، وهو ما دل عليه قوله ﷺ : « أبايعه على الجهاد ، وقد انقطعت الهجرة » [٣] .

بيعة على الإيمان بعد الهجرة

لما قدم المدينة ، وبدأ بناء الدولة الإسلامية ، تبلورت معاني المسئولية العامة لدى المؤمنين والمؤمنات ، فلقد بدا أن المهمة قد أصبحت مختلفة ، حيث يبايع المسلم والمسلمة على التزامهما بهذا الدين ويبايعان على حمايته وحماية الرسول الكريم وحماية الجماعة المؤمنة . إنها المسئولية الفردية نحو القضية الجماعية .

عن أم عطية قالت : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب ، فجاء حتى قام على الباب فسلم علينا فقال : السلام عليكن . فرددنا عليه السلام فقال : أنا رسول رسول الله إليكنّ ، فقلنا مرحبا برسول الله ورسول رسول الله . فقال : تبايعن على ألا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن . فقلنا : نعم » [٤] .

وكان الحرص على هذه البيعة متبادلاً : « كانت أم عامر الأشهلية تقول : جئت أنا وليلى بنت الخطيم وحواء بنت يزيد بن السكن .. فدخلنا عليه ونحن متلفعات بمروطنا بين المغرب والعشاء ، فسلمت ونسبني فانتسبتُ ونسب صاحبتيَّ فانتسبتا ، فرحب بنا ثم قال : « ما حاجتكن ؟ » ، فقلنا يا رسول الله جئنا نبايعك على الإسلام فإنا قد صدَّقنا بك وشهدنا أن ما جئت به حق . فقال ﷺ : الحمد لله الذي هداكن للإسلام ، ثم قال : « قد بايعتكن » . قالت أم عامر فدنوت منه فقال ﷺ : « إني لا أصافح النساء ، قوْلي لألف امرأة كقولي لامرأة واحدة ، وكانت أم عامر تقول : أنا أول من بايع رسول الله ﷺ » [٥] .

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : كتاب المغازي : باب غزوة الخندق : ٧/ ٤٤٩ ، ٥٠٢ ، وكتاب الأحكام : باب كيف يبايع الإمام الناس : ١٣/ ٢٣٨ .

(٢) فتح الباري : كتاب المغازي : باب غزوة الخندق . حديث أنس ٧/ ٤٤٩ .

(٣) سنن النسائي : ١٤١/٧ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٤٤/٨ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٨ /٢٤٧ ، ابن حجر : الإصابة ٨/ ٦٨ ، ٩٠ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٨٠ .

ذكر ابن سعد : أن أول من بايع ﷺ أم سعد بن معاذ كبشة بنت رافع بن عبيد ، وأم عامر بنت يزيد بن السكن ، وحواء بنت يزيد بن السكن ، ومن بني ظفر ليلى بنت الخطيم [١] ، ومن بني عمرو بن عوف ليلى ومريم وتميمة بنات أبي سفيان أبي البنات قتل بأحد ، والشَّمُوس بنت أبي عامر الراهب وابنتها جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح وظبية بنت النعمان بن ثابت بن أبي الأقلح [٢] .

وكان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة كلما أراد منهن أن يشاركن في عمل من أعمال البر والخير ، فلقد روى البخاري أن الحسن بن مسلم أخبره عن طاوس عن ابن عباس : قال شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجْلِس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ [٣] حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها [٤] : نعم يارسول الله – لا يدري حسن [٥] من هي – قال : فتصدقن [٦] . وإجابة المرأة الواحدة هي إجابة بالنيابة عن الأخريات ، إذ أن المجيبة هي خطيبة النساء .

---

(١) قال ابن حجر (الإصابة ٣٠٤/٨) : كانت أول امرأة بايعت النبي ﷺ ومعها ابنتاها وابنتان لابنتها .

(٢) ابن حجر : الإصابة ٦٧/٨ ، ٣٠٣/٨ . (٣) الممتحنة ١٢ .

(٤) قال ابن حجر في فتح الباري ٥٩٤/٢ : لم أقف على تسمية هذه المرأة ، إلا أنه يختلج في خاطري أنها أسماء بنت يزيد بن السكن التي تعرف بخطيبة النساء ، فإنها روت هذه القصة في حديث أخرجه البيهقي والطبراني من طريق شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ خرج إلى النساء وأنا معهن فقال : « يا معشر النساء إنكن أكثر حطب جهنم ، فناديت رسول الله ﷺ وكنت عليه جريئة : لم يا رسول الله ؟ قال : لأنكن تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ....الحديث » ، فلا يبعد أن تكون هي التي أجابته أولا بنعم ، فالقصة واحدة ، ولعل بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر كما في نظائره .. وقد روى الطبراني من وجه آخر عن أم سلمة الأنصارية – وهي أسماء المذكورة – أنها كانت في النسوة اللاتي أخذ عليهن رسول الله ﷺ ما أخذ . الحديث . ولعل هذا التعريف يوضح لنا السبب في كونها هي الوحيدة التي أجابت الرسول ﷺ ، فهي خطيبة النساء والمتحدثة باسمهن .

(٥) هو الحسن البصري ، راوي الحديث عن طاووس . قاله ابن حجر في الفتح ٥٩٤/٢ . والعلماء على أنه حين يطلق اسم « حسن » في الحديث فهو الحسن البصري . مقدمة ابن الصلاح .

(٦) الفاء سببية ، أو داخلة على جواب شرط محذوف تقديره إن كنتن على ذلك فتصدقن ، ومناسبته ذلك للآية من قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أنه من جملة المعروف الذي أمرن به .

قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتخ والخواتيم [١] في ثوب بلال [٢] . لقد كانت البيعة مرادًا من الله ﷻ لاستصفاء هذه النفوس ، واستخلاصها من كل الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه ليركزوا بثبات دعائم الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة .

بيعة الرضوان : بيعة على الجهاد

وأما بيعة الرضوان فإن من عظيم قدرها أن رسول الله ﷺ ، قال ، فيما رواه مسلم في صحيحه : « لا يدخل النار (إن شاء الله) من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها » [٣] ، وعن جابر ابن عبد الله قال : « كنا يوم الحديبية .. ، فقال لنا رسول الله ﷺ : أنتم اليوم خير أهل الأرض » [٤] . وعن يزيد بن أبي عبيد مولي سلمة بن الأكوع ، قال : « قلت لسلمة : على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت » [٥] .

وروي البخاري أنه « لما كان يوم الحرة والناس يبايعون لعبد الله بن حنظلة ﷺ[٦] ، فقال ابن زيد [٧] : على ما يبايع ابن حنظلة يبايع الناس ، قيل له : على الموت . قال :

---

(١) الفَتَخ : الخواتيم العظام كانت في الجاهلية .

(٢) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري ، كتاب التفسير ، باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ٨٢٢/٨ ، ٨٢٣ ، كتاب العيدين ، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد ٥٩٢/٢ ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣٥٣/٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ٣٦٦/٥ ، كتاب : من فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أصحاب الشجرة .

(٤) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : ٥٦٢/٧ كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح : ١٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب : استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ٤/ ٥٢٣ ، وما بعدها .

(٥) فتح الباري : ٦/ ١٤٤ ، كتاب الجهاد ، باب : البيعة في الحرب على ألا يفروا ، وقال بعضهم : على الموت ، وكتاب المغازي ، باب بيعة الحديبية ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

(٦) عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الراهب الأنصاري الأوسي : وأبوه حنظلة هو غسيل الملائكة . قتل عبد الله يوم الحرة في ذي الحجة سنة ثلاث وستين ، قتله أهل الشام ، وكان سبب وقعة الحرة أنه وفد هو وغيره من أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية ، فرأوا منه ما لا يصلح ..فرجعوا إلى المدينة وخلعوا يزيد ، ووافقهم أهل المدينة ، فأرسل إليهم يزيد بن مسلم بن عقبة المري ، فأوقع بأهل المدينة موقعة عظيمة ، قتل كثيرًا منهم في المعركة ، وقتل كثيرًا منهم صبرًا . وكان عبد الله ممن قتل في المعركة ، بعد ما بايع الناس على الموت . ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٧١ ، ابن بكار : جمهرة نسب قريش ٤٣٣٣ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠٢/٤ ، الذهبي : تجريد أسماء الصحابة ٣٠٦/١ .

(٧) هو عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب بن عمرو بن عوف ، الأنصاري الخزرجي ، يعرف بابن أم عمارة . راجع ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٤٩ .

لا أبايع على ذلك أحداً بعد رسول الله ﷺ ، وكان شهد معه الحديبية » [١] .

لكن جابر قال : « لم نبايع رسول الله ﷺ على الموت ، إنما بايعناه على ألا نفر » [٢] . وعن معقل بن يسار قال : « .. لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على ألا نفر » [٣] . فيفسر ذلك بالبيعة على الثبات ، وإن أدي ذلك إلى الموت ، « وعلى هذا فمؤدي البيعة على الموت والبيعة على عدم الفرار واحد ، ووجه الجمع بين الروايتين أن بعضهم بايعوا بلفظ الموت ، وبعضهم بلفظ عدم الفرار ، ومراد جابر بما ذكره تعيين اللفظ الذي بايع به هو وأصحابه » [٤] .

وسواء كانت بيعة على الصبر أو بيعة على الموت أو بيعة على عدم الفرار ، فلقد كانت بيعة لحماية العقيدة والجهاد في سبيلها. وفيمن بايع هذه البيعة كان قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [٥] وهو تصوير رهيب ، جليل للبيعة بينهم وبين الله ﷻ ، فالله حاضر للبيعة ، والله صاحبها ، والله آخذها [٦] .

ومن المذكورات في بيعة الرضوان قُرَيْبة بنت معوذ بن عقبة بن حزام بن جندب الأنصارية النجارية ، من بني عدي بن النجار ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب [٧] ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي ، وأم المنذر سلمي بنت قيس بن عمر، وأم هشام بنت حارثة بن النعمان الأنصارية [٨] ، والربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية النجارية [٩] ، وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، ذكر الذهبي أنها حضرت بيعة الرضوان ، وبايعت يومئذ [١٠] .

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجرفتح الباري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ٧/ ٥٦٩ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب : استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ٥٢٣/٤ .
(٣) السابق نفسه ٥٢٦/٤ .
(٤) حاشية السندي على سنن النسائي ٧/ ١٤١ ، وانظر شرح النووي لصحيح مسلم ٤/ ٥٢٣ - ، ٥٢٤ . وقال ابن حجر في فتح الباري ٥٧١/٧ : « حاصل الجمع أن من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها ، لأنه إذا بايع على أن لا يفر ، لزم من ذلك أن يثبت ، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر ، والذي يؤسر إما أن ينجو ، وإما أن يموت ، ولما كان الموت لا يؤمن في مثل ذلك أطلقه الراوي ، وحاصله أن أحدهما حكى صورة البيعة والآخر حكى ما تئول إليه » .
(٥) الفتح : ١٠ .
(٦) سيد قطب : الظلال ٣٣٢٠/٦ .
(٧) ابن حجر : الإصابة ٣٣٣/١٨ .
(٨) السابق نفسه ٤٨٧/٨ .
(٩) السابق نفسه ١٣٢/١٨ .
(١٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء :٢٩٧/٢ ، وانظر : المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٤٨٨ ، وابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء : ٣٧ .

بيعة المؤمنات المهاجرات بعد الحديبية على الهجرة

ولقد كان المهاجر يهاجر ، فيبايع رسول الله ﷺ على الهجرة، لما كان فتح مكة بايعهم ﷺ على الإسلام والجهاد والخير ، عن مجاشع بن مسعود السلمي قال : أتيت النبي ﷺ أبايعه على الهجرة فقال : « إن الهجرة قد مضت لأهلها ، ولكن على الإسلام والجهاد والخير » (١) .

ويفهم من هذا أن كل المهاجرات قد بايعن على الهجرة . وأوضح ما جاءنا من روايات في مبايعاتهن على الهجرة ، هو ما روي عن مبايعات المهاجرات بعد صلح الحديبية - وكان من أمره ما عرضنا له في فصل الهجرة - : كانت المؤمنات - كما قالت عائشة - إذا هاجرن إلى النبي ﷺ يُمتَحنَّ بقول الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ .. ﴾ الآية ، قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات فقد أقر بالمحنة (٢) ، أي بايع البيعة الشرعية كما قال الإمام النووي (٣) » .

والشرط هو شرط الإيمان ، أخرج الطبري .. عن ابن عباس ، قال : « كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، وأخرج لابن عباس أيضا : « كان يمتحنهن : والله ما خرجت من بغض زوج ، والله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، والله ما خرجت التماس دنيا ، والله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله » (٤) .

هذه الأيمان التي كانت تُمْتَحن بها مُنْصَبَّة - كما نري - على تمحيص الهجرة واستخلاص النية فيها ، وإخلاصهن في الهجرة يُغَلِّبُ الظن بإيمانهن ، فهذه المبايعة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ٥٢٨/٤ ، ٥٢٩ حديث ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ . وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ٤١٩/٤ .

(٢) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري :كتاب الطلاق ، باب : إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي ٥٢٤/٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب كيفية بيعة النساء حديث ٨٨.

(٤) وأخرج الطبري أيضًا عن مجاهد ، نحو هذا ، ومن طريق قتادة : « كانت محنتهن أن يستحلفن بالله ، ما أخرجكن نشوز ، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله ، فإن قلن ذلك قبل منهن » . ابن حجر : فتح الباري : ٩ / ٥٣٠ ، ٥٣١ ، والفخر الرازي : تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ، ومفاتيح الغيب ٢٩ / ٣٠٦ .

وإن بدت على الهجرة إلا أنها تعود في هدفها الأعلي إلى الإيمان . « وإنما كان امتحانهن لأنهن يأتين من دار الحرب ، فلا اطلاع لهن على الشرائع ، ولأجل ذلك لم تمتحن المؤمنات في دار الإسلام ، وإنما بايعن بغير امتحان ؛ لأنهن عالمات بالشرائع ، فلا حاجة إلى الامتحان » [١] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر من المؤمنات المذكورات في هذه البيعة : أميمة بنت بشر ، وكانت تحت حسان بن الدحداحة ، وسبيعة بنت الحارث ، وكانت تحت المسافر المخزومي ، وبروغ بنت عقبة ، وكانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزيز بن نضلة ، وكانت تحت عمرو بن عبد ود [٢] .

بيعة نساء مكة على الإيمان بعد الفتح

قال الإمام أحمد .. أن محمد بن الأسود أخبره أن أباه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح ، .. بايعهم على الإيمان بالله ، وشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وعند البيهقي : « فجاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة » . وقال ابن جرير : ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، قال : فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء .

وكان فيهن هند بنت عتبة [٣] متنقبة متنكرة لحدثها لما كان من صنيعها بحمزة [٤] ، فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال : « بايعنني على ألا تشركن بالله شيئا » ، فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا مالا تأخذه من الرجال ، « ولا تسرقن » فقالت : والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهَنَة بعد الهَنَة [٥] وما

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي : ٢٩ / ٣٠٩ ، وراجع : « الممتحنات » في فصل « الهجرة » من هذه الدراسة .

(٢) ابن حجر : فتح الباري : كتاب الطلاق باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي ٥٢٤/٩ .

(٣) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وهي والدة معاوية ، قتل أبوها ببدر ، وشهدت مع زوجها أبي سفيان أحدًا ، وحرضت على قتل حمزة عم النبي ﷺ لكونه قتل عمها شيبة ، وشرك في قتل أبيها عتبة ، فقتله وحشي بن حرب ، كما هو مشهور. ثم أسلمت يوم الفتح ، وكانت من عقلاء النساء ، ماتت في خلافة عمر . ابن حجر : الإصابة ٨/ ٣٤٦ .

(٤) راجع : البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري ١٧٨/٧ ، ١٧٩ كتاب المناقب : باب ذكر هند بنت عتبة رضي الله عنها ، ابن حجر : الإصابة ٨/ ٣٤٦ ..

(٥) الهَنة بعد الهَنة : الشيء بعد الشيء .

كنت أدري أكان ذلك علينا حلال أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضي فأنت منه في حل ، فقال رسول الله ﷺ « وإنك لهند بنت عتبة » ؟ قالت : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ثم قال : « ولا يزنين » فقالت : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟ ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغارًا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارًا ، فضحك عمر حتى استغرق [١] ، ثم قال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » . فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ولَبَعضُ التجاوز أمثل ، ثم قال : « ولا يعصينني » قالت : في معروف . فقال رسول الله ﷺ لعمر : « بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

والواقع أن النظر فيما كانت تجيب به هندُ رسولَ الله ، يدعو إلى التأمل في حضور شخصيتها ، وكمال عقلها ، وقوتها في الحق ، واعتدادها بأخلاقها العربية الشريفة . غير أن أهم ما أريد الإشارة إليه في شأن بيعتها هو النظر في كمال إحساسها المسئول بأنها بصدد بيعة وميثاق ، لابد أن تُستخرَج معه كل الخبايا ، حتى وإن كان منها ما يقدح في شخصها أمام الملأ من الناس ، كمثل أخذها من مال زوجها بدون إذنه [٢] ؛ وذلك لكي تُمحَّض المواثيق ، ويتمَّ التبايعُ على أرض مستوية من الإخلاص للبيعة ، والالتزام بتبعاتها . كما أن استدراكها على بند البيعة القائل « ولا يعصينني » بقولها : « في معروف » دليل على وعي سياسي إسلامي تام ، يجعل الطاعة مشروطة بالمعروف ، ويؤكد على أن الطاعة « في غير المعروف » مما يخرج عن إطار ما يتبايع عليه المسلمون .

وكان من المبايعات في فتح مكة : ريطة بنت منبه بن الحجاج السهمية [٣] ، والدة عبد الله بن عمرو بن العاص ، والبغوم بنت المعذَّل امرأة صفوان بن أمية [٤] ،

---

(١) الاستغراق : الاستيعاب ، وأغرق في الشيء جاوز الحد . لسان العرب .

(٢) وكمثل تصريحها للرسول ﷺ بحقيقة ما كان له في نفسها من كراهية ، تأمل ما روي عن عائشة أن هندا بنت عتبة قالت : يا رسول اللّه ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يذلوا من أهل خبائك ثم أصبح اليوم وما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى من أن يعزوا من أهل خبائك فقال ﷺ : « وأيضًا والذي نفس محمد بيده » . فتح الباري ١٧٨/٧ كتاب : مناقب الأنصار ، باب ذكر هند بنت عتبة رضي الله عنها ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣١٧/٤ ، ٣١٨ ، ابن خلدون : تاريخ بن خلدون ٤٥/٢ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ١٤٨/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٢٢/٧ ، وراجع : كحالة : أعلام النساء ٤١٣/١ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ٥٢/٨ .

وأميمة بنت سفيان بن وهب بن الأشيم ، زوج أبي سفيان بن حرب [١] ، وأم مرثد الأسلمية [٢] ، وأروي بنت أبي العاص الأموية [٣] ، وآمنة بنت عفان [٤] ، وعقيلة بنت عتيك بن الحارث العتوارية [٥] ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام ، امرأة عكرمة بن أبي جهل [٦] ، وأم الحكم بنت أبي سفيان صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس ، أخت أم المؤمنين أم حبيبة لأبيها [٧] .

---

(١) ابن حجر : الإصابة ٣٢/٨ ،ابن حبان :الثقات :٢٥/٣ ، الذهبي : تجريد أسماء الصحابة ٢٤٨/٢ .

(٢) ابن حجر : الإصابة ٤٧٤/٨ .

(٣) السابق : ٨/٨ .

(٤) السابق : ٤/٨ .

(٥) السابق ٢٤١/٨ .

(٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء : ٤٤٩ ، وما بعدها .

(٧) السابق : ٤٩٧ .

المبحث الثاني :

كيفية مبايعة النبي ﷺ

للنساء ، وبنودها ، والدلالة الساسية لها

كيفية المبايعة

ورد في كيفية بيعة النساء للنبي ﷺ روايات عدة ، لكن أكثرها وضوحًا رواية عائشة التي تكررت في أكثر من موضع في صحيح البخاري ، وفيها : « لا والله ، ما مست يد رسول الله ﷺ يد امراة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام .. يقول لهن إذا أخذ عليهن : قد بايعتكن كلاما » [١] . وللترمذي والنسائي من حديث أميمة بنت رقيقة ، أنه ﷺ قال : « ما قولي لامرأة إلا كقولي لمائة امرأة » ، هذا لفظ النسائي ، ولفظ الترمذي : « إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة » .

وقول النبي ﷺ هذا كان جواباً على قولهن له : « هلم نبايعك يارسول الله » ، فأجابهن : « بايعتكن كلاماً ، إني لا أصافح النساء ، إنما قولي .. الحديث » [٢] .

لكن ثَمَّ رواية صحيحة لأم عطية في قصة المبايعة ، جاء فيها : « فقبضت امرأة يدها » [٣] فهي رواية تُشْعِر بأنهن كن يبايعنه بأيديهن . ووجه الجمع بينهما ما ذكره ابن حجر ، قال : المراد بقبض اليد هنا التأخر عن القبول ، أو كانت المبايعة تقع بحائل ، فقد روي أبو داود في « المراسيل » عن الشعبي « أن النبي حين بايع النساء

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري : كتاب الطلاق ، باب إذا أسلمت المشركة .. ٥٢٤/٩ ، وانظر أيضًا كتاب الأحكام ، باب بيعة النساء حديث ٧٢١٤ ، وكتاب التفسير ، باب « إذا جاءكم المؤمنات يبايعنك » ، حديث ٤٨٩١ . وصحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب كيفية بيعة النساء ٥٣١/٤ ، ومسند الإمام أحمد ١٥٣/٦ وانظر الطبقات ٢٤٦/٨ : قالت أم عمارة : كانت الرجال تصفق على يد رسول الله ليلة بيعة العقبة والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد النبي ﷺ فلما بقيت أنا وأم منيع نادي زوجي : يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك . فقال رسول الله « قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه ، إني لا أصافح النساء » .

(٢) قال محقق الموضوعات الكبرى لعلي القاري ١٩٣ : حديث أميمة صحيح . وهو من الأحاديث التي ألزم الدارقطني الشيخين بإخراجها ؛ لثبوتها على شرطهما ، وقد رواه أيضًا ابن ماجه ، وابن حبان ومالك في الموطأ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري : ٢٥٢/١٣ كتاب الأحكام ، باب بيعة النساء ، وكتاب التفسير ٨٢٢/٨ : باب : إذا جاءك المؤمنات يبايعنك .

أُتِيَ بِبُردٍ قطري [١] فوضعه على يده » ، وقال : « لا أصافح النساء » ، وأخرج ابن إسحاق في المغازي أنه ﷺ « كان يغمس يده في إناء ، وتغمس المرأة يدها فيه » ، ويحتمل التعدد [٢] .

وفي كل الأحوال لم يصافح النبي ﷺ النساء مباشرة ، ولعل ابتداء عائشة رضي الله عنها حديثها عن كيفية بيعة النبي للنساء بالقسم لتأكيدالخبربعده : « لا والله ، ما مست .... » إشارة منها إلى الروايات السابقة الموهمة بالمصافحة [٣] .

وقد وردت روايات بأن النبي ﷺ كان يبايعهن بواسطة عمر ، وفي الرواية التي ذكرت مبايعة عمر ، قالت أم عطيه : « فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال اللهم اشهد » [٤] . وهو ما يشعر بأنهن كن يبايعن عمر بأيديهن . فهل نفهم من ذلك أن عدم المصافحة أمر خاص برسول الله ﷺ ؟ الواقع أن هذا الفهم لا يصح ، لأنه لم يثبت لديَّ ما يدل على الاختصاص ، « والخصائص لا تثبت بالاحتمال [٥] » .

هذا إلى أن المتأمل في رواية بيعة عمر للنساء لا يفهم منها- على وجه اليقين - حدوثَ المصافحة ، بل الذي يُفهم أنها كانت أمراً شكليًّا ، فلقد ذكرت الرواية أن عمر مد يده من خارج البيت ، ومددن أيديهن من داخله ،وهو تعبير يوحي بأنهن قد مددن أيديهن جميعاً في نفس الوقت ، ولا يفهم منه أنه ﷺ قد مد يده لكل امرأة على حدة ، فهي - فيما أري - مجرد إشارة إلى وقوع المبايعة ، لم تصحبها مصافحة .

فإذا أضيف لما سبق أنه لم يصرح بمصافحة عمر لهن سوى الكلبي - فيما أعلم [٦] - وهو أحد المتروكين [٧] ، تَبَيَّنَ لنا أن مبايعة عمر ليست إلا نيابة عن رسول

---

(١) البرد القطري : هو نوع من البرود حمر ، لها أعلام فيها بعض الخشونة ، وقيل : هي حلل تعمل بمكان قبل البحرين . يقال : قِطري وقَطري . (٢) ابن حجر : فتح الباري : ٨٢١/٨ .

(٣) انظر ابن حجر : فتح الباري : ٨٢١/٨ ، وانظر : ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء ٤٥١ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٢٤٤/٨ .

(٥) فتح الباري : ٥٩٢/٢ .

(٦) الفخر الرازي : التفسير الكبير ، ومفاتيح الغيب ٢٩ /٣٠٩ .

(٧) سبق التعريف به .

الله ﷺ ، وهي تتصف بنفس الكيفية التي كان يبايع بها رسول الله ﷺ [١] .

وتتابعت وفود النساء فرادي وجماعات يبايعن ويحملن مسئولية هذه البيعة ، كانت مبايعة النساء لرسول الله ﷺ تقع أحيانًا مع مجموع المبايعين من الرجال كما في العقبة الثانية ، وبيعة الرضوان ، كما كانت تقع أحيانا أخرى في جماعات من النسوة كما مر في بيعة النساء في المدينة بعد الهجرة وفي فتح مكة ، وقد يحدث أن تبايع المرأة بمفردها كما فعلت سودة بنت عاصم [٢] وأم عاصم السوداء [٣] .

بنود المبايعة الشرعية

لقد أراد الإسلام إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة ، وربطها كلها بمحور الإيمان ، فبين الله سبحانه لرسوله كيف يبايعهن على الإيمان ، وعلى أي الأسس يبايعهن ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٤] .

كان ، لفرط رحمته يؤكد على المبايعين والمبايعات أن يقولوا عند البيعة على الطاعة : « فيما استطعنا » ، عن أميمة بنت رقيقة قالت : بايعنا رسول الله ﷺ في نسوة فقال لنا : « فيما استطعتن وأطقتن » [٥] .

وهذه البيعة هي التي سماها الإمام النووي « بالبيعة الشرعية » [٦] وهي تمثل الأسس

---

(١) كان عمر ﷺ فيما يبدو هو النائب الدائم عن رسول الله ﷺ في مبايعات النساء ، ولقد يدعم هذا القول أن هناك رواية ذكرها ابن عساكر في بيعة النساء في فتح مكة ، وهي عن أبي غالب الماوردي، أنا أبو الحسن السيرافي ، أنا القاضي أبو القاسم على بن الحسين الشافعي ، أنا أبو الحسن على بن خُشْنام المالكي ، أنا أبو يزيد خالد بن النضر القرشي ، أنا محمد بن عبد الأعلي ، أنا معتمر بن سليمان ، أنا أبي ، قال : « ... إن رسول الله ﷺ كان يبايع الرجال على الصفا ، وعمر أسفل منه يبايع النساء لرسول الله ﷺ » . ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق : تراجم النساء : ٤٥٢ .

(٢) ابن حجر : الإصابة ١٩٥/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٧/ ٢٥ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٨٦ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ٤٢٥/٨ .

(٤) الممتحنة : ١٢ .

(٥) سنن النسائي ١٥٢/٧ كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان ، صحيح مسلم بشرح النووي ٥٣٢/٤ كتاب البيعة باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ١٥١/٥ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي : ٤/ ٥٣١ .

والمقومات الكبرى للعقيدة ، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة .. إنها عدم الشرك بالله إطلاقًا ، وعدم إتيان الحدود .. السرقة والزنا .. ، وعدم قتل الأولاد إشارة إلى ما كان يجري في الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب ، وهن أمينات على ما في بطونهن .. ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ . قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ بعد المبايعة على عدم الزنا كان لأجل الحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدد من الرجال ، فإذا جاءت بولد ، نظرت أيهم أقرب به شبهًا فألحقته به ، وربما اختارت هي أحسنهم فألحقت به ابنها ، وهي تعلم من هو أبوه . وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور مدعى .

والشرطُ الأخير ، وهو جِماع ما ذُكِر قبلُ ، وما لم يُذْكَر : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ، فالمعروف هو جوهر كل الفعاليات الإسلامية ، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات ، وهو من الصفات الغالبة ، أي أمر معروف بين الناس ، إذا رأوه لم ينكروه [١] .

وفي شرحه لهذا الشرط قال صاحب الظلال : « هو أحد قواعد الدستور في الإسلام وهو يقرر ألا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته ، وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر . وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله ، ومنها يستمدان السلطات ، فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن واستغفر لهن الرسول ، عما سلف » [٢] .

النصوص الأخرى للمبايعة

أما ما ورد في كتب السنة والتاريخ من نصوص مختلفة للمبايعة ، لم يتبين البعض حقيقتها وفهمها كبيعات قائمة بذاتها ، أو منفصلة عن البيعة الأساسية ، أو الشرعية ، وربما فهمها كأنها هي ما يبايع عليها النساء ، فإن التأمل في هذه النصوص ، وفي المبايعين عليها

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة عرف .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٧ ، ٣٥٤٨ ، بتصرف .

يقودنا إلى معرفة حقيقة هذه البيعات، فهي إذا ما أريد تصنيفها تبدو على هذا النحو :

مبايعة النساء على بعض الأمور الأخلاقية : عن أم عطية الأنصارية قالت : « كان فيما اشترط علينا رسول الله من المعروف ألا ننوح » (١) ، وعن أسيد بن أبي أسيد البزار (٢) عن امرأة من المبايعات قالت : « كان فيما أخذ علينا ﷺ أن لا نعصيه في معروف ، وأن لا نخمش وجهًا ، ولا ننشر شعرًا ، ولا نشق جيبًا » (٣) .

الروايتان كما نري واضحتان في التعبير عن أنه كان ضمن ما اشترط عليهن ﷺ من المعروف ألا ينحن ، فلم تكن عدم النياحة إلا شرطاً من الشروط التي أخذت عليهن ، كما أن هذا الشرط لم يكن كلِ ما اشترط عليهن ﷺ ، ولا هو ما اشترط ﷺ فقط ، بل إنه عند التحقيق ليس إلا معنى من معاني المعروف كما ذكرت الروايتان .

لكن الغريب في هذه المسألة هو ما ذهب إليه بعض المفسرين من تخصيص للمعروف مع النساء ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ بعدم النياحة ، قال ابن عباس وأنس بن مالك وغير واحد (٤) : « نهاهن يومئذ عن النوح » (٥) . وزاد بعضهم (٦) بعض السلوكيات الأخرى مثل : ألا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا محرم (٧) ، ولا تخلو برجل غير محرم ، ولا تسافر إلا مع ذي محرم . مع تفصيلهم لمظاهر النياحة ، من تمزيق للثياب ، وجَزٍّ للشعر ونتفه ، وشق للجيب ، وخمش للوجه .

وهكذا بدت مبايعة النبي ﷺ للنساء كما لو كانت مبايعة على عدم النياحة وعدم التحدث إلى غير ذوي المحارم من الرجال ! واختُزِل « المعروف » الواسع الشامل لتصير دائرته في هذه المعاني الضيقة . ولقد حاول ابن كثير تفسير هذا

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ /٣٥٥ .

(٢) أسيد بن أبي أسيد : ذكر ابن كثير أنه البزار ، والصحيح هو ما ذكره ابن حجر من أنه البرّاد ، أبو سعيد المديني ، شيخ الحجاج ، وعامل عمر بن عبد العزيز ، مات أول خلافة المنصور . صدوق . خرّج له البخاري في الأدب المفرد ، وله رواية عند سوى الشيخين . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ١٠٣ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) منهم أنس بن مالك ، وسالم بن أبي الجعد ، وأبي صالح .

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤/٣٥٥ .

(٦) مثل ابن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد .انظر تفسير الفخر الرازي جزء ٢٩ /٣٠٩ .

(٧) تأمل هذا التفسير وتناقضه مع الممارسة الفعلية للصحابة والصحابيات ، وانظر على سبيل المثال أبو شقة : تحرير المرأة في عصر الرسالة ، ٢/٧٥ وما بعدها .

التخصيص من ابن عباس ومن معه بقوله : « وربما خصصه ابن عباس ومن معه بذلك لمناسبة واقعة وقتذاك » [١] . وحين ننظر في قول ابن عباس نجده يقول : « منعهن أن ينحن وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ، ويخدشن الوجوه ، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالويل والثبور » [٢] .

فالمناسبة الواقعة ليست إلا ما كان في الجاهلية ، وهو مايدعونا إلى رفض هذا التخصيص من جميع الوجوه ، إننا نوقن أن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المباشرة ، ثم إن معني المعروف لا يضيق إلى حد أن يكون معناه عدم النياحة أو غيرها من السلوكيات المحدودة . فليست هذه الشروط الخاصة بالنساء – وإن بدت عند البعض مختلفة عن بنود البيعة الشرعية – إلا بعض المعاني الشاملة « للمعروف » .

وتؤكد ذلك الروايات التي ذكرناها ، وهي واضحة الدلالة على معني « التبعيض » : « كان فيما اشترط علينا » ، و « كان فيما أخذ علينا » ، ولقد قال ابن حجر : « لما نزلت هذه الآية كان منه النياحة » [٣] . ويؤكده أيضا ما روي عن عائشة ، قالت : « جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها : ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا .. الآية ﴾ ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أَقِرِّي أيتها المرأة ، فو الله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم إذن فبايعها بالآية » [٤] .

فلقد أكدت عائشة رضي الله عنها أنهن لم يبايعن إلا بالآية ، وتَكَرَّر تأكيدها رضي الله عنها في رواية مسلم عنها ، بعدما عرضت بنود البيعة في آية الممتحنة ، قالت : « والله ، ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله تعالى » [٥] ، أي بالآيات النازلة في البيعة . والواقع أن اشتراطه ﷺ هذه الأمور الأخلاقية [٦] عند بيعة النساء ، كان لمعرفتِه ﷺ بكل مُبَايِعٍ وطباعِه ، وهي أمور كان ، يعرض لها في ثنايا البيعة الشرعية

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣٥٥/٤ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣٥٤/٤ .
(٣) ابن حجر : فتح الباري ٨٢٢/٨ .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣٥٥/٤ .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي :٤/ ٥٣١ ،كتاب الإمارة ، باب كيفية بيعة النساء .
(٦) كان منها أيضًا : عدم التبرج ولا يقلن هُجرا ولا يغششن زوجًا ولا يقعدن مع الرجال في خلاء . انظر تفسير ابن كثير ٣٥٤/٤ ، ٣٥٥ .

استصلاحاً لكل مبايع ، وحرصاً منه، على ضبط هذه الأخلاقيات . فلو تأملنا ذلك لوجدنا أن راوية الخبر في البيعة على عدم النياحة هي أم عطية التي سيرد الحديث عنها بعد ، في طلبها الذهاب لإحدي المناحات قبل أن تبايع على عدم النياحة . ولقد خص النبي ﷺ النساء بهذا الشرط ؛ لكونه من طباعهن ومما يكثر صدوره عنهن . ونتيجة الظروف التاريخية الخاصة بالمؤمنات المهاجرات كانت البنود التي زادت على « البيعة الشرعية » في امتحانهن [١] .

ولم يكن هذا القول الذي يخص النساء ببعض البنود تأكيداً عليها مع البنود الأصلية ، أو الشرعية ، بِدْعاً في شأن المبايعات التي اختص بها النساء ، بل إن الشيء نفسه قد حدث مع جماعات وأفراد مختلفة من المسلمين ، فلقد كان ، يخص بعضهم ببنود خاصة عند مبايعاتهم ، كما كان يذكر بعض البنود لِما كان يدعو إليها من ظروف تاريخية خاصة . فأما النوع الأول في مبايعات بعض الأفراد والجماعات ببنود خاصة بهم [٢] ، فإن منها :

مبايعات خاصة بجماعة الأنصار :

ومن هذا القبيل كانت مجموعة البيعات التي أوردها النسائي مصنفة كالآتي : البيعة على السمع والطاعة – البيعة على ألا ننازع الأمر أهله – البيعة على القول بالحق – البيعة على القول بالعدل – البيعة على الأثرة [٣] – فهي كلها بنود في رواية واحدة عن عبادة بن الصامت الأنصاري ، أخرجها النسائي من طرق مختلفة [٤] ، جاء بعضها ببنود هذه البيعة مجتمعة ، وسقطت بعض هذه البنود من الطرق الأخرى للرواية .

وقد صنَّفها الإمام النسائي على نحوٍ ربما أوهم القارئ بأنها بيعات مختلفة قائمة

---

(١) راجع ذلك في : « الممتحنات » ، فصل « الهجرة » من هذه الدراسة .

(٢) لا يمتنع استفادة غيرهم منها ، بطبيعة الحال .

(٣) راجع في هذه المبايعات : فتح الباري : كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس : ١٣/٢٣٨ ، ٢٣٩، النسائي : السنن : ٧/ ١٤٠ . وفي شرحه لمعنى البيعة على الأثرة قال السندي : « ولا يخفى أنه لا يظهر للبيعة عليه [أي على الأثرة] وجه لأنه ليس فعلًا لهم ، وأيضًا ليس بأمر مطلوب في الدين بحيث يبايع عليه .. لأن كل مسلم إذا بايع على أن يفضل عليه غيره ، فلا يوجد ذلك الغير الذي يَفضُل وهذا ظاهر ، فالمراد وعلى الصبر على أثرة علينا أي بايعنا على أنا نصبر إن أوثر غيرنا علينا » (سنن النسائي ٧/١٤٠) .

(٤) كلها ينتهي إلى يحيى بن سعيد ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، عن عبادة بن الصامت .

بذاتها ، وإنما هي بيعة واحدة قد أخذها ، على جماعة الأنصار ، فهي بنود خاصة بهم رجالا ونساء . واعتبارها بيعة نوع من المعاهدة والتواصي بالتزامات محددة ، وهي عند التحقيق لا تخرج عن معني « المعروف » الذي ذكرته آية الممتحنة ، لعلمه ﷺ بما سوف يعرض لهم في قابل أمرهم من قضايا قد تُحْوِجُهم لهذه الوصايا الخاصة [١] ، وقد كان [٢] .

ومن قبيل البنود الخاصة بالظروف التاريخية الخاصة : تلك الصيغ الواردة في المبايعات على الموت ، والمبايعات على الجهاد ، والمبايعات على الهجرة ، والمبايعة على عدم الفرار. كل هذه الصيغ للمبايعات قد مرت بنا في ثنايا البحث ، وهي صيغ قد بايع عليها الرجال والنساء ، وكانت تكون لظروف خاصة [٣] ، كانت تقتضي التأكيد على معانيها ، وتخصيصها عند المبايعة لشديد أهميتها في أوقاتها . ولا تخرج جميعها عن معنى المعروف المتضمن لكافة الفعاليات الإسلامية .

بيعة واحدة للنساء والرجال

وإذن فإن البيعة الشرعية هي بيعة واحدة ، بايع عليها الرجال والنساء دون اختلاف في صيغتها أو تمييز في المسئولية الناتجة عنها ، وأما ما كان من نصوص أخرى ، فلم تكن إلا تخصيصاً كانت تقتضيه طبيعة الأشخاص ، أو طبيعة الظرف الذي تتم فيه البيعة ، أو معرفة الرسول بما سوف يعرض له البعض في مستقبل أيامهم من أمور تدعو إلى توصيتهم والتأكيد عليهم ببعض الشروط .

علي أن ثمة إشكالاً كان ينبغي علينا أن نتوقف إزاءه ، ألا وهو السبب في تسمية البنود الشرعية للبيعة « ببيعة النساء » ، فلقد سميت بيعة العقبة الأولي بيعة النساء ؛ لأنها جاءت موافقة للآية التي نزلت بعد الهجرة في عام الحديبية تذكر ما يبايع عليه النساء ، وهي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [٤] . فلقد جاءت على مثل ما بايع عليه رسول الله ﷺ

(١) ومن قبيل هذه بيعة جرير بن عبد الله البجلي للنبي ﷺ حيث قال : بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم . فتح الباري : ١٣/ ٢٣٩ ، سنن النسائي ٧/ ١٤٠ .

(٢) فإنه ﷺ أوصي إلى الأنصار أنه سيكون بعدي أثرة ، فاصبروا عليها ، يعني أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق ، وقد وقع ذلك في عهد الأمراء بعد الخلفاء فصبروا . راجع حاشية السندي على سنن النسائي : ٧/ ١٤٠ .

(٣) راجعها في التتبع التاريخي السابق .

(٤) الممتحنة ١٢ .

أصحاب العقبة الأولي قبل الهجرة [١] .

فهذه التسمية من قبيل الإطلاق المتأخر على الأمر المتقدم ، والملاحظ أن هذه البيعة الأولي لم يكن فيها نساء [٢] ، فهي إذن نوع من الاصطلاح الذي استمر بعدُ ، تفرقة بين هذه البيعة التي لم يكن فيها حرب وبين بيعة العقبة الثانية ، وكافة البيعات التي كانت على الحرب ، ولقد كانت بيعة العقبة الثانية والتي حضرها النساء - كما مر - بيعة على الحرب ، بل إن بيعة الرضوان كانت بيعة صريحةً وواضحةً على الموت أو على عدم الفرار كما سبق ، وقد حضرتها النساء أيضًا ، وعليه فليست هناك بيعة للرجال وبيعة للنساء بالمعنى الذي تدل عليه التسمية الاصطلاحية : « بيعة النساء » .

فالذي يبدو للدراسة أن النص الأصلي للمبايعة هو ماجاء به القرآن الكريم في سورة الممتحنة ، وهو ما أطلق عليه « بيعة النساء » ، ذلك أنه هو النص الذي تكرر وكانت عليه بيعة العقبة الأولي وبيعة المحنة عند امتحان المهاجرات ، والبيعة التي كانت عند فتح مكة ، والبيعات التي كان يتعاهد بها كافة المسلمين في المناسبات المختلفة ، وهي البيعة التي بايع عليها النبي الرجال كما بايع النساء ، وفيها كان قول رسول الله للرجال : « ألا تبايعوني على ما بايع عليه النساء » [٣] .

مكان المرأة السياسي في البيعة

وهكذا لم تكن « البيعة » في العهد النبوي بكل ما تعني من دلالات سياسية ، وعقدية ، خاصة بالرجال [٤] ، بل كان أغلب النساء اللاتي اتصلن برسول اللّه ﷺ قد أخذ عليهن ما أخذ على الرجال . ويكفي الباحث أن يطالع كتب تراجم الصحابيات

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣٥٣/٤ ، السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٢٢٤/١ .

(٢) فلا صحة لما ذكره د. حسن إبراهيم حسن (في تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي والثقافي والديني ٨٠/١ ، ٨١) : حين تساءل عن سبب تسمية بيعة العقبة الأولي ببيعة النساء ، ثم علل ذلك بقوله : ربما لحضور عفراء بنت عبيد بن ثعلبة هذه البيعة . واستعراض المصادر التاريخية وكتب التراجم لا يذكر أن عفراء بنت عبيد أو غيرها من النساء قد حضر بيعة العقبة الأولى ، وربما هيئ لسيادته ذلك من ترجمة ابن سعد (٤٤٢/٨) لأنيسة بنت عنمة بن ثعلبة ، حيث قال : هي أخت ثعلبة بن عنمة ، شهد العقبة وبدرًا ، فظنها : شهدت العقبة وبدرًا ، وربما اختلط عليه حضور عفراء بنت ثعلبة بن عبيد ، ويقال : عبيد بن ثعلبة ، وذلك من ذكر المصادر لحضور معوذ ومعاذ ابنا عفراء بنت عبيد بن ثعلبة - والله أعلم .

(٣) سنن النسائي : ١٤٢/٧ .

(٤) وقد ظن الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله رغم عنايته الواضحة بالدلالة السياسية لبيعة النساء ، أن البيعة على الجهاد والمنعة كانت خاصة بالرجال ، ومثل لذلك ببيعة الرضوان يوم الحديبية : تحرير المراة في عصر الرسالة : ٤٢٥/٢ . وهذا يناقض الواقع التاريخي كما رأينا .

المبايعات ليتأكد لديه ما ذكرنا ، فلقد استهل ابن سعد تراجم النساء في الجزء الثامن بذكر ما بايع عليه رسول الله ﷺ النساء ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أساسية المبايعة في حياة المسلمات جميعاً على عهد رسول الله ﷺ ، ثم قدم تراجمه لعدد من الصحابيات المبايعات يربو على الستمائة صحابية ، رتبهن على القبائل ، وعرض لهن على النحو التالي :

- تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم .
- تسمية غرائب نساء العرب المسلمات المبايعات المهاجرات .
- تسمية نساء الأنصار المسلمات المبايعات .

واستمر اهتمام المؤرخين بتراجم الصحابيات المبايعات ، فكتب ابن حبيب في كتابه المحبر قائمة تجمع ثلاثمائة وواحدة وستين صحابية مبايعة [١] . وذكر ابن الأثير في كتابه أسد الغابة ، وابن عبد البر في كتابه الاستيعاب ، وابن حجر في الإصابة أعدادًا وفيرة من الصحابيات اللاتي وصفن بالمبايعة .

وسوف نلحق بهذه الدراسة ملحقا فيمن ذكرهن ابن حجر ووصفهن بالمبايعة . ولقد اخترت استخراج هذه القائمة من عند ابن حجر ؛ لاعتبار كتابه « الإصابة » هو خاتمة التراجم الأصيلة ؛ ولأنه لم يصنفهن مجتمعاتٍ تحت معني البيعة كما فعل ابن سعد ، فقمتُ باستخراج هذه القائمة الطويلة من ثنايا التراجم الوفيرة في كتاب الإصابة ، وقد بلغ عددهن الثلاثمائة وسبعين صحابية مبايعة .

هذا وينبغي التأكيد على أن مبايعة النساء النبيَّ ﷺ تقوم على أساسين [٢] : الأول باعتباره الرسول المبلغ عن الله ، والثاني باعتباره ﷺ إمام المسلمين ، ومما يؤكد وجود الاعتبار الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ، وقوله ﷺ عن طاعة الأمير : « إنما الطاعة في المعروف » [٣] .

---

(١) ابن حبيب : المحبر ٤٠٦ - ٤٢٢ .

(٢) الأستاذ عبد الحليم أبو شقة : تحرير المرأة في عصر الرسالة ٤٢٦/٢ ، وراجع عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ٤٠٣ ، وعبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية ٣١ وما بعدها ، ومصطفي حلمي : نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة ٢٥ .

(٣) فتح الباري : كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ، ما لم تكن معصية : ١٣ / ١٥٢ ، كتاب الجهاد والسير ، باب السمع والطاعة للإمام ٦/ ١٤٣ ، ومسلم : كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ١٥/٦ .

ومما تقدم يتضح لنا أن بيعة النساء لا تقتصر على البيعة الإيمانية ، ولاتختزل في مجرد بيعة على عدم النياحة ، أو غيرها من الأخلاقيات ، وإنما تشمل الطاعة في المعروف ، والتأييد والنصرة لرسول الله ﷺ ، فهي التزام سياسي واضح ، حيث بايع رسول الله ﷺ النساء كل هذه البيعات السابقة ، الأمر الذي تبدو معه بيعة النساء للنبي ﷺ بيعة واجبة عيناً على كل مسلمة .

المبحث الثالث :

إشكاليات (بيعة النساء)

في الدراسات الحديثة

علي الرغم من هذه النتائج التي نستخلصها من البحث في الحركة السياسية الفعلية التي كانت تتم على عين الله ورسوله . فلقد جنحت معظم الدراسات الحديثة تحت ضغط التراكمات الفكرية التي نتجت عن غياب المنهاجية الإسلامية وعدم الاستناد إلى « الأصول » من جانب ، وعن افتراض نقص أهلية المرأة من جانب آخر إلى التفرقة بين بيعة الرجال وبيعة النساء ، وتأسس هذا التمييز في نظرهم على ثلاثة أسس :

- الاختلاف في الكيفية إذ لا تتطلب فيها المصافحة كما في بيعة الرجال .

- الاختلاف في الحدود إذ لا تتعدى البيعة الطاعة في المعروف - في زعمهم - وبالفهم الضيق لمعني المعروف ، فالنساء لا مدخل لهن في البيعة على الإمامة والسلطان .

- الاختلاف في مساحة المسامحة : فإنه يتوسع في أمر بيعتهن مالا يتوسع مع غيرهن ، فحيث يكون عدم الوفاء بها في الرجال انتقاصًا في دين المرء وتعديًا على حق من حقوق الله فهي في النساء غير حاملة لهذا [١] .

مسألة الكيفية فأما ما يتصل بالأساس الأول ، فإنه ممالا شك فيه أن القارئ الكريم بعد الاستعراض الذي ذكرناه في هذا المبحث يدرك كيف أن الغياب عن « الأصول » يعد واحداً من أبرز أزمات الفكر عامة ، وفيما يتصل بقضايا المرأة على وجه الخصوص ، فقضية المصافحة في البيعة ، والتي استغرقت معظم الكتابات الحديثة في بيعة النساء ، لا تعدو كونها ضابطًا أخلاقيًا [٢] ،

---

(١) انظر في هذه المسألة هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي - رؤية إسلامية ١٢٠ وما بعدها . ومحمد على قطب : بيعة النساء للنبي ﷺ : ٦٣ وما بعدها . وللباحثة : « حق المرأة في العمل السياسي رؤية أصولية وتاريخية » بحث منشور في مجلة المركز الإسلامي الدولي للبحوث والدراسات السكانية - جامعة الأزهر .

(٢) ذهب البعض إلى جواز المصافحة عند بيعة النساء : محمود الخالدي : البيعة في الفكر السياسي الإسلامي ٧٥ ، بينما ذهب البعض إلى القول بحرمتها . انظر على سبيل المثال : محمد بن أحمد بن إسماعيل : أدلة تحريم مصافحة الأجنبية ، ومحمد على الصابوني : روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ٥٤٩ .

لا يؤثر في الحقيقة السياسية للمبايعة معهن ، وتؤكد ذلك رواية الزهري : « ما مس رسول الله بيده امرأة قط ، إلا أن يأخذ عليها » [١] .

فالاستثناء هنا منقطع [٢] تقديره : ما مس يد امرأة قط ولكن يأخذ عليها البيعة . فعدم المصافحة لاتعني عدم تحقق المبايعة ، و قال النووي : هذا التقدير [أي القول بأخذ النبي البيعة على النساء] مُصَرَّح به في الروايات الأخرى ، فلابد منه . وهو واضح جدًّا في رواية النسائي عن أميمة بنت المنكدر : « إني لا أصافح النساء ، ولكن سآخذ عليكن » [٣] .

مسألة حق المرأة في البيعة على الإمامة

وأما ما يتصل بالأساس الثاني ، والقائل بأنه لا مدخل للنساء في البيعة على الإمامة والسلطان ، إذ لا تتعدي مبايعتهن البيعة على المعروف ، فإنه قول ينقصه الفهم الدقيق والصحيح لمعنى « المعروف » الذي تعرضنا له ، ولدلالاته السياسية من جانب ، ولقد تعرضت الدراسة لمبايعات الصحابيات ، في كافة المواقف ، وبكل الصيغ الواردة في المبايعات ، انتهاء بالمبايعة على الموت أو على عدم الفرار .

مسألة مساحة المسامحة للمرأة في الإلتزام بالبيعة

أما قضية المسامحة في شأن المرأة ، فإنها لا تكاد تنهض في مواجهة الممارسة والالتزام السياسي الكامل للمرأة إزاء المبايعات التي قامت بها ، ولقد كانت شخصية كشخصية نسيبة بنت كعب التي بايعت في العقبة الثانية وبايعت عند الشجرة وحضرت أحداً وخيبراً وحنينًا والفتح واليمامة ، دليلًا على هذا الالتزام بالبيعة على الجهاد رغم أنها بيعة كفائية كما سيتضح في فصل الجهاد ، غير أن فروض الكفاية على أهلها فروض عين ، أي أنه ينبغي للمبايع أن يلتزم ببيعته متى قام بها ، ومتي بايع فقد وجبت عليه وصار مُلْزَماً بتبعاتها ، رجلًا كان ، أو امرأة ، فلم يكن هناك مجال لمسامحة النساء كما ذهبت التقسيمات التي ذكرنا ، الأمر الذي يؤكد فهم الصحابيات لوجوب التزامهن بالبيعة أيًّا كان نوعها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإمارة ، باب : كيفية بيعة النساء ٤/ ٥٣١ ، فتح الباري كتاب الأحكام ، باب بيعة النساء ١٣/٢٥٣ .

(٢) الاستثناء المنقطع : هو ما لم يكن فيه المستثنى بعضًا من المستثنى منه ؛ إذ إن صلة البعضية بينهما منقطعة ، فالمستثني ليس جزءاً من أجزائه ، ولا فرداً من أفراده . وتؤدي أداة الاستثناء فيه معنى الحرف « لكن » ساكن العين ومشددها ، الذي يفيد الابتداء والاستدراك والصدارة معا . فالتقدير : ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة .. لكنه بايعهن .

(٣) فتح الباري : ٨/٨٢١ .

ودل على عدم وجود مجال للمسامحة تراجع بعض الصحابيات عن المبايعة خشية من الشرط ، فلقد أخبر وكيع بن الجراح (١) ..عن قيس بن أبي حازم (٢) أن النسوة لما جئن يبايعن النبي ﷺ بسط رداءه فوق يده فبايعهن من وراء الرداء ورجع نسوة لم يبايعهن وخشين الشرط وبايع أُخر (٣) ، فلو كان في الأمر مسامحة لما خشيت هؤلاء الصحابيات مسئولية المبايعة على ما يشترط عليهن ﷺ .

وروي البخاري في رواية أم عطيه السابقة : « فقبضت امرأة (٤) يدها ، فقالت : أسعدتني (٥) فلانة فأريد أن أجزيها ، فما قال لها شيئا فانطلقتْ ورجعتْ فبايعها » (٦) . في هذه الرواية قالت أم عطية أن امرأة ساعدتها في النياحة ، فلابد من مساعدتها على ذلك قضاء لحقها ثم لا تعود ، فرخص لها النبي ﷺ في ذلك قبل المبايعة ففعلت ثم عادت فبايعت (٧) ، فلو كان في المبايعة مسامحة لما كان هناك مبرر لتأخير بيعتها حتى تساعد من ساعدتها ، لِمَا في المبايعة من العهد والإلزام .

ولو كانت هذه المسامحة المزعومة واردة بالنسبة للمرأة لما بايعها ﷺ أصلًا كما فعل مع الغلام والعبد ، لانتفاء المسئولية عندهما ، وليس ذلك عند المرأة ، فلقد قال

(١) سبق التعريف به .
(٢) قيس بن أبي حازم البجلي : ثقة ، له رؤية ، روي عن العشرة ،مات بعد التسعين . تقريب التهذيب : ١/ ٣٢ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبري ٢٤٤/٨ .
(٤) قال ابن حجر (فتح الباري ٨٢٣/٨) : لم أقف على اسم المرأة ، ولم أعرف آل فلان المشار إليهم ، لكنه ذكر في رواية عن عاصم : « فقلت : يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلابد من أن أسعدهم » . وفي رواية للنسائي عن أم عطية (١٥٠/٧ سنن النسائي : كتاب البيعة : باب بيعة النساء) : ذكر الحديث بضمير المتكلم . فتبين أن المرأة هي أم عطية . أبهمت نفسها في هذه الرواية المذكورة .
(٥) الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى في النياحة تراسلها ، وهو خاص بهذا المعنى .
(٦) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : كتاب الأحكام ، باب بيعة النساء ٢٥٢/١٣ حديث ، وكتاب التفسير ٨٢٢/٨ : باب : إذا جاءك المؤمنات يبايعنك . ولقد ثبت مثل هذا لغير أم عطية ، فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس ، قال : « لما أخذ رسول الله ﷺ على النساء فبايعهن ألا يشركن بالله شيئًا .. الآية قالت خولة بنت حكيم : يا رسول الله كان أبي وأخي ماتا في الجاهلية ، وإن فلانة أسعدتني وقد مات أخوها » الحديث . وأخرج الترمذي من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة الأنصارية وهي أسماء بنت يزيد قالت : « قلت يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي ولابد من قضائهن ، فأبى . قالت : فراجعته مرارًا فأذن لي ، ثم لم أنح بعد » وأخرج أحمد والطبراني .. قال : « أدركت عجوزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ قالت : فأخذ علينا ولا ينحن ، فقالت عجوز : يا نبي الله إن ناسًا كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا فأنا أريد أن أسعدهم ، قال : فاذهبي فكافئيهم ...ثم إنها أتت فبايعته » . انظر : فتح الباري : ٨٢٤/٨ .
(٧) حاشية السندي على سنن النسائي ١٤٩/٧ .

الهرماس بن زياد [١] : « مددت يدي للنبي ، وأنا غلام ليبايعني فلم يبايعني [٢] » . وذلك لما في المبايعة من العهد والإلزام ، والصغير ليس أهلا لذلك ، بل لا يلزمه شئ إن ألزمه نفسَه ، فأي فائدة في البيعة معه [٣] ؟ .

وكذلك كان أمر المبايعة مع العبد ، فعن جابر قال : جاء عبد فبايع النبي ﷺ على الهجرة ولا يشعر النبي ﷺ أنه عبد ، فجاء سيده يريده فقال النبي ﷺ : « بِعنيه » ، فاشتراه بعبدين أسودين ، ثم لم يبايع أحدًا حتى يسأله أعبد هو [٤] ؟ . لقد طلب ﷺ من سيد العبد البيع إعانة لذلك العبد على الوفاء بما بايع عليه من الهجرة ، فتأمل كيف حاول أن يجد السبيل إلى هذه الإعانة مهما تكن التكلفة ، وكان من الممكن أن يُحِلَّه من تبعة البيعة ، لكنه لم يفعل ؛ لأن أمر البيعة شديد .

كيف نتصور إذن أن المرأة لا تكون ملزمة بالبيعة ؟ وهل يجوز لنا القول بأن العدد الهائل من المبايعات معهن كان ضربًا من العبث الذي لافائدة من ورائه [٥] ؟ ! إن مقام النبوة ومقام الصحبة ليتنزهان عن ذلك ولاشك .

والعجيب ، والطريف معاً بعد الذي ذكرنا ، أن بعض الدراسات قد ذهبت إلى أبعدَ من التفرقة بين بيعة الرجال وبيعة النساء ، فرفضت أن تكون المبايعة دليلًا على اشتغال المرأة المسلمة آنئذٍ بالسياسة ، « ومن زعم ذلك - في رأيهم - فقد ركب متن الشطط ، وحمل وقائع التاريخ مالم تحتمل » [٦] !!.

---

(١) الهرماس بن زياد ابن مالك بن عمرو بن عامر بن ثعلبة بن غنم . روي عنه عكرمة بن عمار وغيره . ابن الأثير : أسد الغابة ٣٦٧/٥ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٨٥ ، البخاري : التاريخ الكبير ٣٤٦/٨ .

(٢) سنن النسائي ١٥٠/٧ كتاب البيعة ، باب بيعة الغلام . وقد روي أيضًا عن عبد الله بن هشام ، أنه قد أدرك ، وذهبت به أمه زينب بنت حميد إلى ﷺ فقالت : يا رسول الله بايعه ، فقال رسول الله : « هو صغير » فمسح رأسه . سنن أبي داود ١٣٣/٣، ١٣٤ ، باب : ما جاء في البيعة .

(٣) حاشية الإمام السندي على النسائي ١٥٠/٧ . ابن الأثير : أسد الغابة . وقد ذكر أن الثلاثة أخرجوا هذا الحديث .

(٤) سنن النسائي ١٥٠/٧ .

(٥) انظر ملحق المبايعات من الصحابيات في آخر الدراسة .

(٦) انظر على سبيل المثال د. مصطفي السباعي : المرأة بين الفقه والقانون ٥١ : وقد قال - رحمه الله - ذلك بعد قوله : كل ما يرويه لنا التاريخ أن النبي ﷺ أخذ من النساء بيعة - دون أن يصافحهن - على ألا يشركن بالله شيئًا . وذكر الآية. ، وقد كانت هذه البيعة يوم فتح مكة ، ثم أخذ بيعة الرجال على مثل ما أخذ من بيعة النساء . تأمل كيف حصر سيادته البيعة في فتح مكة ، غير مشير إلى بقية البيعات ، وغاضًّا الطرف عن العدد الهائل من الصحابيات المبايعات ، وواضعًا من قدر المعنى السياسي في البيعة .

الخلاصة لقد كانت في مبايعة النبي ﷺ للمسلمين ، وفي استيعابها لكل معتنق ومعتنقة لهذا الدين دلالة واضحة على التزام المرأة والرجل معًا بما يفرضه الدين الإسلامي من سياسة للدنيا وعمل للآخرة ، وكانت كذلك خصيصة للدولة الإسلامية ، ميزتها عن المجتمع الجاهلي والمجتمعات الأخرى بعدها ، حتى اعتبرها البعض دليلًا على وجوب الرابطة السياسية بين الحاكم والمحكوم في المجتمع الإسلامي ، لحديث رسول الله ﷺ : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [١] .

ولئن كان قدرسخ في أذهاننا اعتبار أن البيعة هي الوسيلة التي تضفي الشرعية على نظام الحكم ، فإن الواقع الذي سجله التاريخ الإسلامي هو أن البيعة قد سبقت إنشاء الدولة ، ثم ظلت قائمة في أثناء قيامها واستمرت واسترسلت حتى صارت شعارًا على التعهد بالعمل والالتزام من طرف كل معتنق لهذا الدين . وهكذا قامت دولة المدينة على أساس فكري شامل وعميق ، وقادر على التأثير حتى صبغ الحياة كلها بصبغة الإسلام ، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [٢].

ولئن كانت البيعة حقًّا لكل مسلم ، رجلًا كان أو امرأة ؛ لأنها الطريقة الشرعية الوحيدة لتنصيب رئيس الدولة ؛ لأن الأمة هي صاحبة السلطة والشأن في تنصيب الإمام وعزله [٣] ، فلقد أثبت التتبع التاريخي أنها أيضًا واجب على كل مسلم ومسلمة ؛ لأنها كانت قبل كل شئ بيعة على العقيدة والأخلاق الاجتماعية الإسلامية – كما رأينا – وقد أخذها الرسول ﷺ قبل وبعد تأسيس الدولة من الأمة كلها رجالها ونسائها دون اختلاف في صيغتها الأساسية « الشرعية » ودون تمييز في المسئولية الناتجة عنها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة ، باب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال ، وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة ٥١٤/٤ .

(٢) البقرة : ١٣٨ . وانظر : محمد فتحي عثمان في كتابه : دولة الفكرة .

(٣) د. محمود الخالدي : البيعة في الفكر السياسي الإسلامي : ٤٩ وما بعدها .

الفصل الرابع

بيعة النساء للخلفاء الراشدين

في الفصل السابق نظرنا في مبايعات النبي ﷺ للنساء ، وفي حرصه ﷺ وحرص الصحابيات علي هذه المبايعات ، وفي الدلالات السياسية لهذه المبايعات . وفي ضوء ما سبق نبدأ في هذه المباحث دراسة بيعة النساء للخلفاء الراشدين في المصادر التاريخية ، ودراسة الظروف التاريخية لهذه البيعات مع التعرف علي الطبيعة الاجتماعية التي حكمت إشكالية غياب النساء عن هذه البيعات كما سنرى ، و هل أخلَّ غيابها بمقاصد الشريعة ، وأخيرًا ننظر هذه القضية في ضوء المفاهيم السياسية المعاصرة .

تعريف الخلافة

لم تكن الخلافة في تاريخ الراشدين أمرًا سياسيًّا فارغًا من مضمونه الديني ، كما هي حالة الفكر السياسي المعاصر ، وإنما كانت خلافة للنبوة في حراسة الدين ، وسياسة الأمة به . ولقد كثرت تعريفات أئمة الإسلام للإمامة والخلافة إلا أنها تكاد تتفق في جوهرها ، وإن اختلفت ألفاظها. قال الإمام الماوردي مُعَرِّفًا لها بموضوعها : « الخلافة موضوعة بخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا » [(١)] .

وقال ابن خلدون : « هي حمل الكافة علي مقتضي النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها » .. فهى في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به [(٢)] . وهذا التعريف في حقيقته هو نفس تعريف الإمام الماوردي [(٣)] .

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ٥ : وهناك جملة تعاريف أخرى تتطابق مع ما مر في المعني . انظر مثلًا أبي عبد الله محمد بن علي القلعي : ترتيب الرياسة وتهذيب السياسة : ٨٥ ، وابن تيمية : منهاج السنة النبوية : ١/٧٣ . وحراسة الدين تعني شيئين : حفظه وتنفيذه . وحفظه يعني إبقاء حقائقه ومعانيه ونشرها بين الناس كما بلغها رسول الله ﷺ ، وسار عليها صحابته الكرام ، وتنفيذه : قوامه تطبيق أحكامه وأنظمته في كل قضايا الفرد والدولة . وأما سياسة الدنيا بالدين فهو أن تكون إدارة شئون الدولة والرعية علي وجه يحقق المصلحة ويدرأ المفسدة ، وهذا يتم حين تحكم قواعد الشريعة سياسة الدولة . انظر عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة : ١٨٣ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ٢ : /٥٧٩ .

(٣) ولا يختلف تعريف الإمام الجويني عما سبق ، وإن كان يزيد الأمر تفصيلًا ، قال : « هي رياسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا مُتَضمَّنُها حفظ الحوزة ، ورعاية الرعية وإقامة الدعوة بالحجة والسيف ، وكف الجنف والحيف والانتصاف للمظلومين من الظالمين ، واستيفاء الحقوق في الممتنعين وإيفاؤها علي المستحقين » . الإمام الجويني : غياث الأمم في التياث الظلم : ١٥.

مسئولية إقامة الخلافة الأمة في النظام الإسلامي هي المسئولة عن تنفيذ الشريعة . وأساس هذه المسئولية للأمة : أن القرآن خاطب الأمة بتنفيذ أحكام القانون الإسلامي في المعاملات والعقوبات ونحوها ، وجعلها مسئولة عن هذا التنفيذ .

وأمة محمد ﷺ هي كل من أرسل إليه رجلًا وامرأة ، فالأصل في خطاب الشارع ، قرآنًا وسنة ، أنه موجه للرجال والنساء سواء . وإذا كانت هناك فوارق محدودة قررها الشارع في وضوح وجلاء ، فإن الأصل يظل هو المساواة والفوارق استثناء من الأصل [١] . ومن هذه الخطابات الشرعية للرجال والنساء في القيام علي هذه المسئولية ، قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٤] .

فهذه النصوص وأمثالها خطابات للأمة بمجموعها ، رجالًا ونساء ، تجعلها مسئولة عن تنفيذ الشرع . ولما كان من بدهي القول أن الأمة بمجموعها يتعذر مباشرتها مجتمعة لمسئوليات تنفيذ هذا الشرع ، وكانت الخلافة هي أداة هذا التنفيذ ، فإن الأمة بمجموعها هي المسئولة عن إقامة الخلافة ، إقامةً للشريعة .

ولقد زخرت السنة النبوية بالأحاديث الصحيحة التي توجب علي الأمة تنصيب إمام ومبايعته ، وتحتم أن يلتزم الفرد في النظام الإسلامي ، ببيعة ، وكان هذا هو المفهوم من قوله ، « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية [٥] » . أضف إلى

---

(١) وفي تقرير مساواة خطاب الشارع للرجل والمرأة يقول الإمام ابن رشد : « الأصل أن حكمهما واحد ، إلا أن يثبت في ذلك فارق شرعي (ابن رشد : بداية المجتهد ١٧٢/١) . ويقول ابن القيم : قد استقر في عرف الشارع أن الأحكام المذكورة بصيغة المذكر إذا أطلقت ولم تقترن بالمؤنث فإنها تتناول الرجال والنساء (ابن القيم : إعلام الموقعين ٧٢/١) . « وإنما يذكر النساء في الخطاب القرآني علي سبيل التأكيد » . ابن العربي : أحكام القرآن ١٣٦٧٧/٣ . وانظر سيد قطب : في ظلال القرآن ٢١٩٣/٤ ، وراجع صفحة ٩٦ من الرسالة .

(٢) التوبة : ٧١ . (٣) النساء : ١٣٥ .

(٤) الشوري : ٣٨ . النص مكي . كان قبل قيام الدولة الإسلامية ، فالطابع الشوري إذًا أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين ، ومن ثم كان طابع الشوري في الجماعة مبكرًا ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشئون الحكم فيها . فالشوري - بحق - طابع ذاتي للحياة الإسلامية .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ٢٤٠/٢ . ولفظ « من » حين يطلق يشمل الذكر والأنثي . راجع : الأستاذ سيد قطب : في ظلال القرآن ٢١٩٣/٤ ، في شرحه لآية :﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ . النحل ٩٧ ، قال : ومع أن لفظ « مَنْ » حين يطلق يشمل الذكر والأنثى ، إلا أن النص يفصل لزيادة تقرير هذه الحقيقة .

ذلك السنة الفعلية التي عرضنا لها في المباحث السابقة ، والتي عرضنا فيها للمنهج السياسي الذي اتبعه النبي ﷺ مع رجال الأمة ونسائها فيما يتصل بعملية المبايعة . لقد قامت سياسته ﷺ علي دعامتين بارزتين هما : طلبه ﷺ للبيعة ، وحرصه علي الشورى مع أصحابه ، وهاتان الدعامتان مرتبطتان بشخصيته السياسية بصورة بارزة كصاحب دعوة ورسالة . ولقد قامت النظريات السياسية عند أهل السنة تأسيسًا علي هذه الأساليب التي كان يتبعها ﷺ [١] .

ولقد تَبَيَّـن لنا في الفصل السابق كيف أن المرأة قد بايعت النبي ﷺ ، وكانت هذه المبايعة باعتبار مهمتان يؤديهما إلى الأمة ، إحداهما : أن يبلغ عن الله ما أمره بتبليغه إلى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودنياهم ... ، والثانية باعتباره إمامًا للمسلمين يضم ، قاصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها إلى الخير ويبعدها عن مزال الأقدام ومواطن الشرور ، ويرجعون إليه في أقضيتهم وحل مشكلاتهم طبق ما أوحي إليه ، وما يؤديه إليه اجتهاده فيما ليس عنده فيه وحي ، ثم يقوم بتنفيذ تلك الأحكام [٢] .

ولما كانت البيعة علي الخلافة ممثلة للاعتبار الثاني في بيعة النبي ﷺ ، وهو اعتبار شديد الخطر ، حيث لا يتم إلا به قيام الدين وحفظ شأنه ، وسياسة الدنيا به .. فإن الصحابة جميعًا والصحابيات كانوا يُجمعون علي أن تولية الإمام أو الخليفة واجب من أعظم واجبات الدين ، بل كانوا لا يرون للدين قيامًا إلا بقيام الخلافة ، وهذا ما جعلهم يذهبون إلى إقامة الخلافة في ذات اليوم الذي قبض فيه رسول الله ﷺ ، وبينما لم يزل ، مسجَّي في داره . ولم نكد نسمع برأي لصحابي أو صحابية يستنكر

---

(١) د/مصطفي حلمي : نظام الخلافة عند أهل السنة والشيعة : ٢٤ : ٢٨ . وزاد الأستاذ عبد الوهاب خلاف على هاتين الدعامتين : ومسؤولية أولي الأمر . انظر : السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية : ٣٤ . وانظر دراسة د . أحمد حمد : الجانب السياسي في حياة الرسول . ودراسة د .محمد عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام . ود . منير حميد البياتي : النظام السياسي الإسلامي مقارنًا بالدولة القانونية .

(٢) والغريب في هذا الصدد قول الشيخ علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم : إن الإسلام دين فقط ، ولا شأن له بالسياسة ولا بإقامة حاكم عام للدولة ، بل يرجع في ذلك لأحكام العقل وقواعد السياسة وخبرات الأمم . ويزعم : أن ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي ﷺ لم يكن له شأن في الملك السياسي ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ من كل معاني السلطان . علي عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم : ١٥٨.

هذا التعجيل بأمر الخلافة [١] .

بيعة النساء للخلفاء في المصادر التاريخية

إذا كان الأمر علي ما قدمنا في الفقرات السابقة ، من خطر الخلافة ، وأهمية ، بل ووجوب تنصيب الخليفة علي الأمة ، والتأكيدعلي دخول المرأة في هذا الوجوب علي « الأمة » ، مع ما يؤدي إليه فهم الاعتبار السياسي في بيعة النساء للنبي ﷺ . وما سبق به القول في الفصل السابق ، من ثبوت مشروعية بيعة النساء بالقرآن والسنة الفعلية . فما هي حقيقة بيعة النساء للخلفاء ؟

إن أول ما نتوقف عنده أن المصادر حين تحدثت عن المبايعات العامة – وهي المبايعات التي تأتي بعد البيعة الخاصة وتكون عامة فيجميع الناس ، يأخذ فيها الخليفة أو من ينيبه البيعة علي الطاعة [٢] – أطلقت القول بالمبايعة ولم تعين المبايعين .

والذي حدث عند البيعة العامة للخلفاء الأربعة حدث عند البيعة الخاصة [٣] لكل من أبي بكر وعلي رضي الله عنهما ؛ كان الحديث عن القائمين بهذه المبايعات عامًّا أيضًا وبدون تحديد لهم ، أو لأوصافهم [٤] . وكان هذا الإطلاق عامًّا وغير محدد ، لا فيما

---

(١) هذا الفهم لخطر الخلافة من الصحابة والتابعين كان إجماعًا جعل الفقهاء يؤكدون علي وجوب قيامها ، فقال الماوردي : « عقدها لمن يقوم بها واجب بالإجماع » ، وقال أبو يعلى الفراء : « نصبة الإمام واجبة ، بل حصول الفتنة لازم عندها إذا لم يكن هناك إمام يقوم بأمر الدين والدنيا » . ونجد ابن حزم والإمام القلعي يؤكدان هذا الوجوب ، ويناقش ابن حزم أدلة المنكرين له فيقول : اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج علي وجوب الإمامة .. حاشا النجدات من الخوارج فإنهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمامة وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم . ويقول ابن حزم : وقول هذه الفرقة ساقط يكفي للرد عليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا علي بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمام من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ . النساء ٥٩ . راجع الماوردي : الأحكام السلطانية : ٥ ، والفراء : الأحكام السلطانية ١٩ ، وابن حزم : الفصل في الملل والنحل : ٤ /٨٧ ، وابن تيمية : السياسة الشرعية : ٧٧ ، وابن خلدون : المقدمة ٥٧٩/٢ .

(٢) أحمد صديق عبد الرحمن : البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة ٣٠ .

(٣) وهي البيعة التي كانت تتم قبل البيعة العامة ، وهي عبارة عن تولية الإمام عن طريق الاختيار من القائمين بها . السابق نفسه .

(٤) فعلى سبيل المثال ، قال الأستاذ عبد الوهاب النجار : لم نعرف : أهم الأمة بأسرها ، أم أشخاص مخصوصون ، وإذا كانوا أشخاصًا مخصوصين فمن هم ، وما هي الصفات التي يلزم توفرها فيهم . وحتى =

يخص المرأة وحدها بل فيما يخص من لهم حق الاختيار والبيعة للخلفاء عامة ، « فلم يتحدد أو يوصف في أي من أنظمة اختيار الخلفاء من كان لهم الحق في الانتخاب عامة » [١] .

وأما البيعة الخاصة لكل من عمر وعثمان ﷺ فقد صرحت الروايات بذكر الحاضرين فيها كما سوف نرى ، ولم يكن فيهم اسم لامرأة .

غياب اسم المرأة في مبايعات الخلفاء إذن كان في أغلبه جزءًا من مشكلة سياسية عامة خاصة بتعيين من لهم الحق في الاختيار : إن في الحركة والممارسة التاريخية ، أو في المصادر التاريخية ، وإن على مستوى التوصيف السياسي .

ففي مبايعة أبي بكر : ذكر ابن كثير أن طائفة من المسلمين قد بايعته في سقيفة بني ساعدة .. فلما كانت صبيحة يوم الثلاثاء – التالي لوفاة رسول الله ﷺ – اجتمع الناس في المسجد فتممت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة [٢] .. وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ ، وسماها ابن كثير بيعة العامة [٣] .

وفي مبايعة عمر فإنه وإن لم تذكرالمصادر بيعة وإنما كانت تذكر عهد أبي بكر ﷺ له بالخلافة [٤] ، ثم بويع في المسجد بيعة عامة ، إلا أن الواقع أن أبا بكر قد قام بما يشبه ويقوم مقام البيعة الخاصة ، حيث تشاور مع بعض الصحابة من المحيطين به في أمر العهد لعمر ﷺ .

وأما عثمان بن عفان فإن عبد الرحمن بن عوف ﷺ لما انتهى من مشاورة الناس في الأيام الثلاثة التي حددها عمر بن الخطاب ، علي ما هو مشهور ، في قصة

= ما قاله بعض الشراح من كونها مخصوصة بأهل الحل والعقد ، فإنه قول غير محدد هو الآخر : هل أهل الحل والعقد هم قوّاد الجيوش ، أم ولاة الأمصار ، أم أعيان الأمة ، أم العلماء ، والقضاة ، أم أهل البلدة التي يكون فيها الخليفة .

(١) عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٤٧١ .

(٢) جاء القوم بقطيبهم أي بجماعتهم ، وجاءوا قاطبة أي جميعًا . وهو اسم يدل علي العموم ، وقال الليث : قاطبة اسم يجمع كل جيل من الناس ،كقولك : جاءت العرب قاطبة . انظر لسان العرب ، مادة قطب ٣٦٦٨ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤٢٨/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٧/٥ .

(٤) المسعودي : في مروج الذهب ٢٣٣/٢ ، د. عماد الدين خليل : القيادة والسلطة ٢٢ .

الشوري ، وقد قام مقام البيعة الخاصة اتفاق الذين رشحهم عمر علي تفويض عبد الرحمن بن عوف ، الذي خرج إلى المسجد ؛ وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ونودي في الناس عامة : الصلاة جامعة ، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس .. ولما انتهى الأمر إلى مبايعة عثمان له علي العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبي بكر وعمر جاءه الناس يبايعونه حتى غشوه عند المنبر [١] .

وأما علي بن أبي طالب فإنه ، وإن لم تذكر المصادر له بيعة خاصة ، إلا أننا نجد أن هناك عددًا من المواقف قد تكررت من جمهور أهل المدينة ، والصحابة ، كانوا يأتون فيها عليًا ﷺ ، فيما يشبه الإجماع منهم علي الرغبة في توليته ، بل والإلحاح عليه في ذلك [٢] . وأما البيعة العامة ، فقد تمت بعد ذلك في المسجد ، يقول ابن كثير : خرج إلى المسجد .. فبايعه عامة الناس [٣] .

ولقد كان من المعقول أن نفهم من التعميم ، والإطلاق السابق في البيعات العامة دخول النساء في المبايعين من « الناس » ، لولا أن التطواف في مفازات التراجم النسائية لا يقدم لنا خبرًا أو وصفًا أو ترجمة لصحابية من الصحابيات بايعت أحدًا من الخلفاء الراشدين .

وعلي حين أفاضت المصادر في الحديث عن كيفية بيعة النساء للنبي ﷺ ، فإنها لم تعرض إلى كيفية بيعتهن للخلفاء الراشدين : هل كانت كلامًا كما كانت على

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/٢٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ١٥٢ .

(٢) تأمل علي سبيل المثال ، قول الطبري : سأل أصحابُ رسول الله ﷺ عليًا أن يتقلَّد لهم فأبى عليهم ، فلما أبوا عليه ، وطلبوا إليه ، تقلد ذلك لهم . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٢٧ . ورواية سيف بن عمر في اجتماع أهل المدينة ، وقول أهل مصر لهم : أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ... فانظروا رجلًا تنصبونه ، ونحن لكم تبع . فقال الجمهور : علي بن أبي طالب ، نحن به راضون . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٣ . ورواية سيف أيضًا في غشيان أهل المدينة لعليّ ﷺ ، ونشدانهم له أن يقبل الخلافة . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٤ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٢٣٧ . وذكر بعض روايات فيها أن طائفة من الأنصار لم تبايعه ، وذكر رواية للمدائني عن الزهري قال : هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليًا . وقد عرض صاحب « مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ١٩٣ : ١٩٥ » للروايات الواردة في مبايعة عليّ ، وانتهي إلى أن أصح ما ورد من روايات فيها هي رواية الإمام أحمد في « فضائل الصحابة ٢/٥٧٣ » ، وفيها أطلق الإمام أحمد المبايعة ولم يعين ، قال « فبايعه الناس » .

عهد النبي ﷺ ، أم كان الخلفاء ينيبون عنهم من يُتمون لهم البيعة مع النساء ،.. وكانت هذه إشارة دالة لو وجدت ، لكنها لم توجد ، فالروايات علي هذا النحو العام تشير إلى عدم حضور المرأة في مبايعات الخلفاء الراشدين .

ويكاد المرء يتعجب من التناقض بين هذا الغياب التام والحضور البيِّن علي عهد النبي ﷺ [١] ، . وإذا كان الفقهاء قد اعتبروا المبايعة علي الولايات العامة فرضًا علي الكفاية ، وربما كان هذا مبررًا لغياب المرأة عن هذه المبايعات ، فإننا أيضًا لا نعدم التساؤل : ألم يكن في النساء واحدة حققت مع أهل الكفاية هذا المعنى في المبايعات ، خاصة ، وأن الكفاية لا تعني كفاية الرجال من دون النساء ، وإنما تعني كفاية الأمة بمجموعها ؟

إنني أستبعد تمامًا أن تكون المبايعات كلها قد تمت دون شهود نسائي لها ؛ لكون هذا ضد ما نعلم ، وما قد ثبت من مثابرة الصحابيات علي الصلاة في المسجد والتحامهن الدائم بكل نداء عام في « الناس » . لماذا غابت المرأة إذن عن هذه المبايعات ؟ وهل غابت حقًّا أم أن القضية ترجع كما رجعت كثير من المشكلات في ثنايا البحث إلى إهمال المصادر لتأريخ دور المرأة [٢] ؟ .

إن شيئًا من هذه التساؤلات لا يكاد يجد إجابة صريحة في المصادر التاريخية نفيًا أو إثباتًا ، فيما عدا ما اعتبرناه بيعة خاصة لعمر وعثمان رضي الله عنهما ، حيث ذكرت أسماء القائمين بها وليس فيهم اسم لامرأة ، كما ذكرنا من قبل .

ويبقي واجبًا علي الباحث أن يحاول كشف السر في هذه الحالة ، وحلَّ التناقض الحادث بين الواقع التاريخي الذي صورته المصادر لهذه الحالة وبين الواقع التاريخي قبله علي عهد الرسول ﷺ ، والتناقض أيضًا بين عموم الخطاب القرآني للرجل والمرأة وبين غيابها في البيعة للخلفاء ، وعدم تحقيقها لهذا الخطاب كما قد يبدو من ظاهر اختفاء اسمها عند مبايعات الخلفاء الراشدين .

---

(١) تأمل المفارقة بين هذا الذي ذكرنا وبين بيعة النساء للنبي ﷺ . انظر ملحق النساء المبايعات للنبي ﷺ في آخر الرسالة .

(٢) ولعل هذا الملمح عن عدم تصريح المصادر التاريخية بغياب النساء ، أو حضورهن ، وعجزنا بسبب ذلك عن تكوين الصورة المتكاملة لشكل الفعل السياسي للمرأة ليس جديدًا في هذه الدراسة .

تأثير الظروف التاريخية على نظم اختيار الخلفاء

وفي طريقنا لتحليل هذه الحالة ، ومحاولة كشف هذا السر الكائن وراء غياب المرأة عن المبايعات للخلفاء ، نرى أنه لابد من دراسة النظم التي اختير بها الخلفاء الراشدون ؛ وذلك لأن النساء هن المكون الثاني « للأمة » ، والأمة هي الطرف الثالث من أطراف عملية المبايعة بعد المبايَع وهو الخليفة ، والمبايَع عليه وهو الشريعة [١] ، فالنساء جزء لا ينفصل عن نظام الاختيار .

علي أن دراسة هذه النظم لا تتيسر للباحث بمنأى عن دراسة الظروف التاريخية والبيئية لمبايعات الخلفاء ، فتأثير هذه الظروف في شكل المبايعات ونظمها كان واضحًا ، وربما يقودنا ذلك إلى معرفة شيء عن السبب الذي غابت لأجله المرأة في المصادر التاريخية عن مبايعات الخلفاء الراشدين ، وعليه فإننا سنحاول فهم النظم في ظل الظروف التاريخية لها .

ظروف اختيار أبي بكر

كانت البيعة لأبي بكر [٢] في ظروف تاريخية صعبة ، ومضطربة تمر بها الجماعة المسلمة ، فلقد نزل بها من فقد رسول الله ﷺ ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار أصحاب محمد – كما تقول عائشة – كأنهم معزي في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة [٣] ، هذا إلى ما حدث من ظهور المتنبئين آخر حياة الرسول ، وما كان عليه جيش أسامة المرابط حول المدينة [٤] ، لا يُدرَي كيف سينتهي أمره .

فالبيعة لأبي بكر كانت فجأة فتمت من غير إحكام وبغير روية ، ذلك أنه غاب عنها المهاجرون سوى ثلاثة نفر ، ولذلك كانت في رأي علي بن أبي طالب ناقصة نقصًا ظاهرًا [٥] ، فالمعقول في هذه الحالة أن يتخذ المسلمون مكانًا يجتمعون فيه وأن

---

(١) القاضي عبد الجبار – المغني ٢٠ ، القسم الأول ص ٣٤٠.

(٢) راجع باستفاضة : د. جمال عبد الهادي ، ود. وفاء رفعت في « استخلاف أبو بكر الصديق ﷺ » .

(٣) مسبعة : ذات سباع ، كثيرة السباع ، والحَشُ ، والحِشُ : النخل المجتمع أو البستان .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠١/٦ ، كان رسول الله ﷺ قد جهز جيشًا لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين في جهات الشام مما يلي مؤتة ، لمظاهرتهم الروم علي جيش المسلمين في غزوة مؤتة ، فجهز ﷺ جيشًا لغزوهم بقيادة أسامة ، وقبض ﷺ والجيش علي وشك السفر . وانظر عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ٣٦ ، ٣٧ .

(٥) محمد رشيد رضا : الخلافة ١٩ .

يؤذن الناس من قبل ، غير أن حرص عمر بن الخطاب علي الإسراع في البيعة لأبي بكر ، والمبادرة إلى لَمِّ شَعَث المسلمين جعله يتم البيعة لأبي بكر علي هذا الوجه المتعجل ، و ابتدرها أكابر أصحاب رسول الله من المهاجرين وعامة الأنصار حتى لا يطمع فيها من ليس لها بموضع [١] وهذا ما عبر عنه عمر نفسه حين سمع أن قائلًا يقول : والله لو مات عمر بايعتُ فلانًا ، فقال :

« لا يغترنَّ امرؤ أن يقول إن بيعة أبا بكر كانت فلتة [٢] فتمت ، ألا وإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها » ... وقال عمر : « أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرًا هو أرفق من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدِثوا بعدنا بيعة ، فإما نبايعهم علي مالا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساد » [٣] .

وعبر أبو بكر نفسه عن هذا الخوف ، فقد ذكر ابن كثير في إسناد قوي جيد عن رافع الطائي رفيق أبي بكر الصديق في غزوة ذات السلاسل ، قال : سألته عما قيل في بيعتهم قال : بايعوني لذلك - لإمامتهم في الصلاة حياة رسول الله ﷺ - وقبلتها منهم وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة . قال ابن كثير : « إنه ﷺ إنما قبل الخلافة تخوفًا أن تقع فتنة أربى من تركه قبولها ﷺ[٤] » .

---

(١) انظر أقوال الأزهري وابن سيده وأبو عبيد وابن الأثير في حديث عمر الآتي عن بيعة أبي بكر . لسان العرب : مادة فلت .

(٢) افتلت الشيء : أخذه في سرعة ، وكان ذلك الأمر فلتة ، أي فجأة ، إذا لم يكن عن تدبر ولا تردد . والفلتة الأمر يقع من غير إحكام . وقال ابن سيدة : قال أبو عبيد : عن حديث عمر : أراد فجأة ، وكانت كذلك ؛ لأنها لم ينتظر بها العوام ، إنما ابتدرها أكابر أصحاب رسول الله من المهاجرين وعامة الأنصار ، إلا تلك الطيرة التي كانت من بعضهم ، ثم أصفق الكل له بمعرفتهم أن ليس لأبي بكر منازع ، ولا شريك في الفضل ، ولم يكن يحتاج في أمره إلى نظر ، ولا مشاورة ، وقال الأزهري : إنما معنى فلتة البغتة ، وإنما عوجل بها ، مبادرة لانتشار الأمر ، حتى لا يطمع فيها من ليس لها بموضع . وقال ابن الأثير في تفسير حديث عمر ﷺ ، أراد بالفلتة الفجأة ، ومثل هذه البيعة جديرة بأن تكون مهيجة للشر والفتنة ، فعصم الله تعالى من ذلك ووقي . قال : والفلتة كل شئ فعل من غير روية .. راجع ابن منظور : لسان العرب .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢١٦/٥ ، وقد ذكرها ابن كثير عن الإمام أحمد ، عن إسحاق بن عيسى الطباع ، عن مالك بن أنس ، حدثني ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره : وذكر الرواية . وقال ابن كثير : « أخرج هذا الحديث الجماعة في كتبهم من طرق عن مالك ، وغيره عن الزهري به » ، وراجع :مسند الإمام أحمد ٣٩١ ، طبعة العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط ، الذهبي : سير أعلام النبلاء: سير الخلفاء الراشدين : ٢٠ - ٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ١٩٠/٢.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٧/٥ .

وإذن فإن عمر ﷺ بعدما قرر ما كان في بيعة أبي بكر من ظروف خاصة جعلتها تتم علي هذا النحو ، أكد علي أن هذه حالة لا يقاس عليها ، فمن تصدى لمثل هذه المبايعة فإنه لا يصح أن يكون هو ولا من بايعه أهلًا للمبايعة ، بل يكون هذا تغريرًا بأنفسهما ، قد يفضي إلى قتلهما إذا حدث في الأمة شقاق وفتنة ، فقال ﷺ : « فمن بايع أميرًا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا بيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا » [١] .

وإذا كان الأمر علي هذا النحو بالنسبة للبيعة لأبي بكر ﷺ ، حيث غياب بني هاشم ، وغياب جلة المهاجرين ، مع عنصر الفجأة وعدم الترتيب في عملية المبايعة ، وهو ما يعني عدم استكمال آليات الشكل الأمثل في البيعة . فإن غياب النساء في هذه الحالة يصبح أمرًا متوقعًا خاصة إذا ما تصورنا كيف كان حالهن في هذا اليوم الذي انقطع فيه الوحي وغاب فيه شخص رسول الله ﷺ .

ظروف اختيار عمر

وأما خلافة عمر ﷺ فإن المرض لما ألح علي أبي بكر ﷺ في وقت كانت زهرة قوات المسلمين تشق طريقها في جبهتي العراق والشام ، والدولتان الكبيرتان : الساسانية والبيزنطية تحشدان جل طاقاتهما لسحق هذا التحرك الفَتِي ، لقد ترك أبو بكر المسلمين وجيوشهم تواجه مصاعب شديدة ، فالقوات في العراق تلقى من الفرس عنتًا وضغطًا ، ولم تكن القوات في الشام أحسن حالًا من قوات العراق ، ولم يرد إلى المدينة من الأخبار ما يطمئن المسلمين في الأيام الأخيرة لأبي بكر الصديق ﷺ[٢] ، والمجتمع المسلم لم يتجاوز بالكلية مواقع عصبياته وضغوطها القاهرة ، أدرك ﷺ أن مجمل الظروف التاريخية هذه قد تحتم عليه أن يحسم أمر الخلافة لصالح وحدة المسلمين وأهدافهم التاريخية واستمرارية مهماتهم الأساسية [٣] ، فعهد بالخلافة إلى عمر ﷺ بعدما تشاور مع بعض الصحابة من المحيطين به . وبعد وفاة أبي بكر تمت له البيعة العامة ، وهي كما أسلفنا مطلقة لم يتحدد فيها ولم يعرف المبايعون عليها علي وجه يبين صفاتهم وشروطهم .

ولا يخفى علي الدارس ما في هذه الطريقة من شبه مع بيعة أبي بكر ، وأنها قد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٢١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢/١٩٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٠٩ .

(٣) انظر د/ عماد الدين خليل : حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي ١٩ ، وفي التأصيل الإسلامي للتاريخ ٥٧ .

تمت بشيء من العجلة ، تحت ضغط الظروف التاريخية المحيطة [١] . وهي طريقة غير مأمونة العواقب ، فليس كل خليفة يجتهد لأمته اجتهاد أبي بكر ﷺ وليس كل مستَخلف كعمر ﷺ . وهذه الطريقة وإن لاقت توفيقًا فإنه إنما لإخلاص أبي بكر واستحقاق عمر وجدارته ، وعدم اختلاف المسلمين عليه . ولقد كان الوازع دينيًا فعند كل أحد وازع من نفسه ، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه [٢] .

ظروف اختيار عثمان

وأما طريقة اختيار عثمان ﷺ فلقد كانت خلافته في ظروف تاريخية حرجة ، إذ أنه لما طعن عمر ﷺ بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي، وأدرك المسلمون أنه ميت لا محالة ، طلبوا إليه أن يعهد بالخلافة لأحد أسوة بما فعله الصديق قبله ، لكنه ﷺ ظل مترددًا ، ومحجمًا عن الاستخلاف ، وعبر عن هذا التردد بقوله : « إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني – يعني رسول الله – ولن يضيع الله دينه » [٣] .

وإزاء خشية المسلمين من أن يتوفي عمر قبل أن يستخلف ، وإلحاحهم عليه ، وهو يعاني آلام الجراح القاتلة جعل الأمر بعده شوري في الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام . وتحرج أن يجعلها لواحد منهم علي التعيين ، وقال : لا أتحمل أمرهم حيًا وميتًا وإن يرد الله بكم خيرًا يجمعكم علي خير هؤلاء ، كما جمعكم علي خيركم بعد نبيكم ﷺ [٤] .

لما آل الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف ﷺ جعل يسأل من يمكنه سؤاله من أهل الشورى وغيرهم فلا يشير إلا بعثمان بن عفان ، حتى أنه قال لعلي : أرأيت إن لم أولك من تشير به علي ؟ قال : بعثمان .

---

(١) انظر عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ١٦ ، وقد قال : « إنه لا يخفى ما في هذه الطريقة من النقص الظاهر » . ولعله من الأهمية بمكان أن نقول : إن القول في نظم الاختيار هذه لم يتعده إلى القول في صحة خلافاتهم جميعًا . وراجع في ذلك ابن تيمية :منهاج السنة ١١٢/٣ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ٦٠٨ .

(٣) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : كتاب الأحكام ، باب الاستخلاف ١٣/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٤) السابق نفسه .

ثم نهض يستشير الناس في علي وعثمان ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم ، جميعًا ، وأشتاتًا ، مثني ، وفُرَادي ، ومجتمعين ، سرًّا ، وجهرًا ، حتى خَلُص إلى النساء المخدرات في حجابهن ، وحتى سأل الولدان في المكاتب ، وحتي سأل من يرد من الركبان والأعراب للمدينة ، في مدة ثلاثة أيام ولياليهن ، لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاةً ودعاءً واستخارةً ، فلم يجد أحدًا يعدل بعثمان بن عفان . وقادته مشاوراته واجتهاده إلى أن يحسم الأمر باختيار عثمان وتقدم إليه قائلًا أبايعك علي كتاب الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده .. فتقدم المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد فبايعوه [١] .

لقد حالف هذه الطريقة التوفيق كما حدث في بيعة أبي بكر وعمر ؛ لأن أمر المسلمين كان جميعًا ، وكانت الثقة باجتهاد المجتهدين منهم وإخلاصهم حاكمة لردود الأفعال . وتمت البيعة العامة بعد ذلك في المسجد [٢] .

وإذا كانت بعض الروايات قد أوهمت - علي الرغم من هذا التحري من عبد الرحمن بن عوف - بأن الشوري بعد الستة صارت ثلاثة ثم آلت بعد الثلاثة إلى واحد [٣] وصار هذا الواحد ممثلًا للأمة ونائبًا لها في اختيار الأمير ، فاختار هذا الواحدُ عثمانَ ﷺ فولاه علي المسلمين [٤] ، حتى جعلت بعض الدراسات الحديثة تؤكد علي هذا المعنى ، وتعتبر هذا النظام غير وافٍ بكل غرض [٥] ، فهو رأي يُعْوِزه النظر ، ذلك أن هذه الطريقة - في رأيي - كانت مبدأ نظام شُورِيٍّ صالحٍ ، توافرت له أغلب عناصر التحري ، والحيطة ، ولعل الذين ذهبوا إلى هذا القول ، قد قالوه

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧ /١٥٢،١٥٣. وانظر فتح الباري : كتاب الأحكام ، باب : كيف يبايع الإمام الناس ١٣/٢٣٩،٢٤٠.

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٤٢،٢٤٣ ، من رواية السري بن يحيي عن شعيب ، عن سيف بن عمر .

(٣) راجع الماوردي : الأحكام السلطانية : ٢٤ .

(٤) فقد أورد ابن سعد في طبقاته : فلما اجتمعوا قال : عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة نفر منكم ، فجعل الزبير أمره إلى علي ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن ، فائتمر أولئك الثلاثة حين جعل الأمر فيهم فقال عبد الرحمن : تجعلانه إلي وأنا أخرج منها ، فوالله لا آلوكم عن أفضلكم وخيركم للمسلمين ، قالوا : نعم ، فخلا بعلي فقال : إن لك من القرابة من رسول الله والقدم ، والله عليك لإن استخلفت لتعدلن وإن استخلف عثمان لتسمعن ولتطيعن فقال : نعم ، فقال : ابسط يدك يا عثمان فبسط يده فبايعه علي والناس . ابن سعد: الطبقات الكبري ٣/٣٣٨ .

(٥) الأستاذ النجار : الخلفاء الراشدون : ١٧ .

متأثرين بالمفاهيم السياسية الحديثة ، وهو مزلق خطر في فهم كل ما يتعلق بقضايانا التراثية [١] .

ولقد نلاحظ أنه في هذه البيعة يأتي ذكر استشارة المرأة في هذا الشأن السياسي الخطير صريحًا ، وواضحًا . بل يأتي ذكر كافة طوائف المجتمع ، وطبقاته في هذه المشاورة ، وهو ما يؤكد ما قلتُه سابقًا من كون الأزمة في شأن الدور السياسي للمرأة ليست أزمة خاصة بها لذاتها ، في أغلب الأحوال ، وإنما ترجع ، ضمن ما ترجع ، إلى الأزمات المجتمعية عامةً .

ظروف اختيار علي

وأما علي (فلقد بويع بالمدينة حال غياب كثير من الصحابة عن المدينة ، و حين قدم عليها الثوار وأهل الشغب من أطراف بلاد المسلمين ، فلم يكن الأمر علي حال هدوء وسكون ، بل كانت الكلمة العليا للثوار ، والأمر النافذ لهم بعدما قتلوا عثمان ﷺ ، وافتقد النظام في المدينة .. وسيطر الثوار علي مقدرات الأمور وتهرب المرشحون – وعلى رأسهم علي نفسه – فقد كان يهرب منهم ويعتذر مصرًّا عن قبول الخلافة [٢] ، ذلك أنه كان ﷺ يرى أن الأمر لا يكون إلى هؤلاء الشراذم والغوغاء في اختيار الخليفة.

ولما رأى المتمردون امتناع الناس وعدم طاعتهم لهم هددوا بالقتل ، إذا لم تتم البيعة بعد يومين ، قالوا : دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنَقْتُلَنَّ غدًا عليًّا وطلحة والزبير وأناسًا كثيرين. فتكاثر الناس علي علي فقالوا : ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ فقال علي : قد أجبتكم لما أردتم .. ثم افترقوا علي ذلك واتعدوا الغد [٣] . فلما كان الغد حضر علي إلى المسجد ، فصعد المنبر وقال : .. قد افترقنا بالأمس علي أمر وكنت كارهًا لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم .. فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد . فهتف الناس من جوانب المسجد قائلين : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس [٤] .

---

(١) سنعرض لهذه المسألة في نهاية الفصل إن شاء الله .

(٢) راجع : تاريخ الطبري : ٤/ ٤٢٨: ٤٣٤ . ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٢٧ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/٤٣٤ ، من رواية السري عن شعيب عن سيف .

(٤) ابن الأثير : الكامل ٣/١٩٣ ، ١٩٤ .

ومن هنا يتبين لنا حجم الظروف الحرجة والأحداث المؤلمة التي بويع فيها لعلي ﷺ وأثر هذه الظروف في الطريقة التي اختير بها .

وهي طريقة لم يتحدد فيها كباقي المبايعات أصحاب الاختيار ، لا في البيعة العامة ولا الخاصة ، اللهم إلا ما كان من مشاورة عبد الرحمن بن عوف ﷺ لهن في شأن علي وعثمان ﷺ. ولقد يصعب في ضوء الروايات الجزم بعدم حضور المرأة للمبايعة ، كما يصعب مجرد التفكير في حضورها ، وقيامها بالمبايعة في ضوء طبيعة المجتمع التي سنعرض لها لاحقًا .

خلاصة القول في تأثير الظروف التاريخية هو أن تأمل هذه النظم التي تمت بها البيعة للخلفاء في ظل الظروف التاريخية التي تمت فيها ، يؤكد لدينا ما ذهب إليه الأستاذ النجار من أن المطلع علي النظم التي حصلت بها بيعة الخلفاء عامة لا يجد ما يمكن أن يكون نظامًا مستوفى [١] ، خاصةً فيما يتصل بتعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم ، وقد كان هذا سببًا في كثير من الخلط في شروطهم وأحوالهم [٢] وهو ما حدث بعد في الممارسة السياسية [٣] ، وفي الفكر السياسي الإسلامي علي وجه العموم .

فالظروف التاريخية التي مرت بها البيعات كانت مؤثرة إلى حد بعيد في الطرق التي اتُّبِعَت لاختيار الخلفاء الراشدين عامة ، وكانت سببًا في عدم اكتمال الصورة الدستورية للبيعة إذا جاز التعبير ، و ينبغي الإشارة إلى أن الجوهر الشُّورِيّ كان متحققًا في بيعة الخلفاء الراشدين ﷺ إلى أقصي درجة مستطاعة ، والذي نشير إليه هو الشكل والنظم .

« كانت الأشكال والصيغ الإجرائية تتغير وتتطور وتأخذ أوضاعًا جديدة ، وفقًا لمقتضيات تلك الظروف التاريخية عامة ، والبيئية خاصة [٤] » ، فلقد كانت الرحى

---

(١) عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون ١٦ .

(٢) السابق : ٤٧١ .

(٣) فلعل هذا كان سببًا من أسباب الفرقة بين علي ومعاوية ؛ لأن عليًا كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الأمصار الأخرى ، فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت البيعة ، وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض . ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك ، وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار ، مع ما كان يدعيه سوى ذلك . انظر الأستاذ النجار : الخلفاء الراشدون : ٤٧١ .

(٤) عماد الدين خليل : القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي ٣٠ ، ٣١ .

الدائرة ما بين حروب الردة إلى الفتوح التي انساحت في الأرض آخذة بفكر المسلمين وجهدهم ، وكانت الشدائد التي أحاطت بالمسلمين، وتزامنت مع مبايعات الخلفاء قد دعتهم إلى اطِّراح التفاصيل الدقيقة جانبًا ، وعدم العناية - رغمًا عنهم - باستكمال عناصر « الشكل » الأمثل في اختيار الخلفاء - خاصة وأن النقص في هذا الشكل لم يكن يخل بما يترتب علي المبايعات من مسئوليات للمرأة والرجل كما سوف نرى - والخلافة علي خطرها لم تكن سوى وسيلة لإقامة الدين ونشره بين العالمين ، فالانشغال بالهدف الأسمى من وراء إقامة الخلافة كان يأخذ بالجهد كله .

وإذا كان مما لا شك فيه أن الصورة الإجرائية الكاملة لم تكن متحققة تمامًا في مبايعات الخلفاء ، فإن افتقادنا لدور المرأة في هذه المبايعات للخلفاء هو أحد عناصر النقص في هذه الصورة ، ومن الطبيعي أن تكون ظروف المجتمع ومشكلاته التاريخية منعكسة علي المرأة سلبًا وإيجابًا ، فتاريخها ليس تاريخًا منفصلًا عن تاريخ المجتمع الذي تحيا فيه .

أثر الطبيعة الاجتماعية على غياب المرأة في بيعة الخلفاء الراشدين

وثمة سبب آخر شديد الوضوح في تفسير غياب المرأة عن هذه المبايعات ذكره الأستاذ محمد عزة دروزة ، قال : إن عدم اشتراك المرأة في الشئون الدستورية للدولة مرده إلى طبيعة الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام ، وليس من شأنه أن يعطل الأحكام الشرعية ؛ لأن الكتاب والسنة هما مصدر التشريع والأحكام [١] . وهذا قول لا يعوزنا عليه الدليل : فلقد روى البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب قال : « كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئًا فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقًّا ، من غير أن ندخلهن في شئ من أمورنا » [٢] .

وهذه الرواية - حسبما أفهم - إخبار من عمر ﷺ عما كانت عليه الطبيعة الاجتماعية بشأن المرأة في الجاهلية والإسلام ، فأما في الإسلام - وهذا ما يعنينا - فإن ما يروع في هذه الرواية أنهم - وإن عرفوا للنساء حقهن ، نتيجة ذكر الله ﷻ لهن - لم يكونوا يدخلوهن في شيء من أمورهم .

---

(١) محمد عزة دروزة : الدستور القرآني في شئون الحياة ٨٢ .

(٢) فتح الباري : كتاب اللباس ، باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والبسط ١٠/٣٧١ .

وإذا كانت هذه الطبيعة الاجتماعية لبعض الصحابة ومنهم عمر ﷺ علي هذا النحو في حياة رسول الله ﷺ فإن دائرتها قد اتسعت بعد وفاته ﷺ ، لا على مستوى الأمور التي كان يظن الرجال أنها أمورهم من دون النساء وحسب ، بل وعلى مستوى حقوقهن التعبدية ، فلقد روى مسلم في صحيحه عن سالم بن عبد الله [١] أن عبد الله بن عمر قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَكم إليها » ، فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنَعنّهنَّ ، قال : فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سبًّا سيئًا ما سمعتُه سبَّه مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعنَّهن ؟! » [٢] .

هذا الاعتراض علي السنة بالرأي من بلال بن عبد الله وجد في هذه الحالة من يعزر [٣] عليه ، ويغضب لمخالفة الحديث دون علة لذلك ، معيدًا الحق إلى نصابه [٤] . ولنا أن نتصور كمَّ القضايا التي رفضتها الطبيعة الاجتماعية في مجتمعاتنا عبر التاريخ ، ولم تجد من يردها إلى موازينها الصحيحة.

إن مجتمعًا يتعامل مع المرأة بهذه الصورة في أمر تعبدي واضح ، كيف يكون حاله حين يُتَحَدَّث إليه في مباشرة المرأة مع الرجل أمور السياسة واختيار الخلفاء [٥] ؟ علي أنه لا تُغفى المرأة من تبعة تَرْكِها لحقوقها طالما أنها حقوق مشروعة لا يحق

---

(١) سالم بن عبد الله : هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ جميعًا .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : باب خروج النساء إلى المساجد ٢/٨٤ ، وانظر فتح الباري :٢ /٤٤١ كتاب الأذان ، باب : خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس .

(٣) يعزره : يردُّه ، والتعزير ضرب دون الحد ، لمنع الجاني من المعاودة ، وردعه عن المعصية . وقيل : هو أشد الضرب ، وقال الأزهري : التعزير هو التوقيف علي الدين ، وقيل : هو التوبيخ علي التقصير في الدين ، والتوقيف علي الفرائض والأحكام . وأصل التعزير : التأديب ، ولهذا يسمى الضرب دون الحد تعزيرًا ، إنما هو أدب . لسان العرب .

(٤) وبلغ من غضب عبد الله بن عمر من بلال أنه لم يكلمه حتى مات ، ذكر ذلك مجاهد في رواية عند أحمد . ولقد علق ابن حجرٌ قال : « هذا إن كان محفوظًا يحتمل أن أحدهما مات عقب هذه القصة بيسير » . انظر : ابن حجر : فتح الباري ٢/٤٤٣ .

(٥) علي أنه من الأهمية بمكان أن نؤكد علي أن هذا الاعتراض علي السنة بالرأي لم يكن يجد له مكانًا عند أحد من الصحابة ، حتى وإن خالفت السنةَ طبيعتُه الاجتماعية ، حيث كانوا ﷺ وقّافين عند حدود الدين لا يتجاوزونها . انظر ما كان بين عمر بن الخطاب ، وعاتكة بنت زيد هامش ٢ صفحة ٢٠١. وما سوف يراه القارئ في موقفهم من الخروج السياسي الأبرز للسيدة عائشة إلى البصرة خير دليل .

لأحد مهما علا شأنه أن يصادرها . ومن الإنصاف أن أشير إلى أن الجانب السلبي في مسألة الطبيعة الاجتماعية أمر يشترك فيه الرجال والنساء ، فلطالما رأينا نساءً يعارضن القول بحقوق المرأة في هذا الشأن وغيره ، لا لشيء إلا لما رسخ في وجدانهن من طبائع اجتماعية لا تستند إلى قرآن ، أو سنة .

السبب الأوضح في تفسير هذا الغياب

علي أن هذه الأسباب – وإن كانت مفسرة لهذا الغياب من المرأة عن بيعة الخلفاء إلى حد بعيد – لايمكن أن تعد وحدها سببًا – وماينبغي لها – في ظل فهم الصحابيات لمسئوليتهن مع بقية الأمة عن إقامة الخلافة كوسيلة لإقامة الشريعة ، وإنما السبب الأوضح في تقديري أن هذا الغياب لم يكن خطرًا علي الموقف التاريخي والسياسي للمرأة في هذه المرحلة [١] ، والأهم من ذلك أنه لم يكن خطرًا علي مقاصد الأمة ، وغاياتها البعيدة . ولم تكن الصحابيات آنئذ يعنيهن أن يُثبتن حضورهن ، أو يُسجلنه ، طالما كن يرين الأمور سائرةً علي النحو الرشيد ، والواعي .

هذا مع فهم الصحابيات الأصيل لأصول التكاليف الشرعية ، حيث كانت معرفتهن – بلا ريب – لكون المبايعة علي الولايات العامة فرضًا علي الكفاية ، متى قام به البعض سقط عن الباقين .

وكان فهم المسلمين حينئذ لهذا الأمر قائمًا علي أن من قام به فهو نائب وممثل للباقين ، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ الريس ، حيث ذهب إلى أنه « لما كان من طبيعة الفرض الكفائي وأولى بنا أن نسميه الفرض العام أو الاجتماعي ، أنه لا يمكن أن يقوم به كل أفراد الأمة في وقت واحد ، وإلا لزم انشغال الأمة بالقيام بواجب واحد دون بقية الفروض .. من أجل هذا فكر علماء الشريعة في فكرة الاكتفاء أي الإنابة فيما يتعلق بتنفيذ هذه الفروض » ، وقد دلل علي قوله بحالة الإمامة وقال : إن هذه الفكرة هي التي تُتداول في أبحاث علوم السياسة الحديثة ، وهي التي يسمونها التمثيل أو الإنابة [٢] .

ولقد ذهب البعض إلى أن قيام من قام بأمر الخلافة ترشيحًا أو عهدًا أو استشارةً كان

---

(١) لا يخفي علينا أن هذا أمرٌ لا ينطبق علي عصرنا ، فغياب المرأة الآن في ظل صراع المذاهب السياسية يعد إخلالًا بالمسئولية المؤكدة عليها في تحقيق مقاصد الشريعة .

(٢) د. محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ١٧٧ .

قائما علي توكيل الأمة لهم توكيلًا ضمنيًّا [١] ، بدليل أنه لم يكن يصدر من الأمة اعتراض علي ما كان يتم ، وقد كان في وُسْعها أن تعترض ، ولم يمنع من هذا الاعتراض مانع . وقد أغنى هذا التوكيل الضمني عن قيام انتخاب يلزم كل إنسان بالحضور .

وإذ لم يكن في الروايات التاريخية ما فيه التصريح بهذه الإنابة ، إلا أننا نجد في هذه الروايات ما نستدل به علي شهودهن لعمليات المبايعة - وإن لم يشاركن فيها مشاركة شخصية - فلقد كانت الصحابيات يفهمن النداء في « الناس » نداء يشملهن [٢] ، و كانت البيعة العامة تتم في المسجد وبعد دعاء عام للصلاة فيه ، وشهود النساء للصلاة علي عهد الرسول ﷺ وعلى عهد الراشدين بالمسجد أظهر من أن يدلل عليه [٣] . ومن هنا فإننا نذهب إلى القول بأنهن قد حضرن واكتفين بجواب المبايعين ، فجواب الواحد عن الجماعة كافٍ إذا لم ينكروا ، ولم يمنع مانع من إنكارهم [٤] .

---

(١) عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ١٦٠ ، ومنير حميد البياتي : النظام السياسي الإسلامي ١٦٩، ١٧٧ .

(٢) انظر هذا الفهم الواضح في الروايتين الآتيتين :

- عن فاطمة بنت قيس قالت : « نودي في الناس أن الصلاة جامعة ، فانطلقت فيمن انطلق من الناس ، فكنت في الصف المقدم من النساء ، وهو يلي المؤخر من الرجال .. الجامع الصحيح للإمام مسلم بشرح النووي : كتاب الفتن وأشراط الساعة : باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ٥/ ٨٠٥ .

- وعن عبد الله بن رافع قال : كانت أم سلمة تحدث : أنها سمعت النبي ﷺ يقول علي المنبر - وهي تمتشط - : « أيها الناس » فقالت لماشطتها :كُفِّي رأسي ، أي اجمعي أطراف شعري ، قالت : إنما دعا الرجال ولم يدع النساء . فقالت : إني من الناس . صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الفضائل ، باب : إثبات حوض نبينا ﷺ ، وصفاته . ١٥٠/٥ .

(٣) راجع في ذلك علي سبيل المثال ، لا الحصر الأبواب الآتية عند البخاري : باب : صلاة النساء خلف الرجال ، فتح الباري ٢: /٤٤٥ ، وباب : سرعة انصراف النساء من الصبح وقلة مقامهن : ٤٤٦/٢ ، وباب : استئذان المرأة زوجها بالخروج إلى المسجد ، وباب اعتكاف النساء ، وباب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس ، باب نوم المرأة في المسجد ، باب انتظار الناس الإمام العالم . وصحيح مسلم بشرح النووي : باب خروج النساء إلى المساجد ٨٢/٢ . ولقد بلغ من حرص الصحابيات رضي الله عنهن علي الجماعة أن الواحدة منهن كانت لا تنتهي عنها ، وإن علمت أن زوجها لذلك كاره طالما أنه لم ينهها ، روى البخاري ٤٨٥/٢ عن نافع بن عمر قال : كانت امرأة لعمر (هي عاتكة بنت زيد) تشهد العشاء الآخرة في الجماعة في المسجد . فقيل لها : لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار ؟ قالت : وما يمنعه أن ينهاني ، قال :يمنعه قول رسول الله ﷺ: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » . وروى الزهري - في فتح الباري ٤٨٧/٢ أنها قالت : والله لا أنتهي حتى تنهاني ، وقال : فلقد طعن عمر وإنها لفي المسجد [وهو ما يعني أنه لم يمنعها ، بل لم ينهها ، تحرجًا منه أن ينهى عن حق مشروع] .

(٤) ابن حجر : فتح الباري :٥٩٤/٢ في شرحه لحديث رقم ٩٧٩ كتاب العيدين .

لزوم المسئولية الناتجة عن البيعة للنساء - وإن لم يبايعن

ولقد يؤكد هذا الذي ذهبت إليه أن المسئولية الناتجة عن المبايعة ، حتى وإن كان فرضها علي الكفاية كانت تقع علي عاتق الجميع ، مبايع وغير مبايع [١] ، فالفرض الكفائي ليس معنى سلبيًّا كما قد يفهم البعض ، وإنما هو واجبٌ المطالَب به مجموع أفراد الأمة ، بحيث إن الأمة بمجموعها عليها أن تعمل على أن يؤدى الواجب الكفائي فيها ، فالقادر بنفسه وماله علي أدائه ، عليه أن يقوم به ، وغيرالقادر على أدائه بنفسه عليه أن يحث القادر ويحمله علي القيام به ، فإذا أدى الواجب سقط الإثم عنهم جميعًا . وإذا أُهمل أثموا جميعًا [٢] .

فالمرأة وإن غابت عن مبايعة الخلفاء كانت واعية إلى أنه متى تمت المبايعة وجب علي المبايعين رجالا ونساء ، وسائر الأمة بالتبع لهم ، الطاعة [٣] ، فهى واقفة كما كانت علي عهد الرسول ﷺ في نفس الموقع الواعي والمسئول .

وهذا ما نجد مصداقه في مشورة السيدة حفصة لعبد الله بن عمر حين طُعِن عمر ﷺ ، وتعرضت الخلافة الراشدة لأزمة محققة حين أراد عمر ألا يستخلف ، فلقد قال ابن عمر : دخلت علي حفصة ، فقالت : أعلمتَ أن أباك غيرُ مستخلِف ؟ قال : ما كان ليفعل . قالت : إنه فاعل . قال : فحلفت أن أكلمه في ذلك ... » [٤] .

ولقد يزداد عجبي من تركيزها رضي الله عنها ، وحَدَبها علي أمر الخلافة ، وحرصها علي تسديد مسارها ، في الوقت الذي كان جرح أبيها ينزف ، وحياته توشك علي الانتهاء .

ولقد استمر هذا ديدنها رضي الله عنها في الحث علي القيام في الأمور بما يصلحها ، حيث روى ابن عمر عن يوم التحكيم بين علي ومعاوية ، قال : دخلتُ علي حفصة ونَسَواتها تَنْطُف [٥] . قلتُ : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يجعل لي من الأمر شيء ، فقالت : الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم

---

(١) انظر د . مصطفي حلمي :نظام الخلافة في النظام السياسي الإسلامي ١٥ ، ١٦ ، وفيه أن مسؤولية الأمة لا تقف عند حد البيعة ، بل إن تبعة حفظ الدين ، وتطبيق الشريعة تظل في عنق الأمة من خلال الشورى والرقابة علي الحاكم ونصحه إذا حاد .

(٢) عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ١٠٩ . (٣) محمد رشيد رضا : الخلافة ٣٤ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة : باب الاستخلاف وتركه ٤٨٥/٤ .

(٥) نسواتها : ذوائبها ، وتنطف : تقطر كأنها اغتسلت .

فرقة . فلم تدعه حتى ذهب [١] . وفي رواية عند عبد الرزاق بسند حسن عن ابن عمر ، قال : لما كان اليوم الذي اجتمع فيه معاوية بدومة الجندل ، قالت حفصة : « إنه لا يَجْمُل بك أن تتخلف عن صلح يصلح الله به بين أمة محمد وأنت صهر رسول الله وابن عمر بن الخطاب » [٢] . ونجد مصداقه أيضًا في صورة أكثر بروزًا في مواقف السيدة عائشة رضي الله عنها في أحداث الفتنة كلها ، وسوف نعرض له إن شاء الله تفصيلًا في الباب الثالث من الرسالة .

وإذن فإن غياب المرأة لم يكن أصلًا شرعيًا يعمل به ولا سنةً راشدةً تجب متابعتها ، وليس له دلالة الرجوع عما كانت عليه مبايعات النساء للنبي ﷺ ، وليس فيه معنى إهمال النساء لأمر الخلافة وشأنه ما قدمنا .

بيعة النساء للخلفاء في المفاهيم السياسية المعاصرة

والواقع أنه ينبغي الإشارة إلى أن فهم غياب أسماء الصحابيات في البيعة للخلفاء الراشدين علي أنه سنة راشدة عُمِل بها ، لم يكن في الدراسات الحديثة [٣] إلا ناتجًا - مع ما سبق به القول - عن الاختلاط في المفاهيم ، وعن إسقاط الدلالات المعاصرة للمفاهيم السياسية ، التي هي انعكاس للمفاهيم الأوربية علي المفاهيم التراثية عندنا ، بحيث نفهم الثانية بدلالة الأولى [٤] .

وهذا أمر لا تفهم به بيعة النساء في عهد الخلفاء الراشدين ، ذلك أن السياسة المعاصرة تقيس مدى فاعلية المرأة السياسية في الانتخابات بعدد الأصوات فيها وهذا

(١) فتح الباري : كتاب المغازي :باب غزوة الخندق ٧/ ٥١٢ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٥١٣ ، وقد أخرج الطبراني هذا الحديث .

(٣) انظر علي سبيل المثال لا الحصر : محمد عرفة : حقوق المرأة في الإسلام ١٤٥ وفيه ذهب تأسيسًا علي غياب اسم المرأة في مبايعة الخلفاء ودعوى عدم وجود دور سياسي لها في صدر الإسلام إلى أن الإسلام في تاريخه الطويل لا يعرف مشاركة النساء للرجال في توجيه شئون الدولة ، محمد علي قطب : بيعة النساء علي عهد النبي ٨ ، وسعيد الأفغاني : عائشة والسياسة ٣٢١ ، ومصطفى السباعي : المرأة بين الفقه والقانون ١٥١ وما بعدها .

(٤) انظر في مسألة اختلاط المفاهيم وأهمية الحذر من استخدام المصطلحات السياسية المعاصرة في فهم النظم الإسلامية : د. مصطفى حلمي : مناهج البحث في العلوم الإنسانية ٢٣١ ، وذلك في حديثه عن منهج د .حامد ربيع رحمه الله في تأصيل الفكر السياسي الإسلامي ، وانظر تحقيق د. حامد ربيع لكتاب : سلوك المالك في تدبير الممالك لابن أبي الربيع ١٣٣/١ ، ونصر عارف : في مصادر التراث السياسي الإسلامي : ١٠٣ .

المقياس لا يصح أن نتعامل به مع بيعة النساء للخلفاء الراشدين ، ذلك أن هذا المجتمع لم يكن معنيًّا بدرجة المؤسسية ، حسب تعبيرنا المعاصر، كما لم تكن تعنيه الوجاهة الاجتماعية قدر ما كان يعنيه أن تتحقق الغايات والمقاصد من النظم ، ولقد كانت الغايات والمقاصد متحققة تمامًا في البيعة للخلفاء الراشدين جميعًا .

أضف إلى ذلك أن الدولة نفسها كانت حديثة عهد بالنظم وآلياتها ، فكان طبيعيًّا ألا تكون التفاصيل كلها قد تكاملت ، ومن هنا تأتي أهمية القول بأن البحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بالمقاصد العامة منها ، لا يؤدي إلى شيء .

فإذا انضاف إلى ذلك أن الحكمة التشريعية قد قضت أن تُقَرَّرَ الدعائم التي تقوم عليها الحكومة في الإسلام غير مفصلة ؛ لأن تفصيلها مما يختلف باختلاف الأزمان ، والبيئات فلقد أقر سبحانه أسسًا عادلة لا تختلف فيها أمة عن أمة ، وأفسح للناس أن يقرروا على هذه الأسس ما يرونه من التفصيلات كفيلًا بمصالحهم ، وملائمًا لأحوالهم .. والبيعة ، ومن يتولاها ، وشرائطها مما يدخل في هذه الدعائم [١] . إذا انضاف ذلك إلى ما لدينا فإن ما ذهبنا إليه من أصالة حق المرأة في اختيار الخلفاء ، يصبح أمرًا مؤكدًا .

أثر غياب المرأة في مبايعات الخلفاء

وبرغم ماسبق فإن غياب المرأة عن مبايعات الخلافة – وإن كانت له أسبابه – في هذه المرحلة القدوة ، كان خطرًا على موقف المرأة السياسي فيما تلاه من عصور ، وخطرًا على الإسلام ذاته بتشويه رؤيته واحترامه لأهلية المرأة وقدرتها على الفعل السياسي ، فلقد فهم غيرُ المدققين من الذين غاب عنهم شمول الخطاب القرآني للمرأة مع الرجل لإقامة الدين وحفظه وسياسة الدنيا به ، وغابت عنهم خطورة ما أكد عليه النبي ﷺ من أنه « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [٢] ، وغاب عنهم الاعتبار السياسي في بيعة النبي ﷺ للنساء ، كما غاب عنهم أن غياب

---

(١) الأستاذ عبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية : ٣٤ . انظر مثلًا كيف أن الله تعالى أمر بالشورى ، وسكت عن تفصيلها ليكون ولاة الأمر في كل أمة في سعة من وضع نظمها بما يلائم حالها ، فهم الذين يقررون نظام انتخاب رجالها ، والشرائط اللازمة فيمن ينتَخِب ، وفيمن يُنْتَخب ، وكيفية قيامهم ، وغير ذلك مما تتحقق به الشورى ، ويتوصل به إلى الاشتراك في الأمر اشتراكًا يحقق أن أمر المسلمين شورى بينهم .

(٢) لعله من معاد القول أن أقول : إن العلماء متفقين على شمول الخطاب في « مَن » للرجال والنساء .

المرأة في مبايعة الخلفاء لا يفهم إلا في ضوء الظروف التاريخية والبيئية لعمليات المبايعة وأنظمتها ، وفي ظل الفهم الأصيل لمعنى الكفاية .

كما غاب عنهم أن هذا الغياب لم يُخِلَّ بالمسئولية السياسية التي هي مقصود المبايعة و غايتها كما وضحنا . ظن هؤلاء المفتقدين لاسمها في البيعة للخلفاء الراشدين أنه لا مدخل لهن في اختيار الإمام أو السلطان . على الرغم من أن « التَّرك ليس بحجة » [1] . فعدم ممارسة المرأة للبيعة في عهد الخلفاء الراشدين ليس معناه انتفاؤه من المنظومة السياسية للأمة .

وكان الأخطر من هذه الظنون وتلك الآراء ما تمثل في الاجتهادات الفقهية التي ما برحت تكرس إقصاء المرأة وإلغاءها من المجتمع ، فذهب بعضها - خلافًا لما ذكر المحققون من العلماء [2] - إلى اشتراط الذكورية مع الشروط التي يجب توافرها فيمن يختارون الإمام فيهم ، بدعوى أن « النساء مأمورات بملازمة الخدور ، منهيات عن مباشرة الأمور ومزاحمة الخطوب ، فهن قليلات الخبرة في هذه الأمور » [3] .

ولست أدري : من الذي نهاهن ومن أمرهن ولماذا منعن من مباشرة الأمور ، ألأنهن قليلات الخبرة ؟ أم لأنهن منهيات عن مباشرة الأمور ، فأما إذا كان السبب أنهن قليلات الخبرة ، فإن الخبرة لا تأتي أبدًا لمن لا يباشر الأمور ، فكيف نمنعها من مباشرتها فتفقدَ خبرتَها ، ثم نقول إنه لا مدخل لها لأنها قليلة الخبرة ؟ !. وأما إذا كان السبب هو أنهن منهيات عن مباشرة الأمور ، فهو قول يناقض صريح الكتاب ، والسنة ، والممارسة التاريخية التي نمت على عين الله ورسوله ﷺ .

---

(١) انظر عبد الله الصديق الغماري الحسني : حسن التفهم والدرك لمسألة الترك ، رسالة ملحقة بكتابه : « إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة » ٨٩ ، وانظر ابن قيم الجوزية : « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » : ١٦ .

(٢) الذين لم يذكروا هذا الشرط ، وإنما اشترطوا : العدالة الجامعة لشروطها ، والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها ، والرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح . راجع مثلًا : الماوردي : الأحكام السلطانية ١٤ ، ومحمد رشيد رضا : الخلافة ٢٣ .

(٣) القلعي : ترتيب الرياسة وتهذيب السياسة ٧٧ . والمؤلم للباحث المسلم ، وهو يتعرف على حقيقة المكانة الشرعية لفعل المرأة السياسي أن يجد أن الذي حمل لواء العودة السياسية لها كان هو الفكر العلماني ، وهو ما خلط الأمور على المسلم ، حتى جعله يرفض هذه العودة ، لا لمعرفته بحقيقة الموقف الإسلامي ، بل لرفضه ما صدر عن هذا الفكر .

إن ترك المرأة لموقعها في البيعة ، مع عوامل أخرى ، أفضى إلى تقليص دور المرأة السياسي في حياة الأمة عبر التاريخ الطويل ، بل وأفضى إلى جعل العودة السياسية لها أشبه شيء بالأمر المتعذر ، فلقد بدت عودتها مفسدة في نظر الذين اعتبروا الغياب الطويل هو الأصل ، وهذا هو أخطر ما في المسألة ، أن يترسخ في الأمة فكر خاطئ يُضَلَّل به الناس [١] .

لقد كان الخطاب الشرعي للرجل والمرأة بتحمل مسئولية حفظ الدين وإقامة الشريعة عين مصلحة ، ضمنت لقضايا الأمة وغاياتها العليا ، حين تحققت بهذا الخطاب احتشادًا كاملًا من الرجال والنساء على السواء ، فصعدت الأمة صعودها المجيد .

(١) لقد أهمل المسلمون تنظيم هذه الحقوق ، حتى ذهبت روحها ، وجرؤ بعضهم على هذه الحقوق ، فصادروها ، وكأن المرأة التي كرمها الله مخلوق دخيل على جسم الأمة لا صلة لها بإرادتها ، ولا قيمة لها في قيام بنيانها . ولعل أبرز ما يمكن أن ندلل به على قولنا هو ما حدث منذ وقت قريب في دولة إسلامية هي الكويت من رفض مجلس الأمة بها لإقرار حق المرأة في التصويت الانتخابي - رغم اعتراف الغالبية منهم بأنه حق شرعي لها . وقارن هذه الجرأة على الحقوق الشرعية بموقف عمر بن الخطاب ﷺ من خروج عاتكة إلى المسجد ، وعدم منعه لها رغم غيرته ، ورغم كون الخروج إلى المسجد أمرًا شخصيًا إلى حد بعيد . إن هذا الذي حدث ويحدث ليس من الإسلام ، ولكنه من إهمال المسلمين ، وجُرأتهم على حقوق الله .

الباب الثاني

المرأة والجهاد على عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين

الفصل الأول : دور المرأة في الجهاد على عهد النبي ﷺ

الفصل الثاني : دور النساء في حروب الردة

الفصل الثالث : النساء في الفتوحات الإسلامية

الفصل الأول

دور المرأة في الجهاد على عهد النبي

على الرغم من كثرة ما كُتِب عن الجهاد في الإسلام ، فإن قضية « جهاد النساء في عهد النبي ﷺ » ظلت قضية غائمة المعالم . والواقع أن الحكم على هذه القضية وغيرها من قضايا التاريخ يتوقف على جمع النصوص ، واستنطاقها ، ونقد الأخبار واستقراء أحداثها مع تتبع التفاصيل وتقصيها باتخاذ منهج متكامل يصدقه واقع ويقبله نظر وعقل . وفي سبيل ذلك يشتمل هذا الفصل على عدة مباحث هي :

- المبحث الأول : الجهاد في الإسلام وفلسفته ، واستشراف الصحابيات للجهاد ، والطبيعة الغالبة على أدوارهن .

- المبحث الثاني : التتبع التاريخي لدور المرأة في غزوات رسول الله ﷺ وسراياه ، واستخلاص النتائج المستقاة من هذا التتبع .

- المبحث الثالث : عرض للروايات المناقضة لما أثبته التتبع التاريخي من مشاركة فعالة لهن في الجهاد ، ثم تحليل هذه الإشكالية الموحية بمنع النساء من الجهاد على عهد الرسول ﷺ للوصول إلى الحالة الصحيحة التي كان عليها الموقف التاريخي والإسلامي تبعًا لذلك ، باعتبار هذا القرن هو الصورة النموذج لتطبيق الإسلام على أرض الواقع .

المبحث الأول :

الجهاد في الإسلام : فلسفته واستشراف الصحابيات له والطبيعة الغالبة على أدوارهن

الجهاد وفلسفته في الإسلام

الجهاد بذل الجهد في قتال الكفار ، لإعلاء كلمة الله . ولم يفرض الله القتال على المسلمين غاية في ذاته ، بل جعله وسيلةً لدحر الكفار الذين يهددون أمن المسلمين أو يفتنونهم في دينهم ، والفتنة أشد من القتل [١] . فوظيفته الأساسية هي إقامة الدين ، وحفظه ، وإزالة الشرك ، ومواجهة أي عدوان يستهدف الشريعة ، أو الدولة الإسلامية ونظامها . فحفظ الدين ، الذي هو أول مقاصد الشريعة الإسلامية هو الغاية الأولى من الجهاد [٢] .

وهو فرض على الكفاية عند جمهور الفقهاء ، ومعني ذلك أنه إذا قام به البعضُ سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم به من فيه كفاية أَثِمَ الجميع . وقد يصبح فرض عين في حالات استثنائية مثل مهاجمة العدو ديار المسلمين ، أو في حالة ندب الإمام لبعض الناس ، لأجل الغزو ؛ وذلك لأن المقصود من الجهاد إعزاز الدين وسلامة ديار المسلمين [٣] .

لم يكن عجيبًا أن تستشرف المرأة ميادين الجهاد وتتطلع إليها ، بل العجيب ألا تفعل وقد كان القرآن يتلى على مسامعها مفصلًا القول في الجهاد : مشروعيته وفضله وآدابه والترغيب فيه ودرجة المجاهد في سبيل الله وثوابه والشهادة وفضل الشهيد [٤] . وفي استشراف المرأة للجهاد هناك العديد من الروايات ، منها ما ورد عن أم الحكم سكينة بنت أبي وقاص أن النبي ﷺ ذكر الجهاد ، فقلت : يا رسول

---

(١) يوسف حامد العالم : المقاصد العامة ٢٥١ ، وما بعدها .

(٢) د/ ظافر القاسمي : الجهاد ، والحقوق الدولية في الإسلام : ٣٦٩ .

(٣) انظر : عبد العزيز عبد الغني صقر : نظرية الجهاد في الإسلام ١٤٦ .

(٤) راجع على سبيل المثال أبواب الجهاد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وسنن الدارمي وغيرها وغالب كتب التفسير والفقه والأحكام والسيرة وانظر ابن القيم : زاد المعاد ٣/٥ ، محمد نعيم يس : الجهاد وميادينه وأساليبه ، أبو الأعلى المودودي : شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية ، السيد محمد رشيد رضا : خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة الإسلامية ٢٣ ، ٢٤ ، د . عبد الحليم محمود : الجهاد في الإسلام ، محمد سعيد رمضان البوطي: الجهاد في الإسلام ، كيف نفهمه وكيف نمارسه .

الله ما جهادنا ... [١] » . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله على النساء جهاد ؟ ... [٢] ، وقد ذكره البخاري بلفظ : قالت عائشة : استأذنت النبي ﷺ في الجهاد .. ؟ وفي لفظ له آخر « فسأله نساؤه عن الجهاد » .

ولعل أقوى الروايات تعبيرًا عن استشراف النساء جميعًا للجهاد ورغبتهن فيه هي رواية أسماء بنت يزيد بن السكن المعروفة على عهد النبي بخطيبة النساء [٣] ، قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك : إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، وإنا معشرَ النساء محصوراتٌ مقصورات ، قواعدُ بيوتكم ، ومَقْضَى شهواتكم ، وحاملاتُ أولادكم ، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى وشهود الجنائز ، والحجِ بعد الحجِ ، وأفضلِ من ذلك الجهاد في سبيل الله . وأن الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفلا نشارككم في هذا الأجر والخير ؟ .

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : « هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه ؟ » فقالوا : يارسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا ، فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : « افهمي أيتها المرأة ، وأعلمي من خلفك من النساء ، أن حسن تَبَعُّل [٤] المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله » . فانصرفتْ المرأة وهي تهلل [٥] .

---

(١) ابن حجر : الإصابة ١٨٠/٨ ، ابن الأثير: أسد الغابة ١٤٤/٧ .

(٢) قال الصنعاني : رواه ابن ماجه وأصله في البخاري . وانظر أيضًا في استشراف الصحابيات للجهاد : أم رعلة القشيرية (ابن حجر : الإصابة ٣٩٠/٨ ، ابن الأثير: أسد الغابة ٣٢٠/٧) ، وظبية بنت البراء بن معرور ، امرأة أبي قتادة (ابن حجر : الإصابة ٢٢٥/٨ ، وابن الأثير : أسد الغابة ١٧٩/٧ ، وابن عبد البر : الاستيعاب ٤٣٠/٤) ، وأم ورقة بنت عبد الله (ابن حجر : الإصابة ٤٨٩/٨) .

(٣) أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأوسية ثم الأشهلية : هي أم عامر وأم سلمة ، بنت عم معاذ ابن جبل ، من المبيعات المجاهدات ، حضرت بيعة الرضوان وبايعت يومئذ . شهدت اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها ، وعاشت بعد ذلك دهرًا . ابن حجر : الإصابة ٨/ ٢١ .

(٤) تبعلت المرأة : أطاعت بعلها ، وتزينت له ، وامرأة حسنة التبعل : أي حسنة الزوجية في المصاحبة والعشرة ؛ محبةٌ له .

(٥) أخرجه الثلاثة . ابن الأثير: أسد الغابة ١٧/٧ ، وقد جعل ابن منده وأبو نعيم أسماء بنت يزيد بن السكن غير أسماء بنت يزيد الأشهلية ، وذكر حديث رسالة النساء للأشهلية . وأما أبو عمر فإنه جعل =

الطبيعة الغالبة على جهادهن : فهم جديد لرواية أسماء بنت يزيد

هذه الرواية تنبئ عن تطلع جماعي من النساء للجهاد ، فهي وافدة النساء [١] . ولقد كان تطلع النساء للجهاد ناتجًا عن منافسة للرجال في الأجر والمثوبة : « أفلا نشارككم في هذا الأجر والخير » ، فلم يكن التطلع ناتجًا عن منافسة لهم في وجاهة سياسية أو اجتماعية ، بل هي في حقيقتها منافسة على مزيد من النَّصَب والمعاناة لإقامة الدين . وكانت تلك أصل المنافسة بين الرجل والمرأة في عصور الإسلام المجيدة [٢] .

وإجابة الرسول ﷺ لأسماء بنت يزيد وأخواتها المتطلعات للجهاد لم تذهب إلى القول بعدم جهاد النساء [٣] ، لكنها ذهبت إلى إعلاء قدر المسئولية الأُسْرِية ، والزوجية ، بحيث تصبح عِدْلًا للجهاد ونظيرًا له في ميزان الثواب من الله ﷻ ، وهي في ميزان استقامة الحياة كذلك ، ولاشك [٤] .

ثم إن فضل الجهاد ، على العموم ، للرجل ، وللمرأة ، لا يعد فضلًا إلا إذا قام المؤمن ، وقامت المؤمنة بما تعيَّن عليهما القيام به ، ثم حصَّل هذه الفضيلة ، فليس المراد من اقتصر على الجهاد ، وأهمل الواجبات العينية [٥] .

والرسول ، في إعلائه هاهنا لقيمة هذا الدور الاجتماعي والأُسْرِي للمرأة – وذلك في معرض سؤال الصحابيات له ، وطلبهن منه أن يجعل لهن المشاركة [٦] مع الرجال في الدور الجهادي الأبرز ، من وجهة نظرهن في تلك الحالة التي جاءوه

= أسماء بنت يزيد بن السكن هي الأشهلية وهي رسول النساء ، ووافقه أبو نعيم فإنه جعل ترجمتين مثل ابن منده وأنكر على ابن منده . وجعلهما أحمد بن حنبل شخصية واحدة .

(١) ولقد ينبئ هذا التعبير : « وافدة النساء » عن وجود ما يشبه التجمعات النسائية في العصر الحديث ، فكأنه باكورة التجمعات النسائية الخيرة .

(٢) التحول الحادث في صراعهما الآن ليس إلا إسقاطًا للصراع الغربي بين الرجل والمرأة على حياتنا الإسلامية .

(٣) حسب ما فهم الكثيرون من الذين كنت ألتقي بهم فيوجهون الحديث إلى منع النساء من الجهاد .

(٤) وهذا أمر يرد على ما يثار اليوم من قضايا غربية تكرس النظرة الدونية لعمل المرأة المنزلي ، وتطلق عليه العمل بغير أجر تحريضًا للمرأة على تحقير شأنه ونبذه .

(٥) وهكذا فإن الفضل في الجهاد إنما هو لما فيه من بذل النفس والمال لله تعالى ، ولما فيه من النفع المتعدي . انظر : ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ٧ .

(٦) المشاركة : شاركت فلانًا : أي صرت شريكه ، فاستوينا في القسمة . والطريق المشترك : هو ما يستوى فيه الناس .

عليها – كان يضع الموازين في نصابها الحق (١) ، ويفسر ما سوف تسير علية المنظومة الإسلامية ، وما سوف يكون عليه حجم المشاركة النسائية في ميادين الجهاد القتالي ، فهو حجم لن يكون نظيرًا أو معادلًا لحجم مشاركة الرجال ؛ وذلك لأنهن سوف يَكُنَّ قائمات بدور جهادي آخر في الميدان الاجتماعي لا يقل خطرًا عن الدور الجهادي للرجال في الميدان القتالي ، بل هو يعدله تمامًا .

والجهاد في الميادين الاجتماعية ، التي تبرز فيها المرأة بروزًا لا يُنْكَر ، يُعَدُّ واحدًا من أهم الأدوار الجهادية (٢) ، التي تتنوع أشكالها ، وصورها ، والتي تقوم بها المرأة حالي السلم ، والحرب . وهو في الحرب أشد فعلًا رغم أنه لا يكاد يلتفت إلى الحديث عنه أحد ، فلقد اقترن الدور الجهادي بالمقاتلة . ولا ينكر أنهن وإن لم يقاتلن ، فإن إعانتهن للغزاة غزو ، وأنهن ما ثبتن لسقي الجرحي ، ونحو ذلك إلا وهن بصدد أن يدافعن عن أنفسهن ، وهو الغالب (٣) .

ومن هنا فلعله من الأهمية أن نؤكد أن مفهومنا للدور النسائي الجهادي لا ينحصر في الدور الحربي فقط ، وحضورهن للمعارك ، ومن بديهي القول أننا لا نعني أن يكون حضورهن للمعارك مساويًا لحضور الرجل ، أو نظيرًا له .

ولقد ظل المؤرخ لا يتحدث عن هذه الأدوارالاجتماعية الجهادية للمرأة – معذورًا – فإنما اعتاد ، كما اعتاد مَن قبله أن يسجل الأحداث والمواقف البارزة ، لا الأدوار التي تُمَارَس في كل آنٍ ، تطوعًا ، وابتغاءً لوجه الله (٤) ، وهو ما يمكن أن

---

(١) فالأدوار الاجتماعية التي تقوم بها المرأة في نطاق الأسرة داخلة ، وفاعلة في الأدوار السياسية خارج الأسرة ، ذلك أن البناء الاجتماعي القوي هو دعامة ، وأساس البناء السياسي الناجح ؛ ولأجل ذلك اعتبرت الرؤية الإسلامية الأسرة وحدة أساسية من وحدات المعمار الكوني [انظر : د/ عماد الدين خليل : حوار في المعمار الكوني ، وقضايا إسلامية أخرى : ٣١ ، وما بعدها] ، كما اعتبرتها بناءً أساسيًا من أبنية المجتمع الإسلامي ، يتضافر مع الأبنية الأخري في تحقيق مقاصد الاستخلاف . (هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي : ١٨٧) .

(٢) انظر في أهمية الدور السياسي الأسري ، وكيف أن الأسرة من خلال دورها في التنشئة السياسية الإسلامية هي إحدي وسائل حفظ الدين ، وتحقيق مقاصد الشرع في الرؤية الإسلامية : هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي : ٢١٩ . ماجستير بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية . جامعة القاهرة .

(٣) فتح الباري : ٦/ ٩٧ .

(٤) انظر في الأدوار التطوعية : نصر محمد عارف : نظريات التنمية السياسية المعاصرة : دراسة نقدية في ضوء المنظور الحضاريّ الإسلامي: ٣٣٥ . ماجستير في كلية الاقتصاد ، والعلوم السياسية . جامعة القاهرة .

تُفَسَّر به حالة التَّخَمة في التاريخ السياسي على حساب التاريخ الاجتماعي ، والاقتصادي ، والثقافي ... للأمة الإسلامية [١] .

مشاركة النساء في الحرب عادة عربية قديمة

علي أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أن هذا التطلع النسائي للجهاد لم يكن بدعًا في حياة العرب ، والذي تغير هو الباعث فقد صار دفاعًا عن عقيدة ، لا تجمعًا حول عصبية أو قبيلة ، وهذا قول يصدقه قول السيوطي : « ولم يبدل النبي ﷺ شيئا في نظام الحرب الجاري عند الجاهلية ، بل جاء والعرب يتغازون بينهم ، وكل من قدر على الخدمة في الحرب من رجال ونساء وأولاد يشترك مع قبيلته في دفع غارة أو شن غزوة . فلما اتحد المسلمون حوله بجامعة الدين ، وأهملوا العصبية ، آخى بينهم فصاروا كلُّهم جندًا في خدمة الغاية الإسلامية [٢] .

في المباحث التالية سنعرض للغزوات الكبري التي ورد في رواياتها ذكر المرأة ، ثم للغزوات التي لم يرد فيها ذكرها ثم استعراض شامل للسرايا التي لم تذكر الروايات فيها المرأة . وسوف نتعرض لكلٍّ بالدرس والتحليل لمحاولة التعرف على حقيقة هذا الدور .

---

(١) ولعله في الأمم جميعًا .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٥٤ . ولم يكن هذا الأمر من العرب قبل الإسلام وحسب بل استمر بعده ، ويكفي أن نعرف أن لواء المشركين في أحد لم يزل صريعًا حتى أخذته عمرة بنت علقة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به . تاريخ الطبري ٥١٣/٢ . وتأمل قول حسان بن ثابت في عمرة ، وقيمة دورها مع المشركين في أحد ، إذ يقول : فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب . ابن هشام : السيرة النبوية : ٣/ ٢٩ ، وانظر محمد جميل بيهم : دراسة و تحليل للعهد العربي الأصيل ١٢٥ ، وانظر عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها ١٦/١ وما بعدها . ولعله من المفيد أن أشير إلى أن هذا الدور للنساء العربيات يحتاج دراسة كاملة ، قائمةً بذاتها .

المبحث الثاني :

الغزوات الكبرى التي ذكرت فيها المرأة

كانت الفعاليات الأولى للجهاد قد بدأت في السنة الأولى من الهجرة على رأس سبعة أشهر من مهاجره ﷺ حيث كانت أولى السرايا . ظل رسول الله ﷺ مقيمًا بالمدينة ، داعيًا إلى الله ، ومعلمًا مما علمه الله باقي شهر ربيع الأول ، الشهر الذي قدم فيه المدينة ، وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة ثم خرج غازيًا في صفر [١] .

غزوة بدر الكبرى

وفي رمضان من السنة الثانية للهجرة ، بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام لقريش صُحبَة أبي سفيان ، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجت من مكة وكانوا نحوًا من أربعين رجلًا وفيها أموال عظيمة لقريش ، فندبَ رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها ، خرجت معه الأنصار في هذه الغزاة ، ولم يكن غزا بأحد منهم قبل ذلك [٢] ، ولم يحتفل لها احتفالًا بليغًا ؛ لأنه خرج مسرعًا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان [٣] .

وقال النبي ﷺ : « لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرًا » فاستأذنه رجالٌ ظهورهم في عوالي [٤] المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم فأبي ، ولم يكن عزمهم على اللقاء ولا أعدوا له عدته ، ولا تأهبوا له أهبته ، ولكن جمع الله بينهم

---

(١) ابن الأثير : الدرر في اختصار المغازي والسير ٩٠ . وكان ذلك في غزوة الأبواء ويقال لها : ودان ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ، وكانت في صفر على رأس أحد عشر شهرًا من مهاجره وسبقتها سرية حمزة بن عبد المطلب لاعتراض عير قريش القادمة من الشام وذلك على رأس سبعة أشهر من مهاجره ﷺ ، وسرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وسرية سعد ابن أبي وقاص إلى الخرار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر . راجع ابن هشام : السيرة النبوية ١/ ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٦/٢ : ٨ ، وتاريخ الطبري : ٢٥٩/٢ ، ٢٦٠ ، الواقدي : المغازي ٢/١ ، وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٢٤/١ ، ٢٢٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٨/٢ ، ٣٣٩ ، وابن قيم الجوزية : زاد المعاد ١٦٣/٣ ، ١٦٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢ / ٢٥٤ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١٧٧/٢ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ١٧١/٣ .

(٤) عوالي المدينة : هي أماكن بأعلى المدينة ، وأدناها من المدينة على أربعة أميال ، وأبعدها من جهة نجد ثمانية . لسان العرب ، مادة : علا .

وبين عدوهم على غير ميعاد (١) . ومن تخلف لم يُلَمْ ؛ لأنهم لم يخرجوا على قتال ، و إنما خرجوا للعير (٢) .

وأما قريش فقد خرجت على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلًا معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان (٣) يضربن الدفوف ويغنين بهجاء المسلمين (٤) .

وهكذا فإن ملاحظة غياب شخص المرأة المسلمة عن هذه المعركة الكبري من معارك المسلمين يُصبح مُعلَّلًا بما ذكرنا من ظروف المعركة ، وكون النفير جاء بغتة . ومن ثَمَّ فإن الذي لا شك فيه أن هذا الغياب لم يكن أمرًا متعمدًا ولا سياسة معتمدة . ولم تذكر الكتب التاريخية في معركة بدر المرأة المسلمة الحاضرة في المدينة (٥) إلا في رواية واحدة فيما أعلم ، عن تطلع إحدى الصحابيات رضي الله عنهن للجهاد . وهي رواية أم ورقة (٦) ، حيث قالت لرسول الله ﷺ حين غزا بدرًا : أتأذن لي فأخرج معك أداوي مرضاكم لعل الله يُهْدِي لي شهادة ، قال : إن الله مُهْدٍ لك شهادة (٧) . فلم ينكر ، عليها رغبتها ، لكنه لم يأذن لها في تلك الغزاة ، لما قد ذكرنا من أسباب .

وأما الروايات الأخرى فكانت عن النسوة المسلمات المستضعفات في مكة (٨) ،

---

(١) أخرجه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ٤/ ٥٦٣ : كتاب الإمارة : باب ثبوت الجنة للشهيد ، ابن سعد ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٧٨/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٥/٣ ، تاريخ الطبري : ٢٦٥/٢ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر : ١ /٢٣٠ .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري ٢ /٢٥٤ .

(٣) القيان : الإماء المغنيات .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٩/٣ .

(٥) ذكر ابن حجر في الإصابة (٤٤٣/٨) أم عمرو بنت سلامة بن وقش الأشهلية ، وقال : شهدت العقبة و بدرا . ولأنه كما نعلم من تواتر الأخبار ، لم يحضر العقبة سوي أم عمارة وأختها ، فإننا لم نقبل هذه الرواية ، وبمقارنة ما جاء عن أم عمرو في الاستيعاب وأسد الغابة والطبقات وجدنا أنها لم تذكر في الاستيعاب وذكرت في أسد الغابة ، ولم يذكر شهودها للعقبة أو بدرًا ، وفي الطبقات ذكر أن أخاها سلمة ابن سلامة بن وقش ، شهد العقبة وبدرًا ومن هنا فالذي يبدو لي أن ثمة زيادة للتاء زيدت عند ابن حجر ، قال : وهي أخت سلامة بن وقش ، شهدت العقبة وبدرًا ، والصحيح كما قال ابن سعد : وهي أخت سلامة بن وقش ، شهد العقبة وبدرًا .

(٦) كانت أم ورقة قد قرأت القرآن وأمرها رسول الله تؤم أهل دارها وكان لها مؤذن يؤذن لها وكان لها غلام وجارية قد دبرتهما (جعلتهما حرين بعد موتها) فقتلاها في خلافة عمر وهربا .

(٧) ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٢٣ ، ابن حجر : الإصابة ٤٨٩/٨ .

(٨) كانت منهن أم الفضل امرأة العباس . روى ابن عباس قال : « كنت أنا وأمي من المستضعفين ، أنا من الولدان وأمي من النساء » . فتح الباري ٤٢٥/٣ .

ولعل ذلك ناتج عن الأثر المعنوي الهائل الذي أحدثه انتصار بدر لدى المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا ، والذين وجدوا في أنفسهم بعد بدر قوة وعزًّا [١] .

وقد كان حال هؤلاء المستضعفين ، وهدف استنقاذهم من مكة وقد برموا المقام بها واحدًا من الأهداف التي شُرِعَ لأجلها القتال ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [٢] .

وكانت الرواية عنهن من خلال رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب [٣] التي فُسِّرت بأنها بلاء ينتظر قريشًا ، وكانت قد حكت الرؤيا لأخيها العباس ، فقال لبعض رفقائه ففشا الحديث بمكة ، وتطاول أبو جهل فنال من نساء بني عبد المطلب قائلًا للعباس : يا بني عبد المطلب ، متي حدثت فيكم هذه النبية ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، فسنتربص بكم ثلاثًا فإن لم يكن في ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب .

قال العباس : فلما أمسيت ، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غِيَر لشيء مما سمعت ؟ قال : قلت : قد والله فعلت ، ما كان مني إليه كبير ، .. ولما أراد العباس أن يتعرض لأبي جهل بعدما أثرنه نساء بني عبد المطلب ، إذا بالنذير يستصرخ قريشًا لتُدرك العير التي مع أبي سفيان . وكان هذا ، وما حدث في بدر من انهزام المشركين بداية تحقق رؤيا عاتكة [٤] .

وإذا كانت المرأة لم تشارك بنفسها في هذه الغزوة للأسباب التي بينتُها آنفًا إلا أنها قد شاركت بابنها وزوجها وأبيها وأخيها ، حتى لقد اجتمع لإحداهن وهي عفراء بنت عبيد بن ثعلبة خصيصة لا توجد لغيرها ، وهي أنها امرأة صحابية لها سبعة أولاد

(١) انظر الرواية عن أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب ، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة . (ابن هشام : السيرة ٢٠٥/٣ ، ٢٠٦) ، السهيلي : الروض الأنف ٣/ ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) النساء : ٧٥ . وراجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٥٢٥/١ .

(٣) عاتكة بنت عبد المطلب : عمة النبي ﷺ ، اختلف في إسلامها ، والأكثر يأبون ذلك ، واستدل على إسلامها بشعر تمتدح فيه النبي بالنبوة . ابن حجر : الإصابة ٢٢٩/٨ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١٧٨/٢ ، السهيلي : الروض الأنف ٣ /٣٠ ، تاريخ الطبري : ٤٢٩/٢ .

شهدوا كلهم بدرًا مع النبي ﷺ ، واستشهد منهم اثنان هما معاذ ومعوذ [١] ، فهل يمكن أن نعد هذه الصحابية مع الغائبين عن المعركة ؟ ! وبعض نفسها بل كل نفسها هناك ؟ ! .

ولقد كانت المرأة في هذا العهد تربي أبناءها للجنة وللجنة فقط ، جاءت الربيع بنت النضر لما استشهد ابنها حارثة بن سراقة إلى النبي ﷺ فقالت : أخبرني عن حارثة فإن كان في الجنة صبرت واحتسبت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء ، فقال ﷺ : « إنه أصاب الفردوس الأعلى » [٢] .

غزوة أحد

لما قتل الله أشراف قريش ببدر ، وأصيبوا بمصيبة لم يصابوا بمثلها ، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم ، وجاء أبو سفيان إلى أطراف المدينة في غزوة السويق [٣] فلم ينل ما في نفسه ، أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ وعلي المسلمين ، ويجمع الجموع ، فجمع قريبًا من ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء والأحابيش ، وجاؤوا بنسائهم لئلَّا يفروا ، وليحاموا عنهن ، ثم أقبل بهم نحو المدينة ، فنزل قريبًا من جبل أحد ؛ وذلك في شوال من السنة الثالثة [٤] . واستشار رسول الله ﷺ أصحابه أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة ؟ .

النساء في خطة الرسول الحربية

وكان رأيه ألا يخرج من المدينة وأن يتحصنوا بها ، فإن دخلوها ، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت ، وكان ذلك أنصر لهم على عدوهم كما قال ابن القيم [٥] ، وكان هو الرأي . أما دوافع رسول الله ﷺ ومن كان على رأيه في البقاء داخل المدينة فهو الاستفادة من حصون المدينة وطاقات كل المواطنين مما يرجح

---

(١) ابن حجر : الإصابة ٢٤٠/٨ ، ابن الأثير: أسد الغابة ١٩٤/٧ .

(٢) رواه البخاري وانظر ابن حجر : الإصابة ١٣٣/٨ ، وابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٢٣٠ .

(٣) غزوة السويق :كان أبو سفيان قد نذر بعد أحد أن لا يمس رأسَه ماءٌ حتى يغزو رسول الله ﷺ ، فخرج في مائتي راكب ، حتى أتى العُرَيض في طرف المدينة ، وبات ليلة عند سلام بن مِشْكَم اليهودي ، فسقاه الخمر ، وذكر له من خبر الناس ، فلما أصبح قطع أصوارًا من أصوار المدينة [النخل الصغير] ، وقتل رجلًا من الأنصار ، ، وحليفًا له ، ثم كر راجعًا ، ونذر به رسول الله ﷺ ، فخرج في طلبه ، ففاته ، وطرح الكفار سويقًا كثيرًا من أزوادهم ، يتخففون به ، فأخذها المسلمون ، فسميت غزوة السويق . ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١٨٩ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد : ٣/ ١٩٢ .

(٥) السابق نفسه : ٣/ ١٩٢ .

فرصة دحر الأعداء [١] ، وهذا هو ما يسمونه في علم العسكرية الحديث بدفاع الصفحة ، وهوأن تكون كل نقطة وكل بقعة على صفحة الوطن مقاومة ودفاعًا ، بأن يهب كل فرد في الأمة لدفع الغازي وعرقلة تقدمه ، ومهاجمة مواصلاته ومؤخرته ودورياته وأفراد قواته ، بل ومعسكراته ... وهو قتال مرير يضيع مكاسب الغزاة ويجعل من انتصارهم هزيمة [٢] غير أن جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ، أشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه في ذلك ، وأشار عبد الله بن أبي بالمقام في المدينة وتابعه على ذلك بعض الصحابة ، فألح أولئك على رسول الله ﷺ ، فنهض ، ودخل بيته ، ولبس لأمته ، وخرج إلى أحد [٣] .

أما كيف كانت المرأة المسلمة في أحد ؟ فإن تتبع النصوص هو خير جواب عن ذلك :

كانت جماعة النساء أول النهار في الآطام ، وهي حصون مبنية بالحجارة [٤] وكان منزل الكبار والضعفة من أمثال أبي حذيفة اليمان بن جابر [٥] ، وثابت بن وقش [٦] وكان رسول الله ﷺ إذا خرج لقتال عدوه رفع نساءه في أطم حسان ؛ لأنه كان من أحصن الآطام [٧] .

فلما بدأت المعركة كان من عمل النساء في معركة أحد سقاية المجاهدين : روى أنس بن مالك قال : « ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر و أم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم [٨] سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها في أفواههم ، ثم

---

(١) مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٣٨١ .

(٢) أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن : ٤٦٤ ، وراجع د . أحمد الشرباصي : الفداء في الإسلام : ٢٠٧ .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/ ١٩٢ ، ١٩٣ ، الواقدي : المغازي ٢٠٩/١ : ٢١١ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٧/٣ .

(٤) وقيل هي كل بيت مربع مسطح ، وهي حصون لأهل المدينة ، لسان العرب ج ١ مادة أطم ٩٣ .

(٥) اليمان بن جابر : حسيل بن جابر ، ويعرف باليمان العبسي ، استشهد في حياة النبي ﷺ يوم أحد . ابن حجر : الإصابة ٦٦/٢ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤/٣ . وقد لحق بعد ذلك ثابت بن وقش الأنصاري الأشهلي برسول الله ومعه اليمان والد حذيفة ، فرزقا الشهادة . ابن حجر : الإصابة ٥١٤/١ .

(٧) ابن حجر : الإصابة ٢١٤/٨ .

(٨) خدم سوقهما : الخلخال ، وأما السوق فجمع ساق . قال النووي هذه الرؤية للخدم لم يكن فيها نهي ، لأن هذا كان يوم أحد قبل أمر النساء بالحجاب ، وتحريم النظر إليهن ، ولأنه لم يذكر أنه تعمد النظر =

ترجعان فتملآنها ؛ ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم [١] . ولم تكن أم سليم وحدها ، فقد روى أيضًا عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار ليستقين الماء ويداوين الجرحي » [٢] .

وكانت منهن أم سليط الأنصارية [٣] ، روى البخاري أن عمر بن الخطاب ، قسم مروطًا [٤] بين نساء من نساء أهل المدينة فبقي مَرْطٌ جيد ، فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك ، يريدون أم كلثوم بنت علي [٥] ، فقال عمر : أم سليط أحق به ، فإنها كانت تزفر [٦] لنا القرب يوم أحد [٧] .

وكانت حمنة بنت جحش ممن شهد أحدًا فكانت تسقي العطشي ، وتحمل الجرحي ، وتداويهم [٨] . وقال ابن مسعود : إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين

= إلى نفس الساق فهو محمول على أنه حصلت تلك النظرة فجأة بغير قصد ولم يستدمها . والعجيب أن الإمام النووي قد ذهب إلى كل هذا التعليل والتبرير ولم يلتفت إلى أن أم سليم هي نفسها والدة أنس ، وأما عائشة فقد كان أنس حينئذ ممن يدخل عليها وعلى نساء النبي ﷺ فقد قدمته أمه إلى رسول الله ﷺ كي يخدمه فخدم النبي منذ قدم المدينة حتى مات فاشتهر بخادم النبي . راجع ابن حجر : الإصابة ٤٠٨/٨ ، وابن الأثير : أسد الغابة ٣٣٣/٧ ، وابن عبد البر : الاستيعاب ٤٩٤/٤ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٦٩ .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٧٠/٤ ، ٤٧١ كتاب الجهاد : باب غزوة النساء مع الرجال وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ٢٨/٤ ، ٢٩ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ١٣٦/٩ .

(٢) سنن أبي داود ٣/ ١٨ ، كتاب الجهاد .

(٣) أم سليط الأنصارية : هي والدة أبي سعيد الخدري ، كانت زوجًا لأبي سليط ، فمات عنها قبل الهجرة ، فتزوجها مالك بن سنان الخدري ، فولدت له أبا سعيد . فتح الباري : ٧/ ٤٦٥ .

(٤) المَرْط :كساء من خز ، أو صوف ، أو كتان ، وقيل هو الثوب الأخضر ، وجمعه مروط .

(٥) أم كلثوم بنت على بن أبي طالب : أمها فاطمة الزهراء ، ولدت في عهد النبي ﷺ ، وولدت لعمر ابنيه زيدا ورقية . ابن حجر : الإصابة ٤٦٤/٨ .

(٦) تزفر : أي تحملها ملأى على ظهرها وتسقي الناس منها ، والزفر : الحمل على الظهر ، والزفر أيضًا القربة .

(٧) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري : ٧/ ٤٦٥ ، كتاب المغازي : باب ذكر أم سليط ، الخزاعي : تخريج الدلالات السمعية ١٥٤ . وهي أم قيس بنت عبيد ، كناها عمر بابنها سليط ابن أبي حارثة ، وهي من المبايعات . ابن حجر : الإصابة ٤٠٨/٨ .

(٨) حمنة بنت جحش هي أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وكانت زوج مصعب بن عمير ، ثم تزوجت بعد استشهاده بطلحة بن عبيد الله ، فولدت له محمد بن طلحة المعروف بالسجاد . ابن حجر : الإصابة ٨٨/٨ .

يُجهزن [١] على جرحي المشركين [٢] .

ولما انهزم الناس جاءت صفية بنت عبد المطلب وبيدها رمح تضرب في وجوه الناس وتقول : انهزمتم عن رسول الله [٣] .

ولقيت أم أيمن [٤] جماعة من المنهزمين ، فجعلت تنثر في وجوههم التراب وتوبخهم قائلة : هاك المغزل فاغزل به [٥] .

وكانت المرأة فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ ، وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب مع رسول الله ﷺ ، كانت أم سعد بنت سعد بن الربيع [٦] تقول : دخلت على أم عمارة فقلت لها : يا خالة أخبريني خبرك ، فقالت : خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ ، فقمت أباشر القتال وأذُبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ .

قالت : فرأيت على عاتقها جرحًا أجوف له غور فقلت لها : من أصابك بهذا ، قالت : ابن قمئة [٧] أقمأه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ ، أقبل يقول : دلوني على محمد ، لا نجوت إنْ نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير و أناس

---

(١) يجهزن : أجهز على الجريح أثْبَت قَتْله ، وقيل أسرعت قتله وقد تممت عليه .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٤١/٤
(٣) ابن حجر : الإصابة ٢١٥/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٧١/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٢٧/٤
(٤) أم أيمن : مولاة النبي ﷺ ـ وحاضنته ، اسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن ، كانت لأم رسول الله ﷺ ، وكان يقول : « أم أيمن أمي بعد أمي » ، وهي زوج زيد بن حارثة ، وأم أسامة . ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٣٥٨ .
(٥) البلاذري : أنساب الأشراف ٣٢٦/١ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ١٢٢ . وأم أيمن هي مولاة النبي ﷺ وحاضنته ، واسمها بركة بنت ثعلبة ، وهي أم أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان ﷺ يقول لها : « يا أمه » ، وكان يقول عنها : « هذه بقية أهل بيتي » . ابن حجر : الإصابة ٣٥٨/٨ .
(٦) أم سعد بنت سعد بن الربيع : الأنصارية الخزرجية ، اسمها جميلة ، كان أبوها أحد نقباء الأنصار ، وأمها خلَّادة بنت أنس بن سنان ، ولدتها بعد قتل سعد بأشهر ، وتزوجها زيد بن ثابت فولدت له خارجة ، وكانت قبل ذلك يتيمة في حجر أبي بكر الصديق ، دخلت يومًا عليه فألقى لها ثوبه فجلست عليه ، ودخل عمر فسأل عنها فقال أبو بكر : هذه ابنة من هو خير مني ومنك ، رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ ، تبوأ مقعده من الجنة وبقيت أنا وأنت . ابن حجر : الإصابة ٤٨/٣ ، ٤٠١/٨ .
(٧) ابن قمئة : اسمه عبد الله بن قمئة الليثي ، قاله ابن هشام في السيرة ٢/ ٩٤ .

ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان [١] .

ولما جرح أحد ابنيها ، سعت إليه وربطت جرحه بعصابة كانت أعدتها لمداواة الجرحي ، ثم قالت : انهض يابني فضارب القوم ، والرسول يناديها : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟! » ويلتفت إلى أصحابه قائلًا : « ما التفت يمينًا ولا شمالًا إلا وأنا أراها تقاتل دوني » وكان يقول لابن أم عمارة : « مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، وذكر ناسًا من الصحابة ، رحمكم الله أهل البيت » .

ولقد يتضح الهدف من هذا الجهاد ، وهذا الدور السياسي لها - رضوان الله عليها - من قولها لرسول الله ﷺ : ادع الله أن نرافقك في الجنة قال : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا [٢] .

وكان ضمرة بن سعيد المازني [٣] يُحَدِّث عن جدته ، وكانت قد شهدت أحدًا تسقي الماء قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان » وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ؛ وإنها لحاجزة ثوبهَا على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا ، وكانت جدة ضمرة تقول : إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ، وكان أعظم جراحها فداوته سنة [٤] .

فلما نادى منادي رسول الله ﷺ في اليوم التالي لأحد إلى حمراء الأسد [٥] ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٣٥ ، ابن حجر : الإصابة ٣٣٣/٨ .

(٢) الواقدي : المغازي ٢٦٨/١:٢٧٣ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١٣١/١ ، ابن سعد : الطبقات الكبري ٨ /٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٣) موسى بن ضمرة بن سعيد : لم أعثر على ترجمة لموسى بن ضمرة ، وإنما وجدت في ابن حجر : الإصابة [٣/ ٣٩٧] ضمرة بن ربيعة السُّلميّ . قال ابن حجر : قيل : ابن سعد ، وقيل : ابن سعيد ، وقيل : ضميرة . ثم ذكر في ثنايا الترجمة أن ضميرة ، وابنه سعدًا شهدا حنينًا ، فجعل الابن والدًا ، والوالد ابنًا ، وهذا هو ما ذهب إليه في تقريب التهذيب [٢/ ٣٤٤ ، ٤٤٦] من أن ضميرة الأسلميّ هو والد سعد ، شهدا معًا وقعة حنين . فهذه السلسلة من الابن ، والأب ، بل والجد مختلطة في كتب التراجم ، فلعل موسى المذكور في الرواية هو سعد ، فالمصادر التي اطلعت عليها لم تذكر موسى ، وإنما ذكرت زياد بن ضمرة ، وذكرت محمود بن سفيان بن ضمرة . راجع البخاري : التاريخ الكبير : ٤/ ٣٣٧ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ١٣٧ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٩/ ٣٢٥ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ٣٥ ، المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصالحات : ٥٩ .

(٥) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة . معجم البلدان : ٢/ ٣٠١ . وكان المشركون لما =

شَدَّتْ عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم .

ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح [١] حتى أصبحنا . فلما رجع رسول الله من الحمراء ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني [٢] يسأل عنها فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسُرّ بذلك النبي ﷺ [٣] .

النساء بعد المعركة

وأكرم الله من أكرم من المسلمين بالشهادة ، وكانوا سبعين رجلًا وانتهت المعركة ولم يكن جهاد المرأة نفسها وصمودها أمام أحزانها بأقل من جهادها وصمودها في المعركة وذبها عن رسول الله ﷺ :

لما سئل سهل بن سعد [٤] عن جرح رسول الله ﷺ يوم أحد قال : جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة [٥] على رأسه ، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم ، وكان على بن أبى طالب يسكب عليها بالمجن [٦] ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقته حتى صار رمادًا ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم [٧] .

= انصرفوا من أحد قد تلاوموا فيما بينهم أثناء الطريق ، وقالوا لبعضهم : ما صنعتم شيئًا ، أصبتم شوكتهم ثم تركتموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصلهم . وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادي في الناس ، وندبهم للمسير ، فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح والخوف ، فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد ، . غير أن الله سبحانه قد صنع لنبيه والمؤمنين أن معبد بن أبى معبد الخزاعي قد جاء إلى رسول الله ﷺمسلمًا ، فأمره أن يأتي أبا سفيان ، ولم يكن قد علم بإسلام معبد ، فيُخَذِّله عن المسلمين ، ففعل ورجع المشركون على أعقابهم . زاد المعاد : ٣/ ٢٤٢ .

(١) نُكَمِّدُ الجراح : نضع لها كِمادًا على موضع الألم ليرتاح المريض . وأكمد العضوَ : سَخنَه بالكمادة ، والكماد والكمادة : خِرقة تُسخن ، وتوضع على الورم أو موضع الوجع . المعجم الوسيط ، مادة كمد .

(٢) عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف : من بني عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الأنصاري ، وهو الذي كان على ثقل غنائم بدر . ابن حجر : الإصابة ١٨٧/٤ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبري ٨ /٤٤١ .

(٤) سهل بن سعد : الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة ، توفي وقد بلغ مائة سنة ، وقيل هو آخر من بقي من أصحاب رسول الله بالمدينة ، وكان يقول : « لو مت لم تسمعوا من أحد يقول : قال رسول الله ﷺ » . ابن الأثير : أسد الغابة ٥٧٥/٢ .

(٥) هُشمت البيضة : الهَشْم الكسر ، والبَيْضة الخَوْذة .

(٦) المِجَنُّ : التُّرْسُ .

(٧) أخرجه البخاري ٧ /٢٨٦ في المغازي باب ما أصاب النبي من الجراح يوم أحد ، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد ٤٣٣/٤ حديث ٩٤ ، ٩٥ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ١٢٤ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣ /٢٠٥ .

واستشهد أبو مريم بنت أبى سفيان الدوسية ، من بني عمرو بن عوف ، وكان يقال له : أبو البنات [١] . وترك حنظلة بن أبى عامر [٢] امرأته عروسًا ليلة أحد ، حتى إنه عندما سمع النداء عجل بالخروج ولم يغتسل ، وقاتل حتى استشهد [٣] .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة وكان أخاها لأبيها و أمها فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : القها فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي . قالت : ولم وقد بلغني أنه مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله فما أرضانا ما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله . فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك قال : خلِّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه وصلت عليه واسترجعتْ واستغفرتْ [٤] .

ولما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش ، فلما لقيت الناس نعي إليها أخوها عبد الله بن جحش وقد كان زوج أم المؤمنين زينب بنت خزيمة ، فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي إليها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعي إليها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها [٥] .

ولقد كان ممن فقدن أزواجهن أيضًا أنيسة بنت عنمة [٦] امرأة عبد الله بن عمرو ابن حزام [٧] .

---

(١) ابن حجر : الإصابة ٣١٥/٨ .

(٢) حنظلة بن أبى عامر : الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف ، وهو ابن أبى عامر الفاسق ، وأما ابنه فكان من سادات المسلمين وفضلائهم ، وهو المعروف بغسيل الملائكة . ابن الأثير : أسد الغابة ٨٥/٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٥/٣ ، وقد رواه ابن إسحاق معلقا ، ووصله الحاكم ٢٠٤/٣ ، وصححه ووافقه الذهبي ، كما ذكر مهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية : ٣٩٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ٤٣ ، تاريخ الطبري : ٥٢٩/٢ ، ابن حجر : الإصابة ٢١٣/٨ ، البواب : مائة أوائل من النساء ١٧٧ .

(٥) تاريخ الطبري : ٢/ ٥٣٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٤٨ .

(٦) أُنيسة بنت عنمة : هي أم جابر بن عبد الله . وفيها قال جابر: أصيب أبى وخالي يوم أحد ، فجاءت أمي بهما ، وقد عرضتهما على ناقة فنادي منادي رسول الله ﷺ : ادفنوا القتلى في مصارعهم ، فرُدَّا . ابن حجر : الإصابة ٤٠/٨ .

(٧) ابن حجر : الإصابة ٤٠/٨ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ١٣٠ .

واستشهد أنس بن النَّضْر [١] ووجد به يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته الرُّبَيِّع بنت النضر [٢] عرفته ببنانه [٣] .

واستأذنت أنيسة بنت عدي الأنصارية النبي ﷺ في نقل ابنها عبد الله بن سلمة وكان بدريًّا قتل بأحد ليَقْرُبَ لها مزاره فأذن لها [٤] .

أما المرأة الدينارية [٥] فقد روى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ مر بها وقد أصيب زوجها وأخوها و أبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نُعوا إليها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرًا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه قال : فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل [٦] يا رسول الله [٧] .

وعادت امرأة عمرو بن الجموح [٨] من أرض المعركة على بعير بين وسقين [٩] فاعترضتها عائشة ومن معها ، قالت عائشة : فدنونا منها فقلنا لها : ما الخبر ؟ قالت : دفع الله عن رسول الله ﷺ واتخذ من المؤمنين شهداء ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًّا عزيزًا . ثم قالت

---

(١) أنس بن النضر : الأنصاري الخزرجي النجاري ، وهو عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . ابن حجر : الإصابة : ١/ ٢٨١

(٢) الرُّبَيِّع بنت النضر : هي أم سراقة بن حارثة ، وهي التي قالت فيه لرسول الله ﷺ : أخبرني عن سراقة ، فإن يكن في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء . فقال لها : « إنه أصاب الفردوس الأعلى » . والربيع هي نفسها أخت أنس التي كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فطلب القوم القصاص ، فقال أخوها أنس بن النضر : لا والله لا تكسر ثنيتها يا رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « كتاب الله القصاص » ، فرضي القوم ، وقبلوا الأرش ، فقال ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أسد الغابة ١/٣٠٠ ، ابن حجر : الإصابة : ٨/ ١٣٣ .

(٣) صحيح مسلم ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦/٤ ، ابن القيم : زاد المعاد ٣ /١٩٨ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٢٣ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ٣٩/٨ .

(٥) ذكر الواقدي أنها سمراء بنت قيس الأنصارية ، ولكن ذكر أن الشهيدين هما ابناها ونقله عنه د . عماد الدين خليل :دراسات في السيرة ١٦٣ ، وانظر الواقدي : المغازي ١/ ٢٩٢ ، وانظر ابن حجر : الإصابة ٨ /١٨٩

(٦) جلل : الجلل يكون من القليل والكثير وهو هنا بمعني القليل .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٤٨ ، تاريخ الطبري : ٥٣٣/٢ .

(٨) عمرو بن الجموح : الأنصاري الخزرجي من بني سلمة ، شهد العقبة وبدرًا . ابن الأثير : أسد الغابة ٤ /١٩٥ .

(٩) وسقين : حِملين .

لبعيرها : حل [١] ثم نزلت فقلنا لها : ما هذا ، قالت : أخي وزوجي [٢] .

وهكذا واجهت مصيبتها في زوجها وأخيها بثبات المؤمنة الصابرة ، ولم تثنها هذه التضحية عن حثّ بنيها على الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ ، فكان لها أربع بنين يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا [٣] .

ولم تكد امرأة عمرو بن الجموح تذكر استشهاد زوجها وأخيها لولا أن عائشة رضي الله عنها وصاحباتها قد سألنها عمن تحمل على بعيرها فأخبرتهن ، لقد صارت الآلام الخاصة واللوعة التي تُحِسُّها بفقد أحب أحبابها و أقرب أقربائها ، هي آخر ما يؤرقها .

ولما انتهت المعركة و عادت النسوة اللاتي بلغ عددهن أربع عشرة امرأة [٤] لبيوتهن تنبهت آلامهن الخاصة وبدأ التياعهن بفقد ذوي قرباهن ، على أنه حتى حرقة الألم كانت تقف في مكانها من أولويات الأمة ، فالألم نفسه يعاد ترتيبه ، مر رسول الله ﷺ بدار بني عبد الأشهل فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله ﷺ ثم قال : لكن حمزةَ لا بواكيَ له [٥] .

فلما رجع سعد بن معاذ [٦] وأسيد بن حضير [٧] إلى دار بني عبد الأشهل أمرالنساء أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ ، ولما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن في باب المسجد يبكين فقال : « ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن » ونهى رسول الله ﷺ يومئذ عن النوح . قال ابن سعد : فهن إلى اليوم إذا مات الميت من الأنصار بدأ النساء فبكين على حمزة ثم بكين على ميتهن [٨] .

---

(١) حل : زجر للناقة ، وحلحلت بالناقة إذا قلت لهل حل .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٤٢ ، ٤٣ .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٢٠٨ .

(٤) المقريزي : إمتاع الأسماع ١ /١٢٥ .

(٥) أي بالمدينة .

(٦) سعد بن معاذ : الأنصاري الأشهلي ، سيد الأوس ، شهد بدرًا ، وهو الذي اهتز لموته عرش الرحمن ، وهو الذي لما أسلم قال لبني عبد الأشهل : كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا ، فأسلموا ، فكان من أعظم الناس بركة في الإسلام . ابن حجر : الإصابة ٣/٧٠ .

(٧) أسيد بن حضير : الأنصاري الأوسي الأشهلي ، كان من السابقين للإسلام ، وكان من النقباء ، كان شريفًا كاملًا ، وآخى الرسول بينه وبين زيد بن حارثة ، وكان ممن ثبت يوم أحد ، وقال فيه ﷺ : « نِعْمَ الرجل أسيد بن حضير » . ابن حجر : الإصابة ١/٢٣٤ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبري ٢/٢٧١ .

كل ذلك فعلته المرأة بلا ضعف ولا تزعزع ولم تتأثر بما أشاعه اليهود والمنافقون في المدينة من قول يشكك في نبوة محمد ، حيث قالوا : لو كان نبيًا ما ظهروا عليه ولكنه طالب ملك تكون له الدولة أو عليه ، وقال المنافقون مثل قولهم فقالوا للمسلمين : لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم [١] ، وفي الوقت الذي ظهر فيه النفاق بين رجال من أهل المدينة لم تُسَجَّلْ للمرأة حالة واحدة من النفاق . ولم يفت المرأةَ أن تجاهد بلسانها [٢] .

وهكذا كانت قضية المرأة العقدية ، وهي وجهتها السياسية إذا أردنا التعبير عنها بلغة السياسة ، هي كل ما يشغل بالها . إن رسالة الإسلام لم تكتمل بعد ، ورسول الله ﷺ هو مُبَلِّغ تلك الرسالة التي صارت وجهة الأمة رجالها ونسائها ، فبقاؤه عليه السلام حيًا هو أول ما يهمها ثم الشهادة التي رزقها الله المؤمنين الذين انطلقوا في ميادين الجهاد وكان الموت في سبيل الله أسمى أمانيهم ، ثم رجوع الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا .

غزوة المريسيع

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فكانت عائشة هي التي خرج بها في هذه الغزوة [٣] . وفيها كان حادث الإفك الذي سيمر الحديث عنه لاحقًا .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٤٩ .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم » أخرجه أبو داود [٢٥٠٤] ، والنسائي ٧/٦ ، وقال محقق زاد المعاد ٥٧١/٣ : صححه ابن حبان [١٦١٨] ، والحاكم في مستدركه ٨١/٢ ، ووافقه الذهبي ، راجع في أشعار الصحابيات في أحد ابن هشام : السيرة ٣/ ٣٨ .

(٣) دلت الأحاديث الصحيحة على أن عائشة خرجت وحدها في هذه الغزوة ، وأما ما ورد من خروج أم سلمة في هذه الغزوة فإنه لا يصح ، ولم يذكر أم سلمة في هذه الغزوة إلا الواقدي في المغازي ٤٢٦/٢ ولم ينتبه ابن القيم لعدم حضور أم سلمة ، وكان قد وصف رواية عبد المؤمن بن خلف التي ورد فيها ذلك بالوهم ، ولكن من وجوه أخرى غير وجه حضور أم سلمة ، على أنه رغم ذكره لأم سلمة في سياق الأحداث ، عاد وقرر ما ذكرته الأحاديث الصحيحة من خروج عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ بقرعة أصابتها : راجع زاد المعاد : ٢٥٧/٣ ، ٢٥٩ . وراجع أيضًا : إبراهيم بن إبراهيم قريبي : مرويات غزوة بني المصطلق ٢٠٦ ، ٣١٨ : ٣٢٠ . وقد خرج البخاري طرفًا من حديث الإفك وبوب له بقوله : باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه ، كتاب : الجهاد والسير ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦١١/٢ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٢٥٩/٣ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٨٨/٣ ، ١٨٩ .

ومما يلفت النظر في هذه الغزوة أنه لم يذكر في النساء اللاتي حضرنها غير عائشة رضي الله عنها الجيش وحدها ، الأمر الذي يدعونا إلى ترجيح القول بأن النساء قد شاركن في هذه الغزوة بصورة غير الصورة التي تعبر عنها المصادر التاريخية .

وهنا نسجل صمت المصادر عن ذكر هذا الحضور في هذه الغزوة . وربما لم تذكر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في هذه الغزوة إلا لما عرض لها من حادث الإفك . وهو أمر يلفت النظر إلى طبيعة التسجيل التاريخى لدور المرأة في المعارك حيث لم يكن يسجل المؤرخ إلا ما شَذَّ الانتباه ، وعَبَّرَ عن مواقفَ غيرِ مألوفة ؛ أما الأدوار الطبيعية فلم تكن محل تسجيل . وهذا استنتاج يلقى بظلال من الشك على حقيقة التأريخ للحضور النسائي في بقية الغزوات التي لم تذكر فيها النساء ، وربما على حجم الحضور النسائي في الغزوات التي ذكرن فيها . بل وعلى أغلب ما سُجل عنهن من أحداث ، راجع اعتناق الدين وصورة إسلام خديجة وأم سليم رضي الله عنهما .

غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة كانت غزوة الخندق وكان سببها أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد ، وازداد يقينهم أن هذه الهزيمة لم تصنع شيئًا ، وأن المد الإسلامي مستمر ، ولقد أعيت يهود الحيل من إشاعة للفتنة إلى محاولة الغدر برسول الله ﷺ وقتلة غيلة ، ورأت يهود وقريش أن انفراد كل قوة في مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكن الإسلام من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلابد إذًا من أن تتجمع القوى المضادة للإسلام كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفة الإسلام [١] .

وعلمت يهود بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين ، وأنه قد رجع عن هذا الموعد لما أصاب قريشا من ضيق اقتصادي [٢] ، فخرج أشرافهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ، ويؤلبونهم عليه ، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك ، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف ، وخرجت بنو أسد ،

---

(١) تأمل قول يهود للمشركين : إنا سنكون معكم حتى نستأصله ، وانظر د. عماد الدين خليل : دراسات إسلامية ١٧٤ .

(٢) كان أبو سفيان قد واعد النبي ﷺ والمسلمين بعد أحد في العام المقبل ، وهو سنة أربع ، لكنهم لم يفعلوا لجدب تلك السنة ، ثم جاءوا لحربه في السنة الخامسة ، كما ذكر أهل السير ، والمغازى . راجع : ابن هشام : السيرة النبوية ١٢٨/٣ ، ١٢٩ ، الواقدى : المغازى ٤٤١/٢ ، البلاذري : أنساب الأشراف ٣٤٣/١ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤١/٢ ، ابن القيم : زاد المعاد ٢٦٩/٣ .

وبنو سليم ، وفزارة ، وأشجع ، وبنو مرة ، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافى الخندق من المشركين عشرة آلاف [١] .

واستشار رسول اللّه ﷺ أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق [٢] ، روي عن ابن إسحاق أنه قال : عمل رسول اللّه ﷺ في حفر الخندق ترغيبًا للمسلمين في الأجر ؛ وعمل معه المسلمون فيه فدأب ودأبوا ، كان سائر المدينة فيما عدا جهة الشمال مشبكًا بالبنيان فهى كالحصن [٣] . وخرج رسول اللّه ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فوقف لمواجهة أكبر هجوم على الإسلام منذ مولد الدعوة الإسلامية [٤] ، وتحصن بجبل سلع من خلفه وبالخندق أمامهم [٥] . وأقام المشركون محاصرين رسول اللّه ﷺ شهرًا ، ولم يكن بينهم قتال ؛ لأجل ما حال اللّه به من الخندق بينهم وبين المسلمين [٦] . وخلص إلى كل امرئ منهم الكرب وفشل الناس .

وكانت الحرب النفسية العاتية التي شنها جيوب المنافقين في صفوف المسلمين مُخَذِّلَةً ومُعَوِّقة ، فلقد نجم النفاق من بعض المنافقين بل لقد ظن المؤمنون كل ظن ؛ قال معتب بن قشير [٧] ، أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ، وحتى قال أوس بن قرظي ، أحد بنى حارثة بن الحارث : يا رسول اللّه ، إن بيوتنا لعورة من العدو ، وذلك على ملأ من رجال قومه فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا ؛ فإنها خارجة من المدينة [٨] ، فتلك هي الحال التي وصف اللّه تعالى بقوله : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [٩] .

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٢٧٠ ، ٢٧١ . لاحظ أن هذه القبائل نفسها هي التى ستحمل لواء الردة بعد ذلك .

(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد : ٣/٢٧٠ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٢٨٢ .

(٤) د. عماد الدين خليل : دراسات إسلامية ١٧٤ .

(٥) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٢٧١ .

(٦) تاريخ الطبرى : ٢/٥٧٢ ، ابن القيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٢٧٢ .

(٧) معتب بن قشير الأوسى : شهد العقبة وبدرا وأحد . أسد الغابة ٥/٢١٦ . قال ابن هشام : أخبرني من أثق به من أهل العلم أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين ، واحتج بأنه كان من أهل بدر . وصدور ذلك منه دليل على شدة وطأة الحصار وألمه . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ٣/١٣٤ .

(٨) تاريخ الطبرى : ٢/٥٧٢ .

(٩) الأحزاب : ١٠ .

وهنا ينبغى أن أنوه بأنني قد حاولت البحث عن حالة واحدة من الزيغ أو التردد ، أو التخذيل والتوهين للرجال تنسب لامرأة من الصحابيات فلم أجد ، بل كان موقفها هو العكس تمامًا على ما سوف نرى [١] .

ولم يكن حصار المشركين ونفاق المنافقين فقط هو الذي يضيق الخناق على المسلمين ، بل إن هنالك من الداخل ما يزيدهم إرهاقًا وخوفًا وعناء : الأقوات القليلة المتناقصة يومًا بعد يوم حتى لقد كان رسول اللّه وأصحابه يربطون الحجر على بطونهم من شدة الجوع [٢] ، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة [٣] والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى إن محمدًا بن مسلمة [٤] كان يقول : كان ليلنا بالخندق نهارًا حتى فرجه اللّه [٥] .

ثم كان انتقاض بني قريظة علامة خطر أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد ، فعظم البلاء واشتد الخوف حتى إن رسول اللّه ﷺ لم يكن يسمح لأحد بالتوجه إلى داخل المدينة إلا وهو يحمل سلاحه حذرًا من غدر بني قريظة [٦] .

عند هذا الحد من الأحداث يتوقف الباحث يسأل : هل يمكن أن تكون مجمل الظروف التي مر بها المسلمون آنئذ على هذا النحو الذي وضحناه الآن ، ثم لا يكون من المرأة نهضة لشيءٍ من ذلك ؟

إن الحقيقة التي لابد أن نعترف بها حجم التسجيل التاريخى ، مع طريقة التسجيل للقليل من الروايات التي أوردتها المصادر لم تقدم الصورة التي يمكن أن تعد طبيعية ، ومتسقةً مع حجم الظروف ، وخطرها المحقق .

فأما القول في حجم التسجيل التاريخى فهو أمر واضح من قلة الروايات المعبرة

---

(١) تأمل قصة امرأة جابر بن عبد اللّه الآتية بعد .

(٢) فتح الباري : ٥٠٢/٧ ، كتاب المغازى : باب غزوة الخندق ، الواقدى : المغازى ٤٦٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب ، حديث رقم ٩٢ ، وفيه : « رأيتنا ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ » ، وتاريخ الطبرى : ٥٨٠/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٤/٤ ، ١١٦ .

(٤) محمد بن مسلمة : الأوسى الأنصارى الحارثي ، ولد قبل البعثة باثنتين وعشرين سنة ، وكان من فضلاء الصحابة ، شهد المشاهد كلها ، وكان ممن ذهب في قتل كعب بن الأشرف ، وكان عند عمر معدا لكشف الأمور المعضلة وهو ممن سمى في الجاهلية بمحمد ابن حجر : الإصابة ٢٨/٦ .

(٥) د . عماد الدين خليل : دراسات إسلامية : ١٧٦ .

(٦) الواقدى : المغازى ٤٧٤/٢ .

عن هذا الدور . وأما ما أعنيه من طريقة التسجيل فهو ما سوف يلحظه القارئ جيدًا حين نتعرض للروايات ، فلسوف يبدو له منها كيف أن رواية هذا الدور لم تكن مقصودة من أجل العناية بتسجيل هذا الدور في ذاته ، وإنما لأن الرواية فيها كانت متصلة بالتعبير عن جانب من جوانب الإعجاز النبوي في هذا الحدث [١] . هذه الصورة الطبيعية المفقودة في المصادر ، والتي يأبى العقل أن يتجاهلها ، تحتم علينا أن نبحث عن المرأة ودورها الموجود دائمًا في الواقع ، والمفقود غالبًا في ثنايا العروض التاريخية ، وتدعوه إلى أن يملأ هذا الفراغ بتقرير الحقيقة ، فهذا التقرير ، مهما يكن تقريرًا نظريًا أمر له جدواه ، وقيمته حتى وإن غابت تفاصيل صورته الفعلية ، التي لا يملك الباحث أن يقدمها من عند نفسه .

لكنه يملك على كل حال أن يقدم تصورًا لتلك الأدوار التي كانت تقوم بها مستعينًا بفهم الأحداث ، وبالقليل الباقي من الروايات .

أدوار المرأة في غزوة الخندق ١ - كفاية حاجة المجتمع بالداخل :

لقد عاش مجتمع المدينة في غزوة الخندق شهرًا كاملًا ورجاله محاصرون عند الخندق مع رسول الله ﷺ ، وقبل الشهر كانت فترة حفر الخندق وهي ستة أيام [٢] ، على أقل الأقوال في مدة الحفر [٣] ، تبعها على ما سوف نرى حصار رسول الله ﷺ بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة ، وهكذا ظلت الجماعة المسلمة محتشدة قرابة الستين يومًا ، لم يكن يسيرًا خلالها على أحدهم أن يترك موقعه ، فلقد كان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما

---

(١) انظر دور النساء في إمداد المجاهدين بالزاد .

(٢) عماد الدين خليل : دراسات إسلامية ١٧٦ . تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يومًا . فعند ابن عقبة (البيهقي : دلائل النبوة ٣٩٨/٣) استغرق قريبًا من عشرين ليلة ، وعند الواقدي أربعًا وعشرين ليلة ، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يومًا ، وعند ابن سعد ستة أيام ، وهو الرأي الذى ذكره د . العمرى (المجتمع المدني - الجهاد ١١٤) ، وقال د . مهدي رزق الله : « ونحن نميل إلى رواية ابن عقبة ؛ لأنه من رجال الكتب الستة وثقة وإمام في المغازى » . ومهدي رزق الله : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٤٤٧ .

(٣) ولقد اخترت القول بأقل مدة هنا مزيدًا في التأكيد على صعوبة الموقف ، وضيقه ، حتى وإن اعتبرنا أقل المدد في عملية الحفر ؛ ليكون الاستدلال بالمدد الأكبر أكثر تأكيدًا بقياس الأولى . هذا على الرغم من أن الأقوال الأرجح تزيد فيها المدة بحيث لا تقل عن عشرين يومًا ، كما بينا في الهامش السابق .

كان فيه من العمل رغبة في الخير واحتسابًا له [١] . بل إن الاستئذان - وهذا حاله من قضاء للضرورات وفي سرعة - كان يعد تقصيرًا يقتضي استغفار رسول الله ﷺ للمعتذرين [٢] .

لأجل كل ما سبق ، كان على البحث أن يستنتج أن المرأة كانت تكفى المجتمع حاجته في غيبة الرجال بتدبير معيشته من جانب ، ومحاولة إمداد المجاهدين بكل ما تقدر عليه من طعام وزاد من جانب آخر ، ولا حيلة له بعد ذلك في غياب التفاصيل الكاملة لهذا الاستنتاج .

٢ - إمداد المجاهدين بالزاد :

● بقيت لنا روايتان تعبران عن مشاركات النساء في إمداد المجاهدين بالزاد ، وهى مشاركات لا نشك في أنها كانت موجودة على صورة أوسع ، وأعمق مما يمكن أن تعبر عنه روايتان فقط ، خاصة مع الامتداد الزمني لحفر الخندق ، والحصار الذي تم بعده .

فأما الرواية الأولى المعبرة عن مشاركة النساء في إمداد المجاهدين بالزاد فهي ما ذكره ابن إسحاق من أن سعيد بن مينا [٣] حدَّثه ، أنه حُدِّث [٤] أن ابنة لبشير بن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٢٩/٣ ، ١٣٠ .

(٢) النور : ٦٢ . انظر سيد قطب : الظلال وفيه إشارة إلى أنه كان مطلوبًا من الجماعة مغالبة الضرورة ، وفيهم كان قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

(٣) سعيد بن مينا : قال البخارى : ابن ميناء [فتح البارى : ٥٠٣/٧] . هو أبو الوليد الحجازي . الإمام الثقة ، حديثه في الصحاح عند البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبي داد ، وابن ماجه ، يروى عن أبي هريرة ، وعن عبد الله بن عمرو ، وجابر بن عبد الله ، وابن الزبير ، وغيرهم ، وحدث عنه أيوب السختياني ، وزيد بن أنيسة ، ومحمد بن إسحاق ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وغيرهم . قال أحمد بن حنبل عنه : ثقة . راجع : البخاري ك التاريخ الكبير ٥١٢/٣ ، والخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ١٤٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٤٥/٥ .

(٤) لا يقلل من هذه الرواية في رأي أن الذي روى عنه سعيد بن مينا غير مذكور هنا ؛ وذلك للثقة التي أكدها العلماء في ابن مينا من جانب ، ولأن ابن مينا - وهذا هو الأهم - هو أيضًا الذي روى الرواية الآتية عن امرأة جابر بن عبد الله ، عن جابر نفسه ، وخرجها له البخاري ، ومسلم ، وهي رواية تتناول أحداث الخندق ، فهى في نفس موضوع الرواية الأولى . ولأنه لا يتفق مع قولنا بغياب التسجيل التاريخى الأمثل أن نهمل هذه الرواية ، خاصة خاصة وأن هذه الرواية تقف وحدها مع رواية امرأة عبد الله بن جابر الآتية لتعبر عن دور النساء في إمداد المجاهدين من الصحابة بالزاد . فلقد كنا نتوقع أن تذكر لنا المصادر عشرات الروايات في هذا المعنى ، فتكثير مثل هذه الروايات هو الأمر الطبيعي - من جهة نظري - والقلة فيها غير طبيعية ، فهاتان الروايتان فقط ذكِرتا تعبيرًا عن دور النساء في فترة الاحتشاد والضيق التي امتدت ستين يومًا على أضعف التقديرات ، كما بينا في المتن ، فإهمال واحدة منهما يزيد المسألة بعدًا عن حقيقة هذا الدور .

سعد ﷺ - أخت النعمان بن بشير [١] - قالت : دعتنى أمي عمرة بنت رواحة ، فأعطتنى حفنة من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بنية ، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت : فأخذتها ، فانطلقت بها فمررت برسول اللّه ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي فقال : تعالي يا بنية ما هذا الذي معك ؟ قالت : فقلت : يا رسول اللّه ، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد ، وخالي عبد اللّه بن رواحة يتغذيانه ، قال : هاتيه ، قالت : فصببته في كفي رسول اللّه ﷺ فملأتهما ، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا [٢] بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغذاء فتجمع الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب [٣] .

● فأما الرواية الثانية في هذا الدور ، فهي ما روى البخاري ، أن جابر بن عبد اللّه جاء إلى امرأته [٤] وقد رأى رسول اللّه ﷺ وبطنه معصوب بحجر من الجوع فقال لها : رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك من صبر ، فعندك شيء ؟ فقالت : عندى شعير وعناق [٥] ، فذبحتُ العناق وطحنتِ الشعير حتى جعلنا اللحم في البُرمة [٦] ، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر [٧] والبرمة بين الأثافي قد كادت [٨] أن تنضج فقلت : طعيم لى ، فقم أنت يا رسول اللّه ورجل أو رجلان . قال كم هو ؟ فذكرت له ، فقال : كثير وطيب . قال : قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي . فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار [٩] .

---

(١) النعمان بن بشير : بن ثعلبة بن سعد بن خُلاس بن زيد بن مالك الأغر ، الخزرجي ، أمة عمرة بنت رواحة ، أخت عبد اللّه بن رواحة . ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثماني سنين وسبعة أشهر . استعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة ، واستعملها عليها بعده ابنه يزيد بن معاوية . راجع : ابن الأثير : أسد الغابة ٣١٠/٥ .

(٢) دحا : بسط .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١٣١/٣ .

(٤) ذكر ابن حجر أنها سهيلة بنت مسعود الأنصارية . فتح البارى ٥٠٥/٧ .

(٥) عناق : الأنثى من أولاد المعز مالم يتم له سنة .

(٦) البُرمة : القدر من الحجر .

(٧) انكسر العجين : لان ، ورطب ، وتمكن منه الخمير .

(٨) الأثافي : الحجر الذي توضع عليه القدر .

(٩) فتح الباري : كتاب المغازى : باب غزوة الخندق ، وهي الأحزاب : ٥٠٢/٧ ، ٥٠٣ .

وكانت رضي الله عنها كما قال ابن حجر : وافرة العقل ، كاملة الفضل ؛ ذلك أنه لما دخل عليها زوجها ، قال : ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ، قالت : هل سألت ؟ قلت : نعم ، وفي رواية : فلقيت من الحياء مالا يعلمه إلا الله وقلت : جاءنا بخلق على شعير وعناق ، ودخلت على امرأتى أقول : افْتُضِحتُ جاءك رسول الله ﷺ بالخندق أجمعين ، فقالت : هل سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، قال : فكشفتْ عني غمًّا كثيرًا [١] .

فدخل رسول الله فقال : خدمي ودعيني من اللحم ، وجعل رسول الله ﷺ يثرد ويغرف اللحم ويخمر هذا ويخمر هذا ، فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ، ثم قال رسول الله ﷺ : كلي وأهدي ، فإن الناس أصابتهم مجاعة [٢] . وفي رواية : « فلم نزل نأكل ونُهدي يومنا أجمع » [٣] .

ولم تكن هاتان الحالتان هما كل الفاعليات النسائية فى هذا المجال ، ولو تأملنا الروايتان لوجدنا أن ما ظهر فيها من دلائل الإعجاز النبوي هو ما جعل المؤرخ يذكرها . . ، وليس يعقل ألا يكون فى مدة الغزوة سوى هاتين الروايتين ، وإلا فكيف كان يحيا النبي ﷺ وثلاثة آلف من المسلمين المحاصرين شهرًا أو يزيد ؟ .

٣ - الدفاع عن مؤخرة المسلمين

ولقد فهم النساء أنهن فى الحصون يمثلن ظهر المسلمين ، وربما صرن مقدمة لهم إذا ما همت بنو قريظة بمحاولة لتطويق المسلمين من الخلف ؛ فلقد ذكر ابن حجر [٤] أن الإمام أحمد قد روى بإسناد قوي ، عن عبد الله بن الزبير أن صفية بنت عبد المطلب كانت فى حصن حسان بن ثابت ، قالت : وكان حسان معنا فيه مع الصبيان ، فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت يهود وقطعت

---

(١) قال ابن حجر : لما أعلمها أنه أعلمه سكن ما عندها لعلمها بإمكان خرق العادة ، ودل ذلك على وفور عقلها ، وكمال فضلها . فتح البارى : ٥٠٦/٧ . قارن هذا بتردد الصحابة كما ذكرنا ، ولقد كان موقفها معبرًا عن دين يملأ الوجدان والضمير ، ويقين يبعث على السكينة والهدوء .

(٢) ذكرت هذه الرواية أيضًا أن المسلمين كانوا قد ظلوا قبل هذا اليوم الذى أطعمتهم فيه امرأة جابر بن عبد الله ، ثلاثة أيام لم يذوقوا ذوقًا ، وكان هذا طبيعيًا ؛ إذ إن الصحابة جميعا كانوا موجهي الطاقة إلى حفر الخندق ، ولم يكن منهم آنئذ السعي على الأرزاق الذي يسعونه فى أيامهم العادية .

(٣) فتح الباري : ٥٠٢/٧ ، ٥٠٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٩/٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ١٣١/٣ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري : ٣٠٤/٦ . =

ما بينهما وبين رسول اللّه ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدف عنا ورسول اللّه ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت فقلت : يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى واللّه ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شغل رسول اللّه ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله . قال : يغفر اللّه لك يا بنت عبد المطلب واللّه لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا [١] .

قالت : فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيء احتجزتُ [٢] ثم أخذت عمودًا ثم نزلت من الحصن فضربته حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسان انزل فاستلبه فإنه ما يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ؛ قال : ما لي بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب ، فسلبته ورمت برأسه إلى اليهود أسفل الحصن ، ففروا لأنهم ظنوا أن بالحصن رجالا [٣] .

كان هذا الموقف من صفية ، وقتلها لليهودي مُوهِمًا ليهود بأن هذه الحصون ممتنعة بالمقاتلين فيها ، فلم تَبْدُ منهم أيُّ محاولة بعد ذلك لتطويق المسلمين من الخلف ؛ قالوا : قد علمنا أن هذا لم يكن ليترك أهله خلوفًا ليس معهم أحد [٤] ، وهذا مع ما كان يصنعه

(١) قال السهيلي : ويحمل هذا الحديث عند الناس على أن حسان كان جبانًا شديد الجبن ؛ وقد يهاجي الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما . السهيلي : الروض الأنف ٢٨١/٣ .
- وأقول إنه ليس فى الحديث ما يدل على جبن حسان ، ودليلي هو نفسه دليلهم وهو أن حسان لن يهج بهذا الأمر وكان شاعرًا يناقض الشعراء ويناقضونه كما سبق ولعل حسان كان معتلًّا فى تلك الوقعة بعلة منعته من شهود القتال ، وربما كان ذلك لكبر سنه - وهذا ما ذكره السهيلي نفسه - بدليل ما أجاب به صفية حيث قال : لو كان ذلك فيَّ كنتُ مع رسول اللّه ، وفي رواية ابن إسحاق المذكورة آنفًا قال : يغفر اللّه لك يا بنت عبد المطلب ! واللّه لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ! .
ولعل من المناسب أن أشير إلى أن اشتهار القول بجبن حسان بن ثابت ﷺ والاستطراد فيه قد جاء من غير المصادر المعتمدة كالأغاني ، ورغم ذلك تمادت بعض الدراسات فى تأكيد هذا القول ، وتقريره . راجع فى ذلك على سبيل المثال : محمد إبراهيم جمعة : حسان بن ثابت : ٣٥ : ٣٨ .

(٢) احْتَجَزت : احتجز بالإزار إذا شده على وَسَطه ، وحُجْزة الإنسان مَعْقِد السراويل .

(٣) راجع : فتح البارى : ٣٠٤/٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١٠/٢ ، ١١١ ، تاريخ الطبرى : ٥٧٧/٢ ، ابن حجر : الإصابة ٢١٤/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١٧١/٧ ، ابن عبد البر : الاستعاب ٤٢٧/٤ . وقد رويت هذه الرواية من طريق آخر ذكره ابن حجر فى الإصابة ، عن ابن أبى خيثمة وابن منده من رواية أم عروة بنت جعفر بن الزبير عن أبيها ، عن جدتها صفية ، وراجع السهيلي : الروض الأنف ٢٨١/٣ ، الباكري : مرويات غزوة أحد ٢٦٤ : ٢٦٠ ، وابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ١٩٨ ، مهدي رزق اللّه : السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ٣٩٣ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ٢١٤/٨ .

رسول الله ﷺ من إرسال الجماعات من الصحابة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير [١] .

٤ - متابعة الأحداث وتفقد أحوال المجاهدين

لقد كان من إيمانها وإحساسها بالمسؤلية عاصم ألا تتخلى عن الأمر الجامع [٢] الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعي تجمعها له ، ولقد فعلت وأحسنت ؛ كانت عائشة أم المؤمنين فى حصن بني حارثة يوم الخندق وكان من أحرز حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معها في حصن ، قالت عائشة : خرجت يوم الخندق أقفو [٣] آثار الناس ؛ فوالله إنى لأمشى إذ سمعت وئيد [٤] الأرض خلفي فالتفت فإذا أنا بسعد قالت عائشة : وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب . قالت : فمر سعد وعليه درع مقلصة [٥] قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفى حربته يَرْقَدُّ [٦] بها وهو قول :

لبث قليلًا يشهدْ الهَيْجا حَمَل لا باس بالموت إذا حان الأجل

قالت له أمه : الحق أي بني والله أخرت . قالت عائشة : فقلت لها : يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ! قالت : خفت عليه حيث أصاب السهم منه [٧] . وليت شعري كيف لم تنيبه أمه لقلة عدته ، ولم يكن يعينها إلا أن يلحق برسول الله .

قالت عائشة : فلما جاوزنى (سعد) قمتُ فاقتحمتُ حديقةً فيها نفر من المسلمين ، فيهم عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة [٨] له ، فقال عمر : إنك لجريئة ؛ ما جاء بك ؟ ما يريدك لعله يكون تحوز [٩] أو بلاء ! فوالله ما زال يلموني حتى وددت أن الأرض تنشق لي فأدخل فيها ، فكشف الرجل التسبغة عن وجهه فإذا هو طلحة ، فقال : إنك قد أكثرت منذ يوم ، أين الفرار وأين التحوز إلا إلى الله ﷻ [١٠] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٢٨٣ .

(٢) الأمر الجامع : الهام الذى يقتضى اشتراك الجماعة فيه لرأي أو حرب أو عمل من الأعمال العامة ... .

(٣) أقفوا : أتتبع . (٤) الوئيد : شدة الوطء على الأرض يسمع كالدوي من بعد .

(٥) مقلصة : قصيرة قد ارتفعت ؛ يقال : تقلص الشيء ؛ إذا ارتفع وانقبض .

(٦) يَرْقَدُّ : يسرع .

(٧) تاريخ الطبرى : ٢/٥٧٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٣/١٣٧ .

(٨) التسبغة : المغفر لا ترى منه إلا العينين .

(٩) تَحَوُّز : انحاز القوم تركوا مركزهم ومعركةَ قتالهم ، ومالوا إلى موضع آخر .

(١٠) تاريخ الطبرى : ٢/٥٧٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٢٥ ، وراجع ابن حجر : فتح البارى ٧/٥٢٨ .

ومما لا شك فيه أن هذا الموقف من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دليل على تميز شخصيتها وهي في سن مبكرة ، وحرصها على التعرف على ما حولها في ظروف وصفها اللّه تعالى بقوله : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١) ، وهذا مما زاد في وعيها ونضوج شخصيتها .

وهكذا استكمل المسلمون رجالًا ونساءًا جهدهم في العمل والصمود وبذل الجهد ، والسعي الحثيث في جميع أبعاد ومجالات الحياة وبصورة مستمرة ومتكاملة ، وحينئذ نصر اللّه ، فأرسل على المشركين جندًا من الريح فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قِدْرًا إلا كَفَأَتْه ، ولا طُنُبا (٢) إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار ، وجند اللّه من الملائكة يزلزلونهم ، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف ، وأرسل رسول اللّه ﷺ من يأتيه بخبرهم (٣) ، فوجدهم على هذه الحال ، وقد تهيؤوا للرحيل فأصبح رسول اللّه ﷺ وقد رد اللّه عدوه بغيظه ، لم ينالوا خيرًا ، وكفاه اللّه قتالهم فصدق وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده (٤) .

غزوة بنى قريظة والمواقف الإنسانية للمرأة فيها

بعد انتهاء غزوة الأحزاب ، حاصر رسول اللّه ﷺ بني قريظة خمسًا وعشرين ليلة لما كان من نقضهم وغدرهم برسول اللّه والمؤمنين في أشد أوقات المحنة ؛ حتى جهدهم الحصار وقذف اللّه في قلوبهم الرعب ، وأيقنوا أن رسول اللّه ﷺ غيرُ منصرف عنهم حتى يناجزهم ، فبعثوا إلى رسول اللّه ﷺ أن ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر ؛ أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا من حلفاء الأوس – نستشيره في أمرنا (٥) .

فأرسله رسول اللّه ﷺ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وبهش (٦) إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ؛ فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ! قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ؛ قال أبو لبابة : فواللّه ما زالت قدماي حتى عرفت أني خنت اللّه ورسوله . ثم انطلق على وجهه حتى ارتبط

---

(١) الأحزاب : ١١ .
(٢) الطُّنُب : حبلٌ يُشَدُّ به الخباء والسرادق ونحوهما . و – عِرق الشجرة يمتد من أرومتها .
(٣) أرسل حذيفة بن اليمان .
(٤) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٢٧٤/٣ .
(٥) تاريخ الطبرى : ٥٨٤/٢ ، من حديث ابن إسحاق .
(٦) بهشوا إليه : خفوا إليه .

في المسجد إلى عمود من عمده وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على ما صنعت . قال ابن هشام : أقام مرتبطًا ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط حتى نزلت توبته [١] .

لم يتوقف الدور الإنسانى على زوجته ، بل إن أم سلمة وهى ترقب الموقف لم تملك إلا أن تطلب من رسول الله ﷺ بعد نزول توبة أبى لبابة أن تقوم هي ببشارته ، ذكر ابن إسحاق أن الله أنزل توبته على رسوله ﷺ آخر الليل وهو فى بيت أم سلمة . قالت أم سلمة : فسمعت رسول الله ﷺ من السحر يضحك فقلت : ما تتضحك يا رسول الله ! أضحك الله سنك ؟ قال : « تيب على أبي لبابة ، فقلت : ألا أبشره يا رسول الله ؟ قال : بلى إن شئت ، قال : فقامت على باب حجرتها فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك . فسار الناس إليه ليطلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده [٢] .

قال السهيلى : روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن علي بن الحسين أن فاطمة أرادت حله حين نزلت توبته ، فقال : أقسمت ألا يحلني إلا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : « إن فاطمة مضغة مني » [٣] .

وروى ابن إسحاق أن سلمى بنت قيس أم المنذر [٤] استطلقت [٥] من رسول الله ﷺ رفاعة بن السموأل وكان قد بلغ فلاذ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك فأطلقه لها ، وكانت قالت : يا رسول الله ﷺ إن رفاعة يزعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل ، فأجابها إلى ذلك ، فأطلقه لها [٦] . وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وقامت المرأة بتمريض الجرحى ومداواتهم . كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٥٨٤ ، ٥٨٥ ، والرواية عن ابن حميد ، عن سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحاق ، عن زيد بن عبد الله بن قُسَيط .

(٢) تاريخ الطبرى : ٢/٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٣/١٤٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٢٢ .

(٣) السهيلى : الروض الأنف ٣/٢٨٢ .

(٤) سلمى بنت قيس : الأنصارية النجارية ، قال ابن إسحاق : هي إحدى خالات النبي ﷺ ، وقد صلت معه القبلتين ، وبايعته . ابن حجر : الإصابة ٨/١٨٦ .

(٥) استطلقت : طلبت أن يُطْلَق .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٢٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٣/١٤٩ ، تاريخ الطبرى : ٢/٥٨٣ ، الخزاعى : تخريج الدلالات السمعية ٦٦٣ .

ابن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها : رفيدة فى مسجده حتى يعوده من قريب ؛ « وكانت رفيدة امرأة تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة [١] من المسلمين [٢] » . وتدل هذه العبارة على أن دور رفيدة لم يكن قاصرًا على مجال الحرب والقتال ، وأنها كانت تضع جهودها دائما لخدمة ذوي الحاجة من المسلمين .

وانتهت غزوة قريظة ، وبعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة كانت وفاة سعد بن معاذ ، فلما مات بكته أمه كبيشة بنت رافع بن معاوية الخزرجية . « وحين حُمِلَ سعد على نعشه جاء رثاؤها له مشبعًا بدور البطل الذى أدى واجبه فى سبيل دينه ، وكان مثالًا لطلاب المجد والسؤدد . فغلبت فخرها به حزنها عليه » [٣] ، قالت :

ويـــل أم سعـــد سعـــدًا ... صـــرَّامةً وحـــــدا

وســـــؤددًا ومـــجـــدا ... وفـارســـــا مُعَـــــدَّا

ســـــدَّ بـــــه مَسَـــدًّا ... يقـــدهـــا مـــا قـــدا

فقال رسول اللّه ﷺ : « كل نائحة مُكْثِرة إلا أم سعد ، ما قالت من خير ، فلن تكذب » [٤] .

غزوة الحديبية كانت فى ذي القعدة سنة ست من الهجرة [٥] ، وكان معه ﷺ ألف وأربعمائة نفس بخيلهم ورجليهم [٦] ، وخرجت معه زوجته أم سلمة رضي الله عنها . وفزعت قريش لنزوله ﷺ فأحب رسول اللّه ﷺ أن يبعث إليهم رجلًا من أصحابه

(١) ضيعة : أى ذا ضَياع من فقر أو عيال أو حال قصر عن القيام بها .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٣/٤ ، ابن حجر : الإصابة ١٣٥/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ١١١/٧ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٩٧/٤ ، قال البخاري في « الأدب المفرد » : لما أصيب أكحل سعد يوم الخندق ، فقيل : حولوه عند امرأة يقال لها : رفيدة ، وكانت تداوي الجرحى ؛ وكان رسول اللّه إذا مر به يقول : « كيف أمسيت ؟ » وإذا أصبح قال : « كيف أصبحت ؟ » فيخبره . وانظر : الترمذي في السنن ١٢٢/٣ كتاب السير ، باب ما جاء فى النزول على الحكم ، وسنن النسائى ٤٥/٢ كتاب المساجد ، باب ضرب الخباء فى المساجد .

(٣) من تعليقات الأستاذ الدكتور فهمي عبد الجليل على الرسالة .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٢/٤ ، ابن حجر : الإصابة ٢٩٤/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٧/ ٢٤١ ، ابن عبد البر : الاستيعاب : ٤٦٠/٤ .

(٥) انظر خبرها فى ابن هشام : السيرة النبوية ١٩٧/٣ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٩٧/٢ ، تاريخ الطبرى : ٦٢٠/٢ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ١١٣/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٦/٤ ، ابن الجوزى : تلقيح فهوم أهل الأثر ٦٧ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٢٨٦/٣ ، وفتح الباري : ٥٥٧/٧ ، وما بعدها ، وانظر أخبار هذه الغزوة عند : محمد حافظ الحكمي : مرويات عزوة الحديبية.

(٦) يعنى فارسهم وراجلهم وانظر الاختلاف فى عدد المسلمين لدى ابن هشام وابن القيم على سبيل المثال .

فدعا بعثمان بن عفان ، وأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عُمَّارًا وادعهم إلى الإسلام . وبلغ رسول اللّه ﷺ أن عثمان قد قتل فذلك حيث دعا المسلمين إلى بيعة الرضوان فبايعهم تحت الشجرة [١] فذلك قول اللّه تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [٢] ، وقد عرضنا لها عند دراسة البيعة .

ثم تم الصلح بين المسلمين وقريش على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام فيها ثلاثًا . . وكان من بنود هذا الصلح أنه من أتاهم من أصحاب رسول اللّه ﷺ لم يردوه عليه ، ومن أتى المسلمين من أصحابهم رده عليهم وإن بينهم عيبة مكفوفة [٣] . فقال الصحابة : يا رسول اللّه ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا فأبعده اللّه ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل اللّه له فرجًا ومخرجًا [٤] .

واشتد الأمر على المسلمين وضاقت صدورهم من الشرط برد من يسلم ويأتى محمدًا ﷺ بغير إذن وليه ، ولقد زادهم ما حدث لأبى جندل بن سهيل بن عمرو [٥] إلى ما بهم ، قد خرج من أسفل مكة يرسف فى أغلاله ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى . فقال النبى ﷺ « فأجزه لى » [٦] قال : ما أنا بمجيزه لك قال : « بلى فافعل » قال : ما أنا بفاعل . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا يفتنونى فى ديني ، فدخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون [٧] .

---

(١) السابق . (٢) الفتح : ١٨ .

(٣) عيبة مكفوفة : المعنى أن بيننا صدورًا سليمة فى المحافظة على العهد الذي عقدناه .

(٤) سنن أبي داود (٢٧٦٦) من حديث ابن إسحاق عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ورجاله ثقات .

(٥) أبو جندل بن سهيل بن عمرو : القرشي العامري ، كان من السابقين للإسلام ، وممن عذب بسبب إسلامه . وكان فيمن شهد بدرًا ، وكان أقبل مع المشركين ، فانجاز إلى المسلمين ، استشهد يوم اليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين . ابن حجر : الإصابة ٥٨/٧ .

(٦) أجزه لى : جوِّز له ما صنعه ، وأجاز له : أى سوَّغ له ذلك ، وأجاز رأيه ، وجوَّزه : أنفذه .

(٧) حتى قال عمر بن الخطاب : واللّه ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فأتيت النبي فقلت : يا رسول اللّه ألست نبيَّ اللّه حقًّا ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فعلام نُعطَى الدنية فى ديننا إذا ، ونرجع ولما يحكم اللّه بيننا وبين عدونا ؟ فقال ﷺ : إني رسول اللّه ، وهو ناصري ولست أعصيه ، قلت : أو =

مشورة أم سلمة

واستكملت أم سلمة بغرزه [1] ﷺ مع المستيقنين من الصحابة ، فكان موقفها الواضح من هذه القضية ؛ ذلك أنه حين فرغ رسول اللّه ﷺ من قضية الكتاب ، قال : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، قالت أم سلمة : فواللّه ما قام منهم رجل واحد حتى قال ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لَقِيَ من الناس ، فقالت أم سلمة : يا رسول اللّه أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

وكان هذا ذكاء واضحًا منها رضي الله عنها ، أرادت به أن يوقن المسلمون بعزم النبي ﷺ على العودة إلى المدينة وإمضاء المعاهدة ، وكانت تعلم أنه لم يكن يسع الصحابة أن يخالفوه ﷺ وقد عزم .

وصدق رأيها فلقد هزت الصحابة هذه الحركة العلمية وثابوا إلى الطاعة ، كالذي كان فى دهشة المأخوذ ، فعلى الرغم من طلبه ﷺ الذى تكرر ثلاثًا وهم من هم طاعة له ﷺ ؛ قال عروة بن مسعود الثقفي [2] : لم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول اللّه ﷺ يفعل هذا بنفسه ، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا [3] أن يحال بينهم وبين عمرتهم ، ثم يعودوا بهذا الصلح الظاهر الغبن . وهكذا رأبتْ مشورتها صدعًا كان واضحًا ، وحسمت مشكلًا كاد أن يهلك فيه المسلمون .

= لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفاخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : « فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به » قال : فأتيت أبا بكر فقلت له كما قلت لرسول اللّه ورد عليَّ أبو بكر كما رد عليَّ رسول اللّه سواء .
صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٢٩٤/٣ .

(١) استمسكْ بغرزه : أى اعْتَلِق به وأمْسِكه واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه .

(٢) عروة بن مسعود : هو عم والد المغيرة بن شعبة ، وهو أحد الأكابر من قومه ، وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف . ابن حجر : الإصابة ٤٠٦/٤ .

(٣) ابن حجر : فتح البارى : كتاب الشروط فى صحيح البخاري الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٤١٥/٥ .

وقد من الله على المسلمين بهذا الصلح فقال : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [١] ذلك أنه كان مع المشركين في مكة رجال ونساء قد آمنوا وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون ، فلو سلط الله المسلمين ، لأصابوا أولئك ولأصابت المسلمين معرةُ العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به [٢] .

وكان من النساء اللاتي حضرن غزوة الحديبية مع أم سلمة حسبما دل عليه تتبع كتب التراجم : أم هشام بنت حارثة الأنصارية [٣] ، والربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية الأشهلية [٤] . وكان منهن أيضًا نسيبة بنت كعب [٥] ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي [٦] ، وأم عامر الأشهلية [٧] .

غزوة خيبر ذكر ابن إسحاق أنها كانت في السنة السابعة من الهجرة [٨] ، بعد العودة من غزوة الحديبية . وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب اليهودي الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين ، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها وإلي ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [٩] .

(١) سورة الفتح : ٢٥ .

(٢) ولم يكن هؤلاء المستضعفون في غيبة عن فكره ﷺ فكما كان يتعاهد المسلمات في المدينة قبل أن يهاجر إليها فقد كان يتعهد كذلك المسلمين والمسلمات المستضعفين في مكة ، فقد أمر عثمان أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله تعالي مظهر دينه في مكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان . ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣ /٢٩٠ ، تاريخ الطبري : ٢ /٦٣٢ ، ابن سعد : الطبقات الكبري ٢ / ٢٩٨ ، الواقدي : المغازي ٦٠١/٢ .

(٣) ابن حجر : الإصابة ٤٨٧/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٩٥/٧ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٧٠ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ١٣٢/٨، الصفدي : الوافي بالوفيات ١٤ -١٦ .

(٥) ابن حجر : الإصابة ٣٣٣/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٦٩/٧ ، ابن عبد البر: الاستيعاب ٤٧١/٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبري ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٤٩٩ .

(٦) المقريزي : إمتاع الأسماع ٢١٤ .

(٧) ابن حجر : الإصابة ٤٢٦/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٤٦/٧ .

(٨) ابن هشام : السيرة النبوية وقد قال الواقدي في المغازي (٢/ ٦٣٤) أنها كانت في صفر أو في ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية ، وقال ابن سعد أنها كانت في المحرم من السنة السادسة (ابن عساكر : تاريخ دمشق ٣٣/١ ، ابن منظور) .

(٩) سورة الفتح ، الآيات : ١٨:٢١. قال مجاهد في تفسير قوله تعالي : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ : يعني =

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمَنَعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادهم الحربي ، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة حتى طلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلًا : « إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم » [١] .

ولقد تطلعت المرأة إلى الخروج إلى خيبر رغبة في الجهاد وطمعًا في ثواب الله ﷻ، فشهد خيبر من النساء فوق العشرين امرأة . وذكر ابن سعد عن أم سنان الأسلمية [٢] أنه لما أراد النبي الخروج إلى خيبر قلت : يا رسول الله أخرج معك ، أخرز [٣] السقاء وأداوي المريض و الجريح ، إن كانت جراح - ولا تكون - وأُبصر الرَّحل فقال رسول الله ﷺ : اخرجي على بركة الله .. الحديث ، وفيه فإن لك صواحبَ قد أذنت لهن من قومك ومن غيرهم . فإن شئت فمع قومك وإن شئت فمعنا . قلت : معك ، قال : فكوني مع أم سلمة [٤] .

وذكر المقريزي منهن أيضا : أم سلمة ، وصفية بنت عبد المطلب ، وأم أيمن ، وسلمى امرأة أبي رافع مولي النبي ﷺ ، وامرأة عاصم بن عدي (ولدت بخيبر سهلة بنت عاصم) ، و أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع ، و كعيبة بنت سعد الأسلمية (هي رفيدة) ، وأم مطاع الأسلمية ، وأم سليم بنت ملحان ، وأم الضحاك بنت مسعود الحارثية ، وهند بنت عمرو بن حرام ، وأم العلاء الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية ، و أم عطية الأنصارية ، و أم سليط أميمة بنت قيس الغفارية [٥] .

= فتح خيبر . انظر تفسير ابن كثير. وقال ابن حجر في الفتح ٧/ ٥٩٠ : روي يونس ابن بكير في المغازي عن ابن إسحاق في حديث المسوغ ومروان قالا : (انصرف رسول الله من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله فيها خيبر بقوله ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ ، وانظر النيسابوري : أسباب النزول ٢٤٥ .

(١) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ٥٩٧ .

(٢) أم سنان الأسلمية : هي أم ثبيتة بنت حنظلة ، كانت من المبايعات ، ولها رواية عن النبي ﷺ . ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٤١١ .

(٣) أخرز السقاء : الخرز خياطة الأَدَم ، أي تخيط لهم القرب التي تملأ بالماء .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبري ٣٩٥/٨ ، ابن حجر : الإصابة ٨/ ٤١١ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر : ٣٨٧ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٢٦/٣ ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٤ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ٢٤٦/١ ، وذكرت السيرة الحلبية أنهن كن عشرين ٧٧٠/٢ .

ولم يذكر المقريزي بقية من حضرن ، وذكر ابن حجر منهن : صفية بنت الزبير بن عبد المطلب وأم رمثة وأم زياد الأشجعية [١] ، وفي رواية أمية بنت أبي الصلت الآتية ، روت عن امرأة من بني غفار ، قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار [٢] ، فيستفاد من ذلك أن ثمة نسوة أخريات لم يذكرهن المقريزي ولا سماهن ابن حجر قد حضرن خيبر ، وذكر ابن كثير امرأة عبد الله بن أنيس ، قال : خرجت مع زوجها إلى خيبر وهي حبلى فنفست في الطريق ، فأسهم لها رسول الله . وذكر ابن عساكر أسماء بنت يزيد ، ويقال : فكيهة ، ويقال : أم سلمة الأنصارية فيمن حضر خيبر [٣] .

وروي ابن إسحاق ، عن أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار ، قد سماها لي قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار ، فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، وهو يسير إلى خيبر ، فنداوي الجرحي ونعين المسلمين بما استطعنا فقال : « على بركة الله » قالت : فخرجنا معه ، قالت : وكنت جارية حدثة السن فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة [٤] رحله ، قالت : وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضتها ، قالت : فتَقَبَّضْتُ [٥] إلى الناقة واستحييت . فلما رأى رسول الله ﷺ مابي ورأى الدم قال : « مالك ، لعلك نفست » قالت : نعم قال : « فأصلحي من شأنك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحًا ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من دم ، ثم عودي لمركبك » [٦] .

عمرة القضية عرضتُ لعمرة القضية في هذا الفصل عن الجهاد ؛ لأن احتمال الحرب كان واردًا بها على الرغم من أنها عمرة ، فلقد خرج الصحابة في عدة كاملة لمظنة قيام الحرب ، وحمل ، السلاح والبيض [٧] والرماح وقاد مائة فرس [٨] . ولقد كانت هذه العمرة أيضًا أشبه شيء باستعراض للقوة أمام قريش التي كانت تحدثت أن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٢٠٦ . (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٥/٤ .

(٣) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٥ /١٤٥ .

(٤) حقيبة الرحل : كالبرذعة .

(٥) تقبضت : التقبض خلاف الانبساط ، تعني : انزويت من الحياء .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٥/٤ ، ابن حجر : الإصابة ٣٤/٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢٢١/٣ ، السهيلي : الروض الأنف : ٤٥/٤ . (٧) البيض : الخوذات .

(٨) تاريخ الطبري : ٢٦/٣ ، ولما راع قريش ذلك أرسلوا مكرز بن حفص ، فقال ﷺ له : « ما أريد إدخال السلاح عليهم ، ولكن يكون قريبًا إليّ » .

محمدًا وأصحابه في عسر وجهد وحاجة ، فقال لأصحابه : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » وخرج يهرول مع أصحابه [١] .

ثم إن العمرة كانت كسبًا سياسيًا أكد للمسلمين حقهم في قضاء عمرتهم التي أحصروا عنها ، ولم يصلوا إلى البيت عام الحديبية ، ولهذا يقال لها : عمرة القصاص[٢] ، خرج المسلمون ممن كان صُد عام الحديبية مع رسول الله ﷺ في عمرته تلك ، وقد كانت في ذي القعدة سنة سبع [٣] ، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم ، و ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد هو حي [٤] .

والواقع أن الباحث عن دور المرأة ، أو عن وجودها في هذه العمرة لا يجد الخبر عن هذا مباشرًا ، وصريحًا في المصادر التاريخية ؛ إذ إن هذه المصادر لم تقدم قائمة واضحة بمن حضر عمرة القضية من الصحابيات ، فلم أجد من أسماء من حضر عمرة القضية منهن إلا ما ذكره ابن حجر ، روايةً عن ابن سعد في ترجمته لأم عمارة نسيبة بنت كعب بأنها قد شهدت العقبة ، وأحدًا ، والحديبية، وخيبر ، والقضية ، والفتح ، وحنينًا ، واليمامة [٥] .

وعليه فإن الباحث يجد نفسه مُلْزَمًا بأن يُطَوِّف في المصادر بحثًا عمًّا وراء الكلمات ، وعن دلالات الروايات ذات المعاني العامة .

كان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه الذين كانوا قد خرجوا معه إلى الحديبية أن يعتمروا قضاء عمرتهم التي كانوا قد خرجوا لها في الحديبية ، وكان أمره هذا عامًّا في كل من كان قد خرج ، كما أنه ليست في الروايات من القرائن ، أو الدلائل ما يخرج النساء من هذا العموم ، بل إن لزوم قضاء المناسك على النساء بمثل لزومه على الرجال يمنع خروجهن من عموم هذه الرواية . وبناءً على ما سبق ، نرجح ونعتقد أنه قد حضرها من الصحابيات : أم سلمة أم المؤمنين ، وأم هشام بنت حارثة ، والربيع بنت معوذ ، والنوار بنت الحارث بن قيس ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي ، وهن جميعا ممن حضرن الحديبية . ولقد حضرها من

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٤ ، ٤ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٧/٤ .
(٤) المقريزي : إمتاع الأسماع ١ /٢٥٤ .
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبري : ٤/ ٤٤٠ .

غيرهن عدد ولا شك .... غير أن الروايات التاريخية لا تكاد تسعفنا بأسمائهن جميعًا .

ولقد حضرتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وقد استفدنا ذلك مما رواه البراء في ذكر عمرة القضاء ، قال : فلما خرجوا تبعتهم ابنة حمزة تنادي : يا ابن عم . فتناولها على بن أبي طالب فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك ابنة عم أبيك [١] . فهذا دليل على حضورها رضي الله عنها هذه العمرة [٢] .

فتح مكة كان سببه ما حدث من إعانة قريش بني بكر على خزاعة ، حلفاء رسول الله ﷺ [٣] ؛ ولأن هذا التصرف من قريش يعد نقضًا لمعاهدة وصلح الحديبية ، فقد ندمت قريش على فعلتها ، ولذا أرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد المعاهدة ، وعندما جاء إلى المدينة لم يتصل بالرسول مباشرة ، بل ذهب إلى أبي بكر الصديق ، ثم عمر ، ثم فاطمة ، ثم على فردوه جميعًا ، وأغلظ له عمر [٤] . وهكذا ولم يختلف موقف المؤمنات عن موقف المؤمنين في فهم معنى موالاة المؤمنين والبراءة من المشركين وإن كانوا ذوي قرباهم ، كما توضح الروايتان التاليتان :

دخل أبو سفيان على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين

(١) ابن حجر : الإصابة ٢٢/٨ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣٧٤/٣ ، ٣٧٥ ، كحالة : أعلام النساء ٦١/١ . لما خرجت أمامة بنت حمزة وقيل : عمارة تنادي على رسول الله مرجعه من عمرة القضية ، اختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال على : أنا أخذتها وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي – وكان رسول الله قد آخى بينه وبين حمزة – ، فقضى بها رسول الله لجعفر . انظر هذه القصة وتفريعاتها الفقهية لدي ابن القيم : زاد المعاد ٣٧٤/٣-٣٧٨ .

(٢) تأمل مدي التطواف الذي ينبغي على الباحث القيام به في المصادر التاريخية لاستقصاء قائمة الصحابيات اللاتي حضرن عمرة القضية على سبيل المثال ، فلم يكن من هم المؤرخ الأول أن يؤرخ لحركة المرأة التاريخية .

(٣) كان من ضمن شروط صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل ، فدخلت خزاعة في عهد محمد ﷺ وعقده ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . ثم إن بني بكر وَثَبَتْ على خزاعة ليلًا بماء يقال له : الوتير وهو قريب من مكة وقالت قريش : (ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا أحد) فأعانوهم على خزاعة بالكراع والسلاح ، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ ، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة فأنشد أبياتًا من الشعر أمام رسول الله ﷺ يستنصره فقال رسول الله : « نُصرتَ يا عمرو بن سالم » . تاريخ الطبري : ٤٣/٣ وما بعدها ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٩/٤ .

(٤) قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة : ٢٦٢، ٢٦٣ ، الواقدي : المغازي ٧٩٤/٢ .

يديهما ، فقال : يا على إنك أمسُّ القوم بي رَحِمًا ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبًا ، اشفع لي إلى محمد فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : هل لك أن تأمري ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ [١] .

ولقد كان موقف السيدة أم حبيبة مُعْجِبًا في معنى الموالاة لله ولرسوله ، وكان أبو سفيان لما قدم المدينة ، دخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ ، طوته عنه ، فقال : يابنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ، قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس ، فقال : والله لقد أصابك بعدي شر [٢] .

وهكذا بدت الجماعة المسلمة رجالًا ونساءً نسيجًا واحدًا متجانسًا وخالصًا للفكرة الإسلامية. ولقد يكون مفيدًا التوقف أمام هذا الموقف العجيب الذي ما أراه جفاء خالصًا ، بل لقد يبدو في تصوري كنوع من الدعوة أرادت به أم حبيبة أن تزعزع أركان هذا الاحترام البالغ للتقاليد والثبات على عقائد الآباء ، خاصة وأنها تعرف في أبيها عقلًا قمينًا أن يهديه للإسلام .

الحضور النسائي في فتح مكة

لما أمر رسول الله ﷺ أهله بالجَهاز ، دخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها ، وهي تُحَرِّكُ بعض جهاز رسول الله ﷺ ، فقال : أي بنية ، أمَرَكُن رسول الله ﷺ بتجهيزه ، قالت : نعم ، فَتَجَهزْ . قال : فأين تَرَيْنَهُ يريد ، قالت : لا والله ما أدري . وكان رسول الله لم يُسَمِّ لهم الجهة التي يقصدها ، ثم أعلمهم بعد ذلك أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ .

ونكرر هنا إهمال المصادر ذكر أسماء الصحابيات اللآتي حضرن الفتح ، وسنذكر بعضَ أسمائهن اعتمادًا على من ورد ذكرهن في الغزوات والسرايا التي قام

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٦/٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣٩٧/٣ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٦/٣ .

بها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وأثناء إقامته في مكة ، كغزوتي حنين والطائف ، فمنهن : أم عمارة (١) وأم سليم (٢) وصفية بنت عبد المطلب (٣) وأم أيمن (٤) . ومنهن أيضًا أسماء بنت عميس (٥) وأم الحارث جدة عمارة بن غزية الأنصارية (٦) وخولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون (٧) وأم سلمة وزينب بنت جحش (٨) .

وكان الحضور النسائي واضحًا في هذه الغزوة لا من خلال الشهود الجهادي وحسب ، بل في الممارسات السياسية الأخري مثل :

إسلام عدد كبير من مشركات مكة ونذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر : فاطمة بنت عتبة بن ربيعة أخت هند ، وفاطمة بنت الوليد أخت خالد ، وآمنة بنت عفان أخت عثمان ، وريطة بنت منبه بن الحجاج زوجة عمرو بن العاص ووالدة عبد الله بن عمرو ، والبغوم بنت المعدّل زوجة صفوان بن أمية ، وسلافة بنت سعيد بن الشهيد .

مبايعتهن لرسول الله ﷺ وأحداث هذه البيعة التي سنعرض لها بالتفصيل لاحقًا .

إجارة الصحابيات لبعض المشركين (٩) ، وإقرار رسول الله ﷺ لهن .

وساطة أم سلمة لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (١٠) ، وعبد الله بن أبي

---

(١) ابن حجر : الإصابة ٤٤٢/٨ ، كحالة : أعلام النساء ١٧١/٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الجهاد والسير ، باب غزو النساء مع الرجال ٤٩٦/٤ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٠١/١ .

(٣) سليمان البواب : مائة أوائل من النساء ١٧٧ .

(٤) السابق .

(٥) ابن حجر : الإصابة ١٤/٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٦٣/٤، الصفدي : الوافي بالوفيات ٥٣/٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٥١ .

(٦) ابن حجر : الإصابة ٣٧٢/٨ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٠٠/٧ .

(٧) المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٠٨/١ .

(٨) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٥٠٣/٣ .

(٩) انظر في ذلك إجارة أم هانئ لأحمائها : سيرة ابن هشام : ٤/ ٣٧ ، والدرر في اختصار المغازي والسير : ٢٦١ ، ابن قيم : زاد المعاد : ٣/ ٤٦٤ ، والسهيلي : الروض الأنف : ٤/ ٩٧. وفي إجارة أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، واستئمانها لزوجها عكرمة بن أبي جهل : تاريخ الطبري : ٣/ ٥٩ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر : ٢/ ١٨٠ ، الخزاعي : تخريج الدلالات السمعية : ٢٠٨ . ابن عبد البر : الدرر : ٢٦٠ ، وانظر : الفراء : الأحكام السلطانية : ١٦١ ، الخراج لأبي يوسف : ٢٤٣، ٢٤٤ .

(١٠) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : ابن عم رسول الله ﷺ ، وأخوه في الرضاعة ، أرضعتهما حليمة السعدية ، وكان يشبه النبي ﷺ . كان ممن يؤذي النبي ﷺ ويهجوه ، ويؤذي المسلمين . ويقال : إن عليًا علّمه لما جاء ليسلم أن يأتي النبي ﷺ من قِبَل وجهه فيقول : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ سورة =

أمية بن المغيرة [١] أخي أم سلمة ، وكانا قد خرجا مهاجرَين ، ولقيا رسول الله ﷺ في بعض الطريق قرب مكة ، فأعرض عنهما، فلما نزلا استأذنا عليه فلم يأذن لهما ، فكلمته أم سلمة فيهما ، وكانت رضي الله عنها بارعة في تلمُّس مواطن التأثير ، قالت : لا يكون ابن عمك وأخي أشقي الناس بك .. فأذن لهما وأسلما وحسن إسلامهما [٢] .

غزوة حنين لما سمعت هوازن برسول الله ، وما فتح الله عليه من مكة جمعها مالك بن عوف النضري ، فاجتمع إليه عدد كبير من قبائلها وأحلافها وساق خلف الجيش أموالهم و نساءهم وأبناءهم ، فقد أراد أن يجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم [٣] . كان ذلك بعد فتح مكة ، وبعدما أقر الله بها عين رسول الله ﷺ ، وخرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحد ركبانًا ومشاة [٤] .

أما المرأة المسلمة فقد اشتركت كعادتها فيها ، وكان لبعضهن سلاح يدافعن ويحاربن به ، كان في يد أم عمارة سيف صارم ، وكان مع أم سليم خنجر قد حزمته على وسطها ، وهي يومئذ حامل بعبد الله بن أبي طلحة ، ومعها جمل أبي طلحة ، وقد خشِيَتْ أن يُعِزَّها [٥] ، فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها في خِزامته [٦] مع الخطام [٧] .

عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خَنجرًا ، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال : يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر فقال لها رسول الله ﷺ : ما هذا الخنجر ؟ قالت اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه ، فجعل رسول الله ﷺ

= يوسف : ٩١ ، ففعل ، فأجابه : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ يوسف : ٩٢. أسلم في الفتح ، وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ في حنين . ابن حجر : الإصابة ٧/ ١٥١، ١٥٢ .

(١) عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة : ابن عمة رسول الله ﷺ و أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ . وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان شديدًا على المسلمين ، مخالفًا لرسول الله ﷺ ، وهو الذي قال له : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا .. ﴾ الإسراء ٩٠، ٩١ . ولم يزل كذلك حتى عام الفتح ، فشهد فتح مكة مسلمًا ، وحنينًا ، والطائف ، ورمي من الطائف بسهم فقتله . ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ١٧٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/٥٠ ، ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٥٤ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٤ /٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٣٢٨ رواية موسي بن عقبة في مغازيه عن الزهري .

(٥) يُعِزَّها : يغلبها .

(٦) خزامة البعير : حلقة من شعر تُجْعَل في أنفه .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤/ ٦٣ .

يضحك ، قالت : يا رسول الله اقْتُلْ من بعدنا من الطلقاء [١] انهزموا بك ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن » [٢] .

وكانت أم عمارة تصيح بالأنصار : أَيَّةُ عادةٍ هذه ! ما لكم وللفرار ، وشدَّت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه [٣] ، قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق [٤] ، معه لواء ، يُوضِعُ [٥] جمله في أثر المسلمين ، فأعترض له ، فأضرب عُرقوب [٦] الجمل ، وكان جملًا مُشْرِفًا [٧] ، فوقع على عجُزه ، وأشُدُّ عليه ، فلم أزل أضربه حتى أَثْبَتُّه ، وأخذت سيفًا له ، وتركت الجمل يُخرخر، ويَتَصَفَّق [٨] ظهرًا لبطن ، ورسول الله ، قائم ، مُصْلِتٌ السيف بيده ، قد طرح غِمْدَه ، ينادي : « يا أصحاب سورة البقرة » [٩] .

وحضر أيضًا من النساء صفية بنت عبد المطلب وأم أيمن [١٠] وأسماء بنت عميس [١١] ، وأم الحارث جدة عمارة بنت غزية الأنصارية [١٢] ، وأم سليط وأم الحارث . وكن حين انهزم الناس يقاتلن مع المسلمين [١٣] . وقال ابن إسحاق : لما

---

(١) الطلقاء : الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح ، سموا بذلك لأن النبي من عليهم وأطلقهم ، وكان في إسلامهم ضعف فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم ، وقولها من بعدنا : أي من سوانا .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الجهاد والسير ، باب غزو النساء مع الرجال ٤٦٩/٤ ، تاريخ الطبري : ٧٦/٣ الصنعاني : سبل السلام ٦٣/٤ ، ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٧٠.

(٣) المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصالحات ٦٠ ، تاريخ الطبري : ٨٥/٣ .

(٤) الجمل الأورق : هو ما في لونه بياض إلى سواد .

(٥) يُوضِع : الإيضاع : السير بين القوم .

(٦) عرقوب الجمل : عرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الرّثكبة في يدها .

(٧) الجمل المُشْرِف : العالي .

(٨) يخرخر : الخرخرة صوت الريح ، والمطر ، والعُقاب ، يتصفق : يتقلَّب .

(٩) المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصالحات : ٦٠ . من رواية المقدسي ، عن سعد الله بن محمد ، أنبأ محمد بن عبد الباقي ، أنبأ الحسن بن علي ، أنبأ محمد بن العباس ، أنبأ عبد الوهاب ابن أبي حيَّة ، أنبأ محمد بن شجاع ، أنبأ محمد بن عمر الأسلمي ، حدثني سليمان بن بلال ، عن عُمَارة ابن غزية ، قال : قالت أم عمارة . المقدسي : حديث الإفك ٥٩ .

(١٠) سليمان عبد التواب: مائة أوائل ١٧٧ . (١١) ابن حجر : الإصابة ١٤/٨ .

(١٢) السابق ٣٧٢/٨ .

(١٣) تاريخ الطبري : ٨٥/٣ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١ /٣٠١ .

هزم الله المشركين من أهل حنين ، وأمكن رسوله ، منهم ، قالت امرأة من المسلمين : قد غلبت خيل الله خيل اللات ......وخيله أحق بالثبات [١] .

غزوة الطائف وكانت في شوال من نفس السنة الثامنة وفيها خرج مع رسول الله ﷺ من نسائه : أم سلمة وزينب فضربت لهما قبتان ، وكان رسول الله ﷺ يصلي بين القبتين مدة حصار الطائف ، وكان حصارها ثمانية عشر يومًا [٢] .

ومن النسوة اللاتي حضرن غزوة الطائف خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ، قالت : يا رسول الله ﷺ أعطني - إن فتح الله عليك الطائف - حُلِي بادية بنت غيلان . فقال لها : « وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف يا خولة ! فذكرت ذلك لعمر فقال : يا رسول الله ما حديث حدثتني خولة أنك قلته ! قال : ولم يؤذن لك فيهم ؟ قال : لا ! قال : أفلا أؤذّن في الناس بالرحيل ؟ قال : بلي [٣] ، وهذه الرواية توضح لنا فهمها لعدم الإذن في ثقيف ، الأمر الذي دفعها إلى إخبار عمر الذي نتج عنه رحيل المسلمين من الطائف .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/ ٦٣ .

(٢) تاريخ الطبري : ٨٣/٣ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣ /٤٩٦ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ٣٠٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٠/٤ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤/ ٩٢، ٩٣ . وقد قال : إن اسمها خويلة ، الطبري : ٣/ ٨٥ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١ /٣٠٨ ، علي بن برهان الدين الحلبي : السيرة الحلبية ٨١/٣ .

المبحث الثالث :

الغزوات والسرايا التي لم يرد فيها ذكر للمرأة

المتتبع لدور المرأة في مغازيه ﷺ وسراياه ، ربما أثر في سلامة حكمه العدد الكبير من هذه السرايا والغزوات التي لم يرد فيها للمرأة ذكر ، غير أن التأني في فهم طبيعة هذه السرايا والمغازي : ظروفها وأسبابها وعدد من خرج فيها ، وغيرها مما يدخل في معنى الأرضية التاريخية الشاملة للحدث ، يقود إلى فهم واضح وموضوعي .

أولاً : الغزوات التي لم يرد فيها ذكر للمرأة ونتوقع أن تكون قد حضرتها

ومن الغزوات التي لم تذكرالمصادر فيها النساء ، ونتوقع ، مع ذلك ، أن يكنَّ قد حضرنها عدد من الغزوات التي لوحظ أن غياب رسول الله ﷺ فيها عن المدينة كان يطول حتى كان يبلغ في بعضها الشهر والشهرين ، ولقد أستطيع القول بأنه ليس في المصادر التاريخية - حسب ما أدى إليه تطوافي بها - ما يشير إلى أن رسول الله ﷺ كان يغيب عن نسائه هذا الغياب ، وليس معه منهن أحد ، بل إنه كان يشبه المعلوم من أمره ﷺ بالضرورة أن تخرج معه من نسائه من تخرج عليها القرعة ، كما علمنا من قول السيدة عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها النبي ﷺ .. » [1] .

ولقد يشير الحديث بوضوح إلى أن خروج بعض نسائه معه ﷺ كان هو الأساس ، بل إنه لم يرد في هذا السلوك العام أي استثناء يذكر أنهن لم يخرجن معه في بعض مغازيه ، وسراياه . ومن هنا فإنه يحق لنا القول بأنه لم تخل سرية من سراياه ﷺ ، ومغازيه من الصحابيات .

كما أنه لم يكن في هذه السرايا عنصر المفاجأة الذي قد يبرر به عدم خروج النساء ، ولم تكن سرايا صغيرة لأهداف صغيرة محددة . أضف إلى ذلك أن هذه السرايا لم تكن تنتهي بحرب ، فلقد كانت لردع العدو ، واستعراض القوة ، ولم

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ٩٧ ، كتاب الجهاد ، والسير ، باب : حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه . راجع شروح هذا الحديث ، ليتأكد لك أنها لم تعرض لأي استثناء يُخرِج بعض أسفاره ﷺ من هذا الحكم العام بخروجهن معه .

يحدث بها من الحوادث ما اتصل ذكره بالمرأة ، وهو ما يؤكد لدينا أن غياب ذكر المرأة فيها في المصادر التاريخية ، كان ناتجًا عن طريقة المؤرخين الأول في حديثهم عن دور المرأة ، حيث إنهم لم يكونوا يجدون في الأدوار التقليدية ما يدعوهم إلى تأريخها ، والقول فيها .

وهنا ينبغي على الباحث أن يستخدم القرائن و الأمارات ، وأن يستدل بالعمومات على انسحاب الحكم العام بحضور النساء لمغازيه ﷺ على الحكم بحضورهن في هذه السرايا ، والذي سكتت عنه المصادر ، فالسكوت مع وجود تلك القرائن لا ينبغي له أن يعد دليلًا على عدم الحضور ، ومن ثم فإن الدراسة ترى أن حضور النساء في مثل هذه الغزوات داخل في عموم ما ذكر من غزو النبي ﷺ بالنساء . ومن هذه السرايا والغزوات (١) :

– غزوة بني سليم يقودها النبي ﷺ ، وكان قد بلغ الكدر وهو ماء لهم فأقام عليه ثلاثا ثم انصرف ولم يلق كيدًا (٢) .

– غزوة ذي أمر إلى نجد يقودها النبي ﷺ يريد غطفان ، فأقام هناك صفرًا كله من السنة الثالثة ثم انصرف ولم يلق حربًا .

– غزوة الفرع من بُحَرَان ، وكان ، يريد قريشًا فأقام ربيعًا الآخر وجمادى الأولى . ثم انصرف إلى المدينة ولم يلق حربًا (٣) .

– غزوة ذات الرقاع في أربعمائة وقيل : سبعمائة من الصحابة ، فلقي جمعًا من غطفان فتواقفوا ولم يكن بينهم قتال .

– غزوة دومة الجندل (٤) وكان قد بلغ رسولَ الله ﷺ أن بها جمعًا كثيرًا يريدون أن يدنوا من المدينة ، فخرج في ألف من المسلمين فلما نزل بساحتهم لم يجد فيها أحدًا وتفرق أهل دومة فأصاب من أصاب من ماشيتهم ورعاتهم وهرب من

---

(١) لعله أن يكون واضحًا للقارئ الكريم أنني ما عمدت إلى هذا الاستغراق في فهم حقيقة هذا السرايا ، والغزوات إلا من قبيل محاولة الفهم الواضح لحقيقة المشاركة النسائية فيها .

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٩٤ ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/ ١٨٩ .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/١٩٠-. وقد ذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ قد بعث عليها عبد الرحمن بن عوف . ابن هشام : السيرة النبوية : ٤/ ٢٠١ .

(٤) دومة الجندل : هي من دمشق على خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة .

هرب ، فأقام بها أيامًا وبث السرايا ، فلم يصب منهم أحدًا، فرجع إلى المدينة [(١)] .

ثانيًا : السرايا التي لم تشارك فيها النساء وتفسير ذلك

علي أن هناك عددًا كبيرًا من السرايا ، والغزوات التي لم يرد فيها ذكر للمرأة . ولقد يُعَدُّ كبر هذا العدد من السرايا والغزوات التي غابت عنها المرأة - وهو غياب حقيقي في رأي الدراسة - دليلًا عند البعض على مدي هامشية الدور الذي تقوم به المرأة في حالة الجهاد . غير أن القول بهذا قول ينقصه التدقيق ، والفهم لطبيعة هذه السرايا . ومن هنا أجد أنه ينبغي عليَّ أن نتوقف لنتفهم بتأنٍّ طبيعة هذه السرايا .

وليس بغائب عني القول البدهي بأن الدور الجهادي للنساء في ميادين القتال دور غير ملزم للمرأة لزومه للرجل ، وإنما يعنيني من وراء هذا التوقف كباحثة في الميدان التاريخي أن يُفْهَم هذا الغياب على وجهه التاريخي الصحيح ، الذي أجده يتأكد لي عند معاودة النظر في هذه السرايا ، والغزوات .

والوجه التاريخي الصحيح لفهم هذه المسألة هو أن طبيعة هذه السرايا لم تكن تحتمل كثرة من الرجال فضلًا عن النساء ، ولكي يتضح هذا للقارئ جيدًا ، فإننا نعرض لهذه السرايا في عجالة ، فهي إذا ما أريد تصنيفها تنقسم إلى :

١ - سرايا سريعة وقليلة أعداد الرجال

كان تشكيلها في غالب الأحيان من المهاجرين فقط ، وكانت تستهدف عير قريش كمحاولة لضرب قريش في تجارتها وتهديدها في أعظم ثرواتها من جانب ، ولتعويض المهاجرين عن خسارتهم بتركهم الديار والأموال مثل :

- سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر في ثلاثين رجلًا من المهاجرين لاعتراض عير قريش القادمة من الشام وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل .

- سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب إلى بطن رابغ في ستين رجلًا من المهاجرين .

- سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخَرَّار في عشرين راكبًا من المهاجرين .

- غزوة الأبواء ، وهي أول غزوة غزاها ، بنفسه ويقال لها ودان ، وقد خرج في

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٢٥٥ .

المهاجرين خاصة لاعتراض عير قريش .

- غزوة بواط من ناحية رضوى يقودها النبي ﷺ في مائتين من أصحابه .

- غزوة ذي العشيرة يقودها النبي ﷺ في مائة وخمسين ، ويقال : في مائتين من المهاجرين لاعتراض عير قريش الذاهبة إلى الشام ، ولم يكره أحدًا على الخروج .

- سرية نخلة بقيادة عبد الله بن جحش في ثمانية رهط من المهاجرين وكانت في أصلها سرية لرصد قريش ومعرفة أخبارها ، فلما اعترضتهم عير قريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة اعترضوا لها [١] .

- سرية زيد بن حارثة إلى العيص في مائة وسبعين راكبًا ليتعرضوا لعير قريش التي كان يقودها أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ .

- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى الخبط في ثلاثمائة راكب لرصد عير قريش .

ولقد انتهت مثل هذه السرايا المستهدفة للعير من حين صالح الرسول ، أهل مكة بالحديبية ، فلم يكن يرصد لهم عيرًا ، بل كان زمن أمن وهدنة إلى حين الفتح [٢] .

٢ - سرايا تستهدف أفرادًا لا جماعات

وهي سرايا يقوم بها الأفراد القليلون من الصحابة ، وتستهدف أفرادًا لا جماعات فكان طبيعيًا ألا تحضرها النساء مثل :

- سرية قتل كعب بن الأشرف .

- سرية عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهُذَلِي .

- سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق .

- سرية سالم بن عمير لقتل أبي عفك .

٣ - سرايا دعوية

- بعث الرجيع .

- بعث المنذر بين عمرو ، وأصحابه [بئر معونة] .

- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دُومة الجندل ، وكان رسول الله ﷺ قد قال له : « إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم ، فمكث فيهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم رئيسهم الإصبغ بن عمرو الكلبي - وكان نصرانيًا -

---

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٢٧/١ . (٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣٩٠/٣ .

وأسلم معه خلق كثير من قومه ، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الإصبغ .

- سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلًا [١] .

٤ - سرايا هدم الأوثان

- سرية خالد بن الوليد في ثلاثين فارسًا إلى العزى وكانت بنخلة على يوم من مكة .

- سرية عمرو بن العاص إلى سواع وهو صنم لهذيل .

- سرية سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا إلى مناة ، وكانت للأوس والخزرج وغسان .

٥ - سرايا لدفع غارات مفاجئة

- غزوة سفوان (بدر الأولى - بدر الصغرى) وكانت عندما أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة [٢] .. فخرج ، في طلبه فلم يدركه وعاد إلى المدينة .

- غزو الغابة ، وكانت ردًّا على غارة عيينة بن حصن الفزارى على لقاح النبي ﷺ بالغابة [٣] فاستاقها وقتل راعيها واحتملوا امرأته ، فجاء الصريخ إلى المدينة وقيل : يا خيل الله اركبي وتلاحق المسلمون حتى استنقذوا اللقاح كلها . وعادت امرأة الراعي على ناقة رسول الله ﷺ [٤] .

- غزوة السويق وكانت لما أغار أبو سفيان على أطراف المدينة وقطع أصوارًا [٥] من النخل وقتل رجلًا من الأنصار وحليفًا له ، فنذر به رسول الله ﷺ فخرج في طلبه ، وفاته أبو سفيان [٦] .

٦ - سرايا القصاص والتأديب

- غزوة بني لحيان انتقامًا لأصحاب الرجيع [٧] .

- سرية عكاشة بن محصن في أربعين رجلًا إلى الغمر - ماء من مياه بني أسد - فنذر بهم القوم وهربوا وبعث عكاشة

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/ ٤١٥ . (٢) سرح : المال السائم في المرعي من الأنعام .

(٣) موضع قرب المدينة من ناحية الشام ،فيه أموال لأهل المدينة .

(٤) البخاري ٣٥٣/٧ ، ٣٥٥ كتاب المغازي باب غزوة ذي قرد ، وفي الجهاد باب من رأى العدو فنادى بأعلى صوته : ياصباحاه ، صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة ذي قرد ، وأبي داود .

(٥) الأصوار : النخل الصغار .

(٦) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/ ١٨٩ ، ابن سيد الناس : عيون الأثر ٣٤٤/١ .

(٧) خرج ﷺ في مائتين من أصحابه ، فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال ، فسار إلى عسفان .. لتسمع به قريش فيداخلهم الرعب ويريهم من نفسه قوة . ابن هشام : السيرة النبوية ٩٥/٣ .

الطلائع فأصابوا من ماشيتهم مائتي بعير .

– سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعوال .

– سرية زيد بن حارثة إلى الجموم ، ناحية بطن نخل عن يسارها.

– سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرِف في خمسة عشر رجلًا إلى بني ثعلبة وهربت الأعراب فأصاب من نَعمِهم عشرين بعيرًا .

– سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء وهم بطن من بني بكر بن كلاب ، في ثلاثين راكبًا لشن الغارة عليهم ، فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون واستاقوا الإبل والشاة (١) .

وهكذا ، وبعد هذا الاستعراض الذي لم نعمد إليه في ذاته ، وإنما لمحاولة التعرف على طبيعة هذه السرايا كما ذكرنا لتتبين لنا طبيعية عدم مشاركة المرأة في هذه السرايا، وذلك للطبيعة الخاصة لها ، والتي كان عدم وجود النساء فيها داخلًا من الباب نفسه الذي يدخل منه عدم وجود كثير من الرجال كذلك ، فمعظم مشاركة الرجال في تلك السرايا كانت داخلة تحت معنى الفرض الكفائي ، وعليه فإن دخول مشاركة النساء في هذا المعنى كائن بطريق الأولى .

أضف إلى ذلك أن هذه السرايا كان يلزمها عادة خفة في الحركة وسرعة في الكر و الفر، ومن ثم فإن قلة أعدادهن في مقابل أعداد الرجال مع التأكيد على ضعف التسجيل التاريخي لا يعد مؤشرًا على ضعف مشاركتها في الجهاد .

ثالثًا : الغزوات التي توقف البحث في الحكم عليها

ولقد بقيت بعد التطواف في مغازيه ﷺ وسراياه ثلاث غزوات لم تذكر المصادر التاريخية أحدًا من النساء فيها ، لكنني مع ذلك لم أستطع الجزم في حضورهن فيها بقول . وأول هذه الغزوات غزوة بني قينقاع ، في هذه الغزوة لم تذكر المصادر

---

(١) بينما كانت الرسالة تمثل للطبع ، اطلعت على دراسة بريك محمد بريك أبو مايلة : السرايات والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، دراسة نقدية تحليلية ، ووجدته قد قسمها إلى بابين : الأول : السرايا والبعوث النبوية داخل ، وخارج المدينة ، وجعله فصلين : ١ – السرايا الاعتراضية ٢ – البعوث ذات المهمات الصعبة ، سرايا المغاوير . والباب الثاني : السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، وهو في فصلين : ١ – السرايا ذات المهمات الخاصة [تعقبية – تعليمية ودعوية – ذات مهمات خاصة] ، ٢ – سرايا تحطيم الأوثان . فلزمتني الإشارة إلى هذه الدراسة .

أحدًا من النساء - كما لم تعرض أيضا لأسماء الرجال - والواقع أننا نستبعد عدم حضور المرأة لغزوة بني قينقاع ، حيث كانت غزوة قريبة ومُعَدًّا لها ، وكان معروفًا عند العرب أن تتعاون النساء مع الرجال في غزواتهم ، كما ذكرنا في المقدمة .

غزوة بني قينقاع كانت المرأة أحد الأسباب المباشرة لغزو بني قينقاع . روى ابن هشام أنه كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدِمت بجَلَب [١] لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديًا ، فشَدَّتْ يهود على المسلم فقتلوه ، واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأُغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [٢] .

غزوة مؤتة كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، ولم تذكر المصادر التاريخية شيئًا عن حضور النساء فيها إثباتًا أو نفيًا ، فهل نعد مشاركة النساء فيها ، وفي الغزوة التي قبلها داخلة تحت المعنى العام الذي اعتادته العرب من مشاركة النساء والرجال والولدان في الغزو كل بما استطاع ، وإذن فلقد حضرت المرأة حضورها الطبيعي لمداواة المرضي وسقي العطشى وغير ذلك ، ونظرًا لاعتياد هذه الأدوار في حياة العرب ، فإن المؤرخ لم يجد أدوارًا لافتة تستحق التسجيل ؟ !! أم نقول بعدم حضورها ربما لبعد ما بين المدينة ومؤتة . حقيقة الأمر أن البحث لم يستطع الجزم بأي من هذه الاحتمالات .

غزوة تبوك كانت في رجب من السنة التاسعة ، قال ابن سعد : بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام ، فأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها [٣] . وكان رسول الله ﷺ لا يغزوا غزوة إلا ورى بغيرها ؛ لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا حتى كانت وقعة تبوك ، فغزاها في حر شديد ، واستقبل الناس سفرًا بعيدًا وعددًا كثيرًا ، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم بالوجه الذي يريد .

---

(١) الجلب : الجَلَب سوق الشئ من موضع إلى أخر .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ٤ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٣ /٦ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ١٠٤/١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبري ٣٣٢/٢ ، المقريزي : إمتاع الأسماع ٣٢٥/١ .

ولم تذكر المصادر التاريخية شيئًا عن حضور النساء في هذه الغزوة كما حدث في الغزوات السابقة (١) ، إلا أن القرائن والأمارات تأخذنا إلى جانب القول ، دون جزم ، بعدم خروج النساء في هذه الغزوة ، وعلة هذا القول أن هذه الغزوة كانت في زمان من عسرة الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد (٢) ، ولم يكن عدم حضورهن زهادة في الجهاد الذي هذا حاله ، وإنما لقلة الوسائل المعينة على هذا الجهاد ، فلقد كان في هذه الغزوة ما هو مشهور من أمر البكائين والمعذورين الذين ذهبوا لرسول الله ﷺ راغبين في الجهاد فقال لهم : ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ (٣) ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون . وهذا أمر نستدل به على صعوبة حمل النساء بطريق الأولى .

وبادر النساء إلى الجهاد بالمال وقد فاتهن الجهاد بالنفس ، فلقد رغّب عليه السلام أهل الغنى في الخير والمعروف ، فتبادر المسلمون إلى ذلك ، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه ، فكن يلقين - في ثوب مبسوط بين يدي النبي ﷺ - المَسَك ، والمَعَاضِد ، والخلاخل ، والأَقْرِطة ، والخواتيم ، والخدمات (٤) ، فقد أردن - وقد فاتهن الغزو في هذه الغزوة - ألا يفوتهن تجهيز الغازي ؛ رجاء أن ينالهن ما ذكر رسول الله ﷺ ، قال : « من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا » (٥) .

---

(١) راجع غزوة بني قينقاع و غزوة مؤتة على سبيل المثال . والنص الوحيد الذي بين أيدينا أنه ﷺ قد خلف عليًا ابن أبي طالب في أهله ، فقال : يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان ، فقال : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي غير أنه لا نبي بعدي » . ابن هشام : السيرة النبوية ٤/١١٧ ، د.أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني ٢٣٤ ، وكان ﷺ قد استخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وقيل : سباع بن عرفطة ، هذا الاستخلاف لعلي رضي الله عنه على أهله ﷺ لا يتناقض مع حضور غير من تخلف عليهم عليّ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/١١٤ . (٣) التوبة ٩٢ .

(٤) انظر المقريزي : إمتاع الأسماع ١/٣٢٦ ، المسك : مثل الأسورة من قرون أو عاج ، والمعاضد : جمع مِعْضَد ومعضدة : الدُمْلُج من الحلي ، يكون ما بين المرفق إلى الكتف ، والخلاخل : جمع خلخل وخلخال من الحلي . معروف والخدمات مثل الخلاخل .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/٥٥٨ حديث ١٣٢ ، ١٣٣ ، وأخرجه البخاري ٦ /٣٧ في كتاب الجهاد ، باب فضل من جهز غازيًا . تأمل كيف أن الجهاد بالمال شقيق الجهاد بالنفس في القرآن وقرينه ، بل جاء مقدمًا على الجهاد بالنفس في كل موضع إلا موضعًا واحدًا ، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكد من الجهاد بالنفس ، فلا يتم الجهاد بالنفس إلا ببذل المال . انظر على سبيل المثال سورة التوبة الآيات ٢٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٨١ ، ٨٨ ، والأنفال ٧٢ ، والحجرات ١٥ ، والصف ١١ ، والنساء ٩٥ ، وراجع محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

خلاصة نتائج التتبع التاريخي لأدوار المرأة في الجهاد على عهد النبي

أن المرأة فهمت منذ الوهلة الأولى للإسلام دورها في ضوء تكامل الأدوار والاشتراك في تحمل المسئولية بينها وبين الرجل ، كل بما وهب من خصائص وكل ميسر لما خلق له .

ولقد اتضحت لنا ملاحظة منهجية من خلال التعامل مع مصادر دراسة هذا الموضوع ، هذه الملاحظة هي أن المصادر التاريخية لم تعبر عن الحضور النسائي في المعارك تعبيرًا حقيقيًا - على الرغم من الدلالة القوية لما أوردت من صور هذا الحضور - ذلك أن ما ذكر في هذا الصدد كان قائمًا إما على الأدوار غير المألوفة التي كان بروز النساء فيها لافتًا للنظر ، وبقوة ، كما كان ذلك في أحداث غزوة أحد وحنين والخندق ، وإما قائمًا على ما ارتبط من الأحداث بشخصها كما في غزوة المريسيع ، أما الأدوار الطبيعية التي تمارسها في كل الأحيان ، فلم تحظَ بالرصد والتسجيل ، اللهم إلا على وجه العموم .

ولعلنا - ابتعادًا عن اتهام المؤرخ الأول - نحاول أن نعلل هذا الموقف التأريخي بأنه ربما لم يكن يعنيه التأكيد على هذا الحضور الطبيعي الذي ألفه الناس ، واعتادته الممارسة السياسية آنئذ ، ولم يكن هذا الخروج النسائي بدعًا جاء به الإسلام كما مر في قول السيوطي [1] . وربما كانت عدم المشاركة ناتجة عن نقص الإمكانات عامة ، وناتجة أيضًا عن أهمية الدور النسائي في المجتمع والأسرة حال غياب الأزواج والآباء الذي كان يكاد أن يكون عامًا .

أنها لم تشارك في كل المعارك والسرايا ، إما لطبيعة هذه السرايا من حيث السرعة والأهداف المحددة التي لا تستدعي حضورًا كبيرًا ، لا من الرجال ، ولا من النساء ، فكانت تتكون من العدد القليل من الرجال ، قد يكونون من المهاجرين فقط كما كان الوضع في السنة الأولى ، أو من الأنصار فقط كما كانت السرايا الصغيرة التي خرجت من الأوس أو الخزرج لقتل كعب بن الأشرف مثلًا أو قتل ابن أبي الحقيق ، أو أن تكون السرية ليس فيها أنصاري أو مهاجري كما كانت سرية عيينة بن حصن

(١) على أننا اليوم معنيون بتأكيد هذا الحضور ، والبحث عن حقيقته ، لما نال قضية المرأة في الواقع وفي بعض ميادين الفكر الإسلامي - الذي يعنينا أمره - من حيف وظلم بين .

الفزاري إلى بني تميم [١] .

أن حضور النساء كان مرتبطًا دومًا بحركة المجتمع كله ، وكان منسجمًا مع فطرة التكوين الإنساني [٢] ، فلم يكن النداء إلى المعركة ملزمًا للمرأة ، وإنما ترك أمر الجهاد لها في حدود الاستطاعة التي تقدرها كل امرأة بقدرها ، فحضور النساء لم يتوقف عند سن محددة ، أو حالة عائلية معينة ، فلقد حضرت صغيرة السن - في سن البلوغ أو دونه - كما حضرت الكبيرة ، و حضرتها وهي حبلى ، وهو ما يعني أنه ليس هنالك قانون صارم في التعامل مع مسألة جهاد النساء في ميادين القتال، وإنما الأمر لها هي تُكَيِّفُه هي حسب قدراتها ، ومرحلتها العمرية ، والتزاماتها الأُسْرية ، والاجتماعية التي تمثل ميدانها الجهادي الأول .

أن ممارسة النساء للجهاد في هذه المرحلة كانت دالةً على الأحكام الشرعية لجهاد النساء، ومتسمةً بهذه الشرعية ، فالجهاد بصفة عامة ، للرجال والنساء ، هو فرض على الكفاية ؛ لأن المقصود منه أن يأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم ، فجُعل فرضه على الكفاية كي لا تنقطع مصالحهم [٣] . وينبغي أن يكون واضحًا أن « الكفاية » لا تعني كفاية الرجال ، ثم كفاية النساء من بعدهم ، وإنما هي كفاية المجتمع كله في نفس الوقت ، بمعنى أن كلًّا من الرجل والمرأة كانا ينظران ، وفي نفس الوقت إلى أولوياتهما ، وقدراتهما ، ويحددان في ضوء هذا النظر : هل هما داخلان في أهل الكفاية أم لا ، وكانت المرأة لأجل هذه الأولويات محكومة بالأدوار المجتمعية التي لا يستطيع الرجل أن يُغْنِيَ فيها غناءها .

على أن هذا الموقف العام في حكم الجهاد لم يمنع رسول الله ﷺ من أن يُحَوِّل هذا الفرض الكفائي إلى فرض على الأعيان [٤] رجالًا ونساء حين أراد في تخطيطه ،

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٥١٠ .

(٢) انظر في : العلاقة الوثيقة بين قواعد التشريع السياسي الإسلامي ، وبين فطرة التكوين الإنساني : د/ فتحي الدريني : خصائص التشريع الإسلامي : ٨٩ .

(٣) يوسف حامد العالم : المقاصد العامة ٢٥٢، وانظر في أنه لا يخفي أن فرضية الكفاية لا تنفي مشاركة النساء، وفق القدرة والرغبة في القتال المسلح ، والخدمات الإنسانية ، هبة رؤوف عزت : المرأة والعمل السياسي : ١٥٨ .

(٤) انظر في الفروض الكفائية والعينية الموافقات للشاطبي ١/٤٧٧ . ولا يخفى علينا ما انتهى إليه العلماء من أنه حين يدخل العدو ديار المسلمين ، يصبح الجهاد واجبًا على الجميع . انظر الشاطبي السابق ، وأيضًا : عبد العزيز عبد الغني صقر : نظرية الجهاد في الإسلام : ١٤٧ ، وبناءً على هذا ذهب البعض إلى أنها تقاتل في هذه الحالة بغير إذن زوجها . محمد بن الحسن الشيباني : شرح كتاب السير الكبير : ١ / ٢٠٠ .

لغزوة أحد ألا يخرج من المدينة ، وأن يتحصن بها المسلمون ، فإن دخلها المشركون قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة ، والنساء من فوق البيوت - على ما رأينا في سرد الأحداث - وكان هذا هو الرأي [١] .

أنها في المعارك قامت بكل الفاعليات الجهادية - على الرغم من ضعف الرصد التاريخي لذلك كما ذكرنا ، وهو ما جعل بناء هذا المجتمع النموذج بناء إنسانيًّا متكاملًا فهي :

- تعد الطعام للجيش .

- تسقي المجاهدين بالماء والسويق خلال المعركة .

- تمد المجاهدين بالسلاح وتناولهم السهام .

- تحفظ ظهر المجاهدين ، بمراقبة أية حالات من الغدر والالتفاف الخلفي المرتقب ، وتسد الثغرة في غياب المجاهدين .

- تخلف المسلمين في رحالهم .

- تداوي الجرحي ، فتخرج إلى المعركة ومعها الدواء والضمادات ، وربما نصبت لها خيمة بأمر الرسول ، كي تكون مأوى للمصابين والجرحى .

- تحمل جثث الشهداء للدفن .

- أنها قد أصابتها من ذلك الجراحات العظيمة التي بقيت آثارها في جسمها مدى الحياة .

- تشارك في المعركة مشاركة الرجال إذا لزم الأمر فتحمل السيف وترمي بالقوس وتضرب بالخنجر والعمود وتصيب من الأعداء وتقتل منهم ، حتى كان مقامها خيرًا من مقام فلان وفلان من الصحابة كما قال .

إن أسوأ جناية على الأمة أولًا وعلى المرأة ثانيا في العصر الحاضر أن نوهمها بالدونية ومن ثم نحرمها من الدفاع عن نهجها السياسي وغايات أمتها العليا ، فتغرق في توافه الأمور حتى تصبح أداة مضادة لتوجهات الأمة ، في يد أعدائها ، وأعداء الأمة ، وبيدنا

---

(١) كما قال العلماء ، انظر ابن القيم : زاد المعاد ٣ /١٩٢ .

لا بيد عمرو .! ويكفي أن نعرف وفي ذاكرتنا المرأة المعاصرة التي جردوها وعزلوها عن معالي الأمور فغرقت في سفسافها ، يكفي أن نعرف أن حالة واحدة عن تكالب المرأة على الغنائم لم تذكرها المصادر التاريخية ، رغم ما يلصق بالمرأة من رغبة في الدنيا وولع بها .. بل لم تسجل المصادر حالة تخاذل نسائي واحدة .

لقد خرجت المرأة مجاهدة على عين رسول الله ﷺ ، وبمباركته لهذا الخروج ، وبدعائه للمرأة الصحابية بالجهاد ، بل والشهادة التي هي الثمرة العظمى المطلوبة في الغزو . ولقد كان طلبهن من رسول الله ﷺ الدعاء بالجهاد والشهادة دليل على صدق من وقعت له من إعلاء كلمة الله ، حتى بذل نفسه في تحصيل ذلك [١] .

ولقد ذكر الإمام الأكبر الشيخ شلتوت ، في جهاد النساء : وهذا هو أوسع مجال نجد الإسلام قرر فيه مشاركة المرأة للرجل ، ومعاونته ، وهو أبرز مواقف الحياة ، وأشدها [٢] . لقد نبهها الإسلام إلى إنسانيتها ، ثم أضاء الجوانب المعتمة في فكرها وضميرها فأدت رسالتها وانطلقت لا تلوي على شيء من أمر الدنيا ، فعند الجنة فقط يتوقف بصرها وتهدأ آمالها .

---

(١) انظر شرح ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ١٢ .

(٢) الشيخ شلتوت : الإسلام عقيدة ، وشريعة : ٢٢٩ .

المبحث الرابع :

إشكالية الروايات الموحية بمنع المرأة من الجهاد على عهد الرسول ﷺ

إذا كانت الحركة التاريخية لجهاد المرأة على هذا النحو الذي عرضنا له ، والذي كانت تشارك فيه المرأة بكل ما قدرت عليه من مساعدة ومشاركة في القتال إذا لزم الأمر ، فما لهذه الروايات التي وردت في غزوة خيبر و مفادها منع النساء من الجهاد ؟ وهي روايات تتناقض مع الحركة التاريخية الواسعة لجهاد المرأة كما دل التتبع التاريخي . وتتناقض فوق ذلك مع روايات وردت في نفس الغزوة بارك فيها رسول الله ﷺ خروج النساء وأقره [١] ؟ .

هذا ما سوف نعرض له في الروايتين الآتيتين المناقضتين لما انتهينا إليه في التتبع التاريخي ، لنحاول فهم الإشكالية في ذلك .

الرواية الأولى وتحليلها

عن جدة حشرج بن زياد [٢] قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، قالت : فبلغ ذلك النبي ﷺ أن معه نساء ، قالت فأرسل إلينا فدعانا ، قالت : فرأينا في وجهه الغضب ، فقال : ما أخرجكُنَّ ، وبأمر من خرجتن ، قلن : خرجنا نناول السهام ونسقي السويق ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله . قال : « أَقِمنَ » ، فلما فتح الله عليه خيبرًا أخرج لنا سهامًا كسهام الرجال [٣] .

والمتأمل في متن هذه الرواية باحثًا عن سر غضب الرسول ، يجد الآتي :

أولا : أن سؤال الرسول قد توجه إلى أمرين ؛ أولهما : دافع خروجهن ، لأهمية ذلك كما سيتضح الآن . وثانيهما : السؤال عمن أذن لهن في الخروج ، وتلك قضية

---

(١) انظر رواية أمية بنت أبي الصلت عن المرأة الغفارية المذكورة في أحداث غزوة خيبر .

(٢) جدة حشرج بن زياد : هي أم زياد الأشجعية ، روى حديثها هذا رافع بن سلمة بن زياد ، عن حشرج ابن زياد الأشجعي ، عن جدته ، أم أبيه. ابن حجر : الإصابة ٨/ ٣٩٦ . وذكر ابن الأثير « حشرج » ، فقال : له صحبة ، حديثه أن النبي ﷺ أخذه فوضعه في حجره ، فمسح ، ودعا له بالبركة . ابن الأثير : أسد الغابة ٢/ ٣٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ابن الأثير : أسد الغابة ٧/ ٣٢٣ ، ابن حجر : الإصابة ٣٩٦/٨ .

في غاية الأهمية هي الأخري ، والذي يبدو من السؤال أن هؤلاء النساء الست قد خرجن دون أن يستأذن رسول الله ﷺ في الخروج ، وتلك قضية ما ينبغي أن يتهاون فيها قائد أو جندي (١) .

أما دافع الخروج وأهمية السؤال عنه فقضية لا تتضح إلا في سياقها التاريخي :

فلقد قال أنس (٢) : لما رجعنا من غزوة الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (٣) ، وأعطى الله فيها رسوله والمؤمنين خيبرًا (٤) . ولما كان رجاء الغنيمة مؤكدًا بوعد الله تعالي ، أراد رسول الله ﷺ أن يشدد في الخروج كي يستحضر المسلمون نية الجهاد والرغبة فيه وإعلاءها على رغائب الدنيا ، حتى ولو كان وعد الغنيمة من الله تعالي حيث قال سبحانه : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ (٥) ، قال العلماء : يعني خيبر. ولهذا لما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للغزو ، واستنفر من حوله يغزون معه . وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، قال : « لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، وأما الغنيمة فلا » . وبعث مناديًا فنادي : « لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد » (٦) .

فمن هذا القبيل - حسب ما أفهم - كان حرصه ، على معرفة دافع خروج الصحابيات ليطمئن إلى خلوص النية لله وعدم الشرك فيها ، فإذا أضفنا أنه حين استمع إليهن واطمأن إلى دافع خروجهن ، قال : « أقمن » وتغاضى ﷺ عن حقه

(١) انظر في أهمية إذن الإمام للخارجين معه في الغزو : فتح الباري ٦/ ١٤٩ : كتاب الجهاد والسير ، باب استئذان الرجل الإمام لقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .... الآية ٦٢ من سورة النور . وقد ذكر ابن حجر عن ابن التين قوله : « هذه الآية احتج بها الحسن البصري على أنه ليس لأحد أن يذهب في العسكر حتى يستأذن الأمير » . ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ١٥٠ ، وانظر أيضًا : ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١/٣٦٠ ، وانظر الرواية التالية في استئذان الصحابيات للرسول قبل الخروج .

(٢) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري : خادم الرسول ﷺ ، كان يتسمى به ويفتخر بذلك ، وقد خدمه عشر سنين ، وأمه أم سليم بنت ملحان ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة . ابن الأثير : أسد الغابة ١/٢٩٦ .

(٣) سورة الفتح ١ ، وانظر النيسابوري : أسباب النزول ٢٤٥ .

(٤) راجع أحداث غزوة خيبر في مظانها . (٥) الفتح ٢٠ .

(٦) المقريزي : إمتاع الأسماع ١/ ٢٣٥ .

في أن يُسْتَأْذَنَ ، ولو كان أمرُ خروجهن مرفوضًا في ذاته لأمرهن عليه السلام بالرجوع ، ولما تكررت بعد ذلك حالات الخروج النسائي في سبيل الله على ما رأينا خلال الاستعراض التاريخي .

الرواية الثانية وتحليلها

وأما الرواية الثانية ، فلقد روى الطبراني وغيره من طريق الأسود بن قيس [(١)] ، عن سعيد بن عمرو القرشي [(٢)] أن أم كبشة [(٣)] ، امرأة من قضاعة - قالت : يا رسول الله ﷺ ائذن لي أن أخرج في جيش كذا وكذا . قال : لا . قالت : يا رسول الله ﷺ إني لست أريد أن أقاتل ، إنما أريد أن أداوي الجرحى والمرضى وأسقي الماء . قال : « لولا أن تكون سنة ويقال : فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجلسي » . وأخرجه ابن سعد عن ابن أبي شيبة ، وفي آخره : « اجلسي لا يتحدث الناس أن محمدًا يغزو بامرأة » [(٤)] .

والعجيب أن ابن حجر قال بعد إيراده لتلك الرواية : ويمكن الجمع بين هذا وبين ما تقدم في ترجمة أم سنان الأسلمية [(٥)] ، أن هذا ناسخ لذاك ؛ لأن ذلك كان بخيبر ، وقد وقع قبله بأحد كما في الصحيح من حديث البراء بن عازب ، وكان هذا بعد الفتح .

ونقول إنه لم يكن بعد الفتح سوى غزوة حنين وغزوة الطائف وغزوة تبوك ، وما عدا ذلك كانت سرايا صغيرة للدعوة أو لهدم الأوثان ، فأما حنين والطائف فقد خرجت فيهما المرأة كما دلت الروايات الصحيحة الصريحة كما ذكرنا قبل ، وأما تبوك فإن النساء لم يحضرنها - كما رجحنا - لما ذكرنا من المشقة وبعد الشقة ونقص الإمكانات ، ومن عدم وجوب الجهاد عامة على النساء ، ووقوع تكليفها به تحت معنى الجواز لا الوجوب كما بيّنّا .

---

(١) الأسود بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي : الإمام القدوة ، وهو خال إبراهيم النخعي ، كان مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام ، حدث عن عدة من الصحابة. الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/٥٠ .

(٢) سعيد بن عمرو بن العاص القرشي الأموي : نزيل الكوفة ، حدث عن عدد من الصحابة ، وثقه النسائي وغيره . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥/٢٠٠ .

(٣) لم تذكر المصادر عنها غير ما ذكرنا من روايتها التي بالمتن ، غير أن ابن الأثير زاد في اسمها : أنها : العُذْرية . ابن الأثير : أسد الغابة : ٧/ ٣٧١ ، ابن حجر : الإصابة ٨/ ٤٥٥ .

(٤) ابن حجر : الإصابة ٨/٤٥٥ ، ابن الأثير: أسد الغابة ٣٧١/٧ ، كحالة : أعلام النساء ٢٣٣ ، ابن الجوزي تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٨٧ .

(٥) راجع ذلك فيما مر في غزوة خيبر .

وإذا سلمنا جدلًا أنه قد أمكن الجمع بين هذه الرواية ورواية أم سنان الأسلمية بدعوى النسخ التي ذكرها ابن حجر فكيف يمكن الجمع بينها وبين كل ما مر من أحاديث غزو النساء مع الرجال التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم وتواترت بها الأخبار الصحيحة من السيرة النبوية والتي يعود زمنها إلى ما بعد فتح مكة ومرت في ثنايا هذا الفصل ؟ .

وأما قول الرواية : « لولا أن تكون سنة » فلقد صار خروجهن سنة فعلًا كما دل الاستعراض التاريخي ، ولكننا على كل حال سنحاول تقديم بعض الأدلة من روايات يرجع زمنها إلى ما بعد الفتح لندلل على فساد دعوي النسخ التي ذكرها ابن حجر والتي أسسها على اعتبار أن هذه الرواية محل الدراسة إنما كانت بعد الفتح :

الممارسة العملية للصحابيات والتابعيات وخروجهن في القادسية واليرموك وغيرها من معارك الفتوح الكبرى ، وسوف نعرض لها لاحقًا .

آراء العلماء في الإجماع على غزو النساء وخروجهن ، وهو ما سوف نتوقف عنده مع الإمام البخاري ، وتصنيفه الدال على رأيه في هذا الأمر ، والدال في نفس الوقت على الممارسة الفعلية لجهاد الصحابيات رضوان الله عليهن .

تصنيف البخاري لأدوار الصحابيات في الجهاد

كان البخاري رحمه الله صاحب منهج رصين في تصنيفه ، وعنونته للأبواب الفقهية التي يضع تحتها الأحاديث ، قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، فيما ذكره الإمام ابن حجر : « اعلم أن البخاري رحمه الله يذكر الحديث في كتابه في مواضع ، ويستدل به في كل باب بإسناد آخر ، ويستخرج منه بحسن استنباطه ، وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه . وقال مسلم وغيره : لم يبلغ أحد مبلغه في استنباط المعاني ، واستخراج لطائف فقه الحديث ، وتراجم الأبواب الدالة على ماله صلة بالحديث المروي [1] .

والواقع أن البخاري قد صنف في كتاب الجهاد والسير عدة أبواب تحتاج وحدها نظرًا بعيدًا ، وتأملًا عميقًا فيما كان يرمي إليه من عناوين هذه الأبواب ، التي ينبغي أن نشير إلى أن مقصود البخاري في هذه الأبواب التي سنذكرها لم يكن الاقتصار

(١) انظر : ابن حجر : هدي الساري مقدمة فتح الباري : ٨ ، ١١، ١٢، ١٦

على الأحاديث فقط ، وإنما كان مراده الاستنباط منها ، والاستدلال لأبواب فقهية أرادها من إيراده لتلك الأحاديث .

وهذه الأبواب التي صنفها البخاري تتحدث جميعها عن أدوار فعلية قامت بها الصحابيات في ميادين الجهاد . وسوف نكتفي هنا بذكر بعض من أسمائها الدالة بذاتهاعلي ما نود الإشارة إليه من وجود الممارسة الفعلية لعملية الجهاد من الصحابيات ، مع رسول الله ﷺ .

وهذه الأبواب هي :

- باب الدعاء بالجهاد ، والشهادة للرجال ، والنساء [١] .
- باب جهاد النساء [٢] .
- باب غزو المرأة البحر [٣] .
- باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه [٤] .
- باب غزو النساء ، وقتالهن مع الرجال [٥] .

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ١٢ . ولقد جاء في حديث هذا الباب أن أم حرام بنت ملحان طلبت من رسول الله ﷺ أن يدعو لها بالجهاد ، فدعا لها ، وبشرها بأنها ستكون في الأولين . ومن هذه الرواية في أم حرام أُخِذ حكم الدعاء بالجهاد ، والشهادة للرجال بطريق الأولى . راجع شرح ابن حجر في الفتح : ١٢/٦، وراجع أيضًا ابن عساكر : تراجم النساء : ٢٨٦ ، وما بعدها .

(٢) البخاري : صحيح البخاري من كتاب فتح الباري : ٦/ ٩٤ .

(٣) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ٩٥ . تأمل كيف ذهب بعض العلماء ، ومنهم مالك [ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ١٠٩] – رغم صراحة هذا الحديث ، ووضوحه في التدليل على خروج النساء في غزو البحر – إلى منع المرأة من ركوب البحر مطلقًا . ولقد ركبته الصحابيات ، ومنهن أم حرام بنت ملحان ، وفاختة بنت قرظة ، على عهد عثمان ﷺ ، في جيش معاوية إلى قبرص ، وذلك بعد أن بشر رسول الله ﷺ أم حرام بذلك ، في هذا الحديث الصحيح الذي جاء في هذا الباب .
علي أن الجمهور قد عارض بهذا الحديث قول مالك هذا . ولقد أشير إلى هذا لأجل التدليل على ما أومن به من أن هناك الكثير من القضايا المشكلة في حياتنا الفكرية يمكن أن نجد لها الحلول المثلى بالبحث في الممارسات الفعلية للصحابة في القرن الأول المجيد ، ولأُدلل في الوقت نفسه على خطورة الاحتجاج بالفقه على السنة الفعلية الصحيحة .

(٤) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ٩٧ .

(٥) السابق نفسه : ٦/ ٩٧ .

- باب حمل النساء القِرَب إلى الناس في الغزو [١] .
- باب مداواة النساء الجرحى في الغزو [٢] .
- باب رد النساء الجرحى ، والقتلى [٣] .
- باب ذكر أم سليط [٤] .
- باب فضل من يُصْرَع في سبيل الله فمات فهو منهم [٥] .
- باب ركوب المرأة البحر [٦] .
- باب ما قيل في قتال الروم [٧] .

ولقد قال الصنعاني تعليقا على رواية البخاري في استئذان عائشة النبي ﷺ للجهاد : قالت عائشة : استأذنت النبي ﷺ في الجهاد فقال : « جهادكن الحج » ، وفي لفظ له آخر فسأله نساؤه عن الجهاد فقال : « نعم ، الجهاد الحج » . على أنه لا يجب [٨]

(١) السابق نفسه : ٦/ ٩٨.
قال ابن المنير : بوب البخاري على قتالهن ، وليس هو في الحديث [حديث عائشة، وأم سليم ، وسقيهن الماء في أحد] ، فإما أنه يريد أن إعانتهن للغزاة غزو، وإما أن يريد أنهن ما ثبتن لسقي الجرحى ، ونحو ذلك ، إلا وهن بصدد أن يدافعن عن أنفسهن ، وهو الغالب . ابن حجر : فتح الباري : ٦/ ٩٧ .
(٢) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب فتح الباري : ٦/ ٩٩ .
(٣) السابق نفسه : ٦/ ١٠٠ .
(٤) السابق نفسه : ٧/ ٤٦٥ ، وهو عن دور أم سليط في غزوة أحد .
(٥) السابق ، كتاب الجهاد :٦/ ٢٢ ، حديث : ٢٧٩٩، ٢٨٠٠ . وهذا الباب ترجم فيه البخاري لأم حرام بنت ملحان ، ومصرعها من على دابتها ، لما كانت خرجت في عهد عثمان بن عفان لغزو قبرص ، وكان ﷺ قد بشرها أنها تكون مع المجاهدين في البحر ، وكان قد وصفهم بأنهم كالملوك على الأسرة في الجنة . فهو تقرير منه ﷺ لجهادها رضي الله عنها .
(٦) المصدر السابق : ٦/ ١٠٩ .
(٧) المصدر السابق : ٦/ ١٢٧ . وفيه : قال عمير ، حدثتنا أم حرام أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا » قالت أم حرام : فقلت : يا رسول الله أنا فيهم ؟ قال : «أنت فيهم » [أوجبوا : أي فعلوا فعلًا وجبت لهم به الجنة] . وقال ابن حجر في ترجمة البخاري لهذا الباب : قوله : باب ما قيل في قتال الروم أي من الفضل .
(٨) والواجب شرعًا هو ما طلب الشارع فعله من المكلف ، طلبًا حتمًا اقترن طلبه بما يدل على تحتيم فعله ، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحتيم أو دل على تحتيم فعله ترتيب العقوبة على تركه ، أو أية قرينة شرعية أخرى . والجائز عند الأصوليين هو المباح الذي خير الشارع المكلف بين فعله وتركه ، فلم يطلب الشارع أن يفعل المكلف هذا الفعل ولم يطلب أن يكف عنه ، والأصل في الأشياء الإباحة . عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ١٠٥ .

الجهاد على المرأة ، وعلى أن الثواب الذي يقوم مقام ثواب جهاد الرجال حج المرأة وعمرتها .. وقال : وأما جواز الجهاد لهن فلا دليل في الحديث على عدم الجواز [١] .

والشيء نفسه فعله مسلم فصنف بابًا في « غزوة النساء مع الرجال » ، وفعله الدارمي ، فصنف : باب : « النساء يغزون مع الرجال » [٢] وذكر الإمام النووي في شرحه لحديث أم سليم واتخاذها الخَنجر يوم حنين [٣] أن في هذا الغزوة بالنساء ، وقال : وهو مجمع عليه.

وعلى حين ذكر ابن قيم الجوزية فيما اشتملت عليه غزوة أحد من الأحكام والفقه : « أنه لا يأذن الإمام لمن لا يطيق القتال .. بل يردهم إذا خرجوا كما رد عبد الله بن عمر ومن معه من غير البالغين » ، فإنه لم يذكر شيئًا من عدم الإطاقة في أمر النساء ، بل أتبع ذلك بقوله : ومنها جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد [٤] .

وفي ذكره لما اشتملت عليه غزوة الطائف من الأحكام قال : جواز غزو الرجل وأهله معه [٥] ، فقد خرج رسول الله ﷺ ومعه أم سلمة وزينب .

وعليه فإن هاتين الروايتين القائلتين بمنع النساء من المشاركة في عمليات الجهاد تعدان مخالفتان للثابت من الحديث النبوي ومخالفة للثابت من السيرة النبوية [٦] ، وتصبح الإشكالية بعد هذا الاستعراض أمرا لا محل له .

---

(١) الصنعاني : سبل السلام ٤/٦٣ . (٢) سنن الدارمي : كتاب الجهاد : ٢/ ٦٥٦ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة النساء مع الرجال حديث ١٢٣ ، ١٢٤ ، وانظر حديث ١٢٥ والحديث فيه عن غزوة أحد و ١٢٦ الحديث فيه عن غزو النساء عامة .

(٤) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ٣/٢١١. قارن هذا بما ذكره د. مهدي رزق الله : السيرة النبوية (ص ٤٠٣) في نفس المقام ، فقد ذكر نفس كلام ابن القيم وزاد من عند نفسه « فيما دون القتال مثل السقي والتطبيب » !! . زيادة لا تنسجم مع التطبيق ، والممارسة الفعلية ، التي شملت كافة الأدوار التي تطيقها المرأة ، وكان منها الجهاد القتالي ، الذي أطاقته بعض النساء .

(٥) ابن قيم : السابق ٣/ ١١ . وقارن ذلك بزيادة د. مهدي : السيرة النبوية (ص ٤٠٣) : « إذا كانت الظروف مواتية لذلك » .

(٦) انظر دراسة دكتور الأدلبي : منهج نقد المتن عند علماء الحديث . لا شك أن هذا القول من واحد من علية علمائنا كابن حجر دليل على أن قضية المرأة ، وتقرير موقفها في هذه الجزئية ، على سبيل المثال ، لم تكن محل نظر ، ولو توقفوا عندها مليًا ما أخطأهم الرأي السليم .

الفصل الثاني

دور النساء في حروب الردة

بدأت حركة الردة عن الإسلام أواخر حياة رسول الله ﷺ ، واشتدت ، واستعظم خطرها في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ . والواقع أن ثمة إشكال غير هين يعترض الباحث ، وهو ينظر في دور المرأة إزاء حركة الردة ، ذلك أن المصادر التاريخية لم تعبر عن موقف المرأة إزاء هذا الحدث الجلل بما يستحقه ، أو بما نراه معبرًا التعبير الطبيعي عن موقفها حين يحدث مثلُ هذا الحدث ، فدور المرأة الصحابية ، أو رد فعلها الذي نتوقعه منها إزاء حركة الردة التي كانت خطرًا محققًا على الدين الذي دافعت عنه : اعتناقًا له ، ودفاعًا عنه ، وهجرةً ، وجهادًا في سبيله .

هذا الدور لم يأت في المصادر التاريخية على الحجم الذي كنا نتوقعه ، فكان حجمًا من التواضع بحيث لا ينسجم مع حجم الحركة المرتدة ، وخطورتها .فهل يمكن أن نتصور أن رد فعلهن إزاء هذه الحالة كان من الضعف الذي لم يواز معه ، بل لم يقارب ، بل لم يكن شيئًا أمام الموقف المضاد للنساء المرتدات اللاتي وصلن في ردتهن إلى مستوى قيادة الجيوش المرتدة ، بل ومستوي ادعاء النبوة ؟ !.

إن المصادر التاريخية التي بين أيدينا – فيما أدى إليه بحثي – لم تعرِض إلا إلى ثلاث صور من صور التعبير عن دور النساء في هذه الحركة .

علي أن هذه الصور الثلاث الباقية تستطيع إذا ما تجاهلنا صغر العدد أن تُكوِّن صورة مشرفة ، وأن توضح الدور الشديد الخطر، والعظيم التعبير عن مدى همِّ المرأة المسلمة ، وعنايتها بهذه الحركة السياسية المرتدة ، والمضادة للدين الذي لما يزل ينحت طريقه في الدنيا .

وهذه الصور الباقية الشديدة الخطر تؤكد في نفس الوقت ما كنا انتهينا إليه قبلُ من أن الرواة لروايات المصادر التاريخية عن المرأة لم يكونوا يسجلون من أدوار المرأة إلا ما اشتد بروزه ، وشَدَهَ الانتباه ، وهو ما يدعونا كذلك إلى عدم اعتبار أن المذكور في هذه المصادر هو كل ما كان لها من دور في أحداث الردة .

علي أن هذا الكيف المُشرِّف لا يلفتنا عن النظر الموضوعي الباحثِ عن الحقيقة في حجم هذا الخروج ، ومدى اعتبار أن ما جاءت به المصادر هو الحقيقة كلها ، أو هو

الحقيقة المنقوصة .

ولعله من الأهمية أن نؤكد بدايةً أن مفهومنا للدور النسائي لا ينحصر في الدور الحربي فقط ، وحضورهن للمعارك ، ومن بديهي القول أننا لا نعني أن يكون حضورهن للمعارك مساويًا لحضور الرجل ، أو نظيرًا له ، وإنما ينظر البحث في كل الأدوار والمشاركات الممكنة في ميدان القتال ، وفي غيره من ميادين المشاركة .

وفي هذا الفصل سنعرض لهذه الأدوار الثلاثة : أولها في دور المرأة في حركة الردة على عهد رسول الله ﷺ ، والدوران الآخران عن دورها في هذه الحركة على عهد أبي بكر الصديق ﷺ .

وعن دور المرأة إزاء حركة الردة في عهد الصديق ، سنبحث في إشكالية الحجم المتواضع لهذا الدور ، وهي إشكالية تمس حجم الدور لا كيفه كما سوف يتبين ذلك من النظر في الروايات الثلاث التي عبرت عن أدوارٍ شديدةِ التميز .

ومن أجل أن يتضح ما نعنيه من كون الأمر داخلًا في معنى الإشكال كان لازمًا للمبحث أن يحتوي على توضيح لحجم حركة الردة ، ومدى خطورتها على أركان العقيدة الإسلامية .

المبحث الأول :

دور المرأة في حركة الردة

على عهد رسول الله ﷺ

بدأت حركة الردة أواخر عهد رسول الله ﷺ ، فكان الأسود العنسي [١] باليمن ، وطليحة الأسدي [٢] في بني أسد قد ارتدا في حياة رسول الله [٣] . غير أن الذي انتهت أكذوبة ادعائه للنبوة في حياته ﷺ كان هو الأسود العنسي .

وكان للمرأة في إنهاء هذه الأكذوبة الدور البعيد الأثر . وتمثل هذا الدور فيما قامت به آزاد [٤] امرأة شهر بن باذام [٥] ، على ما سوف نرى .

كان موقف هذه المرأة الصالحة من المواقف التي كان لها الفضل الأعظم في عودة أهل اليمن وحضرموت مرة أخرى إلى حظيرة الإسلام بعدما كان الأسود العنسي المتنبئ الكذاب استحوذ على اليمن ، وكاد أن يُخرج الإسلام منه .

فتنة الأسود العنسي كان الأسود قد ادعى النبوة وكتب إلى عمال رسول الله ﷺ على اليمن : أيها المتمردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه ، ثم ركب فتوجه إلى

---

(١) الأسود العنسى : هو عبهلة بن كعب بن غوث ، من بلد يقال لها : كهف خُبَّان ، وقال ابن كثير : من كهف جنان . تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣١١ .

(٢) طليحة الأسدي : هو طليحة بن خويلد الأسدي ، الفقعسيّ ، كان قد قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني أسد ، وكان أحدهم قد قال لرسول الله ﷺ : أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ، ولم تبعث إلينا بعثًا ، فنزلت فيهم : « يمنون عليك أن أسلموا .. » ، وكان طليحة قد ارتد ، وادعى النبوة ، فلقيهم خالد بن الوليد ببزاخة فأوقع بهم ، وهرب طليحة إلى الشام ، وأسلم بعد وحسن إسلامه ، وأنشد في صحة إسلامه شعرًا ، قدم على عمر بن الخطاب في طريقه إلى الحج ، فقال له عمر : إني لا أحبك بعد قتل الرجلين الصالحين : عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم - وكانا طليقين لخالد ، فلقيهما طليحة ، وأخوه فقتلاهما - ، فقال طليحة : هما رجلان أكرمهما بيدي، ولم يهني بأيديهما . وشهد الفتوح مع المسلمين ، وأبلى فيها بلاءً حسنًا . ابن حجر : الإصابة ٣/ ٤٤٠ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢٩ في تنبؤ الأسود ، ٢٥٦ في تنبؤ طليحة .

(٤) قال ابن كثير : اسمها زاذ . البداية والنهاية : ٦/ ٣١٢ .

(٥) كان باذام هو عامل كسري على اليمن ، وكان هو الذي أمره كسرى - بعدما مزق رسالة رسول الله ﷺ التي دعاه فيها إلى الإسلام - قائلًا : ابعث من قبلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب ، =

نجران فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه ، ثم قصد صنعاء ، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا ، فغلبه الأسود وقتله ، وكسر جيشه من الأبناء (١) ، واحتل صنعاء .. وتزوج امرأة شهر بن باذام .

فلما كان ذلك انحاز عمال رسول الله ﷺ (٢) إلى الطاهر بن أبي هالة (٣) ، عامل رسول الله ﷺ على حضرموت ، ورجع بعضهم إلى المدينة (٤) ، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي ، وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة (٥) . ولما صار الأمر إلى هذا عامَلَه المسلمون « بالتُّقية » ، والمداراة ، وعامله أهل الكفر بالردة ، والرجوع عن الإسلام (٦) .

وكان الأسود قد أسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث (٧) ، وأسند أمر الأبناء

= الذي يزعم أنه نبي ، فابعثه إليَّ في جامعة . فلما جاء الكتاب باذام ، بعث من عنده أميرين عاقلين ، وقال لهما : اذهبا إلى هذا الرجل ، فانظرا ما هو ، فإن كان كاذبًا فخذاه في جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى ، وإن كان غير ذلك فارجعا إليَّ فأخبراني ما هو ، حتى أنظر في أمره ، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فوجداه على أسدِّ الأحوال وأرشدها ، ورأيا منه أمورًا عجيبة ، يطول ذكرها ، ومكثا عنده شهرًا ، حتى بلغا ما جاءا له . فقال لهما رسول الله ﷺ : ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربي قتل الليلة ربه [يعني كسرى] فأرخا ذلك عندهما ، ثم رجعا سريعًا إلى اليمن فأخبرا باذام بما قال لهما ، فقال : أحصوا تلك الليلة ، فإن كان كما قال فهو نبي ، فجاءت الكتب من عند ملكهم بتصديق خبر رسول الله ﷺ ..... ودخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن ، وبعث باذام إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، فبعث إليه بنيابة اليمن بكمالها ، فلم يعزله عنه حتى مات . فلما مات باذام استناب رسول الله ﷺ ابنه شهر بن باذام على صنعاء ، وبعض مخاليف ، وبعث طائفة من أصحابه نوابًا . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(١) الأبناء : هم أولاد الفرس الذين استوطنوا اليمن .

(٢) كان رسول الله ﷺ قد أناب شهر بن باذام على صنعاء وبعض مخاليف حولها ، وبعث معه طائفة من أصحابه ، بعث أولًا عليًا ، وخالد بن سعيد ، ثم بعث أبا موسى الأشعري ، والطاهر بن أبي هالة ، ويعلى بن أمية ، وعمر بن حزم ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي ، وعُكاشة بن ثور على السكاسك ، والسكون ، ومعاوية بن كندة ، وبعث معاذًا معلمًا لأهل البلدين اليمن وحضرموت يتنقل من بلد إلى بلد . انظر : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣١٠ .

(٣) الطاهر بن أبي هالة : التميمي الأسدي ، ابن السيدة خديجة رضي الله عنها ، وأخو هند بن أبي هالة ، ربيب رسول الله ﷺ . ابن حجر : الإصابة ٣/ ٤١٨ .

(٤) رجع عمرو بن حرام ، وخالد بن سعيد . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٠ . وكان معاذ بن جبل قد فر ، واجتاز بأبي موسى الأشعريّ ، وانحازا إلى الطاهر بن أبي هالة . تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٦/ ٣١١، ٣١٢ .

(٦) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٠ .

(٧) قيس بن عبد يغوث المرادي : هو قيس بن المكشوح المراديّ ، قال ابن الكلبي : هو هبيرة بن عبد =

إلى فيروز الديلمي ، وهو ابن عم آزاد [١] ، وإلى داذويه الفارسي ، وكانوا مسلمين يستخفون عنه بإسلامهم . فبينما هم على ذلك إذ جاء كتاب رسول الله ﷺ يأمر المسلمين فيه بالقيام على دينهم ، والنهوض في الحرب ، والعمل في الأسود إما غيلة ، وإما مصادمة ، وأن يُبلِّغوا عن رسول الله ﷺ من رأوا أن عنده نجدةً ، ودينًا [٢] .

فاهتاج [٣] المسلمون من كل مكان باليمن عندما وصلهم كتاب رسول الله ﷺ وكاتبوا بعضهم بعضًا ، وكاتبوا فيروز الديلمي ، وداذويه ، وجشيش بن الديلمي [٤] ، وغيرهم ممن كان ملاصقًا للأسود ، فكاتبهم ، ومن معه ، وأمروهم أن لا يحركوا شيئًا حتى يبرموا الأمر [٥] . وهنا كان دور آذاد .

دور آذاد امرأة شهر ابن باذام

جاءت الرواية المفصلة لهذا الدور على لسان جُشَيْش بن الدَّيلمي ، وفيروز الديلمي اللذين تنتهي إليهما روايات السري ، عن شعيب ، عن سيف بن عمر . والاثنان : جشيش ، وفيروز شاهدان مباشران للأحداث . وقد جاءت رواية جشيش عند سيف من طريقين [٦] ،

= يغوث ، وقال أبو عمر : هو عبد يغوث بن هبيرة بن هلال بن الحارث البجليّ ، وقال أبو موسى : قيس بن عبد يغوث بن مكشوح . اختلف في صحبته ، وقررها ابن حجر ، وله ذكر في الفتوح مع سعد بن أبي وقاص . وهو الذي أعان على قتل الأسود العنسيّ الذي ادعى النبوة باليمن . كان فارسًا شجاعًا ، وهو ابن أخت عمرو بن معد يكرب . ابن حجر : الإصابة ٤٠٦/٥ .

(١) فيروز : الديلميّ ، اليماني ، صحابي ، له أحاديث ، وهو الذي قتل الأسود العنسى الذي ادعى النبوة في زمن النبي ﷺ ، ومات في زمن عثمان ، وقيل : بل في زمن معاوية ، بعد الخمسين . تقريب التهذيب : ١٦/٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ٣٠٥/٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٣١/٣ .

(٣) اهتاج : ثار ، يقال اهتاج به الدم ، وهاجه .

(٤) جشيش الديلمي : قال السريّ : جُشَيْش ، وقال عبيد الله بن سعد الزهريّ : جشنس . تاريخ الطبري ٢٣١/٣ .

(٥) عمل المسلمون في ذلك أمرًا كثيفًا ، فاعترض على الأسود عامرُ بن شهر ، وذي زود ، وذي مران ، وذي الكلاع ، وذي ظُلَيم . وكان ﷺ قد كتب إلى أهل نجران ، إلى عربهم ، وساكني الأرض من غير العرب ، فثبتوا وتنحوا إلى مكان واحد . تاريخ الطبري ٣/ ٢٣٢ .

(٦) روى أبو جعفر الطبري هذه الرواية من طريقين ، أحدهما : عن السريّ ، عن شُعَيب ، عن سيف . ورواها أيضًا من طريق عبيد الله [ابن سعد الزُّهريّ] ، فقال : وحدثني عبيد الله ، قال : أخبرنا عمي ، قال : أخبرنا سيف . والروايتان عن سيف ، قال : أخبرنا المستنير بن يزيد ، عن عروة بن غزية الدَّثِنيّ ، عن الضحاك بن فيروز ، عن جشيش بن الديلمي . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣١ .

وجاءت الرواية عن فيروز من طريق واحد [١] . وكل رواية من الثلاث جاءت من طريق غير الذي جاءت منه رواية الآخر ، مما يؤكد الرواية كلها ، وقد أشار ابن حجر إلى بعض هذه القصة ، وذكر أن يعقوب بن سفيان [٢] ، والبيهقي قد رويا في « الدلائل » هذه الرواية [٣] ، مع الإيماء إلى أنه ليس في رواة هذه الروايات من ناله الطعن في رواياته .

قيمة هذا الدور ودلالته

وملخص الروايات السابقة فيما يخص دور آذاد هو ما ذكره جُشيش ، قال : دخلتُ على آذاد ، وهي امرأة شهر التي تزوجها الأسود العنسي ، فقلت لها : يا ابنة عم ، قد عرفتِ بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك ، وطأطأ في قومك القتل [٤] ، وسفل بمن بقي منهم [٥] ، وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ! ، فقالت : على أي أمره، قلت : إخراجه ، فقالت : أو قتله ، قلت : أو قتله ، قالت : نعم [٦] .

كانت رضي الله عنها كما قال ابن كثير: مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ ، ومن الصالحات [٧]. ولقد كان هذا الوصف الذي ذكره ابن كثير واضحًا في قولها لجُشَيْش لما طلب منها المعاونة ، والممالأة على هذا العنسي الكذاب ، حيث قالت : نعم ، والله ما خلق الله شخصًا أبغض إليَّ منه ، ما يقوم لله على حقٍّ ، ولا ينتهي له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأعلموني أُخبرْكم بمأْتَي هذا الأمر [٨] .

---

(١) جاءت الرواية على لسان فيروز كما قال الطبري : حدثني السري ، قال : حدثني شعيب ، قال حدثنا سيف ، عن أبي القاسم ، وأبي محمد ، عن أبي زُرعة يحيي بن أبي عمرو الشيباني ، من جند فلسطين ، عن عبد الله بن فيروز الديلمي ، أن أباه حدثه : « ...الرواية » وهي لا تختلف عن الرواية التي ذكرها جشيش إلا في الألفاظ التي عبر بها كل منهما عن الأحداث ، وزيادات عند كل واحدة منهما لا تناقض فيها الأخرى ، بل تؤكدها . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٦.

(٢) يعقوب بن سفيان : الفارسي ، أبو يوسف الفسوي ، ثقة حافظ ، مات سنة ٧٧ هـ ، وقيل بعد ذلك ، خرج له الترمذي ، والنسائي . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٣٧ .

(٣) فتح الباري : ٨/ ١١٧ ، كتاب المغازي ، باب : قصة الأسود العنسي .

(٤) طأطأ فيهم القتل : أي أسرع فيهم القتل . (٥) سفل بهم : أي حط من قدرهم .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/ ٢٣٢ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣١٢ .

(٨) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٢ . وراجع : محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : ٣٣٧ .

إن الذي حركها وشجعها على القيام في هذا الأمر هو أن الأسود العنسي ليس ممن ينتهي عن الحرمات ، أو يرعى الحقوق ، وكأني بها لم تلفت إلى تفاصيل ما أصابها، وأصاب زوجها ، وقومها من هذا الرجل ، فكان تركيزها القولَ على حقوق الله ومحارمه . وكانت رضي الله عنها حازمة حكيمة ، حين أجابت إلى الممالأة على قتله ، لا على إخراجه ، معرفةً منها بأنه شر لا يُتَجنب أو يُحَارَب إلا باستئصاله .

وكان الأسود العنسى كاهنًا معه شيطان وتابع يلازمه ، ويخبره ببعض الأمور ، فأخبره أن قيسًا بن عبد يغوث يمالئ عليه ، فواجه الأسود قيسًا بهذا القول ، فقال له قيس ، تَقِيّةً : إنه ليس من الحق أن أقتلك ، وأنت رسول الله ﷺ فمُرْ بي بما أحببت ... فإما قتلتني فموتة أهون عليَّ من موتات أموتها في كل يوم . فرقَّ له فأخرجه ، فخرج ، وأخبر أصحابه بضرورة السعي الجاد للتخلص منه [١] . فعاد جشيش إلى آذاد فأخبرها بعزيمتهم ، لتُخبرهم بأمرها ، فقالت : هو متحرّز متحرس [٢] ، وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه ، فإنكم دون الحرس ، وليس دون قتله شيء . وقالت : إنكم ستجدون سراجًا ، وسلاحًا .

بينما كان جشيش خارجًا من عندها تلقاه الأسود ، وهو خارج من بعض بيوته ، فقال له : ما أدخلك عليَّ ، وجعل يوْجأ رأسه حتى سقط ، وكان الأسود شديدًا . لولا أن آذاد صاحت فأدهشته عن جشيش قائلة : ابن عمي جاءني زائرًا ، فقَصّرتَ بي [٣] ، ! فقال لها : اسكتي لا أبا لك ، قد وهبته لكِ [٤] . ولولا فعلها لكان قتله كما يقول جشيش [٥] . قال جشيش : فأتيت أصحابي : فقلت : النَّجاء ! الهرب ! وأخبرتهم الخبر ، فإنا على ذلك حيارى ، إذ جاءني رسولها : لا تَدَعَنَّ ما فارقتُك عليه ، فإني لم أزل به حتى اطمأن .

فقلنا لفيروز : ائتها فتَثَبَّت منها ، فأما أنا فلا سبيل إلى الدخول بعد النهي .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٣ .

(٢) متحرِّز ، متحرِّس : متحرز : أي جعل نفسه في حِرْز ، والحِرْز الموضع الحصين ، نقول : هو في حرز لا يوصل إليه . ومتحرِّس : محفوظ بالحُرَّاس .

(٣) قصّرتَ بي : المُقَصِّر : الذي يُخِسُّ العطاء ، ويقلله . وهو هنا بمعني التقليل من شأنها .

(٤) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٤ .

(٥) تاريخ الطبري ٣/ ٢٣٤ .

ففعل ، فقالت له : كيف ينبغي لنا أن ننقّب على بيوت مبطنة [١] ! ينبغي لنا أن نقلع بطانة البيت ، فدخلا فاقتلعا البطانة ، ثم أغلقا البيت الذي نقبوا فيه ، وجلس عندها كالزائر ، فدخل عليها الأسود فاستخفته غيرة ، فأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ، فصاح به وأخرجه .

غير أنها لم تكتف بهذا بل جعلت توبخه ، وتستثير مواضع الأخلاق عنده ليهدأ جانبه من ناحية فيروز، فقالت له : ألستم تزعمون أنكم أقوام أحرار لكم أحساب ! قال : بلي . فقالت : جاءني أخي يُسلِّم عليَّ ويُكرمني ، فوقعتَ عليه تَدُق في رقبته ، حتى أخرجتَه ، فكانت هذه كرامتَك إياه ! ، ولم تزل تلومه حتى لام نفسه ، وقال : أهو أخوك ، فقالت : نعم [٢] . وجاء فيروز أصحابه بالخبر ، وكان قد أيقن – كما قال – بانقطاع الحيلة عنهم فيه . غير أن آذاد أرسلت إليهم : ألا لا يكْسِرنَّ عليكم أمركم ما رأيتم ، وأخبرتهم بما صنعتْ معه .

فلما أمسوا عملوا في أمرهم ، فدخلوا من النقب الذي نقبته هي وفيروز . وسمع فيروز من البيت غطيطًا شديدًا للأسود ، فدخل لينظر ، وكان قد ترك السيف مع أصحابه ، فوجد آذاد جالسةً عنده ، فلما قام على الباب أجلسه الشيطان فكلمه على لسانه – وإنه ليغط جالسًا – فقال له : ما لي ولك يا فيروز ! فخشي إن رجع ليُحضر السيف أن يهلك وتهلك المرأة ، فعاجله فخالطه ، وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله ... فخار كأشد خُوار صوت ثور يُسْمَع ، فابتدر الحرس الباب ، وهم حول المقصورة ، فقالوا : ما هذا ، ما هذا ، فقالت في ذكاء ، وضبط نفسٍ : النبي يوحى إليه [٣] .

وهكذا كانت رضي الله عنها سببًا رئيسًا مكن المسلمين من هذا الكذاب ، وتكاد الخطة كلها أن تكون خطتها . ولقد كانت الخطة توشك أن تبوء بالفشل في مرات عديدة لولا ما رزقها الله به من سرعة بديهة ، وحسنِ تأتٍّ للأمور، ولولا تيقظها رضي الله عنها ، وتَنبُّهها إلى المخرج من هذا الفشل . كما أنها رضي الله عنها عملت بيدها في هذا الأمر فقامت مع فيروز بقلع بطانة البيت ، وكانت مع الذين قتلوه ، وساعدتهم في حزِّ رأسه . لقد كان دورها دورًا يزن عند التقييم دور جيش كامل العدة .

---

(١) البيوت المبطنة : بطانة البيت بخلاف ظِهارتها ، وهي ما يلي مَن بداخل البيت . والبطانة دعامة في البيت من داخله .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٨ . من رواية فيروز .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥ .

ولما تم للمسلمين قتلُ الأسود خلُصتْ صنعاء والجَنَد ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وعادت دعائم الإسلام في اليمن ثابتةً راسخة [١] . وتراجع أصحاب رسول الله ﷺ إلي أعمالهم ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر ، فأتاه الخبر من ليلته ، فقال ﷺ لأصحابه ، واصفًا آذاد وفيروز ، ومن معهما : « إن الله قتل الأسود العنسي ، قتله بيد رجل من إخوانكم ، وقوم أسلموا ، وصَدَّقوا » [٢] ، وكفى بها من رسول ، شهادة بالإسلام ، والصدق .

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٥، ٢٣٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٣٩ .

المبحث الثاني :

دور النساء في حركة الردة على عهد أبي بكر الصديق ﷺ

كانت حركة الردة على عهد أبي بكر الصديق ﷺ أشد خطرًا منها حياةَ رسول الله ﷺ ، ذلك أن ما حدث منها في حياته ﷺ كان مأمون العاقبة بوجوده ﷺ ، فقد كانت صلةُ ما بين السماء والأرض قادرة مع شخصه ﷺ على ضبط الأمور بأيسر مما لو لم يكن هذا حادثًا . ولقد كان موته ، وراء هِزة الكثيرين ، واضطراب يقينهم في استمرارية المنهج الذي جاء به ﷺ .

وكانت الجزيرة العربية لما تزل حديثة عهد بانقياد لنظمٍ وحكومات ، وكان يُسَهِّل من بعض هذه الجِدَّة ، وتلك الحداثة أن يكون الانقياد إلى نبوة ، فلما ذهبت النبوة ، ارتدت الجزيرة .

كانت العرب قد ارتدت إما عامة ، وإما خاصة إلا قريش وثقيف ، قال ابن إسحاق : ارتدت العرب عند وفاة الرسول ﷺ ما خلا أهل المسجدين ، مكة ، والمدينة ، وارتدت أسد وغطفان ، وارتدت كندة ومن يليها ، وارتدت مذحج ومن يليها ، وارتدت ربيعة ، وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وارتدت سليم ، وبنو تميم ، وقدمت هوازن رِجلًا ، وأخرت رِجلًا [١] . وذهب بعض من ارتد إلى أبعد من الردة ، فادعى النبوة أو شايع المدعين لها [٢] .

قال القاسم بن محمد بن أبي بكر [٣] : اجتمعت أسد وغطفان وطيِّئ على طليحة الأسدي ، وبعثوا وفودًا إلى المدينة ، على أن يقيموا الصلاة ، ولا يؤتوا

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٣١٦/٦ .

(٢) مثل الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة بن حبيب الكذاب ، في بني حنيفة باليمامة ، وطليحة بن خويلد في بني أسد ، وسجاح في بني تميم .

(٣) القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق التيمي : ثقة ، أحد الفقهاء بالمدينة ، قال الذهبي : الإمام القدوة الحافظ الحجة ، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة ، ربي في حجر عمته أم المؤمنين عائشة وتفقه منها وأكثر عنها قال أيوب : ما رأيت أفضل منه ، مات سنة ست ومائة على الصحيح . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢٣/٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٥٣/٣ : ٦٠ ، والبلاذري : أنساب الأشراف ، القسم الخامس : سائر فروع قريش : ١٧٨ ، تحقيق إحسان عباس ..

الزكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منعوني عقالًا لجاهدتهم ، فردهم فرجعوا إلى عشائرهم ، فأخبروهم بقلة أهل المدينة ، وأطمعوهم فيها [١] . كان أبو بكر ﷺ قد انتظر بمصادمتهم قدوم أسامة [٢] ، لكن عبسًا وذبيانًا عاجلوا المسلمين في المدينة ، وطرقوهم غارةً [٣] .

حالة المدينة وكان أبو بكر قد أنفذ جيش أسامة ، فقَلَّ الجند عند الصديق وطمعت كثير من الأعراب في المدينة ، وراموا أن يهجموا عليها . وتوقع ذلك أبو بكر ﷺ فجعل الحرس على أنقاب المدينة [٤] ، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد الجامع .

فما لبثوا إلا ثلاثًا حتى طرقوا المدينة غارةً ، وأرسل الحرس إلى أبي بكر يخبرونه بالغارة ، فبعث إليهم : أن الزموا أماكنكم . وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم ، فانفشَّ [٥] العدو ، غير أنهم كانوا قد تركوا لهم ردءًا ، فخرج عليهم الردء بأنحاء [٦] قد نفخوها ، وجعلوا فيها الحبال ، ثم دفعوها في وجوه الإبل ، فنفرت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة .

وظن المشركون بالمسلمين الوهن ، وبعثوا إلى أهل ذي القصة [٧] بالخبر ، فقدموا عليهم ، واستعدوا لمواجهة الصديق ، غير أن أبا بكر ﷺ والمسلمون قد باتوا ليلتهم يتهيئون ، وخرجوا من آخر الليل ، فما طلع الفجر إلا وهم والمشركون في صعيد واحد ، ما سمعوا للمسلمين حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما بزغت الشمس حتى ولوا الأدبار ، ومكن الله للمسلمين فغلبوهم [٨] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٤ ، ٢٤٥.

(٢) كان أبو بكر ﷺ قد وجه أسامة إلى حيث قُتِل أبوه زيد بن حارثة من أرض الشام ، وهو الموضع الذي كان رسول الله ﷺ أمره بالمسير إليه قبيل وفاته . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤١ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٥ .

(٤) البداية والنهاية : ٦/٣١٥ . وكان من أمراء الحرس : على بن أبي طالب ، الزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود .

(٥) انفش : انهزم .

(٦) النحي : الزق .

(٧) ذي القصة : مكان على بريد من المدينة ، تلقاء نجد . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٥٤ .

(٨) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣١٦ ، ٣١٧ . والنواضح : جمع ناضح وهو البعير أو الثور الذي يستقى عليه الماء .

ووثب المشركون من عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم من المشركين مثل فعلهم في سائر القبائل ، فحلف أبو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتل من المسلمين وزيادة [١] .

وعاد جيش أسامة بعد أربعين يومًا من مخرجه فأبقاهم أبو بكر في المدينة حتى جموا [٢] واستراحوا، ثم عقد أحد عشر لواءً وجهها إلى المرتدين في أنحاء الجزيرة كلها [٣] .

خطورة حركة الردة على أركان العقيدة

كانت الردة هجمة شرسة على كافة أركان العقيدة ، يفهم حجم هذا الخطر جيدًا من يتأمل أضعف أشكال الارتداد ، وهو ما تمثل في مانعي الزكاة مع تمسكهم بالإسلام ، قائلين : والله ما كفرنا بعد إيماننا ، ولكن شححنا على أموالنا .

فلقد التبس الأمر على عمر ﷺ وهو من هو ، فجعل يعترض على أبي بكر في شأنهم ويقول : « علام تقاتلهم ورسول الله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » [٤] . قال أبو بكر : « هذا من حقها ، أرأيت لو سألوا ترك الصلاة ؟ أرأيت لو سألوا ترك الصيام؟ أرأيت لو سألوا ترك الحج ؟ !! فإذًا لا تبقي عروة من عرى الإسلام إلا انحلت ، والله لو منعوني عناقًا وعقالًا مما أعطوه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه . فقال عمر ﷺ : فشرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر [٥] .

كان وصف السيدة عائشة لما كان عليه همها ، وما كان عليه أمر المسلمين لمَّا

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٤٤/٣ ،وابن كثير : ٣١٨/٦ ، وفيه . ذكرت لفظة : « وزيادة » .

(٢) جمُّوا : أي استجموا ، واستراحوا .

(٣) كانت هذه الألوية كالآتي : خالد بن الوليد إلى طلحة بن خويلد ،فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة التميمي بالبطاح ، وعكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة ، وشرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة ولنفس الهدف ثم إلى بني قضاعة ، المهاجر بن أبي أمية إلى الأسود العنسي بصنعاء ، ثم إلى حضرموت، وخالد بن سعيد إلى مشارف الشام ، وعمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة والحارث ، وحذيفة بن محصن إلى أهل دبا ، وطرفة بن حاجب إلى بني سليم ومن معهم من هوازن ،وسويد بن مقرن إلى تهامة باليمن ، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين ، وعرفجة بن هرثمة إلى أهل مهرة . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٩ .

(٤) البخاري : حديث ٢٩٤٦ ، ومسلم ٢٠ ، ٢١ . عن أبي هريرة وابن عمر .

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ٩٥ ، ٩٦ .

حدثت الردة العظمى على عهد أبي بكر ﷺ معبرًا عن حجم هذه البلية ، وحجم إحساس المرأة المسلمة بهذه المأساة التي أصابت المسيرة الإسلامية ، قالت : لما قُبِض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبةً ، وأشربت النفاق ، والله لقد نزل بي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها [١] ، وصار أصحاب محمد ، كأنهم معزى مطيرة في حُش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة » [٢] .

هذه الحال التي عظم فيها الخطب ، واشتدت الحال ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، والمسلمون على الحال التي وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها ، وذلك لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم وكثرة عدوهم ، هذه الحال وتلك الظروف يعايشها الباحث طولًا وعرضًا فلا يجد المصادر تذكر من أدوار المرأة في أحداثها إلا دورَ السيدة نسيبة بنت كعب وموقفًا للسيدة أم تميم ، وكأن الأمر ليس مما يعني بقية النساء [٣] .

في ظل هذه الظروف ، وتحت ربقة هذا الخطر المحقق لنا أن نتخيل كيف كانت المرأة ، وكيف كان احتشادها . وأقول : « نتخيل » لأن المصادر التاريخية – على وفرة ما قدمت لنا من معلومات – لم توضح لنا هذا على الوجه الذي نرى فيه الصورة جلية ، لا غَبَشَ فيها .

التسجيل التاريخي لدوري السيدة نسيبة والسيدة أم تميم

وسنبدأ – إن شاء الله – في المباحث التالية بتقديم الصورتين اللتين بقيتا في المصادر التاريخية عن دور المرأة في حركة الردة على عهد أبي بكر . نُسْبِقُها بنظرة في مستوى التسجيل التاريخي ثم نُتْبِعُ كل ذلك النظرَ والتحليلَ لحقيقة هذا الدور .

وفي تقييمنا للتسجيل التاريخي لهذا الدور ، يلفت انتباه الباحث أن الطبريَّ ،

---

(١) هاضها : كسرها .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٠٨،٣٠٩ ، وهو من حديث القاسم وعمرة عن عائشة رضي الله عنها . وقولها : كأنهم معزي مطيرة في حُش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة : الحش : مجتمع النخل ، أو البستان ، والأرض المسبعة : أي المليئة بالسباع ، فلقد صورت حال المسلمين بحال هذه المعزي في الأرض ، « أو مجتمع النخل » الممتلئة بالسباع ، والتي يُمِضُّها مع ذلك المطر الشديد .

(٣) ولا أعني من ذلك بطبيعة الحال ، وطبيعة المنطق أنه كان المطلوب من كل النساء أن يخرجن ، ويتحركن حركة الرجل في هذا الصدد ، فثمة أدوار أخرى – لا تغيب عن النظر ، وهي أدوار جِدُّ فاعلة في البناء السياسي ، والاجتماعي – تستنفذ من وقت المرأة وجهدها ، وإنما أعني أن تكون هذه المشاركة في حالة الردة مشاركةً ملموسة ، ومُعَبِّرًا عنها التعبير الموضوعي .

وهو المصدر الأصيل في رواية هذه الأحداث لم يعرض لذكر الدور الذي قامت به السيدة نسيبة رضي الله عنها ، ولا حتى لما أصابها في أثناء هذه الحروب ، حروب الردة ، ولم يعرض إلا لذكر أم تميم ، امرأة خالد بن الوليد .

ويبدو واضحًا في الروايات أنه ، أو أن رواياته لم تعمد إلى ذكر موقف أم تميم رضي الله عنها من حيث هو موقف لها ، وإنما من حيث أنه جزء من التعبير عن الحدث الذي جاء فيه ذكرها ، وهو حدثُ استبقاء خالد بن الوليد لواحد من أسرى بني حنيفة ، وطلبه من أم تميم أن تقوم على أمر هذا الأسير .

الأمر الذي يدعونا ، ونحن نسجل هذه الملاحظة إلى التأكيد على أنه ليس ما بين أيدينا هو كل الحقيقة في الدور النسائي في حركة الردة ، بل ولا في حروبها ، فليس من طبيعة الأشياء أن يكون مجموع النساء من اللامبالاة إزاء هذا الحدث بحيث لا يبدو أنهن قد تحركن له حركة إيجابية على أي صورة من صور الحركة . كما أنه ليس من طبيعة الأشياء أيضًا أن تكون السيدة نسيبة رضي الله عنها قد خرجت مع جيوش الردة دون رفيق معها من النساء .

نسيبة بنت كعب في حروب الردة

كانت أم عمارة ، نسيبة بنت كعب [١] ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مسيلمة [٢] .

ودور السيدة نسيبة رضي الله عنها في حروب الردة من الأدوار التي تعدل أدوار العشرات ، رجالًا ونساء ، وهو ما يعوض عندنا حالة الاستفهام والإنكار لغياب تسجيل دورها عند الطبري ، بل وغياب الأدوار الأخرى للنساء ، والتي يكاد العقل يجزم بوجودها مع غيابها في المصادر .

---

(١) أم عمارة : هي الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار المازنية النجارية ، شهدت العقبة وأحدًا والفتح . ابن حجر : الإصابة ٨/٤٤١ .

(٢) مسيلمة الكذاب : هو مسيلمة بن حبيب اليمامي الكذاب المتنبئ . كان قد قدم على رسول الله ﷺ مع قومه بني حنيفة ، وقد وقف على رسول الله ﷺ فسمعه ، وهو يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته ، فقال له : لو سألتني هذا العود- لعرجون في يده - ما أعطيتُكَه ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت . وكان ﷺ قد رأى في المنام كأن في يده سوارين من ذهب ، فأهمَّه شأنهما ، فأوحى الله إليه في المنام : انفخهما ، فنفخهما ، فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان ، وهما : صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة . ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣٤٥ .

كان خبيب [١] ابن السيدة نسيبة هو الذي قتله مسيلمة الكذاب حين جعل يقول له : أتشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ﷺ فيقول : لا أسمع ، حتى قطعه عضوًا عضوًا ، فقطع يديه من المنكبين ، ورجليه من الوركين . فقال : أتشهد أني رسول الله ﷺ فقال : لا أسمع . فقال : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم . فحرَّقه بالنار ، حتى مات في يديه ، لا يزيده على ذلك [٢] .

وذكر ابن حجر أنه لما بلغها قتل ابنها حبيب عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة ، أو تُقْتل [٣] . فلما تهيأ بَعْثُ خالد بن الوليد إلى اليمامة جاءت إلى أبي بكر فاستأذنته للخروج ، فقال : ما مثلك يُحَال بينه وبين الخروج ، وقد عرفنا جزاءك في الحرب ، فاخرجي على اسم الله ، وأوصى خالدًا بها ، وكان مستوصيًا بها ، متعاهدًا لها [٤] .

وفي اليمامة كان جهادها العظيم الذي لا يُحسن التعبير عنه غيرُها ، إذ تقول : « لما انتهينا إلى اليمامة واقتتلوا ، وتنادت الأنصار : أخلصونا ، أخلصونا [٥] . قالت : لما انتهينا إلى باب الحديقة لم يُخلص ، حتى قلت : لا يُخْلَص ، وازدحمنا على الباب ، وأهل النجدة من عدونا في الحديقة قد انحازوا يكونون فيه لمسيلمة ، فأقحمنا فضاربناهم ساعة ، والله يا بني [تخاطب حفيدها] ما رأيت قومًا أبذلَ لمُهَج نفوسهم منهم ، وجعلتُ أقصد لعدو الله مسيلمة لا أراه ، وقد عاهدت الله إن

(١) خبيب : قال ابن كثير: خبيب ، أما باقي المصادر ومنها سير أعلام النبلاء والطبقات الكبري وفتوح البلدان فقالت :حبيب ، وهو ابن زيد بن عاصم ﷺ أجمعين . أحد بني مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار .

(٢) المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصحابيات : ٥٧ ، ابن زَبْر الرَّبْعي : تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ٨٦/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ١٦٦/٣ . رواية عن ابن إسحاق . وكان ذلك لما كان مع عمرو بن العاص بعُمان ، ولما توفي رسول الله ﷺ ، أقبل عمرو من عمان ، فسمع به مسيلمة ، فاعترض له ، وكان حبيب بن زيد وعبد الله بن وهب الأسلمي في السَّاقة ، فأصابهما ، فقال لهما : أتشهدان أني رسول الله ﷺ فأقر الأسلمي بما قال فحبس في حديد ، وأما حبيب فلم يُقِرَّ ، وهكذا ينبغي لابن نسيبة .

(٣) ابن حجر : الإصابة ٣٣٤/٨ . وقالها في رواية المقدسي عبَّاد بن تميم ، حفيدها ، المقدسي :حديث الإفك ٦ .

(٤) المقدسي : السابق بنفس الإسناد : ٦١ .

(٥) أخلصونا : خَلَصَ الشيء يخْلُص ، إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم . ولعل المقصود من هذه العبارة هو أن يتميز الأنصار عن غيرهم ، ليعلم الناس من أين يؤتى المسلمون ، وقد جاء التصريح بهذا المعنى في بعض الروايات .

رأيته لا أكذب عنه [١] ، أو أُقْتَل دونه ، وجعلت الرجال تختلط ، والسيوف بينهم ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف ، حتى بصرت بعدو الله ، فأشد عليه ، ويعترضني رجل منهم فضرب يدي فقطعها ، فوالله ما عرَّجت عليها [٢] حتى أنتهى إلى الخبيث وهو صريع ، وأجد ابني عبد الله بن زيد قد قتله ، فحمدت الله على ذلك ، وقطع الله دابرهم [٣] .

فلما انقطعت الحرب وصرت إلى منزلي ، جاءني خالد بن الوليد إلى منزلي بطبيب من العرب ، فداواني بالزيت المغلي فكان أشد عليَّ من القطع [٤] .

ورجعت رضي الله عنها وبها اثنا عشر جرحًا ما بين طعنة ، وضربة [٥] . وقال محمد بن يحيي بن حَبَّان [٦] : قطعت يدها يوم اليمامة ، وجرحت يوم اليمامة سوى يدها أحد عشر جرحًا [٧] ، ولما قدمت المدينة وبها الجراحة ، رئي أبو بكر رضي الله عنه وهو خليفة يأتيها يسأل عنها [٨] .

ولم يكن دور أم عمارة التسجيلي [٩] لما كان في المعركة بأقل من دورها البطوليّ ، كما لم تكن آلامها لآلام بني أبيها من بني النجار : القتلى منهم بلا حراك ، والذين باتوا ليلتهم يُكَمَّدون بالنار بأقل من آلامها التي تعانيها هي في جسدها ، قال عبَّاد بن تميم : قلت : يا جدة ، أَكَثُرَتِ الجراح في المسلمين ، فقالت:

---

(١) أكذب عنه : أُحْجم ، يقال حمل عليه فما كذَّب : أي ما انثني وما جبن .

(٢) عرَّجت عليه : ملت إليه . (٣) المقدسي : السابق ٦١، ٦٢ .

(٤) من رواية المقدسي بنفس الإسناد السابق .

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب : ٥٠٣/٤ ، والرواية عن ابن إسحاق . البلاذري : فتوح البلدان : ١٠٢ .

(٦) محمد بن يحيي بن حبان بن منقذ بن عمرو : أبو عبد الله الأنصاري النجاري المازني . ولد سنة ٤٧ . وهو إمام مجمع على ثقته ، قال الواقدي : كانت له حلقة للفتوى ، وكان ثقة كثير الحديث . وقال الذهبي : هو من أعيان مشيخة مالك رحمه الله . الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨٦/٥ ، البخاري : التاريخ الكبير ٢٦٥/١ ، الفسوي : المعرفة والتاريخ ٣٨٩/١ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ٣٦٣ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبري : ٤١٦/٨ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبري : ٤٤٢/٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٨١/٢ ، والمقدسي : البدء والتاريخ ٦٣ . تأمل عبارة الرواة : « وهو خليفة » وهي عبارة توحي باستكثار الراوي لأن يزور أبو بكر رضي الله عنه نسيبة رضي الله عنها .

(٩) في دورها التسجيلي مع ما ذكرنا في المتن : انظر قولها عن المسلمين من طيىء الذين أبلوا يوم اليمامة بلاء حسنا ، وقولها في شجاعة ابني زيد الخيل . المقدسي : البدء والتاريخ ٦٢ .

يا بني ، لقد تحاجز [١] الناس ، وقتل عدو الله ، وإن المسلمين لجرحى كلهم ، لقد رأيت بني أبي مجرَّحين ما بهم حركة ، ولقد رأيت في بني مالك بن النجار بضعة عشر رجلا لهم أنين ، يُكَمَّدون ليلهم بالنار ، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة بعد وضع الحرب أوزارها ، وما يصلي مع خالد بن الوليد من المهاجرين الأولين إلا نفر من الخزرج ، وذلك أنَّا أتينا من قِبَل الأعراب ، انهمكوا بالمسلمين [٢] .

أم تميم امرأة خالد والأسير

فأما الرواية الثانية التي ورد فيها دور للمرأة في حروب الردة ، فهو ما ذكر من دور أم تميم [٣] ، امرأة خالد بن الوليد ، وفيها أنه لما كانت حرب مسيلمة الكذاب ، أخذ خالد جماعة من بني حنيفة [٤] ، فلما عرضوا عليه قال لهم : ماذا تقولون ، قالوا : نقول منا نبي ومنكم نبي ، فعرضهم على السيف ، فجادوا كلهم بأنفسهم دون مُجاعة بن مُرارَة ، فقيل له : إن كنت تريد خيرًا أو شرًا فاستبق هذا الرجل [٥] . فقتلهم إلا مجاعة ، استبقاه خالد مقيدًا ، ودفعه إلى أم تميم ، امرأته ، وقال: استوصي به خيرًا . فلما تواجه المسلمون والكفار كانت جولة وانهزم المسلمون ، حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد ، وهموا بقتل أم تميم ، فأجارها مجاعة وقال : نعمت الحرة هذه [٦] .

هذه الرواية بما تدل عليه من مصاحبة أم تميم ، ودورها في القيام على أمر الأسير ، مع رواية نسيبة ، يراها البحث كأنموذج للحضور والمشاركة . على أنه لا يراها كل الحضور والمشاركة . فثمة إشكالية لا يستطيع الباحثُ تجاوزها ، وهو يعرض لهذا الدور .

---

(١) تحاجز الناس : أي أخذ بعضهم بحُجزِ بعض . والحُجزة : المآزر ، أو ما يُشَدُّ به الوسط .

(٢) المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصالحات : ٦٢ . وانهمكوا : أي امتلأوا بهم غضبًا .

(٣) أم تميم : هي ابنة المنهال بن عصمة الرياحيّ ، وهي امرأة مالك بن نويرة التي تزوجها خالد بن الوليد بعدما قتل مالك .تاريخ الطبري : ٣/ ٢٧٨ . ولم أعثر لها على ترجمة في كتب التراجم المتاحة لي .

(٤) كان ذلك لما بعث أبو بكر ﷺ خالد بن الوليد إلى بني حنيفة ، حتى إذا بلغ ثنية اليمامة ، وكان من عسكر مسيلمة على ليلة استقبل مُجاعة بن مُرارَة – سيد بني حنيفة – ، فظن خالد أنهم استقبلوه ليتقوه بحاجته ، فقال : متى سمعتم بنا ، قالوا : ما شعرنا بك ، إنما خرجنا لثأر لنا في بني عامر وتميم . فقال لهم خالد : يا بني حنيفة ، ما تقولون ، قالوا : نقول : منا نبيٌّ ، ومنكم نبي ، فعرضهم على السيف ، فجادوا كلهم بأنفسهم دون مُجاعة بن مُرارَة ، وقالوا : إن كنت تريد بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًا ، فاستبق هذا ، ولا تقتله ، فقتلهم خالد ، وحبس مُجاعة عنده كالرهينة . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٨٦ : ٢٨٩ ، من روايات السري عن شعيب ، عن سيف ، ورواية أبن حُمَيد ، عن سلمة ، عن محمد بن إسحاق .

(٥) لأنه كان صاحب حيلة وذكاء ، فرجوا من استبقائه أن يكيد لقومهم .

(٦) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

المبحث الثالث :

إشكالية صغر حجم مشاركة الصحابيات في حروب الردة

ثمة إشكال غير قليل يعترض الباحث ، وهو ينظر في حجم دور المرأة في حروب الردة ، على عهد أبي بكر ﷺ ؛ ذلك أن هذه الحركة الجهادية الكبيرة في عدد جبهاتها ، والشاملة للجزيرة كلها ، بما حملته من معاني الخوف والاحتشاد والترقب لهجوم الأعداء في عقر المدينة ، بحيث لم يكن أهل المدينة يأمنون المبيت في غير حراسة ، وبحيث لزم الجميعَ أمرُ الصديق بحضور المسجد ولزومه ، مع ما كان من تردد البعض – وفيهم الراسخون في الدين – وعدم تصورهم لمدى خطر هذه الردة .

هذه الحركة نستقصيها من جميع جوانبها باحثين عن المرأة ودورها فيها فلا نجد المصادر تقدم لنا من صريح الروايات غير الرواية عن نسيبة بنت كعب ، والثانية عن أم تميم زوج خالد بن الوليد [1] ، والثالثة التي عبرت عن موقف السيدة عائشة ، وما أحست به حيال الأحداث ، على أنها لا تدخل فيما نعنيه من معنى « الدور » .

والواقع أنه يتحتم علينا تسجيل بعض التساؤلات ، وتقرير الإشكالية فيها ، بعدما عرضنا لهذا الذي جادت به المصادر: فهل يمكن القبول والتسليم بأن هذا الذي قدمته المصادر فقط هو كل ما كان للمرأة من مواقف وأدوار إزاء هذه الحركة ، خاصةً واستعراض الأحداث اللاحبة التي مرت بها جماعة المسلمين يكاد يرفض أن تكون المرأة قد كانت من السلبية بحيث يختفي دورها هذا الاختفاء الباعث على التساؤل ؟. وكيف يمكن أن يتسم دورها هاهنا بالسلبية ، وأدوارها السياسية والاجتماعية في الميادين المختلفة كانت من روعة الحضور ، بحيث لا يكاد يختلف عليها منصف ؟.

هل يمكن أن ينتظم في تصورنا أن المرأة التي آمنت ، وعُذِّبت ، وهاجرت ، وجاهدت ، وفقدت الأحبة ، واسترخصت كل ذلك في سبيل ما آمنت به ، تجد الآن

---

(١) راجع في غياب ذكر النساء في حروب الردة ، على سبيل المثال البلاذري : فتوح البلدان ٧١ :١١٥ ، الكلاعي : حروب الردة ، تاريخ الطبري ٣/١٨٤:٣٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٠٩ : ٣٤٦ .

هذا الدين مهددًا بالاندثار التام ، فلا يكون منها إلا هذين الموقفين – على عظمتهما – ؟.

هل يمكن أن نتصور أن رد فعلهن إزاء هذه الحالة كان من الضعف الذي لم يواز معه ، بل لم يقارب ، بل لم يكن شيئًا أمام الموقف المضاد للنساء المرتدات اللاتي صاحبن جيوش الردة [١] ، بل ووصلن في ردتهن إلى مستوى قيادة الجيوش المرتدة [٢] ، بل ومستوى إدعاء النبوة [٣] ؟!.

ولا يقلل من ضغط هذه الاستفهامات الإنكارية ما روي عن موسى بن ضمرة بن سعيد [٤] ، من أنه سأل عبَّاد بن تميم بن غزية ، حفيد أم عمارة ، نسيبة بنت كعب : هل علمتَ أن امرأة من المسلمين خرجت في الردة غيرها ، قال : لا [٥] .

فالواقع أن اسم أم تميم ، وهو اسم آخر غير اسم أم عمارة قد التقينا به عبر المصادر

---

(١) انظر على سبيل المثال : ما كان من خروج نساء بني أسد مع طليحة الأسدي في بُزاخة . تاريخ الطبري : ٣/٢٥٦ .

(٢) كان قد اجتمع طائفة كثيرة من الفُلال يوم بزاخة من أصحاب طليحة ، من بني غطفان ، فاجتمعوا إلى امرأة منهم ، يقال لها : أم زمل – سلمى بنت مالك بن حذيفة – وكانت من سيدات العرب ، كأمها أم قرفة ، وكان يضرب بأمها المثل في الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها ، فلما اجتمعوا إليها ذمرتهم لقتال خالد ، فهاجوا لذلك ، واجتمع إليهم آخرون من بني سليم وطيئ ، وهوازن وأسد ، فصاروا جيشًا كثيفًا ، واستفحل أمر هذه المرأة ، وغَلُظ ، فلما سمع بهم خالد سار إليهم ، واقتتلوا قتالًا شديدًا ، وهي راكبة على جمل أمها الذي كان يقال له : من يمس جملها فله مائة من الإبل ، وذلك لعزها ، فهزمهم خالد وعقر جملها ، وقتلها وبعث بالفتح إلى الصديق . انظر : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٢٤ ، ٣٢٣ .

(٣) كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة ، فمنهم من ارتد ، ومنع الزكاة ، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق ، ومنهم من توقف لينظر في أمره ، فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد من الجزيرة ، وهي من نصارى العرب ، كانت راسخةً في النصرانية ، علمت من علم نصارى تغلب ، وادعت النبوة ، ومعها جنود من قومها ومن التف بهم ، وقد عزموا على غزو الصديق ، فلما مرت ببني تميم دعتهم إلى أمرها ، فاستجاب لها عامتهم ، كما استجاب لها عدد كثير من رؤساء القبائل ، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة ، وجماعة من سادات أمراء بني تميم . وفي ذلك تفصيل يطول ، فليرجع إليه في مظانه . انظر مثلا : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٦٧ ، وما بعدها ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣٢٤ ، وما بعدها .

(٤) سبق التعريف به صفحة ٢٢٣ .

(٥) المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصحابيات : ٦١ . . قال المقدسي : أخبرني أبو منصور جعفر بن عبد الله ، أنبا المبارك بن عبد الجبار ، أنبا محمد بن محمد بن عثمان ، أنبا أبو الحسن النحوي ، أنبا أحمد بن عبيد ، أنبا أبو عبد الله الأسلمي ، حدثني يعقوب بن محمد بن أبي صعصعة ، عن موسى بن ضمرة بن سعيد ، عن أبيه .

في حروب الردة ، على عهد أبي بكر . وإذا اعتبرنا السؤال بعدُ متوجهًا إلى اللاتي « خرجن » من المدينة لحروب الردة ، حيث إن أمَ تميم قد خرجت مع خالد لما تزوجها في البُطاح [١] ، و أكملت معه الخروج إلى اليمامة [٢] . كما أن أبا بكر ﷺ لما عقد الألوية ، أمر كل أمير باستنفار من مرَّ به من المسلمين [٣] ، فهل ترى لم تخرج من القبائل التي مرّ بها امرأة أخرى ؟ ولقد ذهب السؤال إلى أمر « الخروج » دون بقية أدوار وصور المشاركة ، ونحن نبحث عن كل ما هو دور .

ثم إن الرواية تسأل عبَّاد بن تميم عن علمه في المسألة ، وربما كان قوله هو مبلغ علمه ، بينما الحقيقة الكاملة شيء آخر .

وإذا كانت المصادر التاريخية قد صمتت عن ذكر أسماء أخرى للصحابيات في حروب الردة ، وهو ما يدعم هذه الرواية المذكورة لحفيد أم عمارة ، إلا أننا رغم ذلك لا نكاد نستوعب حجم هذا الحضور المتواضع إذا ما قيس بحجم حركة الردة ، وطبيعة الأدوار السياسية التي قامت بها المرأة من اعتناق للدين ، وتحمل للأذى في سبيله ، اضطهادًا ، وهجرةً ، وجهادًا ، وهو ما بين لنا الإشكالية واضحةً .

صحيح أننا في الموقف التأريخي لا نتحدث عن ما كان ينبغي أن يكون ، وإنما نحن ملزمون عند التحليل بما كان حقيقة ، وفعلًا ، لكن هذا الذي كان حقيقة وفعلًا لا نجدنا نعثر عليه بسهولة أمام صمت هذه المصادر، خاصة وأن صمتها لم يكن الصمت الجازم بعدم حضور المرأة ، أو النافي لأية أدوار أخرى قامت بها .

---

(١) البُطاح : ماء لبني تميم دون الحزن . تاريخ الطبري : ٣/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) كان خالد بن الوليد قد تزوجها لما قُتِل زوجها مالك بن نويرة ، وكان قد تركها لينقضي طُهْرُها . [تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٨ ، من رواية سيف عن خزيمة بن شجرة العُقْفَاني ، عن عثمان بن سويد ، عن سويد بن المثعبة اليَاحي] . وقدم خالد بعد ذلك المدينة ، لما غضب عليه أبو بكر في أمر مالك بن نويرة [راجع أمر مالك في : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٧٨] ، فأوضح لأبي بكر عذره وأنه لم يكن منه في مالك رِهَقٌ تعمده بدون حق ، فعذره .

وعلى مشارف اليمامة ، وفي اليمامة أخبرتنا المصادر بوجود أم تميم ، وذلك من خلال أربعة طرق للروايات : ١ - عن سيف ، عن طلحة بن الأعلم ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، ٢- عن عبد الله بن سعيد ، عن أبي سعيد ، عن أبي هريرة ، [تاريخ الطبري : ٣/ ٢٨٧] ، ٣- عن ابن حُمَيد ، عن سلمة ، عن محمد بن إسحاق [تاريخ الطبري : ٣/ ٢٨٨] ، ٤- عن سيف ، عن طلحة ، عن عبيد بن عمير [تاريخ الطبري : ٣/ ٢٩١] .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

التعميم في المصادر

ولقد لاحظت أن هذه المصادر في تأريخها لحركة الردة ، ولغيرها من الأحداث لم تكن معنية بالحديث المفصل عن الأدوار الخاصة بكل فئة من الرجال ، أو النساء على حده ، بل كان الغالب عليها فيما يتصل بدور المرأة ألا تعرض إلا للأحداث الشديدة التميز . والحكم على أي دور بالتميز من عدمه سيختلف من شخص إلى آخر ، وعليه فهل سنستطيع القول بأنه ليست هناك أدوار متميزة أخرى للنساء كان من الممكن أن نعرفها ، لو سجلها راوٍ آخر غير الذي سجل لنا الرواية المتميزة من وجهة نظر الراوية الذي بقيت لنا روايته ؟ ! .

هذا أمر ، والآخر هو أن الإطلاق ، والتعميم كان هو السمت العام في الروايات الخاصة بمسألة الردة ، ونذكر من هذه الروايات على سبيل المثال ما ذكرته المصادر فيما يتصل بما حدث للمسلمين في القبائل العربية المرتدة من تقتيل بلغ من العنف أن يُقسِمَ أبو بكر ﷺ ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين ، وزيادة [١] ، وأن يُنَفَّذ هذا الحكم دون هوادة [٢] ، وذلك فيما رواه الطبري عن السري ، عن شعيب ، عن سيف .. عن القاسم بن محمد من أن بني ذُبيان وعبس وثبت على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم فعلهم [٣] .

ولم تذكر الروايات : هل كان في هؤلاء القتلى من المسلمين نساء وأطفال أم لا ، على أننا نستطيع القول - عقلًا - بأنه كان فيهم نساء ، فسبب قتلهم لم يكن إلا أنهم مسلمون ، وهو ما يسري حكمه على النساء ، كما يسري على الرجال . وهذه

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٦. وهذا قسم يعبر عن حجم الغضب الذي تملكه ﷺ للمسلمين ، فلقد أقسم أن يزيدهم في التنكيل ، وألا يكتفي بالقصاص . على أننا نذكر أنه ﷺ لم يُنْفِذ قسمه في هذه الزيادة ، وإنما قتل منهم بمن قتلوا من المسلمين وحسب .

(٢) انظر تكرار المراسلة بين أبي بكر ، وخالد بن الوليد في هذا الصدد : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٦٣ . ولقد ظل خالد ﷺ قائمًا على البُزاخة شهرًا ، يُصَعِّدُ عنها ، ويُصَوِّب ، ويرجع إليها في طلب أولئك ، فمنهم من أحرق ، ومنهم من رضخه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من رءوس الجبال . وهذه الأحكام من الصرامة بحيث نستدل بها على مدي عنف ، وعشوائية الجرم الذي اقترفه المرتدون في حق المسلمين . وهو جرم لا يبدو مطلقًا أنه قد أخطأ النساء من دون الرجال .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٦ . وانظر استمرار التعميم لهذا الحدث في رواية سيف عن أبي عمر ، وأبي ضمرة ، عن ابن سيرين ، قال : « ولم يقبل خالد من أحد من أسد ، ولا غطفان ، ولا هوازن ، ولا سُلَيم ، ولا طيّئ إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومَثّلوا ، وعدوا على أهل الإسلام ، في حال ردتهم » [تاريخ الطبري : ٣/ ٢٦٢] . وانظر أيضًا رواية سيف ، عن أبي عمرو ، عن ، نافع . تاريخ الطبري : ٣/٢٦٣ .

الرواية التي ذكرناها تبعث على التساؤل عن الأدوار التي من الممكن أن تكون المرأة في هذه القبائل قد قامت بها في مواجهة هذه الهجمة الشرسة على أهل الإسلام .

روايات عامة موحية بمشاركة أكبر للنساء

ثم إن هذا التعميم ربما يفهم منه أنه كان هناك حضور من النساء على صورة أكثر وضوحًا ، وأكبر حجمًا مما دلت عليه الروايتان اللتان ذكرنا وسنتركها للقارئ ، ليحكم بنفسه ، ولعله لن يستطيع الجزم بنفي وجود دور المرأة في هذه الروايات .

أما الرواية الأولي : فهي ما ذكر الطبري من أن العلاء بن الحضرمي قائد جيوش المسلمين التي اتجهت تحارب المرتدين في البحرين ، لما تم له النصر : « أقفل [١] الناسَ إلا من أحب المقام [٢] » .فلقد يفهم من هذه الرواية أن الذين أقاموا ولم يقفلوا مع القافلين كانوا مع أسرهم ، فلم تذكر الرواية أنهم عادوا ليستقدموا نساءهم وأسرهم ، وإنما « أقاموا » .

وأما الرواية الثانية : فقد ذكرها ابن الأثير وابن كثير قالا : « ثم بعث الصديق خالد ابن الوليد إلى قتال بني حنيفة باليمامة ، وأوعب معه المسلمون » [٣] . هذا التعبير « أوعب » [٤] ، بما يدل عليه من الاستئصال والاستقصاء في كل شيء ، وهو ما يدل على أن القوم حشدوا وجاءوا موعبين أي جمعوا ما استطاعوا من جمع ، ولم يبق منهم أحد ، له دلالة واضحة على ما نرمي إليه .

وأما الرواية الثالثة : فهي ما أورده ابن عبد البر ، عن ابن إسحاق في حديثه عن نسيبة بنت كعب قال : « شهدت مع ابنها عبد الله وسائر المسلمين اليمامة » [٥] . وهو تعبير عام كما نرى ، لكنه لا يخرج عما ذهب إليه بعض العلماء من دلالة جمع المذكر السالم واستيعابه لكل من الذكر والأنثى .

وأخيرًا فهذه الروايات رغم كونها على هذا النحو من التعميم ، الذي لم يتعين

---

(١) أقفلهم : أي أرجعهم . (٢) تاريخ الطبري : ٣١٢/٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٢٨/٣ ، ابن الأثير : الكامل : ٢١٩/٢ .

(٤) أوعب بنو فلان : جَلَوا أجمعون . قال الأزهري : وقد أوعب بنو فلان جلاء ، فلم يبق منهم ببلدهم أحد . وقال ابن سيده : أوعب بنو فلان لفلان ، لم يبق منهم أحد إلا جاءه. وقال اللِّحْياني : أوعب القوم إذا خرجوا كلهم إلى الغزو . وانطلق القوم فأوعبوا أي لم يبق منهم أحد . راجع لسان العرب .

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب : ٥٠٣/٤ .

معه الحضور المُتَيَقن للمرأة تتسق ولاشك مع عادات العرب في الحروب ، واصطحابهم للنساء فيها وقد أشرنا إليه من قبل في قول السيوطي [1] .

ويبقي أخيرًا أن نقرر أن عدم تعيين أخبار النساء في حركة الردة في المصادر التاريخية حمل طعنا بالغًا في الدور السياسي الذي قامت به المرأة . وإذا كان عدم التعيين هذا يحمل – رغم أسفنا له – معنى إيجابيًا واضحًا على أن الحياة والثقافة الإسلامية لم تعرف « النساء » كفئة ثقافية أو اجتماعية أو سياسية قائمة بذاتها ومنفصلة عن المجتمع ، وإنما كانت النساء دائمًا داخل المجتمع ، وفي عمقه ، همٌّ واحد ووجهة واحدة ، ومن هنا فإن هذه الثقافة ، وتلك الحياة لم تكن معنية بتسجيل الموقف النسائي منفصلًا عن الحدث الاجتماعي كله ، فهن عنصر من عناصر المجتمع وحركته الواسعة .

علي أن الذين لم يفطنوا إلى طبيعة هذا التسجيل التاريخيّ ، كما لم يفطنوا إلى الطبيعة الكامنة ، والراسخة في الحياة والثقافة الإسلامية ، وهي طبيعة تنطلق من روح التشريع الإسلاميّ ، حكموا – تأسيسًا على غياب الاسم النسائي في المصادر – بغيابهن الحقيقي في الأحداث . وهو حكم خاطئ بناءً على بحثنا السابق .

---

(١) راجع مقدمة باب الجهاد .

الفصل الثالث

النساء في الفتوحات الإسلامية

كيف كان حجم خروج المرأة في الفتوح ؟ ، فتوح الشام والعراق ، وكيف كانت طبيعة دورها ؟ هل كان دورًا سلبيًا ، لا يراد من ورائه سوى المصاحبة للأزواج ؟ أم كان الدور الإيجابي المخطط له ، والمحسوب النتائج ؟.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات ليست الإجابة السهلة اليسيرة ، فليس لدينا الصورة الواضحة : مجملةً أو دقيقةً لحركة المرأة في حوادث الفتوح ، بل إن تفاصيل حوادث الفتوح نفسها ليست لدينا على الصورة التي نستطيع بها تكوين رؤيةٍ سليمةٍ لمسار هذه الفتوح ، لقد ضاعت التفاصيل في غمار الغايات الكبرى التي تحققت في الفتوح ، ولم يبق إلا أثارات متناثرةٍ خلال الروايات التاريخية التي نقلها إلينا الرواة ، وفي ثنايا موضوعات أخرى لا تقصد إلى إيضاح حركة المرأة ، فضلًا عن تقييم هذه الحركة . ولا يبقي أمام الباحث إلا أن يحاول استعارة هذه الأثارات من سياقها الذي وردت فيه ، ولَمِّ أطرافها ، ليحاول أن يُكَوِّن منها صورةً قريبةً من الأصل ، أو شبيهةً به ، أو دالةً عليه .

حجم الدور النسائي في جيوش الفتوح وطبيعته

لعل أهم أصل من أصول درس هذا الموضوع هو أن الجيوش الإسلامية جميعًا – وبلا استثناء – كانت تخرج ومعها النساء والذراري [١] ، ذكر البلاذري : أنه بعد أن فرغ أبو بكر من أمر الردة ، رأى توجيه الجيوش إلى الشام ، فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن ونجد والحجاز ، فأتوا المدينة من كل أوب [٢] ، وتلاحقت أعداد كبيرة من القبائل اليمنية : خثعم و طيِّئ والأزد ، وقيس ، وبني كنانة ... وكلها كانت صحبة النساء والذراري [٣] ، ولما قدمت حمير على أبي بكر ﷺ وكانت أول القبائل اليمنية قدومًا – ومعها نساؤها وأولادها ، فرح ﷺ بمقدمهم ، فلما رآهم قال :« عباد الله ألم نكن نتحدث فنقول : إذا أقبلت حمير تحمل أولادها

---

(١) الأزدي : فتوح الشام ٢٥ ، الطبري:تاريخ الرسل والملوك ٤٤/٤ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٢٨ ، بدون إسناد .

(٣) الأزدي : فتوح الشام : ١٦.

ومعها نساؤها ، نصر الله المسلم وخان [١] المشرك ؟ فأبشروا أيها المسلمون قد جاءكم النصر [٢] » .

ولقد يعجب الباحث عجبًا بعيدًا من هذا الخروج النسائي الرائع في الفتوح ، فلقد أورد الطبري رواية عن النساء في فتوح العراق ، قال : « لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأة يوم القادسية من بَجيلة والنَّخَع ، وكان في النَّخَع سبعمائة امرأة فارغة ، وفي بَجيلة ألف ، فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب ، وهؤلاء سبعمائة ، وكانت النَّخَع ، وبَجيلة تسميان أصهار المهاجرين [٣] » . فإذا كان هذا عدد النساء الفارغات فكيف يمكن أن يكون العدد لو انضافت إليه أعداد غير الفارغات ؟!.

لقد خرجت قبائل العرب من المسلمين كوحدات اجتماعية مجاهدة إلى أراضي الفتوح ، ومما لا شك فيه أن الكيان الإسلامي المجاهد قد أفاد من هذا الخروج الاجتماعي إفادة ، يدلل عليها الحرص من كافة القبائل على أن يتم هذا الخروج على هذا النحو الشامل لأغلب - إن لم يكن لكل - أفراد القبيلة .

وهنا سؤال يفرض نفسه : ما طبيعة دور النساء في الفتوح الإسلامية في ظل هذا الخروج الباعث على التأمل البعيد ؟ إننا إذا ما جئنا إلى فتوح الشام ، نجد أنه مما يدعو إلى الأسف أنه ليس هناك من الروايات ما يوضح طبيعة هذا الدور توضيحًا شافيًا ، ولم تعرض الروايات مع الذكر العام لخروج النساء مع الرجال إلا لمحات خاطفة لمواقف فردية متميزة للنساء أثناء المعارك وفي حومة الميدان .

ولقد يلفت الانتباه أنه فيما عدا هذه الروايات المجملة ، والخاطفة ، فإن المصادر لا تكاد تذكر شيئًا عن طبيعة أدوار النساء في هذه الفتوح ، حتى ليكاد من لم يطَّلع على الروايات التي ذكرت خروجهن المجمل مع الرجال ، وهي روايات قليلة جدًّا ، أن يجزم بعدم وجودهن في الفتوحات ، فضلًا عن القول بدور لهن ، لولا أنه يفاجأ في بعض المعارك بوجودهن [٤] .

(١) خان المشرك : أي غيَّر حاله إلى شر منها . وخوَّن أيضًا بمعنى : نقص ، تَنَقَّص .

(٢) الأزدي فتوح الشام : ١٦ .

(٣) تاريخ الطبري : ٥٨١/٣.

(٤) تأمل كيف أنه في تاريخ الطبري ، على سبيل المثال ، وفي ذكره لأخبار الفتوح من الصفحة : ٣٤٣/٣ : ٤٠٠ ، لا يعثر الباحث على خبر واحد عن النساء المصاحبات للجيوش ! .

فأما الدور المستمر والتحضيري الذي تدل عليه الحركة الشاملة للقبيلة : رجالها ونسائها وأطفالها ، وتدل عليه أيضًا النُّقْلَة المجهدة من كافة أطراف الجزيرة إلى بلاد الفتوح ، هذا الدور المستمر والمتوقع - بطبيعة الحال - لا نكاد نجد له وصفًا أو إشارة في الروايات التاريخية . ومع ذلك فنحن نذهب إلى التأكيد على وجود هذا الدور [١] ، فالقرائن العقلية جميعا تأبى أن تتجاهله ، وإن غابت الروايات الدالة عليه .

ولقد يمكن للباحث أن يتعرَّف على شيء من طبيعة هذه الأدوار ، من خلال الروايات المذكورة عن أدوار النساء في فتوح العراق ، والفرس ، وهو ما سوف نعرض له بعد الانتهاء من فتوح الشام .

إن كتب التاريخ المتداولة لتكتفي بالإشارة إلى بعضٍ من الأدوار الفذة التي قامت بها المرأة في ميادين القتال ، ولقد كان هذا هو ديدن الكتابات التاريخية في مصادرها الأولى أيضًا - كما أشرت إلى ذلك مرارًا في ثنايا هذه الدراسة - ذلك أن التاريخ وهو يسجل الانتصارات ، والأمجاد ، لم يكن يذكر الثمن الذي كان على المرأة أن تدفعه ، مع أخيها الرجل : نُقْلَةً مجهدة من الديار ، وعدم استقرار ، ومعاناة في سبيل حمل الدين إلى الآفاق ،وفقد للأحباب من الآباء ، والأبناء ، والأزواج ، والإخوة .

ولقد أدت هذه الإشارة التي لم تكن تهتم بالأدوار الأخرى التي لا تتسم بالطابع المشوق ، والخارق ، وهي لا تخرج - رغم ذلك - عن كونها أدوارًا مجهدة ، ومضنية ، وشاقة ، إلى تبسيط هذا الدور ، وتسطيحه ، بل وتهميشه . وأدت بنا نحن رجال ونساء العصرالحديث إلى النظرة البتراء لما تعنيه الرابطة بين النصر ، والاستعداد التام ، وهي رابطة طالب بها الإسلام الأمة كلها في قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [٢] ، وكان المسلمون الأولون يفهمون هذا الطلب جيدًا ، ويعملون له ، ويمارسونه .

أما نحن فلم ننتبه لتلك الرابطة ، وهي سنة كونية لا يتأتى فيها النصر بغير الاستعداد التام ، فغدا الرجال في عالمنا مجاهدين ، وجلست النساء في غيبة عن هذه

---

(١) ينبغي الإشارة هنا إلى أن الدور الدعوي والتبليغي خاصة فيما يتصل برواية الحديث كان دورًا واضحًا للمرأة خلال تطوافي في المصادر وهو أمر يحتاج إلى بحث مستقل . ولا يدخل فيما نحن بسبيله الآن .

(٢) سورة الأنفال ٦٠ .

المسئولية ، التي أوهمتهم العروض التاريخية ، مع غيرها من الموهمات ، بأن المسئولية ليست واقعة عليهن ، فصارت نساء الأمة قوى سلبية ، وطاقات معطلة في أفضل الأحوال ، ناهيك عن الأحوال الأخرى التي يصرن فيها قوى مضادة لتوجهات الأمة . وكيف لا يحدث هذا ، وقد عزلن عن حمل الأمانة ، وكأنما لم يكن الدين لهن ، فليست مسئوليته مما يعنيهن ، وكأنه كان دينًا للرجال وحدهم ، وكانت أمة للرجال فقط ، يحملون وحدهم أمانة الدين ، وتبعة تمثيل الأمة .

ولطالما كان العلماء يشيرون إلى المكانة الرفيعة التي حظيت بها المرأة في ظل هذا الدين الذي مدَّ رواقه على تاريخ العرب ، غير أن هذه الإشارة ، مع فراغ المصادر التاريخية من الأدوار النسائية ، التي هي مقتضى ما حظيت به من مكانة ، مع غياب الإشارة من العلماء إلى أن هذه المكانة ليست في حقيقتها إلا مسئوليةً حملتها المرأة مع الرجل وكانت هذه المسئولية في شأن الجهاد هي مسئولية تبليغ هذا الدين إلى الآفاق العريضة ، وهو الهدف الأسمي من الجهاد – قد أصبحت إشارة لا مضمون لها .

الإهمال التأريخي

وعلي الرغم من خروج أعداد كبيرة من النساء في الفتوحات الإسلامية ، مع ما يمثله ذلك من قيمة في التاريخ الجهادي للمسلمين ، فإن دور المرأة في الفتوحات الإسلامية من وجهة النظر الحربية ، ومن حيث هو تاريخ لحركة الفتوحات الإسلامية ، لم ينل ما يستحقه من عناية ونظر .

وعلي كثرة الصفحات التي سودت في التاريخ السياسي والاجتماعي والفكري والثقافي والمالي الأدبي والحربي .. إلخ ، قديمًا وحديثا ، فإنها جميعًا لم تتعرض لدور المرأة في الفتوحات إلا لمامًا ، وفي وقفات خاطفة ، دون أن تعرض لطبيعة هذا الدور : حجمه على وجه الدقة ، وطبيعته ، ومستواه ، حتى إن الباحث قد يتورط إذا لم يترك الأمر قليلًا في مُخْتَبَرِ عقله ، ويذهب إلى القول بسلبية دورهن ، أو غيابه ، وهو ما يأباه النظر ، وتأباه الروايات التاريخية القائلة بخروجهن ، كما أسلفنا .

لقد نقلت الدراسات الحديثة عن أمهات الكتب ما سطره مؤلفوها ، وفي أكثر الأحيان بنفس عباراتهم دونما إضافةٍ أو شرحٍ أو تحقيق . وحتى الدراسات التي أفردت لتأريخ الفتوحات ، والبحث فيها من الناحية الحربية والاستراتيجية ، لم تكن صورة

المرأة فيها أحسن حالًا من الدراسات الأخرى [١]. ومما يدعو إلى أشد الأسف ، ويدفع في الوقت نفسه عن الدراسات الحديثة مظنة إهمال الدور النسائي في الفتوحات أن هذا الدور للمرأة لم يدون في المصادر التاريخية الأصول بما يستحقه من اهتمام .

لقد دونت هذه المصادر في عهد متأخر عن تواريخ الفتوحات الإسلامية ، ففاتها الكثير مما يتطلبه البحث فيها مثل تاريخ الموقعة ، وأعداد القوات ، وتشكيلها ، وتحركاتها ، وصفة أرض المعركة ، وأنواع أسلحتها ، والشئون الإدارية [٢]. ودور المرأة في الفتوحات الإسلامية الأولى واحد من أبرز القضايا التي فات هذه الكتب تدوينها على الوجه الدقيق .

ولذا فإن محاولة رصد هذا الدور تكاد تقتصر في معظمها على محاولة استنطاق النصوص في شأن الفتوحات ، وملء الفراغ الشاسع عن المرأة فيها. وليس يملك الباحث من الأدوات سوى هذه الأثارات المتناثرة التي ذكرنا ، والقليلة بما لا يتناسب مع حجم حركة الفتوحات الإسلامية ، بل ولا مع حجم المصاحبة النسائية للرجال في هذه الفتوحات .

التناقض في روايات الفتوح

إن الباحث قد يصاب بكثير من خيبة الأمل حين تواجهه الروايات التي تتضارب وتتناقض في مضمونها مع هذه الروايات القليلة المتواضعة التي عرضت للمرأة في الفتوحات ، وأغلب هذه الروايات مسندة . والمسألة عند التحقيق لا ترجع إلى تعصب على المرأة ،كما قد يتوهم البعض ، ولكنها أزمة تأريخية شملت روايات الفتوحات الإسلامية جميعها ، فشملت دور المرأة مع ما اشتملت عليه .

وهذه الأزمة ، أزمة تضارب الروايات وتناقضها هي ما عبر عنه المستشرق ناسوليس في مقدمته لكتاب الواقدي « فتوح الشام » ، قال : إنه لم يستطع الترجيح بين اختلافات مؤرخي الفتوحات ، وأنه ما لم يقم أحد بهذا العمل ، فسوف يكون

---

(١) انظر مجموعة الدراسات القيمة في تاريخ الفتوحات للأستاذ : أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ، الطريق إلى المدائن ، القادسية ، سقوط المدائن .

(٢) أشار إلى ذلك كل من الأستاذ أحمد عادل كمال : الطريق إلى المدائن ١٨ ، والفريق طه باشا الهاشمي : خالد بن الوليد ٣٥ . نقلًا عن الأول .

من المحال الوصول إلى أي نتيجة تستحق التصديق [١] ، وهذا أمر قرره العلماء من قديم [٢] ، واستنكره الطبري قائلًا : ومن الأمور التي تستنكر وقوع مثل هذا الاختلاف في وقته لقرب بعض ذلك من بعض [٣].

ويصبح لزاما على الباحث أن يحقق الواقعة أولًا ، وإلا فلا جدوى منها البتة في ظل تصارع الروايات . وفي ضوء هذا ، يصدق تمامًا القول بأن الدور الجهادي للمرأة في الفتوح لم يبحث بعدُ بحثًا علميًّا صحيحًا .

هل كان الدور النسائي في الفتوح هامشيًّا ؟

هناك رواية ربما ألقت بظلال من الشك على وجود هذا الدور للمرأة وأهميته ، حدثت إبان خروج الجيوش الأولى للفتوح على عهد الصديق ﷺ .

فقد ذكر الأزدي ، قال : إنه قدم من اليمن جماعة من خثعم دون الألف ، وفوق التسعمائة ، عليهم ابن ذي السهم الخثعمي فقال لأبي بكر : « إنا قد تركنا الديار ، والأموال ، والأصول وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا ، ونحن نريد جهاد المشركين فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا ، أنخلفهم عندك ونمضي فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم فأقدمتهم علينا ، أم ترى لنا أن نخرجهم معنا ونتوكل على ربنا » .

قال أبو بكر : « سبحان الله ، يا معشر المسلمين هل سمعتم ممن سار من المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر عن الأولاد والنساء مثل ذكر أخي خثعم ، أما إني أقسم لك يا أخا خثعم أني لو سمعت هذا القول منك والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحببتُ أن أحتبس عيالاتهم عندي ، وأسرحهم وليس معهم من النساء والأولاد ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم ، ولكنه قد مضى عظم الناس وذراريهم ، ولك بجماعة المسلمين أسوة وأنا أرجو أن يدفع الله بعزته عن حرمة الإسلام وأهله ، فسر في حفظ الله وكنفه .. فسار ابن ذي السهم بمن معه حتى لحق بيزيد بن أبي سفيان [٤] » .

إن الرواية توحي لنا بأن خروجهن كان يبدو للصديق في هذا الموقف كعمل غيرِ

---

(١) ناسوليس : في مقدمته لفتوح الشام ، طبعة كلكتا ص ١٨ ، نقلا عن : أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٧٨ .

(٢) انظر : ابن الأثير : أُسد الغابة ١٢٤/٢ ، ابن حجر : الإصابة ٢٠٤/٢ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤٤٢/٣ .

(٤) الأزدي : فتوح الشام ٢٥ . عن قدامة بن جابر عن سفيان . وانظر أيضًا : ص ٢٧.

مخططٍ له ، فهل كان خروجهن إذًا خطأً غير مدروس ؟!!. وهل يعقل أن يكون دورهن الدور السلبي الذي تثقل به حركة الجيش وتتوزع اهتماماته ، وهو الجيش المقدم على مواجهة عاتية مع أعظم الكيانات العسكرية والسياسية آنئذ : الفرس والروم ؟. وهل من المعقول أن نتصور أنهن مشغلة وهمٌّ على الجنود ، ومع ذلك لم يشأ أبو بكر أن يزيل أسبابه - وقد كان مستطيعًا لو أراد - لمجرد رغبته في أن يتأسى الخثعميون بجماعة المسلمين التي سبقت إلى الشام والعراق ؟.

لقد كان المعقول لو كان دورهن على هذه الصورة السلبية ، أو فلنقل على الصورة التي يستوي فيها غيابهن وحضورهن ، أن يحتبس أبو بكر ﷺ الخثعميات وعيالاتهن ، وقد فاته أن يحتبس عنده نساء معْظم الناس الذين سبقوا وعيالاتهم ، خاصة وأن ما لا يدرك كله لا يترك كله ؟، لكنه ﷺ لم يفعل شيئًا من هذا ، الأمر الذي يرجح عندي كِفَّة أنه لم يكن يزدري هذه المصاحبة ، أو يراها على النحو الذي أوحت به الرواية المذكورة .

صحيح أن موعود الله ﷻ كان مستقرًّا في النفوس ، فلقد كان خروج المسلمين بنسائهم وذراريهم تصديقًا منهم لمقالة النبي ﷺ ، وهذا ما عبر عنه أصحاب هرقل حين قالوا له : « قد أتتك العرب وجمعت لك جموعًا عظيمةً ، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم قد أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لا يشكون أن هذا سيكون ، وجاءوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقًا لمقالة نبيهم ، يقولون : لو دخلنا فتحناها ونزلنا بنسائنا وأولادنا »[1] ! . فلقد كان هذا الموعود الإلهي حافزًا ومُطَمْئِنًا للمسلمين في الوقت نفسه إلى أنهم ظاهرون إن شاء الله وفاتحون لهذه البلاد .

لكن المنهج القرآني - مع ذلك - لم يعلمهم إلقاء النفس إلى التهلكة ، وتعريض النساء والولدان لخطر محقق بالسبي والرق والخدمة ، وربما القتل إذا دارت الدائرة عليهم ، خاصة وأن موعود الله ليس معناه أن يتم الأمر بغير ثمن من جهد ومال وأنفس ، وإنما علمهم الأخذ بكافة أسباب الحذر والحيطة أولًا ليتحقق موعود الله ﷻ ، ولقد كان الصحابة يفهمون ذلك جيدًا ويعملون به ، وهذا ما يدعونا أيضًا إلى الاعتقاد بوجود دور فاعل ومؤثر للنساء في الفتوح

(١) الأزدي : فتوح الشام ٢٧ رواية عن عبد الملك بن نوفل عن أبي سعيد المقبري وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص .

الإسلامية ، وهذا مما يمكن أن نلمسه في استبشار أبي بكر ﷺ بمقدم المسلمين من أهل حمير مع نسائهم كما سبق .

ولو صحت هذه الرواية الموهمة بأن دورهن في الفتوح كان دورًا سلبيًا ، فإنها - في رأيي - تدخل فيما يمكن تسميته بالخاطر السريع الذي جال بفكر الصديق ﷺ ، دون أن ينال حظه من التفكر والمشاورة ، وبحث النتائج المترتبة عليه ، وهو على أي حال لم يتم ، وما نظن أن عدم حدوثه كان ناتجًا عن مجرد الرغبة في أن يتأسى الخثعميون بباقي الجيش ، فبعيدًا عما يقودني إليه العقل والدرس ، وما أومن به من القول بضرورة أن تكون هناك حاجة من جنس العملية الجهادية نفسها لهذا الخروج ، بعيدًا عن ذلك هناك أيضًا عدم كفاية موارد المدينة ، وعدم قدرتها على إعاشة هذه الجموع الكبيرة من النساء والذراري .

ولو كان هذا الخروج سلبيًا فلقد كان حريًا بالصحابة أن يستبْقُوهن والأولاد حتى يتم الفتح ، مهما تكن تكاليف استبقائهن . لكن هذا لم يحدث ، ذلك أن خروجهن لم يكن خروجًا ترفيًا ، بل كان خروجًا جهاديًا ، وإلا فمن ذا الذي ينكر أن هذا الخروج - أيًا كان موقعهن فيه : معاونة ، أو قتالًا ، أو مصاحبة للجيوش كي لا تتوزع اهتمامات الرجال في الميدان ، وينشغل فكرهم بحال أزواجهم ، وأبنائهم - كان جهادًا ، ذلك أنهن ما خرجن إلا والخطر عليهن وارد في كل الأحوال .

لقد كانت الخطوة الأولى في الفتوح خطوةً مباركة للرجل والمرأة معًا يحملان فيها دعوة الإسلام ، فتحًا للشعوب والأمم .

ويبقى أن أسجل أخيرًا أن البحث - باستثناء ، ما ذكرنا من تأكيد على وجود دور فاعل لهن فيما يتصل بالمسائل التحضيرية للجيوش - سيظل مرتبطًا بالروايات القليلة التي أوردتها المصادر عن النساء ، وهي روايات انصبت على دورهن في الوقعة الحربية نفسها ، أما استعدادات المعركة وترتيبها وطبيعة دور النساء منذ خرجن من ديارهن في الفتوح فهي سديم مطلق ، لا نملك إزاءه إلا أن نسجله آسفين .

التتبع التاريخي للأدوار النسائية في فتوح الشام

معركة أجنادين

كانت موقعة أجنادين [١] هي أولى المواقع الشامية التي ذكر فيها النساء [٢]، وأولى المواقع التي اجتمعت فيها جيوش المسلمين التي كان أبو بكر ﷺ قد وجه بها إلى الشام [٣]. تقول الروايات : وضع خالد خلف جيشه النساء يستغثن الله ، وكلما مر بهن رجل من المسلمين دفعن إليه أولادهن ، وقلن له : « قاتلوا دون أولادكم ونسائكم » ، كما أمرهن خالد أن يحترمن ، أي يحرمن على الرجال ما كان مباحًا لهم معهن ، فهم الآن في معركة وعدوهم قد صف لهم صفوفه [٤] في عدة هائلةٍ ، مائة ألف رومي في مقابل ثلاثةٍ وثلاثين ألف مسلم [٥] .

إنه سلاح معنوي له وزنه ، فبالإضافة إلى جميع الأبعاد التي يقاتل من أجلها المسلمون ، زاد عليها خالد بعدًا جديدًا هو الدفاع عن العرض والشرف ، الدفاع عن الأمهات والأخوات والزوجات والبنات ، وصار على كلٍّ منهم أن يضع في اعتباره ذلك التساؤل : « ماذا لو انهزمنا » ، لم يكن هناك غير جوابٍ واحد .. أن تسبي أمه وزوجته وبناته ، يبعن في الأسواق ، ويخدمن جواريَ في بيوت الروم [٦] .

ومما يدعو إلى النظر ، ويسترعي الانتباه أن النساء كن جد قريبات من الجيش ، بحيث كن يمارسن حياتهن الطبيعية ، كان أبان بن سعيد بن العاص [٧] قد خطب أم

(١) تنطق أجنادَيْن ، وأجنادِين ، وقد عرض الأستاذ أحمد عادل كمال لتعريف أجنادين فقال :إنه ليس معلومًا على وجه القطع واليقين أين كان ، فهو وإن كان مشهورًا في التاريخ ، فإنه غير معروف في الجغرافيا ، وقال : لم يذكره ابن خرداذبه ، ولا الإصطخري ، ولا قدامة بن جعفر ، ولا ابن جبير ، ولا المقدسي ، ولا القزويني في كتبهم . فقط جاء في الطبري عن ابن إسحاق : أن الروم قد انكشفوا عن جِلِّق إلى أجنادين ، وهي بين الرملة وبيت جبرين وهما موقعان معروفان اليوم الطريق بينهما ٥٠ كم ، والخط المستقيم بينهما ٣٥ كم ، فأجنادين إذًا في هذا النطاق . أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٢٧٣ .

(٢) سبقتها موقعة بصري في ١٥ من شهر ربيع الأول ١٣ هـ ، وكان فتحها صلحًا على أن يؤمَّنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم ، وأن يؤدوا الجزية . البلاذري : فتوح البلدان : ١٤٣ .

(٣) راجع أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٢٦٣ : ٢٦٧ .

(٤) الأزدي : تاريخ فتوح الشام ٨٥ وما بعدها .

(٥) أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٢٧٧ .

(٦) أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق : ٢٧٧ : ٢٧٨ .

(٧) أبان بن سعيد بن العاص : أبو الوليد الأموي .تأخر إسلامه ، وكان تاجرًا موسرًا ، وهو الذي أجار ابن عمه عثمان بن عفان يوم الحديبية حين بعثه النبي رسولًا إلى مكة . أسلم قبل الفتح وهاجر . وقد استعمله النبي سنة تسع على البحرين . استشهد وأخوه خالد يوم أجنادين على الصحيح . قاله الذهبي : سير أعلام النبلاء ١/ ٢٦١ .

أبان ابنة عتبة بن ربيعة [١] ، فتزوجها ودخل بها بأجنادين ليلة الجمعة ، وبات عندها ليلة السبت وكانت المعركة غداة السبت . وأصابت أبان بن سعيد نشابةً ، بعدما أبلى بلاءً حسنًا وقاتل قتالًا عظم فيه غناؤه ، واستشهد من إصابته تلك [٢] ، فقالت أم أبان : « ما كان أغناني عن ليلتي أبان » .

معركة مرج الصُّفّر

أول ما يستوقفنا في هذه الموقعة أن هناك رواية غير مسندة ذكرت أن خالدًا بن الوليد قد استبعد النساء والأثقال قبل هذه الموقعة [٣] ، وقد يفهم من هذه العبارة - وهو الأقرب للصحيح - أن خالدًا قد خصص لهن مكانًا آمنًا غير معرض لهجمات العدو ، وليس بعيدًا كذلك عن المقاتلين المسلمين ، وقد يفهم غير ذلك .

وأورد ابن عبد البر القرطبي في كتابه الاستيعاب ، روايةً مفصلة قال : كانت أُم حكيم بنت الحارث بن هشام [٤] تحت عكرمة بن أبي جهل ، فقتل عنها بأجنادين ، فاعتدت أربعة أشهرٍ وعشرًا ، وكان يزيد بن أبي سفيان يخطبها ، وكان خالد بن سعيد يرسل إليها يعرض لها في خطبتها ، فخطبت إلى خالد بن سعيد ، فتزوجها .

فلما نزل المسلمون مرج الصفر - وكان خالد قد شهد أجنادين وفِحل ومرج الصفر - أراد أن يعرِّس بأم حكيم فجعلت تقول : لو أُخرت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع ، فقال خالد : إن نفسي تحدثني أني أُصاب في جموعهم . قالت : فدونك ، فأعرس بها عند القنطرة التي بالصفّر ، فبها سميت قنطرة أم حكيم ، وأولم عليها ، فدعا أصحابه إلى طعام ، فما فرغوا من الطعام حتى صفت الروم صفوفها .

وبرز خالد بن سعيد فقاتل فقتل ، وشدت أم حكيم عليها ثيابها وتبدت ، وإن عليها أثر الخلوق ، فاقتتلوا أشد القتال على النهر ، وصبر الفريقان جميعًا ، وأخذت السيوف بعضها

---

(١) أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بنت عبد شمس : خالة معاوية . شهدت الفتح مع أخيها أبي هاشم ، وزوجها أبان بن سعيد بن العاص . لما قدمت من الشام بعد استشهاد أبان خطبها عمر ، وعلي ، والزبير ، وطلحة فأبت إلا طلحة ، فتزوجها . الإصابة : ٣٥٤/٨ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ١٣٤/٢٨.

(٢) قال البلاذري في الفتوح ١٢١ : توفي أبان في أجنادين ، وذلك الثبت . ويقال : بل توفي في سنة تسع وعشرين .

(٣) أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق :٢٩٣ .

(٤) أم حكيم بنت الحارث المخزومية : حضرت يوم أحد وهي كافرة وأسلمت يوم الفتح ، وتوجهت إلى زوجها عكرمة باليمن لما فر يوم الفتح وأحضرته ، وأسلم ثم خرجت معه لغزو الروم . ابن حجر : الإصابة ٣٧٩/٨ .

بعضًا ، وقتلت أُم حكيم يومئذ سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد معرسًا بها [١].

هذه الرواية على هذه الحالة المفصلة والدقيقة - رغم استشعاري لدرجة من المبالغة في العدد الذي قتلته بعمود الخيمة - تدعونا إلى النظر فيها وتقديمها ، خاصة وأن الرواية التي ذكرت استبعاد النساء - إذا فهمت على غير ما ذكرنا - رواية غير مسندة ، والروايات الأخرى في هذا الموقف لأم حكيم لم تكن إلا روايات مجملة [٢].

وهذه الرواية تؤكد أن عكرمة ﷺ قد استشهد في أجنادين . وهو ما أرجحه من مراجعة الروايات المختلفة [٣] .

---

(١) ابن عبد البر القرطبي : الاستيعاب ٤٨٦/٤ . وقد ذكر البلاذري موقف أم حكيم هذا ولكن بتفصيل أقل ، وبدون إسناد في البلاذري :فتوح البلدان :١٢٥

(٢) انظر ابن حجر : الإصابة : ٣٧٩/٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ١٢٥ . ولقد يمكن لهذه الرواية المفصلة أن تكون مفتاحًا لترتيب بعض الوقائع التاريخية المختلف فيها كاستشهاد كلًّا من عكرمة وخالد بن سعيد ، وتعيين زمن موقعة مرج الصفر ، وتوقيتها توقيتًا أقرب إلى الدقة من تلك التوقيتات الشائعة عنها كما في الهامش التالي .

(٣) لقد اختلفت وتناقضت الروايات في الحديث عن زمن استشهاد عكرمة ، وتلك سمة من سمات روايات الفتوح عامة ، كما وضحنا ، اختلف في ذلك قول الزبير ، وابن إسحاق ، فأما الزبير بن بكار فمرة قال : قتل يوم اليرموك شهيدًا . وقال في موضع آخر : استشهد يوم أجنادين ، وأما ابن إسحاق فمرة قال : قتل يوم اليرموك ، ومرة قال : يوم فِحل . وأورد الطبري عدة روايات تذكر عكرمة في اليرموك ، و روايات أخرى تذكره في مرج الصُّفَّر . والروايات التي ذكرت استشهاده في مرج الصُّفر لم تنسب لقائل ، وإنما ذكرت دائمًا مقرونةً بالقول : قيل ، ويقال . ولذا لم نعتد بها .

أما الروايات الأخرى فصريحة القول باستشهاده يوم أجنادين . وقد استقصيت هذه الروايات في مصادرها المختلفة ، وأجدني مطمئنة إلى هذا الرأي الأخير ، ترجيحًا لما رواته أكثر على ما رواته أقل ، بل ولما رواياته أوثق ، ولأن الروايات التي تذكر استشهاده في أجنادين تتسق مع ترتيب المعارك الذي قالت به معظم المرويات ، وأخيرا فالرواية المذكورة عن أم حكيم تساندها ، وهو ما أردت تحقيقه ، و ذلك أنه إذا لم يكن عكرمة قد استشهد في أجنادين فإن الرواية المذكورة عن أُم حكيم تصبح غير ذات قيمة فيما نحن بسبيله من حديث عن دور المرأة في هذه المعركة .

علمًا بأن زمن استشهاد خالد بن سعيد لم يشذ هو الآخر عن أي من أحداث الفتوح التي تضاربت فيها الروايات ، قال ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب : قتل خالد بن سعيد يوم أجنادين وذكر مثل ذلك ، وذهب الذهبي إلى ذلك أيضًا . بينما قال ابن حزم ، وابن الأثير ، والبلاذري : إنه استشهد يوم مرج الصُّفَّر . وقال ابن حجر : قال ابن إسحاق ، وخليفة والزبير بن بكار: استشهد يوم مرج الصفر . الروايات الأكثر إذن في جانب القول بأن خالدًا استشهد في مرج الصُّفَّر ، فإذا انضاف إلى ذلك زواجه من أم حكيم وهو أمر قررته أغلب المصادر ، فإن القول باستشهاده في مرج الصفر يصبح قولًا مقنعًا ؛ لأنه لا يتزوج من أم حكيم إلا إذا كان عكرمة قد استشهد أولًا في أجنادين راجع هذه الروايات في مظانها .

وأخيرًا فإن الرواية غير المسندة عن إبعاد خالد ﷺ للأثقال والنساء قبل موقعة مرج الصفر تتناقض - كما وضح - مع شهود أم حكيم للموقعة وقتالها ، حتى قتلت سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد بن سعيد معرسًا بها .

لقد كانت النساء إذن جد قريبات من المعركة وهو ما دل عليه قول الرواية : « أولم عليها فما فرغوا من الطعام حتى صفت الروم صفوفها » . أما كيف كان ذلك على وجه التفصيل والدقة ، فلقد سكتت المصادر ، وليس أمامنا سوى هذه الرواية التي ذكرنا عن أم حكيم ، ولا يعقل أن تكون رضي الله عنها وحدها من النساء في المعركة .

معركة اليرموك

كانت معركة اليرموك هي أكثر معارك الفتوح التي ذكرت المصادر فيها حضورًا نسائيًا واضحًا ، وذلك على العكس مما كان يحدث في المواقع الأخرى التي كان يتوقف تسجيل الحضور فيها على شخصية واحدة في أغلب الأحيان ، ربما لكبر حجم المعركة [١] ، وربما للعدد الهائل من الصحابة الذين شهدوها ، فلقد شهد اليرموك ألف رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيهم نحو مائة من أصحاب بدر [٢] - وجميع أهل بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر بدريًا - مما حدا بالرواة إلى تسجيل أدق لما كان في المعركة . والمسألة كما ذكرنا قبل مسألة تأريخية عامة إذا استقامت من بعض جوانبها أفادت جوانب أخرى ، دون أن تقصد إلى ذلك ، وربما قصدت .

النساء في خطة المعركة

قال ابن كثير : ويقال إن الصحابة لما اجتمعوا للمشورة في كيفية المسير إلى الروم ، جلس الأمراء لذلك فجاء أبو سفيان (فأشار أن يتجزأ الجيش ثلاثة أجزاء ، فيسير ثلثه فينزلون تجاه الروم ، ثم تسير الأثقال والذراري (النساء) في الثلث الآخر ، ويتأخر خالد بالثلث الآخر ، حتى إذا وصلت الأثقال إلى أولئك سار بعدهم ونزلوا في مكان تكون البرية من وراء ظهورهم لتصل إليهم البرد والمدد . فامتثلوا ما أشار به ونعم الرأي هو [٣] .

---

(١) اختلفت الروايات في أعداد المسلمين والروم معا ، فأما المسلمون فلقد ذكرت الروايات أن عددهم كان ٢٤٠٠٠ ، وقيل ٣٦٠٠٠ ، وقيل : ٤٦٠٠٠ . وأما الروم فالاختلاف في أعدادهم أشد ، قالوا : ١٠٠٠٠٠ ، وقالوا : ١٢٠٠٠٠ ، وقالوا : ٢٠٠٠٠٠ ، وقالوا : ٢٤٠٠٠٠ ، وقالوا : ٣٠٠٠٠٠ . راجع أحمد عادل كمال : الطريق إلى دمشق ٤٠٤ : ٤٠٧ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٩٧/٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٧ .

وساق خالد إلى النساء من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها ، فقال لهن : من رأيتموه موليًا فاقتلنه ، ثم رجع إلى موقفه ﷺ [١] .

وقال أبو سفيان : يا معشر المسلمين أنتم العرب ، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين ، وأمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموه [٢] في أنفسهم وبلادهم ونسائهم والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رِضوان الله غدًا إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، ألا وإنها سنَّة لازمةٌ ، وأن الأرض وراءكم بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله ، فهو خير معوّل ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا ، ولتكن هي الحصون . ثم ذهب إلى النساء فوصاهن [٣] ، وحرضهن فقال : من رأيتنه فارًّا فاضربنه بهذه الأحجار والعصى حتى يرجع [٤].

وجاءت نساء المسلمين فوقفن على مرتفع خلف الصفوف ينظرن ما يكون من أمر المعركة واستقبل النساء مَن انهزم من سَرَعان [٥] الناس يضربنهم بالخشب والحجارة ، وجعلت خولة بنت ثعلبة [٦] تقول :

يا هاربا عن نسوة تقيات ...فعن قليل ما ترى سبيات ... ولا حظيات [٧] ولا رضيات

قال [٨] : فتراجع الناس إلى مواقفهم ، وثبتت النساء على مواقفهن ، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن : أين تذهبون وتدعونا للعلوج [٩] ، فإذا

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩/٧ . (٢) ثأرتم منهم .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٩/٧ .

(٤) السابق : ١١/٧ . عن إسحاق بن بشير ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن قدماء مشايخ دمشق .

(٥) سرعان الناس :أوائلهم المستبقون إلى الأمر .

(٦) خولة بنت مالك بن ثعلبة بن أسرم بن فهر بن غنم بن عمرو بن عوف : ويقال : خولة بنت حكيم . وهي التي ظاهر منها زوجها ونزلت فيها سورة المجادلة ، زوج أوس بن الصامت. راجع كحالة :أعلام النساء ١/ ٣٢٦، والذهبي : تجريد أسماء الصحابة ٢٦٣/٢ ، وابن حجر : تقريب التهذيب ٦٣٧/٢ ، وابن حبان : الثقات ١١٦/٣ .

(٧) الحظوة والحِظة : المكانة والمنزلة من ذي سلطان ونحوه.

(٨) القائل هو إسحاق بن بشير عن سعيد بن عبد العزيز عن قدماء مشايخ دمشق .ابن كثير : البداية والنهاية ١٢،١١/٧. والحصيات : الوافرات العقل .

(٩) العلوج : العلج : الرجل الشديد الغليظ ، ويقال أيضًا لاتباع الدين المانوية .

زجرنهم لايملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال [١].

وهجم طرف من الروم على عمرو بن العاص ﷺ بالميمنة ، فانكشف عنه أصحابه حتى دخلوا أول العسكر وهم في ذلك يقاتلون ويشدون ، ولم ينهزموا هزيمة ولوا فيها الظهر ، ثم إنهم تراجعوا حين زجرهم النساء [٢]. وسُمِعت أم حبيبة ابنة العاص - أخت عمرو - حينئذ تقول : قبح الله رجلًا يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلًا يفر عن كريمته. وصاحت نسوة من المسلمين : قاتلوا فلستم ببعولتنا إن لم تمنعونا [٣]. قال : فترادَّ الناس وزحف عمرو وأصحابه حتى عادوا إلى قريب من موقفهم [٤].

قتال النساء يوم اليرموك

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فقد ذكر أبو جعفر الطبري عن ابن إسحاق : أن الناس اقتتلوا قتالًا شديدًا حتى دُخِل عسكر المسلمين ، وقاتل نساء من نساء قريش بالسيوف حين دُخِل العسكر ، منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية -زوج عكرمة - حتى سايفن الرجال [٥].

وفي الكامل : قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم ، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم ، وأبلوا [٦] ، وجعلت هند بنت عتبة تقول : عضدوا الغلفان بسيوفكم [٧] . وروي عن أبي أُمامة - وكان قد شهد اليرموك هو وعبادة بن الصامت - أن النساء قاتلن في جولةٍ [٨] ، فخرجت جويرية بنت أبي سفيان ، وكانت مع زوجها وأصيبت بعد قتالٍ شديد [٩] .

وفي شدة المعركةِ نظر خالد إلى صفوف الروم وهي تقترب فأقبل يركض حتى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤،١٣/٧ بنفس الإسناد السابق ، ابن عساكر : تراجم النساء : ٤٨٣ .
(٢) السابق : ١٤/٧ . نفس الإسناد السابق .
(٣) الأزدي : ٢٢٨ ، ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ٢٤٧/٢٨ ، رواية عن أبي حذيفة البخاري. ترجمها ابن عساكر في كنى النساء فقال : أم حبيب بنت فلان القرشية ، ثم قال آخر الترجمة : ذكر أبو مخنف هذه القصة وقال : سمعت أم حبيب بنت العاص .
(٤) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق : تراجم النساء : ٤٨٣ .
(٥) تاريخ الطبري : ٥٧١/٣ .
(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ :٢٦١/٢ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان : ١٤١ . عن أ بي حفص الدمشقي عن أشياخه .
(٨) جال في الحرب جولة إذا دار ، وتجاولوا في الحرب أي جال بعضهم على بعض . لسان العرب .
(٩) تاريخ الطبري : ٤٠١/٣ .

اجتاز صفوف المسلمين إلى النساء وهن على التل المرتفع الذي وضعهن عليه أبو سفيان ، فقال لهن : يا نساء المسلمين أيما رجل أقبل إليكن فاقتلنه ، ثم انصرف إلى عمله .

وذكر ابن حجر ، عن الرُّشَاطي [١] ، أن أم موسي اللَّخمية [٢] شهدت مع زوجها اليرموك ، فقتلت حينئذ علجًا ، وأخذت سلبه ، وكان عبد العزيز بن مروان يستحكيها ذلك فتصفه له ، وتقول : بينما نحن في جماعة من النساء إذ جال الرجال جولة ، فأبصرت علجًا يجر رَجُلا من المسلمين فأخذت عمود الفسطاط ثم دنوت منه فشدخت به رأسه ، وأقبلت أسلبه ، فأعانني الرجل على أخذه [٣].

وذكر أيضًا عن عبد بن حميد [٤] : أن أسماء بنت يزيد بن السكن [٥] شهدت اليرموك ، وقالت : قتلتُ يوم اليرموك تسعة من الروم [٦] ، قالوا : بعمود فسطاطها [٧] . وأقول ربما كان في ذلك بعض المبالغة في العدد ، لا في الحادثة ، وقد يُحْمل على معنى أنها أجهزت عليهم بعد إصابتهم .

وتنزلت الكرامات في المعركة ، وهي سنة من سنن الله تتحقق لمن أخذوا بالأسباب جميعها ، وأعدوا العدة دون توان أو كسل ، قال ابن سعد ، أخبرنا أنس

---

(١) الرشاطي : عبد الله بن على بن عبد الله بن على ، أبو محمد اللخمي الأندلسي ، هو الإمام المتقن النسابة ، كان ضابطًا متقنًا إمامًا ، ذاكرًا للرجال ، حافظًا للتاريخ والأنساب ، فقيهًا بارعًا ، أحد الجلة المشار إليهم ، استشهد عند دخول العدو المَرِّيَّة ، في جمادي الأخرة سنة ٥٤٢ ، وقد قارب التسعين . رحمه الله . راجع سير أعلام النبلاء ٢٥٨/٢٠ ، وفيات الأعيان ١٠٦/٣ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٥/٣ ، نفح الطيب ٤٦٢/٤

(٢) أم موسي اللخمية : هي زوج نصير اللخمي والد موسى بن نصير الأمير المشهور الذي افتتح الأندلس .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبري ٥٥٠/٨ ، ابن حجر : الإصابة ٤٨٢/٨ .

(٤) عبد بن حُمَيْد : الإمام الحافظ الحجة الجَوَّال ، أبو محمد ،عبد بن حميد بن نصر الكِسي ، ويقال : الكِشِّي ، بالفتح والإعجام ، ويقال : اسمه عبد الحميد . حدَّث عنه مسلم والترمذي ، البخاري تعليقًا في دلائل النبوة ، من صحيحه. ت:٢٤٩ .راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء :٢٣٥/١٢، ٢٣٦، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٦/ ٤٥٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : ١٢٠/٢ .

(٥) سبق تعريفها .

(٦) أورده الذهبي في السير ٢٩٧/٢ ، وقال المحقق: أورده الهيثمي في « المجمع » ٢٦٠/٩ ، وقال رواه الطبراني : ورجاله ثقات .

(٧) ابن حجر : الإصابة ٢١/٨ ، ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٦/٧ ، الخزرجي : خلاصة تهذيب الكمال ٤٨٨/٣ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٩٦/٢ .

بن عياض [١] ، حدثني محمد بن أبي يحيى [٢] عن إسحاق مولى محمد بن زياد [٣] عن أبي واقد الليثي [٤] ، صاحب النبي ، ، أخبره في حديث رواه أنه شهد اليرموك ، قال : وكانت أسماء بنت أبي بكر مع الزبير قال : فسمعتها وهي تقول للزبير : يا أبا عبد الله ، والله إن كان الرجل من العدو ليمر يسعى فتصيب قدمه عروة أطناب خبائي فيسقط على وجهه ميتًا ، ما أصابه سلاح [٥].

تحقيق شخصية خولة بنت الأزور

علي أن هناك شخصية ذائعة الصيت في النساء اللاتي عرفن في اليرموك وفي فتوح الشام عامة ، ألا وهي خولة بنت الأزور .

قال صاحب كتاب « فتوح الشام » : لما أُسر ضرار بن الأزور في معركة أجنادين ، سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنقاذه فبينا هو في الطريق ، مر به فارس معتقل رمحه ، لا يبين منه إلا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على من وراءه ، حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج الفارس الغريب وسنانه ملطخ بالدماء ، وقد قتل رجالًا ، وجندل أبطالًا . حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به ، وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده خالد ذلك ، فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير إني لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور . فقال خالد : من أنت ، قالت : أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومي ، فأتاني آت بأن أخي أسير ، فركبت ، وفعلت ما رأيت .

(١) أنس بن عياض : ابن ضمرة ،أبو عبد الرحمن الليثي ، المدني ، ثقة ، مات سنة مائتين ، وله ست وتسعون سنة . خرجت أحاديثه الكتب الستة . انظر : ابن حجر : تقريب التهذيب : ١١١/١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ٣٧٥/١ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء : ٨٦/٩ .

(٢) محمد بن أبي يحيي : هو محمد بن فُليح بن سليمان ، الأسلمي ، المدني ، صدوق يهم مات سنة سبع وتسعين خرج له النسائي في سننه والبخاري في صحيحه ، وابن ماجه في سننه . راجع : ابن حجر : تقريب التهذيب ٦٢٤٨/٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤٠٦/٩ .

(٣) لم أتعرف عليه .

(٤) أبو واقد الليثي : هو الحارث بن عوف الصحابي ، شهد بدرًا والفتح ، حديثه في الكتب الستة. التاريخ الكبير ٥٨/٢ ، معجم الطبراني ٢٧٤/٣ ، شذرات الذهب ٧٦/١ ، خلاصة تهذيب الكمال ٤٦٢ ، سير أعلام النبلاء ٥٧٤/٢ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبري ٣٧٥/٧ ، ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ١٣٨/٥ .

هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم ، وكانت تجول في كل مكان علها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له أثرًا ، ولا وقفت له على خبر. على أنها لم تزل على جهادها حتى استنقذ لها أخاها [١].

ومن مواقفها الرائعة موقفها يوم أُسر النساء في معركة صحورا [٢] ، فقد وقفت في النساء وقد أسرت معهن ، فأخذت تثير نخوتهن ، وتضرم نار الحمية في قلوبهن ، ولم يكن من السلاح شيء معهن . فقالت : خذن [٣] أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ونحمل على هؤلاء اللئام ، فلعل الله أن ينصرنا عليهم ، وتتابع النساء وراءها . فقالت لهن خولة : لاينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ، ولاتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت وحطمن رماح القوم ، واكسرن سيفهم . وهجمت خولة ، وهجمت النساء وراءها وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت حتى استنقذتهن من أيدي الروم . إلى غير ذلك من روايات « فتوح الشام » عن معارك خولة في الشام .

وعلى شغف الباحث بما يروي عنها ، فإنه لا يستطيع أن يستمر في عرض بطولاتها ، أو مناقشة ما جاء في هذه الروايات ، قبل أن يقوم أولًا بتحرير هذه الشخصية ، وتحقيق أمرها . وأول ملاحظة على هذه المرويات أنها ارتبطت ببطولات أخيها ضِرار بن الأزور في معارك الشام [٤] . وهي قضية مختلف فيها إلى حد كبير ، والأرجح أنه استشهد باليمامة في معارك الردة [٥] . وهو أمر يزعزع روايات

(١) الأزدي : فتوح الشام : ٤٥ : ٥٢ . باختصار . والرواية أكبر من ذلك بكثير وفيها الكثير من السجع وأساليب البلاغة .

(٢) لم أعثر على معركة بهذا الاسم في أي من المصادر التاريخية .

(٣) ذكرها الكتاب بلفظة : « خذوا » والصحيح ما ذكرنا .

(٤) ضِرار بن الأزور : اسم الأزور مالك بن أوس بن جذيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ابن خزيمة الأسدي ، أبو الأزور . ويقال أبو بلال . راجع : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١٩٣ . ونبه ابن عبد البر ، فقال : ابن الأزور بن مرداس بن حبيب بن عمرو بن كثير بن عمرو بن شيبان الأسدي . ابن عبد البر : الاستيعاب ٢٩٩/٢ .

(٥) فأما الروايات التي قالت بموته أو استشهاده بالشام فإحداها عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : قتل يوم أجنادين - ذكر ابن حجر عن البخاري قوله في هذه الرواية : إنها وهمٌ وإنما هو ضرار بن الخطاب - وفي الإصابة : نزل حرّان ومات بها ، ويقال مات بدمشق ، وقد شهد اليرموك وفتح دمشق . والروايات التي تقول بوجوده في اليرموك روايات عامة تذكر بعضًا من الحضور ، ومعهم ضرار، و لم تحدد ضرارا المقصود ، هل هو ضرار بن الأزور أم هو ضرار بن الخطاب ، ولقد يميل البحث إلى القول بأنه ابن =

البطولات الخارقة التي نسبت إلى خولة وارتبطت بأخيها ضرار ، وهذا هو الطريق الأول في محاولة تحقيق هذه الشخصية .

خولة في المصادر التاريخية

و بقي طريق ثان في تحقيق المسألة ، وهو التحقق من شخصية خولة نفسها . لقد بحثت في كل ما تيسر لي من المصادر التاريخية [١] عن أخبار بطولات خولة التي ذكرت في الكتاب المنسوب للواقدي « فتوح الشام » ، وحاولت العثور على ترجمة لها في كتب التراجم[٢] ، فلم أجد ، بل إن استقصاء التراجم المذكورة لضرار ﷺ ، والأخبار المذكورة عنه في كل هذه المصادر ، لا يقدم لنا هو الآخر أثارة من خبر عنها ، ولم تخرج عن هذا السياق كتب الأنساب [٣].

ويزداد الأمر تخليطًا حين نجد أن انتساب خولة في فتوح الشام كان إلى بني كندة ، بينما نسب ضرار في المصادر جميعًا إلى بني أسد . هل سقط اسم خولة خطأً من كل هذه المصادر الأصيلة ؟ ، هذا ما لا يسيغه العقل .

مصدر الروايات عن بطولات خولة

وأخيرا فإن المصدر الذي جاءتنا من خلاله تلك المرويات ، هو « فتوح الشام » المنسوب خطأً إلى الواقدي ، و هو كتاب مجهول النسب ، وقد سلم المؤرخون بفساد نسبته إلى الواقدي [٤]. ولا يبقى بعد إلا أن نعلن النتيجة التي لا نجد عنها مفرًا ، ألا وهي : أن

= الخطاب ، حيث تضافرت أكثر الروايات في شأنه على أن ضرار بن الخطاب مات بالشام غازيًا ، بينما اختلفت الآراء في ابن الأزور .

وقال ابن سعد : قال الواقدي : مكث ضِرار بن الأزور باليمامة ، مجروحًا قبل أن يرحل خالد بن الوليد يوم فمات ، وقال : وهذا أثبت عندنا من غيره . وقال ابن الأثير : شهد قتال مسيلمة باليمامة ، وأبلى بلاءً عظيمًا ، حتى قطعت ساقاه جميعًا ، فجعل يحبو على ركبتيه ، ويقاتل وتطؤه الخيل حتى غلبه الموت . وقال ابن عبد البر الذي قال : مكث باليمامة مجروحًا ، ثم مات قبل أن يرتحل خالد بيوم . وقال : وهذا أثبت عندي من غيره . تراجع هذه الروايات في مظانها .

(١) راجع مثلًا : تاريخ الطبري ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، البلاذري : فتوح البلدان ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، والمسعودي : مروج الذهب .

(٢) ومنها : الطبقات الكبرى ، و الاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة ، والتاريخ الكبير ، وسير أعلام النبلاء ، وتاريخ مدينة دمشق ، وتقريب التهذيب ، وخلاصة تذهيب الكمال ، وميزان الاعتدال .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١٩٣ .

(٤) ذكر الأستاذ أحمد عادل كمال في الطريق إلى دمشق ٧٩ : ٨٢ أن الذكر الوحيد لكتاب فتوح الشام =

شخصية خولة بنت الأزور ، شخصية وهمية صنعها صانع كتاب فتوح الشام ، فليس لها وجود تاريخي محقق ومحرر !!!! .

مثل هذه الصناعة لشخصية خولة حدثت مع أخريات ذكرهن كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي في أخباره عن فتوح الشام ونسب إليهن من البطولات ما قارب بطولات خولة أو كاد ، منهن : عفرة بنت غفار الحميرية ، وسلمة بنت زراع ، ولبنى بنت حازم ، ومزروعة بنت عملوق ، وسلمى بنت النعمان ، وكعوب بنت مالك بن عاصم ، و سلمى بنت هاشم ، و سليمى بنت سعيد بن زيد ، ونعم بنت فياض ، و لبنى بنت جرير الحميرية ، وسلمى بنت لؤي [١] .

هذه الأسماء جميعًا لم أجد لها ذكرًا لدى كل من : ابن حجر في الإصابة وابن عبد البر في الاستيعاب وابن الأثير في أسد الغابة ، ولا في سير أعلام النبلاء ، ولم أعثر على اسم لواحدة منهن في أي من المصادر التاريخية للفتوح .

لماذا نحقق شخصية خولة ؟

لقد عرضت لهذه المسألة ، مسألة بطولات خولة وأخواتها على الرغم من رجوع الروايات فيهن إلى الكتاب : « فتوح الشام » ، ولو كان الأمر راجعًا إليه كمصدر مشبوه ، فلقد كان من الممكن إهماله كليًا من مصادر الدراسة ، لولا أن شيوع الحديث عن شخصية « خولة بنت الأزور » في كتابات أخرى حديثة [٢] كلها يرجع في حقيقة الأمر إلى فتوح الشام المذكور .

وليس يستطيع المثقف العادي أن يفهم الأمر بهذا الإرجاع إلى المصدر الأول ، هذا مع شهرة هذه الشخصية في كتابات الأطفال ، وهى وإن كانت كنوع من

= لدي الأولين كان على لسان ياقوت المتوفى ٦٢٦ هـ ثم اختفى هذا الذكر من لسان ابن الأثير المتوفى ٦٣٠ والذهبي المتوفي ٧٤٨ ، وهو ما يجعله يذهب إلى أن الكتاب قد ظهر قبيل ياقوت ، ويستبعد أنه كان مجهولًا لدى ابن الأثير ، ولو أن علمهما به لم يثبت . وأغلب الظن أنهما لم يذكراه رأيًا منهما في عدم صحة نسبته إلى الواقدي . وأقول إن أغلب الظن أن الكتاب وضع في عصر المقاومة للحروب الصليبية بهدف إثارة الحمية في نفوس المسلمين .

(١) راجع فتوح الشام المنسوب للواقدي في الصفحات ٥٢ ، ٢٠٦ على سبيل المثال .

(٢) انظر على سبيل المثال : عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٩٦/٢ : ٩٨ ، عبد أ . مهنا : معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام ٧٨ ، ٧٩ ، وسليمان البواب : مائة أوائل من النساء ٢١٥ : ٢٢٠ ، د/ أحمد شوقي الفنجري : الصحابية الفارسة خولة بنت الأزور ، تاريخ حقيقي في قالب مسرحي .

التربية على البطولة والشجاعة ، إلا أن إيماني بأن تربية هؤلاء الأطفال ، وهم رجال الغد ونساؤه ، لا تتم بغير الحقيقة المجردة ، فلو قد عاشوا زمنا مأسورين ببطولات وهمية واهية [١] ، فلسوف يتبين لهم عما قريب حقيقة هذه البطولات ، وهنا يكمن الخطر : إن الشك سوف لا يلبث أن يصاحبهم عند النظر إلى باقي روايات وقصص البطولة الحقيقية ، ولسوف تزيد حدة هذا الأمر إذا لم يكن هؤلاء الشباب من المتخصصين الذين يمكنهم التعرف على حقائق الأمور .

وأخيرًا ، فإنه على الرغم من كون الرسالة في الحديث عن دور المرأة ، وقد كانت الأدوار الخارقة لخولة ، يمكن أن تكون مادة مبهجة لهذا البحث ، فإن الحقيقة وحدها هي ضالة البحث العلمي ، مهما تكن قلة نصيبه من الروائية والتشويق .

الصحابيات في فتوح العراق

معركة البويب وردت في هذه المعركة رواية مُعْجِبة ، توضح بجلاء مدى النُّفْرة والاحتشاد التي كانت تحياها المرأة المسلمة إبان حركة الفتوح . قال الطبري : كتب إليَّ السري عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة وزياد ، قالوا : كان المثنى ﷺ وعصمة وجرير أصابوا في أيام البُويب على الظّهر نُزْل مِهْران غنمًا ودقيقًا ، وبقرًا ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة ، وقد خلَّفوهن بالقوادس [٢] ، وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح [٣] بن بُقَيلة ، فلما رُفِعُوا للنسوة فرأين الخيل ، تصايحن وحسبنها غارةً ، فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد ، فقال عمرو : هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ! وبشروهن بالفتح [٤] .

معركة القادسية ومن الأدوار النسائية البارزة في حروب العراق دور سلمى بنت حفصة التميمية ، و هي زوج المثنى بن حارثة الشيباني الفارس المشهور في فتوح العراق . تزوجها سعد بن أبي وَقَّاص ﷺ بعد موت المثنى ،

---

(١) تأمل كيف ذكر صاحب معجم النساء الشاعرات ٧٨ : أن خولة تشبه بخالد بن الوليد في حملاتها .. وكيف نسب إليها مثلا أنه « لما أسر أخوها ضرار في وقعة أجنادين هجمت بالنساء وقاتلت بهن قتال المستميت حتى خلصت الأسرى من أيدي الروم » !! .

(٢) كان عمر قد بعث بهذا المدد ، و كان المثنى قد أرسل إليهم يستعجلهم قبل نشوب المعركة ، فتركوا النساء ، وركبوا الخيل ليدركوا المعركة .

(٣) عمرو بن عبد المسيح : لم أعثر على ترجمة له .

(٤) تاريخ الطبري : ٤٦٩/٣ .

وشهدت معه القتال في القادسية وغيرها ، فاتفق أنه طلع بجسده طلوع منعه من الركوب ، فاشتد القتال يومًا فأشرفت سلمى من القصر ، فقالت : وامثنياه !ولا مثنى اليوم للخيل ! فلطمها سعد ، وقال : أين المثنى اليوم ؟ فقالت : أغيرةً وجبنًا ! فقال سعد : ما يعذرني أحد إذا لم تعذريني وأنت ترين ما بي [١] .

لما كان سعد قد قيد أبا محجن الثقفي الشاعر المشهور [٢] في حد أصابه [٣] ، وذلك يوم القادسية ، فقال أبومحجن لامرأة سعد : ويلك خلِّيني فلك الله عليَّ إن سلمت أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد ، وإن قتلت استرحتم مني ، فخَلَّتْه ، ووثب على فرسٍ لسعد ، يقال لها البلقاء ، ثم أخذ الرمح ، وانطلق حتى أتى الناس ، فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزمهم الله ... فلما هُزم العدو رجع أبو محجن ﷺ حتى وضع رِجله في القيد فأخبرت بنت خصفة سعدًا بالذي كان من أمره [٤] .

وتشير الروايات إلى أدوار نسائية أخرى في هذه المعركة ، فقد ورد أنه لما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية ، وقد وكَّل سعد رجالًا بنقل الشهداء إلى العُذَيْب [٥] ، ونقل

---

(١) ابن حجر :الإصابة :٨/١٨٣،١٨٤ .

(٢) أبو محجن الثقفي :مالك بن حُبَيْب بن عمرو بن عمير بن عوف بن ثقيف .قال أبو أحمد الحاكم :له صحبة.ابن حجر : الإصابة ٧/٢٩٨.

(٣) أخرج عبد الرازق بسند صحيح ،عن ابن سيرين : « كان أبو محجن الثقفي لا يزال يُجلَد في الخمر ، فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه ، فلما كان يوم القادسية .... وذكر القصة بنحو ما ذكرنا » . وقد عاب ابن فتحون ابن عبد البر على ما ذكره في قصة أبي محجن من أنه كان منهمكًا في الشراب ، وقال :كان يكفيه ذكر حَدّه عليه ، والسكوت عنه أليق ، والأولى في أمره ما أخرجه سيف في الفتوح أن امرأة سعد سألته فيم حُبِس ، فقال : والله ما حُبِست على حرام أكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية فندَّ كثيرًا على لساني وصْفُها، فحبسني بذلك ، فأعلمت بذلك سعدًا ، فقال : اذهب ، فما أنا بمؤاخذك بشيءٍ تقوله حتى تفعله . وقد علق على هذا القول لابن فتحون ابن حجر فقال : سيف ضعيف والروايات التي ذكرناها أقوى وأشهر . ابن حجر : الإصابة ٧/٢٩٨ :٣٠٢ حجر فقال . وأرى أن الشهرة لا ينبغي لها أن تكون عنصرًا من عناصر القوة في الروايات التاريخية ، خاصة إذا ما عرفنا أن عددًا لا يكاد يحصى من الروايات التاريخية الغير صحيحة مشهور بين الناس .

(٤) تاريخ الطبري :٣/٥٤٢ ، ٥٤٨ ، ابن حجر الإصابة : ٧/٢٩٩ . وقيل إن التي أطلقته هي زبراء أم ولد سعد . انظر : تاريخ الطبري :٣ /٥٧٥ .

(٥) العُذيب : قال الأزهري : العذيب ماء معروف بين القادسية ومُغَيْثة . وفي الحديث ذكر العذيب ، وهو ماء لبني تميم على مرحلة من الكوفة ، مُسَمًّى بتصغير العَذْب ، وقيل سمي به لأنه طَرَفُ أرض العرب من العَذَبَة، وهى طرف الشيء .

الرّثيث (١) ، إلى النساء يقمن عليه إلى قضاء الله ﷻ عليهم (٢). وكان النساء والصبيان يحفرون القبور في اليومين : يوم أغواث ، ويوم أرماث (٣) .

وفي الطبري أيضًا روايات أخرى وأدوار أخرى للنساء في القادسية ، فعن أم كثير (٤) ، امرأة همام بن الحارث النَّخعي (٥) ، قالت : شهدنا القادسية مع سعد مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهَراويَ (٦) ، ثم أتينا القتلى ، فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ، ونصرّفهم به (٧) .

وذكر الشعبي (٨) أن امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية ، فقالت لبنيها : إنكم أسلمتم فلم تُبدّلوا ، وهاجرتم فلم تثُوبوا (٩) ، ولم تَنْبُ بكم البلاد ، ولم تقحمكم السَّنة ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو أم واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا

---

(١) الرثيث : الجريح وبه رمق . والمرتث : الصريع الذي يثخن في الحرب ، ويحمل حيًّا ، ثم يموت ، وقال ثعلب : هو الذي يحمل من المعركة وبه رمق ، فإن كان قتيلًا فليس بمرتَثّ .

(٢) تاريخ الطبري : ٥٤٢/٣ . يوم أغواث .

(٣) تاريخ الطبري : ٥٥٠/٣ .

(٤) لم أجد في المسميات بأم كثير سوى أم كثير بنت يزيد الأنصارية ، وهى التي قالت : دخلت أنا وأختي على النبي ﷺ ، فقلت له : إن أُختي تريد أن تسألك عن شيء ، وهى تستحي ، قال : « فلتسأل ، فإن طلب العلم فريضة » . ابن حجر : الإصابة :٤٥٥/٨ ، ولست أدري أهي أم كثير التي بالرواية أم لا .

(٥) همام بن الحارث النخعي : الكوفي ، الفقيه . حدَّث عن عمر ، وعمار بن ياسر ، والمقداد بن الأسود ، وحذيفة بن اليمان وجماعة . وقد وثقه يحيى بن معين ، وكان الناس يتعلمون من هديه وسَمْته . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢٨٣/٤ ، ابو نعيم : حلية الأولياء ١١٨/٤ ، البخاري : التاريخ الكبير ٢٣٦/٨ ، ابن حجر : تذهيب التهذيب : ٤/ ١١

(٦) الهَرَاوَي : الهِراوة : العصا ، وقيل العصا الضخمة ، والجمع هراوَي .

(٧) تاريخ الطبري : ٥٨١/٣ .

(٨) الشعبي : هو عامر بن شراحيل بن ذي كِبَار ، و ذو كِبار قيْل من أقيال اليمن . الإمام علامة العصر ، أبو عمر الهمداني ، ثم الشَّعْبي . ويقال عامر بن عبد الله ، وكانت أمه من سبي جلولاء ، رأى عليًّا ، وصلى خلفه ، وسمع من عدة من كبراء الصحابة . انظر : سير أعلام النبلاء : ٢٩٤/٤ ، تاريخ البخاري : ٤٥٠/٦ ، ابن قتيبة : المعارف : ٤٤٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب :١٢٦/١ ، الفسوي : المعرفة والتاريخ : ٥٩٢/٢ ، أبو نعيم : حلية الأولياء : ٣١٠/٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١٢/٣ .

(٩) تثوبوا : ترجعوا بعد ذهابكم ، وفي رواية : تتربوا ، والتثريب : الإفساد والتخليط .

فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره . فأقبلوا يشتدون ، فلما غابوا رفعت يديها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم ادفع عن بنيّ ! فرجعوا إليها ، وقد أحسنوا القتال ، ما كُلِم منهم رجلًا كَلْمًا ، فرأيتهم بعد ذلك يأخذون ألفين ألفين من العطاء ، ثم يأتون أُمهم فيلقونه في حجرها ، فترده عليهم وتقسمه فيهم على ما يصلحهم ويرضيهم [١] .

وأما عن حجم المشاركة النسائية فقد ذكر الطبري رواية تشير إلى هذا العدد الضخم فقال : لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأة يوم القادسية من بَجيلة والنَّخَع ، وكان في النَّخَع سبعمائة امرأة فارغة ، فتزوجهن المهاجرون ، حتى استوعبوهن ، وكان في بَجيلة ألف ، فصاهر هؤلاء ألف من أحياء العرب ، وهؤلاء سبعمائة ، وكانت النَّخَع تسمي أصهار المهاجرين ، وبَجيلة [٢] .

معركة ميسان ومن الأدوار الرائعة للمرأة في الفتوح ما ذكره المؤرخون في هذه المعركة ، أن أردة بنت الحارث بن كلدة [٣] ، لما جمع أهل ميسان للمسلمين ، قالت أردة بنت الحارث : إن رجالنا في نحر العدو ونحن خلوف ، ولا آمن أن يخالفوا إلينا وليس عندنا من يمنعنا ، وأخاف أن يكثر العدو على المسلمين فيهزمونهم ، فلو خرجنا لأمنا مما نخاف من مخالفة العدو إلينا ، ويظن المشركون أنا عدد ومدد قد أتى المسلمين فيكسرهم ذلك وهى مكيدة ، فأجبنها إلى ما رأت فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمرهن رايات ، وخرجن يردن المسلمين ، فانتهين إليهم ، والمشركون يقاتلونهم ، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن عددا أتى المسلمين فانكشفوا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة [٤].

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٤٤/٣ .
(٢) تاريخ الطبري : ٥٨١/٣ .
(٣) أردة بنت الحارث : ذكر ابن حجر أردة في إحدي تراجمه في الإصابة ٦/٨ ، وقال : أردة بنت الحارث بن كلدة الثقفية ، زوج الصحابي عتبة بن غزوان ، لكنه عاد فذكر صفية بنت الحارث بن كلدة ٢١٠/٨ ، أخت أردة ، قائلًا : إنها زوج الصحابي الشهير عتبة بن غزوان أمير البصرة . وهذا هو الصحيح الذي ذهب إليه عمر بن شَبَّة في أخبار البصرة ، وذكره المدائني في الرواية التي ذكرها الطبري ٥٩٧/٣ ، وكانت أردة عند شِبل بن معبد البَجَليّ ، ولما ولي عتبة البصرة انحدر معه أصهاره : أبو بكرة ، وأخوه نافع ابن الحارث بن كلدة ، وشِبل بن معبد زوج أردة .
(٤) تاريخ الطبري : ٥٩٦/٣ ، كحالة : أعلام النساء : ٤١/١ ، ابن طيفور : بلاغات النساء ، عبد أ . مهنا : معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام :١٣ ، ١٤ ، وانظر أحمد عادل كمال : سقوط المدائن ١٢٢ .

الخلاصة لقد تعددت الأدوار النسائية في حركة الفتوح ، وظهرت صورة معجبة ومشاركات فعالة لهن بدرجة لم تظهر حتى أيام الغزوات مع الرسول ﷺ ، من مشاركة واسعة في القتال ، كما في اليرموك ، إلى دفن الشهداء كما في القادسية ، بل إلى تحويل كفة المعركة إلى جانب المسلمين كما حدث في ميسان .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مشاركة المرأة في الجهاد كانت أمرًا طبيعيًا ، حرمتنا المصادر من تفصيلاته ، وهو ما كان كفيلًا بإغنائنا عن وضع بطولات وهمية للمرأة حتى نوجد لها دورًا ، كما فعل واضع كتاب فتوح الشام حين أوجد من بنات أفكاره شخصية نسائية أسطورية خيالية هي خولة بنت الأزور .

لقد كانت حركة النساء في جيوش الفتح لأصحاب عقيدة حقة اندفع كل فرد فيهم نحو غاية شريفة ومقصد نبيل ، يفتحون القلوب بدعوتهم وسيرتهم .. ولا تفعل ذلك إلا أُمةٌ حية وثابة ، ولا تكون حياة الأمة إلا بحياة رجالها ونسائها معًا .

الباب الثالث

الدور السياسي للمرأة في أحداث الفتنة على عهد أمير المؤمنين عثمان وأمير المؤمنين علي

الفصل الأول : موقف أمهات المؤمنين والصحابيات في أحداث الفتنة حتى مقتل عثمان

الفصل الثاني : الدور السياسي للسيدة عائشة في أحداث الفتنة على عهد عثمان ﷺ .

الفصل الثالث : خروج السيدة عائشة إلى البصرة سعيًا للإصلاح .

الفصل الرابع : الأحداث في البصرة .

الفصل الخامس : العلاقة بين السيدة عائشة والإمام علي .

الفصل السادس : حقيقة الروايات القائلة برفض الصحابة لخروج السيدة عائشة .

تمهيد إن الدور السياسي للمرأة في أحداث الفتنة ، هذا الدور بمواقفه السياسية المتعددة ، يُعَدُّ واحدًا من أبرز المواقف السياسية التي قامت بها المرأة في هذا العصر السياسي البكر .

وإن النظر في هذا الدور السياسي للمرأة في الجانب التطبيقي الفعلي للمرأة الصحابية ، التي كانت تمثل مع بقية الصحابة مرجعية فقهية ، وتشريعية رفيعة ، بل كانت هذه المرجعية هي أرفع المستويات التشريعية على الإطلاق بعد القرآن والسنة ، إذ هي « فِعْل الصحابة » ، فالنظر في هذا الواقع الفعليّ يستطيع حسم كثير من الجدل النظري في الدور السياسي للمرأة ، على وجه العموم ، وهو الدور الذي طالما تمَّ تحجيمه ، والحديث عنه في الجانبين : الفقهي والفكري على النحو الذي يعزل النساء عن السياسة عزلةً شبه تامة. وهذا الحسم لهذا الجدل - أو التضييق لجوانب الاختلاف فيه على أضعف تقدير - هو الفائدة الأولى والعظمى التي نستفيدها من النظر في الدور السياسي الأبرز للمرأة الصحابية ، والذي قامت به السيدة عائشة رضي الله عنها قيامًا عاليًا : عقيدة ، وفقهًا ، وحركةً في سبيلهما .

ولعله من الإحقاق للحق أن أقول : إن هذا الدور السياسي للمرأة كان محل جدل فقهي ، وتشريعي ، وفكري نتيجةَ أن فهم الدور السياسي للصحابيات عامة ، وللسيدة عائشة على وجه الخصوص لم يتم على وجهه الصحيح الذي كان ، فلقد كانت كثرة الاختلافات والمتناقضات في الروايات التي رواها رواة الفتنة فتنةً للباحثين والدارسين ، توزعوا فيها ما بين أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، تطرفًا ، واعتدالًا ، وخلطًا بينهما .

وإذا كان تناقض الروايات واختلافها أمرًا اعتاده الباحث في قضايا التاريخ الإسلامي ، إلا أن هذا الأمر هنا ، في أحداث الفتنة ، يبدو شديد الوطأة ، مُحَيِّرًا ، ومُجْهِدًا للدارس المسلم ، بل ومُدخلًا له في رحى الفتنة الدائرة مذ قتل عثمان رضي الله عنه ، ذلك أن الكلمة التي ينطقها الباحث المسلم إنما هي تعبير عن حقيقة العقيدة التي يعتقدها [1] .

لقد طالما كنت أقرأ أحداث الفتنة - بصورتها التي هي عليها في المصادر القديمة وفي الدراسات الحديثة - فتصيبني الكآبة التامة ، وتعتريني حالة من اليأس الضاغط

(١) انظر أثر القول في عدالة الصحابة في المبحث الخاص بعدالة الصحابة في المبحث التمهيدي بمقدمة الرسالة .

من أن يتخلق الناس بأخلاق الإسلام وتعاليمه الرفيعة ، وكنت أقول لنفسي : إذا كان هذا هو حال صحب رسول الله ﷺ ، فهل يبقى الأمل في غيرهم ؟ !

وكان هذا - ولا يزال - إحساس الكثيرين من المثقفين المسلمين ، لكنني بعدما أنعمت النظر في هذه الأحداث ، وأعدت قراءتها ، وقد تبين لي في الطريق منهج للتعامل مع هذه الروايات المتناقضة ، وجدتني أخيرًا أقرأ أحداث الفتنة قراءة جديدة ، فأخرج منها بإحساس جديد ، كله الفخر والاعتزاز والثقة في صحب رسول الله ﷺ ، الذين دارت بهم ومعهم أحداث الفتنة ، لكنهم برئوا ، وطهرت أياديهم من ملابساتها السيئة .

إن آفة الدراسات في تاريخنا الإسلامي تكمن أكثر ما تكمن في منهاجية التعامل مع المصادر التاريخية الأولى ، وبسبب من هذه المنهاجية التي تتعامل مع الروايات تعاملًا سطحيًا ، فلا تنظر في مصداقية هذه المصادر، تلك المصداقية التي تتكون من معرفة أصحابها ، ومعرفة مذاهبهم الفكرية والأخلاقية ، ومناهجهم في التعامل مع المادة التاريخية .

ثم إنه إذا نظرت هذه الدراسات في مصداقية المصادر فإنها بعدُ لا تحاول التعامل مع الروايات المتناقضة في المصدر الواحد بمقارنتها مع بعضها البعض : سندًا ، ومتنًا ، ومقارنتها بالروايات الأخرى في المصادر الأخرى سندًا ومتنًا أيضًا . وإنما ظلت تتلقف من هاهنا رواية ومن هناك رواية ، وهو تلَقُّفٌ طالما كان نابعًا من تحيز شخصي أو فكر تقاليدي [1] وثقافي خاص . ولقد أدى ذلك إلى كثير من الرؤى والاستدلالات الفاسدة التي يتخيرها الهوى الشخصي للباحث أكثر مما تؤدي إليه الموضوعية ، وتحري الحقيقة التاريخية .

وفي مسألة الدور السياسي للمرأة في الفتنة ، وهي مسألة لا تفهم إلا بتنقيح دقيق للروايات حتى يتم البحث السليم ، تصبح الاستدلالات أكثر فسادًا ، وبُعدًا عن الموضوعية ، إذ لا تصبح المشكلة في مصادر الروايات ، أو في منهاجية التعامل مع

---

(١) جعلت النسب هنا للجمع على غير المألوف لأُؤكد على ما أعنيه من الفكر المتوارَث الذي يقلدُ فيه الخلف السلف ، وخشية أن يلتبس المعنى بما شاع من اعتبار كلمة « تقليدي » مجرد مقابل لكلمة « جديد » ، ولعله من المعروف للقارئ الكريم في اللغة العربية أن النَّسَب ، وإن كان لا يكون إلا للأصل المفرد ، إلا أنه إن أوقع النسب للمفرد في لبس وجب الفرار منه باتباع الرأي الذي يبيح النسب إلى لفظه المجموع ، لأن الفرار من اللبس - إن أمكن - والحرص على تَوَقِّيه ، غرض أصيل في لغة العرب ، وأصل من أقوى أصولها التي تقوم عليها . انظر : الأستاذ / عباس حسن : النحو الوافي : ٤/ ٧٢٤ ، ٧٢٥ .

هذه الروايات وحسب ، بل إنه يَنضاف إليها نظرة الباحث [١] نفسه إلى المرأة ، ومدى اعتباره لمكانتها ، وكرامتها ، وقدرتها على الفعل السياسي النبيل ، وهي نظرة غالبًا ما اتسمت بالإزراء عليها والقول بضرورة ابتعادها عن كل ما هو سياسة وإدارة للأمور ، بل والقول بعدم أهليتها لمجرد الإدلاء برأي في المسائل السياسية ، وينضاف إليها أيضًا عدم معرفة الباحث بما يجب التوقف عنده والحذر من الخوض فيه على غير تَثَبُّت ويقين ، وهو ما يتصل بمسألة عدالة الصحابة والصحابيات .

ولأجل كل ذلك كان علينا قبل أن نصارع أمواج روايات مسألة الفتنة ، أن نعود إلى الضوابط الأساسية في التعامل مع هذه الروايات في المصادر التاريخية الأولى [٢] ، والتي عرضنا لها في المبحث التمهيدي بمقدمة الرسالة . وأن نعود - بنفس القدر من الأهمية - إلى ضابط « عدالة الصحابة » في نفس المبحث . وربما بدا للبعض أن الوقوف أمام هذه الضوابط خروجٌ عن صلب الموضوع الأساسي ، وهو دور المرأة في مسألة الفتنة ، إلا أنه - عند التحقيق - ليس كذلك ، بل إنه من الأهمية بحيث ربما كان من

---

(١) وهي نظرة تحكمها ثقافته وبيئته العلمية والاجتماعية والسياسية ، أي تحكمها التقاليد السائدة أكثر مما تحكمها التصورات الإسلامية للمرأة ومكانها ، أو الحقيقة التاريخية الصحيحة للصحابة ، على الرغم من كون المرأة التي يؤرخ لها هي امرأة القرن الأول التي يمثل التأريخ لها تأريخًا لمكانها في ظل الإسلام .

(٢) هذا وينبغي التنويه على خطورة النظر في تلخيص أحداث الفتنة على سبيل المثال عند ابن كثير ، إذ أورد أحداثها ملَخصة عما ذكره الطبري عن أئمة هذا الشأن - كما قال - وهو وإن ذكر أنه ليس في تلخيصه شيء مما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختَلَقَةِ على الصحابة ، والأخبار الموضوعة التي تناقلوها ، إلا أن في إيراده لملخص الروايات بالمعنى ودون إسناد مزلق واضح ، إذ أن بعضا من روايات الأئمة في هذا الشأن تحتاج أيضا إلى دراسة وتمحيص . وأهم ما نشير إليه فيما يتصل بشأننا - على سبيل المثال - هو تركيزه من خلال ذكر الأحداث بالمعنى على أن عائشة رضي الله عنها خرجت للبصرة ونيتها الأولى هي الحرب ، رغم ذكره أن عائشة ما كانت تقول إلا الإصلاح بين المسلمين ! . راجع ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ١٧٧ : ٢٥٧ .

كما ينبغي التنويه أيضًا إلى نفس الخطر في التعامل مع ابن الأثير ، في كتابه « الكامل » ، إذ جاءت أغلب رواياته غير مسندة ، وأكثرَ من جمع الروايات المختلفة عن الرواة المختلفين في مروية واحدة ، بحيث يصعب على الباحث استخراج أو تحليل رأي سوىً في المسألة التاريخية ، ولولا ما قدمه لنا الطبري رحمه الله ما كنا لنستطيع الخروج من هذه الروايات بشيءٍ ذي بال .

وإذا أردت أن ترى خطورة هذا في صورة عملية فانظر إلى أغلب الدراسات الحديثة التي يرد اسمها في ثنايا هذا البحث ، وانظر - على وجه الخصوص دراسة د/ محمد السيد الوكيل ، فقد رجع إلى كثير من المرويات التي ذكرنا صفتها عند كل من ابن الأثير ، وابن كثير ، وهو ما أدى به إلى استدلالات متناقضة مع بعضها البعض من جانب ، وإلى استدلالات لا تصح عند النظر في أصولها عند الطبري من جانب آخر ، ولا تصح كذلك عند الاستعراض الشامل للأحداث . وسوف نعرض لبعض منها أثناء البحث .

المستحيل بدون هذه الضوابط الخروج برأي ذي بال في المسألة كما سوف يتبين .

علي أنه ينبغي علينا أن نوضح أن الفتنة في حقيقة الأمر لم تكن وصفًا لحدث واحد ، بل إنها وصف لعدة أحداث يركب بعضها بعضًا . ومن ثم فإننا في هذا الباب نتناول عدة فتن لا فتنة واحدة : فالأحداث التي كانت قبل مقتل عثمان ﷺ من الطعن على سياسته ، والتشويه لسيرته الكريمة كانت فتنة . ومحاصرته ومقتله ﷺ كانت فتنة . والذي جرى في البصرة من تخليط ، وتشويه ، وتآمر أدى إلى نشوب المعركة بين فريقي عائشة وعلي ﷺ كان فتنة . وما حدث بين علي ومعاوية ﷺ بعد الجمل كان فتنة .

وسوف نتناول في المباحث القادمة الفتن الثلاث الأُول ، ونتوقف عندها بالبحث ، لمسيس اتصالها بالموقف النسائي للمرأة في هذه الأحداث ، ولمحاولة ضغط البحث ولملمة أطراف الدراسة .

ولعله من الأهمية أن أشير إلى أن أغلب الروايات المأخوذة عن الطبري في البحث ، دون الإشارة إلى رواتها هي من رواية السري عن شعيب ، عن سيف بن عمر .

الفصل الأول

موقف أمهات المؤمنين والصحابيات

في أحداث الفتنة حتى مقتل عثمان

إن الدور السياسي للمرأة في الفتنة لا يمكن فهمه بعيدًا عن فهم الفتنة نفسها : أحداثها ورجالها ، ذلك أنه ككل تاريخ طبيعي ، لا يمكن التعامل مع « المرأة » كفئة اجتماعية أو سياسية قائمة بذاتها ، وإنما هي دائما مكون من مكونات المجتمع لا تنفصل عنه ، ولا ينفصل عنها [١] .

وفهم بدايات أحداث الفتنة مطلب لابد منه بين يدي النظر في الدور السياسي للمرأة في أحداثها ، إذ بدون هذا الفهم يصبح النظر في هذا الدور السياسي للنساء مبتورًا عن سياقه ، وغير مؤد إلى فهم ، أو تحليل صائب ، ومن ثم غير مؤد إلى شيء من التقييم العادل لهذا الدور . ومن هنا فإننا سنبدأ فهم دور المرأة السياسي في أحداث الفتنة بفهم أحداث الفتنة ، على وجه الإجمال ، والاختصار الذي نستطيعه .

دور عبد الله ابن سبأ لما توالت انتصارات الإسلام تفتح لكلمة الله آفاقا واسعة من العدل والرحمة ، أيقن اليهود والمجوس أن الإسلام لا يمكن أن يحَارَب وجهًا لوجه في معارك شريفة سافرة ، فأزمعوا الرأي على أن يتظاهروا بالإسلام ، وأن ينخرطوا في سلكه ... وأول من بدأ ذلك لهم يهودي من أخبث من ولدتهم نساء اليهود هو عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديًّا من أهل صنعاء ، فأسلم زمان عثمان ﷺ[٢] ،

---

(١) دراسة دور المرأة منفصلا عن دور المجتمع ككل ليس إلا محاولة نظرية لإمكان إيضاح دورها على نحو أكثر تركيزًا .

(٢) ذكر الكشي رأس علماء الشيعة في الجرح والتعديل ما نصه : « وذكر أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا فأسلم ، ووالي عليا ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون وصي موسى ، فقال في إسلامه في عليّ مثل ذلك ، فكان هو أول من أشهر القول بإمامة علي وأظهر البراءة من أعدائه [الذين هم إخوان علي وأحبابه وأصحاب رسول الله ﷺ] وكاشف مخالفيه وكفرهم » ، وقال : « ومن هنا قال من خالف الشيعة : إن أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهود » . هذا هو رأي مؤرخهم وإمامهم الكشي وكفى بها شهادة . انظر الكشي : كتاب الرجال ٩٨ .

وراجع في الفتنة ودور ابن سبأ فيها : ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤٩/٧ : ٢٥١ ، الإسفرائيني : الفرق بين الفرق : ٢٣٣ ، د / حمدي عبد العال : السبئيون منهجا وغاية ، الشيخ عبد الله المشد : موقف =

ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم .

فكان يقول فيما يقول : « العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويُكَذِّب بأن محمدًا يرجع ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (١) . فمحمد أحق بالرجوع من عيسي » . فَقُبِل ذلك عنه ، ووضعَ لهم « الرجعة » ، فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان عليّ وصيَّ محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعليّ خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : « من أظلم ممن لم يُجِز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب علي وصيّ رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ! » ، ثم قال لهم بعد ذلك : « إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ عليّ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

« فبث دعاته ، وكاتب من استفسد من الأمصار وكاتبوه ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، و يكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة (٢) ، فالتبست الأمور على الأمة فأصبحت شيعًا حتى ما تبصر الحق ، لعلو الباطل » (٣) . « وهكذا كانت محاولة السبئيين لهدم

= اليهود من الإسلام والمسلمين في العصر الأول : ٥٠ ، ٥١ ، د. صابر طعيمة : دراسات في الفرق ٩ : ٣٦ ، محمد قطب : كيف نكتب التاريخ ١١١ ، د. نايف معروف : الخوارج في العصر الأموي : ٤٢ ، وما بعدها ، في السبئية بين الأسطورة والواقع . وانظر : ما كتبه د/ جواد علي في مجلة الرسالة : القاهرة السنة ١٦ ، ١٩٤٨ عدد : ٧٧٤ ، ص : ٤٩٧ ، وعدد ٥٧٥ ص : ٥٢٣ ، وعدد : ٥٧٦ ص : ٥٥٠ ، وعدد : ٥٧٧ ص : ٥٨٢ ، د/ سليمان العودة : عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام ، د/ سعدي الهاشمي : ابن سبأ حقيقة لا خيال .

ولعله من المناسب أن نشير إلى ذهاب البعض إلى أن هذا الشخص لم يوجد أبدًا ، وأنه بدعة توهمية من بنات الخيال ، معتمدين على دعوى أن الصحابة ، نظرًا لأنهم يشكلون شبكة كثيفة من العلاقات هم الذين كاتب بعضهم بعضًا في القدوم للجهاد في المدينة!، وهي أقوال لا تستند إلى حقيقة تاريخية ، ولا تعود إلى روايات صحيحة ، راجع في هذه الأقوال ، على سبيل المثال : د/ هشام جعيط : الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر : ١٠٩ ، مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ ، وأساطير أخرى .

(١) القصص ٨٥ .

(٢) إذاعة : الذيع أن يشيع الأمر ، ويفشو في الناس ، ومن ذلك كان قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ . النساء : ٨٣ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٠ .

الأمن الديني والاجتماعي والسياسي للمسلمين » [١] .

موقف عثمان والصحابة ﷺ

وسمع بعض الصحابة بما أُسقِط إليهم فأتوا عثمان ﷺ ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ما جاءني إلا السلامة ، فأخبروه بالذي علموا ، قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليَّ . قالوا : تبعث رجالًا ممن تَثِق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم ، ففعل ، ورجعت الرسل فقالوا : ما أنكرنا شيئًا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامُّهم ، وقالوا جميعا : الأمر أمر المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم [٢] .

ولعل هذا الرجوع بهذا كان دليلًا على أن هذه الإذاعات الباطلة ضد عثمان ﷺ كانت لمَّا تزل في سراديب سرية ، وكانت تُتداول بين شخصيات خاصة مهيئة ومختَارَةٍ لهذه الفتنة ، فأما عموم المسلمين فهم في منأى عن هذه الفتنة .

ولم يكتف عثمان ﷺ بما فعل فكتب إلى أهل الأمصار : « أما بعد فإني آخذٌ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلَّطتُ الأمة منذ وُلِّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يُرفَع عليَّ شيءٌ ولا على أحدٍ من عمالي إلا أعطيتُه ، وليس لي ولعيالي حق قِبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقوامًا يُشْتَمون ، وآخرون يُضْرَبون ، فيا مَن ضُرِب سرًّا ، وشُتِم سرًّا من ادعى شيئًا من ذلك فليوافي الموسم فليأخذ بحقه مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين . فلما قُرِئ هذا الكتاب على أهل الأمصار ، أبكى الناسَ ، ودعوا لعثمان [٣] .

وأحس المسلمون أن الأمة تَمَخَّضُ بشر ، وكان الصحابة متنبهون إلى أن هذا أمر مصنوع ، يُصْنَع في السر ، فَيُلْقِي به غيُر ذي المعرفة ، فيُخْبِرُ به ، فيُتَحَدَّثُ به في مجالسهم . وكان رأيهم أن يُطْلَبَ هؤلاء القوم ، ثم يُقتل الذين يخرج هذا من عندهم [٤] .

---

(١) حمدي عبد العال : السبئيون منهجًا وغايةً : ٥١ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤١ ، مقدمة ابن خلدون ٦١٧/٢ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٢ . وراجع محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٥٢٩ .

(٤) انظر : مشورة سعيد بن العاص لعثمان ﷺ . تاريخ الطبري ٣٤٢/٤ .

لكن عثمان ﷺ - رغم علمه بأن هؤلاء المدعين قد ذكروا أمورًا قد علموا منها مثل ما يعلم هو نفسه والصحابة من بطلانها [١] ، ورغم أنه ردَّ عليهم كل اعتراضاتهم [٢] ، حتى لم يعد لأحد منهم عليه حجة حق [٣] ، فلم يجرِ منه ﷺ ما يقتضي خروجهم عليه [٤] - قال : « بل نعفو ونقبل وُنَبصِّرهم بجهدنا ، ولا نحادَّ أحدًا حتى يركب حدًّا ، أو يُبْدِيَ كفرًا » [٥] .

وربما كان هذا هو الخطأ الذي فعله عثمان ﷺ ، فلقد كان تسامحه مع هؤلاء الغوغاء ، تسامحًا في غير موضعه ، وهو ما أغراهم بمواصلة مسيرة الشر ، والفتنة [٦] .

ولما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرجت جموع من أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة ، ومعهم جميعًا ابن سبأ ، لم يجترئوا أن يُعْلِموا الناسَ بخروجهم إلى الحرب ، وإنما أُخرِجوا كالحجاج [٧] . وكان من صنيع ابن سبأ ، أنه

---

(١) انظر قوله فيما رواه سيف عن شيوخه : « إن هؤلاء ذكروا أمورًا قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ، ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم » الطبري : ٤/ ٣٤٦ .

(٢) انظر الادعاءات الباطلة على عثمان ﷺ ورده عليها : تاريخ الطبري : ٤/٣٤٦ : ٣٤٨ . وكلها من رواية السري عن شعيب عن سيف . وانظر أيضًا ما قاله النووي في شرحه لصحيح مسلم ، كتاب : فضائل الصحابة ﷺ ، باب : من فضائل أبي بكر الصديق ٥/ ٢٤٣ ، مختصر التحفة الاثنى عشرية : ٢٥٨ ، وما بعدها . وعلى الرغم من ذلك فقد تورطت بعض الدراسات الحديثة المعتدلة وقالت بوقوع أخطاء على عهد عثمان ﷺ . انظر مثلا : أ / محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي ١١٠ ، وانظر سعيد الأفغاني : عائشة والسياسة : ٢٦ .

(٣) كان ﷺ قد عزل لهم بعض العمال ، فلم تنقطع رغم ذلك ألسنتهم ، فأبى أن يعزل أي عامل أو وال إلا إذا ثبت لديه أنه اقترف ما تسقط به عدالته . مقدمة ابن خلدون ٢/٦٢٠ .

(٤) وهو ما يؤكده روايات صحيحة عديدة ، انظر على سبيل المثال منها الحديث الحسن الصحيح عن مرة ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « ستكون فتن بعدي ، فبينما هو يحدثنا ، إذ مرَّ رجل مُتَقَنِّع ، فقال : هذا يومئذ وأصحابه على الهدى ، فاتبعت الرجل فكشفت وجهه ، فإذا هو عثمان ﷺ » راجع ابن شبة : تاريخ المدينة : ٢/ ١٨٢ ، ١٨٤ ، وتخريج الحديث به ، ورجاله ثقات .

(٥) تاريخ الطبري من رواية سيف : ٤/ ٣٤٦ .

(٦) فلقد روى سيف أن الصحابة قد قالوا جميعًا لعثمان ﷺ ، لما علموا بأمر أهل الأمصار الذين توافوا على المدينة : اقتلهم ، فإن رسول الله ﷺ ، قال : « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد ، وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله » ، وقال عمر بن الخطاب ﷺ : « لا أحل لكم إلا ما قتلتموه ، وأنا شريككم » - أي لا أحل لكم إلا أن تقتلوا هذا الخارج على الإمام - لكن عثمان ظل يعفو ، ويقبل ، ويحاول تبصيرهم . انظر تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٦ .

(٧) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٩ . من رواية السري عن شعيب عن سيف .

جعل المصريين يشتهون عليًا ، والكوفيين يشتهون الزبير [١] ، والبصريين يشتهون طلحة [٢] ، والثلاثة من هذا الصنيع براء [٣] .

وكان أهل الأمصار قد بعثوا أمامهم من يرتاد لهم ، ويعرف من أخبار المدينة ، ومدى تأهبها لملاقاتهم ، فوجدوا من الصحابة جميعًا، ومن أمهات المؤمنين ما يسوؤهم -كما سوف نرى - ووجدوا الصحابة متأهبين لملاقاتهم ، فأظهروا لهم أنهم ينصرفون راجعين - بعدما تمت رغم ذلك محاورات ومناظرات وُضِّحتْ فيها الأمور إلى هؤلاء الناس - حتى إذا افترق أهل المدينة لخروجهم بَغَتُوهم ، فلم يفجأ أهل المدينة ، إلا وهم في نواحي المدينة ، فنزلوا في مواضع عساكرهم ، وأحاطوا بعثمان ﷺ مدعين أن أهل مصر وجدوا مع بريد كتابًا من عثمان بقتلهم [٤] .

لكن الصحابة ﷺ لم يخفَ عليهم هذا الافتراء ، وتعجبوا من تواعدهم ، فكان من حصيف تعليق علي ﷺ : « كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمرٌ أُبْرِم بالمدينة » [٥]! . وكان الصلف قد استبد بأهل الأمصار ، والشر قد كشر عن أنيابه ، فردوا عليه ، وقد انكشف أمرهم : « ضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا » [٦] .

---

(١) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى : حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ، أمه صفية بنت عبد المطلب ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، أسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وقيل ثمان سنين . ابن حجر : الإصابة ٤٥٧/٢ .

(٢) طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم : أبو محمد ، أحد العشرة ، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . ابن حجر : الإصابة ٣/ ٤٣٠ .

(٣) ذكر الطبري عن السري عن شعيب عن سيف بن عمر : أن المصريين سلموا على عليّ ، وعرَّضوا له ، فصاح فيهم ، واطَّردهم ، وقال : « لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خُشُب ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فارجعوا لا صحبكم الله » . وأتى البصريون طلحة ، والكوفيون الزبير ، فكلهم طرَدهم ، وقال مثل مقالة علي ﷺ جميعًا . تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٠ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٠ ، ٣٥١ . من رواية السري عن شعيب عن سيف . وانظر الشيخ محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول : ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٥) انظر في ذلك ما ذكره الأستاذ محب الدين الخطيب من أنه لما رحل الثوار عن المدينة في المرة الأولى بعد مناقشتهم لعثمان وسماعهم دفاعه واقتناعهم ، تَخَلَّفَ في المدينة الأشترُ وحُكَيمُ بن جبلة ، وهما من زعمائهم وفي ذلك شبهة قوية بأن لهما دخلًا في افتعال الكتاب المزور على عثمان. ابن العربي : العواصم من القواصم ١٢٥ .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥١ . من رواية سيف .

وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ، ولزموا بيوتهم ، لا يخرج أحد ، ولا يجلس إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق [١] القوم ، وكان الحصار أربعين يومًا ، وفيهن كان القتل ، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح ، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يومًا يكفون [٢] .

صلى عثمان ﷺ بالناس أيامًا ، فلما كانت الجمعة التي على أثر نزول المصريين مسجد رسول الله ﷺ ، خرج عثمان ﷺ فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال : يا هؤلاء العِدَي : الله الله ! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ ، فامحوا الخطايا بالثواب ، فإن الله ﷻ لا يمحو السيئ إلا بالحسن ، فلما قام بعض الصحابة يشهدون على ما قال عثمان ﷺ ، حَصَبَهم المصريون حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صُرِع على المنبر مغشيًا عليه ، فاحتُم ، فأدخل داره .

وشمر أناس من الناس فاستقتلوا [٣] ، فبعث إليهم عثمان بعزْمة لما انصرفوا ، فانصرفوا [٤] ، وأقبل عليّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته ، ويشكون بَثَّهم ، ورجعوا إلى منازلهم [٥] وظل عثمان ﷺ يصلي بهم عشرين يومًا ، ثم حصروه حتى قتلوه على ما هو معروف .

موقف أمهات المؤمنين فأما موقف النساء في هذه الفتنة فإن أول رواية ذكرت أزواج النبي ﷺ في الفتنة لدى الطبري ، كانت رواية السري عن شعيب ، عن سيف بن عمر ، عن شيوخه ، وفيها : « أنه لما اجتمعت فلول أهل البصرة والكوفة ومصر ، وكانوا من المدينة على ثلاث ، قدَّموا بين أيديهم إلى أهل المدينة رجلين يرتادان [٦] لهم ؛ فدخل الرجلان المدينة ، فلقيا أزواج النبي ﷺ ، وعليًا ، وطلحة ،

---

(١) رهق فلان رَهَقًا : سَفِه وحمُق وجهِل ، وركب الشر والظلم ، وعشي المآثم . وفي التنزيل : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ، إثمًا المعجم الوسيط .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٤ من رواية السري عن شعيب عن سيف .

(٣) منهم سعد بن مالك ، وأبو هريرة ، وزيد بن ثابت ، والحسن بن علي ، وآخرون .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٣ . وبقي الحسن ومحمد بن طلحة وابن الزبير وأشباهًا لهم ، جلسوا بالباب عن أمر آبائهم ، وثاب إليهم ناس كثيرون . تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٥ . فلا حقيقة لما زعمته دراسات عديدة عن تآمر الصحابة ﷺ أو تقاعسهم ، أو خذلانهم له ﷺ . انظر في ذلك مثلا : د/ هشام جعيط : الفتنة : ١١٥، ١١٦.

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٥٣ ، ٣٥٤ . من رواية سيف ، بتصرف .

(٦) يرتادان : يتقدمان قومهما ليعلما من خبر القوم .

والزبير ، وقالا : إنما نأتم هذا البيت ، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ، ما جئنا إلا لذلك ، واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ، ونهي ، وقال : « بَيْض ما يُفَرِخَنَّ » (١) .

وهو موقف واع وحصيف اشترك فيه أزواج النبي ﷺ ، ولقد كن رضوان الله عليهن في معترك الأحداث مذ بدت نُذُرها ، ولقد بدا من ردهن على أهل الأمصار كم كان وعيهن عليهن رضوان الله بحقيقة هؤلاء الناس الذين « يحاولون غير ما يظهرون » ، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أيضًا : « أن الناس كانوا يتجنون على عثمان رضي الله عنه ، ويُزْرُون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة ، فيستشيروننا ، فيما يخبروننا عنهم ، ويَرَون حسنًا من كلامنا في صلاح بَيْنَهم ، فننظرْ في ذلك فنجده بَرِيًّا (٢) تقيًّا وفيًّا ونجدهم فجرةً كَذَبةً ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا تِرَة (٣) ، ولا عذر » (٤) .

ولعل هذا الموقف الواضح لأمهات المؤمنين ، من نهيهن ، وإبائهن على هؤلاء الغوغاء كان معلومًا عنهن عند أهل المدينة ، وهو أمر نستدل عليه بمرجعيتهن المعروفة عند المسلمين في مثل هذه الحالات ، بل وفي كل الحالات (٥) .

وكان موقف السيدة أم حبيبة من المواقف البالغة الخطر في التدليل على الدور السياسي للمرأة في هذه الأحداث ، وهو موقف كان من الخطورة بحيث كادت رضي الله عنها أن تقتل فيه ، ذلك أنه لما حوصر عثمان رضي الله عنه ومُنع عنه الماء، سرَّح عثمان ابنًا لعمرو(٦) إلى عليّ بأنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا شيئًا من

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٩ . وأفرخ الأمر وفرخ : استبانت عاقبته بعد اشتباه . وأفرخ القوم بيضهم إذا أبدوا سرهم . يقال ذلك للذي أظهر أمره وأخبر خبره . وأصل الإفراخ الانكشاف . لسان العرب ، المعجم الوسيط .

(٢) البريُّ : السهم المبريُّ الذي قد أُتم بريه ، ولم يُنْصل .وهو تعبير عظيم عن وضوح نهج عثمان رضي الله عنه .

(٣) وترة : وَتَرَ فلانا يَتِرُه وترا وتِرةً : أدركه بمكروه ، وأفزعه ، وقتل حميمه . لسان العرب .

(٤) تاريخ الطبري ٤/٤٦٤ ، عن سيف وشيوخه .

(٥) تأمل حرص أهل الأمصار على كسب تأييدهن لهم وذلك في حرصهم على لقائهن ، وعرض مزاعمهم عليهن ، وراجع الروايات الكثيرة في قصد المسلمين لهن في كل القضايا في : ابن حجر : مسند عائشة ، والزركشي : الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة .

(٦) عمرو بن حزم الأنصاري ، من جيران عثمان الذين كان يمكنه الاطلاع على عثمان رضي الله عنه من داره . راجع : السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٢/٧٣١ .

الماء فافعلوا . وإلى طلحة وإلى الزبير ، وإلى عائشة ﵂ وأزواج النبي ﷺ ، فكان أولهم إنجادًا له عليّ وأم حبيبة (١) .

« وكانت أم حبيبة ﵂ معنيّة بعثمان » ، كما قال ابن عساكر (٢) ، وكان هذا طبيعيًّا منها حيث النسب الأموي الواحد ، جاءت أم حبيبة على بغلة لها بِرِحالة مشتملة على إداوة (٣) ، فقيل : أم المؤمنين أم حبيبة ، فضربوا وجه بغلتها ، فقالت : إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل . قالوا : كاذبة ، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندت (٤) بأم حبيبة ، فتلقاها الناس ، وقد مالت رِحالتها ، فتعلقوا بها ، وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها إلى بيتها (٥) . ويبدو أنها ﵂ أمرت ابن الجرّاح ، مولاها أن يلزم عثمان ﵁ ، فلقدحدثت أحداث الدار ، وكان ابن الجرّاح حاضرًا (٦) .

وما فعلته السيدة أم حبيبة فعلت مثله السيدة صفية ﵂ ، فلقد روي عن كنانة (٧) قال : كنت أقود بصفية لتردَّ عن عثمان ، فلقيها الأشتر (٨) ، فضرب وجه

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٥

(٢) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٣٦٦/٨ .

(٣) الرّحالة : السرج من جلود ، يتخذ للركض الشديد . والإداوة للماء وجمعها أداوي .

(٤) ندَّ : البعير ونحوه ندا ، وندودا : نفر وشرد . لسان العرب .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٦ . من حديث سيف .

(٦) ابن شَبَّة : تاريخ المدينة: ٢/ ٢٩٨ ، ولقد ذكر أيضًا عن علي بن محمد ، عن رجل ، عن الزهري ، أن أم حبيبة ﵂ ، لما حاول السبئيون أن يمنعوا دفن عثمان ﵁ ، جاءت فوقفت بباب المسجد ، فقالت: لَتُخَلُّنَّ بيني وبين دفن هذا الرجل ، أو لأكشفنّ ستر رسول الله ﷺ ، فخُلوها . ابن شبة : تاريخ المدينة : ٢٦٢/٢ .

(٧) كنانة : هو كنانة بن عدي بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف العبشمي . ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٤٧٣ ، ابن حجر : الإصابة ٤٦٧/٥ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٨٧/٣ .

(٨) الأشتر : مالك بن الحارث النخعي ، أحد الأشراف والأبطال المذكورين ، فقئت عينه يوم اليرموك ، وكان شهمًا مطاعًا زعرًا (الزعارة : الشراسة وسوء الخلق) ، ألّب على عثمان وقاتله ، وكان ذا فصاحة وبلاغة . شهد صفين مع علي وتميّز يومئذ ، وكاد أن يهزم معاوية ، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة ، وما أمكنه مخالفة عليّ ، فكف . نظر عمر إلى الأشتر فصَعَّدَ فيه النظر وصوبه ثم قال : « إن للمسلمين من هذا يومًا عصيبًا » . مات مسمومًا بعد أن جهزه عليّ واليًا على مصر ، وقد كان علي يتبرم به ، لأنه كان صعب المراس ، فلما بلغه نعيه قال : إنا لله ، مالك ، وما مالك ! وهل موجود مثل ذلك ؟ ! لو كان حديدًا كان قيدًا ، ولو كان حجرًا ، لكان صلدًا ، على مثله فلتبك البواكي . وقال بعضهم : قال عليّ : « للمنخرين ، والفم » ، ويروى : « لليدين ، والفم » ، قال فيه ابن =

بغلتها حتى مالت ، فقالت : ذروني ، لا يفضحني هذا ! . ثم وضعت خشبا من منزلها إلى منزل عثمان ، تنقُل عليه الطعام والماء [١] .

ولما حدث ما حدث للسيدة أم حبيبة أعظمه الناس جدًّا [٢] . فخرجت عائشة رضي الله عنها من المدينة وهي ممتلئة غيظًا على أهل مصر ، وجاءها مروان بن الحكم [٣] فقال : « أم المؤمنين ، لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجلَ » ، فقالت : « أتريد أن يُصنع بي كما صُنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعني ! لا والله ، لا أُعيَّر [٤] ولا أدري إلام يسْلم أمر هؤلاء [٥] ! » ، ورأت رضي الله عنها أن خروجها ربما كان مُعينًا في فضِّ هذه الجموع كما سيتضح من الرواية الآتية بعد .

وتجهزت أمهات المؤمنين إلى الحج هربًا من الفتنة [٦] ، على أن خروجهن لم يكن تَنَزُّهًا عن ملابسات الفتنة وحسب ، ولم يكن هروبًا محضًا ، وإنما كان محاولة منهن لتخليص عثمان رضي الله عنه من أيدي هؤلاء المفتونين ، الذين كان منهم محمد بن أبي بكر ، أخو السيدة عائشة رضي الله عنها [٧] ، الذي حاولت أن تَسْتَتْبِعه معها إلى الحج فأبى .

= الزبير (وقيل عبد الرحمن بن عتاب) يوم الجمل : اقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي . فصارت مثلًا لكل من أراد بصاحبه مكروهًا . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٤/٤ ، ابن منظور : مختصر تاريخ ابن عساكر ١٩١/١٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١١/١٠ ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٣٦٦ . وانظر هامش الشيخ محب الدين الخطيب في العواصم من القواصم ص : ١٢٥ .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٣٧ . وقال محقق السير : أخرجه ابن سعد ١٢٨/٨ ، ورجاله ثقات . والدمياطي : نساء رسول الله : ٨٢ . ولعل إيصال الماء كان من بيت النبي ﷺ الذي كان أمام بيت عثمان رضي الله عنه . انظر : السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٢/ ٧٣٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٤/٧ .

(٣) مروان بن الحكم : ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، الأموي ، القرشي ، ابن عم عثمان رضي الله عنه . وهو من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين ، وفقهاء المسلمين : راجع : ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٠١ ، والهامش المفصل للشيخ محب الدين الخطيب في نفس الصفحة . وراجع ترجمته باستفاضة في : ابن عبد البر : الاستيعاب : ٣/ ٤٤٤ ، ابن حجر : الإصابة : ٦/ ٦٥ ، ابن قتيبة : المعارف : ٣٥٣ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٧/ ٣٦٨ ، الفاسي : العقد الثمين : ٧/ ١٦٥ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : ١/ ٧٣ .

(٤) أُعَيَّر : من العار . ولقد يبدي هذا التعبير أن الحالة التي وضع فيها الغوغاء السيدة أُم حبيبة كانت شديدة الإيلام .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٨٦ .

(٦) تاريخ الطبري ٣٨٦/٤ ، عن السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن أبي حارثة ، وأبي عثمان ، ومحمد وطلحة. و ابن كثير : البداية والنهاية :٢٤١/٧ .

(٧) محمد بن أبي بكر الصديق ، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ولد في حجة الوداع بذي الحليفة

ولقد دلل على هذه المحاولة منها أن استتباعها له ، ورفضه كانا لافتين للنظر حتى إن حنظلة الكاتب (١) قد هاله رفضُ محمد لأن يتبع أم المؤمنين ، وقارن بين هذا الرفض منه وبين متابعته لأهل الأمصار ، قائلا : يا محمد تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان (٢) العرب إلى ما لا يحل فتتبعهم ، فأبى ، فقالت السيدة عائشة : أما والله لو استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن (٣) .

وهذا القول منها ، بعد ما حاولته مع أخيها ، دليل على أنها قد بدأت محاولتها لفض الثائرين عن عثمان ، و لإثارة الرأي العام عليهم منذ بدأ تفكيرها في الذهاب إلى مكة . وهذا هو ما أكد عليه الإمام ابن العربي ، قال : « إنه يروى أن تغيبهم [تغيب أمهات المؤمنين مع عدد من الصحابة] كان قطعًا للشغب بين الناس ، رجاء أن يرجع الناس إلى أمهاتهم ، أمهات المؤمنين ، فيرعوا حرمة نبيهم » (٤) ، ويستمعوا إلى كلمتهن التي طالما كانوا يقصدونها من كل الآفاق (٥) .

= لخمس بقين من ذي القعدة ، خرجت أمه حاجّة فوضعته ، كان ربيب عليّ في حجره بعد وفاة أبي بكر ، شهد مع عليّ الجمل وصفين ، ثم ولاه مصر فقتل بها . وكان ممن حَصَر عثمان يوم الدار ، ودخل عليه ليقتله ، فقال له عثمان : لو رآك أبوك لساءه فعلك ، فتركه وخرج . كان له فضل وعبادة ، وكان عليّ يثني عليه . وهو أخو عبد الله بن جعفر ، وأخو يحيى بن عليّ لأمهم . ابن الأثير : أسد الغابة : ٥/ ٩٨ . ويقال إنه أتي ذنبًا يوجب الحد فأقامه عليه عثمان ﷺ ، فعظم الأمر عليه لما له من شرف أبيه . ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٠٠ ، ولعل السبب هو ما زعمه السبئيون من إرسال عثمان ﷺ في أثر خروج أهل الأمصار بقتل بعضهم ، ومنهم محمد بن أبي بكر . الفاسي : العقد الثمين : ١/ ٤٢٧ ، وراجع : ابن كثير : البداية والنهاية : ٣١٩/٧ ، الصفدي : الوافي بالوفيات : ٢٥٨/٢، ابن العماد : شذرات الذهب : ٤٨/١ .

(١) حنظلة الكاتب : هو حنظلة بن الربيع التميمي ، كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فسمي الكاتب . روى عنه أبو عثمان النهدي ويزيد بن الشِّخّير ، حديثه في البصريين ، مات في عهد معاوية ، ولا عقب له . انظر : المديني : تسمية من روى عنه من أولاد العشرة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ١١٧ ، ابن قتيبة : المعارف : ٣٠٠ . ولقد ذكر سيف بن عمر أنه كان قد تحول في الفتنة إلى الرها . سيف بن عمر : الردة والفتوح : ٢٠ .

(٢) ذؤبان : ذَؤُب ذآبة : صار كالذئب خبثا ودهاء ، وذؤبان العرب : لصوصهم وصعاليكهم . لسان العرب .

(٣) تاريخ الطبري : ٣٨٦/٤ . النويري : نهاية الأرب في فنون العرب ٤٩٣/١٩ ، نقلا عن أ د : فهمي عبد الجليل :عصر الخلفاء الراشدين : ١٦٩ .

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٦ .

(٥) والتدليل على هذا السلوك المعروف من قصد أمهات المؤمنين من كل الآفاق لاستفتائهن ، وطلب مشورتهن ، والوقوف منهن على دقائق أحكام الشريعة ، مما يضيق المقام عن حصره ، ولا يحتاج تأكيدًا عليه .

أي أن خروجهم كان نوعًا من التفريق لهذه الجموع ، حيث كان معروفًا عند الناس التماس رأيهن ، وفتاواهن ، وكن رضوان الله عليهن لا يتصورن أن يصل الأمر بهؤلاء الناس إلى قتل الخليفة ﷺ .

ولو كان هذا السلوك منهن مع غير السبئيين لكان ناجحًا في تحقيق الهدف منه ، لكنهم السبئيون ! الذين جاءوا لهدف واضح في أذهانهن ، فما كانت تقف في طريقهم مراعاة حرمة ، وما يَرَعُهم حكم شرعي ، وما كان قصد أمهات المؤمنين ، وطلب رأيهن في مكة ، أو في المدينة عندهم ، على الوجه الذي يمكن أن يغير قولهن ، ونصحهن من نوايا الشر المستقرة في مقاصدهم .

مواقف للصحابيات

أسماء بنت عميس : وقد حاولتْ أسماءُ بنت عميس نفس المحاولة التي حاولتها أم المؤمنين عائشة ، فبعثت إلى ابنيها : محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر [١] ، فقالت : إن المصباح يأكل نفسه ويضيء للناس ، فلا تأثما في أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيكما ، فإن هذا الأمر الذي تحاولون اليوم لغيركم غدًا ، فاتقوا أن يكون عملكم اليوم حسرة عليكم ، فلجّا وخرجا مُغْضَبين يقولان : لا ننسى ما صنع بنا عثمان ، وتقول : ما صنع بكما ! ألا ألزمكما الله [٢] ! .

وهي في ذلك تشير إلى أنه لما جاء أهل الأمصار ، وكروا راجعين إلى المدينة ، بعدما كانوا ناظروا عثمان ﷺ فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة ، فأظهروا أنهم راجعين إلى بلادهم ، ثم ما لبثوا أن عادوا بدعوى أن عثمان ﷺ بعث رسلًا في قتل أناس ، كان منهم حسب دعواهم : محمد بن أبي بكر .

ولعل هذا هو ما يشير إليه محمد بن أبي بكر في قوله : « لا ننسى ما صنع بنا عثمان » . وقد نفى عثمان ﷺ نسبة هذا الكتاب إليه وقال : « إما أن تقيموا شاهدَين عليَّ بذلك ، وإلا فيميني : أني ما كتبتُ ولا أمرتُ ، وقد يُكتب على لسان الرجل ، ويُضرَب على خطه ، ويُنقش على خاتمه » [٣] .

---

(١) محمد بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب : أمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ولد بأرض الحبشة ، شهد صفين مع علي ، وكان مع أخيه محمد بن أبي بكر بمصر لما قتل وهو أول من سمي محمد في الإسلام من المهاجرين . ابن حجر : الإصابة ٧/٦ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٧٨/٥ ، الفاسي : العقد الثمين ٤٤٩/١ ، وراجع ترجمته عند الأصفهاني : مقاتل الطالبيين : ١٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٣٨٦/٤ . ألزم فلانا الشيء أوجبه عليه ، ويقال ألزمه المال والعمل والحجة وغير ذلك . وألزمت خصمي : حججته . المعجم الوسيط . (٣) ابن العربي : العواصم من القواصم ١٢٠ .

لقد كانت السيدة أسماء رضي الله عنها واعية بما يجري من تدبير خفي لزعزعة أحوال المسلمين ، وتنحية عثمان رضي الله عنه عن الخلافة ، وهكذا فإن موقفها رضي الله عنها من ابنَيها ، ووضوح الأمر عندها على هذا النحو الذي جعلها لا تتأثر في مقام الأمومة ، ولا تبدو إلا مُحِقة للحق في هذا الموقف السياسي الواضح . هذا الموقف لا يستهان به ولا شك ، وهو يعد صورة جلية لعدالة هؤلاء الصحابة الكرام .

جدة محمد بن هلال : وكان من نساء المسلمين من واظبن على الدخول على عثمان رضي الله عنه ، فقد قال محمد بن سعد : أنبأنا القعنبي [١] ، وخالد بن مخلد [٢]، عن محمد بن هلال [٣] ، عن جدته : أنها كانت تدخل على عثمان وهو محصور [٤].

الصعبة بنت العلاء الحضرمي : ولما اشتد حصر عثمان رضي الله عنه طلبت الصعبة بنت العلاء الحضرمي من ابنها طلحة أن يكلم عثمان كي يردعه عن إصراره على إسلامه نفسه دون مدافعة من الصحابة ، واستنصار بأهل الأمصار [٥] ، روى البخاري في « التاريخ الصغير » عن عبد الله بن رافع [٦] ، عن أمه : قالت : خرجت الصعبة بنت

---

(١) القعنبي : عبد الله بن مسلمة بن قعنب ، أبو عبد الرحمن الحارثي المدني البصري ، الإمام الثبت القدوة ، شيخ الإسلام . مولده بعد سنة ثلاثين ومائة بيسير . قال أبو زرعة الرازي : ما كتبت عن أحد أجل في عيني من القعنبي . وكانوا يقولون : لا يقدم أحد من رواة « الموطأ » على القعنبي . قال أبو حاتم : ثقة حجة ، روى له البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وغيرهم . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٢٥٧ ، ابن قتيبة : المعارف: ٥٢٤ ، الفاسي : العقد الثمين : ٥/ ٢٨٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٢/ ٤٩ .

(٢) خالد بن مخلد القطواني : أبو الهيثم البَجَلي ، مولاهم ، الكوفي ، صدوق يتشيع . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٢٦٣.

(٣) محمد بن هلال بن أبي هلال المدني ، مولى بني كعب ، صدوق ، مات سنة اثنتين وستين ، أخرج له البخاري وأبي داود والنسائي . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ١٤٢. وذكر ابن حجر : محمد بن هلال بن المعلى الخزرجي : شهد فتح مكة ، وأن النبي ﷺ سماه محمدًا ، أخرجه ابن شاهين ، عن أبي داود عنه . ابن حجر : الإصابة ٦/ ٣٠. فلعلهما شخصية واحدة .

(٤) وتكملة الرواية أنها ولدت هلالا ، ففقدها عثمان يوما فقيل له : إنها ولدت هذه الليلة غلاما ، قالت : فأرسل إليَّ بخمسين درهما وقال : هذا عطاء ابنك وكسوته ، فإذا مرت به سنة رفعناه إلى مائة . ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٤/٧ . وقد حاولت التعرف على اسمها فلم أجده .

(٥) ابن حجر : الإصابة ٨/ ٢٠٨ ، الحبشي : معجم النساء اليمنيات : ١٣٠ . البلاذري : أنساب الأشراف ٥/ ١٨١ ، تحقيق : إحسان عباس . وفيه : زعم الواقدي أنها توفيت على عهد رسول الله ﷺ . وتردعه : ردعًا : تزجره ، وتكفه ، وتمنعه .

(٦) عبد الله بن رافع بن سويد بن حرام بن الهيثم الأنصاري الظَّفري : شهد أُحدًا . ابن عبد البر : الاستيعاب ٣١/٣ . جاءت ترجمته مختصرة هكذا في أسد الغابة والاستيعاب والإصابة ، فلم أتعرف على اسم أمه .

الحضرمي ، فسمعتُها تقول لابنها طلحة [ابن عبيد الله] : إن عثمان اشتد حصره ، فلو كلمته حتى تردعه [١].

والرواية يبدو منها إشفاق الصعبة على عثمان ﷺ ، كما يبدو منها كذلك عناية أم عبد الله بن رافع بالأمر ، ومتابعتها لما يجري من أحداث الفتنة .

أم سليم : ولقد كان تعليق أم سليم على مقتل عثمان ﷺ ، معبرا عن حجم الألم الذي استشعرته ، ومُعبِّرا قبل ذلك عن فهمها لخطورة هذا على مستقبل المسلمين ، فقد روي عن أنس ، قال : قالت أم سليم لما سمعتْ بقتل عثمان : ﷺ ، أما إنه لم يحلبوا بعده إلا دما [٢] .

امرأة الأشتر : وكان موقف امرأة الأشتر من المواقف التي تستدعي العجب في كمال استقلال فكر المرأة في هذه المرحلة ، فلقد جاءت فيما رواه معمر بن بكار بن معمر ، قال : حدثنا إبراهيم بن سعد [٣] ، عن صالح بن كيسان [٤] ، قال : جاءت امرأة الأشتر إلى عليّ ﷺ ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، سمِعت من عدو الله مقالة ما وسعني القيام معه عليها ... يقول : قتلنا بالأمس خير خلق الله، واستعملنا شرَّ خلق الله [٥] » .

كان هذا هو الموقف العام لنساء المسلمين والذي استطعنا أن نفهمه من المصادر ، وهو موقف لا نتهم معه بالتعصب إذا ما قررنا مطمئنين ، أنه كان موقفًا معتدلًا ،

---

(١) الواقع أن الرواية لا تبين عن هذا الهدف صراحةً ، وإنما أعتقد ذلك ، لما تدل عليه الجملة الأولى من إشفاق على شدة حصر عثمان ، كما أننا يمكن أن نفهمها في ضوء ما ثبت في الروايات الصحيحة من موقف طلحة والصحابة من عثمان ، وطلبهم منه أن يخلي بينهم وبين قتال هؤلاء الغوغاء ، لكنه عزم عليهم بعدم المدافعة، فلزمتهم طاعته.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٠٤/٧ . وروى عمر بن أبي شبة مثل ذلك عن الأشعث بن سالم بن الأشعث ، عن أبيه ، قال : حدثتني عمرة بنت قيس قالت : قالت عائشة : « والله ، لئن كان قتل عثمان ﷺ رضًا ليحتَلبُن به لبنًا ، ولئن كان لله سخطًا لَيَحتَلِبُنّ به دمًا » . انظر : ابن شبة تاريخ المدينة ٢/ ٢٦٥ .

(٣) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري : أبو إسحاق المدني ، نزيل بغداد ، ثقة ، تُكلم فيه بلا قادح ، اجتمعت روايته في الأصول الستة . مات سنة ٨٥ هـ . وهناك شخصية أخرى اسمها إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، المدني ، ثقة ، خرَّج له البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة ، مات بعد المائة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٥٦ .

(٤) صالح بن كيسان المدني : أبو محمد أو أبو الحارث ، مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ثقة ثبت فقيه ، مات بعد سنة ثلاثين ، أو بعد الأربعين ، خرَّجت له الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٤٣١ .

(٥) ابن شبّة : تاريخ المدينة : ٢/ ٢٦١ .

وقادرًا على النظر السليم في المسألة رغم الغيم الذي كان متلبسًا بها ، وهو على كل حال كان موقف الصحابة جميعًا ﷺ ، وأرضاهم . غير أن الموقف الأبرز الذي أظهرته المصادر التاريخية كان هو موقف السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهو ما ستعرض له المباحث التالية .

الفصل الثاني

الدور السياسي للسيدة عائشة في أحداث الفتنة على عهد عثمان رضي الله عنه

لقد كانت المواقف السياسية للسيدة عائشة رضي الله عنها في أحداث الفتنة هي أبرز ما سجلته الروايات التاريخية في مواقف الصحابيات من أحداث الفتنة . وهو موقف جاءنا عبر المصادر شائهًا ، شديد الشوه ، حيث نقل إلينا كثيرا من أخباره متعصبو الشيعة ، ومن أراد الطعن في الإسلام ، واستنقاص الصحابة رضوان الله عليهم : رجالًا ونساءً .

ولكم ظلت تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فم ، ويتوارثها جيل عن جيل ، ويتخذها السامعون قضية مسلمة ، مفروغًا من بحثها ، والاستدلال عليها ، وهي في الواقع لم تُعْرَضْ قط على البحث والاستدلال ، ولم تجاوز أن تكون شبهة ، وافقت ظواهر الأحوال ، ثم صقلتها الألسنة ، فعز عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال [1] .

ولسوف يهدف هذا المبحث من أجل ذلك إلى استجلاء الحقيقة التاريخية في هذا الدور السياسي الأبرز للمرأة ، والذي قامت به السيدة عائشة رضي الله عنها ، وذلك من خلال التحري التام للروايات الصحيحة ، مع النظر في المرويات الأخرى المخالِفة عند الطبري ، وعند غير الطبري ، وعند بعض من الدراسات الحديثة ، وذلك لسبر أغوار الإشكال في هذه الروايات ، والانتهاء إلى الرأي الذي يُطمأن إليه .

مكانة عثمان رضي الله عنه عند السيدة عائشة

ومن الأهمية بمكان أن نتعرض لحقيقة علاقة السيدة عائشة بعثمان ابن عفان رضي الله عنهما في أصح المصادر وأوثقها ، تحريرًا لهذه العلاقة ، بين يدي البحث في مواقفها السياسية معه ومن بعده . فهو تحرير سيفيدنا كثيرًا عند خوض معركة الروايات التاريخية المتناقضة في الحديث عن هذا الدور السياسي .

كانت رضي الله عنها أعرف الناس بعثمان رضي الله عنه في فضائله ومناقبه ، ومكانته الرفيعة عند

---

(١) العقاد : عبقرية الإمام ٨٥ .

الرسول ﷺ ، فهي التي قالت ، فيما رواه مسلم في صحيحه : « كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي ، كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ﷺ ، وسوى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ، ولم تُبَالِه [١] ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُبَالِه ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » [٢] ؟

وأخرج ابن عساكر ، عنها : أنه ﷺ ، قال : « إن الله أمرني أن أُزوج كريمَتي من عثمان [٣] » ، وأخرج لها أيضًا عنه ﷺ قال : « اللهم قد رضيتُ عن عثمان فارضَ عنه [٤] » .

وروى الإمام أحمد أن فاطمة بنت عبد الرحمن [٥] قالت : حدثتني أمي أنها سألت عائشة ، وأرسلها عمها ، فقال : قولي إن أحد بنيك يقرئك السلام ، ويسألك

---

(١) تهتش : الهشُّ والهشيش من كل شيء ما فيه رخاوة ولين ، وهششت له : ارتحت له . ورجل هش : باشٌّ . تباله : تبالي به ، تهتم .

(٢) انظر روايات الحديث في : صحيح مسلم بشرح النووي ٢٦١/٥ وما بعدها ، كتاب فضائل الصحابة ﷺ ، باب : من فضائل عثمان بن عفان ﷺ ، مسند الإمام أحمد : ٥٢/٦ ، ٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ٢١٢ : ٢١٤ ، ورواياته في مسند عائشة عن سعيد بن العاص وعائشة بنت طلحة .

(٣) المتقي الهندي : كنز العمال : حديث رقم ٣٢٧٩٢ . والشوكاني في : دَرُّ السَّحابة في مناقب القرابة والصحابة : ١٨٢ .

(٤) المتقي الهندي : كنز العمال : رقم : ٣٢٨٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٢/٧ ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقد ذكره من وجه آخر أيضًا .

(٥) فاطمة بنت عبد الرحمن :لم أعثر على راوية اسمها فاطمة بنت عبد الرحمن ،كما لم أجدها في أسماء الرواة عن عائشة في مسند عائشة ، وأظنها عمرة بنت عبد الرحمن ، الراوية الشهيرة عن عائشة . وهي – إذا صح ظني – عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الفقيهة الأنصارية النجارية : تربية عائشة ، وتلميذتها . حدثت عن عائشة ، وأم سلمة ، ورافع بن خديج ، وأختها أم هشام بنت حارثة . حدث عنها ولدها أبو الرِّجال ، محمد بن عبد الرحمن ، وابناه حارثة ، ومالك ، وابن أختها أبو بكر بن حزم ، وابناه ، والزهري ، وآخرون . كانت عالمة ، فقيهة ، حجة ، كثيرة العلم ، ذكر الزهري أن القاسم ابن محمد قال له : يا غلام ، أراك تحرص على طلب العلم ، أفلا أدلك على وعائه ، قلت : بلى ، قال : عمرة ، قال : فأتيتها فوجدتها بحرًا لا يُنْزَف . توفيت سنة ٩٦ ، وقيل : ١٠٦ . وحديثها كثير في دواوين الإسلام . راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٤/ ٢٥٣ .

عن عثمان بن عفان ، فإن الناس قد شتموه ، فقالت : « لعن الله من لعنه ، فوالله لقد كان قاعدًا عند رسول الله ﷺ ، وإن رسول الله لمسند ظهره إلي ، وإنه ليقول : اكتب يا عثيم ، قالت عائشة : فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريمًا على الله ورسوله [١] » .

بل إن السيدة عائشة رضي الله عنها هي التي روي عنها بأكثر من خمس طرق عهد الرسول ﷺ لعثمان رضي الله عنه بأن لا يتنازل عن الخلافة إن وليها مهما طلبوا منه ، فلقد روى الإمام الترمذي ، عن النعمان بن بشير ، عن عائشة أن النبي ﷺ قال : « يا عثمان ، إنه لعل الله يقمصك قميصًا ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم » . وفي رواية « فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ، يقولوها ثلاثًا [٢] » .

وروت أن النبي ﷺ قال في مرضه : « وددت أن عندي بعض أصحابي » قلنا : يا رسول الله ألا ندعو لك أبا بكر ، فسكت ، قلنا : ألا ندعو لك عمر ، فسكت ، قلنا : ألا ندعو لك عثمان ، قال : « نعم » ، فجاء فخلا به ، فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجه عثمان يتغير ، قال قيس بن أبي حازم [٣] راوي الحديث عن عائشة - : فحدثني أبو سهلة ، مولى عثمان ، أن عثمان بن عفان قال يوم الدار : إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهدًا ، فأنا صائر إليه ، وفي رواية : فأنا صابر عليه . قال قيس : فكانوا يرونه ذلك اليوم [٤] .

والتي روت هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ في شأن عثمان لا يمكن أن يكون موقفها منه هو موقف المعارضة ، أو الخذلان له .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢١٩/٧ ، مسند الإمام أحمد : ٢٥٠/٦ وفي رواية للطبراني أنها سألت عائشة عند الكعبة ، فذكرت مثله .

(٢) الوادعي : الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ٤٩٥/٢ ، وقد قال : حديث حسن غريب ،و قال أبو عبد الرحمن : هو على شرط مسلم . وأخرجه الترمذي ١٩٩/١٠، وأخرجه ابن ماجة عن النعمان بن بشير ، بدون واسطة ، وفيه زيادة تقول : « قال النعمان بن بشير : فقلت لعائشة : ما منعك أن تعلمي الناس بهذا ، قالت : أُنسيته » . قال الوادعي صاحب الصحيح المسند : وسند الترمذي - بدون هذه الزيادة - أرجح . وذكره ابن كثير عن الإمام أحمد : ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٨/٧ . وانظر ابن حجر : مسند عائشة ٣٣٣ : وقد رواه عنها سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، عمن بلغه عنها ، وعروة ، وقيس بن أبي حازم ، وأبو سهلة ، ونعمان بن بشير ، وأبو عبد الله الحبلي.

(٣) سبق التعريف .

(٤) ابن ماجه : ٤١/١ ورواته ثقات .

موقف عائشة من مقتل عثمان لم يكن غريبًا ، بل كان المتوقع أن يكون موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل عثمان رضي الله عنه ، هو موقف الصحابة جميعًا ، من الغضب له رضوان الله عليه ، والحنق على قاتليه [١] ، وكانت أولى الروايات المعبرة عن ذلك لدى الطبري ، هي روايته عن السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ، وفيها : « أنه لما تساقط الهُرَّاب إلى عائشة بمكة استخبرتهم فأخبروها أن قد قتل عثمان رضي الله عنه ، ولم يجبهم إلى التأمير أحد ، فقالت : ولكن أكياس [٢] ، هذا غِبٌّ [٣] ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح ،.... » ، ورجعت رضي الله عنها إلى مكة وهي لا تقول شيئًا ، ولا يخرج منها شيء حتى نزلت على باب المسجد ، وقصدت للحجر فستَّتَرَتْ فيه ، واجتمع الناس إليها فقالت :

« أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرْب [٤] ، واستعمال من حدثت سنُّه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهي أمور قد سُبِق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ، ونزع لهم عنها استصلاحًا لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرًا خلجوا [٥] ، وبادَوا بالعدوان ، ونبا فِعْلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لإصبع عثمان خير من طِباق الأرض أمثالهم . فنجاة [٦] من اجتماعكم عليهم حتى يَنْكل [٧] بهم غيرهم، ويشرَّد [٨] مَن بعدهم ، ووالله ، لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلُص منه كما يخلُص الذهب من خَبَثه ، أو الثوب من

---

(١) راجع ما ذكره ابن شبة ، فيما روي عن علي وعائشة رضي الله عنهما من التنديد في قتل عثمان رضي الله عنه . ابن شبة : تاريخ المدينة : ٢/ ٢٥٩ وما بعدها .

(٢) أكياس : كاس الولد كيسا وكياسة : عَقَل وظَرُف وفَطُن ، فهو كيِّس وكيْس والجمع أكياس .

(٣) غب : الغب من كل شيء عاقبته وآخره .

(٤) الأرب : الحاجة والدهاء والفطنة والعقل .

(٥) خلجوا : تحركوا واضطربوا .

(٦) نجاة : أي اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم .

(٧) يَنْكل بهم غيرهم : أي حتى يردعه ويروع بهم غيرهم من إتيان مثل صنيعهم ، ونكل عن الأمر جبن وانصرف . لسان العرب .

(٨) يشرِّد : يفرق ، ويبدد جمعهم . لسان العرب .

درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء »[١] .

والذي يتأمل هذه الرواية المُقَدَّمة لدى الطبري يتبين له :

كم كان حجم نظرها رضي الله عنها للأمور ، وكيف كانت فطنتها ، عند أول تعليق لها على هذا الأمر الجلل إلى أن هذا الأمر ما كان ليحدث ، لو لم تكن من ورائه عقول مدبرة ومُخَطِّطَة ، وإلى أن معاتبة بعض الصحابة لعثمان رضي الله عنه على ملأ من الغوغاء الذين يخبرون بما يسمعون دون فهم سليم لما سمعوا ، فيتحَدَّث بأخبارهم في المجالس ، كان سببا من أسباب ما حدث لعثمان رضي الله عنه . وهذا تنبّه دقيق منها ، وتحليل عميق لما كان حقيقةً من صنيع السبئية التي حركت الغوغاء بالمجاهرة بالنكير على الخليفة على هذا النحو الأليم ، الذي لما يزل يفعل فعله في تاريخ المسلمين إلى يومنا هذا .

أن حجم إحساسها بالكارثة التي حلت بالمسلمين ، كان مُلْجِمًا لها ومانعا لها من التفوه بكلمة واحدة ، وهو ما دل أيضا على شديد همها ، ومحاولتها تدبر الأمر .

أن عثمان رضي الله عنه – في رأي السيدة عائشة – لم يأل جهدًا في استصلاحهم ، حتى لم يجعل لهم حجة ، ولا عذرًا .

أنها لكل ذلك لم تتردد في القيام طلبًا لثأر عثمان رضي الله عنه غيرة على حرمات الله التي أهدرها الثائرون بقتله .

أنها رضي الله عنها كانت عارفة بما ينكرونه على عثمان ، ولكنها لم تكن تنكر عليه رضي الله عنه شيئًا من أموره ، بل كانت تراها أمورًا قد سُبِق بها فلا يصلح غيرها ، فهو عندها نقى الصفحة ، بل إن إصبعه خير من طِباق الأرض أمثالهم[٢] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/٤٤٨ ، ٤٤٩.

قال ابن منظور : المَوْص : الغَسْلُ . ماصه يُوصُه مَوصًا : غسله ، ومنه حديث عائشة في عثمان رضي الله عنها : مُصْتُمُوه كما يُماصُ الثوب ، ثم عدوتم عليه فقتلتموه ، تقول : خرج نقيًّا مما كان فيه ، يعني استعتابهم إياه وإعتابه إياهم فيما عتبوا عليه . لسان العرب .

(٢) وهذا يؤكد خطأ ما ذهب إليه كثير من الباحثين من أنه كان لأم المؤمنين وطلحة والزبير ، وغيرهم من الصحابة في عثمان رضي الله عنه كلام ورأي ، فلما قتل دون أن يدفعوا عنه أو يقفوا إلى جواره في محنته ، شعروا بالتقصير ، وعضهم الندم . انظر على سبيل المثال : د/ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية : ٥١٧ ، ٥٢٦ ، د/ هشام جعيط : الفتنة : ٧٤ : ٧٧ .

نقد الروايات التي ذكرت تأليب عائشة على عثمان (رضي الله عنهما) عند الطبري

وعلي العكس من الصورة الطيبة التي نفهمها من الروايات السابقة الموثوقة للعلاقة بين أم المؤمنين عائشة وعثمان رضي الله عنهما ، فإنه تبقى عند الطبري وغيره روايات أخرى صورت العلاقة بين عائشة وعثمان رضي الله عنهما على صورة مناقضة تمامًا لما انتهينا إليه ، وشوهت الدور السياسي الناصع ، والواعي ، الذي قامت به رضي الله عنها : دفاعًا عن حرمات الله عز وجل ، ودفعًا عن عثمان رضي الله عنه ، وفهمًا لألاعيب السبئية .

فأما الروايات التي ذكرها الطبري فقد جاءت متأخرة في ثنايا سرده للأحداث ، وفي هذا التأخير دلالة يعرفها الباحثون [1] ، ثم هي عنده روايات مسندة ، نستعين بإسنادها على معرفة أصلها الذي غالبا ما يتبين لنا منه كذبُ الرواية وزيفها.

وسوف نتوقف الآن أمام هذه الروايات التي قالت بتأليب عائشة رضي الله عنها على عثمان رضي الله عنه ، والتي قالت بخلاف فكري بينهما ، و نسبت إليها الاشتراك شبه الفعلي في قتله رضي الله عنه عند الطبري ، ونعرض لها بالدرس والتحليل ، وذلك للنظر في مدى صفاء هذا الدور السياسي ، ورشادة مقصده .

الرواية الأولى عند الطبري

وهي ما ذكره الطبري ، قال : كتب إلى عليّ بن أحمد بن الحسن العجلي ، أن الحسين بن نصر العطار ، قال : حدثنا أبي نصر بن مزاحم العطار ، قال : حدثنا سيف بن عمر ، عن محمد بن نويرة ، وطلحة بن الأعلم الحنفي . قال : وحدثنا عمر بن سعد ، عن أسد بن عبد الله ، عمن أدرك من أهل العلم ، أن عائشة رضي الله عنها لما انتهت إلى سرف [2] راجعة إلى مكة ، لقيها عبد بن أم كلاب – وهو عبد بن أبي سلمة ، ينسب لأمه – فقالت له : « مهيم ، قال : قتلوا عثمان رضي الله عنه ، فمكثوا ثمانيًا ، قالت : ثم صنعوا ماذا ، قال : أخذها أهل المدينة

---

(١) أشرت من قبل إلى أن المعروف عند الطبري أنه يقدم من الأخبار ما نقله رواة معروفون بالصدق على الأخبار التي نقلها آخرون لا يوثق برواياتهم . راجع المبحث التمهيدي عن الطبري ومنهجه في إيراد الروايات .

(٢) سرف : مكان بين مكة والمدينة على ستة أميال من مكة من طريق مر بنى به النبي صلى الله عليه وسلم بميمونة بنت الحارث ، وفيه ماتت . قال الذهبي : أظنه المكان المعروف بأبي عروة . نقلا عن محقق نساء رسول الله للدمياطي : ٦٥ .

بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب » .

فقالت : رُدُّوني ، ردوني ، والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . فانصرفت إلى مكة وهي تقول : « قتل والله عثمان مظلومًا ، والله لأطلبن بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب : ولم ، فوالله ، إن أول من أمال حرفه لأنت ! » ولقد كنت تقولين : « اقتلوا نعثلًا [١] فقد كفر » قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه » ، وقد قلت ، وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فمنك البَدَاءُ ومنكِ الغِيَر ... ومنك الرياح ومنك المطر

وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام ... وقلتِ لنا :إنه قد كفرْ

فَهَبْنا أطعناكِ في قتله ... وقاتِلهُ عندنا مَن أمر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر ، فَسَتَّرتْ واجتمع إليها الناس ، فقالت : إن عثمان قتل مظلوما ، ووالله لأطلبن بدمه [٢] .

تعليق على إسناد الرواية

رويت هذه الرواية كما رأينا من طريقين عند الطبري : الأول لم يتبين لي من حال رجاله غير حال نصر بن مزاحم العطار، المجروح في كتب الرجال بالصفات الآتية : رافضي ، شيعي ، منكر ، تركوه ، جلد [٣] .

وفي هذا الطريق أيضًا سيف بن عمر الذي خرج له الطبري رواية أخرى ، قدمها على هذه الرواية ، وهي تتناقض تناقضًا تامًّا مع هذه الرواية المذكورة في مسألتين أساسيتين هما : اتهام عائشة بالتأليب على عثمان ، ورأيها في خلافة عليّ ﷺ . فهل يصح عن سيف الرواية ونقيضتها ، الواقع أننا وإن قبلنا أن يصح عنه هذا باعتباره مجرد راو لما يصل

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كثيف شعر اللحية كان يشبه عثمان ﷺ . لسان العرب .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٥٩/٤ . الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ٥١/١ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ٧٧/٢ .

(٣) انظر الذهبي : المغني في الضعفاء ٢/ ٦٩٦ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ٧/ ٢٤ ، دار الكتب العلمية ، البخاري : التاريخ الكبير ١٠٥/٨ ، لم يذكر عنه إلا أنه المنقري ، سكن بغداد ، وروى عنه أبو الصلت ، وابن الرّماح ، وابن حجر : لسان الميزان ، طبعة دار الكتب العلمية : ٦/ ٢٠٤ ، وفيه : قال أبو خيثمة : كان كذابًا ، وقال الدارقطني : ضعيف ، وقال العجلي : كان رافضيًّا غاليًا ، ليس بثقة ، ولا مأمون ، وقال الخليلي : ضعفه الحفاظ جدًّا . وانظر : ابن عدي : الكامل في ضعفاء الرجال : ٨/ ٢٨٥ ، الدارقطني : الضعفاء والمتروكين : ١٦٩ .

إليه ، إلا أننا نعود لنجد الرواية لا تستقيم من جهة أخرى ، هي جهة نصر بن مزاحم .

وأما الطريق الثاني : فهو طريق لا يكاد يستوي واقفا أمام التحري عن حال رجاله ، فعمر بن سعد هو قائد السرية الذين قاتلوا الحسين ﷺ ، وهو عند رجال الحديث لا يصح حديثه ، متهم بالوضع ، متروك [1] . وأما أسد بن عبد الله فلَيِّنُ الحديث في رأي ابن حجر [2] ، و لا يتابع على حديثه في رأي البخاري ، وفوق ذلك فهو - كما ذكر ابن حجر - قد مات سنة عشرين [3] . كيف قام إذن برواية هذا الحدث الذي وقع سنة خمس وثلاثين ، ! . وأخيرًا تبقى الجهالة الواضحة في : « من أدرك أسد بن عبد الله من أهل العلم » . فالرواية غير مقبولة الإسناد في أي من طريقي روايتها .

تعليق على متن الرواية

وأما متن الرواية فأول ما يسترعي الانتباه فيه هو أن هذه الرواية تناظر الرواية الأخرى التي ذكرناها في معرض الحديث عن موقف السيدة عائشة من مقتل عثمان ﷺ - وقد عرضنا لها بالتحليل [4] - فموضوع الروايتين واحد ، كما أن أبطالهما هم ، هم . وهذا التناظر شبه التام من حيث الموضوع والأبطال مع التناقض شبه التام أيضا بين المضمونين لابد أن تكون نتيجته الحتمية أن إحدى الروايتين صحيحة والأخرى موضوعة [5] .

فالرواية الأولى المروية عن سيف بن عمر وشيوخه لم تعرض لأية تهمة ، بَلَهَ شبهة في تأليب عائشة ﵂ على عثمان ﷺ ، بينما رواية نصر بن مزاحم تكاد تنصبُّ على هذه التهمة الشنيعة ، وتركزها شعرًا، ونثرًا ، ولقد لا يغيب عن القارئ في تراث هذه المرحلة أن أسلوب هذا الشعر يبدو غريبًا ، وغير جارٍ على أسلوب هذا العصر الذي نعرض لدرسه ، وهو ما يعد دليلًا على الوضع في هذه الرواية .

ورواية سيف أيضًا لم تعرض لمظنة رفض عائشة ﵂ لخلافة عليّ ﷺ ، بينما أكدت

(١) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١٦٨/٥ ، البخاري : التاريخ الكبير : ١٥٨/٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ٨٤/٣ ، ابن حجر : تقريب التهذيب ٧١٧/١ .

(٢) ابن حجر : تقريب التهذيب : ٨٨/١ . (٣) المصدر السابق : ٨٨/١ .

(٤) انظر موقف السيدة عائشة من مقتل عثمان صفحة ٣٤٩ .

(٥) يلفت نظري كثيرا أن الوضّاعين يقفون بالمرصاد لكل رواية صحيحة ، فيضعون على مثالها رواية موضوعة ، تستخدم فيها تعبيرات وألفاظ مقاربة لتعبيرات الروايات الصحيحة ، وتندس فيها الأسماء نفسها التي في الروايات الصحيحة ، فتُحْدِثُ حالة من التشويش يصعب التخلص منها على غير المتخصص .

رواية نصر على كراهيتها الشديدة لهذه الخلافة ، حتى قالت قولتها : « ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك » ، وهذه مسألة سنعاود التوقف معها لاحقًا .

ورواية سيف كذلك قد أوضحت أن الغوغاء هم الغالبون على المدينة ، وهو أمر أكدت عليه روايات أخرى لرواة تصح عند البحث روايتهم [١] ، بينما لم تعرض رواية نصر لهذه المسألة ، بل قالت : « وجازت بهم الأمور إلى خير مجاز » .

وثاني ما يسترعي الانتباه هو مستوى لغة الحوار مع أم المؤمنين ، حيث عدم التقدير والاحترام لمقامها الراسخ عند المسلمين . الأمر الذي يوحي بشك غير قليل في هذه الرواية ، خاصة إذا ما انضاف إلى مقامها عند المسلمين مقامها عند عبد بن أبي سلمة [٢] المذكور في الرواية ، وهو من أخوالها بني ليث ، الذين كانت لهم واصلة ، كما تقول رواية سيف بن عمر .

وهذا يلفتنا إلى حيلة أخرى من الحيل التي يستخدمها الوضَّاعون من أصحاب الأهواء ، حين يقصون القول على لسان واحد ممن له صلة بالشخصية التي يكذبون ، ويزورون عليها ، ليزيدوا الأمر تلبيسًا على السامع .

وليت الأمر توقف عند حد مستوى الحوار وحسب ، بل لقد ذهب إلى اتهامها بتهم عظيمة : من تأليبٍ على الخليفة ، وتكفيرٍ له ، ودعوةٍ إلى قتله ، مع ما يدل عليه كل هذا من خروج على الجماعة . ثم تبرر السيدة عائشة غضبها - في زعم الرواية - لمقتل عثمان ، بعد ما ألبت عليه وكَفَّرَتْه ودعت إلى قتله - كما زعموا - بأنهم استتابوه ثم قتلوه ! .

والغريب ألا تنفي عن نفسها هذه التهم العظام و تقول -كأن الأمر من السهولة ، والبساطة - : « وقولي الأخير خير من قولي الأول » ، وكأنها تُقِرُّ بهذه التهمَ التي وُجهتْ إليها ، مع كراهيتها في الوقت نفسه لخلافة عليّ ﷺ ، وهي تهم لا يكاد

---

(١) انظر مثلا : رواية أبي سعيد ، مولى أبي أسيد الساعدي الأنصاري ، وهي في تاريخ الطبري ، ورواية سهم الأزدي ، ورواية الأحنف بن قيس ، وهي كلها روايات جاءت عن شهود للأحداث ، وقد عرض لها الدكتور يوسف العش - رحمه الله - ووثق فيها وثوقًا جعله يعتبرها أساسًا يعتمد عليه في فهم الأحداث ، كما جعله يقابل عليها بقية الروايات الأخرى ، فإن تضاربت معها قطع بأنها غير مطلعة على حقيقة الحادث . العش : الدولة الأموية ٤١ ٥٩ . وانظر أيضًا : تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٠ ، في رواية أخرى عن سيف .

(٢) اسمه في الرواية الأولى التي بدأ بها الطبري : عبيد بن أبي سلمة ، بينما هو في هذه الرواية التي أخرها الطبري : عبد .

يستقيم معها دين المرء [١] ، ولا تتسق مع عائشة رضي الله عنها في فقهها وتحريها وفهمها للأحكام ، وهذا هو ما نعنيه بضرورة أن نعرض كل خبر على سجايا من نخبر عنه ، ونقارنه بسيرته ، وهل هو مما ينتظر وقوعه ممن نسب إليه ، ويلائم المعروف من سابقته وأخلاقه أم لا [٢] . ثم إن الرواية لا تتسق مع ما ذكرنا من مكانة لعثمان رضي الله عنه عندها ، وهي مكانة قالت بها الروايات الصحيحة كما وضحنا .

بل إنه قد ثبت عكس هذه الرواية تمامًا في صحيح الروايات ، فلقد ذكر ابن كثير رواية أخرى ، تضاف إلى رواية سيف الصحيحة - في رأينا - والتي مرت بنا ، حيث ذكر في إسناد صحيح [٣] إلى عائشة أنها لما وجهت بمثل هذه التهم لم تتقبلها رضي الله عنها ونفتها نفيًا جازمًا . والرواية عن أبي معاوية [٤] ، عن الأعمش [٥] ، عن

---

(١) انظر في ذلك : صحيح مسلم : ١/٢٤٨ ، باب : بيان حال من قال لأخيه المسلم : يا كافر، حديث رقم : ٩٨ ، وفيه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « أيما امرئ قال لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما . إن كان كما قال ، وإلا رجعتْ إليه » أي رجعت إليه معصية تكفيره أخيه المسلم ، وفي شرح النووي له تفصيل آخر في نفس المصدر .

(٢) انظر مثلا في الأخذ بمثل هذه الروايات الواهية ، وبناء الأحكام التاريخية على أساسها ، فيما قاله العقاد مدللًا على سوء حال هذا الفريق ، فريق المطالبين عليًا بالقود من قتلة عثمان ،مستدلا بثلاثة من أوهى الروايات في وصف موقف السيدة عائشة من مقتل عثمان ، ومن خلافة علي رضي الله عنه، وهي روايات تكاد تسقط العدالة تماما عنها رضي الله عنها ، وتغمز دينها غمزًا بعيدًا ، ليدلل على سقوط عدالة الباقين ممن كانوا معها بقياس الأولى ، فقال مشيرًا إلى هذه الرواية المقدوحة ، ومبرزًا التناقض المزعوم في موقفها رضي الله عنها : وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله عنها . وناهيك بالسيدة عائشة في فضلها ومكانتها وتقواها . فقل ما شئت في المطالبين غيرها بهذا المطلب الذي لا يجاب ، والرضى أو الإرضاء مستحيل حين يكون الطالب من هذا القبيل . العقاد : عبقرية الإمام : ٩٦، ٩٧.

(٣) ذكر صحة الإسناد هذه ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ١٩٥ ، وراجع مصنف ابن أبي شيبة : ١٢/ ٥١ .

(٤) أبو معاوية محمد بن حازم : مولى بني سعد ، قال الذهبي : الإمام الحافظ الحجة ، أحد الأعلام . قال يحيى بن معين : هو أثبت من جرير في الأعمش ، وقال : هو أثبت أصحاب الأعمش بعد سفيان وشعبة . قال النسائي عنه : ثقة . وقال ابن خِراش : صدوق ، وهو في الأعمش ثقة ، وفي غيره فيه اضطراب . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩/ ٧٣ : ٧٨ ، ابن قتيبة : المعارف : ٥١٠ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ٣٣٤ .

(٥) الأعمش : سليمان بن مهران ، قال الذهبي : شيخ الإسلام ، شيخ المقرئين والمحدثين ، أبو محمد الأسدي . قال يحيى القطان : هو علامة الإسلام . قال وكيع بن الجراح : كان الأعمش ، قريبًا من سبعين سنة ، لم تفته التكبيرة الأولى . انظر ترجمته في : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢٦:٢٤٨ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٥/ ٥٨٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢/ ٤٠٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ١/ ٢٢٠ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ١٥٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٦/ ٣٤٢ .

خيثمة [١] ، عن مسروق [٢] ، قال : قالت عائشة حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقي من الدنس ، ثم قتلتموه [٣] . فقال لها مسروق : هذا عملك ، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه ، فقالت : « لا والذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا » .

قال الأعمش : فكانوا يرون أنه كتب على لسانها [٤] . وقال ابن كثير : وفي هذا وأمثاله دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الخوارج قبحهم الله ، زوروا كتبًا على لسان الصحابة إلى الآفاق ، يحرضونهم على قتال عثمان [٥] .

وتزوير الكتب في مأساة البغي على أمير المؤمنين عثمان كان من أحدِّ أسلحة البغاة التي استعملوها من كل وجه ، وفي كل حال ، حتى قيل إنهم كانوا يزورون الكتب على أزواج النبي ، في الشكوى من حكم عثمان ، وتتلى هذه الكتب في جامع عمرو بالفسطاط على ملأ من الناس [٦] . والتزوير على لسان عائشة رضي الله عنها ،

---

(١) خيثمة بن أبي سبرة : يزيد بن مالك بن عبد الله الكوفي الفقيه . لأبيه ولجده صحبة . كان من العلماء العباد . نجا من فتنة ابن الأشعث ، هو وإبراهيم النَّخعي فيما قيل .أدرك ثلاثة عشر صحابيًا . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢٠ ، وتاريخ البخاري : ٣/ ٢١٥ ، والخزرجي : خلاصة تذهيب التهذيب : ١٠٧ .

(٢) مسروق بن الأجدع : الإمام ، القدوة ، العلم ، أبو عائشة الوادعي ، الهمداني ، الكوفي ، عداده في كبار التابعين ، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ . قال الشعبي : ما علمت أن أحدًا كان أطلب للعلم في أُفق من الآفاق من مسروق ، وقال : كان مسروق أعلم بالفتوى من شريح . وقالت امرأة مسروق : كان يصلي حتى تورَّم قدماه ، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه . وكانت عائشة تقول : يا مسروق : إنك من ولدي ، وإنك لمن أحب ولدي إليَّ . وكان يحيى بن معين يقول : مسروق ثقة ، لا يسأل عن مثله . وقال ابن سعد : ثقة ، له أحاديث صالحة . راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣ : ٦٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣٥٤ ، والخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ٣٧٤ ، و ابن العماد : شذرات الذهب : ١/ ٧١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ١٠ / ١٠٩ ، تقريب التهذيب : ٢/ ١٧٥ .

(٣) وفي رواية : ثم قربتموه ، ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ١٩٥ . قال أبو وكيع : « فسمعت الأعمش يزيد في هذا الحديث أن عائشة حلفت بيمين ما حلف بها أحد قبلها ، ولا بعدها » ، وذكر اليمين المذكور أعلاه . ابن شبة : تاريخ المدينة ٢/ ٢٥٤ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ٢٠٤ . انظر ما رواه البلاذري عن أحمد بن إبراهيم : أنساب الأشراف : ٤/ ٤٩٦ ، وابن شبَّة : في الرواية عن الأشتر التي زعم فيها مكاتبة عائشة رضي الله عنها لهم . ابن شبة : تاريخ المدينة : ٢/ ٢٥٤ .

(٦) انظر : الكندي : تاريخ ولاة مصر : ١٩ ، الصادق عرجون : عثمان بن عفان ١٣٢ ، نقلا عن الشيخ الخطيب في تحقيقه وشرحه للعواصم من القواصم : ١٢٠ .

وأمهات المؤمنين أمر له دلالته الواضحة على عمق تأثيرهن في الأحداث ، ذلك التأثير الذي سعى المنافقون من السبئيين إلى توظيفه لخدمة مؤامراتهم التي كشفها التاريخ الصحيح . الرواية إذن ساقطة سندًا ومتنًا ، فلا يعول عليها .

الرواية الثانية عند الطبري

وأما الرواية الثانية عند الطبري والتي تتهم عائشة رضي الله عنها بالتأليب على عثمان رضي الله عنه ، فلقد ذكرها الطبري عن محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبي سَبَرة [١] ، عن عبد المجيد بن سهيل [٢] ، عن عكرمة [٣] ، قال : قال ابن عباس : .... وذكر طلب عثمان منه أن يخرج أميرًا على الحج ، ومعه منه كتاب إلى أهل الموسم ، يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن حصره .

ثم قال : فخرج ابن عباس ، فمر بعائشة في الصُّلصُل [٤] ، فقالت : يا ابن عباس أُنْشِدُكَ الله - فإنك قد أُعطيت لسانًا إزعيلًا [٥] - أن تُخَذِّل عن هذا الرجل ، وأن تُشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت [٦] ورُفِعتْ لهم المنار ، وتحلبوا [٧] من البلاد لأمر قد حُمّ [٨] ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على

---

(١) ابن أبي سبرة : هو أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة ، بن أبي رُهْم ، القرشي العامري المدني ، قيل اسمه عبد الله ، وقيل محمد . قال ابن حجر : رموه بالوضع .مات سنة اثنتين وستين . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٦٥. وقال الذهبي : رموه بالوضع : الذهبي : ميزان الاعتدال : ٤/ ١٣٣ .

(٢) عبد المجيد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري : أبو وهب ، وأبو محمد ، ثقة . أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي في سننه . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦١٢ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ٢٤٣ ، المديني : تسمية من روى عنهم من أولاد العشرة ٨٧ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠٤ .

(٣) عكرمة : عكرمة بن عبد الله ، مولى ابن عباس ، أصله بربري ، ثقة ثبت ، عالم بالتفسير ، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ، ولا يثبت عنه بدعة ، مات سنة سبع ومائة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦٨٥ .

(٤) الصُّلصُل : هو موضع على سبعة أميال من المدينة ، وقال ابن سعد : هو جبل معروف اليوم في أثناء البيداء ، على يمين المتوجه إلى مكة . السمهودي : وفاء الوفا ٤/ ١٢٥٤ . وذكر الأستاذ سعيد الأفغاني أنه موضع بالقرب من المدينة . الأفغاني : عائشة ، والسياسة : ٥٥ . والصلصل لغة : بقية الماء في الإداوة وغيرها من الآنية ، أو في الغدير . لسان العرب .

(٥) إزعيلا : ذلقًا . لسان العرب .

(٦) أنهجت : وضحت . المعجم الوسيط .

(٧) تحلبوا : حَلَبَ القوم حَلْبا وحُلُوبا : اجتمعوا من كل وجه . المعجم الوسيط .

(٨) حُمّ : قُضِيَ . المعجم الوسيط .

بيوت الأموال والخزائن مفاتيحَ ، فإن يَلِ يَسِرْ بسيرة ابن عمه أبي بكر . قال : قلت يا أُمَّة لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا . فقالت : إيهًا عنك ! إني لست أريد مكابرتك ، ولا مجادلتك [١] .

نقد الرواية متنا وسندا فأما أول قولنا في هذه الرواية فهو أنها مقدوح فيها من جهة ابن أبي سبرة المتهم بالوضع ، مع كونها من طريق الواقدي ، ولم تأت عند غيره ، فهو منفرد بها ، ولا يحتج به حال انفراده [٢] ، وأتساءل في الوقت نفسه :

كيف عرفت عائشة أن عثمان قد بعث ابن عباس أميرًا على الحج ، بينما كان ابن عباس ﷺ خارجًا لتوه من عند عثمان ﷺ بهذا التكليف ، وهل يمكن أن يصح ، أو يُعْقَل أن تطلب عائشة مثل هذا من ابن عباس ، وهي تعرف أنه أمير الحج من قبل الخليفة الذي بعثه ، بهذه الصورة الفجة التي لو جازت - في زعم الرواية - ولا تجوز - على عائشة ، فإنها لا تجوز على ابن عباس ﷺ .

وأما أن عائشة رضي الله عنها كانت تخطط كي يلي طلحة بن عبيد الله فهو ما لا يوجد له شاهد آخر عند الطبري في غير هذه الرواية ، بل إن الروايات الصحيحة الإسناد قد تضافرت جميعًا على نفي أن تكون عائشة رضي الله عنها - بل ومعها طلحة نفسه - كانت ترى الخلافة تعدو عليًّا [٣] ، وهو أمر سوف يتأكد لنا ويزداد وضوحًا - إن شاء الله - في الصفحات التالية من الدراسة .

ثم إن التناقض غير المعهود في أحاديث عائشة وحواراتها [٤] ، يبدو هنا واضحًا تمامًا ، فبينما زعمت الرواية أن عائشة رضي الله عنها قد طلبت من ابن عباس أن يُخذِّل الناس عن عثمان ، وأن يشككهم فيه ، فإنها في نفس الوقت تزعم أن عائشة قالت : « إن الناس قد بانت لهم بصائرهم ، وأنهجت ، ورُفِعتْ لهم المنار » ! ما الحاجة إذن

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٠٧ . والرواية ما تزال طويلة تذكر الكتاب من عثمان إلى أهل الموقف في مكة .

(٢) الواقدي : راجع المكتوب عنه في المقدمة عن المصادر .

(٣) وذلك كما في رواية الثقة : يعقوب بن إبراهيم عن الأحنف بن قيس ، ورواية ابن سيرين عن عرض عليّ ﷺ الخلافة على طلحة ، ورفض طلحة لاعتقاده بأحقية عليّ ، وتقدمه في هذا الأمر . وسوف نعرض لها في الصفحات القادمة .

(٤) إن القارئ للروايات الصحيحة عن السيدة عائشة ، والتي تمثلها في الكتابات التاريخية روايات سيف ابن عمر ، وتمثلها كذلك الروايات التي جاءت من عند أصحاب الصحاح ، لن يجد لها رضي الله عنها شيئًا من التضارب ، أو التناقض في الأقوال .

إلى هذا التشكيك ، والأمر للناس بهذا الوضوح الذي تزعمه الرواية . هذا مع كون لغة الحوار لا تلائم ما هو معهود في لغة عائشة رضي الله عنها ، وهو ما يزيد الشك في مصداقية هذه الأمور التي عرضنا لها في هذه الرواية [1] .

(١) ولقد قلت : هذه الأمور التي عرضنا لها ؛ لأن في أصل الرواية أحداثًا أخرى صحيحة ، لعل أهمها ما ذكرته من نص الرسالة التي بعث بها أمير المؤمنين عثمان - رضي الله عنه - إلى المسلمين الحاضرين موسم الحج في مكة . وقد نقلها ابن أبي سبرة ، كما ذكر عن عبد المجيد بن سهيل ، الذي انتسخها بنفسه بعدما اطلع عليها عند عكرمة ، مولى ابن عباس . انظر : تاريخ الطبري : ٤/ ٤١١ .

نقد الروايات القائلة بالخلاف السياسي

بين عائشة وعثمان عند غير الطبري

لقد كان القول بتأليب السيدة عائشة - رضي الله عنها - على عثمان رضي الله عنه مبنيًا على القول بالخلافات السياسية بينها وبينه رضي الله عنهما ، ولذا فإنه يجب علينا - إكمالًا للواجب التاريخي في بحث حقيقة هذه الخلافات السياسية ، ولما لذلك من دور في فهم طبيعة الدور السياسي للسيدة عائشة - أن نعرض لأصل هذه الخلافات .

وحقيقة الأمر أن أغلب ما جاء في هذا المعنى ، لم يكن من طريق ما اعتمدناه من مصادر تاريخية لهذه الفترة ، حيث لم يكن من أهداف البحث النظر في الروايات الواهية ، بل الموضوعة - حسبما أدى إليه البحث والتقصي - في أنواع المصادر الأخرى الأدبية مثل العقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغاني للأصفهاني ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، أو المصادر التاريخية غير المسندة مثل الإمامة والسياسة المنسوب زورًا لابن قتيبة الدينوري [1] ، ومروج الذهب للمسعودي ، أو المصادر الغير قوية الإسناد كما في أنساب الأشراف للبلاذري .

غير أنني عدلت عن هذا الرأي وآثرت تقديم هذه الروايات في هذه المصادر خاصة وقد استخدمتها كثير من الدراسات الحديثة ، بل وشاعت عند أغلب المثقفين . وكان هدفي من ذلك أن أدلل على عدة أشياء في نفس الوقت :

أولها: فساد كثير من الروايات التي جاءت بها كثير من المصادر غير المسندة :

---

(١) أصبح مشهورًا لدى الباحثين أن كتاب الإمامة والسياسة لا تصح نسبته إلى ابن قتيبة ، فكل من يقرأ في هذا الكتاب ، وكان يعرف منزلة ابن قتيبة العلمية وعقيدته يدرك أنه ليس من كتبه ، وذلك لما فيه من أكاذيب ، وروايات ملفقة . وقد علق الشيخ محب الدين الخطيب على هذا الحديث بتعليقات هامة ، منها أن هذا الكتاب مشحون بالجهل ، والغباوة والركة والكذب والتزوير . ابن العربي : العواصم من القواصم ٢٦١ .

وفي مقدمته لكتاب "الميسر ، والقداح "لابن قتيبة ذكر الأستاذ الدكتور محمد رشاد خليل : مآخذ العلماء على هذا الكتاب ، وبراهينهم على أنه ليس من كتب ابن قتيبة ، وزاد في كتابه عن : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره : ٧٥ أن مؤلف هذا الكتاب يروي عن اثنين من كبار علماء مصر ، وابن قتيبة لم يدخل مصر ، ولا أخذ عن هذين العالمين . وراجع في هذا الأمر باستفاضة : د/ عبد الله عسيلان : الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي .

تاريخية أو أدبية أو ذات توجهات مذهبية .

ثانيها : فساد النظر من الدارسين في المسألة التاريخية حين يتعاملون مع المصادر دون تمييز بين أنواعها ، أو بحث في مصداقيتها ومناهج مصنفيها .

ثالثها : فساد النظر في المرويات دون تحقيق لها .

رابعها : فساد وبطلان الاستدلالات والأحكام القائمة على شيء مما سبق ، في كافة المسائل التاريخية على وجه العموم ، وفي شأن فهم الدور السياسي للسيدة عائشة تأسيسًا على مثل هذه المرويات ، على وجه الخصوص .

وهذه الأهداف جميعها تتحقق معا إذا نظرنا في دعوى الخلاف السياسي بين عائشة وعثمان ﵄ ، ودعوى تأليبها عليه ودعوتها إلى قتله في هذه الأنواع من المصادر [١] .

الرواية الأولى من تاريخ اليعقوبي

وفيها أنه مما أثار عائشة ﵂ على عثمان ﵁ أن عثمان قد أنقص من عطائها وجعله مساويا لعطاء بقية أمهات المؤمنين [٢] . وكان عمر بن الخطاب ﵁ قد فضل عائشة على أخواتها من أمهات المؤمنين في العطاء لمكانها من رسول الله ﷺ [٣] ، ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف ، وفرض لعائشة اثني عشر ألفًا . فلما ولي عثمان نقصها مما كان يعطيها عمر ، فإن عثمان ليخطب إذ دَلَّتْ عائشة قميص رسول ، ونادت : « يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » ، فقال عثمان : « رب اصرف عني كيدهن ، إن كيدهن عظيم [٤] » .

(١) والواقع أنه يبدو لي أن كثيرًا من هذه الدراسات عاشت على استسهال الآراء الجاهزة ، في القول بالخلاف بين عائشة وعثمان دون استناد إلى روايات صحيحة ، بل اعتمادًا على مثل روايات تاريخ اليعقوبي والعقد الفريد . انظر مثلا الشيخ سعيد فايز الدخيل : موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين ٥٩ : ٦٣ ، د/ : هشام جعيط : الفتنة : ٧٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٧٥ ، وتابعته دراسات حديثة عديدة ، منها : زاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين ، ولسعيد الأفغاني : عائشة والسياسة : ٢٦، ٢٧ .

(٣) زاد الأفغاني « ولما تؤدي من خير في نشر سنته أكثر منهن » وهي زيادة لم تذكرها الروايات . عائشة والسياسة : ٢٧ .

(٤) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٧٥ . وقد مهدت زاهية قدورة لهذه الدعوى بقولها : إنه لما ساءت الأمور ، وتحيز عثمان للأمويين ، فقربهم وقدمهم ، وأهمل غيرهم من المسلمين ، حتى بلغ به الأمر أن خالف ما سنه عمر فأنقص عطاء عائشة ، فأثار هذا استياءها ورأت فيه امتهانا لكرامتها . قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٧٣ . ومثل هذا القول تمامًا قاله العقاد : الصديقة بنت الصديق : ١١٦، ١١٧ . وأما الأفغاني فقال : لعل أول ما غير قلب السيدة من حيث لا تشعر نقص عثمان من عطائها . عائشة والسياسة : ٢٦ .

أول ما يستوقفنا أن أصل هذه الرواية من عند اليعقوبي ، وهي عنده غير مسندة [١] . فأما مسألة العطاء ، فإن وجه الاستدلال بهذه الرواية - على علاتها - كسببٍ أثار استياء عائشة رضي الله عنها ، لا محل له البتة [٢] ، إذ الصحيح في أمر العطاء هو ما ذكره أبو يوسف [٣] في كتاب الخراج ، قال : إن عمر رضي الله عنه فرض لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفا اثني عشر ألفا إلا صفية وجويرية ، فإنه فرض لهن ستة آلاف ، فأبيا أن يقبلا . فقال لهما : إنما فرضت لهن للهجرة . فقالتا : لا ، إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله ﷺ ، وكان لنا مثله . فعرف ذلك عمر ففرض لهن اثني عشر ألفا [٤] .

ولقد ذكر الطبري مقررًا فيما أورده عن ذكر فرض العطاء : أن عمر أعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف إلا من جرى عليها الملك ، فقال نسوة رسول الله : ما كان رسول الله يفضلنا عليهن في القسمة ، فسوِّ بيننا ، ففعل ، وفضَّل عائشة بألفين ، لمحبة رسول الله ﷺ إياها ، فلم تأخذ [٥] .

فعائشة رضي الله عنها إذًا لم تتميز بعطاء على أخواتها أمهات المؤمنين في عهد عمر ، على الرأي الصحيح الذي ارتضاه أبو يوسف ، وقرره الطبري ، ودل عليه النظر في الروايات ، والمقارنة بينها [٦] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ١٧٥/٢ . جاء فيها أيضا أن أكثر من كان يؤلب على عثمان الزبير وطلحة وعائشة .

(٢) وقد دفعها الدكتور فهمي عبد الجليل ، وقال : إنه لا قيمة لهذه الرواية . عصر الخلفاء الراشدين : ١٧٠ .

(٣) القاضي أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الإمام المجتهد العلامة المحدث ، قاضي القضاة ، صاحب الإمام أبي حنيفة ، ولد سنة ١١٣ هـ وعاش ٦٩ سنة ، قال عنه أبو حنيفة : هو أعلم من عليها ، وقال أحمد : كان منصفًا في الحديث ، وقال الذهبي : بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم مالا مزيد عليه . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٨ /٥٣٥ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ٥١ . تأمل هذا التنبه الدقيق من جويرية وصفية رضي الله عنهما ، فلقد كان عمر رضي الله عنه قسم للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرًا خمسة آلاف خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ، ولم يشهد بدرًا أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبي ﷺ وللعباس اثني عشر ألفًا . فيتبين من التأمل أن الزيادة لأزواج النبي ﷺ وللعباس ليست لمكان الهجرة وإنما لمكانهم من رسول الله ﷺ ، ولذا رفضتا واستمع عمر رضي الله عنه ، وقبل الاعتراض .

(٥) تاريخ الطبري : ٣/ ٦١٤ . تأمل هذا المستوى الرفيع من التناصف ، والمحبة بين أمهات المؤمنين !.

(٦) ذكر أبو يوسف [الخراج : ٥٠ : ٥٥] ثلاث روايات في عطاء أمهات المؤمنين : اثنتين منهما قد ذكرتا أن عطاء أمهات المؤمنين كان اثني عشر ألفا ، وأما الرواية الثالثة فقالت إنه فرض لهن عشرة آلاف عشرة آلاف ، وفرض لعائشة اثني عشر ألفًا. وهذه الرواية ضعيفة من جهة مجالد بن سعيد ، ثم إنه قد رواها عن الشعبي عمن شهد عمر ابن الخطاب ، فالجهالة واضحة في هذا الراوي . وذكر البلاذري في فتوح البلدان عن الإمام أحمد ، أنه فرض لأزواج النبي عشرة آلاف . انظر : البلاذري : فتوح البلدان : ٤٣٥ : ٤٤٧ . وقارن ذلك برواية الطبري أعلاه .

وأما أن يكون عثمان قد أنقص عطاءها ، فهو ما لا يتفق مع طبيعة السخاء التي تعد أشهر من أن يُتحدث عنها في عثمان ﷺ ، كما أنها لا تتفق مع ما اشتهر من رغد الحال على عهده ﷺ ، فلقد ذكر البخاري في تاريخه أن الحسن البصري قال : أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلَّ ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرًا ، يقال لهم : يا معشر المسلمين ، اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرةً ، ثم يقال لهم اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرةً ، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل ، الأعطيات جارية والأرزاق دارَّة [١] .

فالمتوقع والحالة هذه أن يزيد عثمان أعطيات أمهات المؤمنين اللاتي يقل عطاؤهن عن عطاء عائشة - إذا افترضنا صحة الخبر بالتمييز بين عطائهن وعطاء عائشة رضي الله عنها - ولا يصح - لا أن ينقص من عطائها رضي الله عنها .

ثم إن الدنيا كانت عند السيدة عائشة وأخواتها من الهوان بحيث لا يمكن أن يتصور أن قلبها قد يحمل السوء لعثمان إلى حد التأليب عليه والدعوة إلى قتله ، لو أنقص من عطائها . وأخيرًا فالرواية تزعم أنها رضي الله عنها نسبت إلى عثمان مخالفة السنة في هذا الأمر ، ولا أدري أي سنة ؟ ! ، فما كان المال على عهد رسول الله ﷺ من الوفرة بحيث يعطي العطاء الذي أعطاه عمر ﷺ ، ولو كان ، قد أعطاهن حقًّا ، فهل ميز هو الآخر بين عائشة وأخواتها ؟ ! أين العدل بين الزوجات إذًا ، ومن يكون العادل إذا لم يكن محمدًا ﷺ ؟ !.

الرواية الثانية من أنساب الأشراف وهي أنه لما اختلف عثمان وعمار بن ياسر [٢] حول ما كان في بيت المال من حُلي ، حَلَّى بها عثمان بعض نسائه ، وأدى هذا الاختلاف بعثمان إلى أن يضرب عمارًا ويشتمه ، أثار هذا التصرف عائشة رضي الله عنها فأخرجت شعرًا من شعر رسول الله ﷺ ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٤/٧ . وراجع أيضًا في رغد العيش على عهد عثمان رضي الله عنه : محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة : ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، وما ذكره سيف بن عمر عن عاصم بن سليمان ، عن عامر الشعبي صورًا أخرى لزيادة عثمان في أعطيات الناس ، وذكر منها : أول خليفة زاد في أعطيات الناس مائة عثمان ﷺ ، فجرت ، وذكر ما كان منه في وضع الطعام للناس في رمضان . سيف بن عمر : الردة والفتوح : ١٩ .

(٢) عمار بن ياسر ، يكنى أبا اليقظان ، العنسي . أمه سمية أول شهيد في الإسلام ، أسلم هو وأبوه قديما وعذبوا لأجل الإسلام ، عاش حتى قتل بصفين مع عليّ . الذهبي : سير أعلام النبلاء /١١٤.

ونعلا من نعاله ، وثوبا من ثيابه ، وقالت : « ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد ، فغضب عثمان غضبًا شديدًا حتى ما يدري ما يقول فالتجّ [١] المسجد واختلطت أصوات أهله [٢] » .

والواقع أن قصة ما كان بين عثمان وعمار ﷺ من خلاف قد اختلفت فيها المصادر اختلافًا بينًا ، فبالإضافة إلى الرواية السابقة عن البلاذري ، فإنه ذكر رواية أخرى ، قال فيها : « قالوا : وكانت أول مغالظة بين عمار بن ياسر وعثمان بن عفان في أمر عبيد الله [ابن عمر] ، قال له : اتق الله واقتله بالهرمزان فإنه مسلم قد حج [٣] » . وذكر المسعودي : أن عمارا كان حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان لما دخل داره ومعه بنو أمية ، فقال : أفيكم أحد من غيركم - وكان قد عمي - قالوا : لا ، قال : يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة . فانتهره عثمان و ساءه ما قال [٤] .

ونما القول إلى المهاجرين والأنصار ، فقام عمار في المسجد فقال : يا معشر قريش أما إذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم : هاهنا مرة ، وهاهنا مرة ، فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله [٥] .

أما الطبري فقد روى عن سعيد بن المسيب [٦] أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة

---

(١) التَجّ الأمر : إذا عَظُم واختلط . وألَجّ القوم إذا صاحوا . لسان العرب .

(٢) قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٧٣ ، الأفغاني : عائشة والسياسة ٣٠ ، ٣١ ، وقد نقلاها عن البلاذري : أنساب الأشراف : ٤٩/٥ الجزء الخامس طبعة القدس ١٩٣٦ . ولقد قال سعيد الأفغاني بعد ذكره لهذا ، وكأنه يبرر هذه التهمة لعثمان ﷺ ، أو قُلْ يؤكدها : ولعل ذلك كان على سبيل العارية ، ولكن الناس ألفوا طراز عمر في الحكم .

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف : القسم الخامس ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٤) لاحظ تشيع الرواية الواضح في التعريض ببني أمية و بأبي سفيان .

(٥) المسعودي : مروج الذهب : ٣٧٩/٢ ، ٣٧٤ .

(٦) سعيد بن المسيب : ابن حزن بن وهب ، القرشي ، المخزومي ، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه . ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ، وقيل : لأربع مضين منها . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٧ . وذكر الأستاذ محمد الصادق عرجون ثلاث روايات أخرى تختلف عن هذه ، وعرض لها جميعًا بالنقد في كتابه : عثمان بن عفان المفترى عليه .

ابن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب [١] . وهي رواية نطمئن إليها من جانب رواتها ، ومن جانب أن هناك روايات أخرى تؤكدها ، وسوف تمر بنا الآن .

لماذا نظن أن شيئا كهذا يمكن أن يغضب عائشة رضي الله عنها ؟ وقد لا يمكن أن نظن أنه يغيب عنها أنه مما يفعله ولي الأمر قبل عثمان وبعده ، أن يؤدب من يضطره الأمر إلى تأديبه بما له من حق الولاية عليهم . كما أن رواية الطبري ، بل وروايات المسعودي والبلاذري ، سوى الرواية التي بدأنا بها لم تعرض لذكر عائشة رضي الله عنها في هذا الأمر لا من قريب ، ولا من بعيد .

ولم يكن هذا التأديب الذي أدبه عثمان لعمار مانعا عثمان من الثقة في عمار ، ذلك أنه لما نظم السبئيون حركة الإشاعات وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر إلى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة، أرسل عثمان رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال ، كان عمار من هؤلاء الرجال [٢] .

بل إن عمارًا نفسه كان قد ندم على ما فرط منه في حق عثمان ، ذلك أنه لما أبطأ في مصر والتف به السبئيون ليستميلوه إليهم ، تدارك عثمان وعامله في مصر هذا ، وجيء بعمار مكرمًا فعاتبه عثمان قائلًا : « يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أن قذفك .. وغضبتَ عليَّ أن أخذتُ لك بحقك وله بحقه . اللهم قد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة ، اللهم إني متقرب إليك بإقامة حدودك في كل أحد ولا أبالي . اخرج عني يا عمار » فخرج ، فكان إذا لقي العوام نضح عن نفسه [٣] ، وانتفى من ذلك ، وإذا لقي من يأمنه أقر بذلك ، وأظهر الندم [٤] .

الواقع أننا نرى أن ماعدا رواية الطبري التي عرضنا لها في موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل عثمان رضي الله عنه هي روايات موضوعة [٥] ، وضعها من وجد عمارًا رضي الله عنه

---

(١) تاريخ الطبري ، نقلًا عن ابن العربي : العواصم من القواصم ٧٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣٤١/٤ .

(٣) نضح عن نفسه : دفع عنها .

(٤) ابن العربي : العواصم من القواصم ٧٨ من تعليق الشيخ محب الدين الخطيب ، هامش ٧٣ ، وانظر : ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ١٩٢/٣ .

(٥) انظر نماذج لهذه الروايات : عمر بن أبي شبّة : تاريخ المدينة : ٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

في صف علي ﷺ بعدُ ، كل على الطريقة التي يرمي إليها ، فمن أراد نسبة المناكير إلى عثمان ذكر أمر الحلي ، أو أمر مجيء عمار في معاتبة عثمان ، ومن أراد تهمة الأمويين ذكر مقولة أبي سفيان بن حرب ، وهكذا . أما أن يكون لعائشة رضي الله عنها مدخل في هذه المسألة ، فهو ما نشك فيه كما بينا .

الرواية الثالثة من أنساب الأشراف

وأما الرواية الثالثة فهي في أنساب الأشراف ، وفيها أن عائشة اختلفت مرة أخرى مع عثمان ، حين عزل عثمانُ عبدَ الله بن مسعود عن بيت مال الكوفة ، وعين الوليد بن عقبة [1] ، فلما دخل عبد الله المسجد في المدينة ، ورآه عثمان قال : قدمت عليكم دويبة سوء - يعني عبد الله - فقال عبد الله : لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان ، ونادت عائشة : أي عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله [2] .

والواقع أن هذه الرواية لا تكاد تتسق مع حياء عثمان بن عفان الذي ثبت بقول النبي ﷺ ، والذي عرضنا له في بداية هذا الفصل ، كما أنها تبدو شديدة الغرابة إذا ما استمعنا لقول ابن مسعود نفسه في عثمان حين ولي عثمان الخلافة : « لما توفي عمر

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي : أخو عثمان لأمه ، وكان شجاعا شاعرا جوادا ومن رجال قريش وسراتهم. ولما قتل عثمان اعتزل الوليد الفتنة ، فلم يشهد مع علي ولا مع غيره . مات في خلافة معاوية. ابن حجر : الإصابة ٤٨١/٦ ، الزبيري : نسب قريش ١٣٨ ، ابن قتيبة : المعارف ٣١٨ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١١٥ . والواقع أن التعريف الصحيح بالوليد بن عقبة ينبغي أن يستخرج من تاريخه كله لا من الروايات الضعيفة التي امتلأت بها تراجمه ، وأغلبها مرتبط بدعوى شربه الخمر ، وأن ولايته على الكوفة في عهد عثمان كانت تحيزًا وتعصبًا لأنه من قرابة عثمان ، ولعل أصدق ما كتب عنه هو ما ذكره الشيخ محب الدين الخطيب معتمدا على الروايات الصحيحة عند الطبري فذكر : أن هذا الشاب الرضي الخلق ، الماضي العزيمة ، كان أول عمل له في خلافة أبي بكر أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية بين الخليفة وخالد بن الوليد في وقعة المذار سنة ١٣ هـ ، وكان يلي لأبي بكر صدقات قضاعة ، وشهد فتوح الشام في الأردن وفلسطين مع عمرو بن العاص ، وصار أميرًا على بلاد تغلب وعرب الجزيرة في خلافة عمر . وبهذا الماضي المجيد ، كما قال الشيخ الخطيب ، جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة ، وخرجت الجيوش مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة. انظر التحقيق الطيب له الذي ذكره الشيخ الخطيب في العواصم من القواصم ٩٨ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف : ٥/ ٣٦ ، طبعة القدس ،اليعقوبي : ٢/ ١٧٠ . وقد نقلته عن الأول زاهية قدورة : ١٧٣ ، والأفغاني : عائشة والسياسة : ٢٩ ، ٣٠ .

بايعنا خيرنا ولم نألُ [١] » ، وفي رواية ذكرها سيف في كتابه : « والله ما آلو عن أعلاها ذا فوق ، لقد جمع أنه أقرؤهم للقرآن ، وأسنهم ، مع فقه في الدين [٢] » .

بل إنها لتبدو أشد غرابة حين نستمع إلى ما ذكره ابن كثير ، قال : روي عن عبد الله بن مسعود أنه تعتب [٣] لما أُخِذ منه مصحفه فحرق ، وتكلم في تقدم إسلامه على زيد بن ثابت الذي كتب المصاحف ، وأمر أصحابه أن يغُلُّوا [٤] مصاحفهم ، فكتب إليه عثمان ﷺ يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه من المصلحة في ذلك ، وجمع الكلمة ، وعدم الاختلاف ، فأناب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة [٥] .

بل إن ابن مسعود - فيما رواه الأعمش - كان قد عاب على عثمان لما صلى الظهر بمنى أربعًا ، ثم صلى بأصحابه العصر في رحله أربعًا ؟ فقيل له : عتبت على عثمان وصليت أربعًا ، قال : « إني أكره الاختلاف » ، وفي رواية : « الخلاف شر » . وقد علق على هذا ابن كثير فقال : إذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن ، والاقتداء به في التلاوة التي عزم على الناس أن يقرؤوا بها لا بغيرها ؟ [٦] .

ونزيد نحن على ابن كثير فيما يتصل بهذا الزعم الذي تزعمه الدراستان بقولنا : وإذا كان هذا هو مستوى المتابعة ، فكيف يكون حالها إذا ما اتصل الأمر بعزله عن ولاية مهما يكن شأن هذه الولاية ؟ . وأخيرا فهذه الرواية - مثل سابقتها - في انفرادها عن بقية المرويات في شأن عمار ﷺ بإقحام اسم السيدة عائشة رضي الله عنها فيها .

الرواية الرابعة من الأغاني

وفيها أنه كان من أسباب الخلاف بين عائشة وعثمان رضي الله عنهما أنه لما شكا أهل الكوفة الوليد بن عقبة إلى عثمان ، هددهم الوليد ، « فاستجاروا بعائشة ، وأصبح عثمان ، فسمع من حجرتها صوتها ، كلامًا فيه بعض الغلظة ، فقال : أما يجد مُرَّاق [٧] أهل العراق

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٢٤ .
(٢) سيف بن عمر : كتاب الردة والفتوح : ٢٣ . والرواية غير موجودة عند الطبري .
(٣) تعتب : القوم ، تعاتبوا . المعجم الوسيط .
(٤) يغلوا : يقبضوا .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ٢٢٨ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية: ٧/ ٢٢٨، ٢٢٩ . وقد ذكر عن الزهري وغيره أن عثمان أتم الصلاة خشية على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتان .
(٧) المُرَّاق : الخارجون من الدين .

وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ، فسمعتْ ، فرفعت نعل النبي ، وقالت : تركتَ سنة رسول الله ﷺ ، صاحب هذا النعل » ، وعرف الناس فتقاطروا إلى المسجد ، واختلفوا بينهم [١] . وهذه الرواية أيضًا مأخوذة عن مصدر غير مسند هو « الأغاني » ، وصاحبه من المتهمين بنزعاتهم المذهبية - على ما بينا في المبحث التمهيدي بالرسالة [٢] - .

والرواية تحاول كسابقتها أن تجرد عثمان ﷺ من أخص خصائصه : « الحياء والخلق » ، فتجعله يتحدث عن بيت عائشة رضي الله عنها كملجأ للفساق والمرّاق ! ، والواقع أن حياءه ﷺ عندنا ثابت وراسخ ، فأما هذه الرواية ، فلا تكاد تجد لنفسها قدمًا تقف عليها ، خاصة وأنه لا أثر لها في أي من المصادر الموثوق بها، حسبما أعلم .

ويلاحظ أن هذه الروايات - على اختلاف مصادرها - تبدو كمشهد تمثيلي واحد [٣] ، لعله يلفت الانتباه إلى أن اليد التي تناولت علاقة السيدة عائشة بعثمان ﷺ بالتحريف والتشويه على هذا النحو ، كانت يدًا واحدة فعلت فعلها في كل هذه المصادر : فعائشة رضي الله عنها يعلو صوتها على عثمان ﷺ ، رافعة نعلا ، أو ثوبًا ، أو شعرًا ... وهو خليفة المسلمين بما يسقط من هيبته أمام الناس . وهو ما لا يمكن أن يصدر عن عائشة في فقهها ، وعلمها بضرورة لزوم الجماعة ، وكراهية الفرقة ، وأهمية توقير الأئمة وموعظتهم باللين إن كان منهم شيء . ولقد مر بنا أن العتاب لعثمان ﷺ على ملأ من الناس كان من الأمور التي تناولتها رضي الله عنها بالنقد ، حين علمت بمقتل عثمان ﷺ حيث قالت : « هذا غِبُّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح على ملأ من الغوغاء [٤] » ؟ .

ولمزيد من التدليل على هذا الخلاف بين عائشة وعثمان رضي الله عنهما فقد استدلوا برواية جاء فيها أنه « جاء وفد مصر يشكون أميرهم عبد الله بن أبي سرح [٥] ، عند ذلك

---

(١) قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٧٤ ، الأفغاني : عائشة والسياسة ٢٩ ، والرواية منقولة من الأغاني : ٤/ ١٨٠ ، طبعة الساسي . (٢) انظر المبحث التمهيدي .

(٣) لم يتنبه صانعوه إلى التكرار الذي يلفت الانتباه إلى ما فيه من الوضع والاختلاق ، فعائشة رضي الله عنها - حسبما تذكر الروايات ترفع مرة قميص رسول الله ﷺ ، ومرة ترفع نعلا من نعاله ، ومرة ترفع شعرًا من شعره ، وثوبًا من ثيابه .

(٤) تاريخ الطبري : ٤٤٨/٤ .

(٥) عبد الله بن أبي سرح : القرشي ، يكنى أبا يحيى ، أسلم قبل الفتح ، وهاجر إلى الرسول ﷺ ، وكان من كتاب الوحي ، ثم ارتد ، وهرب إلى مكة ، ولما فتح الرسول ﷺ مكة أهدر دمه ، ففر ، فأخذ له الأمان ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وكانت على يديه فتوح إفريقيا ، اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، سكن عسقلان ، ومات بها سنة ٣٦هـ . ابن الأثير : أسد الغابة ٢٦٠/٣ .

أرسلت إليه عائشة : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ ، وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلًا ، فأنصفهم من عاملك [1] » .

فالرواية لا تعدو - إن صحت - أن تكون إبلاغًا منها لشكاة وصلتها إلى عثمان ﷺ ، فكيف صورت على هذا النحو الذي يزعم هذا الخلاف السياسي بين علي ، وعائشة ﷺ ، قالت ﷺ : « كان القوم يختلفون إليَّ في عيب عثمان ﷺ ، ولا أراه إلا أنها معاتبة ، فأما دمه ، فأعوذ بالله من دمه » [2] .

خلاصة النظر في المرويات السابقة

والخلاصة من هذا التطواف البحثي المتأمل في هذه الروايات التي جاءت في العقد الفريد وفي الأغاني وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ المسعودي ، وأنساب الأشراف ، وما انتهت إليه من استدلالات في شأن الدور السياسي للسيدة عائشة ﷺ في حياة عثمان بن عفان ﷺ ، أن جميع ما تؤدي إليه استدلالات تدين الموقف السياسي للسيدة عائشة ﷺ ، لا يعتد بها لمخالفتها للروايات الصحيحة ، وقيامها على روايات واهية [3] ، فأغلبها روايات غير مسندة ، والمسند منها مجروح الإسناد ، لا يحتج بروايته ، هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالروايات الأخرى الأكثر صحة وقربًا من الحقيقة .

وكان الأحرى بنا أن نعرض عن ذكرها جميعا - كما ذكرت آنفًا - لعدم وصولها إلينا من طريق معتمد ، بل الطرق التي وصلت منها رُمِي أصحابها بالتشيع والكذب ، والرفض ، لكننا عرضنا لها في عجالة ، لشيوعها في أغلب الدراسات الحديثة كما أشرت قبل ، وللتدليل السريع على سقوطها، فهي روايات - كما اتضح لنا - حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلا من الخلاف والتنكر بين عثمان وعائشة ﷺ وبين عثمان والصحابة جميعًا .

---

(١) قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٧٤ ، نقلا عن البلاذري : أنساب الأشراف : ٥/ ٢٦ ، الأفغاني : عائشة والسياسة ٢٧ ، نقلا عن العقد الفريد ٢٣/٤ ، ٣/ ٨٠ المطبعة الأزهرية ، الطبعة الأولى : ١٩٢٨ م .

(٢) عمر بن شبَّة : تاريخ المدينة : ٢/ ٢٥٤ . والرواية فيما رواه عن محمد بن أبي أسامة ، قال : حدثنا عبد القدوس بن الحجاج ، قال : حدثنا صفوان بن عمرو ، قال : حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نُفير ، عن أبيه ، عن عائشة .

(٣) انظر أيضًا في هذه الاستدلالات الباطلة : العقاد : الصديقة بنت الصديق : ١١٦ : ١٢٤ .

ولو صح أن عائشة اتفقت مع الثائرين على التحريض على عثمان ﷺ ، ولا أقول المشاركة في قتله ، لكان من المتوقع أن يكون عندها نوع من التماس العذر لهؤلاء الثوار ، لكن لم يصح عنها رضي الله عنها شيء من هذا .

وإنه لو صح شيء من هذه الروايات في وصف موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل عثمان ﷺ ، فهي روايات كفيلة بإسقاط العدالة عن عائشة رضي الله عنها ، وعن الصحابة الذين اشتركوا معها . وهو ما لا نقبل به للخبر الصادق عن الله ورسوله في تقرير عدالتهم التي كانت كافيةً لدحض هذه الروايات . لكننا قد توقفنا أمام الروايات ، تأكيدًا منا على سقوط هذه الروايات ، ومن بعدها الاستدلالات القائمة عليها ، حتى تجتمع الأدلة الدينية ، والعلمية ، والتاريخية في صعيد واحد ، يؤكد بعضها بعضًا .

وغاية القول أن نقول ما قاله النووي في مقتل عثمان ﷺ من أنه قتل مظلومًا ، قتله فَسَقَة ، لأن موجبات القتل مضبوطة [1] ، ولم يَجْرِ منه ﷺ ما يقتضيه ، ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة ، وإنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل ، وسفلة الأطراف ، والأراذل ، تحزبوا وقصدوه من مصر ، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم ، فحصروه حتى قتلوه ﷺ[2] .

وأخيرا ، فتحليلات هذا الفصل ونتائجه توضح صفاء الموقف السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها حياة عثمان ﷺ ، وإبان مقتله .

---

(١) أي معروفة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٥/ ٢٤٢ .

الفصل الثالث

خروج السيدة عائشة رضي الله عنها

إلى البصرة سعيًا للإصلاح

تعرضنا في الفصل السابق للحديث عن الدور السياسي للسيدة عائشة في أحداث الفتنة حتى مقتل عثمان رضي الله عنه ، ورأينا كيف كان ود العلاقة بينهما رضي الله عنهما ، وكيف كان الدور السياسي الذي قامت به رضي الله عنها ، مع أمهات المؤمنين ، وبقية الصحابة في محاولة دفع خطر السبئية ، وكشف ما تحاول إخفاءه . كما رأينا كيف أساءت الروايات المقدوحة إلى هذا الدور النبيل .

وهنا عند دراسة الدور السياسي لها رضي الله عنها في الطلب بإقامة الحدود ، يصبح الأمر، أمر التعامل مع الروايات التاريخية أشد تعقيدًا ، فما أكثر الروايات المتناقضة ، والروايات التي قَوَّلت عائشة رضي الله عنها ما لم تقل ، ونسبت إليها ما لم تأت ، فشوهت بهذا وجه الممارسة السياسية الواعية التي قامت بها رضي الله عنها ، وأرضاها [1] .

ومن هنا يجب علينا أولا توضيح الأحداث السابقة على خروج السيدة عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم إلى البصرة ؛ لأهمية ذلك في فهم قيمة الدور السياسي الذي قامت به رضي الله عنها .

---

(١) لا يخفى علينا الدور الشيعي المبغض لكل من خالف عليًا رضي الله عنه ، وهو دور لم يتورع عن الطعن في الصحابة طعنًا يصل إلى درجة إخراجهم من الدين ، ولقد وضعوا لذلك الأحاديث ، والأخبار المختلقة ، ترويجًا لمذاهبهم السياسية . وما كان لدور الخوارج الذين انتهوا إلى أن عليًا ، مصيب في حربه أصحاب الجمل ، وأصحاب الجمل كلهم مخطئون بمقاتلتهم عليًا ، خارجون على الدين كافرون . راجع الإسفرائيني : الفرق بين الفرق : ٢١ ، وما بعدها ، الشهرستاني : الملل والنحل ١٨٢ ، وما بعدها .

المبحث الأول :

الأحداث السابقة على الخروج إلى البصرة

البيعة للإمام عليّ تمت البيعة لعليّ ﷺ في ظروف حالكة : قُتِلَ الخليفة في غير حق مظلومًا ، وتمكن الثوار من المدينة حتى كانت لهم الكلمة العليا ، يهددون من خالفهم ، ويجبرون من يشاءون على فعل ما يريدون ، وظل المسلمون عدة أيام، ولا إمام لهم ، وأميرهم على الصلاة ، قائد من قواد الثوار والمتمردين (١) ، فسادت الفوضى .

وفي وسط هذه الظروف شديدة الحرج ، وبينما الناس لمَّا يزالون يتجرعون مرارة مقتل خليفتهم ﷺ ، وما وضعهم فيه الثوار من أوضاع مهينة ، لم يستطيعوا معها أن يدفعوا عنه ، يجد المسلمون هؤلاء الثوار أنفسهم هم القائمين في البحث عن خليفة جديد ، ومبايعته .

وما كان سهلًا على أحد من المسلمين أن يقبل بهذا : المرشح للخلافة ، والمطالَبين بالبيعة ، فكلهم ناقم على ما حدث ، لا يقر لهؤلاء الغوغاء بحق فيما يتصدون له ، بل إنهم ينظرون إليهم كغرماء لهم فيما حل بالمسلمين ، وكانوا يرون أن تماديهم في التدخل والقيام في أمر من يخلف عثمان ﷺ ، زيادة منهم في التطاول على المسلمين، والجرأة على الله .

كان المسلمون يرون أن الحق في اختيار الخليفة إنما يرجع إلى أهل الحل والعقد من المسلمين ، وأهل الشورى الذين عينهم عمر ﷺ ، فهم أعلم بمن يصلح للإمامة . ولقد تواترت الروايات على أن عليًا وطلحة والزبير ، وكانوا هم المرشحين للخلافة ، قد رفضوا أن يتولوها ، وكانوا يتهربون منها ، ويُغلظون القول لمن جاءهم فيها (٢) .

فلما رأى السبئيون امتناع هؤلاء الثلاثة ، بل وامتناع غيرهم من أمثال سعد بن أبي وقاص ، وعدم طاعتهم لهم ، هددوا أهل المدينة ، فقالوا لهم : « دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غدًا عليًا وطلحة والزبير ،

---

(١) هو عبد الرحمن الغافقي .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، من رواية سيف . ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٢٧ .

وأناسًا كثيرًا » [١] . ولعل هؤلاء الغوغاء ظنوا أنهم باختيارهم للخليفة يحتمون وراءه من سخط الناس .

هنالك غَشِيَ الناس عليًّا يهيبون به ليقبل الخلافة ، لِما نزل بالإسلام ، وما ابتليت به المدينة من بين القرى . وظل عليّ يمتنع ، وهم يقولون له : ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ! ألا تري الإسلام ! ألا تري الفتنة ! ألا تخاف الله ! . وظلوا به حتى قبل [٢] . لقد كان لابد للناس من إمام مهما تكن الآلام في قبول ذلك ، وحتى وإن كانت الوسيلة ليست على الدرجة التي كان الصحابة يرجونها للخلافة من شفافية ، وقداسة [٣] .

بيعة طلحة والزبير لعليّ

وما حدث مع عليّ ﵁ في قبول الخلافة ، حدث مع طلحة والزبير ﵄ ليبايعا ، فلقد جيء بهما والسيف على أعناقهما ليبايعوا عليًّا ، وينبغي الإشارة إلى أن عليًّا لم يكن وراء هذا الإكراه لهما ﵄ . فقد أُكْرِه ، كما أُكْرِها . على أنهما وإن كانا بايعا مُكْرَهين ، فما كان هذا يعني أنهما رافضان لبيعة عليّ ﵁ ، وإنما نقموا أن يكون الأمر بأيدي هؤلاء ، وأن يتعامل الأوباش مع حرية الرأي ، وحرية التعبير عنه هذا التعامل بالإكراه [٤] .

وكان أغلب الصحابة ﵃ يتورعون من الإقدام على بيعة عليّ بادئ الأمر ، لا لأمر في عليّ ﵁ ، وإنما لكي لا يتورطوا في أمر لم يستبن لهم بعد ، خاصة وأن قتلة عثمان ﵁ كانوا هم الذين بدؤوا البيعة لعليّ ﵁ ، بل أجبروه عليها ، كما رأينا .

وما كانا ﵄ ليتأخرا لو جاءوها ، على النحو الطبيعي الذي عرفه المسلمون في مبايعة خلفائهم ، وهو ما تؤكده الرواية الصحيحة الإسناد عند الطبري ، والتي توضح أنهم عند هدوء الأحوال لم يكونوا ﵃ يترددون في بيعة علي ﵁ ، قال

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤ ، من رواية سيف .

(٢) المصدر السابق ٤/٤٣٤ ، من رواية سيف .

(٣) ولا يعني هذا القول بأنه كان في خلافته رضي الله عنه مغمز أو شك في عدم تحققها بالبيعة ، فقد قام ﵁ في أهل المدينة راذًّا الأمر إليهم ، وطالبًا منهم النظر من جديد فيمن يصلح للخلافة ، لكنهم اجتمعوا عليه . راجع ذلك في تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٤، ٤٣٥ .

(٤) روى الطبري عن سيف في [تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٥] أن الأشتر جاء بطلحة ، فقال له : دعني أنظر ما يصنع الناس ، فلم يدعه ، وجاء به يتُلُّه تلًّا عنيفًا . وروي أن حُكَيم بن جبلة جاء بالزبير . . ، فكان الزبير يقول : جاءني لص من لصوص عبد القيس ، فبايعت ، واللُّج على عنقي .

الطبري : أخبرنا علي بن مسلم [١] ، قال : حدثنا حَبَّان بن هلال [٢] ، قال : حدثنا جعفر بن سليمان [٣] ، عن عوف [٤] ، قال : أما أنا فأشهد أني سمعت محمد بن سيرين [٥] يقول : « إن عليًا جاء فقال لطلحة : ابسط يدك يا طلحة لأبايعك ، فقال طلحة : أنت أحق ، وأنت أمير المؤمنين ، فابسط يدك ، قال : فبسط عليٌّ يده فبايعه » [٦] .

لقد كان يؤلم طلحة والزبير ﷺ ، ولا شك أن تبدأ هذه الردة في الممارسة السياسية الحرة لدى المسلمين على هذه الصورة ، وما أقسى أن يجد الشرفاء ، شرفاء الدين والإسلام أنفسهم تحت سطوة هؤلاء الرعاع الذين لا يحفظون حرمة ، ولا يرعون ذمة .

هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت البقية من الصحابة سوى طلحة والزبير ، الذين كانوا تخلفوا عن البيعة يبايعون ، وقد جيء بهم ، قائلين : « نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد ، والعزيز والذليل [٧] » ، وكأنهم كانوا يشيرون إلى قتلة عثمان ، وضرورة إقامة حدود الله فيهم .

لقد كان الصحابة حريصين على ممارسة سياسية صافية ، لا دَخَل فيها ، وكان واضحًا أن أكثر ما يخشونه هو أن تُضَيَّع حدود الله ، وأن تكون الممارسات السياسية الفجة التي فرضتها السبئية سُنَّةً لمن يأتي بعدهم ، يتحكم بها الغوغاء في أحوال المسلمين .

---

(١) علي بن مسلم بن سعيد الطوسي : نزيل بغداد ، ثقة ، خرَّج له البخاري في صحيحه ، وأبو داود والنسائي . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٧٠١ .

(٢) حبَّان بن هلال : أبو حبيب البصري ، ثقة ثبت ، اجتمعت روايته في الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ١٨١ .

(٣) جعفر بن سليمان : الضبيعي ، أبو سليمان البصري ، صدوق زاهد ، لكنه كان يتشيع ، خرَّج له البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه ، وله رواية عند سوى الشيخين . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ١٦٢ .

(٤) عوف بن مالك بن نضلة : الجُشمي ، أبو الأحوص الكوفي ، مشهور بكنيته ، ثقة . ابن حجر : تقريب التهذيب ١/ ٧٦٠ .

(٥) محمد بن سيرين :سبق التعريف به .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/٤٣٤ .

(٧) المصدر السابق : ٤/ ٤٣٥

المفاوضات بين عليّ وطلحة والزبير في إقامة الحدود

لقد طالما كان يبدو للباحث المتأمل أن ثمة ثغرة في الأحداث لا تملؤها الروايات التاريخية ، ظنًّا منه أنه ليس في الروايات ما يذكر أو يدل على أنه قد دارت مناقشات بين عائشة وبين عليّ رضي الله عنهما ، أو بين طلحة والزبير وبين عليّ رضوان الله عليهم جميعًا قبل الخروج إلى البصرة ، وكان هذا أمرًا نستبعده تمامًا من أمثالهم ، حتى إذا كانت النية عندهم هي الحرب ، فليس شأن الخلاف مع الخليفة من الهوان بحيث ينبني القرار فيه على مجرد الظن والحدس ، بل وليس شأن الخروج الدعائي للطلب بدم عثمان رضي الله عنه أيضا من الهوان بحيث لا يسبقه مناقشات أو مداولات ، يتم بعدها الخروج على النحو الذي نعلمه .

لكن مراجعة المصادر قد أثبتت أن هذه الثغرة التاريخية لا وجود لها في الواقع فلقد سبقتها حقا مناقشات بين طلحة والزبير وعليّ رضي الله عنه ، وكانت عائشة رضي الله عنها تتابع ذلك وتعلمه جيدًا [١] ، وتفصيل ذلك في الروايات الآتية وجميعها من مرويات سيف بن عمر وثقات الرواة في تاريخ الطبري :

ولما اتسق الأمر في البيعة لعليّ رضي الله عنه ، اجتمع عليّ وطلحة والزبير في عدة من الصحابة ، فقالوا : يا عليّ ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم [٢] . كان واضحًا إذن ومستقرًّا أن طلحة والزبير كانا قد « اشترطا » عليه إقامة الحدود ، والشرط تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وُجد الأول ، وُجد الثاني ، فاستمرار طاعتهما له مرهون بإقامته للحدود ، على أنها لا تقدح في البيعة كما لا يخفى [٣] .

فقال لهم عليّ رضي الله عنه : « يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم !! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عُبدانكم ، وثاب إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ . قالوا : لا ، قال : فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، إن لهؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرَع شريعة قطّ فيبرح

---

(١) راجع تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٠ . (٢) المصدر السابق : ٤/ ٤٣٧ .

(٣) قيل الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجًا عن ماهيته ، ولا يكون مؤثرًا في وجوده ، وقيل هو ما يتوقف عليه ثبوت الحكم . الجرجاني : التعريفات ١٢٥ .

الأرضَ من أخذ بها أبد . إن الناس من هذا الأمر إن حُرِّك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى مالا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوبُ مواقعها وتُؤخَذ الحقوق فاهدءوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا » [(١)] .

لكن الذي حدث على ما يبدو أن الصحابة ﷺ قد اشتد عليهم الأمر- خاصة وأن عليًا ﷺ قد اشتد على قريش ، فحال بينهم وبين الخروج على حال - فلم يطيقوا صبرًا على هؤلاء الغوغاء ، ولم يتحملوا ما تحمل عليّ ﷺ ، حتى قال بعضهم : « نقضي الذي علينا ولا نؤخره وهم يعنون الطلب لإقامة الحدود على قتلة عثمان - ... ووالله إن عليًا لمُستَغنٍ برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره » ، ولما بلغ عليًا هذا القول قام في الصحابة خطيبًا ، يذكر فضلهم ، ويؤكد حدود سلطانه ، ونادى : « برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه » فتذامرت السبئية والأعراب ، وقالوا : « لنا غدًا مثلها ، ولا نستطيع نحتج عليهم بشيء » [(٢)] .

واستمرت محاولاته ﷺ ، فلقد خرج على الناس ، فقال : « أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب » . وقال : « يا معشر الأعراب : الحقوا بمياهكم » . لكن السبئيين أحسوا أن عليًا ﷺ يرمي إلى تفريق تجمعهم ، فأبوا ، وحرَّضوا الأعراب . وهنا ثارت ثائرة عليّ ، ودخل بيته ، فدخل عليه طلحة والزبير، وعدة من أصحاب النبي ﷺ ، فقال لهم : دونكم ثأركم فاقتلوه ، فقالوا له : عشوا [(٣)] عن ذلك ، فقال لهم : هم والله بعد اليوم أعشى وآبي [(٤)] .

حتى هذه اللحظة فإن عليًا وطلحة والزبير والصحابة جميعًا كانوا يبدون متفقين تمامًا على ضرورة إقامة الحدود على من فرقوا أمر الجماعة وخالفوا وقتلوا الخليفة ، دفعًا لضررهم على الدين كله ، وكانوا متعاونين في ذلك . وكان الأمر يبدو منطقيا تمامًا من عليّ ﷺ ، واتفق معه الصحابة في ذلك : كيف يصنعون بهؤلاء الغوغاء الذين تحكموا في الأمور ، وحركوا معهم العبيد والأعراب ، وهم بين أهل المدينة

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٧ .

(٢) المصدر السابق : ٤/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، من رواية سيف .

(٣) عشي أمرهم : أي صار ملتبسًا لا يعرف لاختلاط الناس . وعشوت عن الشيء أيضًا : أعرضت عنه . لسان العرب .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٨ .

يسومونهم ما شاءوا ، لم تكن هناك إذن قدرة على قتالهم [١] .

علي رضي الله عنه لم يقدم خطته لإقامة الحدود واضحة

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن عليًا رضي الله عنه لم يكن يعرض على الصحابة خطة واضحة فيما يتصل بكيفية التمكن من إقامة حدود الله في هؤلاء الغوغاء - أو هكذا بدا لي من استعراض الروايات - وكان كل ما يقوله للصحابة متصلًا بصعوبة إقامة الحدود في الوقت الذي كانت الغوغاء فيه تتحكم في أمور الناس بالمدينة وتُسَيِّرُها على هذا النحو البغيض الذي أشرنا إلى شيء منه عند الحديث عن كيفية مبايعة عليّ رضي الله عنه ، ولم يكن متضحًا للصحابة من قوله إلا أنه من الضروري تسكين الأمور حتى تموت الفتنة .

ربما كانت لديه رضي الله عنه خطة واضحة ، وهو ما أظنه ظنًّا قويًّا ، لكنه على كل حال لم يوضح هذه الخطة للصحابة ، وهو خطأ في رأيي بَيِّنٌ .

لقد كان من الممكن لو أوضح لهم عليّ رضي الله عنه ما عنده من خطة أن يحتوي ضيق نفوسهم من تعطيل حدود الله ، والتطاول على سلطانه الذي كان مجرد النظر إلى السبئيين يحركه داخلهم ، وكان قمينًا أن يشعرهم بجدية سعيه في هذا الصدد لكنه لم يفعله ، وطلب منهم أن يهدؤوا عنه ، وينظروا ماذا يأتيهم عنه ، ثم يعودوا .

طلحة والزبير يعرضان على عليّ خطتهما

وبينما لم يفعل عليّ شيئًا مما ذكرت ، كان طلحة والزبير قد قدما له تصورًا يمكن أن يتم به تقوية جانب عليّ في مواجهة السبئية المتحكمة في الأمور ، كان طلحة قد قال لعليّ : « دعني فلآتِ البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل » ، فقال : حتى أنظر في ذلك . وقال الزبير : دعني آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل ، فقال : حتى أنظر في ذلك [٢] .

وكان هذا القول منهما دليل على اقتناعهما في الوقت نفسه بما قال عليّ رضي الله عنه ، من كون هؤلاء الغوغاء متغلغلين في داخل الصف يملكون المسلمين ولا يملكهم

---

(١) انظر فتح الباري ١٢/٣٦٠ ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب من ترك قتال الخوارج للتأليف ولئلا ينفر الناس عنه . وفيه ذكر ابن حجر عن ابن بطال عن المهلب : أن التأليف إنما كان في أول الإسلام إذا كانت الحاجة ماسة لذلك لدفع مضرتهم ، فأما إذا أعلى الله الإسلام فلا يجب التأليف إلا أن تنزل بالناس حاجة لذلك ، فلإمام الوقت ذلك .

(٢) راجع : تاريخ الطبري ٤/٤٣٨ ، من رواية سيف .

المسلمون ، فحاولا بهذا الطلب اختصار وقت تعطيل الحدود وتقوية جانب عليّ حتى يتمكن من إقامتها .

على أن الصحابة قد انتظروا أن ينظر عليٌّ في ذلك ، لكن عليًّا ﷺ كان يرى أن هذا الأمر الذي وقع لا يُدرَك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار كلما سُعِّرت ازدادت واستنارت [١] .

ولما رأى الصحابة أن أربعة أشهر قد مرت على مقتل عثمان ﷺ بينما لم ينتصر عليّ له بعد ، ورأوا أن الخارجين على عثمان هم المحيطون بعليّ ﷺ ، والمتغلغلون في جيشه ، ورأوا أن عليًّا كان قد اشتد عليهم [٢] ، ضاقت صدورهم ، وظنوا أن عليا ﷺ مستغن برأيه عنهم [٣] ، خاصة ، وأنهم لا شك لفت نظرهم ، أن عليًّا ﷺ كان سريعًا في المبادرة بعزل عمال عثمان ﷺ ، في نفس الوقت كان شديد الاتئاد في أمر السبئية [٤] .

وحُقَّ لهم أن يفعلوا ، فالرجال الكبار لا يرتاحون أبدًا إذا ما رأوا الأمور تسير بالناس على هذا النحو الشائن الذي أحدثه الغوغاء ، كما أنهم لم يطيقوا على تعطيل حدود الله صبرًا ، ولعلهم ظنوا بعليّ ﷺ هوادة في السكوت عن نصرة عثمان من قاتليه [٥] .

وكان للسبئية دخل كبير في توتر الحالة بين عليّ والمطالبين بدم عثمان [٦] . عندئذ قال طلحة والزبير لعليّ : ائذن لنا أن نخرج من المدينة ، فإما أن نكابر [٧] وإما أن تدعنا ، فقال : سأُمْسك الأمر ما استمْسك ، فإذا لم أجد بُدًّا فآخر الدواء الكي [٨] .

كان عليّ إذن يعرف أن خروجهم من المدينة كان محاولة منهما للوصول إلى حل فلم يمنعهما من ذلك ، ربما لأنه [٩] كان يتمنى الوصول إلى حل أيضا ، بل كان

---

(١) المصدر السابق ٤٤٣/٤ ، من رواية سيف .
(٢) المصدر السابق : ٤/ ٤٣٧ ، وقد قال رواية عن سيف : وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية .
(٣) المصدر السابق : ٤/ ٤٤٣ ، من رواية سيف .
(٤) أشار إلى ذلك أيضًا الأستاذ عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٣٧٤ .
(٥) انظر قول الزبير وطلحة وعائشة للأحنف بن قيس بأن عليًّا قد بدّل . تاريخ الطبري ٤٩٨/٤ .
(٦) الشيخ عبد الله المشد : موقف اليهود من الإسلام والمسلمين في العصر الأول ٥١ .
(٧) نكابر : نجاحد ونغالب على الأمر . (٨) تاريخ الطبري ٤٤٤/٤ .
(٩) المسعودي : مروج الذهب : ٢/ ٣٩٤ .

يحاوله ولكن بطريقته الخاصة .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لا صحة للرواية التي ذكرها المسعودي في مروج الذهب من أن طلحة والزبير استأذنا عليًا في الخروج إلى مكة . فقال لهما : لعلكما تريدان البصرة ، أو الشام ، فأقسما ألا يفعلا . ولقد ذكر ابن العربي هذه الرواية في القواصم التي قذف بها أعداء المسلمين تاريخهم ، وقال الشيخ الخطيب : إن قول علي لهما ، وقسمهما له من زيادات مرتكبي « القاصمة » ورواتها [١] . والدراسة تتفق معه تمامًا فالجزء الأول من الرواية يتفق مع رواية سيف بن عمر في تاريخ الطبري [٢] ، بينما لا يوجد أثر عنده - حسب ما أعرف - للرواية التي ذكرها المسعودي .

---

(١) ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥١

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٤٤ .

المبحث الثاني :

خروج عائشة للطلب بدم عثمان رضي الله عنه

قدم طلحة والزبير رضي الله عنهما مكة ولقيا عائشة رضي الله عنها فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : وراءنا أنا تحملنا بقلّيتنا (١) هُرّابا من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقْنَا قومًا حيارى لا يعرفون حقًّا ولا ينكرون باطلًا ولا يمنعون أنفسهم ، قالت فائتمروا أمرا ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء (٢) .

فاجتمع ملؤهم بعد نظر طويل في أمرهم على الخروج إلى البصرة (٣) ، فقامت

(١) ارتحل القوم بقُلّيتهم : أي لم يدعوا وراءهم شيئا .

(٢) تاريخ الطبري ٤/٤٥٠ ، من رواية سيف ، ابن الأثير : الكامل : ٣/ ١٠١ .

(٣) كان السبب في اختيارهم البصرة - في رأيي - أنها تكاد أن تكون وحدها المصر الذي دخله عامل من عمال عليّ ، الذين فرقهم على الأمصار ، فلم يردَّه أحد عن دخولها ، ولم يوجد في ذلك لابن عامر ، عامل عثمان على البصرة رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب . هذا بينما كان علي قد بعث سهل بن حنيف على الشام ، فلقيته خيل فقالوا : من أنت ، قال : أمير على الشام ، قالوا : إن كان عثمان بعثك فحيَّهلا بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع . فرجع إلى علي ، وبعث قيس بن سعد فدخل مصر فافترق أهل مصر فرقا : فرقة دخلت معه في الجماعة وفرقة وقفت واعتزلت وقالوا إنْ قَتَلَ قتلةَ عثمان فنحن معكم ، وإلا فنحن على جديلتنا (على رأينا) ، وفرقة قالت : نحن مع عليّ ما لم يُقِدْ إخواننا ، فهم في ذلك مع الجماعة ، كما بعث عليٌّ عمارةَ بن شهاب فمنعه أهل الكوفة وقالوا له : ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضُرِبَتْ عُنقك . تاريخ الطبري ٤/٤٤٢ : ٤٤٣ . من رواية سيف . أي أن الغضب للحرمات المضيعة والحدود المهدرة ، والرأي القائل بالثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه كانت - على ما يبدو - تجد لها أرضا في بقية الأمصار ، وكان أقلها اقتناعا بهذه المسألة هم أهل البصرة ، أو إذا أردنا الدقة فلنقل : كانت السلطة السياسية في البصرة ، على غير هذا الرأي ، ومن هنا كانت أهمية التوجه إليهم لتوضيح الأمر ، ولكسب الرأي العام فيها .

علي أنه يبدو أنهم ما كانوا يرون بأسًا من الذهاب إلى الكوفة ، وكانوا يرونها تؤدي الهدف نفسه ، ذلك أنه لما علم أصحاب عائشة - رضي الله عنها - من ابن عامر أن له بالبصرة صنائع ، وبَّخوه ، وقالوا له : فهلا أقمتَ ، كما أقام معاوية ، فنكتفي بك ، ونأتي الكوفة ، فنسدَّ على هؤلاء القوم المذاهب ! [تاريخ الطبري : من رواية سيف : ٤/٤٥٠] .

وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين (انظر مثلا رياض عيسى : الحزبية السياسية ٦٩) من تفسير اختيار البصرة بأنه ربما كانت هناك بعض اتصالات بين عائشة وطلحة والزبير وبين أهل البصرة ، فهو ما لا أوافقهم عليه - رغم علمي بما كان من هوى أهل البصرة الذين جاءوا المدينة خارجين على عثمان رضي الله عنه في طلحة رضي الله عنه ، فما كان طلحة رضي الله عنه ليستعين بأمثال هؤلاء على ما أراد من إصلاح ، ونداء بثأر عثمان رضي الله عنه ، وهل يعقل أنه يستعين بهم عليهم ، خاصة وأنه قد ثبت أنهم لما عرَّضوا له بالخلافة ، وهم بالمدينة ، صاح =

عائشة فقالت : أيها الناس إن هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه .. لعل الله ﷻ يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

هل أُكْرِهَتْ السيدة عائشة على الخروج

ولم يكن هذا الموقف هو أول مناداة من السيدة عائشة بثأر عثمان رضي الله عنه ، فلقد قامت في هذا الأمر منذ اللحظة التي علمت فيها بمقتله رضي الله عنه ، وقبل أن يصل الزبير وطلحة وغيرهما من كبار الصحابة إلى مكة ، ذلك أنه قد روي أنها لما انصرفت راجعة إلى مكة أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي [١] فقال : ما ردك يا أم المؤمنين ، قالت : رَدَّني أن عثمان قتل مظلوما ، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تُعِزُّوا الإسلام . فكان عبد الله أول من أجابها [٢] . ولم يكن طلحة والزبير قد خرجا من المدينة ، وإنما خرجا منها بعدما مرت على مقتل عثمان أربعة أشهر [٣] .

وهذا الذي انتهينا إليه يقدح في دعاوى اليعقوبي التي كررها كثيرًا في كتابه [٤] زاعمًا أن الزبير هو الذي أكره عائشة على الخروج ، وكررها صاحب الإمامة والسياسة [٥] ، وابن أبي الحديد [٦] ، وكذلك فعل الدينوري في كتابه [٧] . وألمحت

= بهم رضي الله عنهم ، واطَّردهم ، وقال : « قد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة، وذي خُشُب ملعونون على لسان محمد ﷺ » . تاريخ الطبري من رواية سيف : ٤/ ٣٥٠ .
على أن رفض القول بدور هوى أهل البصرة في طلحة ، لا ينفي أن يكون لصنائع عبد الله بن عامر في البصرة دور في اختيار البصرة [تاريخ الطبري : من رواية سيف : ٤/ ٤٥٠] ، مع ما ذكرتُ من أسباب .

(١) عبد الله بن عامر الحضرمي : هو عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، ابن خال عثمان بن عفان ، ولد على عهد رسول الله ﷺ ، وأُتي به النبي وهو صغير فقال : « هذا يشبهنا » . وجعل يتفل عليه ، ويُعَوِّذه ، فجعل عبد الله يبتلع ريق رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « إنه لَمُشقَى » فكان لا يعالج أرضًا إلا ظهر له الماء . وكان كريمًا ، ميمون النقيبة ، استعمله عثمان على البصرة ، وولاه أيضًا بلاد فارس ، ففتح خراسان كلها ، وأطراف فارس ، وسجستان وكِرمان ، وزابلستان ، وهي أعمال غزنة . وهو الذي اتخذ السوق بالبصرة ، اشترى دورًا فهدمها ، وجعلها سوقًا . لم يزل واليًا على البصرة إلى أن قتل عثمان ، فلما سمع بقتله سار إلى مكة ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٢٨٩ ، وذكر الطبري : أنه كان وقت قتل عثمان رضي الله عنه أميرًا على مكة . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٤٩

(٢) تاريخ الطبري : ٤/٤٤٩ ، من رواية سيف .

(٣) راجع تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٧ ، من رواية سيف .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٨٠ ، ٢٠٩ .

(٥) الإمامة والسياسة : ١/ ٥٨ ، ٦٩ .

(٦) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٩/ ١٨ .

(٧) الدينوري : الأخبار الطوال : ١٤٥ .

الرواية التي ذكرها الذهبي بأن المتسلط عليها هو ابن الزبير [١] ، وسار على هذه الروايات أكثر الباحثين [٢] ، الأمر الذي يسلب الشرعية ، ويُضيع القيمة السياسية لهذا الخروج عامة ، وللموقف السياسي للسيدة عائشة خاصة ، إذ تبدو رضي الله عنها كشخصية تابعة ، لا تصدر في هذا الدور عن فهم وفقه ، بل عن حالة من التغرير بها .

هل كانت متسلطة على من معها ؟

ولقد يعنيني وبنفس القدر أن أؤكد على الحقيقة التاريخية بأنه كما أنها - رضي الله عنها - لم تكن مكرهة على هذا المسير ، فإنها لم تكن المرأة المتسلطة [٣] التي تحرك الناس حيث شاءتْ ، فلقد تواترت الروايات بأنه كان فيمن خرج معها رضي الله عنها جمهور غير قليل من أجلاء الصحابة [٤] وكبرائهم ، ولقد أكدت روايات الطبري عن سيف على تأييد أمهات المؤمنين لها ، ولمن معها في السعي إلى الإصلاح ، بل وتأييد عدد غير قليل من أهل البصرة لها [٥] ، وكان هذا العدد غير القليل ممن لا يستهان

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء :٢/ ١٩٣ ، فيما نقل الذهبي عن إسماعيل بن عُلَيّة ، عن أبي سفيان بن العلاء المازني ، عن ابن أبي عتيق : قال عبد الله بن عمر لعائشة رضي الله عنهما : « رأيت رجلًا قد غلب عليك - يعني عبد الله بن الزبير- » .

(٢) انظر مثلًا : د/ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين : ٥١٧، ٥٢٦ . وزاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨٤ والعجيب أن تحاول تفسير هذا القول بالإكراه المزعوم بقولها : ولعلها قيلت بعد أن تابت وندمت ، وغفر لها عليّ ، وذلك احترامًا لكونها أم المؤمنين .
وسبحان الله كيف فَهِمتْ أنه يقدح في أمومة عائشة للمؤمنين أن تكون قد جاهدت كي تمكن لحدود الله أن تطبق في الأرض ، وكيف أساغ لها منطقها أن تُبديَ لنا الصحابة مدلسين علينا حتى في الحقيقة التاريخية ، يُلقون التبعة على الزبير وطلحة رضي الله عنهما اللذين ماتا ، و يُجَمِّلون صفحة السيدة عائشة مما يخطئ الباحثون ، ويعتقدونه سُبَّة عندها . ثم إنها رضي الله عنها لم تندم كما زعموا ، ولم تتب عن هذا الخروج في سبيل الإصلاح ، وهل يتوب الإنسان على خير أراده . انظر تفصيل ذلك في الصفحات التالية .

(٣) انظر القول بهذا التسلط : بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية : ١١١،١١٤، ١١٧ .

(٤) تاريخ الطبري ٤/٤٧٠،٤٥٠ ، ٥٣٨ ، ومقدمة ابن خلدون ٦١٨/٢ . وقد اختلف في عدد الخارجين مع السيدة عائشة وطلحة والزبير من مكة عند الطبري : ففيما رواه عن سيف : كان عددهم ألف ٤/ ٤٥١ ، وعن الزهري : ثلاثة آلاف ٤/ ٤٥٢ .

(٥) كان من القبائل البصرية التي ناصرت عائشة رضي الله عنها : بنو عدي ، والأزد ، وكان عليها مسعود وزياد بن عمرو ، وصبرة بن شيمان ، والشواذب عليها رجلان : على مضر الخِرّيت بن راشد ، وعلى قضاعة والتوابع عبد الرحمن بن جابر الراسبي ، وعلى سائر اليمن ذو الآجرة الحِميري ، وهوازن ، وبنو سليم ، والأعجاز ، وعليها مجاشع بن مسعود السلميّ ، وعامر ، وعليها زفر بن الحارث ، وغطفان ، وعليها أعصر بن النعمان الباهلي ، وبكر ، وعليها مالك بن مسمع ، وخزاعة ، وكان عليها عبد الله بن خلف الخزاعي ، وبنو حنظلة ، وعليها هلال ابن وكيع بن مالك ، كما ناصرتها قبائل أخرى . . . . انظر تاريخ الطبري ، عن سيف : ٤/ ٤٠٣: ٤٠٥ .

بهم ، فلقد وصفهم طلحة والزبير بأنهم خيار أهل البصرة ونُجباؤهم [١] ، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم الصالحون [٢] وما كان خروج هذا العدد من الصالحين إلا عن اعتقاد راسخ بجدوى هذا الخروج وصواب مقصده .

وكان علي رضي الله عنه يعلم هذا ، ويرد الزعم الذي زعمه البعض من أن الخارجين مع السيدة عائشة كانوا جموعًا من السفهاء ، والغوغاء ، والأوباش [٣] ، فلقد وقف بعد معركة الجمل بين القتلى من فريق عائشة ، يترحم عليهم ، ويذكر فضلهم ، ولما أُتي بكعب بن سور [٤] في القتلى ، قال : « زعمتم إنما خرج معهم السفهاء ! وهذا الحبر قد ترون ؟ . ولما أتي بعبد الرحمن بن عتاب [٥] ، قال : هذا يعسوب القوم [٦] ! ، وجعل عليّ كلما مرَّ برجل فيه خير ، قال : كلا ! زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء ! هذا العابد المجتهد [٧] ! .

إنه من الخطأ البين أن نفهم هذا الخروج كخروج غوغائي ، تحكمت فيه السيدة عائشة في أناس غير راشدين بل كان خروجًا واعيًا شارك فيه الكثيرون من الصحابة .

---

(١) المصدر السابق ، عن سيف : ٤/ ٤٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، عن سيف : ٤/ ٤٧٣ .

(٣) قارن ما ذكرنا بقول صاحب الإمامة والسياسة من أن مَن خرج مع السيدة عائشة كانوا طغام الناس وأوباشهم ، وأبناء الطلقاء : الإمامة والسياسة : ١/ ٥٧ .

(٤) كعب بن سور بن بكر الأزدي : كان أول قاض لعمر بن الخطاب على البصرة حتى قتل عمر ثم في خلافة عثمان ، ولم يزل قاضيا عليها إلى أن قتل يوم الجمل مع عائشة ، خرج بين الصفين معه مصحف فنشره ، وجعل يناشد الناس في دمائهم ، وكان المصحف معه ، وبيده خطام الجمل ، فأتاه سهم غرب فقتله . وله في قتال الفرس أثر كبير . ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٤٥٣ ، ابن حجر : الإصابة ٥/٤٨٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٧٦ .

(٥) عبد الرحمن بن عتاب : القرشي الأموي ، وأمه جويرية بنت أبي جهل التي كان عليّ يخطبها ، فنهاه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها عتاب ، فولدت له عبد الرحمن ، وكان مع عائشة يوم الجمل ، فكان يصلي بهم إماما ، وقتل يوم الجمل بالبصرة ، قتله الأشتر ، وقيل جندب بن زهير . ولما قتل حملت الطير يده حتى ألقتها بالمدينة ، فعرفوا أنها يده بخاتمه ، فصلوا عليه ودفنوها . ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٤٦٨ ، ابن حجر : الإصابة ٥/٣٥ .

(٦) يعسوب القوم : أي رئيسهم وكبيرهم ومقدمهم . وكانوا قد اجتمعوا عليه ، ورضوا به لصلاتهم . واليعسوب ملكة النحل ، وكان العرب يظنوها ذكرًا .

(٧) سيف بن عمر : كتاب الجمل ومسير علي وعائشة : ٣٥٧، ٣٥٨ . ذكرنا هذا لمجرد التمثيل فقط ، فالفضلاء من الصحابة في هذا الفريق كانوا كثرة ، كما لا يخفى .

أزواج النبي والخروج للطلب بدم عثمان

كان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارًا من الفتنة . فلما بلغ الناسَ بمكة أن عثمان قد قتل أقمْنَ بمكة ، وكن قد خرجن منها فرجعن إليها ، وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتحسسون الأخبار ، فلما بويع عليّ .. خرج عدد من الصحابة من المدينة كارهين المقام بها بسبب الغوغاء من أهل الأمصار ، فاجتمع بمكة منهم خلق من الصحابة وأمهات المؤمنين [١] .

وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على السير إلى المدينة ، فلما اتفق رأي عائشة ، ومن معها من الصحابة على السير إلى البصرة ، رجعن عن ذلك وقلن : لا نسير إلى غير المدينة [٢] . كان الخروج في أمر عثمان إذن غيرَ مُخْتَلَفٍ عليه بين أمهات المؤمنين ، لكنهن اختلفن حين تغيرت الوجهة من المدينة إلى البصرة .

غير أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها وافقت عائشةَ على السير إلى البصرة ، وإنما عزم عليها [٣] أخوها عبد الله بن عمر كيلا تخرج ، فلم يكن عدم خروجها ناتجا عن اقتناع منها ، ولم يكن عزم عبد الله بن عمر على حفصة رضي الله عنهما قائمًا على أنه كان لا يرى في هذا الخروج وجهًا شرعيًّا ، فليس في أي رواية عنه ما يفيد هذا .

ولكن كان رفضه للخروج ، لأنه كان من قسم الصحابة الذين اشتبهت عليهم القضية ، وتحيروا فيها ، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين ، فاعتزلوا الفريقين . ولو قد وجد ابن عمر إجماعًا على هذا الخروج لخرج ، فلقد كان يقول : « إني رجل من أهل المدينة ، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض ، وإن يجتمعوا على القعود أقعد [٤] » ، وللسبب نفسه رفض الخروج مع عليّ لحرب أهل الشام [٥] . فلما كان الحال عنده

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤١/٧ . ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥١ وكان في هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمر ويعلى بن أمية عامل عثمان على اليمن وطلحة والزبير وسعيد بن العاص والوليد ابن عقبة وغيرهم من رؤوس بني أمية .

(٢) تاريخ الطبري ٤٥٤/٤ ، من رواية سيف ، ابن الأثير : الكامل ٣/ ١٠١، ١٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤١/٧ .

(٣) عزم عليها : أقسم عليها .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٤٦ ، من رواية سيف .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٤١/٧ . كان ابن عمر رضي الله عنه شديد الورع ، وقافا عما لا علم له به . ولم يكن قد تبين له الصواب في الأمر . انظر قول القاسم بن محمد بن أبي بكر فيه . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٥/ ٥٥ .

على هذا النحو ، عزم على أخته السيدة حفصة بما انتهى إليه من الاعتزال ، وكانت لهذا العزم منه كارهة ، كما تبين ذلك من قولها لعائشة : « إن عبد الله حال بيني وبين الخروج ، وأرسلت إلى عائشة بعذرها » [١] .

وتكاد الروايات الشائعة تُبدي أن أم سلمة رضي الله عنها لم تكن ترى رأي عائشة ومن معها ، في الخروج إلى البصرة ، وأنها كانت ترى ما يراه عليّ [٢] غير أن أقرب الروايات إلى الصحة هي أنها أرسلت إلى عليّ ابنها عمر بن أبي سلمة قائلة : « والله لهو أعز علي من نفسي ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فخرج فلم يزل معه [٣] » ، وهي رواية عند التحقيق لا يتبين لنا منها أن هذا الإرسال لابنها يعني أنها كانت تخالف أمهات المؤمنين في القول بالإصلاح بين المسلمين ، فعائشة نفسها ، ومن معها لم يكونوا يرون أنهم بهذا الخروج يخالفون عليًا رضي الله عنه ، أو يخرجون على خلافته ، كما رأينا ، وكما سوف تؤكد لنا الأحداث ، وليس في هذه الرواية إشارة إلى الزيادات التي جاءت بها الروايات التي أشرنا إليها ، والتي سوف نعرض لها بالتحليل لاحقًا في هذه الدراسة [٤] . كما أننا لم نجد في الروايات الصحيحة ما يدل على خروجها على إجماع أمهات المؤمنين في أهمية السعي للإصلاح .

لماذا السيدة عائشة ؟

إذا كان الأمر على هذا النحو ، فلماذا لم تخرج بقية أزواج النبي رضي الله عنهن مع عائشة رضي الله عنها ؟

كان أمهات المؤمنين الباقيات على قيد الحياة وقت خروج السيدة عائشة رضي الله عنها هن : أم سلمة ، وحفصة ، وجويرية ، وأم حبيبة ، وصفية ، وميمونة . فأما السيدة أم سلمة فكان عمرها وقت الخروج ستين عامًا تقريبًا ، وكان عمر السيدة حفصة ثلاثةً وخمسين عامًا ، والسيدة أم حبيبة ثمانية وستين عامًا ، وكان عمر السيدة ميمونة ما بين التسعة والأربعين إلى الأربعة والستين عامًا على اختلاف الأقوال في سنة وفاتها ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥١ ، من رواية سيف .

(٢) الإمامة والسياسة :١/ ٥٩ ، البلاذري : أنساب الأشراف : ٤/ ٢٢٤ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٦/ ٢١٧ .

(٣) تاريخ الطبري ٤/٤٥١ من رواية لأبي مخنف ولقد ذكرناها لأن لها شاهدًا عند الحاكم في مستدركه ، وهذا الشاهد لا يشتمل على زيادات أبي مخنف الواهية ، راجع تلك الرواية في تاريخ الطبري: ٤/٤٥٣ ، وانظر : ابن الأثير : أسد الغابة ٤/ ١٦٩ ، ابن حجر : الإصابة ٤/ ٤٨٧ .

(٤) راجع ذلك في الفصل السادس ، الرواية الثالثة في رفض السيدة أم سلمة لخروج السيدة عائشة .

وكان عمر السيدة جويرية أربعةً وأربعين عامًا ، وعمر السيدة صفية خمسة وأربعين عامًا [١] .

أما السيدة عائشة فكان عمرها ثلاثة وأربعين عامًا ، وهو ما يعني أنها أقلهن سنًّا ، ولقد يؤدي تقدم العمر إلى الصعوبة في القيام بهذا الأمر على مشاقه وعنته .

فأما القريبات منها في السن فإنهن كن يعلمن - بلا ريب - أن هذا الخروج في الإصلاح بين المسلمين مما يدخل في معنى الفرض الكفائي ، و الضابط فيه أن الطلب فيه ليس متوجهًا إلى جميع المكلفين ، بل هو إلى من فيه أهلية القيام به لا على الجميع عمومًا [٢] ، ولقد كانت أهلية القيام بهذا الإصلاح بين المسلمين متوفرة تمامًا في السيدة عائشة : مكانةً ، وسنًّا ، وعلمًا ، وقدرةً ، وكانت عائشة أكثرهن فقهًا بإجماع جمهور المسلمين [٣] .

كما أنها كانت تهتم بالأمور العامة ، فكانت صاحبة شخصية سياسية ، تكونت منذ نشأتها في بيت أبي بكر العالم بأيام العرب وأنسابهم [٤] ، ومن عيشها في بيت رسول الله ﷺ الذي خرجت منه أسس سياسة الدولة الإسلامية ، ثم هي بنت الخليفة الأول للمسلمين ، وانضاف إلى كل ذلك فهمها الرائق لمكان المرأة في هذا الدين ، ومسئوليتها التامة [٥] مع الرجل في القيام على أمور المسلمين بما يصلحها .

وقد أكد العلماء على هذه المكانة للسيدة عائشة ، وقرروها تقريرًا بليغًا ، قال الزهري [٦] : « لو جمع علم الناس كلهم ، وأمهات المؤمنين ، لكانت عائشة أوسعهم علمًا » ، وقال مسروق [٧] : « والله لقد رأيت أصحاب محمد الأكابر

---

(١) راجع في ذلك الدمياطي : نساء رسول الله : ٤٥ : ٥٢ ، ٥٥ : ٦٢ ، ٧٠ : ٧٢ ، ٧٨ : ٨٦ .

(٢) الشاطبي : الموافقات ١/١٥٢ ، ١٥٤ .

(٣) ذكر الإمام الذهبي أن مسند عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث ، اتفق لها البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا ، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ، وانفرد مسلم بتسعة وستين . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٣٩ .

(٤) انظر في تميز نساء بني تيم جميعًا ، وتميز عائشة على وجه الخصوص : العقاد : الصديقة بنت الصديق : ١٦، ١١٤، ١١٥ .

(٥) المسئولية الناتجة عن مقتضى التكليف الشرعي هي مسئولية على كل من المرأة والرجل ، متى توفرت فيهما الأهلية .

(٦) سبق التعريف به .

(٧) سبق التعريف به صفحة ٣٥٧ .

يسألونها عن الفرائض » ، وقال عروة [١] : « لقد صحبت عائشة ، فما رأيت أحدًا قط كان أعلم بآية أنزلت ، ولا بفريضة ، ولا بسنة ، ولا بشِعر ، ولا أروي له ، ولا بيوم من أيام العرب ، ولا بنسب ، ولا بكذا ، ولا بكذا ..، ولا بقضاء ، ولا بطِب منها » .

وكان الشعبي يذكرها فيتعجب من فقهها ، وعلمها ، ثم يقول : « ما ظنكم بأدب النبوة » . وكان عطاء يقول : كانت عائشة أفقه الناس ، وأحسن الناس رأيا في العامة . وكان الأحنف بن قيس سيد بني تميم ، وأحد بلغاء العرب يقول : « سمعت خطبة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، والخلفاء بعدهم . . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ، ولا أحسن منه من في عائشة » . وكان معاوية رضي الله عنه يقول مثل هذا [٢] .

وهذه الأهلية لم تكن على نفس المستوى عند بقية أمهات المؤمنين ، ولا يقدح هذا في شأنهن ، إذ الغاية من مثل هذه الفروض الكفائية أن يكون هناك من يقوم بها ، وأن يتعاون الناس على إعانة من فيه هذه الأهلية ، ولقد كان في عزمهن على الخروج إلى المدينة أولًا ، وفي خروجهن رضي الله عنهن ثانيًا مودعات للسيدة عائشة رضي الله عنها حين خرجت للبصرة [٣] معنى من معاني المعاونة لها والتشجيع لها على أمرها لم تلتفت إليه أية دراسة سابقة حسب علمي [٤] .

أسباب خروج عائشة رضي الله عنها إلى البصرة

والذي ينظر في أسباب الخروج التي ذكرتها السيدة عائشة رضي الله عنها ، وذكرها كل من الزبير وطلحة رضي الله عنهما في الروايات التي رواها سيف ، يجد الأسباب واحدة عندهم جميعًا ، وهي أيضًا أسباب واضحة ، تعود في مجملها إلى الغيرة على سلطان الله تعالى ، والغضب

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، أبو عبد الله المدني ، ثقة فقيه مشهور ، مات سنة ٩٤ هـ على الصحيح ، اجتمعت رواياته في الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦٧١ .

(٢) راجع هذا ، وأكثر منه في : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٣٥ . ولعله من الطريف أن أشير في هذا المقام إلى أن العرب لما بهرتهم هذه الصفات فيها رضي الله عنها ، قالوا : « لو كان لأبي بكر [ذكر] مثلها لما خرج الأمر [يعنون الخلافة] منه » . ولما صعُب عليهم أن يجدوا كل هذا في امرأة من النساء ، قالوا عنها : « كانت رجلة العرب » [أبو حيان : الإمتاع ، والمؤانسة] . لكنني أقول : لم تكن رجلة العرب ، بل كانت امرأة الإسلام .

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٤٦٠ .

(٤) بل اعتبروه – على العكس مما أعتبره – بكاء منهن على هذا الخروج ، وما سيقع فيه المسلمون من القتال وإراقة الدماء . انظر : د/ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية ٤٦٦ [وليت شعري : أي دماء تخطر على بال من خرجوا في هذه الوجهة من الإصلاح ، وجمع الكلمة] .

لحرماته ، وهي نفس الأسباب التي جعلت عثمان ﷺ يلقي بيديه إلى المصيبة ، مُؤْثِرًا ذلك على ألا يخلع قميص الله الذي قمَّصه إياه ، كي لا تثبت في التجربة الإسلامية عادة التطاول على الخلافة بغير حجة حق .

والأسباب نفسها التي آلمت عليًّا ﷺ حتى جعلته يهرب من الناس في بساتين المدينة ، كي لا يتولى الأمر حال تحكم هؤلاء الغوغاء من أهل الأمصار ، متجاوزين الأسس العادلة التي تعارف عليها المسلمون في اختيار خلفائهم . والأسباب التي آلمت كذلك طلحة والزبير ، وغيرهما من الصحابة الذين كانوا توقفوا في بداية الأمر عن مبايعة عليّ [١] .

وهذا ما عبرت عنه عائشة رضي الله عنها لرسولي عثمان بن حنيف [٢] أمير عليّ على البصرة حين سألاها : « إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مُخْبِرَتُنا ؟ » ، قالت : « والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطي لبنيه الخبر . إن الغوغاءَ من أهل الأمصار ، ونزاع القبائل ، غزوا حرم رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ، ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين ، بلا ترة ، ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين ، غير نافعين ، ولا متقين ، لا يقدرون على الامتناع ، ولا يأمنون [٣] » .

وهذا نفسه هو ما عبرت عنه رضي الله عنها في موقف آخر ، قالت : فنجاةً [٤] من اجتماعكم عليهم حتى يَنْكل بهم غيرهم ، ويشرِّد مَن بعدهم [٥] . وكان من قولها أيضًا رضي الله عنها بمكة : « أيها الناس ، إن هذا حدث عظيم ، وأمرٌ منكر ، فانهضوا فيه

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٤٢٧ ، وما بعدها .

(٢) عثمان بن حنيف بن وهب الأنصاري الأوسي ، شهد أُحدا وما بعدها ، استعمله عمر على مساحة سواد العراق ، فمسحه وقسّط خِراجه ، واستعمله عليّ على البصرة فبقي فيها حتى قدمها طلحة والزبير مع عائشة ، سكن الكوفة ومات في خلافة معاوية . ابن حجر: الإصابة ٢/ ٤٥٩ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/٣٢٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٥٧٠ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/٤٦٢ ، من رواية سيف ، الكامل لابن الأثير : ٣/ ١٠٤ .

(٤) فنجاة من اجتماعكم : أي اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٤٩ . رواية عن سيف .

إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ، لعل الله ﷻ يدرك لعثمان والمسلمين بثأرهم » (١) .

لم يكن الخروج إلى البصرة والغضب الذي حرك الصحابة من البساطة التي ظهرت للناس كثأر لعثمان رضي الله عنه ، وكأنه رجل من عوام الناس قُتِل ، فخرجتْ الجيوش في الطلب له بثأره ! رغم كونه حدًّا من حدود الله يستوجب الغضب ويستدعي حدوث ذلك ، ولكن مقتل عثمان رضي الله عنه على الصورة التي تم بها ، كان فوق ذلك ومعه ، اغتيالًا لصفةٍ شرعية هي « الخلافة » التي يفهمها المسلمون : « نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين ، وسياسة الدنيا به (٢) » ، فالاعتداء عليها دون وجه حق ، اعتداء على صاحب الشرع ، وتوهين لسلطانه ، وضياع لنظام المسلمين (٣) .

ولو قد سكت الصحابة على كل هذا بكل ما يعني من ضياع لمعالم الدين ، واندثار لأسسه ، لأصبحت هذه الممارسات الشائنة في حياة الإسلام كله سنة ، بل قانونًا على الجميع أن يستسلم له ، ولم لا يفعلون إذا صحَّ أن الصحابة أنفسهم قد استسلموا له ؟ .

مشروعية هذا الخروج

والخروج في هذا الشأن ، وعلى الناس خليفة ، هو عليّ رضي الله عنه ، كان خروجًا مشروعًا ومسئولًا هو الآخر ، وكان – في رأيي – أقرب إلى التعاون مع عليّ رضي الله عنه كما سنرى ، ذلك أن عائشة وطلحة والزبير ، ومن معهما من الصحابة كانوا قد رأوا في تأخير عليّ رضي الله عنه إقامة الحد على قتلة عثمان تبديلًا بدله عليّ رضي الله عنه في موقفه (٤) ، فلقد ظنوا فيه الهوادة في هذا الشأن ، خاصة وقد مَرَّ على قتل عثمان رضي الله عنه أربعة أشهر ، كما أسلفنا .

والإسلام بالذات ليس شأن الحكام وحدهم ، فالسعي في إقامة حدود الله والتمكين لسلطانه مهمة لا تتعلق بالحاكم وحده ، ولكن تتعلق بكل فرد مسلم

---

(١) المصدر السابق : ٤/٤٥٠ . (٢) ابن خلدون : المقدمة : ٢/ ٦٢٤ .

(٣) تأمل في خطبة طلحة والزبير في أهل البصرة قولهما : « إن في ذلك إعزاز دين الله ﷻ ، وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنكم إنْ فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام » . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٤ ، من رواية سيف .

(٤) انظر رواية الأحنف بن قيس تاريخ الطبري ٤/٤٩٧ ، ٤٩٨ ، وفيها أن الأحنف بن قيس لما قابل عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير بعدما خرجوا إلى البصرة ذكّرهم بما قالوه له ، ونصحوه به من البيعة لعلي والرضا به ، فقالوا له : نعم ولكنه بدّل . والرواية رواتها جميعا ثقات .

مكلف ، رجلا كان أو امرأة ، فكل فرد مكلف بإقامة الإسلام في نفسه ، بمعنى الاحتكام إلى شريعته ، ومكلف كذلك بدعوة الآخرين إلى إقامته في أنفسهم ، ومكلف بتغيير المنكر بدرجة من درجاته الثلاث ، حسب موقعه من المجتمع وحسب قدرته وإلا خرج من الدين [١] .

كانت عائشة رضي الله عنها تحمل في نفسها قناعة عظيمة بأهمية هذا الخروج ، وهو ما ذكرته السيدة عائشة واضحًا حين قالت لرسولي الأحنف بن قيس [٢] : « ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير ، الذكر والأنثى ، فهذا شأننا إلى معروف ، نأمركم به ، ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ، ونحثكم على تغييره » [٣] .

فكان لابد أن ينهض الناس ، فيُدْرَك بهذا الدم لئلا يُبْطَل ، فإن في إبطاله توهين سلطان الله في الأرض بيننا أبدًا ، إذا لم يُقْطَم [٤] الناس عن أمثالها ، لم يبق إمام إلا قتله هذا الضّرب [٥] .

---

(١) لقوله ﷺ فيما روى مسلم في صحيحه : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . وانظر: فتح الباري : ١٣/ ٥٠ ، ٥١ . وهذه الحقيقة هي التي حفظت هذا الدين قرونا - بقَدَر من الله - رغم فساد الحكام المتزايد ، لأنه قد تفسد الحكومة ويظل المجتمع مسلمًا ، أما إذا فسد المجتمع فلا إسلام .

(٢) كان الرسولان هما : عمران بن حصين ، وأبو الأسود الدؤلي .

(٣) تاريخ الطبري ٤٦٢/٤ . وانظر في كون الأمة في مجموعها مخاطبة وملزمة بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية جماعة وأفرادا ، رجالا ونساء قوله تعالى من سورة التوبة آية ٧١ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ .. ﴾ ومن سورة آل عمران ، آية ١٠٤ : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ .. ﴾ ، والآية ١١٠ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ، والأحاديث الشريفة في ذلك أكثر من أن تحصى . منها ما رواه أبو داود : ١٢٢/٤ « ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، يقدرون على أن يغيروا فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا » . وهي في مجموعها خطاب لكل فرد بأنه مطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن هذه الأمة لا توجد وجودًا حقيقيا إلا عندما تتحقق بهذه الصفة . انظر في تفصيل ذلك : المحلى لابن حزم ٥٠٦/١٠ ، ٦٤٦/٨ ، ابن خلدون : المقدمة ٦١٧/٢، ٦١٨ ومن الدراسات الحديثة د . عارف أبو عيد : السيادة في الإسلام ١٨١ وما بعدها ، ومحمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي ١١٥ .

(٤) الفطْم : القطع ، والفصل .

(٥) راجع : تاريخ الطبري ٤٦١/٤ ، من كلام للزبير رضي الله عنه في تعليل خروجهم إلى البصرة . رواية عن السري ، عن شعيب ، عن سيف .

لقد كان واجبًا [١] على من كان في مثل موقع عائشة رضي الله عنها وفقهها وعلمها أن يخرج لما يؤدي إليه اجتهاده وعلمه . وهل كان يسعها ألا تهتم بأمر المسلمين ، وهي تعلم أنه « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم [٢] » ، فكيف وهي منهم في المكان الأعظم ، هي أمهم جميعًا ، وهي التي تربت في مدرسة الإسلام وعرفت كيف تحافظ على حقوقها ، وكيف تعيش المسئولية الكاملة عن هذا الدين فلا تقبل من أحد انتهاكا له ، وكيف تتيقظ لكل مساس بالشريعة فتوقفه عند حده .

الهدف المحدد من الخروج

كان الهدف المحدد من الخروج كما تبين لنا من استعراض أسبابه التي ذكرتها السيدة عائشة - رضي الله عنها - هدفًا إعلاميا صرفا ، لم تُنْطق فيه بلفظة الحرب . ولم يكن كل من الفريقين ، فريق عليّ ، أو فريق عائشة - رضي الله عنهما - يدور في خلده أن تكون هناك حرب .

لذلك فإنني لا أشك أبدًا في أن خروجهم رضي الله عنهم كان أقرب إلى التعاون مع علي رضي الله عنه ، وذلك من خلال تعريف المسلمين بما أتى هؤلاء السبئيين والغوغاء من أهل الأمصار ، ونزّاع القبائل ، ومن ظاهرهم من الأعراب والعبيد ، وتكوين ما يمكن أن يسمى برأي إسلامي عام في مواجهة هذه الطغمة التي تحكمت في الأمور .

فلقد بات واضحًا عند الصحابة من الفريق الذي كان يرى رأي عائشة رضي الله عنها أن الغوغاء ، والسبئيين متغلغلون في جيش علي رضي الله عنه ، وأنه لأجل ذلك فإن عليًا رضي الله عنه لن يحاول مواجهتهم ، خشية منه على أهل المدينة ، ومن ثم فإنه ينبغي عليهم أن يحاولوا السعي لإفهام المسلمين ، وتقوية الجانب المطالب بإقامة الحدود ، لتتم إقامتها بأقل قدر من الخسائر في دماء الأبرياء . وهو هدف لا نشك أن عليًا رضي الله عنه كان يسعى إليه ، ويحاوله ، بل إن الروايات قد ذكرته واضحًا [٣] .

ثم إن هذا السلوك منهم ، وهذه النية في تعريف الناس ، وتوضيح الأمور لهم ، دليل في تصوري على وعي تام منهم بأساليب السبئية في اللعب بأفكار العامة ، وتوجيهها على النحو الذي ينخر في الأمة حتى لا تستقر على حال ، فكان لابد من مواجهتها في ميدان الأفكار ، لإبطال عملها . ولقد تبين هذا الهدف واضحًا ،

---

(١) انظر قول الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم في مبحث آراء العلماء بالفصل الرابع من هذا الباب

(٢) الطبراني في الصغير ٢/ ٥٠ ، الأصبهاني : حلية الأولياء ٣/ ٤٨ .

(٣) راجع المفاوضات بين على وطلحة والزبير في إقامة الحدود في هذا الفصل من الدراسة .

وصريحًا في الروايات الصحيحة [١] ، التي تحدثت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها أهداف هذا الخروج :

فخرجتُ في المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء القوم .

وما فيه الناس وراءنا .

وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا ، وقرأتْ : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٢] .

إن الغاية من هذا هو أن يعرف الناس ما ينبغي أن يأتوه في الإصلاح ، وما كانت عائشة رضي الله عنها بالتي يخفي عليها ذلك [٣] .

ولقد كانت هذه الأهداف تتأكد في كل المرات التي كانت تتحدث فيها عن هذا الأمر ، وتتأكد كذلك من أقوال طلحة والزبير رضي الله عنهما [٤] .

وضوح الهدف من الخروج عند أنصار عائشة رضي الله عنها

وكان أنصار عائشة يفهمون هذا جيدًا ، ذلك أنه لما أرسل عثمان ابن حنيف ، عامل عليّ على البصرة ، في الناس من يقول لهم : « أيها الناس ... إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم ، إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذين يأمن فيه الطير . وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان رضي الله عنه فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعوني في هؤلاء القوم فرُدُّوهم من حيث جاءوا » ، عندئذ قام الأسود

---

(١) ولقد أخطأ الإمام ابن العربي حين قال : « أما خروجهم إلى البصرة فصحيح لا إشكال فيه . لكن : لأي شيء خرجوا ، لم يصح فيه نقل ، ولا يوثق فيه بأحد ، لأن الثقة لم ينقله ، وكلام المتعصب غير مقبول . وقد دخل مع المتعصب من يريد الطعن في الإسلام ، واستنقاص الصحابة » . العواصم من القواصم : ١٥٥ . لكنه ، على كل حال قد ناقض هذه المقولة بقوله في نفس الصفحة بأنهم خرجوا في جمع طوائف المسلمين ، وضم تشردهم ، وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا . ثم قال تعليقًا على هذا : هذا هو الصحيح ، لا شيء سواه . بذلك وردت صحاح الأخبار . ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٥ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٢ . رواية عن السري ، عن شعيب ، عن سيف . والآية في سورة النساء : ١١٤ .

(٣) راجع ابن حجر : فتح الباري ٣٧٢/٥ : ٣٩٠ ، كتاب الصلح ، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس وقول الله عز وجل ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ ، وخروج الإمام إلى المواضع بأصحابه ليصلح بين الناس .

(٤) انظر تاريخ الطبري ٤٦١/٤ .

ابن سريع السعدي [١] ، فقال منكرًا أن يقال في عائشة وأصحابها مثل هذا : أوَ زعموا أنّا قتلة عثمان رضي الله عنه ! فإنما فزعوا إلينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا [٢] .

ولما قال كعب بن سور لصبرة بن شَيْمَان ، رأس الأزد : « .. أطعني ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإني أخاف ألا يكون صلح .. » ، أنكر عليه صبرة قوله ، وقال له : « أتأمرني أن أغيب عن إصلاح بين الناس ، وأن أخذُل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردُّوا عليهم الصلح ، وأدع الطلب بدم عثمان ! لا والله ، لا أفعل ذلك أبدًا » ، فأطبق أهل اليمن على الحضور [٣] .

وكان هذا الوضوح في الهدف لدى أنصار السيدة عائشة رضي الله عنها يرجع إلى كون مسألة الحرب كانت من الأمور غير الواردة عند أحدهم ، بل كانت منهيًّا عنها تمامًا ، لا مع غير المتهمين بقتل عثمان رضي الله عنه ، بل ومع المتهمين أيضًا ، والذي حدث في البصرة من تقاتل ، لم يكن عن تخطيط منهم كما سوف نرى عند استعراض أحداث البصرة .

---

(١) الأسود بن سريع : التميمي السعدي ، الشاعر ، قال البخاري : فُقِد أيام الجمل ، وبذلك جزم أبو حاتم وأبو داود وابن السكن وغيرهم . ابن حجر : الإصابة ١/ ٢٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/٤٦٣ من رواية السري عن شعيب عن سيف .

(٣) المصدر السابق : ٤/ ٥٠٣ .

الفصل الرابع

الأحداث في البصرة

إن الحكم على مدى رشادة الدور السياسي الذي قامت به السيدة عائشة رضي الله عنها في خروجها إلى البصرة يتوقف إلى حد بعيد ، بل يتوقف حقيقة على فهم طبيعة الأحداث في البصرة ، فبسبب من عدم الفهم لطبيعة هذه الأحداث : وكيف سارت ، وما الذي أدى بها إلى ما صارت إليه حُكم على الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها ، بل على الدور السياسي لجنس المرأة كله حتى وقتنا هذا بالفشل . ولهذا فسوف تعني مباحث هذا الفصل ببحث وتحقيق النقاط التالية على الوجه الذي يقدم لنا الصورة الحقيقية للدور السياسي للسيدة عائشة في أحداث البصرة :

- في المبحث الأول : تحقيق مرور السيدة عائشة على ماء الحوأب ، ودلالة هذا المرور .

- في المبحث الثاني : دراسة أحداث البصرة قبل المعركة ، والممارسات السياسية السلمية التي قامت بها رضي الله عنها هناك . وتحقيق الروايات التي شوهت هذه الممارسات السلمية كرواية أمرها بقتل الصحابي عثمان بن حنيف ، أو نتف شعره .

- في المبحث الثالث : تجلية حقيقة خروجها رضي الله عنها من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية : هل كان لإقامة الحد بأنفسهم على قتلة عثمان، هل كان حربا لعليّ رضي الله عنه ، هل كان رفضا لخلافته، ولماذا خرج عليّ في إثر عائشة ومن معها، وهل كان عليّ يراهم خارجين عليه، وكيف سارت قبل المعركة محاولات الإصلاح بين الفريقين ؟ .

- في المبحث الرابع : نحقق كيف بدأت المعركة ، معركة الجمل ، وما هي تفاصيلها ، وهل كانت الموقعة حربًا بين علي وعائشة رضي الله عنهما بالمعنى المعروف عسكريًّا وسياسيًّا ؟ .

- إن فهم هذه النقاط البحثية فهمًا سليمًا سيمنحنا الحكم الصائب على الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها كما وضحنا آنفًا .

المبحث الأول :

تحقيق مسألة مرور السيدة عائشة على ماء الحوأب ودلالته

كانت مسألة الحوأب [١] والأحاديث المذكورة فيها مجالا خصبًا للشيعة وغيرهم يطعنون بها على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ويُدينون بها خروجها في شأن الطلب بدم عثمان رضي الله عنه ، حتى انتهى بهم الأمر إلى نفي صفة الاجتهاد عنها [٢] ، بدعوى مخالفتها - في زعمهم - لنهي الرسول ﷺ لها عن أن ترد ماء الحوأب [٣] .

ما هي حقيقة مسألة الحوأب ؟ وما هي الدلالة الحقيقية لهذه المسألة ؟ . هذا ما سوف يُحوجُنا إلى وِقْفَةٍ غيرِ قصيرة للبحث في أصل هذه القصة ، وسبر أغوارها ، خاصة وقد جاءت فيها روايات تاريخية عديدة ، وجرى فيها خلاف واسع بين العلماء ، ونبدأ بعرض روايات الحوأب في المصادر التاريخية .

الروايات الضعيفة لمسألة الحوأب

جاءت قصة الحوأب عند الطبري ، في رواية طويلة ، قال : « حدثني إسماعيل بن موسى الفزاري ، قال : أخبرنا علي بن عابس الأزرق ، قال : حدثنا أبو الخطاب الهجري ، عن صفوان بن قبيصة الأحمسي [٤] ،

---

(١) الحوأب : من مياه العرب على طريق البصرة . قاله أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندري ، فيما نقله عنه ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٣١٤ ، وقال البكري : في معجم ما استعجم ١/ ٤٧٢ : ماء قريب من البصرة على طريق مكة إليها .

(٢) انظر : الألوسي : صب العذاب على من سب الأصحاب ٤٦٠ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٦/ ٢١٧ . وتأمل حرص الشيعة على نفي صفة الاجتهاد عنها في هذا الموقف بالذات ، ربما لأن علماء المسلمين لما توقفوا عند هذه المسألة اعتبروها اجتهادا منها كما سوف نرى في متن الرسالة .

(٣) رأى بعض أجلة علمائنا قدامى ومحدثين من أمثال ابن العربي ، والشيخ محب الدين الخطيب ، في هذا الحديث تخطئة لعائشة رضي الله عنها ، وتناقضًا مع عدالتها المؤكدة ، فعمدوا إلى تضعيفه اعتمادا على الرواية التي ذكرها الطبري . ولا نشك في حيدتهم التامة ، ونزاهتهم العلمية التي يشهد بها تاريخهم . واعتقادي أنهم لم يطلعوا على الروايات الأخرى الصحيحة التي سوف يوردها البحث هنا . انظر ابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٨٦. وذهب آخرون إلى إنكار الحديث ، مثل الأفغاني ، الذي قال : في النفس من صحة هذا الحديث شيء ، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح . وأكد على هذا الإنكار بأنه لو كان هذا الخبر صحيحًا لرجعت عائشة من فورها . الأفغاني : عائشة والسياسة ٨٩ .

(٤) يأتي التعريف بهم جميعًا .

قال : حدثني العُرَني ، صاحب الجمل ، قال : بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب ، فقال : يا صاحب الجمل ، تبيع جملك ، قلت : نعم . ، قال : بكم ، قلت : بألف درهم ، قال : مجنون أنت ، ! جمل يباع بألف درهم ! قال : قلت : نعم ، جملي هذا . قال : ومم ذلك ، قلت : ما طلبت عليه أحدًا قط إلا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد إلا فُتُّه ، قال : لو تعلم لمن نريده ، لأحسنت بيعنا ، قال : قلت : ولمن تريده ، قال : لأمك ، قلت : تركت أمي في بيتها قاعدة ، ما تريد بَراحا ، قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة ، قلت : فهو لك ، فخذه بغير ثمن ، قال : لا ، ولكن ارجع معنا إلى الرحل ، فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم ، قال : فرجعت ، فأعطوني ناقة لها مَهرّية ، وزادوني أربعمائة أو ستمائة درهم ، فقال : لي يا أخا عُرَيْنة ، هل لك دلالة بالطريق ، قال : قلت : نعم ، أنا من أَدْرَك الناس ، قال : فسر معنا ، فسرت معهم فلا أمر على واد، ولا ماء إلا سألوني ، حتى طرقنا ماء الحوأب ، فنبحتنا كلابها ، قالوا : أي ماء هذا ، قلت : ماء الحوأب ، قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضُد بعيرها ، فأناخته ، ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طرُوقًا ، ردوني ، تقولها ثلاثًا . فأناخت ، وأناخوا حولها ، وهم على ذلك، وهي تأبى حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد ، قال : فجاءها ابن الزبير ، وهو يقول النجاء النجاء ، فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب ! قال : فارتحلوا وشتموني ، فانصرفت .

فما سرت إلا قليلًا وإذا بعليّ ، ورَكْب معه نحو من ثلاثمائة ، فقال لي علي : يا أيها الراكب ! فأتيته ، فقال : أين أتيت الظعينة ، قلت : في مكان كذا وكذا ، وهذه ناقتها ، وبعتهم جملي ، قال : وقد ركبتْه ، قلت : نعم ، وسرت معهم حتى أتينا ماء الحوأب ، فنبحت عليها كلابها ، فقالت : كذا وكذا ، فلما رأيت اختلاط أمرهم انفَتَلْتُ ، وارتحلوا ، فقال علي : هل لك دلالة بذي قار ، قلت : لعلي أدَلّ الناس ، قال : فسر معنا ، فسرنا حتى نزلنا ذا قار ..... [حوار معاتبة بين علي ، والحسن] . قال عليّ : إن النبي ﷺ قُبِض ، وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني ، فبايع الناس أبا بكر ، فبايعت كما بايعوا ، ثم إن أبا بكر ﷺ هلك ، وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني ، فبايع الناس عمر بن الخطاب ، فبايعت كما بايعوا ، ثم إن عمر ﷺ هلك وما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر مني ، فبايع الناس عثمان ، فبايعت كما بايعوا ، ثم سار الناس إلى عثمان ﷺ فقتلوه ، ثم أتوني فبايعوني طائعين غير

مكرهين ، فأنا مقاتل من خالفني بمن اتبعني حتى يحكم الله بيني وبينهم ، وهو خير الحاكمين » [١] .

نقد رواية الطبري

هذه هي الرواية الأولى للحوأب عند الطبري ، يرويها إسماعيل بن موسى الفزاري [٢] ، قال عنه ابن عدي : أنكروا منه الغلو والتشيع ، ويروي الفزاري هذا الخبر عن علي بن عابس الأزرق :

وهو ضعيف ، قالها ابن حجر والنسائي [٣] ، وهو يروي هذا الخبر عن أبي الخطاب الهجري ، وهو مجهول [٤] ، هذا الهجري المجهول ، يرويه عن مجهول آخر هو صفوان بن قبيصة الأحمسي [٥] ، ثم أخيرًا عن شخصية أشد جهالة ، هي شخصية العُرَني ، صاحب الجمل ، وما هو بصاحب الجمل ، وإنما صاحبه هو يعلى بن أمية [٦] الذي جاء بالجمل من اليمن ، وركبته عائشة من مكة إلى البصرة [٧] .

أما متن هذه الرواية فأول ما يجده القارئ في نفسه حين يتأملها ، هو الإحساس بالصنعة الواضحة :

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٦: ٤٥٨ .

(٢) إسماعيل بن موسى الفزاري : هو أبو محمد ، أو أبو إسحاق الكوفي ، صدوق ، يخطئ ، ورمي بالرفض . ابن حجر في : تقريب التهذيب : ١/١٠٠ ، وانظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١١/ ١٧٧. وابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ١٠٠. وقال ابن عدي أيضًا : سمعت عبدان الأهوازي يقول سمعت أبا بكر بن أبي شيبة ، أو هنّاد بن السري أنكر علينا ذهابنا إلى إسماعيل هذا، وقال : « أيش عُلِّمتم عند ذاك الفاسق الذي يشتم السلف ، ! . ابن عدي : الكامل في ضعفاء الرجال : ١/ ٥٢٨ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ١/ ٤١٣ . وانظر : الدهلوي : مختصر التحفة الاثني عشرية : ٢٧٠.

(٣) علي بن عابس الأزرق : الأسدي الكوفي . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦٩٧ . الدهلوي : مختصر التحفة الاثني عشرية : ٢٧٠ . (٤) ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/ ٣٩٢ .

(٥) صفوان بن قبيصة الأحمسي : الذهبي : ميزان الاعتدال ٣/٤٣٤ ، ابن حجر : لسان الميزان : ٣/ ٢٢٥ .

(٦) يعلى بن أمية بن أبي عبيدة بن همام التميمي ، أبو صفوان : وهو المعروف بيعلى بن منية – وهي أمه منية بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان – أسلم يوم الفتح ، وشهد حنينا والطائف وتبوك . استعمله عمر ابن الخطاب على بعض اليمن ، واستعمله عثمان على صنعاء ، قال المدايني : كان يعلى على الجند باليمن ، فبلغه قتل عثمان ، فأقبل لينصره ، فأعان الزبير بأربعمائة ألف ، وحمل سبعين رجلا من قريش ، وحمل عائشة على الجمل الذي شهدت القتال عليه ، وكان ﷺ جوادا معروفا بالكرم ، وشهد الجمل مع عائشة ، ثم صار من أصحاب عليّ في صفين ، وقتل معه بصفين . ابن الأثير : أسد الغابة ٥/٤٨٦.

(٧) تاريخ الطبري : ٤/٥٠٦ .

فالحوار بين صاحب الجمل المزعوم وأصحاب عائشة يبدو حوارا متكلفًا ، وركيكا [ما طلبت عليه أحدًا قط إلا أدركته ، ولا طلبني أحد إلا فُتُّه ، قلت لمن تريده ، قال : لأمك ، قلت : لقد تركت أمي في بيتها قاعدة ، وما تريد براحًا] . ولقد حكم العلماء على أحاديث بالوضع ، وكان مستندهم هو ركاكة ألفاظها ومعانيها [١] .

تصوير هذا العرني ، وكأنه عارف الصحراء الذي لا يبارى ، يلجأ إلى أصحاب عائشة ، ثم أصحاب علي ، وكأنما خرج كل منهما من حيث خرج ، ولم يكن معهم من دليل حتى رأوه ! .

فساد القول بأنه صاحب الجمل ، إذ المعروف أن صاحب الجمل هو يعلى بن أمية ، وقد اشتراه من رجل من عُرَيْنة بمائتي دينار ، وقيل بثمانين دينار ، ثم جاء به من اليمن إلى مكة ، ولقد كان من ذكاء ملفقي القصة أن يكون بطل هذه الرواية عُرَنيًا ، وهذه محاولة منهم لإحداث المشابهة في صورة الكلام بين الروايات الملفقة والروايات الموضوعة .

ولما كان ما كان من قتل عثمان ﷺ أعطى يعلى الجمل لأم المؤمنين ، فهو الجمل الذي ركبته من مكة إلى البصرة [٢] . وهذا عكس ما ذهبت إليه الرواية من استبدال الجمل بناقة عائشة في أثناء الطريق .

اتهام ابن الزبير بالتآمر على الجيش ، والتغرير بعائشة رضي الله عنها إذ نادى في الجيش : النَّجَاء النَّجاء مخوفًا لهم من مداهمة جيش علي لهم وما كان أي من الفريقين حتى هذه اللحظة يخشى الآخر وإنما كانا يسعيان إلى الإصلاح كل باجتهاده .وما كانت عائشة غِرَّةً إلى الحد الذي يستطيع هذا التخويف الأرعن - الذي لا نراه يصح عن ابن الزبير في فضله ومكانه - أن ينسيها مسألة أشار إليها النبي ﷺ ، وتتصل هذه المسألة بشخصها ، هذا إذا صح أن في هذا الحديث أمرًا لها بشيء لتفعله ، أو نهيًا لها عن فعل شيء .

رائحة التشيع والرفض الواضحة في آخر الرواية ، حيث تزعم على لسان علي أنه كان -كرم الله وجهه - يرى أحقيته بالخلافة على أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ،

---

(١) الشهرزوي : مقدمة علوم الحديث : ٩٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٤٢ .

والصحيح الثابت من الروايات المحققة يدل على خلاف ذلك تمامًا [١] . وعلى أساس كل ما سبق يتضح لنا أن هذه الرواية غير صحيحة .

وهناك رواية أخرى أوردها الطبري وهي عن أحمد بن زهير [٢] ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثني وهب بن جرير بن حازم [٣] ، قال : سمعت يونس بن يزيد الأيلي [٤] ، عن الزهري ، قال : بلغني أنه لما بلغ طلحة والزبير منزل عليّ بذي قار انصرفوا إلى البصرة ، فسمعت عائشة رضي الله عنها نباح كلاب ، فقالت أي ماء هذا ، فقالوا الحوأب ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! إني لهِيَهْ ، قد سمعت رسول الله ﷺ ، يقول وعنده نساؤه : « ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ! » . فأرادت الرجوع ، فأتاها عبد الله بن الزبير فزُعم أنه قال [لاحظ دقة الطبري في تعليقه] : كذب من قال إن هذا الحوأب . ولم يزل حتى مضت ، فقدموا البصرة [٥] ... إلى آخر الرواية .

غير أن هناك رواية شهيرة غير مسندة للمسعودي ، ذكرها البلاذري أيضا عن أبي مخنف [٦] ، جاء فيها : أنهم لما جاءوا ماء الحوأب ، ونبحت كلابه فسألت عائشة ، فقيل لها هذا ماء الحوأب . فردت خطامها عنه ، وذلك لما سمعت النبي ﷺ يقول : « أيتكن صاحبة الجمل الأدبب [٧] ، والتي تنبحها كلاب الحوأب ؟ » ، فشهد طلحة

---

(١) كان علي رضي الله عنه ينزل الخلفاء الراشدين قبله المنزلة العالية ، فقد تواتر عنه رضي الله عنه قوله : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » ولقد روي هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهًا ، ورواه البخاري وغيره . ولقد علق الشيخ محب الدين الخطيب على هذا القول بقوله : « ولا يوجد تاريخ في الدنيا ، ولا تاريخ الإسكندر المقدوني ، ولا تاريخ نابليون ، صحت أخباره كصحة هذا القول - من الوجهة العلمية والتاريخية - عن علي بن أبي طالب . وكان كرم الله وجهه يقول : « لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري » . أي أن هذه الفرية توجب على صاحبها الحد الشرعي . وعلى الرغم من عزم عثمان رضي الله عنه على الصحابة جميعا ألا يقاتلوا حقنا لدماء المسلمين ، وتضييقا لنطاق الفتنة ، فإن عليًا رضي الله عنه جعل ولديه الحسن والحسين على باب عثمان ، وأمرهما أن يكونا طوع إشارته في كل ما يأمرهما به ، ولو أدى ذلك إلى سفك دمهما .

(٢) راجع ترجمته وضعف قيمة مروياته في مقدمة الرسالة. صفحة:٦٤.

(٣) سبق التعريف به .

(٤) سبق التعريف به .

(٥) تاريخ الطبري ٤/٤٦٩ .

(٦) البلاذري : أنساب الأشراف : ٢/ ٢٢٤ .

(٧) الأدبب : الأدب ، أظهر الإدغام لأجل السجعة ، والأدب الكثير وبر الوجه . انظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث .

والزبير أنه ليس هذا ماء الحوأب ، وشهد معهما خمسون رجلًا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور في الإسلام [١] .

ولا يغيب عن الباحث الأمين ، بل على القارئ الذي يُعْمِل فكره فيما يقال أن هذا الخبر لا يمكن أن يستقيم إذا ما قيس على سابقة كل من طلحة والزبير ﷺ ، وهما المشهود لهما بالجنة على لسان رسول الله ﷺ ، وشهادة الزور لا تصدر إلا عن رعاع لا يخشون الله [٢] ﷻ .

ولقد ذكر الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ ، ذكر خروج بعض نسائه ، فضحكت عائشة ، فقال : « انظري يا حميراء [٣] ألا تكوني أنت [٤] » . ولقد ضعف الشيخ الألباني إسناد هذه الرواية بسبب محمد بن عبد الله الحفيد ، شيخ الحاكم ، لأن فيه جهالة ، وكان يشرب المسكر جهارًا على مذهبه ، كما قال الحاكم في التاريخ [٥] . وقد قال الألوسي : إن « إياك أن تكوني يا حميراء » ليس موجودًا في الكتب المعول عليها فيما بين أهل السنة [٦] .

وبقيت رواية أوردها الطبري عن سيف ، كما ذكرها ياقوت الحموي ، بدون إسناد في مادة : « الحوأب » من معجم البلدان ، ذكر فيها أن المنبوحة من كلاب الحوأب هي أم زمل سلمى بنت مالك الفزارية التي قادت المرتدين ما بين ظفر والحوأب [٧] .

وهذه الرواية التي ذكرها الحموي من نسبة هذه الرواية إلى أم زمل لا تصح ، لما

---

(١) المسعودي : مروج الذهب : ٢/٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٢) وعلى الرغم من ذلك فقد تورط كثير من المحدثين في تقرير هذه الشهادة الزور ، وتأكيد نسبتها إلى الصحابة . انظر مثلا العقاد : الصديقة بنت الصديق ١٢٧ .

(٣) حميراء : تصغير حمراء ، يريد البيضاء . ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر : ١/٤٣٨ .

(٤) مستدرك الحاكم : ٣/ ١١٩ . ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٢١٨ .

(٥) الألوسي : صب العذاب على من سب الأصحاب : هامش ١، ص : ٤٦٥ .

(٦) الألوسي : صب العذاب : ٤٦٤ . وراجع ما ذكره الذهبي ، قال : قيل : إن كل حديث فيه : يا حميراء ، لم يصح . وقول الأستاذ شعيب الأرناؤوط ، محقق هذا الجزء من السير : « في هذه الكلية نظر » ، واستدراكه على هذا القول الذي حكاه الذهبي بروايتين فيهما لفظ الحميراء . سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٦٧ ، ١٦٨ ، والروايتان على كل حال ، لا تتصلان بمسألة الحوأب .

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان : بدون إسناد ٢/ ٣١٤ . وقد أوردها الطبري عن سيف : ٣/ ٢٦٣ .

ذكره الألباني من ضعف فيها [١] ، بل ولما ذكره الشيخ محب الدين الخطيب من قبله من عدم القبول بها ، رغم قوله أيضا بعدم صحته في شأن السيدة عائشة [٢] . ولثبوت المرور على ماء الحوأب في شأن عائشة رضي الله عنها من طرق صحيحة ، كما سوف نرى الآن .

الروايات الصحيحة التي تثبت مرور السيدة عائشة على ماء الحوأب

لقد تبين لنا أن هذه الروايات السابقة ، التي عرضنا لها بالتحليل لا تصح ، كما لا تصح الروايات التي فيها النهي الصريح عن ورود هذا الماء ، والتي عرضنا لها أيضًا . وكلها روايات تعود إلى مصادر لمصنفين اتهموا بالتشيع ، ورواياتهم غير مسندة ، أو إلى مصادر لمصنفين ثقات ، أسندوا رواياتهم ، فعادت عند البحث والتحري إلى رواة رُمُوا بالرفض والتشيع .

غير أن هذه الحادثة تصح من طرق أخرى ، وبألفاظ أخرى صحيحة ، فعن يحيى ابن سعيد القطان [٣] ، عن إسماعيل بن أبي خالد [٤] ، عن قيس بن أبي حازم [٥] ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب » ، وفي لفظ : « أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب » ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف [٦] .

والحديث مخرج أيضا عند الإمام أحمد [٧] ، والذهبي [٨] ، وقد قال : هذا

---

(١) انظر الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١/ ٧٦٧ ، وانظر ملاحق ابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٧٧ .

(٢) محب الدين الخطيب : هامش صفحة ٢٧١ ، في التحفة الاثني عشرية .

(٣) يحيى بن سعيد بن فَرُّوخ القطان : التميمي ، البصري ، شيخ الإمام أحمد ، وهو من الثقات الأثبات ، قال فيه ابن حجر : ثقة ، متقن ، حافظ ، إمام قدوة . مات سنة ٩٨ هـ ، وله ثمان وسبعون . ابن حجر : تقريب التهذيب : ٢/ ٣٠٣ . وانظر : قول الألباني في : ملاحق ابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٧٨ .

(٤) إسماعيل بن أبي خالد : الأحمسي ، البَجَلي ، ثقة ، ثبت ، مات سنة : ٤٦هـ . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٩٣ .

(٥) سبق التعريف به .

(٦) الصنعاني : المصنف في الحديث والآثار : ١١/ ٣٦٥ . وانظر الرواية أيضًا عند ابن حجر : مسند عائشة : ٢٦٤ .

(٧) الإمام أحمد : المسند : ٦/ ٥٢ ، ٩٧ .

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/ ١٧٧ .

حديث صحيح الإسناد، ولم يُخَرِجوه . وقال ابن كثير : هذا إسناد على شرط الصحيحين ولم يُخَرِّجُوه [١] . وأخرجه ابن حبان في صحيحه [٢] ، والحاكم في مستدركه [٣] ، وقال ابن حجر في الفتح ، بعد أن عزاه إلى أحمد وأبي يعلى ، والبزار : « صححه ابن حِبَّان ، والحاكم : وشرطه على شرط الصحيحين » [٤] . وقد أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة [٥] .

وقد ذكر الإمام أحمد في رواية إسنادها على شرط الصحيحين [٦] أن عائشة لما أتت على ماء الحوأب فسمعت نباح الكلاب ، قالت : « ما أظنني إلا راجعة ، أن رسول الله ﷺ ، قال لنا : أيتكن ينبح عليها كلاب الحوأب » . قال لها الزبير [٧] : « ترجعين ، وعسى الله أن يصلح بك بين الناس [٨] » . فهذه الروايات الصحيحة ، ليس فيها شيء من شهادة الزور أو التدليس الذي يتنزه عنه مقام الصحابة ، والذي زعمته الروايات الضعيفة السابقة .

فهل في صحة الخبر على هذا النحو الذي ذكره العلماء دليل على شيء من خروج على الشرعية الإسلامية ، يمكن أن ينسب إلى عائشة رضي الله عنها ؟ .

إن المتأمل لهذه الروايات التي صححها العلماء ، لا يجد في أي منها ما يدل على نهي عن شيء ، أو أمر بشيء لتفعله السيدة عائشة ، بل إن ما يفهم منها هو تساؤله ، عن أيتهن التي يحدث أن تمر على ماء الحوأب ؟. والروايات الدالة على النهي ، والتي بها لفظة : « إياك » لم يصححها العلماء ، وإنما ضعفت على النحو الذي عرضنا له آنفًا ، ومن هنا فإن الصحيح الذي نذهب إليه هو أن مرور السيدة عائشة على ماء الحوأب لم يكن له الأثر السلبي الذي افتعلته الروايات الموضوعة ، ولم يكن له الأثر

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٦/ ٢١٧ .

(٢) ابن حبان : الصحيح : ٨/ ٢٥٨ .

(٣) الحاكم : المستدرك : ٣/ ١٢٠ .

(٤) قال الألباني : تصحيح الحاكم ليس في المطبوع ، والظاهر أنه سقط من الناسخ أو الطابع .

(٥) ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة : رقم ٤٧٥/٥ .

(٦) كما قال ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٢١٧ .

(٧) وليس ابن الزبير ، كما زعم الذين ذكروا تآمر عبد الله بن الزبير ، وصياحه في العسكر لما رأى تردد عائشة قائلًا : النجاء ، النجاء ، مخوفًا لهم من مداهمة علي بن أبي طالب لهم .

(٨) وهي مذكورة في ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٢ .

البعيد على نفس السيدة عائشة نفسها بحيث تفكر جديًّا في الرجوع عما خرجت له من إصلاح بين المسلمين ، وسعي لتسديد خطاهم ، ولم يَعْدُ الأمر أن يكون « ظنًّا » منها في احتمال الرجوع ، وهذا هو ما عبرت هي عنه حين قالت : « ما أظنني إلا راجعة » . وهو ظن لم يَتَلَبَّسْ إلا يسيرًا ثم عاد بعدُ هدفها واضحًا، بعدما ذكَّرها الزبير بما عسى الله أن يجريه على يديها من إصلاح بين المسلمين .

ولقد قال الإمام الألوسي : « ثم إنه لا يرد محذورًا ، لأنها اجتهدت فسارت حين لم تعلم أن في طريقها هذا المكان ، وحيث علمت لم يمكنها الرجوع لعدم موافقة الصحابة الباقين لها في الرجوع ، ولما قد يفوتها من الإصلاح بين الناس . فلا جرم مرت على ما قصدت إليه من إصلاح ذات البين المأمور به بلا شبهة » . وقد شبه حالها رضي الله عنها الإمام الألوسي ، في ذلك بحال شخص رأى من بعيد طفلًا يريد أن يقع في بئر ، فسعى ليمنعه من ذلك ، فمر بلا شعور بين يدي مصل ، فإنه يذهب لما قصد إليه ، لأنه لو رجع لم يحصل له تلافي ما وقع ، وفاته تخليص الطفل ، المأمور به [1] .

ولو قد افترضنا - جدلًا - أنه كان ثمة محذور في كونها رضي الله عنها هي صاحبة الحوأب - ولا يصح هذا الفرض ، كما بينا - فإن استمرارها رضي الله عنها في المسير إلى البصرة بعدما تبين لها أن الماء هو ماء الحوأب كان ناتجًا عن اجتهادها رضي الله عنها - وهي من أهل الاجتهاد بإجماع الأمة كلها - ولا ريب - في القدوم على المسلمين لعل الله أن يصلح بها ذات بينهم . « ولم يكن في الخبر عن النبي ﷺ نهي صريح ينافي الاجتهاد » [2] .

فمسألة الحوأب إذن - حسب الأدلة العلمية والتاريخية - غيرُ ذاتِ غَنَاءٍ لمن أراد توجيهها للطعن على خروج السيدة عائشة وفعلها السياسي الواعي للإصلاح بين المسلمين ، ولا مجال فيها لتخطئتها رضي الله عنها . بل إنني لا أعدو الحقيقة إذا ما قلت إن هذه الروايات الصحيحة لمسألة الحوأب تقف إلى جانب القول بحق ومشروعية الممارسة السياسية التي مارستها السيدة عائشة في هذا الخروج ، فهو، أخبر بهذا الأمر ، ولم ينكره ، أو يَنْهَ عنه . فالحديث - في تصوري - مُدْرَج في دلائل النبوة ،

---

(١) الألوسي : الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية ٣٤ نقلا عن صب العذاب على من سب الأصحاب : ٤٦٦ .

(٢) الألوسي : صب العذاب على من سَبَّ الأصحاب : ٤٦٦.

حيث هو إخبار نبوي عن أمر لم يحدث بعد .

وقد تكرر هذا الإخبار النبوي عن هذا الأمر في صور أخرى منها ما رواه الإمام أحمد- بإسناده - « أن رسول الله ﷺ ، قال لعليّ : إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر . قال : أنا يارسول الله ﷺ ، قال : نعم . قال : أنا أشقاهم يا رسول الله ﷺ ، قال : لا ، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها [1] » وفي الحديثين ليس ثمة نهي عن شيء أو أمر بشيء .

الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من كون حديث المرور بماء الحوأب يقف - على العكس تمامًا مما وُظِّف له - في صف مشروعية خروج السيدة عائشة في الإصلاح بين المسلمين ، وحقها في الممارسة السياسية الراشدة .

---

(١) رواه الطبراني ، وأحمد ، ورجاله ثقات . نقلًا عن د/ أحمد جمال العمري : الحديث النبوي والتأريخ / ٢٦٦ .

المبحث الثاني :

الممارسات السلمية للسيدة عائشة في البصرة

خرجت عائشة رضي الله عنها إلى البصرة فلما كانوا على مقربة منها ، كتبتْ إلى رجال من أهلها، من وجوه الناس ، ثم انتظرت الجواب ، فبعث عثمان بن حنيف [١] برسولين إليها ليعلما علمها وعلم من معها ، فأخبرتهم بما عرضنا له عند الحديث عن أسباب الخروج ، فلما عادا رأى أحدهما وهو عمران بن حصين [٢] أن يقعد عثمان ابن حنيف ولا يحرك شيئًا في هذا الأمر، قائلًا : إني قاعد فاقعد [٣] .

لكن عثمان بن حنيف قال : بل أمنعُهم حتى يأتيَ أمير المؤمنين عليّ ، ونادى في الناس وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح ، ولم يكن كل من معه موافقًا له في مواجهة عائشة رضي الله عنها [٤] ، بل إنني أرى أن هذا الموقف من عمران بن حصين رضي الله عنه ، ورغبته في اعتزال الأمر ، بعدما سمع عائشة رضي الله عنها دليل على أنه لو قد ثبت عنده أنه لا حجة لعائشة فيما خرجت له لما اعتزل ، بل لكان واجبًا عليه دينًا أن يتقرب إلى الله بالوقوف في مواجهتها ، وردها إلى الحق ، لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك ، وهو دليل عندي على أنه رأى لموقفها وجهًا قويًا من الحق ، وكان في نفس الوقت يرى وجهًا من الحق في رأي عليّ رضي الله عنه ، فتوقف ، أي أنه – بمعنى آخر – قد اشتبه عليه الأمر بعد الاستماع إلى رأي السيدة عائشة رضي الله عنها فلم يظهر له ترجيح أحد الطرفين ، فاعتزل . ولعله رأى أنه لا خلاف ، ومن ثمّ فلا مدعاة للمواجهة معهم .

جاءت عائشة رضي الله عنها فقامت تخطب في الناس ، بعدما تكلم طلحة والزبير ، وكانت جَهْوَرية يعلو صوتها كثرة ، فذكرتْ عثمان وفضله والبلد وما استحل منه ، ودعت إلى الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حد من حدود الله ، فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين : فرقة قالت : صدقت وبرت وجاءت والله بالمعروف ،

---

(١) سبق التعريف به .

(٢) عمران بن حصين :بن عبيد بن خلف الخزاعي الكعبي ، أسلم عام خيبر ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات ، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها ، وكان من فضلاء الصحابة ، وكان مجاب الدعوة ، ولم يشهد الفتنة ، توفي بالبصرة سنة ٥٢ هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٠٨/٢ ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٢٩٥ ، ابن قتيبة : المعارف ٣٠٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٢٦٩/٤ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ٣/ ١٠٥ .

وقال الآخرون : كذبتم والله ما نعرف ما تقولون ، فتحاثوا وتحاصبوا [١] . فلما رأت عائشة ذلك تركتهم ، ومال بعضهم إليها وبقي الآخرون مع عثمان بن حنيف [٢] . وهكذا كسبت رضي الله عنها أنصارًا جُدُدًا لقضيتها التي خرجت لها .

ولقد كانت مسألة الحرب منهيًّا عنها تمامًا ، وظلت عائشة - رضي الله عنها ، ومن معها - يحاولون إيقافها بكل ما وسعهم من جهد . وعلى الرغم من إنشَاب عثمان بن حنيف ، وحُكَيم بن جبلة للحرب فإن منادي عائشة رضي الله عنها ظل ينادي بالكف عن القتال حتى مع قتلة عثمان رضي الله عنه من أهل البصرة ، غير أن الأمور سارت على نحو آخر :

أقبل حُكَيم بن جبلة [٣] ، بعدما خطبت عائشة رضي الله عنها في أهل البصرة ، فأنشب القتال . وأشرع [٤] أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم وأمسكوا ليُمسكوا ، فلم ينته حكيم ، ومن معه ، ولم يُثنَ ، وظل يقاتلهم ، وأصحاب عائشة رضي الله عنها كافُّون إلا ما دافعوا عن أنفسهم ، وحكيم يذمُر خيله ، ويركبهم بها [٥] .

وعلي الرغم من ذلك ، فإن عائشة رضي الله عنها ظلت حريصة على عدم إنشاب القتال ، فأمرت أصحابها أن يتيامنوا بعيدًا عن المتقاتلين ، وظلوا على ذلك حتى حجز الليل

---

(١) تحاصبوا : تراموا بالحصباء وهي صغار الحجارة . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٤ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٤ .

(٣) حُكَيم بن جبلة العبدي : من قبائل عبد القيس ، من عمان . ذكر سيف بن عمر وهو من أعرف المؤرخين بتاريخ الفتوح أن حكيم بن جبلة كان إذا قفلت الجيوش خنس عنهم ، فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع ، فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ، ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا ، فمنعه من مبارحة البصرة. فلما قدم عبد الله بن سبأ البصرة نزل على حكيم ، واجتمع إليه نفر ، فنفث فيهم سمومه ، ولما رحل ابن سبأ إلى الفسطاط ظل يكاتبهم ويكاتبونه ، ويختلف الرجال بينهم ، فلما زحفوا علي المدينة إلى عثمان كان عدد من خرج منهم من البصرة كعدد من خرج من مصر ، وكان حكيم أميرا على واحدة من الفرق ، وكان ممن حصب أمير المؤمنين عثمان على المنبر ، ولما رحل الثوار عن المدينة في المرة الأولى بعد مناقشتهم لعثمان وسماعهم دفاعه تخلف حكيم والأشتر بالمدينة . وفي ذلك ما يؤكد أنهما كانا وراء الكتاب المزور على أمير المؤمنين عثمان والذي عاد الثوار بسببه ، ولما جاءت عائشة والزبير وطلحة إلى البصرة وأوشكوا أن يتفاهموا مع أمير المؤمنين علي كان حكيم هو الذي أنشب القتال لئلا يتم ذلك . تاريخ الطبري ٤/٤٧٠ . من رواية سيف .

(٤) أشرع نحوه الرمح والسيف : أقبلهما إياه ، وسددهما له .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٦ . ويذمر الخيل : يحضها ، ويشجعها .

بينهم [١] .

حتى إذا كان الصباح جاء عثمان بن حنيف ، فغاداهم [٢] ، وجاء حكيم بن جبلة ، وهو يبربر ، وفي يده الرمح . وفي طريقه إلى حيث عائشة رضي الله عنها ، ومن معها جعل حكيم لا يمر برجل أو امرأة ينكر عليه أن يسب عائشة رضي الله عنها إلا قتله [٣] ، وعندئذ غضبت عبد القيس إلا من كان اغتُمر [٤] منهم ، فقالوا لحكيم : فعلتَ بالأمس ، وعدت لمثل ذلك اليوم ! والله لندعنك حتى يُقيدك الله [٥] ، فرجعوا ، وتركوه . ومضى حكيم بن جبلة فيمن غزا معه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وحصره من نزاع القبائل كلها ، فلقد كانوا قد عرفوا أن لامقام لهم بالبصرة ، فاجتمعوا إليه ، وواقفوا أصحاب عائشة ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا [٦] .

وظل منادي عائشة رضي الله عنها يناديهم ويدعوهم إلى الكفّ فيأبون [٧] . وجعلت رضي الله عنها تقول : « لا تقتلوا إلا من قاتلكم » ، لكن حكيم لم يُرَعْ [٨] للمنادي ، وظل يُسَعِّر القتال ، عندئذ وبعدما تبينت للزبير وطلحة رضي الله عنهما طبيعة هؤلاء الذين يقاتلون ، وأنهم لا يتورعون ، ولا ينتهون عن حرمة ، وأن لهم هدفًا في إنشاب القتال ، قالا : « الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة ، اللهم لا تبق منهم أحدًا ، وأقد منهم اليوم ، فاقتلهم ، فجادُّوهم القتال » ، ونادوا : « من لم يكن من قتلة عثمان رضي الله عنه فليكفف عنا ، فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان ، ولا نبدأ أحدًا » ، فاقتتلوا أشد القتال [٩] ، فلم يفلت من قتلة عثمان رضي الله عنه من أهل البصرة إلا واحد ، وكان منادي الزبير وطلحة قد نادى : ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم [١٠] .

---

(١) المصدر السابق : ٤/ ٤٦٦ . من رواية سيف .

(٢) غاداهم : بكرهم ، أي جاءهم مبكرًا . لسان العرب .

(٣) مرَّ حكيم على رجل من قومه ، فقال له الرجل : من هذا الذي تسبُّ ، وتقول له ما أسمع ، فقال : عائشة، قال : يا ابن الخبيثة ، ألأم المؤمنين تقول هذا ! فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله . ، ثم مرَّ بامرأة ، وهو يسب عائشة رضي الله عنها ، فقالت : من هذا الذي ألجأك إلى هذا ، قال : عائشة ، قالت : يا ابن الخبيثة، أنت أولى بذلك ، فطعنها ، فقتلها .. انظر : تاريخ الطبري : رواية سيف . ٤/ ٤٦٦ ، ٤٧٠ .

(٤) اغتمر في الشيء : اغتمس ، وغمرة كل شيء مُنْهَمكه ، وشدته . والمغمور : المقهور .

(٥) يقيدك الله : القود : القصاص ، وقتل القاتل بالقتيل .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٠ .

(٧) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٦ .

(٨) لم يرع : لم يبال .

(٩) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٠ .

(١٠) المصدر السابق : ٤/ ٤٧٢ .

وتقول رواية أخرى لسيف : إن أول إنشاب القتال كان في ليلة مظلمة باردة ، قصد فيها طلحة والزبير إلى المسجد فوافقا صلاة العشاء ، فأبطأ عثمان بن حنيف – وكانوا يؤخرونها – فقدما غيره فشَهَر الزُّطُّ السَّيابِجَة [١] السلاح ، ثم وضعوه فيهم. حتى إذا كان الصباح أراد حكيم بن جبلة أن يُنشب القتال مرة ثانية ، على ما هو معروف في الرواية الأولى [٢] .

ظل الفريقان يتقاتلان ، حتى إذا مسهم الشر نادوا أصحابَ عائشة إلى الصلح ، وكتبوا بينهم كتابا على أن يبعثوا رسولًا إلى المدينة ، وحتي يرجع الرسول ﷺ فإن كان طلحة والزبير أُكْرِها على البيعة خرج عثمان بن حنيف عن البصرة ، وإن لم يكونا أُكرها خرج طلحة والزبير [٣] . فعاد الرسولُ بأنهما قد أكرها ، فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا ، فأبي لأن عليًّا قد أرسل إليه قائلًا : « والله لقد أكرها على جماعة وفضل » [٤] .

وكان فريق من هؤلاء الجهال والغوغاء – كما قالت عائشة رضي الله عنها – قد غادَوها في بيتها في الغَلَس ليقتلوها ، وكانوا قد ذهبوا حتى سُدَّةَ بيتها ، ومعهم دليل ، إلا أن الله دفع عنها بنفر من المسلمين كانوا قد أحاطوا ببيتها رضي الله عنها ، فدارت عليهم الرحي ، وأطاف بهم المسلمون فقتلوهم [٥] .

وهكذا فإن الذي انتهينا إليه يدحض ما ذهب إليه البعض من أنها حرضت الناس ، وكانت تحثهم على القتال [٦] . ويتأكد لنا تمامًا أنهم ما خرجوا إلا مسالمين ، خرجوا في جمع طوائف المسلمين ، ودعوتهم إلى الحق ، وضم تشردهم حتى لا

---

(١) الزط السيابجة : قوم من السند بالبصرة . لسان العرب . يبدو أنهم كانوا يقومون بعمل الشرط في البصرة . (٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٨ .

(٣) انظر في حقيقة معني الإكراه : تاريخ الطبري ٤/٤٣٤ ، ٤٣٥ ، و انظر نص كتاب الصلح في تاريخ الطبري ٤/٤٦٧ .

(٤) المصدر السابق ٤/٤٦٨ . والواقع أنهما وإن كانا لا يعدلان بعلي بن أبي طالب غيره إلا أنهما حرصًا منهما على سلامة معني « البيعة » وهيبته قد سجلا هذا الأمر ، ولكي لا يكون حجة عليهما في دعوى نكثهما البيعة ونقضها ، ولكي لا تكون سنة عند الحكام يكرهون بها الناس على البيعة ، أو سنة عند الناس ينقضونها إذا ما بايعوا وأُخِذت عليهم المواثيق .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٤ .

(٦) انظر مثلًا : الوكيل : جولة تاريخية : ٤٧ .

يضطربوا فيقتتلوا . وأن القتال لم يحدث لنية فيه من جانبهم كما بدا لنا من صحيح الأخبار ، وإنما فُرض عليهم القتال دفاعًا عن النفس ، ودفاعًا عن أم المؤمنين عائشة ، بعدما أصر حُكَيْم بن جبلة ، ورفاقه ممن ساروا معه إلى عثمان ، على قتالهم .

وحتي قَتْلُهم لقَتَلَةِ عثمان كان أمرًا ساقه الله إليهم ، كما قال طلحة ﷺ ، وكما أوضحت رسائل عائشة إلى أهل الأمصار ، كما سوف نرى .

رسائل السيدة عائشة إلى الأمصار الأخرى

ولقد يؤكد ما ذهبت إليه : أن السيدة عائشة ﵂ كانت حريصة على إيضاح وجه الحق فيما حدث من قتال مع أهل البصرة ، وأنه إنما حدث عن غير تعمد أو تخطيط منها وممن معها من المسلمين . وكل ذلك حتى يتأكد الناس أنها خرجت داعيةً الناسَ إلى القيام في الطلب بدم عثمان ﷺ ، ولإقامة حدود الله ، لا إقامتها بأنفسهم دون ولي الأمر. وهو ما يؤكد تمامًا الهدف الإعلامي من هذا الخروج .

كتبت عائشة ﵂ إلى أهل الشام والكوفة واليمامة وكتبت إلى أهل المدينة أيضًا (١) تخبرهم بما صنعوا وصاروا إليه ، وكان فيما كتبت به لأهل الشام :

« إنا خرجنا لوضع الحرب ، وإقامة كتاب الله ﷻ بإقامة حدوده في الشريف والوضيع ، والكثير والقليل ، حتى يكون الله ﷻ هو الذي يردُّنا عن ذلك . فبايَعَنا خيارُ أهل البصرة ونجباؤهم ، وخالفنا شرارهم ونُزَّاعُهم ، فَرَدُّونا بالسلاح ، وقالوا فيما قالوا : نأخذُ أمَ المؤمنين رهينةً أنْ أمرتْهم بالحق وحثَّتْهم عليه ، فأعطاهم الله ﷻ سنة المسلمين مرة بعد مرة ، حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر ؛ استبسل قتلة عثمان أمير المؤمنين ، فلم يفلت منهم إلا حُرْقُوص بن زهير (٢) والله مقيده . وإنَّا نناشدكم

---

(١) كتبوا مع أهل المدينة كتابًا مع ابن قدامة القشيري ، فدسه إليهم .تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٢ .

(٢) حرقوص بن زهير السعدي ، قال ابن حجر : زعم أبو عمر أنه ذو الخويصرة التميمي ، رأس الخوارج المقتول بالنهروان . وذكر الطبري أن عتبة بن غزوان كتب إلى عمر يستمده فأمده بحرقوص . تاريخ الطبري : ٤/ ٧٦ ، وذكر الهيثم بن عدي أن الخوارج تزعم أن حرقوص كان من أصحاب النبي ﷺ ، وأنه قتل معهم يوم النهروان ، قال : فسألت عن ذلك فلم أجد أحدًا يعرفه . وذكر بعض من جمع المعجزات أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد شهد الحديبية إلا واحد » أورده ابن حجر في فتح الباري ٤٤٣/٧ ، فكان هو حرقوص . فالله أعلم . ابن حجر : الإصابة ٤٤/٢ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٧١٤/١ .

الله سبحانه في أنفسكم إلا ما نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقي الله ﷻ وتلقَونه ، وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا » [١] .

وكتبت إلى أهل الكوفة ، وكتبت إلى رجال بأسمائهم ، وكان مما قالت لهم : « أما بعد : فإني أُذَكِّرُكم الله ﷻ والإسلام ، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، و اتقوا الله ، واعتصموا بحبله ، وكونوا مع كتابه ، فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده ، فأجابنا الصالحون إلى ذلك ، واستقبلنا من لا خير فيهم بالسلاح ، وقالوا : لنُتبِعَنَّكم عثمان ، ليزيدوا الحدود تعطيلًا ، فعاندوا ، وشهدوا علينا بالكفر ، وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] . فأذعن لي بعضهم ، واختلفوا بينهم ، فتركناهم وذلك ، فلم يمنع ذلك من كان منهم على رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي .... [٣] » .

وشرحتْ لهم رضي الله عنها تفاصيل ما كان من الاحتجاج عليهم ببيعة طلحة والزبير، وما اصطلحوا عليه ، ثم ما كان من غدر، ومحاربة بدأ بها أصحاب عثمان بن حنيف ، وحكيم بن جبلة، وما حاولوه من قتلها رضي الله عنها ، وكيف أقاد الله من قتلة عثمان من أهل البصرة ، على غير تخطيط منهم ، وأوضحت لهم العذر كاملًا ، وقالت : « فإذا قاتلنا بثأرنا وسعنا العذر » ، ثم قالت لهم : « الزموا الرضا إلا عن قتلة عثمان بن عفان ، حتى يأخذ الله حقه ، ولا تخاصموا [٤] الخائنين ، ولا تمنعوهم ، ولا ترضوا بِذُوِيٍّ [٥] حدود الله فتكونوا من الظالمين » [٦] .

ويبدو واضحًا أنها رضي الله عنها لم تكن تطلب من أي ممن راسلتهم أن يناصروها ، مناصرةً مسلحةً ، وأقصي ما كانت تطلبه منهم هو أن يلزموا الحياد ، فلا يمنعوا قتلة

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٢ . كانت عائشة رضي الله عنها في ذلك متبعة لما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم، فلقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أن غلامًا قتل غِيلة فقال عمر : لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم ، وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه : « إن أربعة قتلوا صبيًّا فقال عمر مثله » . انظر فتح الباري ١٢/٢٨٠، كتاب الديات باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقبُ أم يقتص منهم كلهم .

(٢) آل عمران : ٢٣ . (٣) تاريخ الطبري ٤/٤٧٣ .

(٤) أَخْصَمَ فلانًا : لَقَّنَه حجته على خصْمِه ليغلبَه . المعجم الوسيط ، لسان العرب .

(٥) ذُوِي : ذبول .

(٦) انظر : تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٢ ، ٤٧٣ . ابن الأثير : الكامل : ٣/ ١١٢ .

عثمان ، ولا يرضوا عنهم ، وأن يثبطوا الناس عن منع هؤلاء القتلة ، أو حمايتهم ، وأن يلزموا هم بيوتهم [١] ، وهذا دليل آخر ينضم إلى ما ذكرنا من وضوح هدفها ورسوخه على النحو الذي لا يتزعزع ، وهو هدف إصلاحي ، لم يلتث بلوثة الحرب أو المقاتلة .

هل أمنت عائشة بالمثلة بعثمان ابن حنيف ؟

إذا كان هذا هو موقف عائشة من مسألة الحرب ، وهو موقف حرصتْ على تأكيده ، وعلى إعلام الأمصار الأخرى به . فما هي الحقيقة في دعوى أمرها بقتل عثمان بن حنيف [٢] ، وهي دعوى طالما استُخْدِمت للطعن على عائشة رضي الله عنها ، وتلويث دورها السياسي النبيل الذي قامت به ؟

سنعرض - إن شاء الله - في الصفحات التالية إلى ما جاء من روايات في هذا الصدد ، لنعلم الحقيقة في موقفها رضي الله عنها من عثمان بن حنيف رضي الله عنه . فلقد روى الطبري عن أبي مخنف ، عن يوسف بن يزيد [٣] ، عن سهل بن سعد [٤] ، قال : « لما أخذوا عثمان بن حنيف أرسلوا أبان بن عثمان بن عفان [٥] إلى عائشة يستشيرونها في أمره ، قالت : اقتلوه ، فقالت لها امرأة : نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : ردوا أبانًا ، فرَدُّوه ، فقالت : احبسوه ولا تقتلوه ، قال : لو علمتُ أنكِ تدعينني لهذا لم أرجع .

فقال لهم مجاشع بن مسعود [٦] : اضربوه وانتفوا شعر لحيته ، فضربوه أربعين

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٣ ، ٤٧٤ . (٢) سبق التعريف به .

(٣) يوسف بن يزيد بن كامل القراطيسي ، أبو يزيد ، مولى بني أمية ، ثقة . مات سنة ٨٧ ، ويقال : عاش مائة سنة . ابن حجر : تقريب التهذيب ٣٤٧/٢ ، وهناك شخصية أخرى هي : يوسف بن يزيد البصري أبو معشر البرّاء العطار ، صدوق ربما أخطأ . ابن حجر : تقريب التهذيب ٣٤٧/٢ . فالله أعلم أيهما هو .

(٤) سبق التعريف به .

(٥) أبان بن عثمان بن عفان ، الأموي المدني ، ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، له أحاديث قليلة ووفادة على عبد الملك ، قال عنه عمرو بن شعيب : ما رأيت أحدًا أعلم بحديث ولا فقه من أبان بن عثمان . قال خليفة : إن أبان توفى سنة خمس ومائة . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٣٥١/٤ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٤٥٠/١ .

(٦) مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي ، صحابي . قال خليفة بن خياط : قتل يوم الجمل قبيل الوقعة ، و عند المدائني وعمر بن شبة أنه قتل في محاربة الزبير رضي الله عنه مع حكيم بن جبلة بسبب عثمان بن حنيف . ابن حجر : الإصابة :٥٧٠/٥ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ٣٧/٢ ، والبخاري : التاريخ الكبير ٢٧/٨ .

سوطًا ، ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه » [١] .

عند النظر في إسناد هذه الرواية نجدها من رواية أبي مخنف ، وهو من عرفنا تشيعًا وحرصًا على رواية ما يخدم مذهبه [٢] . وأما متنها ، فإن ما ذكره أبومخنف من أمر عثمان بن حنيف ، لم يثبت من طريق صحيح يمكن أن يُعَوَّلُ عليه ، وإنما ذكر الطبري في ذلك رواية أخرى عن سيف بن عمر ، وهي رواية عارضت تفصيلات أبي مخنف من كل وجوهها ؛ فهي لم تذكر أمر عائشة بقتل عثمان بن حنيف أو حبسه ، أو الأمر بنتف شعر وجهه .

وليس في رواية سيف ذكر لتلك المرأة المجهولة التي عرفت لعثمان بن حنيف صحبته ، بينما لم تتنبه عائشة رضي الله عنها إلى مكان هذه الصحبة وقدرها - كما زعمت رواية أبي مخنف - ولم تذكر رواية سيف كذلك أبان بن عثمان كرسول بين عائشة وطلحة والزبير ، وإنما أكدت على أن الرسول فيما بينهم كان عبد الرحمن بن عتاب [٣] .

بل إن البحث فيما تيسر لي من مصادر أظهر أنه لا وجود لأي إشارة في كون أبان بن عثمان كان مشاركًا في هذه الأحداث ، كما أنه لم تُذْكَرْ لأبان أية رواية عن عائشة [٤] ، وكانت سِنُّه لا تسمح له بمثل هذه المشاركة في هذه الأحداث ، لأن سنه كان ، كما هو مرجح - حول الخمسة عشر عامًا من عمره [٥] .

والذي يفهم من رواية سيف : أن الغوغاء هم الذين فعلوا ذلك ، وأن طلحة والزبير رضي الله عنهما استشنعاه واستعظماه وبعثا بالخبر إلى عائشة ، فقالت : خَلُّوا سبيله ، وليذهب حيث شاء ولا تحبسوه [٦] . والصحابة الكرام ينزهون عن مثل هذه المثلة القبيحة .

والدليل على زيف رواية أبي مخنف ؛ هو أن الذهبي قد ذكر أن مجاشع بن مسعود ، الذي زعمت الرواية أنه أمر بضرب عثمان ونتف شعر لحيته ورأسه وحاجبيه ، قُتِل قبل دخول دار عثمان بن حنيف [٧] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٨، ٤٦٩ .

(٢) راجع المكتوب في أبي مخنف في المقدمة عن رواة الطبري .

(٣) سبق التعريف به .

(٤) انظر على سبيل المثال : الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١ ، وابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٣٤١ .

(٥) المرجح أن أبانًا ولد حوالي سنة ٢٠ هـ .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٨ .

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام ٣/ ٢٨٩ .

وحتي لو فرض عدم قتل مجاشع بن مسعود فليست إليه القيادة حتى يصدر هذه الأوامر [١] . فتشويه الممارسة السياسية لعائشة والزبير وطلحة في البصرة أمر لا أساس له على أرض الحقيقة ، وإنما خرج من عباءة أبي مخنف الشيعي الغالي كما ذكر العلماء .

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ٢٥٩. وقد اختار رواية سيف : النويري ، وابن كثير . النويري : نهاية الأرب في فنون العرب ٣٨/٢٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٣٣/٧ .

المبحث الثالث :

تجلية حقيقة خروج السيدة عائشة

هل خرجوا ليقيموا الحد على قتلة عثمان ؟

لقد كان ما مر بنا هو الموقف السياسي المسالم للسيدة عائشة ، والذي بذلت فيه غاية الاجتهاد لعدم إنشاب الحرب مع أهل البصرة [١] ، وكان فيهم ومن بينهم من ألب على عثمان ﷺ . وكانت الأحداث في البصرة ، وتفاصيلها هي أكبر دليل على خلوص هدف الخروج من نية المحاربة ، حتى لمن قتلوا عثمان ﷺ ، فإنه حتى المطالبة بتسليم قتلة عثمان لهم ليقيموا عليهم الحدود لم تكن من أهدافهم ، ولا سعوا إليها [٢] . فليس هناك رواية واحدة صحيحة قالت بهذا .

كما أنه ليس من المنطق – في رأيي – أن نظن التطاول في عائشة ، ومن معها ، وأنهم قد خرجوا قائمين بما يلزم الخليفة القيام به كولي لأمر المسلمين ، من الأخذ بثأر عثمان ﷺ ، فما كان ليغيب عنها ومن معها أنَّ هذا أمر لا يكون إلا بعد اجتماع الكلمة ، وبيد ولي أمر المسلمين . وإلا فإنه لا معني لنظر الإمام وتدبيره ، بل إنه لا معني – لو جاز ذلك عند عائشة ومن معها – لوجوب الإمامة ، وانعقادها أصلًا [٣] . وهو ما لا يصح عندي أن يغيب عن عائشة رضي الله عنها ، ومن معها ، فضلًا عن أن تتجاهله ، وتعمل على خلافه .

ولو صح خروجها رضي الله عنها ومن معها في هذا السبيل ، فلقد كان يمكن أن يكون هذا وحده كافيًا لعثمان بن حنيف ، ومن معه ممن رأوا مجابهتها ليحجوها [٤] ، ومن معها بحجة أن إقامة الحدود إنما هي للإمام ، غير أننا لم نجد رواية تذكر أنهم قد تعرضوا لذلك ، أو أخذوه عليها ، أو حجُّوها به رضي الله عنها ، ولو كانت رضي الله عنها ، ومن معها

---

(١) انظر الفصل الذي عقده ابن العربي في العواصم من القواصم : ١٥٥ ، ١٥٦ متسائلًا عن سبب خروجهم إلى البصرة .

(٢) وهو رأى يأتي على العكس مما قال به الأستاذ الوكيل ، من أنهم خرجوا يطلبون تسليم قتلة عثمان ليقيموا عليهم حد الله . الوكيل : جولة تاريخية في عهد الخلفاء الراشدين : ٥٢٨ . ولم يستند في ذلك إلى رواية ، أو دليلَ .

(٣) انظر الماوردي : الأحكام السلطانية : ١٣ ، ٤٤ .

(٤) حَجَّهُ ، يحُجُّه : غلبه على حُجَّته ، الحجة : البرهان ، وقيل : هي ما دوفع به الخصم .

قد خرجوا لذلك لما فات المعارضين لهم أن يحجوهم بهذا [١] ، وهي حجة كانت قمينة بزعزعة الموقف تمامًا .

ولو فعلتْ ذلك لكانت طالبة لهذا الدم بغير حق ، وما كان يخفي على عائشة رضي الله عنها ومن كان معها أنه : « من أبغض أهل المعاصي إلى الله مُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليهريق دمه » [٢] . وهذا يؤكد ما سبق لنا قوله من أن خروج السيدة عائشة رضي الله عنها ، ومن معها كان محاولة اجتهادية منهم لتهيئة الرأي العام ، وحشده للمطالبة بالقصاص من الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وقتلوه ، ثم هيمنوا على المدينة ، وتمردوا على سلطان الخليفة عليّ رضي الله عنه نفسه ، وذلك حين أمر الأعراب بالانصراف عن المدينة ، فأبي السبئية ، وأطاعتهم الأعراب [٣] . وهو الأمر الذي ضاق به صدر كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، كما ضاق به صدر عليٍّ رضي الله عنه أيضًا ، لقد كان فريق عائشة رضي الله عنها يحاول ما استطاع تقصير زمن تعطيل الحدود ، وإقامتها على النحو الذي أمر به الله تعالى .

هل خرجوا لحرب عليّ أو لخلعه ؟

فإذا لم يكونوا قد خرجوا لحرب أهل البصرة ، أو ليقيموا الحدود بأنفسهم على قتلة عثمان رضي الله عنه ، فهل خرجوا لمحاربة عليٍّ رضي الله عنه ، وهو هدف يصح إلى حد بعيد ، إن صحَّ أنهم خرجوا خلعًا له رضي الله عنه ؟ فأما أن يكونوا خرجوا حربًا له رضي الله عنه ، فإن استعراض الأحداث من أولها إلى آخرها يرمي بهذا الاحتمال بعيدًا عن دائرة التفكير السليم ؛ فلقد بذلت عائشة رضي الله عنها وعليٌّ وصالحُ المسلمين جميعًا كل ما وسعهم لتجنب الحرب بين الطرفين .

غير أن الباحث يجد نفسه متوقفًا ، مزيدًا منه في التثبت ، ورغم انتفاء هدف المحاربة ، أمام السؤال نفسه على صورة أخري : هل كان في خروجها رضي الله عنها ، ومن

---

(١) حاول الأستاذ عبد الوهاب النجار أن يرجع عدم محاجتهم لعائشة ، ومن معها ، بهذه الحجة إلى كون عثمان بن حنيف كان على غير ما يجب في أمثاله من الأرب ، وقوة الحجة . الخلفاء الراشدون : ٣٨٩ . وأري أنه لو كان لهذه الحجة مكان من الحقيقة لما فات عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن يحجهم بها ، ولو فاته هذا ، ما فات غيره .

(٢) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ١٢/٢٥٩ كتاب الديات : باب من طلب دم امرئ بغير حق . وقد رواه الزهري : « إن أجرأ الناس على الله » ..

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٣٨ .

معها خروج على عليٍّ ورفض لخلافته ، أو قُلْ : خروج على طاعته ومفارقة للجماعة ؟ ، فربما كان خروجًا سياسيًا ، سلميًا ، يدعون فيه إلى خلعه ﷺ .

أما وقد تأكد عندنا أنه لم تكن عند عائشة رضي الله عنها ، ومن معها ، عزمة على حربه ﷺ ، فما كان يمكن أن نظن أن عائشة والزبير وطلحة قد خرجوا خلعًا لعليٍّ مناهضين له ، ومداجين [١] في إجماع المسلمين عليه ، ومبايعتهم له على الخلافة ، إذ لا يصح عندنا أنه يغيب عنهم ﷺ جميعًا قول رسول الله ﷺ : « من دعا إلى نفسه أو إلى أحد ، وعلي الناس إمام ، فعليه لعنة الله ، فاقتلوه » . وقال عمر : « لا أحل لكم إلا ما قتلتموه ، وأنا شريككم [٢] » . وقوله ﷺ : « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ، ومات فميتته ميتة جاهلية [٣] » . ويعلمون أيضًا قوله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم ؛ فاقتلوه [٤] » . وقوله ﷺ : « من بايع إمامًا ، فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ؛ فليطعه إن استطاع » [٥] .

إنه إذا لم تكن هذه الأحاديث النبوية مانعة لعائشة ، ومن معها من الخروج على عليٍّ ﷺ ؛ فإنها ، بلا ريب مُلْزِمة لعليّ - دينًاوعقيدةً - بمحاربتهم محاربةً جادة ، لو ظن بهم هذا التفريق لأمر المسلمين ، والخروج على طاعة الإمام الذي انتظم به شأن الأمة ، واجتمعت به كلمتهم .

لكنه ﷺ لم يفعل شيئًا من ذلك ، وهو أمر له دلالته على أنه لم ينظر إلى خروجهم إلى البصرة كخلاف سياسيّ يعني أنهم يخلعونه ، أو يفرقون جماعة المسلمين . وإلا فهل نظن أن الصحابة بمجموعهم : الذين مع عليّ ، والذين مع عائشة قد غفلوا عن هذا الحكم الشرعيّ ؟! .

ولقد نقل ابن حجر في فتح الباري عن كتاب أخبار البصرة لعمر بن شبة أن أحدًا لم

---

(١) مداجين : داجي الرجل : ساتره بالعداوة ، وأخفاها عنه ، فكأنه أتاه في الظلمة ، وداجاه أيضًا : داراه .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٦ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي : ٤/ ٥١٦ ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . الصنعاني : سبل السلام ٤٠٧/٣ .

(٤) الصنعاني : سبل السلام ٤١٢/٣ . ورواه مسلم ٤/ ٥١٨ ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع .

(٥) مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإمارة : باب وجوب الوفاء بالبيعة للخليفة الأول فالأول : ٤/ ٥١١

ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًا على الخلافة ، ولا دعوا أحدًا ليولوه الخلافة [١] .

وتأكيد هذا القول بأن عائشة رضي الله عنها ، ومن معها لم يخرجوا إلى البصرة ، حربًا لعلي رضي الله عنه ، أو خلعًا له [٢] ، يتبين في الصفحات المقبلة التي عرضتُ فيها لما حدث قبيل معركة الجمل وفي أثنائها ، ومن بعدها .

تحليل الرواية الصحيحة الموحية بخروجهم رفضًا لخلافة علي رضي الله عنه

لقد كان ما سبق لنا قوله في سبب الخروج ، وهدفه ، وما دل عليه الاستعراض التاريخي للأحداث من بعد ، والتي دلت على محاولات الابتعاد عن أية عمليات حربية ، وما ذكرناه في تحرير هدف الخروج بالتعرض لكل احتمالاته ، كافيًا للرد على هذا السؤال الذي طرحناه آنفًا ، لو كانت ساحة الروايات التاريخية الصحيحة في هذا الأمر خاليةً من القول بما يوحي بأن هذا الخروج كان متلبسًا بشيء من هذه المعاني ، من الخروج ، والخلع ، ومفارقة الجماعة .

ونحن كباحثين في الحقل التاريخيّ ، تحكمنا الرواية ، وتضبط الحركة التفسيرية لآرائنا إلى حدٍّ كبيرٍ ، نجدنا لابد أن نتوقف أمام الرواية الصحيحة التي جاء فيها ما يوحي بأنهم خرجوا رافضين خلافة عليّ رضي الله عنه .

فلقد جاءت رواية في تاريخ الطبري : روى يعقوب بن إبراهيم [٣] عن عبد الله ابن إدريس [٤] عن حصين [٥] عن عمرو بن جأوان [٦] عن الأحنف بن قيس [٧]

(١) ابن العربي : العواصم من القواصم . ١٤٦ هامش .

(٢) من القليلين المحدثين الذين نفوا القول بأن خروج عائشة كان خلعًا لعلي : د. عماد الدين خليل : في التأصيل الإسلامي للتاريخ ٧٤ .

(٣) يعقوب بن إبراهيم : ابن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، أبو يوسف ، المدني ، نزيل بغداد ، ثقة ، فاضل ، مات سنة ٢٠٨ هـ . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١١/٣٨٠ .

(٤) عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي ، أبو محمد ، الكوفي : ثقة في كل شيء ، عابد . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٤٧٧ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب : ١٤٤/٥ .

(٥) حصين بن عبد الرحمن السلمي ، أبو الهذيل ، الكوفي ، الثقة المأمون . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٢٢١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣٨١/٢ .

(٦) عمرو بن جأوان التميمي البصري ، ويقال : عُمر ، بضم العين ، قال ابن حجر في التقريب : مقبول ، وقيل في تهذيب التهذيب : من الثقات . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٧٣٠ ، تهذيب التهذيب ١٢/٨ .

(٧) الأحنف بن قيس : والأحنف لقب له لحنف كان برجله ، واسمه الضحاك وقيل : صخر بن قيس بن =

قال : لقيت طلحة والزبير فقلت : من تأمراني به ، وترضيانه لي ، فإني لا أرى هذا الرجل إلا مقتولًا ؟ قالا : عليّ . قلت : أتأمراني به وترضيانه لي ؟ قالا : نعم . فانطلقتُ حتى قدمت مكة ، فبينا نحن بها إذا أتانا قَتْلُ عثمان ﷺ ، وبها عائشة أم المؤمنين ، فلقيتُها فقلت : من تأمريني أن أبايع ؟ قالت : عليّ ، قلت : تأمرينني به وترضينه لي ؟ قالت : نعم ، فمررت على عليّ بالمدينة ، فبايعته ثم رجعت إلى أهلي بالبصرة ولا أرى الأمر إلا قد استقام .

قال : فبينا أنا كذلك ، إذ أتاني آتٍ ، فقال : هذه عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا ... ، فقلت : ما جاء بهما ؟ قالوا : أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان ﷺ ، فأتاني أفظع أمر أتاني قط ، فقلت : إن خذلني هؤلاء ، ومعهم أم المؤمنين ، وحواري رسول الله ﷺ لشديد ، وإن قتالي رجلًا ابن عم رسول الله ﷺ ، قد أمروني ببيعته لشديد ، فلما أتيتهم ، قالوا : جئنا لنستنصر على دم عثمان ﷺ ، قتل مظلومًا ، فقلت : يا أم المؤمنين ، أنشدك بالله أقلت لكِ من تأمريني به ، فقلتِ عليّ ؟ فقلتُ : أتامرينني به ، وترضينه لي ، قلتِ : نعم ؟ ! . قالت : نعم ، ولكنه بدل .

فقلت : يا زبير ، يا حواري رسول الله ﷺ ، يا طلحة ، أنشدكما الله ، أقلت لكما : ما تأمراني ؟ فقلتما : عليّ ، فقلت : أتأمراني به وترضيانه لي ؟ فقلتما : نعم ؟ قالا : نعم ، ولكنه بدل . فقلت : والله لا أقاتلكم ، ومعكم أم المؤمنين ، وحواري رسول الله ﷺ ، ولا أقاتل رجلًا ابن عم رسول الله ﷺ أمرتموني ببيعته [1] .

هذه الرواية الصحيحة الإسناد كما رأينا [2] ، وإن كانت دليلًا قويًّا على أن

= معاوية التميمي السعدي ، أدرك النبي ﷺ ولم يره ، ودعا له النبي ﷺ فقال : « اللهم اغفر للأحنف » ، وكان الأحنف أحد الحكماء الدهاة العقلاء ، قال فيه عمر بن الخطاب : الأحنف سيد أهل البصرة . فما زال يعلو من يومئذ ، واعتزل الحرب بين علي وعائشة بالجمل ، وشهد صفين مع عليّ ، وبقي إلى إمارة مصعب بن الزبير على العراق ومشي مصعب في جنازته . ابن الأثير : أسد الغابة ١٧٨/١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٩٣/٧ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٩١/١ ، ابن حجر : الإصابة ٣٣١/١ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٢٣٠/١ .

(١) تاريخ الطبري ٤٩٧/٤ ، ٤٩٨ ، وانظر أيضا ٤٣٤/٤ ، ٤٦٢/٤ .

(٢) وتأكيدنا على صحة إسناد هذه الرواية ينضاف إليه ما ذكره المرحوم الدكتور : يوسف العش : الدولة الأموية ٤١ : ٥٧ ، حيث بحث في هذه الرواية من خلال مناظرتها بالروايات الأخرى عند أبي سعيد ، مولي أبي أسيد الساعدي الأنصاري ، ورواية سهم الأزدي ، فتبينت له صحة هذه الرواية .

عائشة وطلحة والزبير ﷺ جميعًا لم يكونوا يرون ، قبيل مقتل عثمان ﷺ أحدًا غير عليّ ﷺ أصلح للخلافة بعد عثمان ﷺ ، بل إن عائشة رضي الله عنها كانت راضيةً عن خلافته ، وداعيةً إلى هذه الخلافة ، وآمرةً بها مَن كان يستأمرها من الناس في أمر الأصلح للخلافة إذا ما أصاب عثمان ﷺ سوء .

إلا أنها كما رأينا قد نسبت إلى عائشة وطلحة والزبير القول بأنه قد بَدَّل بعد خلافته ، وكان هذا سببًا في خروجهم . كما أن قول الأحنف بن قيس لهم : « والله لا أقاتلكم ... » يوحي أيضًا بمعني الخلع ، أو النقض للبيعة المفهوم من مقتضى المقاتلة .

ولقد توقفت أمام معني هذا التبديل طويلًا ، لما فيه من ظلال موحية بأنهم ﷺ قد تغير موقفهم من عليّ إلى القول بأنه قد بدَّل [1] بعد خلافته ، أي أنه لم يقم بالشروط التي بويع عليها ، وكان همي أن أتبين : هل في هذا القول ما يوحي بأنهم - لأجل هذا التبديل الذي ذكروا - قد أصبحت لديهم حجة يخلعون بها عليًا ﷺ ؟ وأن موقفهم تبعًا لذلك يعني أنهم خرجوا خالعين له ، أو ناقضين لبيعته ؟

والرواية - كما لاحظنا - لم تذكر كُنْهَ « التبديل » الذي بدله عليّ ، والذي كانت تعنيه عائشة وطلحة والزبير في الرواية . على أن واقع الحال في الأحداث كلها يشير إلى موقفه من قتلة عثمان ﷺ ، ولو صحت هذه الإشارة ، وهي صحيحة ؛ فإنه حتى ولو صحَّ أن عليًا ﷺ قد قام بهذا التبديل - ولا يصح كما يتبين لنا من فهم الأحداث - فإنه لا يقوم عند العلماء كعلة ومستند يجوز به الخروج على عليّ أو خلعه . وعائشة ، ومن معها أعلم - يقينًا - من العلماء بهذا .

كما أنني لم أجد في الروايات ما يعزز ما توحي به الرواية السابقة من التدليل على هذا الخلع لعليّ ، أو التأليب عليه ﷺ ، بل إنني وجدت في الروايات ما يدفع القول بهذا دفعًا ، فلقد روي سيف عن شيوخه أنه لما جاء رسولا عثمان بن حنيف إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما ، وكانا على مشارف البصرة ، قادمين من مكة ، قالا لهما : ألم تبايعا عليًا ، فقال كل منهما : بلي ، واللُّج [2] على عنقي ، وما أستقيل عليًا ، إن هو

---

(١) بدَّل الشيء : حرفه ، والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله ، وإن لم تأت بِبَدل .

(٢) اللُّجُّ : السيف تشبيهًا بلُجِّ البحر . قال ابن منظور : وفي حديث طلحة بن عبيد [الله] : « إنهم أدخلوني الحَشَّ ، وقَرَّبوا فوضعوا اللُّجَّ على قَفَيَّ » ، قال الأصمعي : اللج اسم يسمى به السيف ، كما قالوا : الصمصامة ، وذو الفقار ، ونحوه ، وفيه شبه بلجة البحر في هوله . لسان العرب .

لم يحل بيننا ، وبين قتلة عثمان [١] . فهذا القول منهما ﷺ ، وهما في البصرة - أي بعدما انعقدت النية تمامًا على الخروج ، وساروا فيه حتى البصرة - دليل واضح على خلوص هدف الخروج من الخلع لعليّ [٢] .

أما ما ذكرته الرواية في قول الأحنف بن قيس : والله لا أقاتلكم ، ومعكم أم المؤمنين ... إلي آخر هذا القول الدال على أنهم قد خرجوا مقاتلين لعليّ ﷺ ، فإن مراجعة المعاني اللغوية للقتال تدعونا إلى فهم هذا القول على غير معني القتال المعروف ، فليس معناها المقاتلة أو المحاربة ، وإنما هي على معني المعاداة ، والمدافعة [٣] . وهذا القول بالتبديل يدخل فيما أشرت إليه قبل - عند تحليل الرواية الصحيحة الموحية بخروجهم على عليّ - من سوء الفهم أو ظن الهوادة في على ﷺ .

الآراء التي رسخت القول بخروجهم على خلافة عليّ

لكن الذي جعل المسألة لما تزل متلَبِّسةً ببعض الغيم في رؤيتها واضحةً : أنه حتى المدققين من علمائنا القدامي قد ذكروا أن بعض الصحابة ومنهم عائشة ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، والزبير ، وابنه عبد الله ، وطلحة ، وابنه محمد ، والنعمان بن بشير [٤] ، ومعاوية بن حُدَيج [٥] ، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة عليّ بالمدينة .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٢ .

(٢) ولقد عرض الإمام ابن العربي لهذا القول بدعوي أنهم قد خلعوه فقال : وأما خلعهم فباطل ؛ لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع ، فيمكن أن يولي واحد ، أو اثنان ، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان . ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٣) وذلك لما ذكره ابن منظور من الحديث : « قاتل الله اليهود » قال : أي قتلهم ، ، وقيل : لعنهم ، وقيل : عاداهم . وفي حديث السقيفة : « قتل الله سعدًا ، فإنه صاحب فتنة ، وشر » أي : دفع الله شره . انظر لسان العرب .

(٤) النعمان بن بشير : سبق التعريف به صفحة ٢٣٥ .

(٥) معاوية بن حُدَيْج : ابن جفنة بن قنبرة بن حارثة بن عبد شمس ، يكني أبا عبد الرحمن . يعد في أهل مصر ، وعندهم حديثه . قال ابن عبد البر : يقولون إنه الذي قتل محمد بن أبي بكر بأمر عمرو بن العاص . قال أبو عمر : كان قد غزا إفريقية ثلاث مرات مفترقات ، وذكر عن عبد الرحمن بن ثمامة المَهري ، قال : دخلنا على عائشة ، فسألتنا : كيف كان أميركم هذا ؟ تعني معاوية بن حُديج ، ، فقالوا : ما نقمنا عليه شيئًا ، وأثنوا عليه خيرًا ، قالوا : إن هلك بعير أخلف عيرًا ، وإن هلك فرس أخلف فرسًا ، وإن أبق خادم أخلف خادمًا . فقالت حينئذ : « اللهم اغفر لي ، إن كنتُ لأبغضه من أجل أنه قتل أخي » ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم من رفق بأمتي فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » . ابن عبد البر : الاستيعاب : ٣/ ٤٦٨ .

وقالوا : إن بيعة عليّ لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد في الأمصار ، ولم يحضر إلا قليل ، ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم ، أو من القليل منهم ، وأن المسلمين حينئذ فوضي ، فيطالِبون أولا بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام . ثم ذكروا إجماع العلماء بعدُ على تعيين الخطأ من جهة أصحاب هذا الرأي ، وخاصة طلحة والزبير لانتقادهما على عليّ بعد البيعة له ، فيما نقل ، مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين ، كالشأن في المجتهدين [١] .

والحقيقة التاريخية - كما مر آنفًا - لم يكن فيها أدني إشارة إلى أن عائشة أو واحدًا من هؤلاء الصحابة قد انتقض على بيعة عليّ أولم يبايعه [٢] ، أو حاول خلعه لأجل ما ذكره ابن خلدون من قولهم بافتراق الصحابة ، أهلِ الحل والعقد بالأمصار ، ولم يختلف رأى الصحابة ، وعلماء الأمصار من بعدهم على انعقاد بيعة عليّ ، ولزومها للمسلمين جميعا [٣] .

ورفض ابن العربي أن يكونوا قد خلعوا عليًا قائلا : « وأما خلعهم لعليّ فباطل ؛ لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع ، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان » ، ثم ذكر قول ابن حجر عن المهلب : « أن أحدًا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًا في الخلافة ، ولا دعوا أحدًا منهم ليولوه الخلافة » [٤] .

وتوالت التحليلات القائمة على غير رواية صحيحة . وإن محاولة استقصائها مما يطول بها المقام ، غير أنني أذكر مثلًا واحدًا هنا مما ذكره الأستاذ العقاد ، فلقد ذهب - مخطئًا - إلى أن عائشة ومن معها قد طالبوا عليًا بالقود من قتلة عثمان ، ولم يبايعوه ، مع أن القود لا يكون إلا من ولي الأمر المعترَف له بإقامة الحدود ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٦١٨/٢ .

(٢) روايات امتناع الصحابة عن بيعة عليّ ﷺ ليست مما يوثق بها من الروايات ، فالروايتان اللتان نقلهما الطبري في تاريخه : ٤/ ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، وذُكِرتْ فيهما أسماء من امتنع عن بيعة على مأخوذتان عن مجهولين ، ثم إنهما جاءتا عند الطبري من طريق عمر بن شبة ، وروايات عمر بن شبة عن الفتنة غير جديرة بالثقة ، كما بينا في المبحث التمهيدي عن رواة الطبري. صفحة ٦٠ .

(٣) النووي في شرحه لصحيح مسلم ٢٤٢/٥ ، كتاب فضائل الصحابة . وانظر : الماوردي : الأحكام السلطانية ١٣ ، ١٤ . انظر في حكم الخروج على الحاكم وشروطه : محمد سعيد البوطي : الجهاد ١٤٧: ١٥٤ ، عارف أبو عيد : السيادة في الإسلام : ١٧٣ وما بعدها .

(٤) ابن حجر : فتح الباري : ٧٠/١٣ ، ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٥ .

وقال : ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له والقصاص من العادين عليه ، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا : يؤيدون ولي الأمر حتى يقوي على إقامة الحدود ، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف ، إلا أنهم طلبوا ما لا يجاب ، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه [1] .

ولو لاحظنا لوجدنا أن الأستاذ العقاد قد بني قوله بأنه ليس من حقهم مطالبة عليّ بالقود على أساس اعتقاده الخاطئ ؛ بأنهم لم تكن عندهم بيعة لعليّ ﷺ ، وهذا غير صحيح ، كما بينا ، وكما سوف نبين الآن .

ولقد يعد الشطر الأول من قوله دليلًا - عندي - على أنهم ما طالبوه بالقود إلا وله في أعناقهم بيعة ، فما كانت هذه البدهية لتغيب عنهم رضوان الله عليهم ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ، فإن الاستعراض التاريخي للروايات الصحيحة لم يكن فيه أدني إشارة إلى أنهم لم يبايعوا ، بل كان الاختلاف في الروايات ما بين : هل بايعوا مكرهين ، أم بايعوا دون إكراه ؟ .

ولقد كنا ذكرنا في المفاوضات بين طلحة والزبير وعليّ ، ما كان من مبايعتهم له ، وذكرنا المناقشة التي دارت بينهم في ضرورة إقامة الحدود على قتلة عثمان ﷺ ، وهو ما يدلل أيضًا على أنهم كانوا يتناقشون معه في الأمر كخليفةٍ ، له في أعناقهم بيعة .

وكل ما في الأمر أن عائشة رضي الله عنها أنكرت هي ومن معها على عليّ بيعة من قتل عثمان وترك القصاص منهم . فلقد كانوا حَسَنِي الظنِ بعليّ فلم يظنوا به المماألأة على قتل عثمان ﷺ ، وإنما ظنوا به الهوادة في ذلك ومن هنا فإنهم لم يخلعوه ، وخرجوا لتحريك الرأي العام عند المسلمين في اتجاه الإسراع بإقامة الحدود إيمانا منهم وفهما لحقيقة المسئولية القائمة على الأمة في إقامة شرع الله . والذي ذكرناه ، وسنذكره - إن شاء الله - في سرد الأحداث يؤكد قولنا هذا ولا يناقضه .

ولم يكن عليّ ﷺ يشك في ذلك كما أنه لم تصح على الناحية المقابلة رواية لعليّ قال فيها بهذا القول . بل إنه لما تعامل معهم في كافة أدوار الأزمة : منذ علم بخروجهم ، ولما خرج في أثرهم ، ولما سعي إلى الصلح معهم ، وما كان من

---

(١) العقاد : عبقرية الإمام : ٩٦ ، ٩٧ .

سيرته مع من قاتل من أهل الجمل ، لم يتعامل معهم كخارجين عليه أو ناقضين للبيعة ، أو غير مبايعين من الأساس ، وهو ما سوف يتضح لنا جليًا في الصفحات التالية .

كل ذلك يأبى على البحث الموضوعي القول بأن عائشة رضي الله عنها ، ومن معها كانوا خارجين على عليّ رضي الله عنه . لقد كان له رضي الله عنه في عنق عائشة وطلحة والزبير ومن معهم رضي الله عنهم بيعة ، بدليل آخر ، هو أنه لم تصح رواية واحدة قالت بخلعهم له أو خروجهم على طاعته .

الروايات المقدوحة الزاعمة أن عائشة وطلحة والزبير كانوا رافضين لخلافة عليّ

لقد يتبين لنا واضحًا أن ما يخالف ما انتهينا إليه - بعد تحرٍّ وتمحيص - لا يكون إلا داخلًا في الروايات المقدوحة ، لكننا حرصًا منا على تجلية الأمر تمامًا ، وإيضاحه على وجه اليقين ، نعاود التوقف أمام هذه الروايات المقدوحة ، الشائعة في الدراسات الخاصة بهذا الموضوع [1] .

فأما تعرضنا لما يخص منها السيدة عائشة رضي الله عنها ، بشكل مباشر ؛ فهو مفهوم ، وأما ما نعرض له مما يخص طلحة ، والزبير رضي الله عنهما ؛ فإنه عند التحقيق يعود فيخص السيدة عائشة رضي الله عنها من ناحية أن القدح في دور أي من الصحابيين الجليلين ينال السيدة عائشة معهما ، فلقد كانت وجهتهم جميعًا واحدة ، وإنه حتى إذا قلنا - جدلًا - إن القدح في دوريهما لا ينالها رضي الله عنها ، فإنه يبقي كدليل على أنه قد تم التغرير بها ، والسير بها في وجهة غير واضحة المعالم ، وهو ما يؤثر في سلامة الحكم ، ويهُز الثقة في قدرتها رضي الله عنها على الفعل السياسي الراشد .

الرواية الأولي عند الطبري عن رفض عائشة رضي الله عنها لخلافة عليّ رضي الله عنه هي الرواية التي عرضنا لها ، وهي ما جاء من قول عائشة : « ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك » ، ولقد عرضنا لها بالتحليل الذي أوضح أنها رواية غير صحيحة .

والرواية الثانية عنده في رفض طلحة لخلافة عليّ رضي الله عنهما ، وهي ما جاء عن عمر بن

---

(١) لقد وجدت أنه من إبراء الذمة أمام الله تعالى أن أعرض لهذه الروايات بالدرس العلمي المتأني ، حيث شاعت هذه الروايات شيوعًا اعتبرت به كما لو كانت أساسًا في فهم الدور السياسي للسيدة عائشة ، وللصحابة جميعًا ، وانبنت عليها أخطاء فكرية وفقهية عديدة .

أبي شبَّة ، عن أبي مخنف ، وفيها أن أنه لما بايع الناس عليًّا ﷺ قال طلحة ﷺ : « ما لنا من هذا الأمر إلا كحِسة أنف الكلب » [١] .

وهي رواية عرض لها أحد الباحثين بالنقد [٢] ، فقال : إن الإمام أحمد قد أخرج المبايعة لعليّ بسند صحيح في « فضائل الصحابة » وبالسند نفسه الذي ساقه أبو مخنف في الرواية التي ذكرناها ، مما يثبت أن الرواية واحدة ، وأن التغيير – أو بالأصح التحريف – طرأ من أبي مخنف ؛ إذ ليس في سند الرواية من اتهم بمثل ما اتهم به . وقارن الباحث بين الروايتين ، وانتهي من المقارنة إلى أن هذه الزيادة المدعاة على طلحة ﷺ : « ما لنا في هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب » لا يوجد لها ذكر عند الأمام أحمد ، وهي من تحريف أبي مخنف ، وهي كلمة منكرة لم ترد عند غير أبي مخنف في إسناد صحيح أو ضعيف .

ولقد ذكر الطبري في رواية كل رجالها ثقات أن محمد بن سيرين قال : إن عليا جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك ، فقال طلحة : أنت أحق ، وأنت أمير المؤمنين ، فابسط يدك ، قال : فبسط عليٌّ يده فبايعه [٣] .

والرواية الثالثة وهي رواية أحمد بن زهير التي جاء فيها أنهم لما تواقفوا ، خرج عليّ على فرسه ، فدعا الزبير ، فتواقفا ، فقال عليّ للزبير : ما جاء بك ؟ قال : أنت ، ولا أراك لهذا الأمر أهلًا ، ولا أولي به منا . وزادت الرواية أن عليًّا ذكَّر الزبير بأن رسول الله ﷺ مرَّ عليهما فقال لعليّ : « ما يقول ابن عمتك ؟ ليُقاتلنك ، وهو لك ظالم » ، فانصرف عنه الزبير [٤] .

هذه الرواية عن أحمد بن زهير ، وقد تحدثنا فيه بما يوضح حال رواياته [٥] . فأما متنها فلا يستقيم هو أيضًا ؛ لأنه هل يعقل أن يكون الزبير وطلحة ﷺ قد تنازلا عن الخلافة كما دلت رواية سيف ، ورواية محمد بن سيرين : ورفضاها ، وأصرا على

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٢٩ ، وهذا التعبير الذي يبدو منكرًا ، يعني أن طلحة والزبير ليس لهما حظ من السلطة في خلافة عليّ .

(٢) يحيي بن إبراهيم بن على اليحيى : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ١٩٣ : ١٩٥.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤ . والرواية عن على بن مسلم ، عن حَبّان بن هلال ، عن جعفر بن سليمان ، عن عوف قال : أما أنا فأشهد أني سمعت محمد بن سيرين يقول : .. إلخ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤ : ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٥) انظر مقدمة الرسالة ، عن رواة الطبري بالمبحث التمهيدي .

عليّ بأن يقبلها هو ، وأقرا عنده أنه أحق بها منهما ، وبايعاه ، ثم يأتيان الآن ليقولا بخلاف ما قالاه ، وهما من هما عدالة ، إن هذا مما لا يعقل ، بلا ريب ، منهجًا ، وعقيدة ، كما لا يلائم المعروف من سجاياهما ﷺ .

وما جاء في هذه الرواية من الخبر عن رسول الله ﷺ ، وتنبؤه بأن الزبير يقاتل عليًا ، وهو له ظالم ، خبر غير صحيح ؛ فلقد ذكر ابن كثير ما يماثله ، وقال : وهو ضعيف ، وأورده البيهقي ، وقال : « وهذا غريب » [١] .

وبهذا التحليل يتأكد لنا أن عائشة ﷺ ، ومن معها لم يكونوا رافضين لخلافة عليّ ﷺ ، ولم يخرجوا إلى البصرة لمحاربته .

علي أننا رغم كل ذلك لا نستطيع المضي قدمًا مع هذا التحليل والتوضيح ؛ لأننا ينبغي أن نفهم لماذا خرج عليٌ في أثرهم إذا لم يكن يرى في خروجهم خلعًا له ، وخروجًا على الجماعة ، وهما السببان القويان اللذان كانا يمنحانه التعليل الواضح من الناحية الشرعية في أن يخرج لهم ؟ .

لماذا خرج علي في أثرهم ؟

إن الذي لبس الأمر- في رأيي - هو خروج عليّ بن أبي طالب في أثرهم . ثمة خطأ واضح قد حدث هنا ولا شك . فإنه إذا لم تكن عائشة ، ومن معها قد خرجوا خالعين لعليّ ﷺ ، فلماذا لم يحدث التنسيق بينهم قبل الخروج ، ولماذا لم يخبروا عليًا بما انتووا عليه ، خاصة ، وأنهم لم ينتووا خلعه ، ولا التأليب عليه ؟ .

وإنما أرسلت أم الفضل بنت الحارث [٢] إلى عليّ ﷺ تخبره بأمر الخروج ، فلقد استأجرت ﷺ رجلًا على أن يطويَ ويأتي عليًا بكتابها ، فقدم على عليّ بكتاب أم الفضل بخبر خروج الناس إلى البصرة [٣] .

لقد كان عدم إعلامهم لعليّ خطأً ، لا ريب ، سنعاود التوقف معه لاحقًا . وهو خطأ ترتب عليه خطأ آخر هو خروج عليّ ﷺ بنفسه في إثرهم . ولعله ﷺ لم يكن

---

(١) انظر : ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٥٣ .

(٢) سبق التعريف بها .

(٣) كانت الرواية التي ذكرت أمر أم الفضل سلبية فيما يتصل بالتوجه السياسي لأم الفضل بنت الحارث . وهي ليست حاسمة في التعبير عن مدي دلالة هذا التصرف منها على ما إذا كانت تري رأى عائشة ، أو تري رأى على ﷺ . ولعلها على كل حال رأت أنه من الصواب أن يكون الخليفة عالماً بما يجري في مكة من أمور .

مصيبًا في هذا الخروج في إثرهم ، فهو خروج ضخّم الأمر ، وأعطاه غير صورته الحقيقية ، بل وحوله إلى خلاف بين عائشة ومن معها ، وبين عليّ ﷺ ومن معه ، وما كان كذلك .

والذي يبدو لي أن ثمة سوء جفوة قد حدثت بين الفريقين نتيجة سوء فهم ، أو قل حالة من اليأس الضاغط أن تقام الحدود قد حدثت من جانب عائشة ومن معها ، وهو ما جعل عليًا ﷺ يقول : « ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سَخَطِ إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح » [١] . وسوء الفهم هذا هو أيضًا ما جعل عائشة وطلحة والزبير يظنون أن عليًا قد بدل في موقفه [٢] ، وهو ما جعلهم - في رأيي - يخرجون دون إعلام على بهذا الخروج ، وبالهدف منه على وجه الدقة .

ولا شك أنه من العوامل التي ساعدت على وجود هذه الجفوة ، أو سوء الظن أن أمير المؤمنين عليًا كان يتخذ قراره بدون الرجوع إلى أصحاب السبق والمكانة من كبار الصحابة [٣] ، ومن ذلك قراره بتأجيل القصاص لعثمان حتى تستقر الأمور ، وتهدأ الفتنة ، حيث اتخذ هذا القرار غير المعلن قبل أن يناقش الأمر مع كبار الصحابة ، وتمسك به قبل أن يتيح لهم الفرصة لعرض وجهة نظرهم ، وبدون أن يشترك معهم في حوار فقهي يمكن في ضوئه إقرار حقيقة التهمة الموجهة إلى أولئك المتهمين بقتل عثمان ، والبينة الشرعية لإثبات هذه التهمة [٤] ، هذا بينما كان ﷺ سريعا في المبادرة بعزل عمال عثمان ﷺ عن الأمصار ، رغم نصح ابن عباس ﷺ ، والمغيرة بن شعبة ﷺ ، وغيرهما له بأن لا يفعل .

ولم يقبل على ﷺ ما نصحه به كل من ابن عمه عبد الله بن عباس ، وابنه الحسن بن على ، ليجلس في بيته ، حتى يصطلح الناس ، فقال له الحسن : « أمرتك فعصيتني ، أمرتك حين فعل هذان الرجلان [يعني طلحة والزبير] ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد ؛ كان على يدي غيرك » [٥] .

(١) تاريخ الطبري : ٤/٤٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ٤/٤٩٨ من رواية يعقوب بن إبراهيم .

(٣) تكرر مثل هذا منه ﷺ في أمر الخروج لملاقاة معاوية ﷺ ، وهو قرار كان يخالفه فيه كبار الصحابة ، وعلي رأسهم عبد الله بن عباس ، وابنه الحسن بن علي ﷺ .

(٤) د/ فهمي عبد الجليل : عصر الخلفاء الراشدين : ٢٣٧ .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٦ .

لكن عليًّا ﷺ لم يكن بذاك الرجل الذي يجلس في بيته عن هذا ، وكان يرى أن هذا الخروج مما يلزمه كولي لأمر المسلمين . وكان للجيوب السبئية الملتصقة بعليٍّ ﷺ وبجيشه أشد الأثر في تحول الأحداث على النحو المؤلم الذي انتهت إليه ، كما سوف نري ، حيث كانت وشاياتهم ، وما اختلقوه من أقوال يفسدون بها بين علي ﷺ ، وبين أصحاب عائشة رضي الله عنها ليضمنوا استمرار الفتنة ، واستمرار دورهم الخبيث (١) .

على أن ما كان يهدف إليه عليّ ﷺ من هذا الخروج هو إدراك طلحة والزبير ، ليحول بينهم وبين الخروج (٢) ، كان ﷺ حسن النية ، شديد التقدير لألم الخارجين إلى البصرة ، وضيقهم مما واجه الجماعة المسلمة قبل مقتل عثمان ، وفي مقتله ، ومن بعد مقتله من تعدٍ على حدود الله ، ولهذا فلقد كان موقنًا من صدق وجهتهم ، وكان نبيل الهدف ، فيما خرج له في البصرة ، حيث كان حريصًا على أن يؤكد «إن الذي ننويه هو الإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ... فإن لم يجيبوا ندعهم بعذرهم ، ونعطيهم الحق ونصبر ... ، فإن لم يرضوا ندعهم ما تركونا ، فإن لم يتركونا امتنعنا منهم (٣) » . وقال علي ﷺ : إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم في المقام فينا مَؤُونَةٌ ولا إكراه (٤) ، وخرج ﷺ يبادرهم في تعبيته التي كان تعبي بها إلى الشام لملاقاة معاوية ، وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق ، فاستبان له بالطريق أنهم قد فاتوه (٥) .

ومع ذلك فإننا نري أنه ﷺ لم يحسن تقدير النتائج التي يمكن أن تحدث من وراء هذا الخروج ، الذي كان احتمال المواجهة المسلحة يبدو فيه قويًّا ، خاصة وأن أغلب جيشه الذي خرج به من المدينة كان مكونًا من هؤلاء الغوغاء ، أهل الأمصار الذين

---

(١) تأمل ما ذكره على نفسه بعد الجمل من أن هناك من كان يزعم له أنه لم يخرج مع طلحة ، والزبير ، وعائشة إلا الغوغاء ، والسفهاء . سيف بن عمر : الجمل ، ومسير عائشة : ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٥ ، ٤٧٧ . تقول الرواية : « خرج يبادر ، وهو يرجو أن يدركهم ويردهم » .

(٣) المصدر السابق ، عن سيف : ٤/ ٤٧٩ . وهو ما يقدح فيما ذهب إليه اليعقوبي : ٢/ ١٨٢ ، والبلاذري : أنساب الأشراف : ٢/ ١٣٨ ، وصاحب الإمامة والسياسة : ١/ ٥٨ ، وغيرهم من أن عليًّا ﷺ قد خرج محاربًا لهم لنكثهم البيعة ، وقطعهم لنظام المسلمين .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/٤٤٦ .

(٥) المصدر السابق : ٤/ ٤٥٥ ، ٤٧٧ . من رواية سيف .

ساروا إلى المدينة لقتل عثمان ﷺ[١] ، وهم الذين خبر عليٌّ نفسه قلة طاعتهم ، وصعوبة انقيادهم ، وتمردهم على سلطة الخلفاء ، معه [٢] ، ومع من قبله.

وظني أنه ﷺ كان بهذا الخروج يحاول أن يُخرج السبئيين بعيدًا عن أهل المدينة الذين فعل عثمان ﷺ بنفسه ما فعل مُؤثرًا ذلك على ألا تراق قطرة دم من أهلها ، حيث دار الهجرة والنصرة ، وجيران رسول الله ﷺ [٣] ، ولأجلهم كان توقف عليّ ﷺ في إقامة الحدود ؛ لأن السبئيين كانوا في أرجاء المدينة يتحكمون في مجريات الأمور . ولقد يقوي هذا الظن عندي أن عليًّا ﷺ لما كان على وشك دخول البصرة بين يدي الصلح مع طلحة والزبير وعائشة ، نادى في الناس : « ألا يرتحلن غدًا أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس [٤] » .

هل كان عليّ يراهم خارجين عليه ؟

وعلي الرغم من خروجه ﷺ في إثرهم ، فإنه لم يكن يراهم خارجين على الأمة ، أو مداجين في إجماع المسلمين ، أو ناكثين للبيعة التي بايعوها ، فلقد كان أول تعليق له ﷺ على خروجهم قوله : إن الله ﷻ جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاةَ ، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل . ثم قال : وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني منهم [٥] .

وكان ﷺ لما عرض عليه رجال من طيئ ، وبكر بن وائل ، حين مرَّ بديارهم أن يخرجوا معه يشكر لهم ذلك ، ويطلب منهم أن يلزموا قرارهم [٦] . ويتضح هذا لنا أيضًا فيما ذكره ابنٌ لرفاعة بن رافع [٧] ، عن عليٍّ ﷺ لما أراد الخروج من الربذة إلى

(١) المصدر السابق : ٤/ ٤٧٧ . من رواية سيف بن عمر ، وقد ذكر أيضًا أنهم كانوا سبعمائة رجل من الكوفيين ، والبصريين ، الذين كانوا جاءوا لعثمان ﷺ . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٥ . وتثاقل أهل المدينة عن الخروج معه في هذا الوجه : تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦٠ ، وانظر : الأستاذ : عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٣٨٠ .

(٢) تأمل على سبيل المثال ما كان منهم بعد الجمل من الرحيل بغير إذنه ﷺ ، وإعجالهم له عن المقام ، حتى اضطروه إلى الارتحال في آثارهم ليقطع عليهم أمرًا ، إن كانوا أرادوه . سيف بن عمر : الجمل ، ومسير عائشة : ٣٦٧ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٥ .

(٤) المصدر السابق : ٤/٤٩٣ .

(٥) المصدر السابق : ٤/ ٤٥٥ . من رواية سيف .

(٦) المصدر السابق : ٤/ ٤٨٠ ، ٤٨١ . من رواية سيف .

(٧) رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري الخزرجي الزرقي ، وأمه أم مالك بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، شهد العقبة وبدرا ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وشهد الجمل وصفين مع عليّ . ابن الأثير : أسد الغابة : ٢/ ٢٧٩ .

البصرة ، سأله : يا أمير المؤمنين أيَّ شيء تريد ، وإلي أين تذهب بنا ؟ فقال : أما الذي نريد وننوي فالإصلاح ، إن قبلوا منا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندَعُهم بعذرهم ، ونعطيهم الحق ونصبر ، قال : فإن لم يرْضَوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، قال : فنعم إذًا [١] .

بل إنه ﷺ كان يعلن لأنصاره في خروجه ، وفي وضوح تام ، أن عائشة وأصحابها كانوا أصحاب حجة وعذر فيما خرجوا إليه ؛ فلقد سأله أحد أصحابه : « هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا يريدون الله في ذلك ؟ فقال : نعم . قال : فهل لك حجة في تأخير ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدًا ؟ قال : إني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقى قله لله إلا أدخله الله الجنة [٢] .

وهو قول يدل على أن عليًّا كان يفهم المسألة كخلاف سياسي في الرأي ، وهو حق ما كان عليّ في فضله ينكره على أصحابه . ولم يكن في هذا القول ما يعبر عن اعتبار خروج أم المؤمنين عائشة ﵂ ومن معها خروجًا على الخليفة ، ومفارقةً لطاعته .

وكان الصحابة الذين خرجوا معه لا يفهمون المسألة إلا على هذا الوجه ، ولا يقبلون من عليّ غير ذلك ، وهو ما دل عليه ما روي من أنه لما قال عليٌّ ما قال ، قام الحجاج بن غزيّة الأنصاري [٣] فقال : « لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول [٤] » ، وحتي عمار ﷺ رغم حماسه في الوقوف إلى جنب عليّ ﷺ ، لما انتهت المعركة ، قال لعليّ : كيف تقول في أبناء من قتلناه ؟ قال : لا سبيل عليهم . قال : لو قلت غير ذلك خالفناك [٥] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٩ . من رواية سيف .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٩٦ ، من رواية سيف ، وراجع الرواية الأخرى في نفس المعني عن مالك بن حبيب ، وفيها : « فإن ابتلينا فما بال قتلانا وقتلاهم ؟ » قال : « من أراد الله ﷻ نفعه ذلك ، وكان نجاءه » . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٩٦ . وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ٢٥٠ .

(٣) الحجاج بن عمرو بن غزية الأنصاري الخزرجي النجاري ، قال البخاري : له صحبة ، شهد صفين مع علي ، وهو الذي كان يقول عند القتال : يا معشر الأنصار ، أتريدون أن نقول لربنا إذا لقيناه : إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ؟ ابن الأثير : أسد الغابة ١/٦٩٢ ، ابن حجر : الإصابة ١/٣٠ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ١/٣٨٧ ، ابن حجر : تقريب التهذيب ١/١٥٣ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥/٢٦٧ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/٤٧٩ .

(٥) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق : ١٨/ ٢٢٦ .

وعندما بعث عليٌ إلى أهل الكوفة كان هدفه كما قال : ليشهدوا معه إخوانه من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما يريد ، وإن يلجُّوا داواهم بالرفق ، وبايَنَهَم حتى يبدؤوه بظلم ، وقال : لن ندع أمرا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه فساد إن شاء الله[1] . هذا وبقية الأحداث التي نوردها إن شاء الله في الصفحات المقبلات ستزيد هذا الأمر إيضاحًا ، وتأكيدًا .

محاولات الإمام عليّ للإصلاح في البصرة

ولما نزل عليّ ﷺ على مقربة من البصرة ، دعا القعقاع بن عمرو[2] ﷺ فأرسله إلى عائشة وطلحة والزبير ﷺ ، فبدأ بعائشة رضي الله عنها ، وابتداؤه بها دليل على عظيم خطرها في هذا الخروج ، فسلم عليها ، وقال : أيْ أمَّهْ ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بُنَيَّ ، إصلاح بين الناس ، قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال : ما تقولان ، أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ، فو الله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح . قالا : قتلة عثمان ﷺ ؛ فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياءً للقرآن .

فقال : قد قتلتما قَتَلَةَ عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلًا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفْلَتَ - يعني حرقوص بن زهير - فمنعه ستة آلاف وهم على رِجْل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم فأُديلوا عليكم ، فالذي حذرتم أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرةً لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول : هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختُلِجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ، ودَرَك بثأر هذا

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٨٨/٤ .

(٢) القعقاع بن عمرو التميمي ، كان من الشجعان الفرسان ، قيل : كان أبو بكر الصديق يقول : لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل ، وقال لخالد بن الوليد عنه : لا يهزم جيش فيه مثله ، وله في قتال الفرس بالقادسية وغيرها بلاء عظيم . ابن حجر : الإصابة ٣٤٢/٥ : ٣٤٤ .

الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة .. إن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجلَ ولا النفر الرجلَ ، ولا القبيلة الرجل . فقالوا : نعم ، فرجع إلى عليّ ﷺ ، وأشرف القوم على الصلح [١] .

بشائر الاتفاق بين الفريقين

وأقبلت وفود البصرة نحو عليّ حين نزل بذي قار ، قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأْيُ إخوانهم من أهل الكوفة وعلي أي حال نهضوا إليهم ، وليُعْلِموهم أن الذي عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم قتال على بال [٢] . وهنا اطمأنت نفس عليّ ﷺ بذلك ، وبما رأى من وفود البصرة .

فلما عاد القعقاع وأخبره بما فعل ، أرسل علي ﷺ رسولين [٣] إلى عائشة والزبير ومن معهم يستوثق فيه مما جاء به القعقاع بن عمرو ، فجاءا عليًّا « بأنَّا على ما فارقنا عليه القعقاع ، فأقدم » ، فارتحل عليّ حتى نزل بحيالهم ، فنزلت القبائل إلى قبائلهم : مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، وهم لا يَشُكُّون في الصلح ، فكان بعضهم بحيال بعض ، وبعضهم يخرج إلى بعض ، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح [٤] .

قام ﷺ فحمد الله ﷻ وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الذي يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذي جره على الأمة أقوامٌ طلبوا الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ومصيب ما أراد .

وكان علي ﷺ لما نوي الرحيل قد أعلن قراره الخطير : « ألا وإني راحل غدًا فارتحلوا – يقصد إلى البصرة – ألا ولا يرتحلن غدًا أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس [٥] » .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٨٨ ، ٤٨٩ . من رواية سيف .

(٢) المصدر السابق : ٤/٤٨٨ ، ٤٨٩ .

(٣) كان الرسولان هما : حكيم بن سلامة ، ومالك بن حبيب . الطبري : ٤/ ٥٠٥ ، من رواية سيف .

(٤) كان طلحة والزبير قد نزلا بالناس من الزابوقة ، في موضع قرية الأرزاق ، فنزلت مضر جميعًا ، ونزلت ربيعة فوقهم جميعًا ، ونزلت اليمن جميعًا أسفل منهم ، وهم لا يشكون في الصلح ، وعائشة في الحدّان ، والناس في الزابوقة وهم ثلاثون ألفًا ...وخرج أمير المؤمنين عليّ فيمن معه ، وهم عشرون ألفًا . تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٥ ، من رواية سيف .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/٤٩٤ .

وكأني بعليٍّ ﷺ كان يريد أن يثبت لعائشة وطلحة والزبير عزمه على الإصلاح بعدما رأى من وفود أهل البصرة ، وما رجع به القعقاع والرسولان من بعده من عندهم ، بدليل أنه ﷺ لم يطلب هذا الطلب بمفارقة من أعان على قتل عثمان له منذ خرج من المدينة ، وإنما فعله هاهنا بين يدي الصلح مع عائشة ومن معها ، وكان ﷺ قد بعث إلى رؤساء أصحابه ليتشاور معهم في الصلح ، ولم يبعث إلى أحد هضَّ عثمان [1] ﷺ .

وكانت هذه هي المرة الثانية منذ خلافته والتي طلب فيها هذا الطلب ، وكأني به قد وجد في اتفاق المسلمين ، واتفاق الكوفيين والبصريين قوة على أمره ، مع ذهاب خوفه على أهل المدينة من تحكم هؤلاء الغوغاء ، فاتخذ قراره ، وهنا كانت الطامة الكبرى .

---

(١) المصدر السابق : ٥٠٦/٤ .

المبحث الرابع :

وقعة الجمل

السبئية تعيد الفتنة من جديد

عندئذ اجتمع نفر ممن سار إلى عثمان ﷺ ، وممن رضي بسير من سار إليه ، وكان فيهم ابن السوداء ، وتشاوروا فقالوا : ما الرأي ، وهذا والله عليّ ، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول (يشيرون إلى خطبته السابقة ، وطلبه مفارقة من أعان على عثمان بشيء) ولم ينفر إليه إلا هم والقليلُ من غيرهم ، فكيف به إذا شامَّ القوم وشامُّوه[١] ، وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم . وقام الأشتر [٢] فقال : « .. أما عليّ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم ، ورأيُ الناس فينا والله واحد . وإن يصطلحوا فعلي دمائنا ، فهلموا فلنتواثب على عليّ فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يُرضَي منا فيها بالسكون » [٣] .

وجعلوا يترادُّون الرأي حتى قال لهم ابن سبأ : « إن عزكم في خُلْطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقي الناس غدًا فأنشبوا القتال ، ولا تُفرِّغُوهم للنظر ، فإذا مَن أنتم معه لا يجد بدًّا من أن يمتنع ، ويشغل الله عليًا وطلحة والزبير ، ومن رأى رأيهم عما تكرهون . وتفرقوا والناس لا يشعرون » [٤] .

وكان عليّ قد بعث من العشي عبدَ الله بن عباس إلى طلحة والزبير ، وبعثا هما من العشي محمد بن طلحة إلى عليّ ، فباتوا على الصلح ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة ، وغدوا مع الغَلَس ، وما يشعر بهم أحد ، فانسلوا انسلالًا ، فوضعوا السلاح في المسلمين من الفريقين [٥] .

ومن هول المفاجأة ظن كل من الفريقين بصاحبه السوء ، والسبئيةُ لا تفتر إنشابًا ، فجاء كعب بن سور [٦] إلى عائشة مستغيثًا : أدركي فقد أبي القوم إلا القتال ، لعل

---

(١) شامّ : شام مخايل الشيء ، تتطلع نحوها ببصره منتظرا لها .

(٢) سبق التعريف به . (٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٩٥ .

(٤) المصدر السابق : ٤/ ٤٩٤ .

(٥) وهذا القول ينقض ما ذهبت إليه الرواية المقدوحة لأحمد بن زهير ، والتي جاء فيها أن الفريقان كانا قد تواقفا للقتال . تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٨ . (٦) سبق التعريف به .

الله أن يصلح بك . فركبتْ ، وألبسوا هودجها الأدراع ، ثم بعثوا جملها [١] .

وفي حومة المعركة حاولت عائشة رضي الله عنها - كما حاول عليّ والزبير وطلحة والصحابة جميعًا - أن توقف المعركة ، فقالت : خلِّ يا كعب عن البعير ، وتقدمْ بكتاب الله عز وجل فادْعُهم إليه ، ودفعتْ إليه مصحفًا ، لكن أتراهم يستجيبون للمصحف ، لو كان عندهم بقية خير ما أنشبوا الحرب أصلًا .

لقد اشتد خوف السبئية من أن يجري الصلح بين الناس ، فبينما كان كعب يستقبلهم بالمصحف ، وعليّ من خلفهم يَزَعُهم [٢] ، كانوا هم لا ينتهون ، ويأبون إلا إقدامًا ، حتى رشقوا كعبًا رضي الله عنه رشقًا واحدًا فقتلوه ، ورموا عائشة في هودجها ، فجعلت تنادي : يا بَنِيَّ البقيةَ البقيةَ [٣] ، ويعلو صوتها كثرة : الله الله اذكروا الله عز وجل والحساب ، فيأبون [٤] . وكان يبدو واضحًا أنهم كانوا يتعمدون ضرب عائشة رضي الله عنها ، والنيل منها .

مع ذلك فقد كانت تحرص الحرص كله على أن لا تبدأ بحرب أو مقاتلة ، فلقد كانت نيتها واضحة ، وهدفها أبلج ، حتى في الوقت الذي قد يتحكم فيه الغضب في الإنسان ، وربما يحس بقسوة الغدر ، والمباغتة بإنشاب القتال ، ولم تكن الأمور قد وضحت على النحو الذي يفهمون منه أن ما حدث كان من فعل السبئية ، لا من فعل عليّ وأصحابه ، ففي حومة المعركة ، وبينما الناس يشتدون عليها ، وعلي من معها ، ناداها محمد بن طلحة السجاد [٥] قائلًا : « يا أمتاه ، مريني بأمرك ، فقالت له : آمرك أن تكون خير ابني آدم إن تركت » ، فجعل لا يحمل على أحد إلا إذا حمل عليه [٦] . إنها أم المؤمنين الورعة التقية في كل حال وموقف .

كانت السبئية في مقدمة جيش عليّ رضي الله عنه فلم يكن لمن مع السيدة عائشة بدٌّ من

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٩ .
(٢) يزعهم : يكفهم ويصرفهم .
(٣) البقية : ما بقي من الشيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ . قال الزجاج : معناه الحال التي تبقي لكم من الخير خير لكم ، وقيل معناه : طاعة الله خير لكم ، وقال الفراء : يا قوم ، ما أُبقي لكم من الحلال خير لكم ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قيل معناه : كل عمل صالح يبقي ثوابه . ابن منظور : لسان العرب .
(٤) تاريخ الطبري : ٥٢٧/٤ .
(٥) محمد بن طلحة : الملقب بالسجاد لعبادته وتألهه . ولد في حياة النبي ﷺ ، قتل شابا يوم الجمل ، لم يزل به أبوه حتى صار معه . وأمه هي حمنة بنت جحش ، أخت أم المؤمنين زينب . الفاسي : العقد الثمين ٣٦/٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤٣/١ ، الزبيري : نسب قريش ٢٨١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٦٨/٤ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب .١٣٨.
(٦) سيف بن عمر : الجمل ، ومسير عائشة : ٣٣٥ ، ابن الأثير : الكامل : ٣/ ١٣٦ .

المقاتلة . فجعلت تقول : أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعوا ، وضج أهل البصرة بالدعاء ، فجعل عليّ ﷺ يدعو بما تدعو به عائشة رضي الله عنها [١] .

لقد تنبهتْ رضي الله عنها إلى أن هؤلاء الذين لا يتوقفون عن الغي ليسوا إلا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأنهم ليسوا منتهين ، فما كان معها إلا سلاح الدعاء عليهم .

وهو تنبهٌ ينبئ عن حضور ذهني واضح في هذه اللحظة العصيبة ، ولقد أكد ذلك أنهم لما سمعوا دعاءها اشتد إصرارهم على قصدها رضي الله عنها ، وهو ما يؤكده أن المعركة كلها صارت في اتجاه الجمل ، جمل عائشة رضي الله عنها ، حتى صار الهودج كالقنفذ من كثرة ما رشق فيه من النبال [٢] ، لقد كانوا يريدون قتل عائشة رضي الله عنها ليطمئنوا إلى أنه لن يسعي في طلبهم بعدها أحد في قوتها ، خاصة وقد قتل طلحة والزبير رضي الله عنهما .

ولقد استماتوا في ذلك ، فما تركوا فرصة للفريقين يتبينون فيها ما يحدث ، وكان هذا هو التخطيط الذي خطط لهم ابن السوداء ، حيث قال : « لا تُفَرِّغوهم للنظر » .

إنها حالة المطلوب الذي أحس أنه يوشك أن يؤخذ ، فلم يجد أمامه إلا أن يطوح يمنة ويسرةً فيمن حوله غير مهموم إلا بنفسه خاصة ، وأنه على يقين بأن المسلمين لن يضيعوا حدود الله ، أو يتهاونوا فيها . واستمرت المعركة حتى المساء ، فلما أمسوا تقدم عليّ ﷺ ، وأُحيط بالجمل ، وعندئذ كفَّ بعض الناس عن بعض [٣] .

الروايات التي زعمت حرص السيدة عائشة على القتال

وعلي الرغم من هذه الروايات الصحيحة في مواقف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومحاولاتها إيقاف الحرب بكل ما أمكنها من وسيلة ، فإنه جاء عند الطبري ، عن عمر بن شبة [٤] ، عن أبي الحسن المدائني [٥] ، عن الحجاج بن أرطأة [٦] ، عن عمار بن معاوية

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٥١٣ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٤٣ .
(٣) تاريخ الطبري : ٥٢٧/٤ .
(٤) راجع الحديث عنه في رواة الطبري بالمبحث التمهيدي . صفحة ٦٠ .
(٥) المدائني : هو العلامة الصادق على بن محمد بن عبد الله ، أبو الحسن ، راوية ، مؤرخ ، كثير التصانيف ، من أهل البصرة ، ولد سنة ١٣٢ ، وتوفى سنة ٢٢٥ . وكان مصدقًا فيما ينقله ، عالي الإسناد ، موثقًا من أئمة علماء الجرح والتعديل . قال عنه يحيي بن معين : « ثقة ثقة ثقة » . وقال ابن عدي : « ليس بالقوي في الحديث » ، وقال الطبري : كان عالما بأيام الناس صدوقا في ذلك . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٠٠/١٠ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ١٥٣/٣ ، ابن حجر : لسان الميزان ٢٥٤/٤ .
(٦) الحجاج بن أرطأة النخعي ، الكوفي ، سمع عطاء ، وروى عنه الثوري ، وشعبة . لكن ابن المبارك =

الدُّهني [١] ، قال : أخذ عليٌّ مصحفًا يوم الجمل ، فطاف به في أصحابه ، وقال : من يأخذ هذا المصحف ، يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول ؟ ، فقام إليه فتي من أهل الكوفة عليه قَباء [٢] أبيض محشوّ ، فقال : أنا ، فأعرض عنه ، ثم كرر مقالته ، والفتي نفسه يجيبه حتى لما كانت الثالثة دفعه إليه ، فدعاهم ، فقطعوا يده اليمني ، فأخذه بيده اليسري ، فدعاهم ، فقطعوا يده اليسرى ، فأخذه بصدره ، والدماء تسيل على قَبائه ، فقتل ﷺ ، فقال عليّ : الآن حل قتالهم ، فقالت أم الفتي :

لا هُمَّ إن مُسلمًا دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأُمهم قائمة تراهم يأتمرون الغي لا تنهاهم
قد خُضِبت من علق لِحاهم [٣]

هذه الرواية كما نري جاءت عن الحجاج بن أرطأة ، وهو مرفوض الرواية عند المحدثين . وعلي ثقة العلماء في عمَّار بن معاوية الدُّهني ، إلا أنه ليس ممن حضر المعركة ، ثم إن الرواية لم تذكر اسم من أخذ عنه الدهني ، كما أن هذه الرواية تذهب إلى عكس ما تم استعراضه في الروايات الصحيحة التي عرضنا لها :

- فتجعل عليًّا ﷺ هو الذي دفع بالمصحف يدعو الناس إلى الاحتكام إليه ، والصحيح كما مر بنا أن التي فعلت ذلك هي عائشة رضي الله عنها . ويجوز التعدد على أي حال .

- كما تذهب إلى عكس الحقيقة من حرصها رضي الله عنها على حقن الدماء ، فتجعلها رضي الله عنها تري المسلمين يقتلون من يدعوهم إلى المصحف ، فلا تنهاهم .

= قال : كان الحجاج مدلسًا ، يحدثنا بالحديث عن عمرو بن شعيب ، مما يحدثه العَوْزَمي ، والعوزمي متروك الحديث ، لا نقر به .البخاري : كتاب الضعفاء الصغير : ٣٦ ، التاريخ الكبير : ٢/ ٣٦٧ ، أبو زرعة : كتاب المدلسين : ٤٠ ، قال يحيي بن يعلى : أمرنا زائدة أن نترك حديث الحجاج بن أرطأة . الذهبي : ميزان الاعتدال : ١٩٧ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال : ٦١.

(١) عمَّار الدُّهني : الإمام المحدث ، أبو معاوية ، عمار بن معاوية بن أسلم البَجلي ، ثم الدُّهني ، وهم حي من أحمس بجيلة ، الكوفي . حدث عن سعيد بن جبير ، وإبراهيم النَّخَعي ، وإبراهيم التيمي ، الذي له رؤية ، وحدث عنه شعبة ، وسفيان ، وعيينة ، وشريك ، وغيرهم . وثَّقه الإمام أحمد بن حنبل وجماعة . توفي سنة ١٣٣ هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٦/ ١٣٨ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٧/ ٢٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ١/ ١٩١ .

(٢) القَبَاء : ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه . المعجم الوسيط .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٥١١ ، ٥١٢ .

- كما أن الذي عليه الرواية الصحيحة أن الذي قام بحمل المصحف بأمر عائشة رضي الله عنها هو كعب بن سور ، قاضي البصرة ، رحمه الله وأرضاه ، وليس هذا الفتي الكوفي .

- وفوق هذا التضاد والتناقض مع الروايات الصحيحة ، فإن الرواية تدعي معرفة عليّ رضي الله عنه بالغيب ، وما علمنا من الشرع أنه يعلم الغيب أحد إلا الله .

- فالرواية لا يصح اعتمادها للتعبير عن القول بحرص عائشة رضي الله عنها على الحرب ، وعدم نهيها من معها من المسلمين عن البغي ، والغَي [1] .

هل كانت وقعة الجمل حربًا بين جيش عليّ وجيش عائشة ؟

إن استعراض ما حدث يؤكد عندنا أن هذه الموقعة لم تكن حربًا بين هذين الفريقين ، بالمعني المعروف للتحارب ، وإنما كانت الموقعة فخًا وقع فيه الفريقان معًا . ومن التشويه للحقيقة التاريخية أن تسمى هذه الحادثة حربا بين عليّ ومن معه ، وعائشة ومن معها [2] ، فهم لم يريدوها ، ولم يبتدئوها ، ولو تذكرنا أحداث المعركة لوجدنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها لم تكن في الميدان أول إنشاب المعركة ، فلقد كانت في البيت الذي نزلت فيه مطمئنة إلى إتمام الصلح بين الفريقين ، وما جاءت إلا بعدما استغاث بها كعب بن سور وأخبرها بما حدث .

والحرب لا تكون إلا بين متعادين ولم تكن الأمور على حال العداوة كما تبين لنا من استعراض الأحداث التاريخية قبل المعركة ، والذي ينظر فيما حدث بعد الموقعة يتأكد له أيضا صحة قولنا :

فإنه بعد الوقعة سألت عائشة عن عدة من الناس ، منهم من كان معها ، ومنهم من كان مع عليّ ، فكلما نُعِي لها منهم أحد قالت : يرحمه الله [3] ، والشيء نفسه فعله عليّ رضي الله عنه جعل لا يمر على واحد من أصحاب عائشة مقتولا إلا ذكره بالخير.

---

(١) ولا يصح كذلك ما رواه أحمد بن زهير في روايته المنكرة ، كما قال المحدثون [تاريخ الطبري : ٤/ ٥٠٩] من أن عليًا رضي الله عنه قال لعائشة بعد المعركة : استفززت الناس ، وقد فزوا ، فألبتِ بينهم ، حتى قتل بعضهم بعضًا .... في كلام كثير منكر .

(٢) وهذا ما قالت به معظم الدراسات . انظر مثلًا : محمد جميل بيهم : دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل ١٨٨ ، ورياض عيسي : الحزبية السياسية ٦٩ ، وقد قال : إنها أول حرب أهلية بين المسلمين . بل وذهبت التخريجات الفقهية التي حاولت تبرير هذا النزاع بين الصحابة إلى تكريس القول بأنها حرب حقيقية .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/٥٣٧ .

وصلى على القتلى من الفريقين ، ونادى مناديه : « لا تتبعوا مدبرًا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا دار أحد [١] » .

ولم يتعامل عليّ ﷺ مع جيش عائشة تعامل من كانوا متحاربين ، وإنما جمع ما كان في العسكر من شيء ، ثم بعث به إلى مسجد البصرة ونادي مناديه : « أن من عرف شيئا فليأخذه [٢] » ورد كل شيء أجلبوا به ، أو لم يجلبوا به على ورثتهم ، وكان من سيرته فيمن أُجهز عليه ، وهو رثيث أن يَدِيَه [٣] .

ولما دخل البصرة انتهي إلى المسجد ثم راح إلى عائشة على بغلته ، بل إنه ﷺ لما استقبلته صفية بنت الحارث [٤] استقبالًا سيئًا اشتكاها لعائشة قائلًا : جَبَهتنا صفية [٥] .

ولقد جعل وجوه الناس من الجيشين يغْشُون عائشة رضي الله عنها ويسلمون عليها ، ودخل القعقاع بن عمرو عليها رضي الله عنها في أول من دخل ، فسلم عليها فسألته عن الرجل الذي قال : « يا أمنا أعقٌّ أمٌّ نعلم » ، فأخبرها ، وقال لها : « كذب والله ، إنك لأبرّ أم نعلم ، ولكن لم تطاعي » [٦] . وهو قول له دلالته العظيمة ، فهو رأى رأس من كبار رؤوس وقادة جيش عليّ ﷺ ، وهو يعني أن هدفها النبيل – لو أطيعت فيه – ما كان ليؤدي إلى هذه الخاتمة .

ولما قام رجل من جهال الأزد يقول : « والله لا تُفْلتُنا هذه المرأة أبدًا . » غضب عليٌّ ﷺ . ولما لحق به رجل فأخبره أن رجلان ينالان من عائشة ، بعث القعقاع إليهما ، فقال : « اضرب أعناقهما » ، ثم قال : « لأُنْهِكَنَّهما عقوبةً » ، وضربهما مائة ، مائة ، وأخرجهما من ثيابهما [٧] .

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ٧١/١٣ . (٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٥٣٩ .

(٣) سيف بن عمر : الجمل ، ومسير عائشة ، وعلي : ٣٤٥ . والرواية ليست مما ذكر الطبري . ومعني يديه : أي يقضي له بالدية .

(٤) صفية بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة ، وهي أم طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة الطلحات ، شهدت حجة الوداع ، ولها رواية عن عائشة في السنن ، وكانت نزلت عليها في قصر بني خلف في وقعة الجمل ، روي عنها محمد بن سيرين وغيره . ابن حجر : الإصابة ٢٠٩/٨ . وجبهتُ فلانا : استقبلتُه بما يكره أو بكلام فيه غلظة. المعجم الوسيط . (٥) تاريخ الطبري : ٥٣٩/٤ ، ٥٤٠ .

(٦) المصدر السابق : ٥٣٧/٤ .

(٧) المصدر السابق : ٤/ ٥٤٠ . ولما سمع عمار رجلًا ينال من عائشة قال له : اسكت مقبوحًا منبوحًا (يضرب له مثل الكلب ، يشبهه به) فأشهد أنها زوجة رسول الله في الجنة . ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٢٢٥/١٨ .

وحتي عمار ﷺ رغم حماسه في مخالفة عائشة ، فإنه لما انتهت المعركة قال لعليّ : يا أمير المؤمنين كيف تقول في أبناء من قتلناه ؟ قال : « لا سبيل عليهم » . قال : « لو قلت غير ذلك خالفناك » [١] .

ولما همت بالرجوع ، جهزها عليّ بكل شيء ينبغي لها من مركب ، أو زاد ، أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وقال لمحمد بن أبي بكر : « تجهز يا محمد فبلِّغها [٢] » .

ولما كان يوم رحيلها جاءها عليّ حتى وقف لها ، وحضر الناس ، فخرجت عليهم ، وودعوها ، وودعتهم ، وقالت : يا بني ، تَعتَّب بعضُنا على بعض استبطاءً ، واستزادةً ، فلا يَعْتدَّنَّ أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها [٣] ، وإنه على معتبتي له لمن الأخيار . وقال عليّ : أيها الناس ، صدقت والله وبَرّتْ ، ما كان بيني وبينها إلا ما قالت ، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة . وخرج معها يشيعها أميالًا ، وسرح بنيه معها يومًا [٤] .

جناية الدراسات الحديثة على الحقيقة التاريخية

والعجب كل العجب بعد هذا الذي ذكرنا من الروايات الصحيحة أن يقول بعض الباحثين : « وأُسرت عائشة » ، ويصورون المسألة كحرب أهلية مخطط لها [٥] . وهو قول طبيعي من باحثين لا يستقون معلوماتهم في هذا الشأن إلا من الروايات المقدوحة ، ومن المصادر غير الموثوق بها مثل الإمامة والسياسة ، والأغاني ، والمختصر في تاريخ البشر ، ومروج الذهب ، وتاريخ اليعقوبي ، بل و تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان .

---

(١) ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ٢٢٦/١٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٥٤٤/٤ .

(٣) أحماؤها : حمو المرأة : أبو زوجها ومن كان من قبله من الرجال .

(٤) تاريخ الطبري :٤/ ٥٤٤ .

(٥) انظر على سبيل المثال : بيهم : دراسة وتحليل للعهد النبوي الأصيل ١٨٨ ، ورياض عيسي : الحزبية السياسية ٦٩ ، وفاطمة المرنيسي : الحريم السياسي ، النبي والنساء : ٧١ ، وفلهوزن : الدولة العربية ٥٣ .

وزيادة على ما ذكرنا من حقائق نقول : لو قد حدث هذا الأسر المزعوم لكان مدعاة إلى تكفير من أسرها ، كفرًا صريحًا ، وحاشا عليٌّ أن يفعله ، دل على هذا القول ما روي من قول ابن عباس للحرورية لما اعترضوا على كون عليّ لما حارب عائشة لم يَسْبِ ولم يغْنَم مخالفة للسنة قال : « أفَتسْبُون أمَّكم ، وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها ، فإن قلتم نعم فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست لكم بأم فقد كفرتم ، لأن الله يقول : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [1] » .

خطأ خروج السيدة عائشة ومن معها دون إعلام عليّ

لقد كنا قد تعرضنا لخطأ موقف عليّ ﷺ في عدم تقديمه لخطة واضحة في أمر إقامة الحدود على قتلة عثمان ﷺ ، مع خروجه في جيش غالبه ممن أعان على عثمان ﷺ وخرج عليه ، بل وشارك في قتله . و لعله من المفيد هنا أن نؤكد أيضًا على ما أشرنا إليه من قبل من خطأ خروجها رضي الله عنها ، ومن معها دون إعلام عليّ ﷺ .

ولعل ما حدث من اتفاقهم مع القعقاع بن عمرو ﷺ ، عند أول حوار واضح أبدته الروايات بين الفريقين ، فيما يتصل بمسألة الخروج إلى البصرة ، يوضح لنا كم كانت أهمية وضرورة أن يحدث هذا التحاور قبل الخروج ، خاصةً وأن العدد الكبير الذي خرج به الصحابة مع عائشة رضي الله عنها ربما كان موهمًا بنية الحرب ، رغم انتفائها من جانبهم .

ولعل أحداث البصرة وما جري فيها من قتال ، كما مرَّ بنا ، على غير إرادة منهم ، ولا سعي إليه كانت دافعًا قويًّا لهم إلى الاقتناع برأي عليّ ﷺ في ضرورة تسكين هذا الأمر .

لقد خرجوا ﷺ بسلاح مرجعيتهم الفقهية والتشريعية لإعلام المسلمين وتوحيد رأيهم في اتجاه ضرورة إقامة حدود الله ﷻ ، غير أنهم اكتشفوا بلا شك أن المسألة ليست بهذه البساطة ، فالجيوب السبئية موجودة في البصرة أيضًا ، وهي أينما وجدت ، لا تصيخ إلى مرجعية فقهية أو تشريعية ، مهما يكن قدر هذه المرجعية . هذه الجيوب لا ترمي إلى غير هدم البنيان الإسلامي من أساسه ، ورد الأمور على أدبارها ، فلا الحجة ، ولا المنطق ، ولا الدعوة الهادئة تفعل فعلها هنا .

---

(١) الوادعي : الصحيح المسند ١/٤٨٠ ، ومحمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ٣١٩ ، والآية من سورة الأحزاب ٦ .

ولو أطيعت السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رمت إليه لكان وجه ممارستها السياسية غير الوجه [١] . ولو كان هذا الحوار الذي تمَّ هاهنا أخيرًا ؛ مع القعقاع من قبل الخروج من مكة لما خرج عليّ ﷺ ، وحال جيشه ماذكرنا ، ولما أمكن لهذه الجيوب السبئية أن تفسد الحركة السياسية من عليّ ، أو من عائشة رضي الله عنها ، كما تبين لنا في الصفحات السابقة .

(١) ولعل هذا القول لا يخرج إلا من مشكاة ما قاله القعقاع بن عمرو للسيدة عائشة بعدما انجلت المعركة : « إنك لأبر أم نعلم ، ولكن لم تطاعي » . تاريخ الطبري : ٤/ ٥٣٧ .

الفصل الخامس

العلاقة بين السيدة عائشة والإمام عليّ

أهمية تحرير هذه العلاقة

لقد كان ما سبق لنا قوله في المباحث الماضية كافيًا لإيضاح حقيقة علاقة الود التي كانت تحكم علاقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعليّ رضي الله عنه . غير أن كثرة ما قيل في تشويه هذه العلاقة ، واعتماد هذه الأقاويل على مرويات صحيحة غير واضحة المدلول للكثيرين ، مع المرويات غير الصحيحة كان حائلا بيننا وبين فهم حقيقتها فهمًا كاملًا ، لا شائبة فيه . فهل كانت عائشة رضي الله عنها منطوية على كراهية شديدةٍ ، مستقرة في أغوار نفسها لعليّ رضي الله عنه ، الأمر الذي دفعها إلى هذا الخروج إلى البصرة ، كما قالت كثير من الدراسات ، أم ترى كيف كانت العلاقة بينهما ؟

وبدايةً ينبغي أن نوضح أن الذي يضطرنا في هذا المقام من البحث في الدور السياسي للسيدة عائشة إلى تحرير هذه العلاقة ، وسبر أغوارها ، هو خطورة ، وأثر ما انبنى على القول بسوء العلاقة بينهما من الطعن في صواب خروج السيدة عائشة إلى البصرة ، والزعم بأنه خروج مدفوع بالكراهية والحقد القديم ، وهو ما يؤثر ولا شك في الحكم على هذا الخروج وتقييمه تقييمًا علميًّا سليمًا ، وهو هدف أساس في هذه الدراسة ، كما لا يخفي .

فلقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى القول « بأن عائشة رضي الله عنها تلقت خلافة عليّ رضي الله عنه بالسخط ، والمقاومة ، فلقد كانت صدمتها من تولية عليّ رضي الله عنه أكثر من صدمتها من مقتل عثمان رضي الله عنه[1] لأسباب تحدرت من زمن قديم حتى تجمعت ، ووجدت في مقتل عثمان سببًا مباشرًا لظهورها . وظهرت هذه الأسباب بمظهر الإصلاح بين الناس .... وهكذا ابتعدت عائشة عن كل ما يشتم منه غرض شخصي ، أو حقد ، وظهر معها أنصارها جميعًا بهذا المظهر »[2] .

---

(١) انظر على سبيل المثال ، لا الحصر : سعيد الأفغاني : عائشة والسياسة : ٦٧ ، وقد ذكر هذا المعني تحت عنوان : « شدة وقع المبايعة عليها » ، عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٣٨١ ، العقاد : الصديقة بنت الصديق : ٢١٤ .

(٢) عائشة أم المؤمنين : ١٨٤ . في جملة واحدة وصفت المؤلفة عائشة رضي الله عنها ، والصحابة الذين كانوا معها جميعًا بالرياء ، والنفاق . أين الإسلام إذن ، بل أين بقاياه ؟! . إن أبسط ما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا القول من الذين سهُل عليهم القول به ، هو أن يتوهم الناس بطريق عملي أن الإسلام لم يكن له أثر =

وعلي الرغم مما ذهب إليه البعض - ممن هم أكثر موضوعية من عدم استبعاد أن يكون هناك صدقًا أوليًا عند عائشة في تمردها على ما لا يمكن التسامح به ، ولا يمكن قبوله ، وفي انشغالها بإعادة تأليف جسم الأمة المُنْحلّ ، وفي الإصلاح والمصالحة ، إلا أنهم ذهبوا إلى تقرير وتأكيد « أن الدوافع الشخصية قد أمكن لها في الخفاء ، أن تلعب دورها : إرادة القوة ، الرغبة في التقدم إلى المقام الأول ، مقت عليّ وكرهه المتصل بحدث درامي قديم من أحداث الماضي : قضية الإفك .. فالحسابات ، والطموح ، والهوي السياسي هذه كلها كانت ، بلا ريب حاضرة لدي جميع فاعلي الفتنة وممثليها ، ما خلا أولئك الذين اختاروا الاعتزال [١] » .

لقد كان يقف بلا جدال وراء كل هذه المقولات التي انتظمت أغلب الاستدلالات التي انتهت إليها الدراسات الحديثة غياب فهم ما تدل عليه الحقيقة التاريخية الثابتة قرآنًا وسنة ، في عدالة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وكان يقف وراءها أيضًا الانتقاء غير المُعَلَّل للروايات التي يتم الاستدلال على أساسها ، وهو ميداننا البحثي في الصفحات التالية .

استندت أغلب هذه الدراسات [٢] في هذه الأقوال التي قالوها إلى الكلمة التي زعموا أن عائشة قالتها يوم تَولّي عليٌّ الخلافة ، ورواها الطبري ، قالت : « ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تمَّ الأمرُ لصاحبك ، رُدوني ردوني ، وانصرفت وهي تقول : قُتِل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه [٣] » .

= في حياة الصحابة ، ومن ثم فما أسهل أن يقال : إنه لم يعد له دور في حياتنا اليوم .لكنني على كل حال أسألها : كيف عرفتْ بسريرة السيدة عائشة ، وكل من معها ، وليست هناك رواية واحدة عنها ، أو عن الصحابة يظهرون فيها هذه الأسباب الحقيقية - في زعمها - والتي كانت وراء خروجها إلى البصرة ، وليس يعلم السرائر إلا الله وحده .

(١) انظر : د/ هشام جعيط : الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر : زاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٧٨، وسعيد الأفغاني : عائشة والسياسة : ٦٨ ٣٠ ، د/ حسين الحاج حسن : حضارة العرب في صدر الإسلام ٢٤ ، ورياض عيسى : الحزبية السياسية ٢٤٤ ، فاطمة المرنيسي : الحريم السياسي ٦٧ ، وداد سكاكيني : أمهات المؤمنين وبنات الرسول ٧٩ ، العقاد : عبقرية الإمام : ٩٦ ، ٩٧ . وما ذكرناه من أقوال الدراسات الحديثة في هذا الأمر ليس إلا مجرد تمثيل ، ويبقي معظم ما كتب سائرًا في هذا الطريق .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٥٩ . وانظر الرواية كاملة ، وتحليلها سندًا ومتنًا بالفصل الثاني من هذا الباب . صفحة ٣٥٣ : ٣٥٨ .

ولم يتوقف الأمر معها عند هذا الحد ، بل ذكر البلاذري أنها لما علمت ، وهي في طريقها إلى المدينة أن عثمان قد قتل ، وأن عليًا قد ولي الأمر ، صاحت : « واعثماناه . ورجعت إلى مكة ، فضربت لها قبتها في المسجد الحرام ، وقالت : يا معشر قريش ، إن عثمان قد قتل ، قتله عليّ بن أبي طالب ، والله لأنملة ، أو قالت : لليلة من عثمان خير من عليٍّ الدهر كله [١] » .

فأما رواية البلاذري هذه ، فإنها رواية غير مسندة ، الأمر الذي يدعونا إلى تركها ، والتعامل مع المرويات الأخرى المسندة ، هذا إلى ما ذكرناه عن البلاذري ، ومنهجه في إيراد الروايات ، وتساهله في الأخذ عن المعروفين بالتشيع [٢] .

وأما الرواية الأولى التي ذكرها الطبري ، فإنها - كما نذكر - قد جاءت في نفس رواية نصر بن مزاحم والتي تعرضنا لها تفصيلًا عند الحديث عن الروايات التي ذكرت تأليب عائشة على عثمان ﷺ في تاريخ الطبري . وليزداد القارئ عجبًا ، فإن هذه الرواية التي ذكرت تأليب عائشة رضي الله عنها الشديد على عثمان ﷺ ، هي نفسها الرواية التي قالت بكراهيتها الشديدة لاستخلاف عليّ ﷺ ، وفي سبيل التنفيس عن هذه الكراهية ، عادت تدافع عن حرمة دم عثمان ﷺ !.

ولقد كونت هذه الروايات أرضية مناسبة لفلهوزن ، ومن على مثل منهجه ، قال : « لقد انسحبت من الثورة على عثمان بعد أن اشتركت فيها بالفعل اشتراكا قويًا ، والتجأت إلى مكة قبل أن يبلغ الأمر غايته ، وذلك لتعلن براءتها من دم عثمان ، وتستطيع أن تكيف موقفها بحسب ما يؤول إليه أمر الفتنة . على أنها كانت تبغض عليًا ، فلما سمعت أنه تلقي البيعة لم تتردد في تقديس عثمان ، ونادت إلى الأخذ بالثأر له من الخليفة الجديد ، وقد التف حولها عدد من الهُرّاب الذين تساقطوا إلى مكة ، واختلف الحكم في أمرهم اختلافًا كبيرًا ، وانضم إليها طلحة والزبير واستتروا وراءها ، فكانوا ثلاثتهم رؤساء وقواد الثورة على عليّ في جزيرة العرب » [٣] .

واستسهل الباحثون المسلمون هذا الرأي الذي قاله المستشرق ، فجعلوا يكررون قوله بسذاجة تدعو للأسي ، وتلفت النظر إلى مأساة البحث العلمي حين يعتمد على

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف : ٩١/٥ .

(٢) انظر المبحث التمهيدي في مقدمة الرسالة . صفحة ٣٠ .

(٣) فلهوزن : الدولة العربية ٥٢ .

الآراء الجاهزة . ولو تأملنا الخط الزمني الذي سارت فيه هذه الأبحاث الحديثة ، ونظرنا في ثَبْتِ مراجعهم ، لَتبيَّن لنا أن واحدًا منهم قد بدأ الاستنتاج الخاطئ معتمدًا على رواية ، أو روايات مقدوحة ، ثم جاء أغلب مَن بعده آخذين برأيه ، دون إعمال فكر ، أو تروٍّ ، أو نظر في مصادر الروايات ومنابعها [1] . وليت شعري ماذا بقي من خير في شخص عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إن صح فيها ما زعموا ؟ ، ولماذا تكره عائشة خلافة عليّ على هذه الصورة ؟ .

(١) انظر مثلًا كيف أخذ رياض عيسى عن الأفغاني ، وأخذت زاهية قدورة عن الأفغاني ، وهي وإن لم تشر في مراجع دراستها إلى كتابه عن عائشة ، فقد رجعت إلى الأفغاني في دراستين نشرهما عن عائشة هما : سير أعلام النبلاء : الجزء الخاص بالسيدة عائشة ، وقد نشره سنة ١٩٤٥ م ، الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة ، لبدر الدين الزركشيّ ، ونشره الأفغاني سنة ١٩٣٩ ، وقد نشرت زاهية كتابها عن أم المؤمنين عائشة سنة ١٩٤٧ م ، ونُشر كتاب الأفغاني لأول مرة سنة : ١٩٤٦ م .

أسباب الكراهية المزعومة بين عائشة وعلي رضي الله عنهما

لقد حاولتُ تصنيف هذه الأسباب التي ذكروها ، قديمًا وحديثًا ، لأتمكن من البحث في أصول هذه الأسباب ، وأتمكن من تحليلها ، والنظر فيها ، فبدت لي في نوعين من الأسباب : الأول منهما : خاص بطموحات عندها لمن يتولي الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه . والثاني : خاص بالعداوة والخصومة المتأصلة بين عليّ رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها ، نتيجة مواقف فعلية قد حدثت بينهما كما ذكرت المصادر .

النوع الأول (من أسباب الكراهية المزعومة)

طموحات عائشة فيمن يتولى الخلافة بعد عثمان

وقد ذهبت المزاعم في ذلك إلى ثلاثة مذاهب :

الأول : زعم رغبتها في تولية طلحة

وفيه قالوا : إن عائشة كانت تطمح إذا ما قُتِل عثمان ، أن يتولى الخلافة بعده طلحة بن عبيد الله [١] ، فهو من قومها بني تَيْم .

ولقد تأسس هذا القول عند أصحابه[٢] على رواية عند البلاذري في أنساب الأشراف ، قال البلاذري : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرقي[٣] ، حدثنا أبو عامر العقدي[٤] ، حدثنا الأسود بن شيبان [٥] ، عن خالد بن سُمَيْر[٦] ، قال : « كان

---

(١) سبق التعريف به صفحة ٣٣٥ .

(٢) زاهية قدورة ١٧٨ ، عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٣٨١ ، وقد قال : إنها كانت ترهب خلافة عليّ ، ولو أن الخليفة كان طلحة ، أو الزبير ، لكان في ذلك رضي لها ؛ لأن طلحة تيميّ من قومها ، والزبير زوج أختها .

(٣) أحمد بن إبراهيم الدَّورقي : هو أحمد بن إبراهيم بن كثير بن زيد الدَّوْرَقي ، النُّكْري ، البغدادي . ثقة حافظ ، مات سنة : ٤٦هـ . خرج له مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، والترمذي في سننه ، وابن ماجة في سننه . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٢٩ .

(٤) أبو عامر العقدي : هو عبد الملك بن عمرو القَيْسي . ثقة ، مات سنة : ٢٠٤ هـ ، أو ٢٠٥ هـ . اجتمعت مروياته في الأصول الستة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٦١٧ .

(٥) الأسود بن شيبان السَّدوسي : بصري ، يكني أبا شيبان . ثقة عابد ، مات سنة : ٦٠ هـ . خرج له البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، والنسائي في سننه ، وابن ماجه في سننه . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ١٠١ .

(٦) خالد بن سُمَيْر : بالتصغير ، السدوسي البصري ، صدوق يَهِم قليلًا . خرَّج له البخاري في الأدب المفرد ، والنسائي في سننه ، وأبو داود في سننه ، وابن ماجه في سننه . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٢٥٩ .

الناس بايعوا الزبير على الخلافة ، فلما سمعت ذلك عائشة قالت : لا تبايعوا الزبير على الخلافة ، ولكن بايعوه على القتال ، فإن أظفركم الله فسترون رأيكم ، قال : فوثب عبد الله بن الزبير ، فقال : يا زبير ، أتدري ما تريد هذه ؟ تريد أن تجعل حارَّ الناس بك ، وبارِدَه لابن عمِّها طلحة ، اقعد على نجائبك [١] ، ثم ارم بها مكة ، حتى تُقْلِع سيوف العرب ، وقد أُفْنِيَت سراتها [٢] ووجوهها ، فتركب إليك سعاتها ، قال : فركب الزبير فأصابه أخو بني تميم » [٣] .

فأما سند هذه الرواية - كما نري - فإنه لا يخرج عن الثقات المخرَّج لهم في الصحاح ، ومع ذلك فإن هذا السند لا يعتد به إذا راجعنا سني وفيات الثلاثة الذين يصرح البلاذري بقوله عنهم : « حدَّثنا » ، ليتبين لنا أن أولهم مات سنة : ٤٦ هـ ، وثانيهم سنة : ٢٠٤ ، أو ٢٠٥ هـ ، وثالثهم مات سنة : ٦٠هـ [٤] . هذا التصريح بالتحديث ، و الذي لا يستقيم عند النظر في سني وفاتهم يجعلنا لا نسلم بصحتها عنده ، خاصة وأن متنها لا يستقيم هو الآخر ، فإنه لم تصح رواية واحدة في القول بأن الصحابة قد بايعوا الزبير على الخلافة ، ولا هو طلب هذا .

كما أن روح العداء والجفوة بين عبد الله بن الزبير ، وعائشة ﵂ ينقضها نقضًا بعيدًا أن عائشة ﵂ أعطت من بشرها يوم الجمل بسلامة عبد الله ، وأنه لم يمت عشرةَ آلاف [٥] . وأنه قد روي [٦] أنه « لم يكن أحد أحبَّ إلى عائشة بعد رسول الله ، من أبي بكر ، وبعده ابن الزبير[٧] ، ولقد كان ابن الزبير من ألصق الناس بها ﵂ ، وبه كانت تكني » [٨] .

غير أن هذا القول قد جاء في تاريخ الطبري ، في رواية أخرى مسندة - وهو ما

---

(١) نجائب الإبل : خيارها . المعجم الوسيط .

(٢) سراتها : سراة كل شيء : أعلاه ، ووسطه ، ومعظمه . المعجم الوسيط .

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف : القسم الخامس : سائر فروع قريش : ٤٣ .

(٤) راجع : السيوطي : تدريب الراوي : في بيان أقسام طرق تحمل الحديث ، وكيف أن أرفع الطرق هي سماع لفظ الشيخ ، وأن أرفع العبارات في ذلك « سمعت » ثم : « حدثنا » و « حدثني » : ٢٣٥ .

(٥) ابن حجر : الإصابة : ٤/ ٨٢ ، فيما ذكر الزبير بن بكار ، قال : حدثني يحيي بن معين ، عن هشام بن يوسف ، عن معمر : أخبرني هشام بن عروة . وانظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٧١ .

(٦) عن عروة بن الزبير .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٧١ .

(٨) راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٩٨/٢ .

يدعونا إلى التوقف معه – ولقد تبين لنا أن هذه الرواية من رواية أبو بكر بن أبي سبرة، المتهم بالوضع، وهي الرواية التي عرضنا لها تفصيلًا عند الحديث عن الروايات التي ذكرت تأليب عائشة على عثمان ﷺ في تاريخ الطبري، فهي رواية مقدوحة سندًا ومتنًا [١].

والروايات الصحيحة الإسناد قد تضافرت جميعًا على نفي أن تكون عائشة ﷺ – بل ومعها طلحة نفسه – كانت ترى الخلافة تعدو عليًا ﷺ كما بينا [٢].

الثاني: زعم رغبتها في تولية عبد الله ابن الزبير

فلقد ذهب أصحابه إلى القول بطموحها إلى السلطة، وإرادتها أن تحكم من خلال ابن أختها عبد الله بن الزبير[٣]. والواقع أنني راجعت معظم مرويات الفتنة، فلم أجد القول بمحاولة عائشة الحكم من خلال ابن الزبير – حسب علمي – قد جاء على لسان أحد من الأولين، إلا أن يكون صاحبُ هذا الرأي قد قال به مُسْتَنِدًا إلى رواية عمر بن شَبَّة، التي فيها أن عائشة ﷺ قد أمَّرتْ عبد الله بن الزبير ليُصليَ بالناس، وفهم أن تأميرها إياه على الصلاة مقدمة لتأميره على المؤمنين[٤]. وهي رواية غاصَّة بأمورٍ منكرة، يتبينها الناظر فيها دون عناء [٥].

ثم إنها تتناقض مع الرواية الأكثر وثوقًا عندنا لسيف بن عمر من أن عائشة ﷺ قد أمَّرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتَّاب بن أُسيد[٦]، فكان يصلي بهم في الطريق، وبالبصرة حتى قُتِل ﷺ[٧].

---

(١) انظر تحليل هذه الرواية، والنقد لها بالفصل الثاني من هذا الباب. صفحة ٣٥٩.

(٢) انظر تفصيل ذلك بالفصل الرابع من هذا الباب في مبحث: هل خرجت عائشة ومن معها لحرب على، صفحة ٤١٩.

(٣) انظر رياض عيسى: الحزبية السياسية: ٢٤٤.

(٤) لقد يبدو لي أن واضعي هذه الرواية قد نسجوها على غرار استخلاف المسلمين لأبي بكر ﷺ، اعتمادًا على تولية رسول الله له في إمامة المسلمين للصلاة.

(٥) انظر مثلًا فيها: القول الغريب على لسان معاذ بن عبيد الله: والله لو ظفرنا لافتتنا، ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر. وفيها القول العجيب بأن مروان بن الحكم، قد جاءهما سائلًا: أيكما أُسلِّمُ بالإمرة، وأؤذن بالصلاة، وقول عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله، يعني أباه، وقول محمد بن طلحة: على أبي محمد، يعني أباه: تاريخ الطبري: ٤/ ٤٥٤، ٤٥٥. فأي إمرة تتحدث عنها الرواية، وما خرج منهم من خرج طلبًا للإمرة كما بينا في ثنايا البحث؟.

(٦) سبق التعريف به.

(٧) تاريخ الطبري ٤/ ٤٥٤.

وأخيرًا فهل كان من الممكن أن يتعدي عبدُ الله أباه الزبير [(١)] ، وطلحة وغيرَهما من عِلْية وكبار الصحابة الذين كانوا معهم في هذا الخروج ويتولي عليهم الخلافة ؟!. هذا مع كون إسناد هذه الرواية ، مجروحًا من جهة عمر بن راشد اليمامي [(٢)] .

الثالث : زعم رغبتها الشخصية في الحكم

وأما أن تكون رضي الله عنها قد طمِحتْ إلى الحكم شخصيًا ، فهو قول ، لم تَصِحَّ به رواية واحدة ، ولم يَذكرْ ما يَقربُ من هذا المعني غيرُ المسعودي ، فيما أعلم ، وهو من هو ، فيما يخص رواياته عن الفتنة ، حيث قال : ذكر المدائني [(٣)] أنه رأي بالبصرة رجلًا مُصْطَلِم الأذن [(٤)] ، فسأله عن قصته ، فذكر أنه خرج يوم الجمل ، ينظر إلى القتلي ، فنظر إلى رجل منهم يَخفض رأسَه ويرفعه ، وهو يقول :

لقد أوردَتْنا حومة الموت أمُّنا ... فلم تنصرف إلا ونحن رَوَاءُ [(٥)]

أطعنا بني تيمٍ لِشَقْوَةِ جَدِّنا ... وما تيم إلا أعبد وإماء

فقلت سبحان الله ، أتقول هذا عند الموت ، قل : لا إله إلا الله . فقال : يا ابن اللَخْناء [(٦)] ، إياي تأمر بالجزع عند الموت ؟ فوليتُ عنه متعجبًا منه ، فصاح بي : أُدْنُ مني ، ولَقِّنِّي الشهادة . فصرتُ إليه ، فلما قَرُبتُ منه استدناني ، ثم التقم أذني فذهب بها ، فصرت ألعنه ، وأدعو عليه ، فقال : إذا صرت إلى أمك ، فقالت : من فعل هذا بك ؟ فقل : عمير بن الأهلب الضبي [(٧)] ، مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين [(٨)] .

---

(١) ذكر البعض ، ومنهم الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه : الخلفاء الراشدون : ٣٨١ ، أنها كانت ترغب في أن يتولي زوج أختها الزبير الخلافة . وهو قول قائم على غير أساس من رواية تاريخية صحيحة .

(٢) عمر بن راشد اليمامي : الذي قال فيه النسائي : ليس بثقة . [الضعفاء والمتروكين : ٢٢٣] ، وقال يحيي بن معين : ضعيف ، وقال مرة : ليس بشيء ، وقال الجوزجاني : سألت أحمد عن عمر بن راشد ، فقال : لا يساوي حديثه شيئًا ، وقال ابن حجر : ضعيف ، وقال الدولابي : ليس بثقة ، راجع : ابن حجر : تقريب التهذيب :١/ ٧١٨ ، والتاريخ الكبير : ٦/ ١٥٥ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ٣/ ١٩٣. فهو بهذه الأوصاف لا يكتب حديثه ، ولا يعتبر به . انظر : ابن حجر : نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ، في مصطلح أهل الأثر ١١٢ ، وشرح المحققان لمراتب ألفاظ التعديل .

(٣) سبق التعريف به .

(٤) مصطلم الأذن : مقطوعها .

(٥) رواء : ارتوي من الماء ، شرب كفايته .

(٦) اللخناء : المنتنة القبيحة .

(٧) لم أعثر له على ترجمة .

(٨) المسعودي : مروج الذهب : ٢/ ٤٠٩ ، ٤١٠ .

فالرواية مع كونها من عند المسعودي الذي لا نرضي رواياته ، منفردًا ، خاصة ، وأنه لا يكمل سلسلة إسناد رواياته ، قد نسبها إلى المدائني في انقطاع واضح بينهما [١] . أضف إلى ذلك أنها قد ذكرت أن المدائني نفسه قد لقي الرجل المصطلم الأذن بالبصرة ، - وحسب الرواية - فإن هذا الرجل كان إبان أحداث الجمل رجلًا ، أو شابًا يافعًا . فهل يعقل أن يكون المدائني الذي ولد عام ١٣٢ هـ قد رواها عنه بنفسه ! ، وهو ما يعني أن يكون عُمْرُ هذا الرجل المصطلم الأذن عند ذكره لما حدث ١٢٧ عامًا ، هي فرقُ ما بين سنتي ميلاد المدائني ، وأحداث الجمل ، مضافًا لها ثلاثون عامًا [٢] ، على أقل تقدير ليكون أهلًا للتحمل والأداء عن المدائني [٣] ، وهو عمر قلما يصل إليه الناس .

هذا مع استبعادي لأن يكون المدائني في فضله وثقته وأمانته قد روي شيئًا من هذه الرواية ، مع الجهالة الواضحة في هذا الرجل المصطلم الأذن ، و مع كون ما فيها من قول على لسان هذا الضبي - الذي لم أجد له أثرًا في كتب التراجم - ليس حجة على ما في نفس السيدة عائشة رضي الله عنها .

ويلفت النظر كثيرا أن يكون هذا الرجل ، قائل العبارة من بني ضبة ، وكانوا من أكثر من لاذ بعائشة رضي الله عنها [٤] ، فلا يستقيم في رأيي أن يكون من هؤلاء القوم الذين تفانوا في الدفاع عنها ، ويكون على هذه الدرجة من الامتلاء حقدا وكراهية لعائشة رضي الله عنها ، بل ولقومها جميعًا ، ولا يمكن أن يكون هذا هو حال رجل خرج من يومه تحت لوائها ، حتى وإن لم يكن من بني ضبة ، فلم يكن هناك إجبار لأحد على هذا

---

(١) مات المدائني سنة ٢٢٤هـ ، بينما مات المسعودي سنة ٣٤٥ هـ ، وقيل : مات سنة : ٢٤٦ ، هذا مع عدم معرفتنا اليقينية بعمر المسعودي ، إذ لم تشر المصادر إليه [راجع الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٥/ ٥٦٩ ، ابن حجر : لسان الميزان : ٤/ ٢٢٤ ، الكتبي : فوات الوفيات : ٢/ ٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٢/ ٣٧١ ، ومقدمة كتاب المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر] ، وإن كان أحد الباحثين [د/ على حسني الخربوطلي : المسعودي ٢٢] قد ذكر أنه ولد عام ٢٨٧هـ ، غير أنه لم يشر إلى مصدره في هذا القول .

(٢) خمسة عشر عامًا منها هي عمر الرجل - على أقل تقدير - وقت الأحداث ، وخمسة عشر عامًا للمدائني - على أقل تقدير أيضًا - حين سماعه للخبر من الرجل .

(٣) انظر في : أهمية معرفة مواليد الرواة ، ووفياتهم ، وفي سن التحمل والأداء : ابن حجر : نزهة النظر ١١٠ ، ١٢٤ مع ملاحظة أن بعضا من المحدثين قد قال أن سن التحمل بالتمييز ، وقال بعضهم : إذا بلغ الخمسين ، ولا ينكر عند الأربعين . على أن هناك من قال : لا اختصاص بالأداء بزمن معين ، بل يقيد بالاحتياج ، والتأهل لذلك، وهو مختلف باختلاف الأفراد . انظر أقوال المحققين في نفس الصفحات .

(٤) تاريخ الطبري ٥١٢/٤ .

الخروج . وهي براعة من واضعي الروايات على كل حال ، تجعل القول بطموح السيدة عائشة من واحد ممن كانوا تحت لوائها ، ليتأكد الخبر ، ولكن ها قد جعله الله سببًا في أن يُكَذِّب الخبر . غير أنه ينبغي علينا الاعتراف بأن هذا الخبر الكاذب حكاية مثيرة ، ومسلية في الوقت نفسه ، وما أشبهه بحكايات القصاص التي كانوا يستميلون بها العامة ، وأشباه العامة .

ومن هنا فإنه لا يصح لباحث جاد وأمين أن يعتمد عليه في تكوين رأي يسود به صفحة كتاب ، بل صفحة تاريخ ، وأي تاريخ !! ولعله من الواجب العلمي علينا ، أن نلفت النظر هنا ، ونحن بصدد التعرض لهذه الرواية ، إلى خطورة غياب الجدية في كتابة تاريخنا من جانب ، وإلي ما يفعله بعض الباحثين من الضن بالروايات الواهية ، وحشو عقول الناس بها من جانب آخر ، دون تفكر في الأثر السلبي الناتج من ذلك على عقل الأمة وفكرها ، فلقد عزَّ عليَّ كثيرًا أن أجد أحد الباحثين [1] ، قد ذكر هذه الرواية كواحدة من المواقف المثيرة التي حدثت في موقعة الجمل ، غير مشير أدني إشارة إلى نصيبها من الصحة أو الخطأ . ولو جاز له أن يفعل ذلك في كتاب للإثارة والضحك ، لما جاز له أن يفعله في كتاب المفروض أنه كتاب جاد ، يتناول قضايا بالغة الخطر والتأثير في حياتنا وعقيدتنا .

وأخيرًا فإن الاختلاف في توجيه الطموح على هذا النحو دليل آخر ينضاف إلى فساد القول بهذه الطموحات المزعومة .

(١) د/ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ٥٠٦ .

النوع الثاني في أسباب الكراهية المزعومة بين علي وعائشة

العداوة والخصومة المتأصلة

ولهذا النوع من العداوة في المصادر التاريخية عدة مظاهر من مظاهر التعبير عنها .

فأما المظهر الأول : فلسوف يعجب القارئ إذا ما تبين له أنه يعود إلى « جملة » جاءت بها المصادر في حديث صحيح ، فأُعجب الناس منها بحسن صيغاتها ، فتأصلت حقيقتها المعبرة عن هذه العداوة ..، ولم تكن هذه الجملة من صلب الحديث كما تبين من الدرس ، والتحليل ، وكانت هذه الجملة هي أن « عائشة لا تطيب نفسًا لعليّ بخير » .

وأما المظهر الثاني : فهو ما زعموه من كراهية السيدة عائشة العميقة لعليّ التي تكونت عندها نتيجة موقفه منها في حادث الإفك .

والمظهر الثالث : هو ما زعموه فيه من تأسس كراهية السيدة عائشة لعليّ على كراهيتها وغيرتها من السيدة فاطمة عليها السلام .

والمظهر الرابع : فيما زعموه من نقمة عليّ على عائشة رضي الله عنها لأنها - في زعمهم أيضًا هي التي مهدت لاستخلاف أبيها أبي بكر ، مما أدي إليه ذلك من استبعاد عليّ .

والمظهر الخامس : في زعمهم أن عليًا رضي الله عنه قد حقد على عائشة نفيها القول بوصية رسول الله ، إلي عليّ رضي الله عنه .

وأخيرا ، فالمظهر السادس : في زعمهم هو بعض العوامل النفسية .

وسوف نتوقف - إن شاء الله تعالى - أمام هذه المظاهر جميعًا للنظر في مصداقيتها ، ومدي تعبيرها عن هذه الكراهية ، ومن ثمَّ لنتأكد : هل كان الدور السياسي الذي قامت به السيدة عائشة رضي الله عنها مدفوعًا حقًّا بهذه الكراهية أم لا .

المظهر الأول هو عبارة : « عائشة لا تطيب نفسًا لعليّ بخير »

لقد حاولت البحث عن أصل لهذا الخبر الذي فيه التهمة بكراهية عائشة الشديدة لعليّ وبعدم طيب نفسها له بخير ، في المصادر الصحيحة [1] ، فلم أجده - حسب ما تيسر لي من بحث - مذكورًا في كتب الصحاح ، غير أنني وجدته فيما رواه الإمام أحمد في مسنده ، وفيما ذكره ابن حجر في ثنايا

(١) وكنت قد وجدت الخبر عند الأفغاني : عائشة والسياسة : ٦٦ .

شرحه للحديث المُخَرَّج في البخاري عن عبيد الله بن عبد الله [١] .

وقصة هذه العبارة هي ما رواه البخاري ، عن عائشة ، قالت : « لما ثَقُل النبي ، واشتد وجعه، استأذن أزواجَه أن يُمَرَّض في بيتي فأذِنَّ له . فخرج بين رجلين تخط [٢] رجلاه الأرض ، وكان بين العباس ورجل آخر » . قال عبيد الله : فذكرتُ لابن عباس ، ما قالت عائشة ، فقال لي : « وهل تدري من الرجل الذي لم تُسَمِّ عائشة، قلت : لا ، قال : هو عليّ بن أبي طالب [٣] » .

حتى هاهنا فإن الرواية تبدو عادية ، غير أن ابن حجر في شرحه لها قال : زاد الإسماعيلي [٤] من رواية عبد الرزَّاق [٥] عن معمر[٦] : « ولكن عائشة لا تطيب نفسًا لعليّ بخير [٧] » . ولابن إسحاق في المغازي عن الزهري : « ولكنها لا تقدر

(١) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أبو عبد الله الهُذلي ، المدني ، الأعمي ، وهو أخو المحدث عون ، وجدهما عتبة هو أخو عبد الله بن مسعود ﷺ ، ولد في خلافة عمر أو بعيدها ، وتوفي سنة ٩٩هـ ، وقيل غير ذلك . ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣/ ١١٥ ، البخاري : التاريخ الكبير : ٥/ ٣٨٥ ، ابن قتيبة : المعارف : ٢٥٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١/ ١١٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٤/ ٤٧٥ .

(٢) تخط رجلاه الأرض : أي لا يستطيع أن يرفعهما ويضعهما ويعتمد عليهما . صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٦٢

(٣) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ١٩٣/٢ ، كتاب الأذان ، باب حد المريض أن يشهد الجماعة .

(٤) الإسماعيلي : هو الإمام الحافظ ، الرَّحال أبو بكر محمد بن إسماعيل بن مهران النيسابوري ، المعروف بالإسماعيلي . قال الحاكم : هو أحد أركان العلم في نيسابور : كثرةً ورحلةً واشتهارًا ، وقال الذهبي : جمع حديث الزُّهري وجوَّده ، وحديث مالك وجماعة . انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٤/ ١١٧ .

(٥) عبد الرزاق : عبد الرزاق بن همام ، عالم اليمن الصنعاني الثقة الشيعي ، قال على بن المديني : كان عبد الرزاق أعلمنا وأحفظنا ، وقال يحيي بن معين : ما كان أعلم عبد الرزاق بمعمر ، حدّث عن سفيان بن عيينة (وهو شيخه) ، وأحمد بن حنبل ، ويحيي بن معين ، وعلي بن المديني وغيرهم من الثقات . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٩ ، البخاري : التاريخ الكبير ١٣٠/٦ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ٦٠٩/٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٣١٠/٦ .

(٦) معمر بن راشد ، الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام الأزدي ، نزيل اليمن ، حدث عن قتادة والزهري وعمرو بن دينار وغيرهم ، وكان من أوعية العلم مع الصدق والتحري والورع وحسن التصنيف . الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥/٧ . ، تاريخ البخاري الكبير ٣٧٨/٧ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ١٥٤/٤ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢٤٣/١٠ ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٣٨٤ .

(٧) جاء هذا القول عند الإمام أحمد من طريقين وبصياغتين مختلفتين : الأول : عن عبد الأعلي ، عن معمر ، عن الزهري : « .. ولكن عائشة لا تطيب لها نفسًا » ، والثاني : عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري : « ولكن عائشة لا تطيب له نفسًا » . الإمام أحمد : المسند ، المجلد السادس .

على أن تذكره بخير [١] » .

والواقع أنني كدت أتجه بالريبة إلى معمر بن راشد لما وجدت يحيي القطان [٢] قد قاله فيه ، « إذ إنه قد نهي عن الكتابة عن معمر ، إذ روي - كما قال القطان - عمن لا يعرف ، لأنه كان لا يبالي عمن روي » [٣] غير أنني قد راجعت الجامع الصحيح للإمام مسلم فوجدت رواية عبد الرزاق عن معمر عنده ، وهي عن معمر ، عن الزهري ، ووجدته لم يذكر هذه الجملة التي ذكرها ابن حجر « ولكن عائشة لا تطيب نفسا لعليّ بخير » [٤] ، بل إنه ثمة طريق آخر لتلك الرواية عن الزهري أيضًا لم يعرض لهذا المعني [٥] ، ولعلهما الروايتان اللتان ذكر ابن حجر مجيء هاتين العبارتين فيهما ، غير أنه ذكرهما من طريقي الإسماعيلي وابن إسحاق .

فلو صح قول ابن حجر ، وأظنه صحيحًا ، فإنه يبدو أن مسلمًا أنكر هاتين العبارتين ، ولم يصحا عنده ، فلم يذكرهما عند تخريجه للروايتين ، ولو صحت هاتان العبارتان ، ولم يذكرهما البخاري ومسلم ، لَذكَرهما صاحبُ الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ، غير أنني لم أجده ذكرهما أيضًا [٦] .

وهو ما يعني أن هذا المعني قد جاء إما من عند الإسماعيلي أو من عند ابن إسحاق ، والاعتقاد الأقوي أنه من عند ابن إسحاق ، حيث إنه هو المتقدم وفاةً على الإسماعيلي[٧] ، وهو اعتقاد يتأكد إذا ما عرفنا أن الذهبي قال عن الإسماعيلي : « إنه جمع حديث الزُّهْرِيّ [٨] » ويتأكد كذلك بكون الرواية « عن عبد الرزاق عن

---

(١) فتح الباري : ٢/ ١٩٨ . (٢) سبق ترجمته .

(٣) الرامهرمزي : المحدث الفاضل : ٤١٨ ، نقلًا عن الدكتور محمد طاهر الجوابي : الجرح والتعديل بين المتشددين والمتساهلين : ٤٠٧، ٤٠٩ . ولقد نقل هذا القول مستدلًا به على أن شهرة بعض الرواة لم تمنع نقاد الحديث من ملاحظة جوانب تساهلهم . وقد أوضح أن التساهل في التحمل يكون بقبول رواية من لم تتوفر فيه كل الشروط المطلوبة في راوي الحديث الصحيح فيما يتعلق بعدالته وضبطه ، كالرواية عمن كان سيئ الحفظ ، وقد يكون بالرواية عمن لم تختبر حاله .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر حديث ٧٣ ، ٢/ ٦٠ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي : باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر حديث : ٧٣ ، ٧٤ . ٢/ ٦٠ ، ٦١ .

(٦) راجع الوادعي : الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ، وراجع أيضًا : ابن حجر : مسند عائشة .

(٧) توفي ابن إسحاق سنة ٢١٥ هـ ، والإسماعيلي سنة ٢٩٥ هـ.

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٤ / ١١٧ .

معمر عن الزهري [١] » ، وهذا القول الذي يُروي عن ابن إسحاق رواه عن الزهري أيضًا. ولعل التغيير في صيغة العبارة لدى كل منهما يقوي الظن بأنها عبارة زادها مَن زادها ، فهمًا وتفسيرًا من عنده هو ، ودخلت في الحديث المنسوب إلى أم المؤمنين عائشة ، بينما هي ليست من متن الحديث الأصلي عن ابن عباس .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه الجملة – حسب ما تيسر لي من بحث – إنما تعود إلى ابن إسحاق ، وربما انفرد بها ، والواقع أن ابن إسحاق فيما انفرد به لا يتابع ، على رأي المحققين الذين تعرضوا له جرحًا وتعديلًا [٢] ، وبالتالي تصبح هاتان العبارتان ، أو قل : العبارة الواحدة بصيغتيها ، بلا معنيً بالنسبة لنا .

لقد قيلت العبارتان تعليقًا على عدم تعيين عائشة لاسم الرجل الثاني الذي خرج رسول الله متكئًا عليه مع العباس ، وهو ما جعل الغلاة يستدلون بها على كراهية عائشة رضي الله عنها الشديدة لعليّ رضي الله عنه ، الأمر الذي يجعلنا نشير بإصبع الاتهام إلى وضع الغلاة لهذه العبارة .

والواقع أنني راجعت الرواية المفصلة عند مسلم فوجدتها أكثر وضوحًا ، ووجدت فيها : « قال عبيد الله : فدخلتُ على عبد الله بن عباس فقلتُ له : ألا أعرضُ عليك ما حدثَتْني عائشةُ عن مرض رسول الله ، ، قال : هاتِ . فعرضتُ حديثَها عليه فما أنكر منه شيئا . غير أنه قال : أَسَمَّت لك الرجل الذي كان مع العباس ، قلتُ : لا . قال : هو عليّ[٣] » .

فالرواية كما يتضح لنا قد عبرت عن موقف عبد الله بن عباس رضي الله عنه بالاستثناء المنقطع : « فما أنكر منه شيئًا ، غير أنه قال .. » ، وهذا النوع من الاستثناء يفيد أن الجملة بعد أداة الاستثناء جملةٌ جديدةٌ ، لها الصدارة ، فهي جملة مستَدْرَكَةٌ ، تضيف معنيً لم يكن في الجملة قبلها [٤] . فعدم إنكار ابن عباس لما سمع ، أمر لا صلة له بالجملة الجديدة ، حسب ما أفهم .

ولا تتبين لنا حقيقة عدم تعيينها رضي الله عنها للرجل الثاني إلا بأن نستمع إلى قول النووي

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢/ ٦٠ .

(٢) راجع ما ذكرناه في ترجمته في رواة الطبري بالمبحث التمهيدي . .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢/ ٦٠ ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر .

(٤) انظر عباس حسن : النحو الوافي ٢/٣٣٣ .

في ذلك ، قال : « فسّرَ ابن عباس الرجل الثاني بعليّ بن أبي طالب ، وفي الطريق الآخر – وهو عند مسلم أيضًا – : فخرج ويدٌ له على الفضل بن عباس ، ويدٌ له على رجل آخر ، وجاء في غير مسلم : بين رجلين أحدهما أسامة بن زيد ، وطريق الجمع بين هذا كله أنهم كانوا يتناوبون الأخذ بيده الكريمة ، وكان العباس ﷺ أكثرهم ملازمةً للأخذ بيده المباركة ، أو أنه أدام الأخذ بيده ، وإنما يتناوب الباقون في اليد الأخرى ، ولهذا ذكرته عائشة رضي الله عنها مُسمَّيً ، وأبهمت الرجل الآخر ، إذ لم يكن أحد الثلاثة الباقين ملازمًا في جميع الطريق ، ولا معظمه بخلاف العباس[١] » .

وكيف كان من الممكن أن تُبهم هذا الإبهام ، وهي تعلم أن كل ما يقال إنما يعرض على فقهاء الناس وعلمائهم ، ويتناولونه بالتحري والنظر والمراجعة ، كما حدث هنا من معارضة ابن عباس لعبيد الله بن عبد الله [٢] ؟ . وحاشاها رضي الله عنها أن يكون وازعها هو مراجعة المراجعين ، وحسب ، ومعاذ الله أن نقول كما قالت الرافضة من إبهام عائشة رضي الله عنها ، فيما روت لأجل ما كان بينها وبين عليّ ﷺ . فما كانت عائشة بالتي تستخِفُّها الخصومة إلى أن تَتَنَقَّص عليًّا ، فإنها شهدت له بالفضل التام ، مع ما بينهما من خلاف في الرأي ، إبان شدة الخلاف ، وبعدما انجلت المعركة مباشرة، حين لم تكن النفوس قد هدأت بعد [٣] .

وأعود فلا أتخيل كيف انطلت هاتان العبارتان على ابن حجر ، وظنَّهما مما يجوز على عائشة رضي الله عنها [٤] ؟ ! ولو قد قبلنا بجواز ذلك عليها ، فمن أين لنا بالثقة فيما روته لنا من الأحكام والتشريعات التي قيل إنها ربما بلغت ربع الأحكام الشرعية ، وقد ذكر هذا القول ابن حجر نفسه ، بل وأين القول العريض الذي قاله رحمه الله في عدالة الصحابة [٥] ، وقد كانت عائشة على القمة العالية منهم ﷺ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢/٦٠ ، بتصرف .

(٢) انظر : المكي أقلاينة : النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى ، مبحث : المذاكرة في عهد الصحابة ﷺ ٧٩ : ٨١ .

(٣) راجع ذلك في الأحداث بعد موقعة الجمل : الفصل الرابع من الباب الثالث في هذه الرسالة ، صفحة ٤٤٤ وما بعدها .

(٤) أقول ذلك لأن ابن حجر بعد إيراده للزيادة في متن الحديث ، والتي عرضنا لها في المتن ، قال : « وفي هذا [أي في الزيادة المذكورة] ردٌّ على من تنطع » ، فقال : « لا يجوز أن يظن ذلك بعائشة ، ورد على من زعم أنها أبهمت الثاني ، لكونه لم يتعين في جميع المسافة » . ابن حجر : فتح الباري : ٢/ ١٩٨ .

(٥) راجع ما قاله ابن حجر في عدالتهم ، وذلك في مقدمته لكتابه : الإصابة . وما ذكرناه في مقدمة هذا الباب .

جميعًا وأرضاهم [١] ؟ .

ولقد نعود إلى اللفظة التي قالوها عنها في عدم طيب نفسها أن تذكر عليًا بخير ، فنجد ما يناقضها فيما رواه مسلم في صحيحه عن شريح بن هانئ [٢] قال : أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين ، فقالت : عليك بابن أبي طالب فسله ؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله ، ، وفي رواية : ائت عليًا ؛ فإنه أعلم بذلك مني ... الحديث [٣] . كانت عائشة تعلم الحكم ، غير أنها كانت ترى عليًا أثبت في هذا الأمر لكثرة سفره مع رسول الله ﷺ ، فمن أين جاء قول القائل : « لكن عائشة لا تطيب نفسًا لعليّ بخير » ؟ [٤] .

المظهر الثاني : حادث الإفك

كانت هذه هي حقيقة ما ذكروه من « القول » بكراهية عائشة رضي الله عنها لعليّ ، والإشكال في « واقع الأمر » لا يزال قائما ، إذ إنهم قد اعتمدوا في تأكيد هذه المقولة التي ثبت لنا ضعفها ، أو وضح لنا الشك في صحة نسبتها إلى ابن عباس ، على عدة أمور : منها ما كان من عليّ رضي الله عنه أيام حادث الإفك [٥] . فماذا حدث منه في ذلك ؟ .

---

(١) لو جاء هذا الكلام على غير لسان ابن حجر ، لما كان لإيراده كبير فائدة ، فلابن حجر في حياتنا العلمية مكان رفيع ، ومكانة عالية .

(٢) شُرَيح بن هانئ : أبو المقدام الحارثي ، الكوفي ، الفقيه ، الرجل الصالح ، صاحب علي رضي الله عنه ، حدّث عن عليّ وعائشة وعمر وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة ، شهد التحكيم ، ووفد على معاوية شافعًا في كثير بن شهاب ، فأطلقه له . الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠٧/٤ ، المزي : خلاصة تهذيب الكمال ٣٣٠/٤ .

(٣) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي : كتاب الطهارة ، باب التوقيت في المسح على الخفين ٥٦٦/١ . وقد علق النووي على هذا السلوك وهذا القول من عائشة بقوله : « وفي هذا الحديث من الأدب ما قاله العلماء إنه يستحب للمحدث وللمعلم والمفتي إذا طلب منه ما يعلمه عند أجل منه أن يرشد إليه ، وإن لم يعرفه قال : اسأل عنه فلانا » . شرح النووي لصحيح مسلم ٥٦٨/١ .

(٤) وهذه العبارة نفسها كما دل التتبع هي التي استخدمها الأفغاني- واستخدمها من جاء بعده وأكمل البناء الواهي على أساسها - في قوله بسوء العلاقة بين عليّ وعائشة رضي الله عنهما ، ثم بدأ بعدها يحاول تقديم الحيثيات التي يؤكد بها هذه المقولة . الأفغاني : عائشة والسياسة : ٦٦ .

(٥) قال الأفغاني بذلك . عائشة والسياسة ٧٦ ، محمد رضا : محمد رسول الله : ٢٢٤ ، نقلًا عن د/ شعوط : ١٥٥ . وقالت زاهية قدورة : كانت عائشة تحمل لعليّ ضغنا وكرها منذ حديث الإفك . وقالت : وكان من أكبر العوامل التي دعتها إلى الخروج بعد ذلك ، وخروجها مع طلحة والزبير ، بعد أن أثارت الرأي العام على عليّ باتهامه بعدم مناصرة الخليفة عثمان ضد الثائرين عليه الذين قتلوه . عائشة أم المؤمنين ١٧٣ . وقال رياض عيسى : كان عليّ هو الذي أشار على النبي ، أيام حادثة =

روى البخاري أن رسول الله ، – لما كان ما هو معروف من حادث الإفك [١] – دعا عليا بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ﷺ حين استَلْبَث [٢] الوحي يستأمرهما في فراق أهله . قالت عائشة : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال : يا رسول الله ، أهلكَ ، وما نعلم إلا خيرًا . وأما عليٌّ فقال : يا رسول الله ، لم يُضَيِّق اللهُ عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقْكَ .

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة [٣] ، فقال : أي بريرة ، هل رأيت من شيءٍ يَريبُكِ ، قالت : لا والذي بعثك بالحق ، إنْ رأيتُ عليها أمرًا أغمِصُه عليها أكثرَ من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله [٤] . فقام رسول الله ﷺ فاستعذر[٥] يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول .. [٦] .

هذا الكلام الذي قاله عليّ إنما حمله عليه ترجيح جانب النبي ، لما رأي عنده من

= الإفك بطلاق عائشة والزواج إن شاء من غيرها. رياض عيسى : الحزبية السياسية ٢٤٤ ، محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية : ٥٢١ ، العقاد : الصديقة بنت الصديق : ١٣٢ . عبد الوهاب النجار : الخلفاء الراشدون : ٣٨١ . هشام جعيط : الفتنة ، جدلية الدين والسياسة : ١٤٦ .

(١) راجع ذلك مفصلًا في : فتح الباري ٥٧٨/٨ كتاب التفسير ، باب لولا إذ سمعتموه ، المقدسي : حديث الإفك ، ويليه من مناقب النساء الصالحات : ١٥ : ٤٠ ، وانظر : المقريزي : إمتاع الأسماع : ١/ ٥٨ .

(٢) استلبث الوحيُ : أي طال لبث نزوله . والوحيَ : أي استبطأ النبيُ ، نزوله .

(٣) بريرة : كانت بريرة مولاة لقوم من الأنصار ، وقيل : لآل عتبة بن أبي إسرائيل ، وقيل : لبني هلال ، وقيل لأحمد بن جحش ، فاشترتها عائشة فأعتقتها ، وكانت تخدم عائشة قبل أن تشتريها ، وقصتها في ذلك في الصحيحين . انظر ابن حجر : الإصابة : ٨/ ٥٠ .

(٤) قال ابن المنير في إجابة بريرة : هذا من الاستثناء البديع الذي يراد به المبالغة في نفي العيب ، فغفلتها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رميت به ، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات . وكذا في قولها في رواية هشام بن عروة : « ما علمت منها إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر » أي كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب ، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب . وفي رواية ابن حاطب عن علقمة قالت : « والله لعائشة أطيب من الذهب ، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله . قال : فعجب الناس من فقهها » . انظر فتح الباري : ٨/ ٦٠٢ .

(٥) استعذر : أي طلب من يعذره منه ، أي ينصفه . قال الخطابي : يحتمل أن يكون معناه : من يقوم بعذره فيما رمى أهلي به من المكروه ، ومن يقوم بعذري إذا عاقبته على سوء ما صدر منه ، ورجح النووي هذا الثاني . وقيل معناه : من ينصرني ، والعذير : الناصر . وقيل المراد : من ينتقم لي منه ، ويؤيده قول سعد في الرواية نفسها : أنا أعذرك منه .

(٦) ابن حجر : فتح الباري ، كتاب التفسير ٥٧٩/٨ .

القلق والغم بسبب القول الذي قيل ، وكان ، شديد الغيرة ، فرأى عليّ في بادئ الأمر أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها ، فيمكن رجعتها ، ويستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما . وقال النووي : « رأى عليّ أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه ، فبذل جهده في النصيحة ؛ لإرادة راحة خاطره ﷺ [(١)] » .

وهو موقف طبيعي جدًّا من قريب للزوج إذ أن مشاعره تكون متعلقة براحة رسول الله ، ورغبته في ألا يرى ما به من قلق وضيق ، على أن عليًّا رضي الله عنه لم ينل عائشة رضي الله عنها بأدنى كلمة يُفْهَم منها أنه قد عرَّض بأخلاقها أو تناولها بسوء ، فإنه على الرغم من قوله لرسول الله ﷺ « لم يضيق الله عليك .. » ، إلا أنه عاد فقال لرسول الله ﷺ ، ناصحًا : « وسل الجارية تصدقك » ، فهو قد دعاه إلى التحري أولًا قبل أن يفارقها . أي أنه قد رجع عن نصيحته الأولى بالمفارقة ، إلى نصيحة أخرى بسؤال الجارية ، وتحري الحقيقة .

كنتُ قد توصلت إلى هذا المعني استنباطًا ، ثم وجدته بعد ذلك منصوصًا عليه في قول الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة [(٢)] ، قال : لم يجزم عليّ بالإشارة بفراقها ؛ لأنه عقب ذلك بقوله : « وسل الجارية تصدقك » ، ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ ، فكأنه قال : إنْ أردتَ تعجيل الراحة ففارقها ، وإنْ أردتَ خلاف ذلك فابحثْ عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها ؛ لأنه كان يتحقق أن الجارية لا تخبره إلا بما علمته ، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة [(٣)] .

على أنني لا أرى ما رآه الشيخ في القول بتخيير عليّ لرسول الله ﷺ في تعجيل مفارقتها ، أو التحقق من براءتها ، إذ إن هذا التخيير غير واضح في الحديث ، كما

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٥/ ٦٣٤ .

(٢) أبو محمد بن أبي جمرة : الشيخ الإمام المعمر ، مُسْنِد المغرب ، أبو بكر ، محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسي بن عبد الملك بن وليد الأموي ، مولاهم ، الأندلسي المرسي ، قال ابن الأبَّار في [التكملة] : عُني بالرأي وحفظه ، وولي خطة الشوري ، وهو ابن نَيِّف وعشرين سنة ، وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وتقلد قضاء مرسية وشاطبة مرات ، وكان بصيرًا بمذهب مالك ... حسن البيان ، عدلا ، جزلًا ، عريقًا في النباهة والوجاهة . مات بمرسية سنة ٥٩٩ هـ عن نيف وثمانين سنة . انظر الترجمة الحافلة له عند ابن الأبار : التكملة : ٢/ ٥٦١ ، ٥٦٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب : ٤/ ٣٤٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٣٩٨/٢١ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ٦٠٠/٨ .

أنه ضد مقتضى العدل الذي تربى عليه عليّ ﷺ جيدًا ، فأين حق المرأة التي تتهم زورًا ، ويعرضها هذا الفراق إلى تأكيد الأقاويل فيها ، وإدانتها إدانة دامغة ، إذ إنه لو علم زوجها فيها خيرًا ما طلقها ، هذا مع مرارة الظلم وغصته من أقرب الناس إليها: زوجها . ولو صحَّ قصد عليّ ﷺ لهذ التخيير لما سكت رسول الله ﷺ عما به من ظلم،ولكان اعترض عليه قولًا ، كما لم يأخذ به فعلًا .

وإنما الأكثر وضوحا أنه قال قوله الأول ، ثم عاد عنه إلى القول الأخير بالتحقق وسؤال الجارية ، وهو قول يتأكد عندي بما تمَّ بعدُ من سؤال رسول الله ﷺ للجارية التي كانت أكثر التصاقا بعائشة ، فأكدت أنها ما علمتْ من عائشة إلا خيرًا ، ولو تأملنا الحديث لوجدنا أن رسول الله ، قد خرج من يومه الذي سأل فيه الجارية – بناء على نصيحة علي ﷺ – فاستعذر من عبد الله بن أبي قائلا : « يا معشر المسلمين من يعْذِرُني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيرًا [1] » .

بدت نصيحة عليّ وأسامة بن زيد معًا إيجابيتان ، وفي صالح عائشة رضي الله عنها ، فقد ازداد ، قناعة بما علم من خير في أهله ، فهل أغضب هذا الموقف عائشة ، ولماذا؟ . حقيقة الأمر أنه قد أغضبها ، فلقد روى البخاري عن الزهري قوله عن عائشة أنه : « كان عليٌّ مُسَلِّمًا [2] في شأني [3] » ، وهو ما قد يبدو كرأي لعائشة رضي الله عنها في موقف عليّ . فما الذي دعاها إلى هذا القول ؟ .

أقول : كأنها كانت رضي الله عنها تتوقع منه فوق ما قال ، لا لاعتبار مكانها الرفيع فقط ، بل لما له عندها من مكان كانت تتوقع معه منه شهادة واضحة في حقها ، يدفع بها عنها ، ويدعم بها موقفها هذا العصيب ، لكن خاب ظنها ، خاصة وقد قارنت في نفسها – كما يبدو واضحًا من الرواية – بين موقف عليّ وموقف أسامة ، والمقارنة المؤلمة – كما يبدو لي من الرواية – كانت في قولها عن أسامة : « فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ٨/٥٨٠ .

(٢) ذكرها البخاري بكسر اللام فمعناها : التسليم لذلك . وجاءت في روايات أخرى عن غيره بفتح اللام ، ومعناها حينئذ : سلامته من ذلك ، وقال ابن التين : روي « مسيئًا » ، وفيه بُعد ، إلا أن ابن حجر قال : « بل هو الأقوى من حيث نقل الرواية » ، وقد ذَكَرَ عن النَّسفي ما رواه عن البخاري بلفظ : « مسيئًا » . انظر : فتح الباري : ٧/ ٥٥٤ .

(٣) فتح الباري ٧/ ٥٥٢ ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك .

الوُدّ » ، وبين ما لم تجده عند عليّ ﷺ كما هيئ لها ، فهذان هما العنصران اللذان آلم عائشة رضي الله عنها ألا تجدهما عند عليّ ﷺ .

لقد اعتبرتْ أم المؤمنين عائشة هذا المستوى من عليّ – رغم عدم تجنيه ورغم عدم تناوله لها بما يسوء – تقصيرًا منه في حقها عليه [١] . لكن هذا لم يتجاوز – في يقيني – كونه إحساسًا ، مجرد إحساس .

موقف عليّ ﷺ من حادث الإفك إذن ليس هو الموقف الذي يحق لعائشة ، بل إنه لم يكن الموقف الذي جعل عائشة تغضب منه ﷺ لأجله ، أو تحقد الحقد الذي يجعلها تتهمه زورًا بقتل عثمان ، وتخرج عليه مؤلبة الأعداد الهائلة من المسلمين كما زعم كثير من الباحثين ، ولو كانت قد أحست بالغضب ، وقد حدث ذلك حقًّا ، فما كان بالغضب الذي تَسْوَدُّ معه صفحةُ النفوس العالية ، وما هي عليه من تغافر ووُدّ ، ولقد جاء في بعض الروايات أن عائشة رضي الله عنها قالت : « إن عليًّا أساء في شأني » ، وعقبت على ذلك فقالت : « والله يغفر له [٢] » . كان غضبًا أقرب إلى العتاب منه إلى الحقد والكراهية ، ليست عائشة أبدًا المرأة التي يمكن أن تحقد [٣] .

ولقد يصبح من المفيد التّنْبِيه على أن كثيرًا من الروايات التي كان فيها القول

---

(١) وأما ما ذكرته قدورة [عائشة أم المؤمنين ١٧٩] من القول بغضب عائشة القائم على مقارنتها بين موقف عليّ منها ، وموقفه من تهمة مارية القبطية ، حيث بذل جهده في التحقق من الأمر حتى ظهرت براءتها . فهو قول لا أساس له من الصحة ، كما بدا لنا ، إذ إن محاولة عليّ ﷺ للتحري كانت موجودة في حالة عائشة أيضًا . هذا ومقارنة الباحثة بين الحالتين – إذا صح أن عليًا ﷺ لم يحاول التحري في مسألة عائشة – ولا يصح كما بينا بمتن الرسالة لا تُقبل أيضًا ، وإنما يمكن تفسيرها بأنه ﷺ ، لما ذكر ما كان في أمر عائشة من الظلم الذي وقع عليها ، توقف هنا متريثًا ، ومتحريًا ، ومحققًا كي لا يتكرر الخطأ . هذا إلى كون مسألة مارية من المسائل غير المحققة ، وغير الموثوق بها أيضا ، وهي تحتاج إلى دراسة وبحث .

(٢) من رواية ابن مردويه ، نقلًا عن فتح الباري ٧/ ٥٥٥ .

(٣) ويكفي أن نشير هنا سريعا إلى موقفها من حسان بن ثابت ، وكان من المذكورين في حادث الإفك ، روى البخاري ٨/ ٦٢١ ، ذكر مسروق : دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبَّب وقال :

حصان رزان ما تُزَنُّ بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

قالت عائشة : لستَ كذاك . قلت [قال مسروق] : تَدَعِين هذا يدخل عليك ، وقد أنزل الله ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ فقالت : وأي عذاب أشد من العمى – كان حسان قد عمي – وقد كان يَرُدُّ عن رسول الله ﷺ ، كان هذا هو موقفها من حسان ، وقد كان من المذكورين صراحةً في الإفك بتناول عائشة ، فما حقدت ، ولا اضطغنت ، فهل يمكن أن يكون موقفها من على بالسوء الذي صوروه به .

بإساءة عليّ إلى عائشة في أمر الإفك ، كانت روايات وضعها من لا خير فيهم من الناصبة [١] ، تقربًا إلى بني أمية ، لعلمهم بانحرافهم عن عليّ [٢] ، وهو ما كان له أثره في إشاعة هذا البهتان ، ووضعها أيضًا الشيعة ، كما تبين لي من مراجعة مصادر الباحثين الذين تبنوا هذا الزعم الباطل دون تمحيص لهذه المصادر ، أو البحث الأمين في الروايات ، ومقارنتها بغيرها في نفس الموضوع .

المظهر الثالث : العلاقة بين عائشة وفاطمة

في محاولاتهم لتقديم أكبر قدر من الحيثيات التي يتأكد لنا بها كراهية عائشة لعليّ ﷺ ، ومن ثم الطعن في الهدف الحقيقي الذي كان وراء خروج عائشة ، قالوا : إن العلاقة بين فاطمة وعائشة كانت سيئة ، واعتمدوا في تقرير هذا السوء الذي قالوا به على تخمينات من عند أنفسهم ، لم تستند إلى رواية واحدة صحيحة .

قالوا : كانت عائشة أول زوجة بني بها الرسول بعد خديجة أم فاطمة ، ولقيت منه دلالًا وحبًا ، فأثار ذلك في نفس فاطمة الزهراء الألم والامتعاض ، ولاشك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى عليّ ، وكانت عائشة نفسها تشعر بهذا التوتر في العلاقات بينها وبين فاطمة ، ثم بالتالي مع عليّ ، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة السوء الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى ، فتزداد العلاقات توترًا ، فتجد فاطمة من زوجها ملجأ تشكو إليه ، وتجد عائشة من أبيها مرجعًا تتألم لديه [٣] ..

وقالوا : إلى جانب هذا العامل سبب يماثله أن الرسول كان يحب فاطمة حبًا شديدًا ، وقد وضعها في مقام مريم بنت عمران ، فقال فيها : « سيدة نساء العالمين ، وإنها عديلة مريم بنت عمران » .. ولا شك أن ذلك يثير في نفس عائشة ألمًا ، فقد

---

(١) الناصبة : هم العثمانية ، وهم قوم كانوا يتدينون ببغضة عليّ ﷺ . ابن منظور : لسان العرب .

(٢) روي البخاري ٧/ ٥٥٢ ، عن الزهري قوله : « قال لي الوليد بن عبد الملك : أَبَلَغَك أنَّ عليًا كان فيمن قذف عائشة ، قلت : لا ، ولكن حدثني رجلان من قومك .. أن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان علي مسلِّمًا في شأني » ، فراجعوه ، فلم يرجع – أي راجعوا الزهري في قوله ، فلم يرجع عنه – ولقد جاء عن الزهري أيضًا : أن هشام بن عبد الملك كان يعتقد أن الذي تولي كبر الإفك هو على بن أبي طالب ، وكان يراجع العلماء في ذلك ، حتى بلغ به الأمر أن قال لابن شهاب ، لما قال له إنه عبد الله بن أبيّ : « كذبت ، هو علي » . فما كان من ابن شهاب إلا أن قال له : « أنا أكذب لا أبا لك ، والله لو نادى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت ، حدثني عروة ، وسعيد ، وعبيد الله ، وعلقمة عن عائشة أن الذي تولي كبره عبد الله بن أبيّ .. » . وراجع أيضًا محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ﷺ ٤/ ٢٢٩ .

(٣) قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٧٩ .

كانت تود ألا يشاركها في منزلتها أحد ، وألا يفوقها شخص في مكانتها ، وقد رأينا في مظاهر الغيرة عندها أنها كانت تغار من خديجة ، وهي بين الأموات ... وزاد الأمر تعقدًا ما نقل لعائشة عن عليّ وفاطمة أيام محنتها بحديث الإفك من أنهما أظهرا شماتة سرًّا .. وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أنها يؤذيها تقريب الرسول لعليّ ، يدفعها في ذلك الحسد والغيرة. ولقد كان يسوء عليًّا وفاطمة ما تلقاه عائشة من حب الرسول ، خاصة وقد اختار النبي في مرضه الأخير أن يمرض في بيتها ، وكانت فاطمة وعليّ يرجوان أن ينالهما هذا الفخر .. [١] .

أما ما انتهى إليه البحث عندنا : فهو أن نقول : إن أغلب هذه الأقاويل لا يستند إلى رواية صحيحة أو غير صحيحة ، وإن ما يستند منها إلى روايات صحيحة قائم على ليّ أعناق الروايات وتوظيفها توظيفًا يتنافى مع روح العلم ومصداقيته .

وإن مراجعة رواية واحدة صحيحة رواها مسلم والبخاري ، تكفي لدحض هذه الآراء التي ذهب إليها هؤلاء الباحثون ، والتي لم تستند إلى قول ، أو فعل صحيح . بل إن هذه الرواية الصحيحة تؤكد - في ذات الوقت - تميز علاقة السيدة عائشة رضي الله عنها بالسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وإجلال عائشة العظيم لها ، وهذه الرواية هي ما رواه مسلم عن عائشة قالت :

« كنا أزواج النبي ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة ، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مِشْيتها من مِشْية رسول الله ﷺ ، فلمارأها رحب بها فقال : مرحبا بابنتي ، ثم أجلسها عن يمينه ، أو عن شماله ، ثم سارَّها [٢] فبكت بكاء شديدًا ، فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكتْ ، فقلت لها : خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرَارِ ثم أنت تبكين ، فلما قام رسول الله ﷺ سألتُها ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قالت : ما كنت أُفْشِي على رسول الله ﷺ سره » .

قالت : فلما توفي رسول الله ﷺ قلت : عزمتُ عليك بما لي عليك من الحق لما حدثْتِني ما قال لك رسول الله ﷺ ، فقالت : أما الآن فنعم . أما حين سارَّني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين ، وإنه عارضه الآن مرتين ، وإني لا أرَى الأجل إلا قد اقترب ، فاتقي الله واصبري ؛ فإنه

---

(١) قدورة : السابق : ١٨٠ .

(٢) سارَّها : أسر إليها .

نعم السلف أنا لك . قالت : فبكيت بكائي الذي رأيتِ . فلما رأى جزعي سارَّني الثانية فقال : يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ قالت : فضحكتُ ضحكي الذي رأيتِ [١] » .

أول ما في هذه الرواية من ردود على ما ادُّعي من سوء علاقة السيدة عائشة بفاطمة ، هو أن هذه الرواية في فضائل فاطمة رضي الله عنها إنما روتها عائشة ، ولقد يبدو الود فيها واضحا بينهما رضي الله عنهما ، وذلك من وصف عائشة لمشيتها الكريمة ، وحرصها على كفكفةِ دموعها ، وعزمها بعد ذلك على فاطمة بما هو مؤكد عندها وعند فاطمة من الحق الذي لعائشة على فاطمة .

وعائشة هي التي تحدثت عن محبة رسول الله لفاطمة وإكرامه لها ، ولقد جاء عن عائشة : « ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا ، وهديًا ، ودَلًّا برسول الله ﷺ بقيامها وقعودها من فاطمة ، كانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبلها ، وأجلسها في مجلسه ، وكان إذا دخل عليها فعلت ذلك [٢] » وهي التي روت هذه الرواية التي تَقَرَرَ بها عند العلماء أن فاطمة هي سيدة نساء هذه الأمة . فكيف يصح عند هؤلاء الباحثين ، بميزان الحقيقة التاريخية ، والعلمية ما زعموه ، ولوثوا به العلائق الرفيعة ؟ .

وأما ما ذكروه من غَيْرة عائشة من خديجة ، وأثر ذلك في إشعال نار الألم داخل عائشة ، فهو أيضًا لا يستقيم إذا ما تذكرنا شيئًا واحدًا ألا وهو أن كل ما روي من أحاديث الغيرة التي كانت تغارها عائشة رضي الله عنها من أمهات المؤمنين جميعًا ، ومن خديجة على وجه الخصوص قد روته عائشة نفسها ، بل إن النصيب الأكبر مما ذكر في فضائل خديجة أم المؤمنين إنما عرفناه من عائشة رضي الله عنها [٣].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٣١٦/٥ كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل فاطمة ، فتح الباري : ٧/ ٩٧ ، باب مناقب قرابة النبي ، ، منقبة فاطمة عليها السلام ، وانظر : ٧/ ١٢٣ ، ٨/ ١٧١ كتاب المغازي : باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وكذا الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين : ٢/ ٤٧٦ ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء ٣٧٩ ، والسيوطي : مسند فاطمة الزهراء : ٧٨، ٧٩ .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم من طريق عائشة بنت طلحة . راجع السيوطي : مسند فاطمة الزهراء : ٥٧ ، ٦١ وتأمل رواية عائشة عن رسول الله ﷺ : « سيدات نساء أهل الجنة أربع : مريم ، وفاطمة ، وخديجة ، وآسية » . والرواية الأخرى عنها في أنها سئلت : من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة . قال : لسنا نسألك عن النساء . قالت : زوجها .

(٣) صحيح مسلم ٥/ ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ في فضائل خديجة أم المؤمنين .

المظهر الرابع : زعم اتهام عليّ لعائشة بالتمهيد لخلافة أبي بكر

وقالوا : كانت خلافة أبي بكر تدبيرًا دبرته عائشة ، واتهمها بذلك عليّ . كما كانت خلافته أيضًا سببًا في إثارة عاملين مختلفين ، عند عائشة من جهة وعند عليّ وفاطمة من جهة أخرى ، أما عائشة : فقد زهت بما أصابها من خير .. وأما عليّ وفاطمة : فكانت مبايعة أبي بكر خيبة أمل وصدمة لهما [١] ؛ ذلك أن عليًا كان يظن أنه لن ينازعه أحد في هذا الأمر [٢] .. ، وكانت فاطمة تناضل في سبيل عليّ وتجادل في خلافة أبي بكر [٣] . وكان عليّ وأنصاره يذيعون أن النبي أوصى لعليّ ، فكانت عائشة ترد بنفي هذه الوصية .

وأما ما ذكروه من دعوى أن عليًا ﷺ قد اتهم عائشة بأنها هي التي دبرت أمر إمامة أبي بكر الصديق للصلاة في مرض الرسول ﷺ ، وذلك بأمرها لبلال ، مولي أبيها [تأمل الحرص على القول بهذه الموالاة ، لإثبات التآمر] ، أن يأمر أباها فليصل بالناس [٤] . فإن هذه الرواية التي اعتمدوا عليها لابن أبي الحديد لا يسقطها كونها من عنديات ابن أبي الحديد ، أو أنه لم تصح رواية واحدة تذكر هذه التهم من عليّ لعائشة وحسب ، وإنما – وهذا هو الأهم – أن ثمة روايات أخرى تناقضها تمامًا جاءت عند البخاري ، ومسلم ، وفيها محاولات عائشة رضي الله عنها الجادة لصرف الخلافة عن أبي بكر ﷺ :

ففي إحدي الروايات : أن عائشة رضي الله عنها قالت : « يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِع الناس » ، وقالت مرة : « لقد راجعتُ النبي ﷺ في ذلك ، وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدًا [٥] ،

(١) زاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨٠ .

(٢) تأمل في ذلك قول العقاد في « عبقرية الإمام » : ١٠٦ ، قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨٠ .

(٣) قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨٠ .

(٤) قدورة : عائشة أم المؤمنين ١٨١ ، وقد اعتمدت في ذلك على رواية لابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : ٤٥٩/٢ .

(٥) لقد فهمت السيدة عائشة ، كما فهم أبو بكر ﷺ أن الإمامة الصغرى التي أمر بها الرسول ، هي الطريق إلى الإمامة العظمى ، وعلم ما في تحملها من الخطر ، فأراد أن يصرفها عن نفسه ، ولو فهما من الأمر النبوي بإمامة الصلاة مجرد الإمامة الصغرى ، لما كان هناك من مدعاة لكل المحاولات التي حاولاها ﷺ ، ليصرفا الإمامة عن أبي بكر . ويدل على هذا القول بأنهم فهموا أن الإمامة الصغرى هي الطريق إلى الإمامة العظمى أن الصحابة ﷺ لما أرادوا مبايعة أبي بكر ، كانت أقوى حيثياتهم هي أن الرسول ، قد استخلفه على الصلاة ، وهي أعظم مظاهر الدين ، فكيف لا يختارونه لدنياهم ؟!

وإلا أني كنت أرى أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به ، فأردتُ أن يعْدِل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر « وفي مرة ثالثة طلبت من حفصة أن تكرر عليه الطلب ، فأصر ﷺ ، قائلًا : إنكن لأنتن صواحب يوسف [١] » . وفي مرسل الحسن : « أن أبا بكر أمر عائشة أن تكلم النبي ﷺ أن يصرف ذلك عنه ، فأرادت التوصل إلى ذلك بكل طريق فلم يتم [٢] » .

فهذه الروايات الصحيحة جميعًا تكشف زيف رواية ابن أبي الحديد ، وتدفع – في الوقت نفسه – عن السيدة عائشة دعوى تمهيدها لخلافة أبيها ، فضلًا عن دعوى زهوها على السيدة فاطمة ، وعليّ بهذه الخلافة .

والقول برفض عليّ وفاطمة لخلافة أبي بكر الصديق ﷺ قول لا صحة له إلا عند الشيعة ، والصحيح الذي لا يختلف فيه علماء المسلمين هو أن عليًّا ﷺ قد بادر إلى بيعة أبي بكر الصديق[٣] ، وكان يرى أبا بكر خير المسلمين بعد رسول الله ﷺ [٤] .

ويدل على ذلك أيضًا الآثار من شهوده معه الصلوات ، وخروجه معه إلى ذى القَصَّة [٥] بعد موت رسول الله ﷺ [٦] ، وقوله لأبي بكر لما همَّ بالخروج مع الجيوش لقتال المرتدين ، آخذًا بزمام راحلة أبي بكر : « إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد : لُمَّ سيفك ، ولا تفجعنا بنفسك ، فو الله لئن

(١) فتح الباري : ٢/ ١٩٥ ، وصحيح مسلم بشرح النووي : ٢/٦١ ، كتاب الصلاة ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر . (٢) ابن حجر : فتح الباري : ٢/ ١٩٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية : ٦/ ٣٠٦ ، ٣٣٨ . وفيها اتفاق الصحابة ﷺ على بيعة الصديق ، حتى علي بن أبي طالب ، وعن هذه الرواية التي ذكرت ذلك ، وخرَّجها البيهقي ، والحاكم في مستدركه ، ورويت أيضًا من طريق المحاملي ، قال الحافظ أبو علي النيسابوري : سمعت ابن خزيمة يقول : جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث ، فكتبته له في رقعة ، وقرأت عليه ، فقال : هذا حديث يساوي بدنة؛ فقلت : يساوي بدنة ، بل هذا يساوي بدرة . وراجع : لإمام الحرمين ، أبي المعالي عبد الملك الجويني :لُمَع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة : ١١٥ ، وفيها قوله : « إن المسلمين أجمعوا على إمامة أبي بكر ﷺ ، وانقادوا – بأجمعهم – له من غير مخالفة » .

(٤) وذلك لما رواه البيهقي ، عن الشعبي ، عن أبي وائل ، قال : قيل لعلي بن أبي طالب : ألا تستخلف علينا ، فقال : « ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم » . انظر ابن كثير : ٥/ ٢٢٠ ، وقد قال في هذا الحديث : إسناده جيد ، ولم يخرجوه . (٥) ذي القصة : مكان على مرحلة من المدينة .

(٦) وفي قصة المسير إليها حين عقد أبو بكر ألوية الأمراء الأحد عشر لحروب الردة ، انظر : ابن كثير : البداية ٦/ ٣١٩ .

أُصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا [١] » ، هذا مع بذله له النصيحة والمشورة بين يديه طيلة خلافته .

وأما أن تكون فاطمة رضي الله عنها رافضة لهذه الخلافة ، فهو أيضًا من ادعاءات الشيعة على فاطمة رضي الله عنها ، حيث زعموا أنها كانت تناضل في سبيل عليّ ، وتجادل في خلافة أبي بكر [٢] ؛ فلم يصح عنها في ذلك رواية واحدة صحيحة حسبما أعلم .

المظهر الخامس : الزعم بإخفاء عائشة القول بالوصية لعليّ

وقالوا : كان عليّ وأنصاره يذيعون أن النبي أوصي لعليّ ، فكانت عائشة ترد بنفي هذه الوصية ، وفي زعمهم أن عليًا حقد على عائشة أنها كانت تنفي أن يكون الرسول ،قد أوصي لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة [٣] – وهو نفي صحيح منها رضي الله عنها ، جاءت به الروايات الصحيحة [٤] – فإن أبلغ رد على دعوى هذا الحقد المتبادل بينهما ، لأجل رفضها لهذا القول المزعوم بالوصية [٥] ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣١٩ . والرواية في ذلك من طريقين هما : ما ذكره الدارقطني ، عن مالك ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عمر . والطريق الأخرى ما ذكره زكريا الساجي من حديث عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، والزهري أيضًا ، عن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة .

(٢) انظر على سبيل المثال : محمد إسماعيل إبراهيم : أضواء تاريخية على أسرة النبي ﷺ ، وأهل البيت : ٩٥ ، ٩٨ ، قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨٠ ، وقد اعتمدت على شرح نهج البلاغة : ٢/ ٤٥٩ ، محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر : ٧٤ ، الإمامة والسياسة : ١٢ . وانظر في هذه الدعوي ، وردها الأستاذ الدكتور : إبراهيم على شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ : ١٠٠ : ١١٦ .

(٣) قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٨١ .

(٤) البخاري : صحيح البخاري ، من كتاب فتح الباري ، كتاب المغازي ١٨٧/٨ حديث ٤٤٥٩ ، وفيه : ذكر عن عائشة أن النبي ﷺ أوصى إلى عليّ ، فقالت : من قاله ؟ لقد رأيت النبي ﷺ ، وإني لمسندته إلى صدري ، فدعا بالطَّسْت فانخنس فمات ، فما شَعَرتُ ، فكيف أوصي إلى عليّ ؟ . وانظر أيضا باب آخر ما تكلم به النبي ، ١٧٩/٨ وشرح ابن حجر له .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/ ٢٢١ .

وأما هذا القول فمصدره الرافضة ، وانظر في ذلك ما ذكره ابن حجر عن العقيلي في « الضعفاء » في ترجمة حكيم بن جبير ، من طريق عبد العزيز بن مروان ، عن أبي هريرة ، عن سلمان أنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن الله لم يبعث نبيًا إلا بين له من يلي بعده ، فهل بين لك ، قال : نعم ، على بن أبي طالب » ، ومن طريق آخر : « من وصيك ، قال : وصيّ ، وموضع سري ، وخليفتي على أهلي ، وخير من أخلفه بعدي على بن أبي طالب » ، ومن طريق عبد الله بن السائب ، عن أبي ذر : « أنا خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء » . انظر ابن حجر : فتح الباري ٨/ ١٨٩، ١٩٠ ، وقد أوردها مع غيرها ابن الجوزي في « الموضوعات » .

هو أن عليًّا ﷺ نفسَه قد رفض القول بالوصية رفضًا جازمًا [١] .

والقول بالوصية ، على كل حال ، هو قول شيعي خالص ، لا يعترف به علماء السنة ، ولا يستند إلى دليل تاريخي صحيح ، ولقد ناقش ابن كثير هذه الفكرة ، ورد عليها ردًّا علميًّا مجيدًا [٢] .

المظهر السادس : العوامل النفسية

ولم تكتف هذه الدراسات بما انتهت إليه من آراء اعتمدوا فيها على روايات تاريخية صحيحة ، لم يفهموها على حقيقتها ، أو على روايات غير صحيحة أخذوها من المصادر ، دون بحث في صحتها من عدمه ، لكن ذهب أصحاب هذه الدراسات إلى تخمينات وتصورات لا أساس لها من رواية ، أو حتى قرينة يُستدل بها على قولهم .

فكان من هذا القبيل قولهم : إن العوامل النفسية لعبت دورها العظيم في هذا الخلاف ، فلم ترزق عائشة أولادًا ، وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولادًا ، ورزقت فاطمة البنين والبنات ؛ فكان الرسول يحبهم .. فيثير ذلك في نفس عائشة الغيرة الشديدة . وظهرت نقمتها الشديدة على عليّ ، وفاطمة لما علمت أنهما قد أظهرا الشماتة بها إبان حادث الإفك . ولما توفيت فاطمة لم تُعَزِّ عائشة عليًّا ، فيروى أن نساء النبي جميعًا ذهبن يعزينه إلا عائشة فإنها ادعت المرض [٣] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/ ٢٢١ .

(٢) ويقول ابن كثير : ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة ؛ فإنهم كانوا أطوع لله ورسوله في حياته ، وبعد وفاته من أن يفتئتوا عليه ، فيقدموا غير من قدمه ، ويؤخروا من قدمه بنصه .. ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطؤ على معاندة الرسول ، ومضادتهم له في حكمه ، ونصه ، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام ، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام ..... ثم لو كان مع عليّ ﷺ نص فلم لم يحتج به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم ، وإمامته لهم ، فإن كان لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز ، والعاجز لا يصلح للإمارة ، وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن ، والخائن الفاسق مسلوب معزول عن الإمارة ، وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل . ثم وقد عرفه – كما تزعم رواياتهم – وعلمه من بعده هذا محال ، وافتراء وجهل وضلال . وإنما يحسن هذا في أذهان الجهلة ... يزينه لهم الشيطان بلا دليل ، ولا برهان . ابن كثير : البداية والنهاية : ٥/ ٢٢١ .

والعجيب بعد ذلك أن العقاد ، وهو ممن لم يتبنوا الرأي القائل بالوصية لعليّ ﷺ يقول : إنه مما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافًا أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه ، وأنه كان يرى أن قرابته من النبي مزية ترشحه للخلافة . العقاد : عبقرية الإمام : ١٠٦ .

(٣) راجع هذه الأمثلة وغيرها عند : رياض عيسى : الحزبية السياسية ٢٤٤ : ، سعيد الأفغاني : عائشة والسياسة ٦٢ ، وزاهية قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٧٨ وما بعدها .

فهو قول يدعو إلى العجب الشديد من البحث التاريخي القائم على غير مروية صحيحة ، والقائم في الوقت نفسه على إسقاط العادات الشخصية ، والأعراف الاجتماعية في زمننا هذا على زمن الصحابة ﷺ ، والذي يمنح نفسه الحق في تقرير القول بما في سرائر الصحابة ﷺ ، والسرائر لا يعلمها إلا الله .

ولا أدري أين ما نفِسَتْه عائشة على فاطمة في مسألة الأولاد التي ذكرتها الباحثة ، ولقد روي الطبري عن عائشة نفسها - فيما ذكره ابن حجر - أن رسول الله ﷺ لما سارَّ فاطمة قال لها : « إن جبريل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المسلمين أعظم ذرية منك ، فلا تكوني أدني امرأة منهن صبرًا [1] » .

ولا أجد لهم من رد سوى ما قال الدكتور إبراهيم شعوط رحمه الله : إن الذين صوروا عائشة أم المؤمنين بهذه الصورة . لم يعرفوها أبدًا .. وإنما صوروا امرأة من نساء عصرهم : تدفعها العاطفة ، ويقودها التهور ، وتستجيب لهواها وأحقادها [2] .

الخطأ المنهجي وراء هذه المزاعم

لقد كان ينبغي لهؤلاء الباحثين أن يتنبهوا إلى حقيقة « عدالة الصحابة » ﷺ التي أشرنا إليه في مقدمة الرسالة . وإلي أهمية أن نصدر في أبحاثنا من منطلق الواقعة التاريخية الصحيحة أولًا . ولعله من المفيد أن نشير إلى أن مراعاة ما تتميز به كل مرحلة تاريخية ، أو جيل تاريخي يعد أمرًا منهجيًّا بالدرجة الأولى ، يسري حكمه على كل المراحل وعلي كل الأجيال التاريخية ، بمعني أنه لا يصح أن تقاس مرحلة تاريخية على مرحلة تاريخية أخرى ، ولا جيل على جيل آخر .

هذا الأمر المنهجي ذكره ابن خلدون من زمن بعيد ، موضحًا أنه ينبغي أن يتخذ الباحث في شئون الاجتماع أقصى ما يمكن اتخاذه من الحذر والحيطة والقصد في قياس الغابر على الحاضر ، وذلك أن المبالغة في هذا القياس والغفلة عن طبيعة الظواهر الاجتماعية وتطورها ، وعدم ثباتها على حال واحدة كل ذلك خليق أن يوقع الباحث في الزلل ، ويحيد به عن السبيل ، « فالقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة ، ومن الغلط غير مأمونة ، تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده ، وتعوج به عن مراميه ، فربما سمع السامع كثيرًا من أخبار الماضين ، ولا يفطن لما وقع من تغير

(١) ابن حجر : فتح الباري : ٨/ ١٧٢ .
(٢) شعوط : أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ : ١٥٥ .

الأحوال وانقلابها ، فيُجريها لأول وهلة على ما عرف ، ويقيسها بما شهد ، وقد يكون الفرق بينهما كبيرًا ، فيقع في مهواة الغلط » [١] .

لقد كان ما أثبته البحث في ثنايا البحث من الأسباب والأهداف الحقيقية لخروج السيدة عائشة رضي الله عنها كافيًا ، في إيضاح حقيقة خروجها ، لولا شيوع التأكيد على سوء العلاقات بين السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعليّ رضي الله عنه ، وهو شيوع استند إلى مرويات تاريخية وحديثية ، الأمر الذي دفع البحث إلى محاولة سبر أغوار هذه الأقوال في هذه الكراهية ، لفهمها على وجه الصواب ، وتحرير هذه العلاقة والتحقق منها ، ومن طبيعتها ، وذلك لما يمكن أن يؤدي إليه ثبوت القول بهذه الكراهية ، أو نفيه من أثر في تقييم مدى رشادة الدور السياسي الذي قامت به السيدة عائشة في هذا الخروج إلى البصرة [٢] ، كما أشرنا من قبل.

لم يكن خروجها رضي الله عنها إذن كما زعموا تنفيسًا عن أحقاد وضغائن قديمة ، ولم يكن اتباعًا لهوي النفس في التنفيس عن هذه الأحقاد ، وإلباسها لبوسًا شرعيًا ، للاحتيال على هذه الأغراض ، كما زعمت أغلب الدراسات المنشورة [٣] ! ولا يكون مثل هذا الاحتيال إلا من أهل الرياء. وحاشا السيدة عائشة أن تكون منهم .

وإنما كان خروجها - كما قلنا - خروجًا مسؤولًا ، للإصلاح بين المسلمين ، والسعي في إقامة حدود الله . ما نافست فيه رضي الله عنها على عليّ رضي الله عنه الخلافة ، ولا وجدت عليه قديم أمره . ولقد كانت تدعو الناس إليه ، لما غلب على ظن الناس أن عثمان سيُقتل ؛ لأنها تعلمه أحق الناس بالأمر ، لكنها خرجت لما وجدت حدودًا مُضيَّعةً ، ودمًا مطلولًا ، وأهل سوء من الغوغاء يفرضون على أهل المدينة ، والخليفة سلطانهم ، ويُخلِّطون على الناس شريعتهم .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٢/ ٢٠١، ٢٠٢ .

(٢) بل لما أدى إليه فعلًا في كثير من الدراسات الحديثة من تأسس القدح في الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها على مثل هذه الأشياء التي يزعم بها قائلوها أن الكراهية كانت وراء هذا الخروج النبيل .

(٣) وأغلبها - للأسف - دراسات كتبها متخصصون في البحث التاريخي .

الفصل السادس

حقيقة الروايات القائلة برفض الصحابة لخروج السيدة عائشة

لقد لاقى الدور السياسي الذي قامت به السيدة عائشة رضي الله عنها من الطعون ما امتلأت به المصادر التاريخية . وظهرت هذه الطعون أول ما ظهرت في صورة مرويات تاريخية على لسان عدد من الصحابة ، من أمثال أبي بكرة ، وأم سلمة ، وعثمان بن حنيف [1] ، وزيد بن صوحان ، وجارية بن قدامة السعدي ، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس ، وغيرهم .

وكل هذه الروايات قائمة على دعوي مخالفة عائشة رضي الله عنها للأمر الإلهي في الأزواج المطهرات بالقرار في البيوت ، وهي دعوى صيغت في المصادر التاريخية ، والأدبية ، وتلقفتها من بعد دراسات تاريخية ، وغير تاريخية ، فكرست في أذهان الناس شبهة الحرمة في هذا الخروج ، دون بحث من الدارسين في أصل هذه الدعاوى ، ومدى مصداقيتها .

وإذا كنت أعتقد بأن ما سبق في استعراض هذا الخروج يعد كافيًا للرد على هذه الطعون ، إلا أنني إحساسًا بالأمانة التاريخية سأتوقف أمام هذه المرويات التي شاع الأخذ والتسليم بها في الدراسات التي تناولتها بالحديث ، ليقف البحث على حقيقتها تمامًا .

ولأن فهم حقيقة هذا المعنى في هذه الروايات ، التي طعنوا بها على هذا الخروج ، لا يتم إلا بفهم الخلفية التاريخية لهذه الروايات ، فسوف نبدأ بالتعامل مع هذه الروايات سندًا ، ومتنًا ، لنحاول البحث فيها عن الحقيقة التاريخية .

وسوف نكتفي بدراسة بعض ما جاء منها في تاريخ الطبري ، مع رواية أخيرة جاءت في صحيح البخاري .

---

(١) سبق التعريف به . ولن نعرض في هذا المبحث لما روي عنه في هذا المعنى ، حيث هو في كتاب أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، المنسوب لابن الجوزي ، وهو كتاب في الطرف والنوادر ، تمحور حول المرأة ككائن مسل ولطيف . والرواية فيه بعد غير مسندة ، وهي على كل حال لا تختلف كثيرا عما نعرض له من أمثلة . راجع ابن القيم: أخبار النساء : ٢٦ .

الرواية الأولى : في رفض زيد بن صوحان لخروج السيدة عائشة

قال الطبري : حدثني عمر بن شبة [١] ، قال : حدثني أبو الحسن [٢] ، قال : حدثنا أبو مخنف ، عن مجالد بن سعيد [٣] ، قال : لما قدمت عائشة رضي الله عنها البصرة ، كتبتْ إلى زيد بن صوحان [٤] : « من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ، أما بعد : فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم ، فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل ؛ فخذِّل الناس عن عليّ » .

فكتب إليها : من زيد بن صوحان : « إلى عائشة ابنة أبي بكر الصديق حبيبة رسول الله ﷺ ، أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعتِ إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من نابذك . قال زيد بن صوحان : رحم الله أم المؤمنين أُمرت أن تَلزم بيتها ، وأُمرنا أن نُقاتل ، فتركتْ ما أُمرتْ به وأمرتْنا به ، وصنعتْ ما أُمرنا به ، ونهتنا عنه ! [٥] » .

هذه الرواية عن أبي مخنف ، وقد أخذها عن مجالد بن سعيد الذي ذكر الذهبي أنه لا شيء له عن الصحابة ، وإن كان ولد في أيامهم ، فهو ليس شاهد عيان – كما لا يخفي – كما أنه في رأي العلماء شيعي ، يكتب كذبًا كثيرًا ، لا يحتج به [٦] . ولقد ذكر أحد الباحثين أنه لم يقف على رواية صحيحة بشأن الكتابات بين عائشة رضي الله عنها وبين زيد بن صوحان [٧] .

على أن هناك رواية لسيف بن عمر ، في هذا المعنى ، وهي من الروايات التي يمكن مناقشتها ، مع رواية أبي مخنف ، على كل حال ، وقد جاء فيها أن زيد بن صوحان قرأ على أهل الكوفة كتابا عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه تثبيطهم ، قال : أما بعد : فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان رضي الله عنه [ولم يذكر لنا

---

(١) سبق التعريف به .
(٢) أبو الحسن المدائني : سبق التعريف به .
(٣) سبق التعريف به .
(٤) زيد بن صوحان الربعي العبدي : أسلم في عهد رسول الله ﷺ ، وشهد الجمل مع عليّ وكانت معه راية بني عبد القيس يومها ، وكان فاضلا ديّنا خيّرا ، سيّدا في قومه هو وإخوته . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٣/ ٥٢٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٣٦٤/٢ .
(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٧٦ .
(٦) مجالد بن سعيد : سبق التعريف به وبقيمة مروياته .
(٧) اليحيى : مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري : ٢٩٥ .

نص الكتاب كاملًا] فلما فرغ من الكتاب ، قال زيد : « أُمِرَتْ بأمر ، وأُمِرْنا بأمر ، أمرت أن تقر في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتْنا بما أمرتْ به ، وركِبَتْ ما أُمِرنا به [١] » .

فأما هذا القول التشريعي على لسان زيد بن صوحان ، أو على لسان عمار بن ياسر ، على الرأي القائل بأن هذا القول لعمار بن ياسر [٢] ، لم يكن الرأي التشريعي الذي يسلم به كل الصحابة ، ولا بعضهم ، فما صحت عندي رواية واحدة عن واحد من الصحابة ، قال فيها بخروج السيدة عائشة رضي الله عنها ، في هذا الخروج إلى البصرة عن مقتضي الأحكام الشرعية – وسوف يتأكد القارئ الكريم من ذلك في هذا المبحث ، عند التعرض لباقي الروايات – . ولقد كان عدم التسليم بهذا الحكم الشرعي ، المزعوم على لسان زيد بن صوحان رضي الله عنه غيرَ مقبول ، حتى في هذه الرواية المقدوحة التي نتعرض لها الآن ، فلقد أجاب شَبَث بن رِبْعيّ [٣] رضي الله عنه زيدًا بن صوحان رضي الله عنه ، عندما قال مقالته الطاعنة في شرعية خروجها رضي الله عنها ، قائلًا : « ما أَمَرَتْ إلا بما أمر الله رضي الله عنه به : الإصلاح بين الناس [٤] » .

ومما لا شك فيه أن الأَوْلي بتوجيه الأمور على وجهها الشرعي السليم إنما هي عائشة رضي الله عنها لا زيد ولا عمار رضي الله عنه ، ولا يختلف في هذا أحد من جمهور علماء المسلمين .

علي أن في النفس من بقية مقالة شَبَثْ بن ربعي شيئًا ، بل من الروايتين كلتيهما : عن أبي مخنف وعن سيف بن عمر [٥] . فأما رواية أبي مخنف : فلقد عرفنا أمرها ، ومجيئها من طريق أبي مخنف ، ومجالد بن سعيد ، الشيعي المعروف بالكذب .

وأما رواية سيف ، وهي رواية طويلة انتظمت ثلاث صفحات ونصف [٦] وكان

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٨٣ .

(٢) ذكر ابن حبان (الثقات ٢/٢٨٢) نص رواية سيف ، لكنه نسب القول لعمار .

(٣) شبث بن ربعي : التميمي ، اليربوعي ، أحد الأشراف والفرسان ، كان ممن خرج على عليّ ، وأنكر التحكيم ، ثم تاب وأناب . قال الذهبي : كان سيد تميم ، هو والأحنف . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٤/ ١٥٠ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤/٤٨٣ .سيف بن عمر : كتاب الجمل ومسير عائشة : ٣٠٤، ٣٠٥ .

(٥) وقد نقل النويري رواية سيف (النويري : نهاية الأرب : ٢٠/ ٤٨ .) ، ونقل ابن الأثير نص رواية أبي مخنف (ابن الأثير : الكامل : ٣/ ٢١٦) ولقد ذكر ابن حجر أن من عادة ابن الأثير أن يقدم روايات أصحاب السير على روايات أصحاب الأسانيد الموثوقة بينما نقلها ابن كثير بالمعني (ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/ ٢٣٤) .

(٦) تاريخ الطبري ٤/٤٨٢ :٤٨٥ .

فيها مقالة شبث بن ربعي لزيد بن صوحان : « سرقتَ بجلولاء [١] فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين ، فقتلك الله ! » .

والذي يراجع ترجمة زيد بن صوحان [٢] ﷺ يجده لم يسرق ، وإنما قطعت يده يوم القادسية ، وفيه كان قول رسول الله ﷺ : « وأما زيد فرجل من أمتي تدخل الجنة يده قبل بدنه [٣] » . ولأجل ذلك كان عمر ﷺ يوطئ لزيد بن صوحان راحلته ، ويقول : هكذا فاصنعوا بزيد . وكانت عائشة تترحم عليه حين قتل في الجمل ، وهو مع جماعة عليّ [٤] .

هذا إلى ما ذكرته الرواية نفسها من أن القعقاع بن عمرو ﷺ ، قال حين ثار الجدل بين الناس في مسجد البصرة ، على أثر قراءة زيد بن صوحان لكتاب عائشة رضي الله عنها ، حسبما ذكرت رواية سيف : « أما زيد ، فزيدُ في الأمر فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة ، طعن فيها وجري إليها [٥] . وهو قول قادح في شخص زيد بن صوحان ﷺ ، لا يتسق القول به ، لا مع حقيقة شخص زيد ﷺ ، الذي لم يثبت عنه طعنٌ في الفتنة ، أو جَرْيٌ إليها ، ولا مع المعروف من حكمة القعقاع ﷺ ، وحسن تَأَتيه للأمور . وتذكر الرواية نفسها أن مسروقًا بن الأجدع [٦] لقي عمارًا فسأله : علام قتلتم عثمان ﷺ ؟ قال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا . فالرواية اتهام للصحابة بقتل عثمان ، واتهام لعثمان بشتم الأعراض وضرب الأبشار . وهي تهم باطلة كما علمنا . كما أنها ليست مما يتسق مع ما استعرضناه في الفصل الأول في حقيقة علاقة الصحابة ﷺ بعثمان ﷺ .

هذا الذي في النفس مما في هذه الرواية لسيف من أمور تتناقض مع ما ذكره في رواياته الأخرى ، يدعوني إلى الاعتقاد بأن هذه الرواية قد حرفت أو دُسَّتْ فيها عبارات مُخْتَلَقة من جانب من نقلها من الرواة ذوي الأهواء المذهبية ، خاصة ، وأن سيفًا لم يذكر أسماء الرواة المباشرين الذين نقل عنهم هذا الخبر [٧] .

---

(١) جلولاء : مدينة على مقربة من المدائن . البلاذري : فتوح البلدان ٢٦٤.

(٢) ابن حجر : الإصابة ٥٣٢/٢ .

(٣) رواه ابن منده وله شواهد أخرى ذكرها ابن حجر .

(٤) ابن حجر : الإصابة : ٢/ ٥٣٢ .

(٥) تاريخ الطبري : ٤٨٤/٤ .

(٦) سبق التعريف به .

(٧) جاءت الرواية عند الطبري : عن السري ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة . تاريخ الطبري : ٤٨٢/٤ .

ولبعض أحداث هذه الرواية الطويلة أصل عند البخاري ليس فيه هذه الزيادات المنكرة [١] .

ومن هنا يبقي أن نقول إن هذه الرواية على لسان زيد ، أو على لسان عمار ، ليس لها أساس صحيح ينبني عليه القول بأن زيدًا قد وجه النقد إلى أم المؤمنين ، أو أنه قد حكم عليها رضي الله عنها هذا الحكم التشريعي الذي لا وجه له من الصحة ، كما سوف يتبين للبحث في الصفحات المقبلة .

الرواية الثانية : في رفض جارية ابن قدامة لخروج السيدة عائشة

كانت أطول الروايات في هذا المعنى روايةُ نصر بن مزاحم ، عن سيف ، عن سهل بن يوسف [٢] ، عن القاسم بن محمد [٣] ، قال : « وأقبل جارية بن قدامة السعدي [٤] ، فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ! إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكتِ سِترَكِ ، وأبحتِ حُرْمتَك . إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتْلكِ ، وإن كنت أتيتِنا طائعة فارجعي إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس » .

قال : فخرج غلام شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال : أما أنت يا زبير فحوارُي [٥] رسول الله ﷺ ، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما قالا : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء ، واعتزل . وقال السعدي في ذلك :

صنتم حلائلكم [٦] وقدتم أمكم هذا لعمرك قلة الإنصاف

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري : ٧/ ١٣٣ .

(٢) سهل بن يوسف الأنماطي ، البصري ، ثقة ، رُمِي بالقدر ، مات سنة تسعين ومائة . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/ ٤٠٠ . (٣) سبق التعريف به .

(٤) جارية بن قدامة : التيمي السعدي ، صحابي على الصحيح ، مات في ولاية يزيد . ابن حجر : تقريب التهذيب : ١/١٥٥ ، ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر : ٣٧٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ٧/٢٧٨ .

(٥) الحواري : الخالص ، وقيل : الخليل . فتح الباري ٧/١٠ .

(٦) حليلة الرجل : امرأته .

أُمِرَتْ بجَرٍّ ذيولها في بيتها فهَوْت تشق البيد بالإيجاف [١]
غرضا يقاتل دونها أبناؤها بالنبل والخطي [٢] والأسياف
هُتِكتْ بطلحة والزبيرِ سُتورُها هذا المُخَبّرُ عنهم والكافي

ولم تكتف الرواية بذلك ، فزادت : وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة [٣] - وكان محمد رجلًا عابدًا - فقال : أخبرني عن قتلة عثمان ! فقال : نعم ، دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج - يعني عائشة - وثلث على صاحب الجمل الأحمر - يعني طلحة - وثلث على عليّ ابن أبي طالب ، وضحك الغلام وقال : ألا أُراني على ضلال ! ولحق بعليّ ، وقال في ذلك شعرًا :

سألتُ ابنَ طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر
فقال ثلاثة رهط هم أماتوا بن عفان واستَعْبر [٤]
فثلث على تلك في خدرها وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب ونحن بدَوِّيَّةٍ قَرْقَر [٥]
فقلت صدقت على الأوَّلين وأخطأت في الثالث الأزهر [٦] .

فأما إسناد هذه الرواية ، فهي عن نصر بن مزاحم ، وهو شيعي ، بل هو واحد من غلاة الشيعة ، وتشيع الرواية والراوي أمر يتبين للقارئ ، واضحا في متن الرواية كلها . ولقد أخذ سهل بن يوسف المتوفي سنة ١٩٠ هـ - كما زعم نصر - هذه الرواية عن القاسم بن محمد المتوفي ١٠٦ هـ ! .

وأما متن الرواية : فقد جاء فيه ، على لسان جارية أن قتل عثمان ﷺ بكل ما

---

(١) الإيجاف : الوَجْف : سرعة السير ، وقال الجوهري : هو ضرب من سير الإبل ، والخيل . وأوجف الدَّابة : إذا حثها .

(٢) الخطى : قال أبو زيد : يقال : ناقتك هذه من المتخطيات الجِيَف ، أي ناقة قوية تمضي ، وتخلف التي قد سقطت .

(٣) سبق التعريف به .

(٤) استعبر : بكي .

(٥) بدوية قرقر : الأرض الدَّوية : ذات الأدواء ، وقيل : الغير موافقة ، وقيل الدّوي : الأحمق ، أو الملازم مكانه ، لايبرح . والقرقر : الأرض المستوية . وادٍ قِرق ، وقَرْقَر ، وقرقوس : أي أملس .

(٦) تاريخ الطبري : ٤/٤٦٥ ، ٤٦٦ .

حمل من معان عرضنا لها من قبل ، وما مَثَلَ من حرمات مُضَيَّعةٍ لا مجال للشك فيها ، هذا التعدي على الخليفة ، أهون من خروج أم المؤمنين عائشة من بيتها ، وذلك بدعوي أنها رضي الله عنها قد هتكت سترها وأباحت حرمتها .

وهو قول في رأينا باطل تمامًا ؛ فلقد خرجت أم المؤمنين في شأن إصلاح ذات بَيْنْ أبنائها ، ومن أولى بهذا منها . ولقد خرجت الصحابيات قبلُ مهاجرات إلى الله بدينهن ، وخرجن لقتال المرتدين وأهل الكفر ، فما عِيب ذلك عليهن ، فكيف يعاب أمر عائشة وشأنه هذا ؟ .

كما أنه لم يذهب واحد من الصحابة في أية رواية من الروايات الصحيحة – حسبما اجتهدتُ في البحث – إلى عيب خروجها رضي الله عنها في ذاته ، ولو كان خروجها هاتكا لحرمتها ، ما قَبِله الزبير ولا طلحة ، بل ما قبلته هي نفسها .

وأما الجزء المتعلق برأي محمد بن طلحة : فإنه يوضح تشيع الرواية بما لا مجال معه للخلاف ، فعلى الرغم من توزع المسئولية على عليّ وطلحة وعائشة رضي الله عنهم إلا أن الغلام – كما تزعم الرواية – قد لحق بعلي [١] ! . وبقية الرواية شعرها وقصصها ، وتشيعها الواضح يجعلنا نلقي ببقية ترهاتها جانبًا .

الرواية الثالثة : في رفض السيدة أم سلمة لخروج السيدة عائشة

ذكر الطبري : حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثني على [٢] ، عن أبي مخنف ، قال : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة [٣] ، عن أبيه ، قال : « .. وقامت أم سلمة فقالت : يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصي الله عز وجل وأنك تقبله مني لخرجت معك ، وهذا ابني عمر [٤] – والله لهو أعز على من نفسي – يخرج معك فيشهد مشاهدك . فخرج فلم يزل معه ، واستعمله على البحرين ثم عزله [٥] .

---

(١) هذا القول المنسوب لمحمد بن طلحة ، نسب مثله إلى سعد بن أبي وقاص ، ورغم مجيء هذه المقولة عن سعد في كتاب الإمامة والسياسة : ٥٣ ، إلا أن الباحثين المحدثين قد تناولوها كحقيقة مسلم بها ، وبنوا عليها استنتاجات باطلة لا تستقيم أبدًا عند التحليل اليسير . انظر مثلًا : بيهم : دراسة وتحليل للعهد النبوي : ١٨٠ .

(٢) أبو الحسن المدائني : سبق التعريف به .

(٣) عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري ، النجاري : يقال ولد في حياة النبي ﷺ . قال ابن سعد: كان ثقة ، قليل الحديث . الطبقات الكبري ٨٣/٥ ، وأبو عمرة الأنصاري مختلف في اسمه ، قيل : بشر ، وقيل : بشير ، وقيل : ثعلبة ، شهد بدرا وقتل مع على رضي الله عنه في صفين . ابن حجر : الإصابة ١٤١/٤ .

(٤) سبق التعريف به .

(٥) تاريخ الطبري : ٤٥١/٤ ، ابن الأثير : الكامل : ٣/ ١١٤ .

أما إرسال أم سلمة رضي الله عنها لابنها عمر مع علي رضي الله عنه فله شاهد أخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي [١] .

أما قولها : « لولا أن أعصي الله ﷻ ، وأنك تقبله مني لخرجت معك » ، فهو ما لم أجد له شاهدًا يمكن التعويل عليه [٢] ، وهو قول ينسب من طريق غير مباشر إلى السيدة عائشة المعصية لله ﷻ بهذا الخروج .

ولقد أشار ابن حجر إلى هذا القول في معرض حديثه عن آية : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [٣] فقال : فإنه أمر حقيقي خوطب به أزواج النبي ﷺ ، ولهذا كانت أم سلمة تقول : لا يحركني ظهر بعير حتى ألقى النبي ﷺ [٤] .

والواقع أنني أختلف مع ابن حجر في هذه المسألة من جهة فهم الأمر الإلهي في الآية على معنى أنه خطاب لهن بأن لا يبرحن البيوت ، وأختلف معه من جهة أن هذا القول المنسوب لأم سلمة لم يثبت عنها من طريق صحيح يمكن التعويل عليه [٥] ، بل إنه قد ثبت نقيضه عمليًا عنها رضي الله عنها ؛ فلقد حركها ظهر البعير بعد وفاة النبي ﷺ ، بينما الرواية فيها ما يشبه العزيمة على ألا تبرح بيتها بعد وفاة رسول الله ﷺ . ولقد كان واحدًا من هذا التحريك هو هذا الخروج إلى الحج الذي خرجته مع أمهات المؤمنين جميعًا .

بل إنها كانت رضي الله عنها مع أمهات المؤمنين على الرأي القائل بالتوجه إلى المدينة ، طلبًا للإصلاح بين الناس ، وقيامًا في أمر عثمان رضي الله عنه ، وإنما اختلف رأيهن حين انتهي

---

(١) الحاكم : المستدرك : ٣/ ١١٩. وقد ذكر جمع من المؤرخين أن على بن أبي طالب رضي الله عنه ولي على البحرين عمر بن أبي سلمة ، ثم النعمان العجلي .

(٢) وإن كانت له شواهد أخرى : متناثرة في الكتابات الأدبية غير المسندة ، أو المسندة إلى من هو أوهن وأضعف من أبي مخنف . انظر مثلًا مهنا : أخبار النساء في العقد الفريد ١٤٨ ، وابن طيفور : بلاغات النساء : ١٩ - ٢١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٣ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري : ١٣٣/٧

(٥) وإنما ذكرها اليعقوبي: ٢٠٩/٢ ، وابن أعثم : الفتوح : ١/ ٩٦ والدينوري : الأخبار الطوال : ١٤٥ ، وابن أبي الحديد :شرح نهج البلاغة ٦/ ٢١٧ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . وذكرها ابن أبي الحديد بهذه الصيغة : « فكتبت أم سلمة إلى علي : « فإن طلحة والزبير وأشياعهم أشياع الضلالة ، يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ... ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج لم أدع الخروج إليك والنصرة لك » .

الصحابة إلى التوجه إلى البصرة لا إلى المدينة . فلم أعثر على رواية واحدة صحيحة تخرجها ، وتستثنيها من هذا الاتفاق .

وأما الرسالة الضافية التي جاءت بها كتب الأخبار والأدب ، والتي بعثت بها السيدة أم سلمة إلى السيدة عائشة ، حسبما تزعم الروايات ، وفيها التضعيف الشديد لموقف السيدة عائشة وخروجها ؛ فإنها لم تصح من طريق يمكن التعويل عليه ، بل ولم يأت بها مصدر تاريخي رصين ، ولذا فقد أعرضت عنها صفحًا ، وهي على كل حال لا تختلف عن مضامين الروايات التي نذكرها هاهنا [١] .

الرواية الرابعة : في رفض عمار بن ياسر لخروج السيدة عائشة

وأما رواية رفض عمار بن ياسر لخروج السيدة عائشة ، فلقد قال الطبري : قال عمار لعائشة حين فرغ القوم : يا أم المؤمنين ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عُهِدَ إليك ! قالت : أبو اليقظان ؟! قال : نعم ، قالت : والله إنك ما علمتُ قوالٌ بالحق ، قال : الحمد لله الذي قضى لي على لسانك [٢] .

فالرواية توهم أن ثمة عهد عَهِدَ به الرسول ﷺ إلى السيدة عائشة رضي الله عنها بأن لا تخرج في وجهها هذا ، وخالفته رغم ذلك . بل وتؤكد الرواية هذا الإيهام بأن تجعل السيدة عائشة لا تنفي هذا القول ، وتعتبره حقًّا . وهو ما لا يمكن أن يصح عن عائشة رضي الله عنها ، لو صح هذا العهد عن النبي ﷺ إليها . وهو لا يصح .

بل إن هناك ثمة رواية ذكرها الإمام أحمد بإسناده ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي : « إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر . قال : أنا يا رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : أنا أشقاهم يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها [٣] » . وهو ما يعني أن الرسول ﷺ ، لمقام نبوته كان يعرف بما سيحدث في

---

(١) انظر هذه الرواية في : الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة : ٥٦، ٥٧ ، عبد مهنا ، سمير جابر : أخبار النساء في العقد الفريد : ٢٩ ، ابن طيفور : بلاغات النساء : ١٩ . ولقد أعجب الباحثين منها حسنُ الصياغة والتدبيج المبالغ فيه ، فظلوا يرددونها في مباحثهم عن الفتنة ، وينعون بها على السيدة عائشة وموقفها السياسي كله .

(٢) تاريخ الطبري :٤/ ٥٤٥، ٥٤٦ . قال الطبري : حدثني عبد الله بن أحمد ، عن أبيه ، عن سليمان ، قال : حدثني عبد الله ، عن جرير بن حازم .

(٣) رواه الطبراني ، وأحمد ، ورجاله ثقات ، نقلًا عن أحمد جمال العمري : الحديث النبوي والتأريخ : ٢٦٦ .

هذا الشأن ، لكنه على العكس تمامًا مما أوحت به هذه الرواية وأمثالها ، كحديث الحوأب الذي عرضنا له تفصيلًا ، لم يُذْكر أنه نهي عائشة رضي الله عنها عن هذا الخروج ، أو عهد إليها فيه بعهد .

وروى البخاري لعمار أنه لما بعث عليٌّ عمارًا والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم ، خطب عمار فقال : « إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها [١] » . قال ابن حجر : « قيل : الضمير لعليّ رضي الله عنه الذي كان عمار رضي الله عنه يدعو إليه ، والذي يظهر أنه لله ، والمراد باتباع الله اتباع حكمه الشرعي في طاعة الإمام وعدم الخروج عليه » . وقال : « ولعله أشار إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [٢] » .

وأعود فلا أتفق مع هذا التوجيه للضمير الذي ذكره ابن حجر ، وإنما أذهب إلى القول بتوجيه الضمير إلى علي رضي الله عنه ، حسب الرأي الآخر ، وهو ما فهمه الناس في الرواية المفصلة التي أوردها الطبري ، عن سيف بن عمر حيث أجاب رجلٌ عمارًا بقوله : « يا أبا اليقظان لَنَحن مع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له » . وهو ما يعني أن المقارنة كانت بين عائشة وعلي رضي الله عنهما ، لا بين عائشة وربها سبحانه وتعالي . ولقد فهم ذلك أيضًا الحسن بن على فقال لعمار ، وقد وجد أنه يسئ لقضية عليٍّ من حيث لا يدري : « اكفف عنا يا عمار ؛ فإن للإصلاح أهلًا [٣] » .

ولقد ذكر البخاري هذا الحديث في معرض حديثه عن فضل عائشة رضي الله عنها ، وكان رحمه الله واعيًا في تصنيفه إلى ما يندرج تحت العنوان ، فلو كان المقصود لتتبعوها أو تتبعوا الله عز وجل ، لكان تصنيف البخاري لهذا الحديث تحت هذا العنوان في غير محله تمامًا ؛ إذ الأمر حسب هذا التوجيه مندرج في معنى المعصية. وذكر الطبري قول عمار في رواية أخرى فكان : « إني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، فانظروا ، ثم انظروا في الحق فقاتلوا معه [٤] » . الإشكال إذن في هذه الرواية الأخيرة

---

(١) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر : فتح الباري : ١٣٣/٧ كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب فضل عائشة رضي الله عنها . وذكره ابن عساكر : الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين ٧٠ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ١٣٣/٧ .

(٣) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٨٤ .

(٤) تاريخ الطبري : ٤ /٤٨٥ .

لعمار ناتج عن الخطأ في توجيه الضمير في قول عمار « لتتبعوه » .

الرواية الخامسة : في استشهاد أبي بكرة يوم الجمل بحديث : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة

هذا الحديث الذي ذكره البخاري ، عن أبي بكرة [١] ، قال : « لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل ، لما بلغ النبي ﷺ أن فارسًا ملّكوا ابنة كسري » ، قال : « لن يُفْلح قوم ولوا أمرهم امرأة [٢] » .

هذه الرواية ، كما لا يخفي ، رواية طالما أحدثت في تاريخنا السياسي والثقافي والاجتماعي من صراعات ومجادلات ، وهي رواية طالما وقف المحتجون بها في جانب التوهين من أمر المرأة ، والنقمة والإزراء عليها ، والتهمة لكل ما يصدر عنها ، والتأكيد على حرمانها من مزاولة حقوقها السياسية [٣] .

وقد جاءت خطورة هذه الرواية من جهة أنها تعرضت أول ما تعرضت لقمة من قمم نساء المسلمين ، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها [٤] ، التي حفظت عن رسول الله ﷺ

---

(١) أبو بكرة : نُفَيع بن الحارث بن كَلَدَة الثقفي ، وقيل : هو ابن مسروح مولي الحارث . وأمه سمية جارية الحارث وهو أخو زياد بن أبيه لأمه . كان ممن نزل يوم الطائف إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف « في بكرة » فأسلم وكني أبا بكرة وأعتقه رسول الله ﷺ ، فهو معدود في مواليه . كان من فضلاء الصحابة . توفي بالبصرة سنة ٥١ وقيل ٥٢ . ابن الأثير : أسد الغابة ٣٥/٦ ، البخاري : التاريخ الكبير: ١١٢/٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥/٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٠٠/٢ .

(٢) البخاري : صحيح البخاري من كتاب ابن حجر فتح الباري : ١٣/ ٦٧ ، كتاب الفتن ، حديث : ٧٠٩٩ .

(٣) راجع في ذلك على سبيل المثال : د. محمد طعمة سليمان القضاة : الولاية العامة للمرأة في الفقه الإسلامي : ١٠٤ ، وما بعدها ، د. محمود الخالدي : قواعد نظام الحكم في الإسلام : ٢٩٦ . محمود المرادي : الخلافة بين التنظير والتطبيق : ١٢٤ ، د. فؤاد عبد المنعم : مبدأ المساواة في الإسلام : ٢٤٢ ، نقلا عن د . محمد القضاة .

(٤) لعل الإشارة إلى خطر هذا الحديث على وجه الخصوص تأتي من قبيل وروده في صحيح البخاري ، وهو من الأحاديث المشتهرة [راجع السيوطي : الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة : ١٦٢] بينما كانت أغلب الأحاديث التي تناولت رشادة المرأة من قبيل : « شاوروهن وخالفوهن » ، « طاعة النساء ندامة » ، « وهلكت الرجال حين أطاعت النساء » ، « عودوا النساء : لا ؛ فإنها ضعيفة إن أطعتها أهلكتك » هي أحاديث موضوعة نبه العلماء عليها من قديم . راجع على سبيل المثال : المقدسي : الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة : ٩٩ ، مُلا على القاري : الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، المعروف بالموضوعات الكبري : ٢٢٥ : ٢٢٧ .

شيئًا كثيرًا [١] وعاشت بعده قريبًا من خمسين سنة ، فأكثر الناس الأخذ عنها ، ونقلوا عنها من الأحكام والآداب شيئًا كثيرًا ، حتى قيل إن ربع الأحكام الشرعية منقول عنها رضي الله عنها [٢] ، وهي التي قال فيها القاسم بن محمد بن أبي بكر : « إنها كانت قد استقلت بالفتوي زمن أبي بكر ، وعمر وإلي أن ماتت [٣] » . فإذا اتهمت هذه مع أمانتها ، وقيامها المشهود له من جمهور الأمة على الشريعة ، فلتتهم من بعدها كل امرأة مشت على وجه الأرض .

والرواية كما نرى ، وهي صحيحة سندًا ومتنا ، تبدو كإخبار نبوي بأنه لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . ولقد ذكرها أبو بكرة رضي الله عنه تعليقًا على موقفه يوم الجمل ، حين أمسك عن القتال ، ولم يحارب مع أي من الفريقين ، حين نشب القتال ، فهي على ما يدل ظاهرها توهين واضح لرأي عائشة رضي الله عنها فيما فعلتْ ، وهذه الرواية تكاد أن تكون هي الرواية الوحيدة الصحيحة التي نظرت إلى جنس أحد الفريقين ، فجعلته سببًا في موقف الحياد والكف والإمساك ، وربما الوقوف في الطرف الذي يكون فيه القائد رجلًا ، لا امرأة [٤] .

على أن الأمر ليس كذلك ، كما قال ابن بطال [٥] ، فيما نقله عن المهلب [٦] ،

---

(١) ذكر الإمام الذهبي أن مسند عائشة يبلغ ألفين وعشرة أحاديث . اتفق لها البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا ، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين ، وانفرد مسلم بتسعة وستين . سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٣٩ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري : ٧/ ١٣٤ . (٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٥/ ٥٣ .

(٤) راجع الروايات الأخرى عن أبي بكرة عند الهيثمي : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ٥/ ٢٠٩ ، ٧/ ٢٣٤ ، وأغلبها روايات يحتاج إلى مناقشات ودراسة ، لعل مناقشاتنا للحديث الصحيح في متن الرسالة يغني عنها في هذا المقام . وأغربها ما جاء عن عبد الله بن الهجنع قال : لما قدمت عائشة زوج النبي ﷺ أتينا أبا بكرة فقلنا : هذه عائشة كنت تقول عائشة عائشة ، هي ذي عائشة قد جاءت فاخرج معها . فقال : « إني ذكرت حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعت النبي ﷺ وذكر بلقيس صاحبة سبأ ، فقال : « لا يقدس الله أمة قادتهم امرأة » . الهيثمي : مجمع الزوائد :٥/ ٢٠٩ .

(٥) ابن بطال : شارح « صحيح » البخاري ، العلامة أبو الحسن ، على بن خلف بن بطال البكريُّ ، القرطبي ، ثم البلنسي ، ويعرف بابن اللَّجَّام . كان من أهل العلم والمعرفة ، عني بالحديث العناية التامة ، وشرح « الصحيح » في عدة أسفار ، واستُقضي بحصن لُوْرَقَةَ . مات سنة ٤٤٩هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٣/ ٢٨٣ .

(٦) المهلب : هو المهلب بن أبي صُفْرة أَسِيد بن عبد الله ، أبو القاسم ، الأسدي الأندلسي المَرِيّ ، مصنف « شرح صحيح البخاري » ، وكان أحد الأئمة الفصحاء الموصوفين بالذكاء ، ولي قضاء المَرِيَّة . وتوفي سنة ٤٣٥ هـ . ابن العماد : شذرات الذهب : ٣/ ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٧/ ٥٧٩ .

« بأن المعروف من مذهب أبي بكرة أنه كان على رأي عائشة في طلب الإصلاح بين الناس ، ولم يكن قصدهم القتال ، لكن لما أنشبت الحرب ، لم يكن لمن معها بد من المقاتلة ، ولم يرجع أبو بكرة عن رأي عائشة ، وإنما تفرس [١] بأنهم يُغلَبون لَمَّا رأي الذين مع عائشة تحت أمرها ، وذلك لِمَا توسمه فيما سمع من رسول الله ﷺ في أمر فارس [٢] » .

فلما انتصر عليٌّ حَمِدَ أبو بكرة رأيه في ترك القتال معهم ، وإن كان رأيه موافقًا لرأي عائشة في الطلب بدم عثمان . وقال المهلب : « ويدل لذلك أن أحدًا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًّا في الخلافة ، ولا دعوا أحدًا منهم ليولوه الخلافة ، وإنما أنكرت هي ومن معها على عليّ منعه من قتل قتلة عثمان ، وترك الاقتصاص منهم [٣] » . أي أن المهلب يريد أن يشير إلى أن أمر عائشة رضي الله عنها لا يدخل فيما يمكن أن يسمي إمارة .

ولقد اعترض ابن حجر على هذا القول للمهلب بأن أبا بكرة رضي الله عنه كان على رأي عائشة رضي الله عنها ، وقال معتمدًا على حديثين خرَّجهما البخاري في صحيحه عن أبي بكرة [٤] : وهما يدلان – في رأي ابن حجر – على أن أبا بكرة لم يكن يرى القتال في مثل ذلك أصلًا ، فليس هو على رأي عائشة ، ولا على رأي على ، في جواز القتال بين المسلمين أصلًا ، وإنما كان رأيه الكفُّ [٥] .

ولقد أعجبُ كثيرًا ، كيف غاب عن ابن حجر أن عليًّا وعائشة لم يكن أحدهما

---

(١) تَفَرَّس : توسم .
(٢) ابن حجر : فتح الباري : ١٣ / ٧٠ .
(٣) المصدر السابق : ١٣/ ٧٠ .
(٤) أول هذين الحديثين : في كتاب الفتن ، باب : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » البخاري : فتح الباري : ١٣/ ٣٩ ، وهو « عن الأحنف بن قيس ، قال : خرجت بسلاحي ليالي الفتنة ، فاستقبلني أبو بكرة فقال : أين تريد ؟ قلت : أريد نصرة ابن عم رسول الله ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار » . والحديث الثاني : في نفس الكتاب ، باب : قول النبي ﷺ « لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » البخاري : فتح الباري : ١٣/ ٣٢ ، وفيه أنه لما حرق جارية بن قدامة الدار على ابن الحضرمي [تفصيل ذلك في فتح الباري: ١٣/ ٣٤ : ٣٥] ، قيل لجارية : هذا أبو بكرة يراك ، فربما أنكر عليك بسلاح أو كلام ، قال عبد الرحمن بن أبي بكرة : فحدثتني أمي عن أبي بكرة أنه قال : « لو دخلوا عليّ ما بهشت بقصبة » [أي ما رفعت عليهم قصبة] . راجع أيضًا : الطبراني : مسند الشاميين : ٤/ ٣٤ .
(٥) ابن حجر : فتح الباري : ١٣/ ٧٠ .

يرى جواز القتال بين المسلمين ، ولقد تعرضنا للأحداث ؛ فدلت دلالة قاطعة على ذلك .

فأما القول عنده بأن أبا بكرة لم يكن على رأي عائشة ، وهذا ما يعنينا النظر فيه ، فإنه لا خلاف في رأيي - بناءً على ما تقرر من أن عائشة بل وعليًا لم يكونا يريان جواز القتال بين المسلمين ، وأن الحرب ما كانت إلا مؤامرةً دبرتها السبئية - لا خلاف بين الروايات التي ذكرها ابن حجر عن أبي بكرة ، وبين أن يكون قد خرج لِمَا خرجت له عائشة من الإصلاح بين الناس ، ولم يكن القتال من مقاصدهم ، فلما حدث القتال ؛ توقف أبو بكرة ، وأمسك [1] .

بل إن هذا الحديث ليعد من الأدلة القوية - في رأيي - على أن السيدة عائشة رضي الله عنها ، لم تكن قد خرجت ، وفي ظنها ، أو ظن أحد معها أنه سيكون قتال ، فإمساك أبي بكرة عن القتال دليل - مع الأدلة الكثيرة - على ذلك .

---

(٦) فلا صحة إذن في رأينا لما ذهبت إليه فاطمة المرنيسي ، في كتابها « الحريم السياسي : ٦٥ : ٨١ » ، من محاولتها إسقاط شهادة أبي بكرة ، والقول بأنه نتيجة ماضية - تعني في العبودية - كان يحاول الدفاع عن وضعه الاجتماعي ، ومكاسبه المادية التي حصلها في البصرة بعد أن أسلم ، وأنه قد تذكر حديثه بعد موقعة الجمل ، في هذه الفترة ، لم تكن عائشة في وضع تُحْسَد عليه ، كانت قد أُعدمت سياسيًا بعد أن صُرِع ثلاثة عشر ألف رجل من أنصارها في ساحة المعركة ، واستعاد عليّ المدينة ، وكان على كل الذين لم يلتزموا جانب جماعة على أن يبرئوا أنفسهم . وهذا ما كان يمكن به تفسير حاجة أبي بكرة لتَذَكُّر أحاديث سماوية ؛ فقد كان سجله غير مرضي عنه لرفضه اتخاذ موقف في الحرب الأهلية ، فهو لم يمتنع عن اتخاذ موقف فحسب ، بل كان مثل عدد كبير من الصحابة ممن اختاروا عدم المشاركة في هذه الحرب . المرنيسي : الحريم السياسي : ٧١ .

فالكاتبة تتحدث عن مجتمع تحكمه سلطة بوليسية تضطر الناس إلى التلون والنفاق ، فليس هو أبدًا هذا المجتمع من الصحابة الذي قيلت فيه الرواية ، وفي كل كلمة من كلماتها مجافاة للحقيقة التي تتبين للقارئ في ثنايا البحث ، وهي على كل حال تحتاج ردًّا قائمًا بذاته ، غير أنني أشير في عجالة إلى أن شيئًا من هذا الخوف المزعوم على الوضع الاجتماعي ، والمكاسب المادية عند أبي بكرة رضي الله عنه غير صحيح ، لا لأنه أحد الصحابة الذين علت نفوسهم عن الدنيا وصَغَارها ، وحسب ، بل لما رواه الطبري عن سيف (تاريخ الطبري ٤/٥٤٣) عنه من أن عليًا قد عرض عليه إمرة البصرة ، بعدما انجلت المعركة ، لكنه رفض ، وأشار على عليّ رضي الله عنه بابن عباس ؛ لأنه من قرابة النبي ﷺ ، فالناس يسكنون إليه . وهو ما يدفع عن أبي بكرة رضي الله عنه تهمة الحرص على المكاسب المادية والاجتماعية التي ذكرتها الباحثة . انظر : سيف بن عمر التميمي : كتاب الردة والفتوح ، ويليه كتاب الجمل ، ومسير عائشة وعلي : ٣٦٧ ، ابن الأثير : الكامل : ٣/ ٢٥٦ .

فأما ما يتصل بنص الحديث عن رسول الله ﷺ ، وهو القول الأكثر مساسًا بشرعية الدور السياسي للسيدة عائشة ، بل ولنساء المسلمين جميعًا ؛ فإنه لا يفهم إلا بالعودة إلى السبب الذي قال فيه الرسول ﷺ هذا القول .

لقد قال الرسول ﷺ هذا الحديث ، لما جاءه الخبر بأن كسري قد قُتِل ، وأنهم ملَّكوا ابنته عليهم ، وأوضح الشيخ الغزالي رحمه الله ذلك ، فقال : « عندما كانت فارس تتهاوي تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة . الدين وثني ! والأسرة المالكة لا تعرف شوري ، ولا تحترم رأيًا مخالفًا ، والعلاقات بين أفرادها بالغة السوء ، قد يقتل الرجل أباه أو إخوته في سبيل مآربه ، والشعب خانع منقاد . وكان في الإمكان - وقد انهزمت الجيوش الفارسية أمام الرومان أن يتولي الأمر قائد عسكري يقف سيل الهزائم ، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثًا لفتاة لا تدري شيئًا فكان ذلك إيذانًا بأن الدولة كلها إلى ذهاب » .

وفي التعليق على هذا كله قال النبي ﷺ كلمته الصادقة ؛ فكانت وصفًا للأوضاع كلها [١] . أي أن قول الرسول ﷺ كان تعليقًا على « واقعة عين » بخصوصها ، لا تتعداها ، وأن عموم لفظ الحديث لا يعمل به ، فهو لفظ عام ، يراد به الخصوص [٢] . أي أن المراد من حديث الرسول ﷺ ، الإخبار عن أنه لن يفلح هؤلاء القوم من أهل فارس الذين ولوا أمرهم امرأة .

ما كان من أبي بكرة إذًا إنما كان - كما قال ابن بطال - : « تفرُّسًا » ، فكأنه نظرَ إلى المشابهة في كون الأمر في الحالين كان بيد امرأة - ولا مشابهة بين عائشة والمرأة الفارسية - ثم لما رأي غلبة عليّ استصوب رأيه .

ومن هنا فإنني أذهب إلى القول بفساد توجيه هذا الحديث الشريف الصحيح إلى الطعن في الدور الذي قامت به السيدة عائشة ، بل وفي كافة الأدوار السياسية الواعية والمسئولة لأي امرأة [٣] . وأَلفتُ النظرَ في الوقت نفسه إلى أن الفقهاء لم

---

(١) الشيخ محمد الغزالي : من مقال بعنوان : « المرأة والأسرة والوظائف العامة » ، نقلًا عن د/ محمد بلتاجي : مكانة المرأة في القرآن والسنة : ٣٥٩ ، وانظر د . ظافر القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ٣٤١ .

(٢) انظر في أصناف الألفاظ التي تتلقي منها الأحكام : ابن رشد : بداية المجتهد ١/ ٣٠٢ .

(٣) وتأكيدًا مني لما انتهيت إليه فإنني أعرض هنا للرواية التي ذكرها ابن عساكر في كتابه الأربعين في =

يتفقوا حتى وقتنا هذا على مدى اعتبار هذا الحديث ، كقاعدة يتأسس عليها القول بحرمان المرأة من حق الولاية [١] .

ولقد أراه دليلًا من دلائل النبوة على عدم فلاح هؤلاء القوم وحسب ، ويؤكد هذا الرأي دعوة رسول الله ﷺ على كسري بأن يمزق الله ملكه . ومن الخطأ الشديد ما ترجم به النسائي لهذا الحديث ؛ فلقد أورده تحت عنوان : « النهي عن استعمال النساء في الحكم [٢] » وليس في الحديث شيء من النهي الذي ذكره كما بينا. وذكر البخاري هذا الحديث في كتاب الفتن ، في باب لم يترجم له ، أورد فيه هذا الحديث مع حديثين آخرين ، ثلاثتهم يتعلق بوقعة الجمل [٣] .

القيمة التاريخية لهذه المرويات

لقد تبين لنا أن أغلب المرويات التي طعنت في خروج السيدة عائشة إلى البصرة ترجع إلى رواة صنفهم العلماء في غلاة الشيعة ، كأبي مخنف ، ونصر بن مزاحم ، أي أن ما جاء في ذلك لم يكن إلا مرويات مصنوعة وموضوعة لا حقيقة لها . ولقد كانت أبعد طعونهم أثرًا ما استقر في بطون المصادر على مدى السنين ، فظل يتحكم في أفكار الناس ومعتقداتهم عن الصحابة عامة ، وعن السيدة عائشة خاصة ، وعن الدور

= مناقب أمهات المؤمنين (٧٢) عن أبي بكرة ، (قيل له : ما منعك ألا تكون قاتلت على بصيرتك يوم الجمل ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج قوم هَلْكي ، قائدهم امرأة قائدهم في الجنة » . هذا الحديث يبدو مخالفا لمقتضى العدل في التصور الإسلامي ، ومقتضى الآيات القرآنية الواضحة في ذلك ، فكيف يخرج القوم فيكونون هلكى بينما قائدهم في الجنة ؟ ! ثم إن السؤال الموجه لأبي بكرة يبدو غير طبيعي ، فمن ذا الذي قاتل على بصيرة يوم الجمل ، اللهم إنه لم يقاتل مسلم صحيح الإسلام يومئذ على بصيرة . ولقد تعرض ابن كثير لهذا الحديث فقال : منكر جدًّا . (البداية والنهاية ٢١٢/٦) ، وقال ابن حجر (لسان الميزان ٣٤١/٤) في ترجمة عمر بن الهُجَيْع ، من رواة هذا الحديث عند ابن عساكر : « حدث عن أبي بكرة ، لا يعرف » . وذكر عن العقيلي قوله عن هذا الراوي : « لا يتابع عليه » . وفي رواته أيضا عبد الجبار بن العباس وهو شيعي. راجع ابن حجر : تقريب التهذيب ٥٥٢/١ .

(١) راجع رأي الطبري ، وبعض المالكية في فتح الباري : ١٣/ ٧٠ ، ٧١ ، وما ذكره الدكتور محمد بلتاجي في كتابه : مكانة المرأة في القرآن والسنة الصفحات من ٣٤٥ : ٤١٣ ، الشرفي : ولاية المرأة في الإسلام ، بحث مقارن ، ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .

(٢) سنن النسائي ٢٢٧/٨ . وخطورة مثل هذه الآراء غير المحققة تبدو في تكريس النظرة الدونية إلى مقدرات المرأة ، وهي آراء عند التأمل لا تتفق مع مجمل النظرة القرآنية للمرأة.

(٣) ومن هنا فإنه يعد غريبًا بعد ذلك أن يقول الأستاذ البهي الخولي : إن هذا القول مخصوص بالأمر العام ، الذي هو الخلافة ، ولم يدعم هذا القول بدليل آخر غير ما يفهم خطأً من هذه الرواية . الإسلام والمرأة المعاصرة : ٢٤٦ .

السياسي للنساء بوجه أخص .

ولو فرضنا صحة هذه الروايات الطاعنة في هذا الخروج ، وتواجهت هذه الروايات مع الروايات عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، ورأيها ، فإن المعتمد، والحجة في القول - بلا ريب - هو قول السيدة عائشة رضي الله عنها [١] ، فرأيها مقدم على أراء الصحابة الذين أوردنا رواياتهم الطاعنة في هذا الخروج . وأما ما صح من هذه الروايات ، وجاءت به المصادر الموثوق منها ، فهو مما أساء الناس فهمه كما اتضح لنا [٢] .

هذا وينبغي الإشارة إلى أنه ليست هذه المرويات التاريخية التي عرضنا لها هي كل ما ذكرته المصادر تحت هذا المعنى ، وإنما ذكرنا بعضا منها مما ذكره الطبري ، ومما جاءت به المصادر المسندة ، إذ لا يتسع المقام لحصرها ، وأغلب ما لم نذكره لا يستقيم أمام البحث أيضًا ، لا في أسانيده ولا في متونه ، كما أنها عند التحقيق نتاج شيعي ورافضي ، فلن نُذْهِبَ الزمان في مماشاتهم ، فهذا أمر لا طائل من ورائه ، وإنما ذكرنا بعضًا من الأمثلة ، ليستطيع القارئ الفطِن بعدُ أن يتبين الأمور بنفسه [٣] .

هل ندمت عائشة على هذا الخروج ؟

إذا كان هدف السيدة عائشة بهذا الوضوح الذي تبين لنا ، وإذا لم يكن في خروجها إلى البصرة ثمة خروج على الشرع ، فلماذا ندمت على هذا الخروج كما ذكرت بعض الروايات ، أو بمعني أصح : هل ندمت السيدة عائشة حقًّا على هذا الخروج ؟

لقد كان من المآخذ التي نسبت إلى السيدة عائشة رضي الله عنها ندمها على ما كان من خروجها إلى البصرة باعتباره ندما منها على مخالفتها الشرعية في هذا الخروج ، وهو مأخذ حرصتِ الشيعة على إثباته في حقها مزيدًا في تخطئتها - بزعمهم - فزعموا

---

(١) ولقد عرضنا لأقوالها رضي الله عنها عند الحديث عن أسباب الخروج إلى البصرة ، وأهدافه .

(٢) فلا يصح توجيهها على النحو الذي يطعن في الدور السياسي الذي قامت به السيدة عائشة في خروجها إلى البصرة . وذلك على النحو الذي يسير عليه أغلب الباحثين المحدثين الذين عز عليهم أن يردوا هذه الروايات إلى الهجر والإهمال ، خاصة ، وقد صقلتها ألسنة واضعيها ، ودبجوها على النحو الذي يغري غير المدقق من الباحثين .

(٣) ولعله من الطريف أن أشير إلى الرواية التي جاءت في البدء والتاريخ للمقدسي (٥/٢١٥) على لسان ابن عباس موجهًا القول إلى أم المؤمنين عائشة : « أولسنا أولياء زوجك ... فلم خرجت بغير إذننا ؟ » !. وهو حكم فقهي غريب وعجيب .

أنها كانت تقول في آخر الحال : « قاتلت عليًا، ووددت أني كنت نسيًا منسيًا [١] » .

ولقد أجاب عن ذلك الإمام الدهلوي بقوله : إن هذه الرواية ما صحت بهذا اللفظ ، والذي صح أنها كانت تذكر يوم الجمل وتبكي بكاءً شديدًا حتى يبتل معجرها [٢] المبارك بالدموع .

ونحن نتفق معه في هذا القول تماما ، إلا أننا نتوقف أمام تعليله بكاءها بقوله : « لاستعجالها ، وترك التأمل ، ولم تحقق من قبل أن ماء الحوأب واقع في أثناء السبيل أم لا [٣] » ، فلقد تعرضنا إلى حادث الحوأب بما يدل دلالة واضحة على أنه لا أصل لاعتباره مخالفة لأمر نبوي ، كما أوهم الشيعة والرافضة ، بما وضعوه من روايات ، وأخبار غير صحيحة ، وانساق من جاء بعدهم وراء هذه الروايات الموضوعة ، دون بحث عن الحقيقية فيها ، ودون تأمل في الدلالات الشرعية للروايات الصحيحة .

وعلي تقدير صدور هذا القول منها : « قاتلت عليًا... » ، فلا ضير ، إذ قد صح عند أهل السنة صدور مثل هذا اللفظ عن على كرم الله وجهه ، لما طاف على القتلي من الطرفين فقال : « ياليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا » وهو يضرب فخذيه [٤] .

وليس في أي من الروايات الصحيحة ما يدل على أنها ندمت على هذا الخروج في ذاته ، ندمًا جعلها تحجم بعدُ عن الاشتراك في أي عمل سياسي حسبما زعم الزاعمون [٥] ، فلقد استمر همها وتوالت عنايتها بالمسلمين وحالهم ولم تنقطع .

وأما ما رواه الطبراني من قولها : « وددت أني جلست كما جلس غيري ؛ فكان أحب إليَّ من أن أكون ولدت من رسول الله ﷺ عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن

---

(١) الدهلوي : مختصر التحفة الاثني عشرية : ٢٧٠ .

(٢) المعجر : والعِجار : ثوب تلُفُّه المرأة على استدارة رأسها ثم تَجَلْبِبُ فوقه بجلبابها .

(٣) الدهلوي : مختصر التحفة : ٢٧٠ .

(٤) الدهلوي : مختصر التحفة الاثني عشرية ٢٧٠، ٢٧١ . وزعم ابن أبي الحديد أنها على حبها للأولاد قد تمنت لو كان لها عشرة أولاد من الرسول ﷺ كلهم ماتوا ولم يكن يوم الجمل . ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ٢/٤٦٠ .

(٥) انظر على سبيل المثال : فلهوزن : الدولة العربية : ٥٢ . بروكلمان : تاريخ الشعوب العربية : ١١١. ابن العربي : العواصم من القواصم : ٢٧٨. سعيد الأفغاني : عائشة والسياسة : ١٨٩ ، ٢١٩ . قدورة : عائشة أم المؤمنين : ١٩٦ . رياض عيسى : الحزبية السياسية : ٢٤٦ ، العقاد : الصديقة بنت الصديق : ١٣٤ .

الحارث بن هشام [١] » . وهو قول رددته الشيعة ، واحتفت به احتفاءً يبعث على الشك فيه ، فإن في سنده أبا معشر نجيح المدني [٢] ، هو على ما قال البخاري منكر الحديث . وخلاصة القول فيه أنه ضعيف في الحديث ، له إلمام بالمغازي ، فمثله يصلح للشواهد والمتابعات فقط [٣] .

ولو راجعنا على سبيل المثال لا الحصر ، ما كان منها في حادث التحكيم بين علي ومعاوية بعدُ [٤] ، وما كان من غضبتها الشديدة لمقتل حُجْر بن عدي [٥] على يدي معاوية [٦] ، ولا يخفي أن حجر بن عدي كان في صف علي يوم الجمل ، ولم يكن على رأي عائشة رضي الله عنها .

ولقد ذكر القاسم بن محمد بن أبي بكر عنها أنها كانت قد استقلت [٧]

(١) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي : أمه فاطمة بنت الوليد أخت خالد بن الوليد، مات أبوه في طاعون عمواس سنة ١٨ ، وتزوج عمر أمه ، فنشأ في حجر عمر ، فسمع منه ومن عثمان وعلي وعائشة وأم سلمة وغيرهم . كان ممن ندبه عثمان لكتابة المصاحف من شباب قريش . ذكره البغوي والطبراني في الصحابة ، والبخاري والرازي في التابعين ، وكان من أشراف قريش . مات سنة ٤٣ هـ . ابن حجر : الإصابة ٢٣/٥ ، البخاري : التاريخ الكبير ٢٧٢/٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٨٤/٣ .

(٢) نُجَيح بن عبد الرحمن السندي ، أبو معشر ،مولي بني هاشم ، مشهور بكنيته ، ضعيف ، أسنّ واختلط . مات سنة ١٧٠ هـ . البخاري : الضعفاء الصغير : ١١٩ ، الذهبي : ميزان الاعتدال : ٧/ ١٢ طبعة دار الكتب العلمية ، ابن حجر : تقريب التهذيب ٢٤١/٢ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤١٩/١٠ .

(٣) اليحيى : مرويات أبي مخنف ٩٥ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩١/٧ .

(٥) حجر بن عدي بن معاوية الكِندي المعروف بحجر الخير ، وفد على النبي ﷺ ، وشهد القادسية ، وكان من فضلاء الصحابة ، وكان مجاب الدعوة ، شهد مع عليّ الجمل وصفين ، وكان على كندة يوم صفين ، وعلي المسيرة يوم النهروان ، وكان من أعيان أصحابه ، ولما ولي زياد بن أبيه العراق أظهر من الغلظة وسوء السيرة ما أظهر ، خلعه حجر ولم يخلع معاوية ، وتابعه جماعة من شيعة علي ﷺ ، فكتب فيه زياد لمعاوية فأمره أن يبعث به وبأصحابه إلى دمشق ، وأمر معاوية بقتلهم ، فشفع أصحابه في بعضهم فشفعهم ، ثم قتل حجر وستة معه ، وأطلق ستة ، وقال حجر قبل قتله : لا تنزعوا عني حديدا ولا تغسلوا عني دمًا ، فإني ملاق معاوية على الجادة. ولما بلغ فعل ابن زياد بحجر إلى عائشة رضي الله عنها ، بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام لمعاوية تقول : الله الله في حجر وأصحابه ، فوجده عبد الرحمن قد قتل . ولما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة رضي الله عنها فكان أول ما قالت له في قتل حجر ، في كلام طويل ، فقال معاوية : دعيني وحجرا حتى نلتقي عند ربنا. ابن الأثير : أسد الغابة ٦٩٧/١ ، ابن حجر : الإصابة ٣٢/٢ ، ابن قتيبة : المعارف ٣٣٤ .

(٦) تاريخ الطبري ٤٨٥/٤، وانظر الفصل الذي عقده الشيخ سعيد فايز الدخيل : عن دورها السياسي في عهد معاوية : موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين : ٧٥ : ٨٠ .

(٧) الاستقلال يعني الارتفاع والاستبداد والانفراد بتدبير الأمور . لسان العرب .

بالفتوى[١] في خلافة أبي بكر وعمر وإلي أن ماتت ، رغم إشارته في نفس الرواية إلى وجود عبد الله بن عباس وأبي هريرة ، وابن عمر، وماذا تكون الفتوي التي استقلت بها حتى وفاتها إلا همًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا [٢] .

وكيف تندم ، ولم يكن همها سوي الإصلاح بين المسلمين ؟! ، لقد كانت تبكي نعم ، لا لأنها خرجت في هذا الشأن ، ولكن لِما آلمها من مآل الأمور ، ونهايتها غير الموفقة . وفارق كبير بين أن تندم على فعل صالح ، قمت به ، وبين أن تحزن على أنك لم توفق في أدائه على الوجه الذي كنتَ تتمني [٣] .

ولو لم يكن هناك الدور السيئي الخبيث ، وتوافق المسلمون إلى إقامة الحدود على القتلة لتغيرت الحوادث بعد ذلك ، ولما وجدنا من يطعن في هذا الدور السياسي النبيل الذي لعبته رضي الله عنها ، إحساسًا منها بالمسئولية ، ومعرفة بالمقام الذي تقف فيه كواحدة من ذوي رأي المسلمين ، ومن أهل الاجتهاد والنظر بإجماعهم . فلم يكن يسعها أن تترك القيام على هذا الأمر إن وسع غيرها من النساء ، بل ومن الرجال [٤] .

ولقد كانت رضي الله عنها تعي هذا جيدًا ، وكانت تحرص على إيضاح هذا الموقف المسؤول الذي لم يكن يسعها غيره ، حينما كانت تشتم أي رائحة يفهم منها النظر إلى خروجها كخطأ تتحمل مسئوليته أمام الله ، فلقد جاءها علي رضي الله عنه لما ظهر ، فقال : « غفر الله لك » قالت : « ولك ، ما أردت إلا الإصلاح [٥] » .

ومن التشويش على الفهم والعقل ما ذهب إليه أحد الباحثين من القول بأن « هذا الموقف ، في الخروج الذي خرجته السيدة عائشة ، بل والصحابة في الطرف الآخر

(١) الفتوى هي نوع من التحاكم ، وطلب التحكيم من المفتي ، وهي أيضًا تبيين المشكل من الأحكام .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٦/٥ ، وكان القاسم كما قال ابن عيينة : من أعلم الناس بحديث عائشة ، وراجع الزركشي الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة . وراجع لابن حجر : مسند عائشة .

(٣) تأمل في هذا المعنى ما قاله القعقاع بن عمرو للسيدة عائشة بعد المعركة : « والله إنك لأبر أم نعلم ، ولكنك لم تُطَاعي » . سيف بن عمر : الجمل ومسير عائشة وعلي : ٣٥٦ .

(٤) ومن عجب أن الذين عزت عليهم سلطة الرجال ، قد قالوا : إنها ليست من أولياء الدم ، دم عثمان ، وحتى لو كانت من أوليائه فما دام هناك من الرجال الأقوياء القادرين على المطالبة به ، والقائمين فعلًا على ذلك ، فلا يجوز لها أن تورط نفسها د/ الوكيل : جولة تاريخية : ٥١٥ ، وقالت مثل هذا قدورة أيضًا !. ومثل هذه الأقوال من أهل التخصص رسخت ، ولا شك السلبية واللامبالاة لدي المرأة ، فأصبحت عبئًا ، ثقيلًا ، بعدما كانت حركة فاعلة ، تحمل مع أخيها الرجل الهم الديني والسياسي والهم كله .

(٥) ابن العربي : العواصم من القواصم : ١٦٣ .

مع عليّ ، كان اجتهادًا في طلب الحق ، والوقوف في صفه ، دون أن يكون لدي أحد منهم حجة واضحة أو دليل قاطع ، وحتي الحجة القطعية الواضحة التي جاءت في قول رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : « تقتله الفئة الباغية » ، تأولها بعضهم ، فأوهن حجيتها ، وشكك في المراد منها [١] » .

ولست أدري كيف استشهد بالفئة التي تقتل عمارًا هاهنا ، ولم تكن الفئة التي قتلته هي فئة عائشة رضي الله عنها ، ومن معها ، وإنما قتلته فئة معاوية بعد ذلك في معركة صفين .

والذي يعنيني ، على كل حال أن أناقش المقولة بأن الصحابة : الذين مع عائشة ، والذين مع علي ، قد اجتهدوا دون أن يكون لدي أحد منهم حجة أو دليل قاطع .... وهو قول يتناقض مع ما ذكره الباحث نفسه من أنهم كانوا مجتهدين في طلب الحق ، إذ كيف يمكن أن يسمى هذا الحال الذي لا حجة فيه ، ولا دليل اجتهادًا ؟

إن الاجتهاد – كما عرفه العلماء – « هو بذل الجهد في طلب الحق ، بقياس أو غيره من الوسائل المعتبرة شرعًا في استنباط الأحكام [٢] » ، « ولا يدخل فيه الرأي الذي يراه الإنسان من قِبَل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة » ، كما قال ابن منظور [٣] . ولقد رأينا عند استعراض الأحداث وأسباب الخروج كيف استدلت السيدة عائشة بالآية الكريمة ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [٤] ، كما استدلت بفعل رسول الله ﷺ في السعي للصلح والإصلاح بين المسلمين .

وإن عليًا ﷺ ، وهو المضار الأول من هذا الخروج قد أجاب ، لما سئل : هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا يريدون الله في ذلك ؟ فقال : نعم . قال : فهل لك حجة في تأخير ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غدًا ؟ قال : إني لأرجو ألا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة [٥] .

---

(١) د/ محمد السيد الوكيل : جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين : ٥١٣ .

(٢) الأصفهاني : حلية الأولياء : ٩/ ٦٣ ، د/ يوسف حامد العالم : المقاصد العامة للشريعة الإسلامية : ٧١ ، د/ يوسف القرضاوي : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية : ١١ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب .

(٤) النساء : ١١٤ .

(٥) تاريخ الطبري : ٤/ ٤٩٦ ، من رواية سيف ، وانظر الرواية الأخرى في نفس المعنى ، عن مالك بن حبيب ، وفيها : فإن ابتلينا ، فما بال قتلانا ؟ قال عليّ : « من أراد الله ﷻ نفعه ذلك وكان نجاءه » . تاريخ الطبري : ٤/ ٤٩٦ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٥٠ .

تعليق على آراء العلماء في خروج السيدة عائشة

لقد قال غيرُ واحد من العلماء : لقد فعلت عائشة رضي الله عنها ما فعلته عن حسن نية ، واجتهدت ، والمجتهد إن أخطأ لا إثم عليه ، بل له أجر على اجتهاده . وبَيَّنَ الشيخ الألباني أن عائشة وغيرها من الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ عندما يجتهدون ، ولا ينقص ذلك من قدرهم ، ولا غضاضة في أن يقال : إن هذا الصحابي أو ذاك اجتهد فأخطأ [١] .

وعني العلماء أنفسَهم بتحرير هذه المسألة ، فجعلوا يعتذرون عن عائشة والصحابة الذين معها بوجوه لا ينبغي لنا أن نشتغل بها ؛ لأنها في حقيقة الأمر مبنية على أساس غير صحيح ، يقول بأنها خرجت رضي الله عنها محاربة ، أو قائمة بما يلزم ولي الأمر القيام به ، ولا يلزمها [٢] ، وهما أساسان دحضتهما الدراسة دحضًا بعيدًا .

---

(١) ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة : رقم ٤٧٥/٥ .

(٢) وانظر في هذا ما انتهى إليه الأستاذ الدكتور محمد السيد الوكيل من « أنه كان الأولى بها أن تلزم بيتها ، ولا تتحمل تبعة هذا الأمر الخطير ، وكان يسعها ما وسع أمهات المؤمنين [يتحدث عنها ، كأنها امرأة من غمار الناس ، وكأنها ليست عائشة فقيهة رجال الأمة ونسائها] ،.. ولا شك أنها كانت مقدرة تمامًا لما يترتب على خروجها من تجمع الناس حولها ، وذبهم عن جملها ، وتحمسهم للدفاع عنها مما قد يؤدي إلى إزهاق الأرواح ، وانتهاك حرمات المؤمنين .. [هل كانت تعلم الغيب ، وتعلم أنها ستكون حربًا] ... ثم إنها ليست من أولياء هذا الدم ، وحتي لو كانت من أوليائه ، فما دام هناك من الرجال الأقوياء القادرين على المطالبة به ، فلا يجوز أن تورط نفسها [كيف لا تكون أم المؤمنين من أولياء هذا الدم المبارك ، وما هو الأساس الشرعي الذي بنى عليه القول بأن دور المرأة مرهون بدور الرجل وجودًا ، وعدمًا ، إن رأي السيدة عائشة ، كان مرهونًا بالمسؤولية العقدية التي تدين الله عليها] ... ولقد قعد كثير من الصحابة والتابعين عن الاشتراك في هذه الفتنة ، فكان الأولى بعائشة ، ومن معها أن يلزموا بيوتهم ، ويكفوا . [لقد قعد القاعدون عن الخروج رأيًا منهم واجتهادًا يدينون الله عليه ، فكان واجبًا عليهم القعود ، وحالهم هذا . وكان خروج عائشة ، ومن معها كذلك رأيًا ، واجتهادًا يدينون الله عليه ، فكان واجبًا عليهم الخروج ، وحالهم هذا] . انظر الوكيل : جولة تاريخية : ٥١٥ . وما بين القوسين من تعليقات الباحثة .

وقال العقاد : عبقرية الإمام : ٩٦، ٩٧ : إنه ليس من حقها ، ومن معها الطلب بالقود ؛ لأنهم لم يبايعوا ... وهكذا يظل التاريخ ميدانًا فسيحًا للتصورات الباهتة ، والاستدلالات الخاطئة المبنية على روايات موضوعة ، وعلى روايات صحيحة يساء فهمها ، وتأويلها ، أو على غير روايات أصلًا ، بل على تقاليد ، وآراء شخصية ، ولا أجد تعليقًا على هذا التيه الذي يعانيه البحث العلمي في تقييم الدور السياسي للسيدة عائشة أفضل مما قال عثمان رضي الله عنه ، معلقًا على المتطاولين على الصحابة : « إن أناسًا يعلموننا سنة رسول الله ﷺ ، عسى ألا يكون أحدهم قد رآه » ، ولا أفضل من قول السيدة عائشة معلقة على تطاول البعض على الصحابة الذين ماتوا ، بقولها : « قطع الله عنهم العمل ، فأراد ألا يقطع عنهم الأجر » . فكم تصدق هذه الرواية على حالها رضي الله عنها مع المتطاولين عليها .

غير أن ابن خلدون قد ذهب في تحليل هذا الخلاف بين الصحابة إلى أبعد من النظر إلى المسألة من جهة أن أحد الأطراف مصيب ، والآخر مخطئ ، فذهب إلى دفع التخطئة عن الطرفين جميعًا ، قال : « اعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية ، وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة . والمجتهدون إذا اختلفوا : فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ، ومن لم يصادفه مخطئ ، فإن جهته لا تتعين بإجماع ، فيبقي الكل على احتمال الإصابة ، ولا يتعين المخطئ منهم ، والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعًا ، وإن قلنا : إن الكل على حق ، وإن كل مجتهد مصيب ، فأحري بنفي الخطأ والتأثيم . وغاية الاختلاف بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية . وهذا حكمه [1] » .

وذهب الإمام النووي إلى طريق أكثر وضوحًا ، قال فيه بأن خروجها رضي الله عنها ، ومن معها كان واجبًا في حقها وحقهم ، قال : إنه لشدة اشتباه القضايا اختلف الصحابة ثلاثة أقسام :

قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف ، وأن مخالفه باغ ، فوجب عليه نصرته ، وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه .

وقسم عكس هؤلاء ، ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر ، فوجب عليهم مساعدته ، وقتال الباغي عليه . ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن المساعدة ، كما هو الأمر في القسم الأول. وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية ، وتحيروا فيها ، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين ، فاعتزلوا الفريقين ، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم [2] .

ولقد أذهب بعد هذا القول لابن خلدون وللإمام النووي ، وبعد ما تبين لنا في رحلة الروايات التاريخية إلى القول : بأن النوايا كانت صالحة ، ورشيدة – وهي نوايا

(١) ابن خلدون : المقدمة ٢/ ٦١٧. ومن أعجب العجب ما فعله الإمام الذهبي من سوق قصة الجمل كلها في مناقب عليّ رضي الله عنه ، دون أن يعرض له عرضًا واضحًا عند ترجمته للسيدة عائشة رضي الله عنها ، والتي استغرقت صفحات ترجمتها من ١٣٥ : ٢٠٠ من الجزء الثاني في الذهبي : سير أعلام النبلاء . بل إنه أشار إلى قصة الجمل فيما يشبه الاعتذار عنها ، والتأكيد على أنها ندمت على هذا الخروج ندمًا بعيدًا مُعللًا قوله هذا بما روي عن ابن سعد من طريق الواقدي ، عمن سمع عائشة إذا قرأت ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ الأحزاب : ٣٣ ، بكت حتى تبلَّ خمارها ! . الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٢/ ١٧٧، ١٩٣ .

(٢) الإمام النووي : في شرحه لصحيح مسلم : ٥/ ٢٤٢ كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

عبرت عنها الحركة التاريخية الفعلية الصحيحة حسبما أدي إليه اجتهادنا - خاصة وأنه لم تكن عند السيدة عائشة عزمة على القتال ، أو سعي إليه ، بل كان خروجها لدفعه عن المسلمين ، بالتمكين لحدود الله ، وأن خروجها لم يكن خروجًا على الخلافة ، أو تفريقًا لأمر المسلمين .

وأذهب بعد كل هذا إلى القول بأن خروجها رضي الله عنها كان واجبًا عليها ، ولو لم تخرج السيدة عائشة ، وقد ارتأت ما ارتأت لكان عدم خروجها قادحًا في حجم إحساسها بالمسئولية ، ولكانت مخطئة حقًا حين يستقر بسبب من عدم تفاعلها مع الأحداث - وهي من هي - أنه لا مدخل للنساء عامة في القضايا السياسية للأمة . وإذا اتَهم الدور السياسي للسيدة عائشة فلْتُتَهم من بعده كل الأدوار السياسية لكل نساء الدنيا .

إن هذه الصورة الفقهية لهذا الخروج مع الصورة التاريخية الصحيحة تأكيد جديد على أن المرحلة التي ندرسها من هذا التاريخ ، هي أصدق المراحل تعبيرًا عن الإسلام وتمثيلًا له ذلك الدين الذي أراد لكل ذي رأي رجلًا وامرأة الكرامة الوافرة ، والحرية التامة .

خلاصة القول في الموقف السياسي للسيدة عائشة

إن الذين تناولوا هذه المسألة جميعًا ، لم يتناولوها إلا في دائرة أنه لابد أن يكون فيها مخطئ ومصيب ، وواقع الأمر أن الفريقين كانا مصيبين في الخروج لأجل ما آمنوا به من خير . والأخطاء التي نسبتها الدراسة إلى أي من الفريقين لم تكن إلا أخطاءً في آليات هذا الخروج ، ووسائله ، ولم تقترب التخطئة من حقيقة هذا الخروج : جوهره ، ومقاصده .

إن الذي شاهت به حقيقة خروج السيدة عائشة ، ومن معها - وكان خروجًا يستحق التقدير والإكبار - أن العلماء لم يلتفتوا إلى الحقيقة المجردة في هذا الخروج ، والأسباب الشرعية التي حكمت السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهي أسباب لا يطعن في شرعيتها أن تكون قد لحقتها مفسدة [1] عارضة من نشوب الحرب التي لم يصح خبر

---

(١) انظر : الإمام الشاطبي : الموافقات : ١ : ١١١ : ٢١٤ . وتأمل قوله أيضًا : « إنه ربما لا تقوم المصالح إلا على شيء من الإتلاف في المال ، أو النفس . ولقد رفض الأصوليون أن يُطعن في مشروعية الأسباب لأجل ما قد يظهر من المفسدة التي تلحق بها لحوقًا غير مقصود منها » .

واحد بأنها كانت حربًا سبقتها عزمة مبيتة على القتال من على ، أو من عائشة رضي الله عنهما .

فالذين نظروا في الروايات التي دستها السبئية ، والشيعة ، والخوارج وما استهوى المستشرقين وغيرَ ذوي التحري من الدارسين ، والذين لم يحسنوا تأمل الأحداث ، فلم يفرقوا بين الخطأ المتعمد ، والخطأ الذي أوقعت فيه الظروف والملابسات ، بل والمؤامرات ، هؤلاء جميعًا اختلط لديهم الصواب في خروج السيدة عائشة رضي الله عنها بما حدث بعد ذلك من تدخل المتآمرين وإفسادهم على الجماعة المسلمة .

هؤلاء الذين نظروا إلى النتيجة المفاجئة ، التي انتهت إليها الأمور ، حمَّلوا عائشة رضي الله عنها وزرها ، بل حملوا النساء جميعا وزر هذه النتيجة ، وهو تحميل قائم على قراءة التاريخ الماضي في ضوء الأحداث التالية ، وهو ما يسمى بعكس الترتيب الزمني ، وهو من الأخطاء المعروفة في تصوير التاريخ [١] .

وظل العلماء متأثرين بالنتيجة التي انتهت إليها المعركة (المؤامرة) وبالنصر الذي حالف عليًّا رضي الله عنه . وانضاف إلى هذا ما تأثر به العلماء من البيئات الثقافية التي لا يحكمها الموقف الشريعي ، بقدر ما تحكمها التقاليد التي جعلت المرأة دائمًا في المنزلة الدون من الرجل ، وهو أمر يحتاج إلى دراسات ودراسات قائمة بذاتها .

وأدت هذه القراءة التاريخية غير الدقيقة بالعلماء – مع ما ذكرنا – إلى ما يشبه الإجماع على تعيين الخطأ من جهة عائشة رضي الله عنها ، وأصحابها ، وخاصة طلحة والزبير لخروجهم إلى البصرة ، مع دفع التأثيم عن كل من الفريقين ، كالشأن في المجتهدين [٢] .

ولقد أحس العلماء في حقيقة الأمر– رغم دفعهم التأثيم عن الفريقين – أن الريب والشك في نوايا الصحابة وعدالتهم ، ومدى إخلاصهم ظل ملازمًا للمسلمين ، فكانوا يرددون في كل موقف يذكر فيه ما بين الصحابة القول بـ « إياك أن تُعَوِّدَ نفسَكَ أو لسانكَ التعرضَ لأحدٍ منهم ، ولا تُشوِّش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ، والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت [٣] » .

---

(١) د/ محمد ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان ، انظر : د/ محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ٢٠ . (٢) ابن خلدون : المقدمة ٦١٨/٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ٦١٨/٢ ، ٦٢٤ . وما أكثر الكتابات التي كانت تتجاوز هذه المرحلة الزمنية ، رغبة منها في ألا تنكأ الجراح ، وهو موقف في حقيقته تعبير عن العجز التام عن تفسير بله فهم الأحداث التاريخية .

لكن هذا الطريق لم يكن مريحًا للعقل المسلم الطليق ، بل كان أشبه شيء بحجْرٍ له عن التفكير ، والبحث المتعمق في أصول القضايا . وكم مرت على الصالحين من المسلمين من سنين ظلوا فيها - مهابة وحبًا لهؤلاء الصحابة ، وخوفًا مما حذرهم العلماء منه - يتحرجون من مجرد التفكير في هذه القضايا ، ويتجرعون في الوقت نفسه غصص الألم بهذا الحال - المزعوم - الذي كان عليه الصحابة من تخاصم وتشاجر وتقاتل كما أوهمت الروايات الضعيفة ، والنظرة السطحية لمجريات الأمور .

إن ممارسة السيدة عائشة لحقها في الدعوة إلى ما آمنت به ، هو « حق » يستند إلى التكريم الإلهي ، ويرتبط بمفاهيم الأمانة ، والاستخلاف ، والعبودية لله ، وعمارة الأرض ، ولا ينفصل عن حقوق الله ، لارتباطه بالشريعة التي تنظمه ، وهو ما يجعله غير قابل للإسقاط بعقد أو صلح أو إبراء ، فحقوق الإنسان الشرعية ليس من حق الفرد أو الجماعة التنازل عنها ، أو عن بعضها ، وإنما هي ضرورات إنسانية توجب الشريعة الحفاظ عليها من قِبَل الدولة والجماعة والفرد . فإذا قصرت الدولة وجب على الأمة ، أفرادًا ، وجماعات تحملها [1] .

وإن السيدة عائشة رضي الله عنها قد مارست في حوادث الفتنة أعمق وأرشد الأدوار السياسية وأشدها ضراوة : دورها السياسي من الخارجين على عثمان رضي الله عنه ، وفهمها لخطرهم ، ودورها السياسي من حصر عثمان رضي الله عنه ، ومن مقتله ، وقيامها للطلب بدمه ، ودورها السياسي الأبرز في الخروج في هذا الطلب ، والغضب لسلطان الله ، وشريعته التي رأتها مُضَيَّعَةً . فجاهدت رضي الله عنها جهادًا مخلصًا من أجل التطبيق الصحيح لحدود الإسلام ، ومن أجل رفع راية الحق ، وإخماد الباطل ، وإقامة الدين .

وكان معها عدد كبير من الصحابة يحس المسئولية التي أحست بها ، ويجاهد نفس جهادها . وإن هذه الآراء التي تحملتها عائشة ومن معها من الصحابة كان ينبغي أن تنحت في تاريخنا هذه السوابق ، لندلل بها على مصداقية الممارسة السياسية الشريفة التي مارستها المرأة بهذا القدر من الجسارة الفكرية ، والعقدية حين كان التاريخ الإسلامي لما يزل يخطو خطواته الأولى .

وما بنتائج الأعمال تُتَبَيَّن صوابية المقدمات ، ويعرف ذلك جيدًا من يراجع في

---

(١) انظر : د/علي عبد الواحد وافي : الحرية في الإسلام : ٨٧ .

ذاكرته عدد المعارك التي خاضها الحق ، وانهزم ، رغم أنه الحق ، ولم يكن انهزامه سالبًا لقيمته ، وصوابية مقصده . هذا مع الوضع في الاعتبار - ولأجل أن تحكمنا الموضوعية الكافية - أنه ليست في الدنيا مصلحة محضة ، كما أنه ليس فيها مفسدة محضة ، وأن الصواب في أي أمر إنما هو على مقتضي ما غلب [١] ، فما غلب على ظننا هو أن خروج السيدة عائشة كانت تغلب فيه المصلحة على ما سواها.

والأمانة تحتم علينا أن نقرر أن الحركة السياسية برمتها ، من عائشة ، ومن معها ، ومن على ومن معه ، كانت دينًا يُمَارس ، ويتغلغل في السياسة فيحكم أطرافها جميعًا ، لقد قامت السيدة عائشة بحقها في القيام على ما تؤمن به من ضرورة إقامة حدود الله ، والتمكين لها دون توانٍ ، [وهو حق ، ما يجادل فيه أحد] ، وكان موقف على ﷺ هو موقف الحاكم المسلم الذي عرف الإسلام ، وعرف فيه حقوق الناس ، كاملة ، غير منقوصة ، فما تعدي على حق من هذه الحقوق . لقد عرف أن فعله هذا هو مما يجب عليه دينًا .

هذه هي الحقيقة التاريخية التي بقيت لنا من رواة الصدق ، ومن المصادر التي احترمت عقول قرائها ، فذكرت أسانيد الروايات ليكون القارئ على بينة مما يقرأ . وكان واجبًا علينا ، وجوب دين ، ووجوب بحث عن الحقيقة أن نجري وراء التفاصيل التي ربما قد لا يسيغها القارئ العَجِل ، ذلك أنه على أساس من هذه التفاصيل تنبني الحقيقة الكبري .

وكان ذلك واجبًا علينا أيضًا ؛ لأن أغلب الدراسات التي كتبت في هذه الساحة كانت لمن لم يتمكنوا من « الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله [٢] » ، فلم يستطيعوا الاقتراب من هذه القمم العالية من الصحابة أهل العدالة ، وكانت أغلب هذه الدراسات لمن لم يستطيعوا التمييز بين مصادر معلوماتهم ، ولم يجهدوا أنفسهم في تحقيق المرويات ، والتثبت منها ، ومن ثم فإنهم لم يستطيعوا تفسير المسائل ، وانساقوا يتخيرون ما لاءم أهواءهم هم ، و انسجم مع طبائعهم هم ، لا طبائع الذين تحدثت عنهم المرويات ، بل ذهبوا - استسهالًا للأمر يتسقطون من الآراء الجاهزة التي انتهى

---

(١) الشاطبي : الموافقات ٢/ ٣٤١ .

(٢) انظر هذا التعبير الصادق للشيخ محب الدين الخطيب في العواصم من القواصم : ٩٨ .

إليها المستشرقون ، والسابقون عليهم من الباحثين ، وغيرهم ممن لم يكن يعنيهم الحق المجرد من استجلاء الحقيقة التاريخية .

إن هذه الآلام التي تحملها الصحابة : رجالهم ، ونساؤهم في سبيل هذا الخروج للإصلاح والنداء بما يؤمنون به من الحق ، وما يعتقدونه من الخير والإصلاح ، كان ينبغي أن تنحت في تاريخنا هذه السوابق لندلل بها على مصداقية الممارسة السياسة الشريفة التي مارسوها ، وعلى إمكانية العودة بالأمة إلى الحياة السياسية الراشدة ، والقائمة على جناحي الإنسان : الرجل ، والمرأة ، لتحتشد الأمة مرة أخرى احتشادًا حقيقيًا يدفع بها نحو الأهداف التي خلقت لها ، كأمة ذات رسالة [١] .

وعلى الأمة أن تعيد ترتيب فكرها على أن هذه الحركة السياسية الواسعة التي تحركتها المرأة المسلمة ، كانت دليل صحة وعافية في البناء الإسلامي الذي بناه محمد في رجال الأمة ونسائها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولكننا لغفلتنا تركنا هذا التاريخ لأيدي المغرضين من السبئية والرافضة ، بل والمستشرقين وغيرهم ليشوهوا المعالم الوضيئة منه ثم جلسنا بعد نبكي حال تاريخنا .

ملحق أسماء الصحابيات المُبَايِعات

هذا الملحق تم تجميعه من تراجم النساء في كتاب « الإصابة » لابن حجر ، وهو لمن وصفن وصفًا صريحًا بأنهن من المبايعات . ومن الأهمية بمكان أن أشير إلى أن هناك أسماء لم يصفها ابن حجر بهذا الوصف ، رغم ما دلت عليه الدراسة من انتظام المبايعة لكل من آمن تقريبًا ، ورغم ما جاء في صحيح الآثار من مبايعاتهن ، فكل أمهات المؤمنين مثلًا لم يذكرن في المبايعات ، و عائشة رضي الله عنها علي سبيل المثال لم توصف في الإصابة بأنها من المبايعات ، رغم ما جاء في صحيح البخاري - كما أشرت في فصل البيعة - من حكايتها لما بايعهن رسول الله ﷺ عليه وكيفية ذلك.

والأسماء مذكورة بأرقام التراجم في كتاب « الإصابة في معرفة الصحابة » .

١ - آمنة بنت عفان : أخت أمير المؤمنين عثمان (١٠٧٧٠)
٢ - أثيلة بنت الحارث بن ثعلبة الأنصارية (١٠٧٧٨)
٣ - إدام بنت قرط بن خنساء الأنصارية (١٠٧٨٣)
٤ - أروي بنت أبي العاص الأموية : بايعت يوم فتح مكة (١٠٧٩٠)
٥ - أروي بنت كريز بن ربيعة (أم عثمان بن عفان) (١٠٧٩٣)
٦ - أسماء بنت عمرو بن عدي (أم منيع):كانت مع من شهد العقبة من السبعين (١٠٨٠٧)
٧ - أسماء بنت قرط بن خنساء الأنصارية (١٠٨١٠)
٨ - أسماء بنت مرثد من بني حارثة (١٠٨١٤)
٩ - أسماء بنت يزيد بن سكن (١٠٨١٦)
١٠ - أمامة بنت بشر الأنصارية : أخت عباد بن بشر (١٠٨٢٠)
١١ - أمامة بنت خديج الأنصارية (١٠٨٢٣)
١٢ - أمامة بنت الصامت الأنصارية : (أخت عبادة بن الصامت) (١٠٨٢٧)
١٣ - أمامة بنت عصام بن عامر الأنصارية (١٠٨٣١)
١٤ - أمامة بنت قُرط بن خنساء الأنصارية (١٠٨٣٢)
١٥ - أمامة بنت محرث بن زيد بن ثعلبة (١٠٨٣٤)
١٦ - أميمة بنت أبي حثمة الساعدية (١٠٨٥٠)
١٧ - أميمة بنت رقيقة بنت خويلد (خالتها خديجة) (١٠٨٥٥)
١٨ - أميمة بنت أبي سفيان بن وهب زوج أبي سفيان بن حرب (١٠٨٥٧)
١٩ - أميمة بنت عقبة بن عمرو بن عدي بن جشم (١٠٨٦٦)
٢٠ - أميمة بنت عمرو بن سهل بن معبد بن مخرمة الأنصارية الأشهلية (١٠٨٦٧)
٢١ - أميمة بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية (١٠٨٦٨)
٢٢ - أميمة بنت أبي هيثم الأنصارية (١٠٨٧٣)
٢٣ - أنيسة بنت أبي حارثة الأنصارية (والدة قتادة بن النعمان) (١٠٨٨٣)
٢٤ - أنيسة بنت أبي خبيب الخزرجية الأنصارية (١٠٨٨٤)
٢٥ - أنيسة بنت رافع بن المعلي ، الأنصارية (١٠٨٨٥)
٢٦ - أنيسة بنت رُهم الأنصارية (١٠٨٨٦)
٢٧ - أنيسة بنت ساعدة ، من بني عمرو بن عوف (١٠٨٨٧)
٢٨ - أنيسة بنت أبي طلحة الأنصارية (١٠٨٨٨)
٢٩ - أنيسة بنت عروة بن مسعود الأنصارية (١٠٨٩٢)

٣٠ - أنيسة بنت عمرو بن عنمة الأنصارية (١٠٨٩٣)
٣١ - أنيسة بنت هلال بن معلي الأنصارية (١٠٨٩٨)
٣٢ - أمة الله بنت أبي بكرة الثقفي (١٠٩١٥)
٣٣ - بثينة بنت النعمان الأنصارية (١٠٩١٥)
٣٤ - بحينة بنت الحارث بن المطلب (١٠٩١٦)
٣٥ - بريدة بنت بشر بن الحارث بن عمر بن الحارثة (١٠٩٣٢)
٣٦ - بريعة بنت أبي حارثة الأنصارية (١٠٩٣٥)
٣٧ - بسرة بنت صفوان بن نوفل القرشية الأسدية (١٠٩٣٧)
٣٨ - بشيرة بنت الحارث الأنصارية الظفرية (١٠٩٤٠)
٣٩ - بشيرة بنت ثابت بن النعمان بن الحارث الأنصارية (١٠٩٤١)
٤٠ - بشيرة بنت النعمان بن الحارث الأنصارية (١٠٩٤٢)
٤١ - البغوم بنت المعذل امرأة صفوان بن أمية (١٠٩٤٣)
٤٢ - بهيسة بنت عامر بن خالدة الأنصارية (١٠٩٤٦)
٤٣ - بهية بنت عبد الله البكرية من بكر بن وائل (١٠٩٤٩)
٤٤ - تميمة بنت أبي سفيان بن قيس الأشهلية (١٠٩٦٠)
٤٥ - التوأمة (١٠٩٦٣)
٤٦ - تويلة بنت أسلم (١٠٩٦٤)
٤٧ - ثبيتة بنت الربيع بن عمرو (١٠٩٦٥)
٤٨ - ثبيتة بنت سليط الأنصارية النجارية (١٠٩٦٦)
٤٩ - ثبيتة بنت النعمان بن عمرو ، من بني عامر بن بياضة (١٠٩٦٧)
٥٠ - ثبيتة بنت النعمان الأنصارية ، من بني جحجبي (١٠٩٦٨)
٥١ - جدامة بنت جندل (من حلفاء بني عبد شمس) (١٠٩٧٣)
٥٢ - جعدة بنت عبيد بن ثعلبة بن حارثة الأنصارية (١٠٩٧٨)
٥٣ - جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح أخت عاصم ، زوج عمربن الخطاب (١٠٩٨٩)
٥٤ - جميلة بنت زيد الأنصارية (١٠٩٩١)
٥٥ - جميلة بنت سنان بن ثعلبة بن حارثة الأنصارية (١٠٩٩٣)
٥٦ - جميلة بنت صيفي بن عمر بن زيد بن حارثة (١٠٩٩٤)
٥٧ - جميلة بنت أبي صعصعة من بني مازن بن النجار (١٠٩٩٥)
٥٨ - جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول (١٠٩٩٦)
٥٩ - جميلة بنت عبد الله بن حنظلة الأنصارية (١٠٩٩٧)

٦٠ - جميلة بنت عبد العزي بن قطن الخزاعية من بني المصطلق (١٠٩٩٨)
٦١ - جميمة بنت حمام بن جمح الأنصارية (١١٠٠٣)
٦٢ - جميمة بنت صيفي بن صخر بن خنساء الأنصارية (١١٠٠٤)
٦٣ - حبتة بنت جبير (١١٠٢١)
٦٤ - حبة بنت عمرو بن حصن الأنصارية (١١٠٢٣)
٦٥ - حبيبة بنت أبي أمامة ، أسعد بن زرارة (١١٠٢٤)
٦٦ - حبيبة بنت خارجة بن زيد ، زوج أبي بكر الصديق (١١٠٢٩)
٦٧ - حبيبة بنت أبي عامر الراهب ، أخت حنظلة (١١٠٣٧)
٦٨ - حبيبة بنت عمرو بن حصن ، من بني عامر (١١٠٣٩)
٦٩ - حبيبة بنت قيس بن زيد بن عامر بن سواد الأنصاري (١١٠٤٠)
٧٠ - حبيبة بنت مسعود بن خالد (١١٠٤١)
٧١ - حبيبة بنت معتب بن عبيد بن سواد بن غنم (١١٠٤٢)
٧٢ - حبيبة بنت مُليل ، من بني عمر بن عوف الخزرجية (١١٠٤٣)
٧٣ - حرملة بنت عبيد بن ثعلبة بن سواد بن غنم الأنصارية (١١٠٤٧)
٧٤ - حفصة بنت حاطب بن عمرو الأنصارية (١١٠٥٢)
٧٥ - حميمة بنت صيفي بن صخر ، زوج البراء بن معرور (١١٠٦٣)
٧٦ - الحنفاء بنت أبي جهل (١١٠٦٧)
٧٧ - حواء بنت رافع الأشهلية (١١٠٦٨)
٧٨ - حواء بنت يزيد بن السكن (١١٠٦٩)
٧٩ - حواء (أم بحيد) الأنصارية (١١٠٧١)
٨٠ - الحواء بنت تويت القرشية الأسدية (١١٠٧٢)
٨١ - الحويصلة بنت قطبة : بايع عنها أبوها (١١٠٧٦)
٨٢ - خالدة بنت عمرو بن ورقة ، من بني بياضة (١١٠٨٨)
٨٣ - خديجة بنت الحصين بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف (١١٠٩١)
٨٤ - خرنيق بنت الحصين الخزاعية ، أخت عمران (١١٠٩٨)
٨٥ - خليدة بنت الخباب بن سعد بن معاذ الأنصارية (١١١٠٤)
٨٦ - خليدة بنت قعنب الضبية (١١١٠٥)
٨٧ - خليسة بنت قيس بن ثابت (١١١٠٦)
٨٨ - خنساء بنت رئاب عمة جابر بن عبد الله (١١١١١)
٨٩ - خولة بنت خولي بن عبد الله الأنصارية (١١١٢١)

٩٠ - خولة بنت عبيد بن ثعلبة (١١١٢٧)
٩١ - خولة بنت عقبة بن رافع الأشهلية (١١١٢٨)
٩٢ - خولة بنت قيس بن السكن من بني غنم بن عدي بن النجار (١١١٣١)
٩٣ - خولة بنت مالك بن بشر الأنصارية (١١١٣٤)
٩٤ - خيرة بنت أبي أمية الأنصارية من بني غنم بن سلمة (١١١٤٢)
٩٥ - دبية بنت خالد بن النعمان من بني غنم بن مالك بن النجار (١١١٥٠)
٩٦ - رابعة بنت ثابت بن الفاكة بن ثعلبة الأنصارية من بني خطمة (١١١٥٨)
٩٧ - رابطة بنت الحارث : أسلمت قديما بمكة وبايعت وهاجرت إلى الحبشة (١١١٥٩)
٩٨ - الرباب بنت حارثة بن سنان الأنصارية (١١١٦٥)
٩٩ - الرباب بنت النعمان الأشهلية الأنصارية (١١١٦٦)
١٠٠ - الربيع بنت الطفيل (١١١٧١)
١٠١ - الربيع بنت مسعود بن عفراء الأنصارية النجارية (١١١٧٢)
١٠٢ - رغينة بنت سهل بن ثعلبة من بني غنم بن مالك بن النجار (١١١٧٩)
١٠٣ - رفاعة بنت ثابت بن الفاكه من بني خطمة الأنصارية (١١١٨٠)
١٠٤ - رقيقة بنت ثابت بن خالد النجارية الأنصارية (١١١٨٤)
١٠٥ - رقية بنت سيد البشر : بايعت هي وأخواتها (١١١٨٧)
١٠٦ - رملة بنت الحارث صاحبة الدار (١١١٨٩)
١٠٧ - رملة بنت شيبة بن ربيعة العبشمية (١١١٩٢)
١٠٨ - رملة بنت عبد الله بن أبي بن سلول (١١١٩٣)
١٠٩ - رملة بنت أبي عوف السهمية (١١١٩٤)
١١٠ - رميثة بنت عمرو بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف (١١١٩٦)
١١١ - ريطة بنت منبه بن الحجاج السهمية (١١٢١٢)
١١٢ - زغيبة بنت زرارة الأنصارية (١١٢٢١)
١١٣ - زينب بنت ثابت بن قيس شماس الأنصارية (١١٢٢٦)
١١٤ - زينب بنت الحباب بن الحارث بن عمرو بن عوف الأنصارية (١١٢٣٢)
١١٥ - زينب بنت سهل بن مصعب بن قيس الأنصارية (١١٢٤٣)
١١٦ - زينب بنت صيفي بن صخر بن خنساء الأنصارية (١١٢٤٤)
١١٧ - زينب بنت قيس بن شماس الأنصارية (١١٢٥٠)
١١٨ - سخطى بنت أسود بن عباد الأنصارية (١١٢٨٤)
١١٩ - سخطى بنت قيس الأنصارية (١١٢٨٥)

١٢٠ - سدوس بنت بطنة بن عبد عمرو بن مسعود النجارية (١١٢٨٨)
١٢١ - سعاد بنت رافع الأنصارية (١١٢٩٢)
١٢٢ - سعاد بنت سلمى بن زهير الأنصارية (١١٢٩٣)
١٢٣ - سعدى بنت أوس الخطمية (١١٢٩٤)
١٢٤ - سعيدة بنت بشر بن عبيد الأنصارية (١١٢٩٨)
١٢٥ - سعيدة بنت رفاعة الأنصارية الأشهلية (١١٢٩٩)
١٢٦ - سلامة بنت سعيد بن شهيد من بني عمرو بن عوف (١١٣١٠)
١٢٧ - سلامة بنت مسعود من بني حارثة ، أخت حويصة ومحيصة (١١٣١١)
١٢٨ - سلمى بنت أسلم الأنصارية (١١٣١٥)
١٢٩ - سلمى بنت زيد بن تيم من بني بياضة الأنصارية (١١٣٢٠)
١٣٠ - سلمى بنت قيس الأنصارية النجارية (١١٣٢٤)
١٣١ - سلمى بنت محرز بن عامر الأنصارية (١١٣٢٦)
١٣٢ - سميكة بنت جابر بن صخر الأنصارية (١١٣٤١)
١٣٣ - سنبلة بنت ماعز أو ماعص بن قيس بن خلدة الأنصارية من بني زريق (١١٣٤٧)
١٣٤ - سندوس ويقال سدوس بنت خالد بن سويد بن ثعلبة (١١٣٤٨)
١٣٥ - سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشية العامرية : بايعت بمكة قديمًا (١١٣٥٢)
١٣٦ - سهيمة بنت أبي سفيان الأنصارية (١١٧١٤)
١٣٧ - سهيمة بنت أسلم بن الحريش (١١٣٥٤)
١٣٨ - سهيمة بنت مسعود بن مالك الأنصارية (١١٣٥٧)
١٣٩ - سوادة بنت عاصم بن خالد العدوية (١١٣٥٩)
١٤٠ - سوداء غير منسوبة . لعلها التي فيها حديث الخطاب (١١٣٦١)
١٤١ - سودة بنت حارثة بن النعمان الأنصارية (١١٣٦٢)
١٤٢ - سودة بن أبي حبيش الجهمية (١١٣٦٤)
١٤٣ - شرفة الدار بنت الحارث بن قيس الأنصارية (١١٣٧٦)
١٤٤ - شُرَيرة بنت الحارث بن عوف بن مرة (١١٣٧٧)
١٤٥ - الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية (١١٣٧٩)
١٤٦ - شقيقة بنت قيس بن محرث بن ثعلبة (١١٣٨٢)
١٤٧ - الشموس بنت أبي عامر بن صيفي بن زيد بن أمية الأنصارية (١١٣٨٤)
١٤٨ - الشموس بنت عمرو بن حزام بن زيد الأنصارية (١١٣٨٥)
١٤٩ - الشموس بنت مالك (١١٣٨٦)

١٥٠ - الشموس بنت النعمان بن عامر بن مجمع الأنصارية (١١٣٨٧)
١٥١ - شميلة بنت الحارث بن عمرو بن حارثة بن هيثم الأنصارية (١١٣٨٩)
١٥٢ - الصعبة بنت جبل أخت معاذ (١١٣٩٧)
١٥٣ - الصعبة بنت سهل بن زيد بن عامر (١١٤٠٠)
١٥٤ - الصعبة بنت ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارية (١١٤٠٤)
١٥٥ - ضباعة بنت عمرو بن محصن الأنصارية من بني النجار (١١٤٣١)
١٥٦ - عائشة بنت جرير بن عمرو بن رزاح الأنصارية (١١٤٦٢)
١٥٧ - عائشة بنت أبي سفيان بن الحارث بن زيد الأنصارية (١١٤٦٤)
١٥٨ - عائشة بنت عمير بن الحارث بن ثعلبة الأنصارية (١١٤٦٧)
١٥٩ - عائشة بنت قدامة بن مظعون القرشية الجمحية (١١٤٦٨)
١٦٠ - عبادة بنت أبي نائلة بن سلامة بن وقش الأنصارية (١١٤٧٠)
١٦١ - عتبة بنت زرارة بن عدس الأنصارية (١١٤٧١)
١٦٢ - عدية بنت سعد بن خليفة بن أشرف الأنصارية (١١٤٧٤)
١٦٣ - عزة بنت خابل الخزاعية (١١٤٧٦)
١٦٤ - عصمة بنت حبان بن صخر بن خنساء الأنصارية (١١٤٨٢)
١٦٥ - عصيمة بنت أبي الأفلح (١١٤٨٣)
١٦٦ - عفراء بنت السكن أم أسعد بن زرارة (١١٤٨٤)
١٦٧ - عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بن سواد بن غنم - والدة معاذ ومعوذ (١١٤٨٥)
١٦٨ - عقرب بنت السكن بن رافع (١١٤٨٦)
١٦٩ - عقرب بنت سلامة بن وقش (١١٤٨٧)
١٧٠ - عقرب بنت معاذ بن النعمان الأشهلية شقيقة سعد بن معاذ (١١٤٨٨)
١٧١ - عقيلة بنت عتيك بن الحارث العدوية (١١٤٨٩)
١٧٢ - عمارة بنت حباشة بن جبير (١١٤٩٢)
١٧٣ - عمارة بنت أبي أيوب الأنصاري (١١٤٩٤)
١٧٤ - عمرة بنت حارثة بن النعمان الأنصارية النجارية (١١٤٩٨)
١٧٥ - عمرة بنت حرام الأنصارية (١١٤٩٩)
١٧٦ - عمرة بنت حزم الأنصارية (١١٥٠٠)
١٧٧ - عمرة بنت الربيع بن النعمان (١١٥٠١)
١٧٨ - عمرة بنت قيس بن عمرو الأنصارية (١١٥٠٧)
١٧٩ - عمرة بنت مرثد ، أخت أسماء (١١٥٠٨)

١٨٠ - عمرة بنت مسعود بن أوس من ظفر الأنصارية (١١٥٠٩)
١٨١ - عمرة بنت مسعود بن الحارث بن رفاعة الأنصارية (١١٥١٠)
١٨٢ - عمرة بنت مسعود بن زرارة بن عدي الأنصارية (١١٥١١)
١٨٣ - عمرة بنت مسعود الصغري خالة سعد بن عبادة (١١٥١٣)
١٨٤ - عمرة بنت مسعود بن قيس (كن خمس أخوات مبايعات اسمهن عمرة) (١١٥١٤)
١٨٥ - عمرة بنت هزال بن عمرو بن أوس الأنصارية (١١٥١٨)
١٨٦ - عمرة بنت يزيد بن السكن بن رافع الأشهلية (١١٥٢١)
١٨٧ - عميرة بنت ثابت بن النعمان (١١٥٢٥)
١٨٨ - عميرة بنت جبير الأنصارية (١١٥٢٦)
١٨٩ - عميرة بنت خماسة (١١٥٢٩)
١٩٠ - عميرة بنت أبي خيثمة (١١٥٣٠)
١٩١ - عميرة بنت سعد بن عامر بن عدي الأنصارية (١١٥٣٣)
١٩٢ - عميرة بنت سهيل بن ثعلبة النجارية الأنصارية (١١٥٣٦)
١٩٣ - عميرة بنت ظهير بن رافع بن عدي الأنصارية (١١٥٣٧)
١٩٤ - عميرة بنت عبد سعد بن عامر بن عدي (١١٥٣٨)
١٩٥ - عميرة بنت عبيد بن معروف الأنصارية (١١٥٣٩)
١٩٦ - عميرة بنت عقبة بن أحيحة الأنصارية (١١٥٤٠)
١٩٧ - عميرة بنت عمير بن ساعدة الأنصارية (١١٥٤١)
١٩٨ - عميرة بنت قرط بن خنساء (١١٥٤٢)
١٩٩ - عميرة بنت قيس بن عمرو الأنصارية (١١٥٤٣)
٢٠٠ - عميرة بنت قيس بن أبي بن كعب الأنصارية (١١٥٤٤)
٢٠١ - عميرة بنت كلثوم بن الهدم الأنصارية (١١٥٤٥)
٢٠٢ - عميرة بنت مرثد بن جبير (١١٥٤٧)
٢٠٣ - عميرة بنت معوذ بن عفراء الأنصارية (أخت الربيع) (١١٥٥٠)
٢٠٤ - عميرة بنت يزيد بن السكن الأشهلية (١١٥٥١)
٢٠٥ - عويمرة بنت عويم بن ساعدة الأنصارية (١١٥٥٧)
٢٠٦ - فاختة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية أخت خالد (١١٥٧٦)
٢٠٧ - فارعة بنت زرارة بن عدس بن حرام الأنصارية (١١٥٧٩)
٢٠٨ - فاطمة بنت أبي الأسد (١١٥٨٩)
٢٠٩ - فاطمة بنت سودة بن أبي ضبيس (١١٥٩٥)

٢١٠ - فاطمة بنت منقذ بن عمرو بن خنساء بن مبذول الأنصارية (١١٦١١)
٢١١ - فاطمة بنت الوليد بن المغيرة (١١٦١٤)
٢١٢ - فريعة بنت الحباب الأنصارية (١١٦٢١)
٢١٣ - فريعة بنت أسعد بن زرارة (١١٦٢٠)
٢١٤ - فريعة بنت خالد بن خنيس بن لودان الأنصارية (١١٦٢٢)
٢١٥ - فريعة بنت قيس الأنصارية (١١٦٢٦)
٢١٦ - فريعة بنت مالك بن الدحشم الخزرجية (١١٦٢٧)
٢١٧ - فُشحُم بنت أوس بن خولي الأنصارية (١١٦٣١)
٢١٨ - فكيهة بنت السكن الأنصارية (١١٦٣٣)
٢١٩ - فكيهة بنت عبيد بن دليم الأنصارية (١١٦٣٤)
٢٢٠ - فكيهة بنت المطلب بن خلدة الأنصارية (١١٦٣٥)
٢٢١ - فكيهة بنت يسار (١١٦٣٧)
٢٢٢ - قتيلة بنت عمرو (١١٦٤٥)
٢٢٣ - قَريبة بنت زيد الأنصارية (١١٦٥٠)
٢٢٤ - كبشة بنت أبي أمامة سعد بن زرارة الأنصارية (١١٦٦٣)
٢٢٥ - كبشة بنت أوس بن شريق الأنصارية (١١٦٦٤)
٢٢٦ - كبشة بنت ثابت بن حارثة الأنصارية (١١٦٦٥)
٢٢٧ - كبشة بنت ثابت بن عتيك بن النعمان (١١٦٦٦)
٢٢٨ - كبشة بنت حاطب بن قيس بن هبشة (١١٦٦٨)
٢٢٩ - كبشة بنت رافع بن عبيد بن ثعلبة (أم سعد بن معاذ) (١١٦٦٩)
٢٣٠ - كبشة بنت عبد عمرو بن عبيد بن قمئة الأنصارية (١١٦٧٠)
٢٣١ - كبشة بنت الفاكه بن قيس الأنصارية (١١٦٧١)
٢٣٢ - كبشة بنت فروة بن عمرو بن قروة الأنصارية (١١٦٧٢)
٢٣٣ - كبشة بنت واقد بن عمرو الخزرجية الأنصارية (١١٦٧٨)
٢٣٤ - كبيرة بنت أبي سفيان الخزاعية (١١٦٧٩)
٢٣٥ - كبيشة بنت مالك بن قيس الأنصارية (١١٦٨٠)
٢٣٦ - كلثم بنت محرز النجارية (١١٦٨٩)
٢٣٧ - لبابة بنت أسلم بن حريش بن عدي بن حارثة (١١٦٩٨)
٢٣٨ - لبنى بنت ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارية (١١٧٠٢)
٢٣٩ - لبنى بنت الخطيم الأنصارية (١١٧٠٣)

٢٤٠ - لبنى بنت قيظي الأنصارية (١١٧٠٤)
٢٤١ - لبيس بنت عمرو بن حرام الأنصارية (١١٧٠٦)
٢٤٢ - ليلى بنت الإطنابة الأنصارية (١١٧٠٩)
٢٤٣ - ليلى بنت بلال الأنصارية (١١٧١٠)
٢٤٤ - ليلى بنت أبي حثمة القرشية العدوية (١١٧١٢)
٢٤٥ - ليلى بنت الخطيم (أول امرأة بايعت) (١١٧١٤)
٢٤٦ - ليلى بنت رافع بن عمرو (١١٧١٥)
٢٤٧ - ليلى بنت ربعي بن عامر الأنصارية (١١٧١٦)
٢٤٨ - ليلى بنت أبي سفيان الأشهلية الأنصارية (١١٧١٨)
٢٤٩ - ليلى بنت سماك بن ثابت (١١٧١٩)
٢٥٠ - ليلى بنت عبادة الأنصارية الساعدية (١١٧٢٢)
٢٥١ - ليلى بنت نهيك بن جشم الأنصارية (١١٧٢٧)
٢٥٢ - محياة بنت أبي نائلة الأشهلية (١١٧٤٨)
٢٥٣ - مريم بنت أبي سفيان الأنصارية (من أوائل المبايعات) (١١٧٥١)
٢٥٤ - معاذة بنت عبد الله بن عمرو الأنصارية (١١٧٥٧)
٢٥٥ - معاذة جارية عبد الله بن أبي بن سلول (١١٧٦٠)
٢٥٦ - مليكة بنت ثابت بن الفاكه (١١٧٦٣)
٢٥٧ - مليكة بنت سهل بن جشم الأنصارية (١١٧٦٧)
٢٥٨ - مليكة بنت عبد الله بن صخر بن خنساء الأنصارية (١١٧٦٩)
٢٥٩ - مليكة بنت عمرو بن سهل الأنصارية (١١٧٧١)
٢٦٠ - مندوس بنت خلاد بن سويد الأنصارية (١١٧٧٨)
٢٦١ - مندوس بنت عبادة الأنصارية (١١٧٧٩)
٢٦٢ - مندوس بنت عمرو بن خنيس (١١٧٨٠)
٢٦٣ - مندوس بنت قطبة الأشهلية (١١٧٨١)
٢٦٤ - مندوس بنت عبادة الخزرجية الأنصارية (١١٧٧٩)
٢٦٥ - نائلة بنت الربيع بن قيس الخزرجية الأنصارية (١١٨٠٠)
٢٦٦ - نائلة بنت سعد بن مالك الأنصارية (١١٨٠١)
٢٦٧ - نائلة بنت سلامة بن وقش (١١٨٠٢)
٢٦٨ - نائلة بنت عبيد بن الحر النجارية الأنصارية (١١٨٠٣)
٢٦٩ - نتيلة بنت قيس الأنصارية (١١٨٠٦)

٢٧٠ - نسيبة بنت رافع الأنصارية (١١٨١٠)
٢٧١ - نسيبة بنت سماك بن النعمان الأوسية (١١٨١١)
٢٧٢ - نسيبة بنت أبي طلحة الأوسية (١١٨١٢)
٢٧٣ - نسيبة بنت كعب (١١٨١٣)
٢٧٤ - نفيسة بنت عمرو بن خلدة الأنصارية (١١٨٢٢)
٢٧٥ - النوار بنت الحارث بن قيس الأنصارية (١١٨٢٥)
٢٧٦ - النوار بنت الحارث بن قيس بن الحارث بن جشم (١١٨٢٦)
٢٧٧ - النوار بنت قيس بن لوذان بن مجدعة (١١٨٢٧)
٢٧٨ - هزيلة بنت ثابت بن ثعلبة بن الجلاس الأنصارية (١١٨٣٦)
٢٧٩ - هزيلة بنت سعيد بن سهيل بن مالك الأنصارية (١١٨٣٨)
٢٨٠ - هزيلة بنت عتبة بن عمرو بن خديج الخزرجية الأنصارية (١١٨٣٩)
٢٨١ - هزيلة بنت مسعود بن زيد الأنصارية (١١٨٤٠)
٢٨٢ - هند بنت أوس بن شريق (١١٨٤٥)
٢٨٣ - هند بنت أوس بن عدي بن أمية الأنصارية (١١٨٤٦)
٢٨٤ - هند بنت البراء بن معرور الأنصارية (١١٨٤٧)
٢٨٥ - هند بنت سماك بن عتيك الأشهلية الأنصارية (١١٨٥٦)
٢٨٦ - هند بنت سهل بن عمرو بن جشم الأنصارية (١١٨٥٨)
٢٨٧ - هند بنت عتبة (١١٨٦٠)
٢٨٨ - هند بنت عمرو بن الجموح (١١٨٦٤)
٢٨٩ - هند بنت المنذر بن الجموح (١١٨٦٨)
٢٩٠ - ودة بنت عقبة بن رافع الأشهلية (١١٨٨١)
٢٩١ - وقصاء بنت مسعود بن عامر الأنصارية (١١٨٨٣)
٢٩٢ - يسيرة بنت مليكة الخزرجية الأنصارية (١١٨٨٦)
٢٩٣ - يسيرة أم ياسر ، ويقال بنت ياسر وتكني أم حميضة (١١٨٨٧)
٢٩٤ - أم أنس بنت عمرو بن مرضخة الأنصارية (١١٨٩٧)
٢٩٥ - أم أنس بنت واقد بن عمرو بن زيد بن غنم بن عوف (١١٨٩٨)
٢٩٦ - أم إياس بنت أنس بن رافع الأنصارية الأشهلية (١١٩٠٠)
٢٩٧ - أم أيوب بنت قيس بن عمرو الخزرجية الأنصارية (١١٩٠٤)
٢٩٨ - أم أيوب بنت قيس بن سعد بن عمرو بن أمرئ القيس بن مالك الأغر (١١٩٠٥)
٢٩٩ - أم بشر بنت عمرو بن عنمة (١١٩١٢)

٣٠٠ - أم بيان بنت زيد بن مالك الأنصارية (١١٩١٧)
٣٠١ - أم ثابت بنت سنان (١١٩١٩)
٣٠٢ - أم ثابت بنت ثعلبة (١١٩٢٠)
٣٠٣ - أم ثابت بنت جبر ين عتيك الأنصارية (١١٩٢١)
٣٠٤ - أم ثابت بنت حارثة بن زيد بن ثعلبة الأنصارية (١١٩٢٢)
٣٠٥ - أم ثابت بنت قيس بن شماس الأنصارية (١١٩٢٥)
٣٠٦ - أم ثابت بنت مسعود بن سعد الأنصارية (١١٩٢٦)
٣٠٧ - أم ثعلبة بنت زيد بن الحارث بن حرام (١١٩٢٨)
٣٠٨ - أم جميل بنت الجلاس الأنصارية الأشهلية (١١٩٣٣)
٣٠٩ - أم جميل بنت الحباب بن المنذر بن الجموح (١١٩٣٤)
٣١٠ - أم جميل بنت قطبة بن عامر الأنصارية (١١٩٣٨)
٣١١ - أم جميل بنت المجلل القرشية (١١٩٣٩)
٣١٢ - أم جندب بنت مسعود بن أوس الأنصارية (١١٩٤٢)
٣١٣ - أم الحارث بنت ثابت بن الجزع الأنصارية (١١٩٤٦)
٣١٤ - أم الحارث بنت الحارث بن ثعلبة الأنصارية (١١٩٤٧)
٣١٥ - أم الحارث بنت الحارث بن عروة بن ظفر الأنصارية (١١٩٤٨)
٣١٦ - أم الحارث بنت مالك بن الخنساء بن سنان الأنصارية (١١٩٥٠)
٣١٧ - أم الحارث بنت النعمان بن الخنساء (١١٩٥١)
٣١٨ - أم حبان بنت عامر (١١٩٥٦)
٣١٩ - أم حبيبة بنت نباتة الأسدية (١١٩٦٨)
٣٢٠ - أم الحكم بنت عبد الرحمن بن مسعود بن ثعلبة الأنصارية (١١٩٧٨)
٣٢١ - أم حكيم بنت حرام الأنصارية (١١٩٨٥)
٣٢٢ - أم حكيم بنت طارق الكنانية (١١٩٨٧)
٣٢٣ - أم حنظلة بنت رومي بن وقش الأنصارية الأشهلية (١١٩٩٥)
٣٢٤ - أم خارجة بنت النضر بن ضمضم الأنصارية (١٢٠٠١)
٣٢٥ - أم خالد بنت خالد بن يعيش من بني عدي بن النجار (١٢٠٠٥)
٣٢٦ - أم رافع بنت أسلم (١٢٠١٥)
٣٢٧ - أم رافع بنت عبد الله بن النعمان (١٢٠١٧)
٣٢٨ - أم رافع بنت عثمان الزرقية (١٢٠١٨)
٣٢٩ - أم الربيع بنت أسلم بن الحريش الأنصارية (١٢٠٢١)

٣٣٠ - أم الربيع بنت عبيد بن النعمان بن ثعلبة الأنصارية (١٢٠٢٣)
٣٣١ - أم رَزَن بنت سواد الأنصارية (١٢٠٢٤)
٣٣٢ - أم رمثة (١٢٠٢٦)
٣٣٣ - أم رومان بنت عامر الكنانية امراة أبي بكر الصديق (١٢٠٢٧)
٣٣٤ - أم زيد بنت حرام بن عمرو الأنصارية (١٢٠٣٣)
٣٣٥ - أم زيد بنت السكن الأنصارية (١٢٠٣٤)
٣٣٦ - أم زيد بنت عمرو بن حرام الأنصارية (١١٠٣٥)
٣٣٧ - أم زيد بنت قيس بن النعمان بن سنان الأنصارية (١٢٠٣٦)
٣٣٨ - أم سعيد بنت عبد الله بن أبي الخزرجية (١٢٠٥١)
٣٣٩ - أم سعد بنت عقبة بن نافع الأشهلية (١٢٠٥٢)
٣٤٠ - أم سعد بنت قيس بن حصن الأنصارية (١٢٠٥٣)
٣٤١ - أم سعد بنت مسعود بن سعد بن قيس بن مخلد الأنصارية (١٢٠٥٥)
٣٤٢ - أم سليط الأنصارية (١٢٠٧١)
٣٤٣ - أم سليم بنت خالد بن غنم بن مالك بن النجار (١٢٠٧٣)
٣٤٤ - أم سليم بنت عمرو بن عباد (١٢٠٧٥)
٣٤٥ - أم سليم بنت قيس بن عمرو بن عبيد بن النجار (١٢٠٧٦)
٣٤٦ - أم سماك بنت فضالة بن عدي الأنصارية (١٢٠٨١)
٣٤٧ - أم سنان الأسلمية (١١٠٨٣)
٣٤٨ - أم سهل بنت أبي حثمة عبد الله بن ساعدة (١٢٠٨٦)
٣٤٩ - أم سهل بنت رومي بن وقش (١٢٠٨٧)
٣٥٠ - أم سهل بنت سهل بن عتيك النجارية (١٢٠٨٨)
٣٥١ - أم سهل بنت عمرو بن قيس الأنصارية النجارية (١٢٠٨٩)
٣٥٢ - أم سهل بنت النعمان الأنصارية (١٢٠٩١)
٣٥٣ - أم شرحبيل بنت فروة بن عمرو الأنصارية (١٢٠٩٦)
٣٥٤ - أم شريك بنت أنس بن رافع بن امرئ القيس الأنصارية الأشهلية (١٢٠٩٨)
٣٥٥ - أم شريك بنت جابر الغفارية (١٢٠٩٩)
٣٥٦ - أم شريك بنت خالد بن خنيس الأنصارية الخزرجية (١٢١٠٠)
٣٥٧ - أم الضحاك بنت مسعود الأنصارية الحارثية (١٢١١٥)
٣٥٨ - أم عاصم السوداء (١٢١٢٣)
٣٥٩ - أم عامر بنت سليم بن ضبع الأنصارية (١٢١٢٥)

٣٦٠ - أم عامر بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأشهلية (١٢١٢٩)
٣٦١ - أم عامر الأشهلية (١٢١٣١)
٣٦٢ - أم عبد الله بنت سواد بن رزن بن ثعلبة الأنصارية (١٢١٤٠)
٣٦٣ - أم عبد الله بنت عازب الأنصارية (١٢١٤١)
٣٦٤ - أم عبد الله بنت معاذ بن جبل (١٢١٤٣)
٣٦٥ - أم عبد الله بنت ملحان (أخت أم سليم) (١٢١٤٤)
٣٦٦ - أم عبيد بنت سود بن قريم الهذلية (١٢١٦٠)
٣٦٧ - أم عبيس بنت مسلمة الأنصارية (١٢١٦١)
٣٦٨ - أم عثمان بنت سفيان والدة بني شيبة الأكابر (١٢١٦٦)
٣٦٩ - أم عفيف النهدية (١٢١٧٤)
٣٧٠ - أم العلاء الأنصارية (١٢١٧٨)
٣٧١ - أم عمرو بنت سلامة بن وقش الأنصارية الأشهلية (١٢١٨٦)
٣٧٢ - أم عمرو بنت عمرو بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم (١٢١٨٧)
٣٧٣ - أم عمرو بنت عمرو بن حرام الأنصارية الخزرجية (١٢١٨٨)
٣٧٤ - أم عمرو بنت محمود الأنصارية (١٢١٨٩)
٣٧٥ - أم عميس بنت مسلمة الأنصارية (١٢١٩٣)
٣٧٦ - أم فروة بنت أبي قحافة التيمية أخت أبي بكر الصديق (١٢٢٠١)
٣٧٧ - أم قيس بنت محصن الأسدية أخت عكاشة بن محصن (١٢٢١٣)
٣٧٨ - أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو القرشية العامرية (١٢٢٢٩)
٣٧٩ - أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية (١٢٢٣١)
٣٨٠ - أم ليلي بنت رواحة الأنصارية (١٢٢٤٠)
٣٨١ - أم مالك بنت أبي بن مالك الأنصارية الخزرجية (١٢٢٤١)
٣٨٢ - أم مرثد الأسلمية (١٢٢٥٢)
٣٨٣ - أم معاذ الأنصارية (١٢٢٦٠)
٣٨٤ - أم معاذ بنت عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارية أخت جابر (١٢٢٦٢)
٣٨٥ - أم معبد الخزاعية (١٢٢٦٣)
٣٨٦ - أم منظور بنت محمد بن سلمة الأنصارية (١٢٢٧٤)
٣٨٧ - أم نيار بنت زيد بن مالك الأشهلية - أخت سعد بن زيد (١٢٢٨٧)
٣٨٨ - أم هشام بنت حارثة بن النعمان الأنصارية (١٢٢٩٣)

فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
الأبار أحمد بن علي	٤٩	الأعمش سليمان بن مهران	٣٥٧
أبان بن سعيد بن العاص أبو الوليد الأموي	٣١٠	أنس بن عياض	٣١٧
أم أبان بنت عتبة	٣١٠	أنس بن مالك	٢٧٠
أبان بن عثمان بن عفان	٤١٦	أنس بن النضر	٢٢٦
إبراهيم الحربي	٤٩	أنيسة بنت عنمة	٢٢٦
إبراهيم بن سعد	٣٤٣	أم أيمن	٢٢٢
ابن الأثير	٢٧	باذام	٢٧٩
ابن الأجدع مسروق الوادعي	٣٥٧	البراد أسيد بن أبي أسيد	١٦٩
أحمد بن إبراهيم الدورقي	٤٥٣	بريرة	٤٦٦
أبو أحمد بن جحش	١٣٤	ابن بطال شارح صحيح البخاري	٤٩٣
أحمد بن زهير	٦٤	أبو بكر بن أبي سبرة	٣٥٩
أحمد بن شبويه	٦٧	أبو بكرة نفيع بن الحارث	٤٩١
الأحنف بن قيس	٤٢٢	البلاذري	٣٠
أردة بنت الحارث	٣٢٥	أم تميم امرأة خالد بن الوليد	٢٩٤
الأرقم بن أبي الأرقم	١١٢	ثابت بن أسلم البناني	٩٥
ابن إسحاق	٥٦	الثوري ، سفيان بن سعيد	٧٨
أسماء بنت عميس	١٢٥	جابر بن يزيد الجعفي	٤٧
أسماء بنت يزيد بن السكن	٢١٠	جارية بن قدامة	٤٨٥
إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي	٤٠٥	جعفر بن سليمان الضبعي	٣٧٧
إسماعيل بن موسى الفزاري	٤٠١	جعفر المحمدي	٦٣
الإسماعيلي محمد بن إسماعيل النيسابوري	٤٦١	أم جميل بنت الخطاب (فاطمة)	٩٣
الأسود بن سريع	٣٩٧	أبو جندل بن سهيل بن عمرو	٢٤٣
الأسود بن شيبان السدوسي	٤٥٣	حبان بن هلال	٣٧٧
الأسود العنسي	٢٧٩	حبيب بن زيد بن عاصم (خبيب)	٢٩١
الأسود بن يزيد النخعي	٢٧١	الحجاج بن أرطأة	٤٤١

أسيد بن حضير ٢٢٨
الأشتر ٣٣٩
الأصفهاني ٣٥
حرقوص بن زهير ٤١٤
الحسين بن فهم ٢٥
حصين بن عبد الرحمن أبو الهذيل ٤٢٢
حكيم بن جبلة ٤١٠
أم حكيم بنت الحارث ٣١١
حمنة بنت جحش ٢٢١
حنظلة بن أبي عامر ٢٢٥
حنظلة الكاتب ٣٤١
خالد بن سُمَير ٤٥٣
خالد بن مخلد القطواني ٣٤٤
خولة بنت مالك ثعلبة (بنت حكيم) ٣١٤
خيثمة بن أبي سبرة ٣٥٧
الدارقطني ٤٥
أبو داود السجستاني ٥٠
الذهبي الإمام ٢٧
الربيع بنت النضر ٢٢٦
الرشاطي ، عبد الله بن علي ٣١٦
رفاعة بن رافع ٤٣٣
رقيقة بنت أبي صيفي ١٣٨
الزبير بن العوام ٣٣٥
أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم ٨٠
الزهري ، عبيد الله بن سعد ٧٣
الزهري محمد بن مسلم ٦٥
زهير بن حرب أبو خيثمة النسائي ٦٥
الحجاج بن عمرو بن غزية ٤٣٤
ابن حجر ٢٨
حجر بن عدي ٥٠٠
سعيد بن المسيب ٣٦٧
سعيد بن مينا ٢٣٤
سعيد بن عمرو بن العاص ٢٧١
أبو سفيان بن الحارث ٢٥٢
أبو سفيان صخر بن حرب ٩٣
أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ١٥٢
سلمى بنت قيس أم المنذر ٢٤١
أم سليط ٢٢١
أم سليم ٩٤
أم سنان الأسلمية ٢٤٦
سهل بن حنيف ١٤٢
سهل بن سعد الساعدي ٢٢٤
سهل بن يوسف الأنماطي ٤٨٥
سيف بن عمر ٦٨
شبث بن ربعي ٤٨٢
شريح بن هانئ ٤٦٤
أم شريك غزية بنت جابر ١٠٨
شعبة بن الحجاج بن الورد ٥٧
الشعبي عامر بن شرحبيل ٣٢٤
شعيب بن إبراهيم ٦٩
الصاغاني أبو بكر ٥٠
أبو صالح باذان مولى أم هانئ ١٤٩
صالح بن كيسان ٣٤٥
صفوان بن قبيصة الأحمسي ٤٠١

زياد بن أيوب الطوسي ٧٥
زياد بن كليب الكوفي ، أبو معشر ٦٠
أم زياد الأشجعية ٢٦٩
زيد بن صوحان ٤٨١
السدي ١٤٩
السري بن يحيى ٦٩
ابن سعد ٢٥
أم سعد بنت سعد بن الربيع ٢٢٢
سعد بن معاذ ٢٢٨
سعيد بن جبير ١٠٥
عاصم بن عمر بن قتادة ٥٧
عاصم بن كليب الجرمي ٧٥
أبو عامر العقدي ٤٥٣
العباس بن عبادة ١٥٦
ابن عبد البر القرطبي ٢٦
عبد بن حميد ٣١٦
ابن عبد ربه ٣٥
عبد الرحمن بن الحارث ٤٩٩
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ١٤٤
عبد الرحمن بن عتاب ٣٨٧
عبد الرحمن بن أبي عمرة ٤٨٧
عبد الرزاق ٤٦١
عبد الله بن إدريس ٤٢٢
عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ٢٥٢
عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الراهب ١٥٩
عبد الله بن رافع ٣٤٤
عبد الله بن زيد بن عاصم ١٦٠
صفية بنت الحارث أم طلحة الطلحات ٤٤٤
ضرار بن الأزور ٣١٨
ضمرة بن سعيد ٢٢٣
الطاهر بن أبي هالة ٢٨١
الطبري ٣٨
أبو طلحة زيد بن سهل ٩٥
طلحة بن عبيد الله ٣٣٥
طليحة الأسدي ٢٧٩
عاتكة بنت عبد المطلب ٢١٧
أبو العاص بن الربيع ٩٤
علي بن مسلم بن سعيد الطوسي ٣٧٧
عمار الدهني ٤٤١
عمار بن ياسر ٣٦٦
عمر بن أبي سلمة ٤٨
عمر بن راشد اليمامي ٤٥٦
عمر بن شبة ٦٠
عمران بن حصين ٤٠٩
عمرو بن جأوان ٤٢٢
عمرو بن الجموح ٢٢٧
عوف بن مالك بن نضلة ٣٧٧
فاطمة بنت عبد الرحمن (عمرة) ٣٤٧
الفاكهي عبد الله بن محمد بن العباس ١٤٢
أم الفضل لبابة بنت الحارث ٩٣
فيروز الديلمي ٢٨١
القاسم بن محمد بن أبي بكر ٢٨٧
القعقاع بن عمرو التميمي ٤٣٥
القعنبي ٣٤٤

عبد الله بن أبي سرح ٣٧١
عبد الله بن عامر الحضرمي ٣٨٤
عبد الله بن كعب المازني ٢٢٤
عبد الله بن المبارك ٤٩
عبد الله بن هاشم بن حيان الطوسي ٧٨
عبد المجيد بن سهيل ٣٥٩
عبيد بن عمير بن قتادة ٨٩
عبيد الله بن جحش ٩٣
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ٤٦٠
عثمان بن حنيف ٣٩٢
ابن عدي ٤٥
عروة بن الزبير ٣٩٠
عروة بن مسعود ٢٤٤
عكرمة مولي ابن عباس ٣٥٩
أبو العكر مسلم بن سلمي ١٠٨
علي بن عابس ٤٠١
علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح المديني ٥٠
محمد بن السائب الكلبي ٤٦
محمد بن سلام الجمحي ٤٩
محمد بن سوقة ٧٥
محمد بن سيرين ٦٠
محمد بن طلحة بن عبيد الله ٤٤٠
محمد بن عيسى بن نجيح (ابن الطباع) ٧٣
محمد بن مسلمة ٢٣٢
محمد بن هلال ٣٤٤
محمد بن أبي يحيى ابن فليح الأسلمي ٣١٧
محمد بن يحيى بن حبان ٢٩٣
قيس بن أبي حازم ١٧٨
قيس بن الخطيم الشاعر ١٠٩
قيس بن عبد يغوث ٢٨١
أم كثير بنت يزيد ٣٢٤
كعب بن سور ٣٨٧
كعب بن مالك ١٥٤
أم كلثوم بنت عقبة ٩٤
أم كلثوم بنت علي ٢٢١
كنانة بن عدي ٣٣٩
مالك بن أنس ٥٧
المبرد ٣٥
مجاشع بن مسعود ٤١٦
مجالد بن سعيد ٤٧
مجاهد بن موسى ٤٩
أبو محجن الثقفي ٣٢٣
محمد بن أبي بكر الصديق ٣٤٠
محمد بن جعفر بن أبي طالب ٣٤٣
الهرماس بن زياد ٣٨
ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب ٢٣
همام بن الحارث النخعي ٣٢٤
هند بنت عتبة ١٦٣
أبو واقد الليثي الحارث بن عوف ٣١٧
الواقدي ٤٨
أم ورقة ٢١٧
ورقة بن نوفل ٩٠
وكيع بن الجراح ٧٨
الوليد بن عقبة ٣٦٨

أبو مخنف لوط بن يحيى ٤٤
المدائني أبو الحسن علي بن محمد ٤٤١
مروان بن الحكم ٣٤٠
المسعودي ٣٢
مسيلمة الكذاب ٢٩١
مصعب الزبيري ٢٥
مصعب بن سلام التميمي ٧٥
معاوية بن خديج ٤٢٥
أبو معاوية محمد بن حازم ٣٥٦
معتب بن قشير ٢٣١
معمر بن راشد ٤٦١
المهلب بن أبي صفرة ٤٩٣
موسى بن ضمرة ٢٢٣
أم موسى اللخمية ٣١٦
نجيح بن عبد الرحمن السندي (أبو معشر) ٤٩٩
نصر بن مزاحم ٦٢
النعمان بن بشير ٢٣٥
وهب بن جرير ٦٥
وهب بن كيسان ٨٩
يحيى بن سعيد بن فروخ القطان ٤٠٥
يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري ١٣٦
يحيى بن معين ٢٥
يعقوب بن إبراهيم الزهري ٤٢٢
يعقوب بن سفيان الفسوي ٢٨٣
يعقوب بن شيبة بن الصلت ٥٨
يعلي بن أمية ٤٠١
اليمان بن جابر ٢٢٠
أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ٣٦٤
يوسف بن يزيد القراطيسي ٤١٥
يونس بن بكير ١٣٦
يونس بن يزيد الأيلي (أبو النجاد) ٦٥
نسيبة بنت كعب ٢٩١
أبو النضر الأزدي ٦٥
ابن نمير عبد الله ٥١

ثبت المصادر والمراجع

أولًا ثبت المصادر :

القرآن الكريم

ابن الأثير : الإمام عز الدين ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ)

● أسد الغابة في معرفة الصحابة – تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م .

● الكامل في التاريخ – تحقيق عبد الله القاضي – دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٧م .

ابن الأثير : الإمام مجد الدين ابن الأثير [ت ٦٠٦هـ]

● النهاية في غريب الحديث والأثر – تحقيق طاهر الزاوي و محمود الطناحي – دار إحياء الكتب العربية – الطبعة الأولى – غير مؤرخة .

الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت نحو ٢٥٠ هـ)

● تاريخ مكة شرفها الله تعالى – تحقيق مجموعة من الأساتذة – إشراف د . سعيد عبد الفتاح – الطبعة الأولى – مركز الدراسات والبحوث بالمكتبة التجارية – مكة المكرمة – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م .

الأزدي : محمد بن عبد الله (ت ٢٣١هـ)

● تاريخ فتوح الشام – مؤسسة سجل العرب – ١٩٧٠م .

الاسفرائيني : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي التميمي (ت ٤٢٩ هـ)

● الفرق بين الفرق – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٩٨ م .

الأشعري : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٣٠ هـ)

● مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين – تحقيق محيي الدين عبد الحميد – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠م .

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأموي (ت ٣٥٦ هـ)

● الإماء الشواعر – تحقيق د . نوري حمودي القيس ، د . يونس أحمد السمرائي –

عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

● مقاتل الطالبين - شرح وتحقيق السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي - القاهرة - غير مؤرخ .

● الأغاني - الساسي - دار الكتب - القاهرة - ١٣٢٣هـ .

الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ)

● حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٣٨م .

ابن أعثم : أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤ هـ)

● الفتوح - دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٨٦م .

الألوسي : أبو المعالي محمود شكري الألوسي (ت ١٣٤٢ هـ)

● صب العذاب علي من سب الأصحاب - دراسة وتحقيق عبد الله البخاري - الرياض - أضواء السلف - الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ .

ابن الأنباري : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ)

● نزهة الألباء في طبقات الأدباء - تحقيق د . إبراهيم السمرائي - مكتبة المنار - الأردن - الزرقا - الطبعة الثالثة - ١٩٨٥م .

البخاري : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ)

● صحيح البخاري ، فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر .

● كتاب الكني - جزء من التاريخ الكبير للإمام البخاري - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٦م .

● كتاب التاريخ الكبير - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

● كتاب الضعفاء الصغير - تحقيق محمود إبراهيم زايد - دار الباز - مكة المكرمة - طبع دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٦ م .

ابن بكار : الزبير (ت ٢٥٦ هـ)

● جمهرة نسب قريش - شرح وتحقيق محمود محمد شاكر - مكتبة دار العروبة - القاهرة ١٣٨١ هـ .

البكري : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي [ت ٤٨٧ هـ]

● معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - تحقيق مصطفي السقا ، عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

البلاذري : الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)

● أنساب الأشراف - الجزء الأول - تحقيق د . محمد حميد الله - معهد المخطوطات - جامعة الدول العربية و دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٩م . (الجزء الثاني تحقيق محمد باقر المحمودي - منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٧٤م .

● الجزء ٢٨ - القسم الخامس - سائر فروع قريش - تحقيق إحسان عباس - بيروت - دار النشر فرانتس شتاينر شتوتجارت - الشركة المتحدة للتوزيع - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م .

● القسم الخامس - تحقيق سلمون غوتين - مدرسة الدراسات الشرقية - الجامعة العبرية - القدس - الطبعة الأولى - ١٩٣٦م .

● الجزء الرابع - القسم الأول - القدس - ماكس شلو يسنجر - الطبعة الأولى - ١٩٣٨م .

● فتوح البلدان - مراجعة رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

البيهقي : الإمام أبو بكر ، أحمد بن الحسين [ت ٤٥٨ هـ]

● دلائل النبوة - تحقيق د . عبد المعطي قلعجي - بيروت - ١٩٨٥م .

الترمذي : أبو عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (ت ٢٧٩ هـ)

● الجامع الصحيح (سنن الترمذي) - تحقيق أحمد محمد شاكر - مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي - الطبعة الثانية - ١٩٧٨ م .

ابن تيمية : شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨ هـ)

● الصارم المسلول علي شاتم الرسول - تحقيق وتعليق عصام فارس الحرستاني - خرج أحاديثه محمد إبراهيم الزغلي - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .

● منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية - تحقيق د . محمد رشاد سالم - القاهرة - مكتبة دار العروبة .

● السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - المطبعة الخيرية - القاهرة - الطبعة

الأولى - ١٣٢٢ هـ .

● الفتاوي الكبري - تحقيق وتعليق مصطفي عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .

التوحيدي : أبو حيان علي بن محمد بن علي بن العباس البغدادي

● الإمتاع والمؤانسة - صححه وشرحه أحمد أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٩ م .

الجرجاني : الشريف علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦ هـ)

● كتاب التعريفات - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٣م .

ابن الجزري : شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٣ هـ)

● غاية النهاية في طبقات القراء - بشر ح . براجستراسر - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - ببيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٢م .

ابن جعفر : قدامة (ت ٣٢٩ هـ)

● الخراج وصناعة الكتابة - تحقيق د . محمد حسين الزبيدي - دار الرشيد للنشر - العراق - سلسلة كتب التراث ١١٠ - ١٩٨١م .

ابن الجوزي : أبو فرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله بن جعفر (ت ٥٩٧هـ)

● الموضوعات - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - المكتبة السلفية - المدينة المنورة - الطبعة الأولى - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م .

● السيرة النبوية - دار الصفا للنشر والتوزيع - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .

● تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير - مكتبة الآداب - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٧٥ م .

● تلبيس إبليس - تحقيق عصام فارس - المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى - ١٩٩٤ م .

● صفوة الصفوة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٨م .

● المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - تحقيق مصطفي عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٩٩٢م .

الجويني : إمام الحرمين (ت ٤٧٨ هـ)

● غياث الأمم في إلتياث الظلم - تحقيق د . مصطفي حلمي .

● البرهان في أصول الفقه - تحقيق د . عبد العظيم أديب - دار الأنصار- القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٠ هـ .

● لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة - تحقيق د . فوقية حسين - المؤسسة العامة للنشر - ١٣٨٥هـ

الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)

● المستدرك علي الصحيحين - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٨ م .

ابن حبيب : أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)

● المحبر - تحقيق إيلزه ليوتن شتيتر - نشر دار الآفاق الجديدة - بيروت - مصورة عن طبعة دار المعارف .

ابن حبان : أبو حاتم ، محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت ٣٥٤ هـ)

● الثقات - دار المعارف العثمانية - حيدر آباد - الهند - الطبعة الأولى -١٣٩٣ هـ .

● صحيح ابن حبان - تحقيق أحمد شاكر - الجزء الأول - دار المعارف - ١٩٥٢م .

● المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين - تحقيق محمود ابراهيم زايد - دار الوعي - حلب - الطبعة الثانية - ١٩٨٢ م .

ابن حجر : الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)

● الإصابة في تمييز الصحابة - تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م .

● فتح الباري شرح صحيح البخاري - عن الطبعة التي حقق أصلها عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، ورقم كتبها وأبوابها محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م .

● مسند عائشة من المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي - تحقيق أبو مطيع عطاء الله السندي - مكتبة السنة - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٥م .

● تقريب التهذيب - تحقيق مصطفي عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية -١٩٩٥م .

● نزهة النظر في توضيح الفكر في مصطلح أهل الأثر - تحقيق د . عبد السميع الأنيس

وعصام فارس الحرستاني - دار عمار للنشر والتوزيع - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - ١٩٩٩م .

● لسان الميزان - الهند - مطبعة دار المعارف - حيدر آباد - ١٣٢٧هـ .

● لسان الميزان - تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، وعبد الفتاح أبو سنة - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

● تهذيب التهذيب - مطبعة دائرة المعارف العثمانية - ١٣٣٧ هـ .

ابن أبي الحديد : أبو حامد ، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٥ هـ)

● شرح نهج البلاغة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - ١٩٦٣م . - لم يذكر الناشر .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)

● الفصل في الملل والأهواء والنحل - تحقيق د . محمد إبراهيم نصر - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٥م .

● جمهرة أنساب العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٣ م .

● الإحكام في أصول الأحكام - تحقيق لجنة من العلماء - دار الجيل - بيروت - ١٩٨٤ م .

● المحلى - المطبعة المنيرية - مصر - مكتبة الجمهورية العربية - ١٩٧٠ م . ونسخة أخري - تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر - القاهرة - مطبعة النهضة المصرية .

الحلبي : علي بن برهان الدين الشافعي (ت ١٠٤٤ هـ)

● إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - المعروف بالسيرة الحلبية - المكتبة التجارية الكبري - ١٩٦٢ م .

الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)

● معجم البلدان - تحقيق فريد عبد العزيز الجندي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م .

● معجم الأدباء - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩١م .

حميد الله : محمد

● مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - دار النفائس - بيروت - الطبعة السادسة - ١٩٨٧م .

ابن حنبل : الإمام أحمد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال الشيباني (ت ٢٤١ هـ)

● فضائل الصحابة - تحقيق وصي الله عباس - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ .

● مسند الإمام أحمد- شرح أحمد محمد شاكر - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الأولى - ١٩٥٣ م .

الخزاعي : علي بن محمد بن سعود (ت ٧٨٩ هـ)

● تخريج الدلالات السمعية ، علي ما كان في عهد رسول الله ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية - تحقيق د . إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م .

الخزرجي : صفي الدين أحمد بن عبد الله

● خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال - المطبعة الخيرية - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٢٢ هـ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

● مقدمة ابن خلدون - تحقيق د . علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ)

● وفيات الأعيان - محمد محيي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى - ١٣٦٧ هـ .

الدارقطني : أبو الحسن علي بن عمر (ت٣٨٥ هـ)

● الضعفاء والمتروكين - تحقيق موفق بن عبد القادر - مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .

الدارمي : الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام [٢٥٥هـ]

● سنن الدارمي - تحقيق مصطفي ديب البغا - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية - ١٩٩٦م .

أبو داود : الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)

● سنن أبي داود - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - غير مؤرخ .

الدمياطي : الإمام شرف الدين عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن (ت ٧٠٥ هـ)

● نساء رسول الله ﷺ وأولاده ومن سالفه من قريش وحلفائهم - تحقيق د . فهمي سعيد - عالم الكتب - الطبعة الأولى - ١٩٨٩م .

الدهلوي : شاه عبد العزيز الإمام ولي الله أحمد عبد الرحيم (ت ١٢٣٩ هـ)

● مختصر التحفة الاثنى عشرية - تحقيق محب الدين الخطيب - طبع الرئاسة العامة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الرياض - ١٤٠٤ هـ .

الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ)

● الأخبار الطوال - تحقيق عبد المنعم عامر - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - غير مؤرخ .

الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)

● سير أعلام النبلاء - مؤسسة الرسالة - بيروت - تحقيق مجموعة من الأساتذة - الطبعة الحادية عشرة - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م .

● سير أعلام النبلاء - الجزء الأول - تحقيق د . صلاح الدين المنجد - والجزء الثاني - تحقيق أ . إبراهيم الإبياري - نشر معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف - سلسلة ذخائر العرب - ١٩٥٦م .

● ميزان الاعتدال - تحقيق علي محمد البجاوي - القاهرة - ١٩٦٣م .

● المغني في الضعفاء - تحقيق د . نور الدين العتر - دار المعارف - حلب - الطبعة الأولى - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م .

الرازي : محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤ هـ)

● تفسير الفخر الرازي - المكتبة التجارية - مصطفي أحمد الباز - دار الفكر بيروت - ١٩٩٤ م .

الرازي : عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ)

● الجرح والتعديل - حيدر أباد الدكن - الهند - مطبعة مجلس دائرة المعارف

العثمانية - الطبعة الأولى - ١٩٥٣م .

ابن أبي الربيع : شهاب الدين أحمد بن محمد

● سلوك المالك في تدبير الممالك - تحقيق وتعليق وترجمة د . حامد ربيع - دار الشعب - ١٩٨٠م .

ابن رشد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٥٩٥ هـ)

● بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مصطفي البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٣٩هـ .

ابن زَبْر : أبو سليمان محمد بن عبد الله بن احمد بن زبر الربعي (ت ٣٧٩ هـ)

● تاريخ مولد العلماء ووفياتهم - تحقيق د . عبد الله بن أحمد بن سليمان الحمد - دار العاصمة - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠١ هـ .

الزبيدي : محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ)

● طبقات النحويين واللغويين - القاهرة - ١٩٥٤ م .

الزبيري : ابن عبد الله المصعب

● نسب قريش - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٨٢ م .

أبو زرعة : الإمام الحافظ ، أحمد بن عبد الرحيم العراقي (ت ٨٢٦ هـ)

● كتاب المدلسين - تحقيق د . رفعت فوزي عبد المطلب و د . نافذ حسين - دار الوفاء - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٩٩٥م .

الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ)

● الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة - تحقيق سعيد الأفغاني - الطبعة الثانية - دمشق - ١٩٣٩ م .

الزركلي : خير الدين (ت ١٣٩٦ هـ)

● الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٠م .

سبط ابن الجوزي : شمس الدين يوسف بن فرغلي (ت ٦٥٤ هـ)

● إيثار الإنصاف في آثار الاختلاف - تحقيق ناصر العلي - دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .

السبكي : أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين ، علي السبكي [ت ٧٧١هـ]

● قاعدة في الجرح والتعديل ، وقاعدة في المؤرخين - مطابع دار الشعب - القاهرة .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ)

● الطبقات الكبري - طبعة مصححة ومنقحة مع تمام ما صدر من الأجزاء الناقصة في البصريين والبغداديين والمصريين وآخرين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

السمهودي : نور الدين علي بن أحمد [ت ٩١١هـ]

● وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١ هـ)

● الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام - القاهرة - ١٩١٤م .

ابن سيد الناس : الإمام الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن يحيى البصري (ت ٧٣٤هـ)

● عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير - عن نسخة الأمير طاهر حفيد الأمير عبد القادر الجزائري - مع المقابلة بنسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق ومراجعة المشكل في نسخ دار الكتب المصرية - دار الجيل - بيروت - ١٩٧٤م .

السيوطي : جلال الدين ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)

● تاريخ الخلفاء - الطبعة الثانية - دار الفكر - بيروت .

● مسند فاطمة الزهراء - اعتني بتصحيحه والتعليق عليه الحافظ عزيز بيك - مدير لجنة أنوار المعارف بحيدر آباد - الهند - نشر دار ابن خلدون - الإسكندرية - مصر .

● تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - تحقيق الشيخ عرفات العشا حسونة - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٩٣م .

● الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة - تحقيق محمد لطفي الصباغ - مكتبة الوراق - الرياض - السعودية - الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م .

الشاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت ٧٩٠ هـ)

● الموافقات في أصول الأحكام - شرح الشيخ عبد الله دراز - دار المعرفة - بيروت -

الطبعة الثالثة - ١٩٩٧م .

ابن شبة : أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ)

● تاريخ المدينة المنورة - علق عليه وخرج أحاديثه علي محمد دندل وياسين سعد الدين بيان - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٦م .

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ)

● الملل والنحل - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٣٩٥ هـ .

الشوكاني : الإمام محمد بن علي

● در السحابة في مناقب القرابة والصحابة - تحقيق د . حسين بن عبد الله العمري - دار الفكر المعاصر - بيروت - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م .

الشيباني : محمد بن الحسن

● شرح كتاب السير الكبير - تحقيق د . صلاح الدين المنجد - معهد المخطوطات - جامعة الدول العربية - القاهرة .

ابن أبي شيبة : عبد الله بن محمد الكوفي (ت ٢٣٥ هـ)

● المصنف في الأحاديث والآثار - تحقيق مجموعة من الأساتذة - الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ .

الصفدي : صلاح الدين بن أيبك

● الوافي بالوفيات - فيسبادون - فرانزستايز - ١٩٦٢م .

ابن الصلاح : الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهروزي [ت ٦٤٣هـ]

● علوم الحديث - تحقيق نور الدين عتر - دار الفكر المعاصر- بيروت - ودار الفكر - دمشق - الطبعة الثالثة - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨ م .

الصنعاني : الإمام محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني ثم الصنعاني (ت ١١٨٢هـ)

● سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام - المكتبة التجارية الكبري - القاهرة - ١٣٥٣ هـ .

الصنعاني : عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ)

● المصنف في الحديث والآثار - تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الطبراني : الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي [ت ٣٦٠هـ]

● معجم الطبراني - تحقيق أبو معاذ ، طارق بن عوض الله بن محمد ، وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني - دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

● مسند الشاميين - تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٩٩٦م .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

● تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة السادسة - دار المعارف - القاهرة - ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

● جامع البيان عن تأويل القرآن - مطبعة مصطفي البابي الحلبي - الطبعة الثانية - ١٣٧٣ هـ .

ابن طيفور : أحمد بن طيفور أبو الفضل الخراساني [ت ٢٨٠هـ]

● بلاغات النساء - تحقيق محمد طاهر الزين - مكتبة السندس - الكويت - ١٩٩٣م .

ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)

● الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م .

● الدرر في اختصار المغازي والسير - خرج نصوصه وعلق عليه د . مصطفي ديب البغا - مؤسسة علوم القرآن - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)

● العقد الفريد - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثانية ١٣٨١هـ .

ابن عبد السلام : الإمام العز

● قواعد الأحكام في مصالح الأنام - طبعة مصر - ١٩٦٨م .

ابن عبد الوهاب : الإمام محمد

● مختصر سيرة الرسول ، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء -

الإدارة العامة للطبع والترجمة - الرياض - السعودية - ١٤٠٨ هـ .

ابن عدي : الإمام الحافظ ، أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥ هـ)

● الكامل في الضعفاء - تحقيق عبد المعطي قلعجي - بيروت - ١٩٨٤ .

ابن العربي : القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣ هـ)

● العواصم من القواصم - تحقيق الشيخ محب الدين الخطيب - مكتبة السنة - القاهرة - الطبعة السادسة - ١٤١٢ هـ .

● أحكام القرآن - تحقيق علي محمد البجاوي - دار الفكر العربي - ١٩٥٩ م .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ)

● تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها - الجزء الخاص بتراجم النساء - تحقيق سكينة الشهابي - دار الفكر - دمشق - سورية - الطبعة الأولى - ١٩٨٢ م .

ابن عساكر : أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله

● كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين - تحقيق محمد مطيع الحافظ و عزوة بدير - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٦م .

ابن العماد : أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)

● شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مكتبة القدس - القاهرة - ١٣٥١ هـ .

ابن عمر : سيف (ت ١٨٠ هـ)

● كتاب الردة والفتوح - ومعه كتاب الجمل ومسير عائشة وعليّ - تحقيق د . قاسم السمرائي - ليدن - هولندا - ١٩٩٤م .

الفاسي : الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني المكي (ت ٨٣٢ هـ) .

● العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - جزء ٨ - تحقيق د . محمود الطناحي - مؤسسة الرسالة - بيروت - دمشق - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٧) .

أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير

● المختصر في تاريخ البشر - مكتبة المتنبي - القاهرة .

الفراء : أبو يعلى محمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)

● الأحكام السلطانية - صححه الشيخ محمد حامد الفقي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ١٩٨٣م .

ابن الفرضي : عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ)

● تاريخ علماء الأندلس - القاهرة - ١٩٦٦م .

الفسوي : أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧ هـ)

● المعرفة والتاريخ - تحقيق أكرم ضياء العمري - مطبعة الإرشاد - بغداد - ١٩٧٤ .

القاري : نور الدين علي بن محمد بن سلطان ، المشهور بملّا علي (ت ١٠١٤ هـ)

● الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة - المعروف ب « الموضوعات الكبرى » - تحقيق محمد الصباغ - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)

● المعارف - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .

● تأويل مختلف الحديث - مكتبة المتنبي - القاهرة - غير مؤرخ .

● الإمامة والسياسة - مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع - القاهرة .

القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري

● الجامع لأحكام القرآن - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

القلعي : الإمام أبو عبد الله محمد بن علي القلعي (ت ٦٣٠ هـ)

● ترتيب الرياسة وتهذيب السياسة - تحقيق إبراهيم يوسف عجو - مكتبة المنار - الأردن - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م .

ابن القيم : شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١ هـ)

● زاد المعاد في هدي خير العباد - تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - الطبعة الثالثة عشرة - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

● الطرق الحكمية في السياسة الشرعية - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٣م .

● أخبار النساء - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٠م .

الكافيجي : أبو عبد الله ، محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الرومي (ت ٨٧٩ هـ)

● المختصر في علم التاريخ - تحقيق فرانز روزنتال - ترجمة صالح أحمد العلي - مؤسسة الرسالة - سوريا - الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

الكاندهلوي : محمد يوسف

● حياة الصحابة - بيروت المكتبة العصرية - راجعه الشيخ هشام البخاري - الطبعة الأولى - ١٩٩٥ م .

الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ)

● فوات الوفيات - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - لبنان - ١٩٧٣م .

ابن كثير : الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)

● البداية والنهاية - تحقيق جماعة من الأساتذة - دار الريان للتراث - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

● تفسير القرآن العظيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - مصر .

الكشي : أبو محمد محمد بن عمر (ت نحو ٣٤٠ هـ)

● كتاب الرجال - تحقيق أحمد السيد الحسيني - كربلاء - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - الطبعة الأولى . غير مؤرخة .

الكلاعي : سليمان بن موسى (ت ٦٣٤ هـ)

● حروب الردة - تحقيق أحمد غنيم - الطبعة الثانية - دار الاتحاد العربي - ١٤٠١هـ .

الكندي : أبو عمرو ، محمد بن يوسف الكندي المصري (ت ٣٥٥هـ)

● تاريخ ولاة مصر - مؤسسة الكتب الثقافية - الطبعة الأولى .

المامقاني : عبد الله بن محمد (ت ١٣٥١هـ)

● تنقيح المقال في أحوال الرجال - النجف - المطبعة المرتضوية - ١٩٣٣هـ .

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠ هـ)

● الأحكام السلطانية والولايات الدينية - حققه وخرج أحاديثه عصام فارس الحرستاني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٦م .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري (ت ٢٨٦ هـ)

● الكامل في اللغة والأدب - تحقيق زكي مبارك ، أحمد شاكر - القاهرة - ١٩٣٦م .

المتقي الهندي : علاء الدين علي (ت ٩٧٥ هـ)

● كنز العمال - الهند - ١٣٦٤ هـ .

المحب الطبري : أحمد بن عبد الله المحب الطبري (ت ٦٩٤ هـ)

● السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين - حلب - ١٣٤٦ هـ .

المديني : الإمام الحافظ ، علي بن عبد الله بن جعفر السعدي (٢٣٤ هـ)

● تسمية من روي عنهم من أولاد العشرة وغيرهم من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم - تحقيق د . علي محمد جماز - الطبعة الأولى - دار القلم - الكويت - ١٩٨٢م .

ابن مزاحم : نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ)

● وقعة صفين - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٨١م .

المزي : جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن (ت ٧٤٢ هـ)

● تهذيب الكمال في أسماء الرجال - تحقيق بشار معروف - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ م .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)

● مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية الكبري - الطبعة الثالثة - ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)

● صحيح مسلم بشرح النووي (ت ٦٥١ هـ) - تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة - كتاب الشعب - ١٩٧٣ م .

ابن معين : أبو زكريا يحيى بن معين بن عون المري البغدادي (ت ٢٣٣ هـ)

● التاريخ - تحقيق أحمد محمد نور سيف - مكة المكرمة - ١٩٧٩م .

المقدسي : الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد (ت ٦٠٠ هـ)

● حديث الإفك - ويليه مناقب النساء الصحابيات - تحقيق إبراهيم صالح - دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٩٩٤م .

المقدسي : الشيخ مرعي بن يوسف الكرْمي (ت ١٠٣٣هـ)

● الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة - تحقيق د . محمد لطفي الصباغ - دار الوراق للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - الطبعة الثالثة - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

المقدسي : المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ)

● البدء والتاريخ - المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة .

المقري : أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)

● نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة - مصر - ١٩٤٩ م .

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)

● إمتاع الأسماع - تحقيق محمد عبد الحميد النميسي - دار الأنصار القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨١م .

ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن حَبْقَةَ (ت ٧١١هـ)

● مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

● لسان العرب - تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي - دار المعارف - غير مؤرخ .

ابن النديم : أبو فرج محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٥ هـ)

● الفهرست - تحقيق ناهد عباس - دار قطري بن الفجاءة - الدوحة - الطبعة الأولي - ١٩٨٥م .

النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر (ت ٣٠٣ هـ)

● سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي - وحاشية الإمام السندي - دار الكتاب العربي - بيروت - غير مؤرخ .

● الضعفاء والمتروكين - تحقيق محمود إبراهيم زايد - دار المعرفة - توزيع دار الباز - مكة المكرمة - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م - ملحق بكتاب الضعفاء الصغير للبخاري .

النويري : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)

● نهاية الأرب في فنون الأدب - المكتبة العربية - مصر - ١٣٩٥ هـ .

النيسابوري : أبو الحسن بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (ت ٤٦٨ هـ)

● أسباب النزول - مكتبة الإيمان - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)

● السيرة النبوية - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - دار إحياء الكتب العربية - غير مؤرخ .

الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر [ت ٨٠٧ هـ]

● مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة .

الوادعي : أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي

● الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين - دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ)

● كتاب المغازي - تحقيق مارسدن جونس - مطبعة جامعة اكسفورد - أجزاء ١،٢،٣ - ١٩٦٦ .

● فتوح الشام - دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت .

ابن الوردي : زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ)

● تاريخ ابن الوردي - المطبعة الحيدرية - النجف - الطبعة الثانية ١٩٦٩م

● يكاد يكون نسخة طبق الأصل من كتاب : المختصر في أخبار البشر لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء - مكتبة المتنبي - القاهرة - غير مؤرخة) .

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢ هـ)

● تاريخ اليعقوبي - دار صادر - بيروت - غير مؤرخ .

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم - صاحب أبي حنيفة - (ت ١٨٢ هـ)

● الخراج - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٦ هـ .

ثانيًا : ثبت المراجع

إبراهيم : محمد إسماعيل

● أضواء تاريخية علي أسرة النبي وأهل البيت عرض شامل لجميع من تربطهم بالأسرة النبوية أوثق صلات النسب أو القرابة من الأجداد وإلي الأحفاد والتعريف بشخصياتهم - دار الفكر العربي - ١٩٧٥م .

أسد : محمد ، ليوبولد فايس

● الإسلام علي مفترق الطرق - دار العلم للملايين - ترجمة د . عمر فروخ - الطبعة السادسة .

إسماعيل : سيف عبد الفتاح

● التجديد السياسي والخبرة الإسلامية ، نظرة في الواقع العربي المعاصر - دكتوراه كلية السياسة والاقتصاد - جامعة القاهرة - ١٩٨٧ م .

إسماعيل : محمد بن أحمد

● أدلة تحريم مصافحة الأجنبية - القاهرة - دار الصفوي للنشر والتوزيع - الطبعة الثانية - ١٤٠٨هـ .

الأدلبي : د . صلاح الدين بن أحمد

● منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٣ م .

أرنولد : سير توماس ، المستشرق الألماني

● الدعوة إلى الإسلام - ترجمة د . حسن إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الثالثة - ١٩٧١ م .

أغا برزك الطهراني : محمد بن محسن

● الذريعة إلى تصانيف الشيعة - النجف - مطبعة القرآن - ١٩٣٦ م .

الأفغاني : سعيد

● عائشة والسياسة - مطبعة دار التأليف والترجمة - القاهرة - الطبعة الثانية -١٩٧٥ م .

أقلاينة : المكي

● النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى - كتاب الأمة - وزارة الأوقاف - قطر - دار أخبار اليوم - مصر - ١٩٩٣م .

الألباني : محمد ناصر الدين

● سلسلة الأحاديث الصحيحة - المجلد الخامس - مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ .

بابيتي : د . عزيزة

● التطور الحضاري من بدء خلافة الراشدين إلى نهاية خلافة الأمويين - دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع - طرابلس - لبنان - ١٩٨٧ م .

بروكلمان : كارل

● تاريخ الشعوب الإسلامية - نقله إلى العربية : نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي - الطبعة الخامسة - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨ م .

● تاريخ الأدب العربي - ترجمة د . عبد الحليم النجار الجزء ٤ ٥ - الطبعة الثالثة - دار المعارف - القاهرة .

بريغش : محمد حسن

● ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر - مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء - الطبعة الثانية - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

بلتاجي : د . محمد

● مكانة المرأة في القرآن والسنة - مكتبة الشباب - ١٩٩٦م .

البواب : سليمان

● مائة أوائل من النساء - دار الحكمة للطاعة والنشر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٤م .

البوطي : د . محمد سعيد رمضان

● الجهاد في الإسلام ، كيف نفهمه وكيف نمارسه - دار الفكر المعاصر - بيروت - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولي- ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

● المصلحة في الشريعة الإسلامية - المكتبة الأموية - دمشق - ١٣٨٧هـ .

● فقه السيرة - دار الفكر - القاهرة - الطبعة السابعة - ١٩٨٧ م .

البياتي : منير محمد

● النظام السياسي الإسلامي مقارنا بالدولة القانونية - دار البشير للنشر - الأردن - الطبعة الثانية - ١٩٩٤ م .

بيهم : محمد جميل

● دراسة وتحليل للعهد النبوي الأصيل - الطبعة الأولى - دار الشروق - بيروت - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

● المرأة في التاريخ والتشريع - بيروت - ١٣٣٩هـ - ١٩٢١م .

جدعان : د . فهمي

● نظرية التراث ودراسات عربية و إسلامية أخري - عمان - دار الشروق - ١٩٨٥م .

جريشة : د . علي

● المشروعية الإسلامية العليا - رسالة دكتوراه - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

جعفر : محمد أنس قاسم

● الحقوق السياسية للمرأة في الإسلام والفكر والتشريع المعاصر - دار النهضة - القاهرة - ١٩٨٧م .

جعيط : د . هشام

● الفتنة ، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر - ترجمة خليل أحمد خليل - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٩٥م .

جمعة : محمد إبراهيم

● حسان بن ثابت - دار المعارف - سلسلة نوابغ الفكر العربي - رقم ٣٤ - الطبعة الثالثة - ١٩٨٢م .

الجندي : أنور

● الإسلام وحركة التاريخ - مطبعة الرسالة - القاهرة - ١٩٦٨م .

الجوابي : محمد طاهر

● الجرح والتعديل بين المتشددين والمتساهلين - الدار العربية للكتاب - تونس - ١٩٩٧ م .

الحبشي : عبد الله محمد

● معجم النساء اليمنيات - دار الحكمة اليمانية - صنعاء - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

حسن : د . حسن إبراهيم

● تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثالثة عشر ١٩٩١م .

حسن : حسين الحاج

● حضارة العرب في صدر الإسلام - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٤م .

حسن : عباس

● النحو الوافي - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨١م .

حسن : د . علي إبراهيم

● نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٨١م .

الحكمي : حافظ محمد

● مرويات غزوة الحديبية - منشورات الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة .

حلمي : د . مصطفى

● نظام الخلاقة في الفكر الإسلامي - دار الأنصار - القاهرة - ١٩٧٧ م .

● نظام الخلافة عند أهل السنة والشيعة - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

● مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٩١م .

● الخوارج ، الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم - دار الأنصار - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

حمد : أحمد

● الجانب السياسي في حياة الرسول - دار القلم - الكويت - الطبعة الأولى - ١٩٨٢م .

الحوفي : د . أحمد

● الطبري - سلسلة أعلام العرب - رقم ١٣ - المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مطبعة مصر - ١٩٦٣م .

الخالدي : د . محمود

● البيعة في الفكر السياسي الإسلامي عمان - مكتبة الرسالة الحديثة - ١٩٨٥م .

خان : محمد صديق حسن

● حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة - تحقيق د . هدي قراعة - مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

الخربوطلي : د . علي حسني

● المسعودي - سلسلة نوابغ الفكر العربي - رقم ٣٨ - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨٠ م .

الخطيب : د . سليمان

● فكرة التاريخ بين السخاوي والكافيجي - بيت الحكمة - مصر - ١٩٩١م .

الخطيب : محب الدين

● مقال : « المراجع الأولى في تاريخنا » - مجلة الأزهر - مجلد ٢٤ - الجزء الثاني - صفحة ٢١٠ - صفر ١٣٧٢ هـ .

خلاف : د . عبد الوهاب

● علم أصول الفقه - دار القلم - الطبعة الأولى - الكويت - ١٩٩٠م .

● السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية - دار القلم - الكويت - ١٩٨٨م .

خليل : د . محمد

● المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره - دار التوزيع والنشر الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٩١م .

خليل : د . عماد الدين

● مدخل إلى إسلامية المعرفة - المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة رسائل إسلامية

المعرفة - ٧ - ١٩٩٠م .

● دراسة في السيرة - مؤسسة الرسالة - الطبعة الرابعة عشر ١٤١٦ - ١٩٩٦م .

● القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي - مكتبة النور - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٥ م .

● في التأصيل الإسلامي للتاريخ - دار الفرقان للنشر - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - ١٩٩٨ م .

● حوار في المعمار الكوني ، وقضايا إسلامية أخري - قطر - دار الثقافة - ١٩٨٧م .

● سيمنار حول كتاب إسلامية المعرفة مع مخطط مقترح لإسلامية علم التاريخ - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - شارك فيه : الشيخ الغزالي ، د . محمد عمارة ، د . عبد الوهاب المسيري ، د . عمر الفاروق ، د . علي جمعه . - ١٩٩٣م .

● التفسير الإسلامي للتاريخ - مكتبة ٣٠ تموز - بغداد - الطبعة الرابعة - ١٩٨٦ م .

● المنظور التاريخي في فكر سيد قطب - دار القلم - دمشق ، الدار الشامية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٤ م .

الخولي : البهي

● الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة - دار القلم - الكويت - الطبعة الخامسة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

الدخيل : سعيد فايز

● موسوعة فقه عائشة أم المؤمنين - حياتها وفقهها - دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٩م .

دروزة : محمد عزة

● سيرة الرسول : صورة مقتبسة من القرآن الكريم -عيسى البابي الحلبي - الطبعة الثانية - ١٩٦٥م .

● الدستور القرآني في شؤون الحياة - القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - ١٩٥٦م .

الدريني : د . فتحي

● خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٢ م .

الدوري : د . عبد العزيز

- نشأة علم التاريخ عند العرب - بيروت - ١٩٦٠ م .
- تفسير التاريخ - مكتبة النهضة - بغداد - ١٩٦٣م .

رزق الله : د . مهدي

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية . . دراسة تحليلية - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - عدد ١٠ - الطبعة الأولى - ١٩٩٢م .

رضا : الشيخ محمد رشيد

- خلاصة السيرة النبوية وحقيقة الدعوة الإسلامية - شركة السلام العالمية - الدقي - ١٩٨٠م .
- الخلافة - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٨ م .

روزنتال : فرانز

- علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة د . صالح العلي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٨٣م .

الريس : د . محمد ضياء الدين

- النظريات السياسية الإسلامية - الأنجلو المصرية
- عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع - سلسلة أعلام العرب - رقم ١٠ .

الزركلي : خير الدين

- الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٠م .

أبو زهرة : د . محمد

- العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن - مجمع البحوث الإسلامية - مصر ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

الزيات : محمد حسن ، ضمن لجنة من مجمع اللغة العربية

- المعجم الوسيط - القاهرة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

زيدان : د . عبد الكريم

● الوجيز في أصول الفقه - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٧م .

سابق : الشيخ سيد

● عناصر القوة في الإسلام - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى - ١٩٦٣م .

السباعي : د . مصطفى السباعي

● السيرة النبوية دروس وعبر - المكتب الإسلامي - الطبعة التاسعة - ١٩٨٦ م .

● المرأة بين الفقه والقانون - بيروت - المكتب الإسلامي - الطبعة الخامسة - ١٩٨٤ م .

أبو سعدة : عبد الحميد إبراهيم

● مركز المرأة في الشرق الإسلامي وحق توليها القضاء - ماجستير - كلية السياسة والاقتصاد - جامعة القاهرة - ١٩٨٧ م .

سكاكيني : وداد

● أمهات المؤمنين وبنات الرسول - دار الفكر- سورية - الطبعة الثالثة - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

السمان : محمد عبد الله

● الهجرة بداية المراحل التحول والانطلاق - سلسلة مجتمع البحوث الإسلامية - السنة الرابعة - الكتاب السادس و الأربعون - ١٩٧٢م .

سيزكين : فؤاد

● تاريخ التراث العربي - ترجمة فهمي أبو الفضل ومحمود حجازي - القاهرة - ١٩٧٧م .

الشامي : د . صالح أحمد

● من معين السيرة - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٢م .

شاهين : د . حمدي

● تاريخ الدولة الأموية بين التحريف والإنصاف ، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم .

شبل : فؤاد محمد

● حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ - المؤسسة المصرية العامة للنشر - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - المكتبة الثقافية - عدد ٢١١ - ١٩٦٨م .

الشرباصي : د . أحمد

● الفداء في الإسلام - دار المعارف - مصر - سلسلة إقرأ - عدد ٤١٣ - ١٩٦٩م .

الشرفي : محمد حسين

● ولاية المرأة في الإسلام بحث مقارن - ماجستير - كلية دار العلوم - ١٩٨٧م .

شعوط : د . إبراهيم

● أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ - المكتب الإسلامي الطبعة الخامسة - بيروت - دمشق - ١٩٨٣م .

أبو شقة : محمد عبد الحليم

● تحرير المرأة في عصر الرسالة - دار القلم - الكويت - الطبعة الرابعة - ١٩٩٥م .

شلتوت : الإمام الأكبر محمود

● الإسلام عقيدة وشريعة - دار الشروق - مصر - الطبعة السابعة عشرة - ١٩٩٧ م .

صقر : عبد العزيز عبد الغني

● نظرية الجهاد في الإسلام - ماجستير بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٨٣ م .

الصالح : د . صبحي

● النظم الإسلامية نشأتها وتطورها - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة التاسعة - ١٩٩٢م .

الطرابيشي : مطاع

● رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات - قسم التحقيق والنشر - مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - الطبعة الأولى - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

الطحان : د . محمود

● أصول التخريج ودراسة الأسانيد - مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الثالثة - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

طعيمة : د . صابر

● دراسات في الفرق : الشيعة النصيرية الباطنية الصوفية الخوارج - مكتبة المعارف -

الرياض - الطبعة الثانية - ١٩٨٣م .

عارف : نصر محمد

● في مصادر التراث السياسي الإسلامي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة منهجية المعرفة (٧) - الطبعة الأولى - ١٩٩٤ م .

● نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، دراسة نقدية في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي - ماجستير - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٨٨م .

العالم : د . يوسف حامد

● المقاصد العامة للشريعة الإسلامية - سلسلة الرسائل الجامعية ٥ - الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي - الطبعة الثانية - ١٩٩٤م .

عبد الباقي : محمد فؤاد

● المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٨٨م .

عبد الوهاب : رمضان حافظ

● موقف الشريعة من المرأة في الولايات والمعاملات الإسلامية - دكتوراه - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٣ م .

عبد الجليل : د . فهمي

● عصر الخلفاء الراشدين - مكتبة النصر - جامعة القاهرة .

عبد الحليم : د . علي

● التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة - دار الوفاء للطباعة والنشر - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٩٩٣ م .

● نحو منهج بحوث إسلامي - دار الوفاء - المنصورة - ١٩٨٩م .

عبد الرحمن : أحمد صديق

● البيعة في النظام السياسي الإسلامي وتطبيقاتها في الحياة السياسية المعاصرة - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

عبد العال : حمدي

● السبئيون منهجا وغاية - دار القلم - الكويت - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م .

عبد الهادي : د . جمال ، د . وفاء رفعت

● استخلاف أبي بكر - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - الطبعة الأولى - ١٩٨٦م .

عبود : عبد الغني

● حقوق المرأة في القانون المدني العام والشريعة الإسلامية - القاهرة - دار النهضة - ١٩٩٠م .

عثمان : د . محمد

● دولة الفكرة التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة ، تجربة مبكرة للدولة الأيديولوجية في التاريخ - الدار الكويتية - الكويت - ١٩٦٨م .

● المعالم البارزة في التاريخ الإسلامي - وزارة الأوقاف - الإدارة العامة للتدريب - محاضرات التدريب رقم ٨ .

● المدخل إلى التاريخ الإسلامي - دار النفائس - بيروت - ١٩٨٨م .

العدوي : د . إبراهيم

● النظم الإسلامية - مكتبة الشباب - القاهرة - ١٩٨٨م .

● نهر التاريخ الإسلامي - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٩م .

عرجون : محمد الصادق

● محمد رسول الله ﷺ - منهج ورسالة - بحث وتحقيق - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية - ١٩٩٥م .

● عثمان بن عفان - الدار السعودية للنشر - الطبعة الثالثة - ١٩٦٤ م .

عرموش : أحمد راتب

● الفتنة ووقعة الجمل من مرويات سيف بن عمر - دار النفائس - بيروت - ١٩٧٢ م .

عزت : هبة رؤوف

● المرأة والعمل السياسي ، رؤية إسلامية (ماجستير) المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فرجينيا الولايات المتحدة - سلسلة الرسائل الجامعية - رقم ١٨ - الطبعة الأولى - ١٤١٦

هـ - ١٩٩٥م .

العسكري : مرتضي

● عبد الله بن سبأ وأساطير أخري - دار الزهراء - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٣م .

عسيلان : د . عبد الله

● الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي - مكتبة المدينة المنورة - الطبعة الأولي - ١٤٠٥ هـ .

العش : د . يوسف

● الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر - دمشق - ١٤٠٥هـ .

عفيفي : عبد الله

● المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها - المكتبة التجارية الكبري - مطبعة الاستقامة - غير مؤرخ .

العقاد : عباس محمود

● عبقرية الإمام - سلسلة اقرأ - رقم ١١٣ - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٦٤ م .

● الصديقة بنت الصديق - مطبعة المعارف - مصر - ١٩٤٣م .

العلي : د . صالح أحمد

● الحجاز في صدر الإسلام . . دراسات في أحواله العمرانية والإدارية - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م .

● محاضرات في تاريخ العرب - مطبعة الإرشاد - بغداد - ١٩٦٤م .

علي : د . جواد

● تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية) مطبعة الزعيم - بغداد - ١٩٦١م .

● بحث : « عبد الله بن سبأ » - مجلة الرسالة - القاهرة - السنة ١٦ - سنة ١٩٤٨ م - الأعداد : ٧٧٤ (صفحات ٤٩٧ : ٤٩٩) ، ٧٧٥ (٥٢٣ : ٥٢٥) ، ٥٧٦ (٥٥٠ : ٥٥٥) ، ٧٧٧ (٥٨٢ : ٥٨٤) ، ٧٧٨ (٦٠٩ : ٦١١) .

● بحث : « موارد تاريخ الطبري » ، بغداد مجلة المجمع العلمي العراقي - السنة الأولى - ١٩٥٠م - صفحات ١٤٣ : ٢٣١ .

عمر : عبد المنعم محمد

● خديجة أم المؤمنين نظرات في إشراق فجر الإسلام - الطبعة الثالثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤م .

أبو عمر : عمر بن محمود ، وحسن محمود أبو هنية

● تجريد أسماء الرواة الذين تكلم فيهم بن حزم جرحا وتعديلا مقارنة مع أقوال أئمة الجرح والتعديل - مكتبة المنار - الأردن - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

العمري : د . أحمد جمال

● الحديث النبوي والتأريخ - دار المعارف - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

العمري : د . أكرم ضياء

● المجتمع المدني في عهد النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى - نشر المجلس العلمي - إحياء التراث الإسلامي - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

● مصادر دراسة السيرة - طبع المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

العمري : د . محمد علي قاسم

● دراسات في منهج النقد عند المحدثين - دار النفائس - الأردن - الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

العودة : د . سليمان

● عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام - دار طيبة - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

عودة : عبد القادر

● الإسلام وأوضاعنا السياسية - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٦م .

عويس : د . حامد عبد الماجد

● الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية - ماجستير - كلية السياسة والاقتصاد - جامعة القاهرة - ١٩٩٠م .

أبو العيد : د . عارف

● السيادة في الإسلام بحث مقارن - مكتبة المنار - الأردن - الطبعة الأولى - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م .

عيسى : د . رياض

● الحزبية السياسية منذ قيام دولة الإسلام حتي سقوط الدولة الأموية - دكتوراه منشورة - الطبعة الأولى - دمشق ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م .

الغزالي : الشيخ محمد

● قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - دار الشروق - الطبعة الخامسة - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

● فقه السيرة - خرج أحاديثها الشيخ ناصر الدين الألباني - دار الكتب الحديثة - القاهرة - الطبعة الرابعة - ١٩٦٤ م .

الغماري : عبد الله الصديق

● حسن التفهم والدرك لمسألة الترك رسالة ملحقة بكتاب : إتقان الصنعة في تحقيق معني البدعة - دار الأنصار - القاهرة .

أبو فارس : د . محمد عبد القادر

● النظام السياسي في الإسلام - دار الفرقان - عمان - الطبعة الثانية - ١٩٨٦م .

● السيرة النبوية ، دراسة تحليلية - دار الفرقان - عمان - الأردن - الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

فروخ : د . عمر

● تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨١م .

فلهاوزن : يوليوس ، المستشرق الألماني

● تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، نقله من الألمانية وعلق عليه د . محمد عبد الهادي أبو ريدة ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٥٨ م .

● الخوارج والشيعة ، المعارضة السياسية الدينية - ترجمة د . عبد الرحمن بدوي - دار الجيل للكتب والنشر - القاهرة - الطبعة الخامسة - ١٩٩٨م .

الفنجري : د . أحمد شوقي

● خولة بنت الأزور تاريخ حقيقي في قالب مسرحي - دار القلم - الكويت - الطبعة الثانية - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

فيصل : د . شكري

● المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - نشأتها مقوماتها تطورها اللغوي والأدبي - دكتوراه منشورة - الطبعة الخامسة - دار العلم للملايين - ١٩٨١م .

القاسمي : ظافر

● الجهاد والحقوق الدولية في الإسلام - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٢م .

● نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي الحياة الدستورية - دار النفائس - الطبعة الثالثة .

قدورة : د . زاهية

● عائشة أم المؤمنين - دار العلم للملايين- الطبعة الثانية - بيروت لبنان - ١٩٩٠م .

قريبي : إبراهيم بن إبراهيم

● مرويات غزوة بني المصطلق - ماجستير مطبوع - المجلس العلمي - إحياء التراث الإسلامي - الجامعة الإسلامية - بالمدينة المنورة - ١٩٨٢م .

القضاة : د . محمد طعمة سليمان

● الولاية العامة للمرأة في الفقه الإسلامي - دار النفائس - الأردن - الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

قطب : سيد

● في ظلال القرآن - دار الشروق - القاهرة - الطبعة السابعة عشر - ١٩٩٢م .

● في التاريخ : فكرة ومنهاج - دار الشروق - القاهرة - الطبعة التاسعة ١٩٩١م .

قطب : محمد

● كيف نكتب التاريخ الإسلامي - دار الشروق الطبعة الأولى ١٤١٢ - ١٩٩٢م .

● حول التفسير الإسلامي للتاريخ - المجموعة الإعلامية - جدة - السعودية - ١٩٨٩ م .

قطب : محمد علي

● بيعة النساء للنبي صلي الله عليه وسلم - مكتبة القرآن - القاهرة - ١٩٨٢م .

كحالة : عمر رضا

● أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٤م .

كركر : عصمت الدين

● المرأة في العهد النبوي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٩٩٣م . (دكتوراه منشورة)

كمال : أحمد عادل

● الطريق إلى المدائن - دار النفائس - بيروت - الطبعة السادسة - ١٩٨٦م .

● الطريق إلى دمشق - دار النفائس - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٩٠م .

● القادسية - دار النفائس - بيروت - الطبعة السادسة - ١٩٨٦م .

● سقوط المدائن - دار النفائس - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨٧م .

لارابينادو : د . فيديريكو ، د . مانويل أبيليو رابانال ألونسو

● التعليق علي النصوص التاريخية منهج في البحث التاريخي - ترجمة وتعليق د . عبد الله جمال الدين - مقال في حوليات دار العلوم - العدد ١٤ - ١٩٩١م .

أبو مايلة : بريك محمد بريك

● السرايات والبعوث النبوية حول المدينة ومكة دراسة نقدية تحليلية - دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية - الطبعة الأولى - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

المبارك : جميل محمد

● نظرية الضرورة الشرعية - حدودها وضوابطها - دار الوفاء - القاهرة .

المباركفوري : صفي الرحمن

● الرحيق المختوم - دار الرحمة للنشر والتوزيع - ١٩٩٠ م .

محمود : الإمام الأكبر عبد الحليم

● الجهاد في الإسلام - دار المعارف - الطبعة الثانية - ١٩٨٩م .

محمود : محيي الدين محمد

● السياسة الشرعية في ضوء جوهر مفهوم السياسة في العصر الحديث - ماجستير - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٩٠ م .

المرصفي : د . سعد

● الجامع المفهرس لألفاظ صحيح مسلم - مطبوعات جامعة الكويت - شركة ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

المرنيسي : فاطمة

● الحريم السياسي : النبي والنساء - ترجمة عبد الهادي عباس - دار الحصاد - الطبعة الشامية - ١٩٩٣م .

المشد : الشيخ عبد الله

● موقف اليهود من الإسلام في العصر الأول - مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر - المؤتمر الرابع - ١٩٦٨ م .

مصطفى د . شاكر

● التاريخ العربي والمؤرخون - دراسات في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٣م .

معروف : د . نايف

● الخوارج في العصر الأموي - نشأتهم تاريخهم عقائدهم أدبهم - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

مقداد : د . محمود علي

● الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي - دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

منيسي : سامية عبد العزيز

● الصحابيات ودورهن في بناء أمة الإسلام في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم - ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة - ١٩٨٧م .

مهنا : عبد الأمير ، وسمير جابر

● معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٠ م .

● أخبار النساء في العقد الفريد - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٠ م .

المودودي : أبو الأعلي

● شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية - دار الصحوة - القاهرة - ١٩٨٥م .

موسى : كامل عبود

● الحقوق المعنوية للمرأة في التشريع الإسلامي - دكتوراه - كلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر - ١٩٧٨ م .

مؤنس : د . حسين

● دراسات في السيرة النبوية - الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الثانية - ١٩٨٥م .

النجار : د . عبد الوهاب

● الخلفاء الراشدون - دار الفكر - غير مؤرخ .

الندوي : الشيخ أبو الحسن

● ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - الدار الشامية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ م .

النعيم : هارون

الهاشمي : عبد الله محمد الأمين

● الاستشراق في السيرة النبوية ، دراسة لآراء [وات - بروكلمان - فلهاوزن] مقارنة بالرؤية الإسلامية - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة الرسائل الجامعية رقم ٢١ - ماجستير - الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .

عبد السلام

● تهذيب سيرة ابن هشام - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان - ١٣٧٤هـ .

د . سعدي

● ابن سبأ حقيقة لا خيال - مكتبة الدار - المدينة - الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ .

وات : وليم مونتجمري

● محمد بمكة - ترجمة شعبان بركات - منشورات المكتبة العصرية - صيدا -

بيروت - (بدون تاريخ)

وافي : د . علي عبد الواحد

● الحرية في الإسلام - سلسلة اقرأ - دار المعارف مصر - ١٩٦٨م .

الوكيل : د . محمد السيد

● جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين - دار المجتمع - جدة - الطبعة الرابعة - ١٩٩٣م .

اليحيى : يحيى بن إبراهيم بن علي

● مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية - دار العاصمة - الرياض - ١٤١٠ هـ .

يس : محمد نعيم

● الجهاد : ميادينه وأساليبه - دار الفرقان - الأردن - ١٩٨٦م .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
تقديم	٧
المقدمة	١١
موضوع الدراسة وأهدافها	١٣
منهج الدراسة	١٨
معايير التعامل مع الروايات التاريخية التي استخدمتها الدراسة	٢٢
مباحث الرسالة	٢٦
مبحث تمهيدي في : ضوابط أساسية للتعامل مع الروايات التاريخية	٣١
الضابط الأول : في تصنيف المصادر	٣٣
النوع الأول من مصادر الدراسة : القرآن الكريم وكتب الحديث	٣٤
النوع الثاني من مصادر الدراسة : كتب السيرة	٣٦
النوع الثالث من مصادر الدراسة : كتب التراجم	٣٧
النوع الرابع من مصادر الدراسة : كتب التاريخ العام	٤١
النوع الأول من كتب التاريخ العام : كتب خلت من السند	٤٢
النوع الثاني من كتب التاريخ العام : كتابات أدبية	٤٦
النوع الثالث من كتب التاريخ العام : كتب اعتمدت رواياتها على السند	٤٧
أنواع أخرى من المصادر	٤٨
الطبري ومصادره التي عرضت لها الدراسة	٥٠
الطبري ومنهجه في عرض الروايات	٥٠
الترجيح بين الروايات في تاريخ الطبري	٥٣
أهم مصادر الطبري التي تعاملت معها الدراسة	٥٦
أبو مخنف	٥٦
الواقدي	٦٠
ابن إسحاق	٦٧
عمر بن شبة	٧٠
نصر بن مزاحم	٧٢
جعفر المحمدي	٧٣
أحمد بن زهير	٧٤
سيف بن عمر	٧٧
الضابط الثاني : عدالة الصحابة	٨٧
الباب الأول : ممارسات سياسية عامة للمرأة في العهد النبوي والراشدي	
الفصل الأول : اعتناق المرأة للدين على عهد النبي ﷺ	٩٥
اعتناق الدين من الزاوية السياسية	٩٥
المبحث الأول : اعتناق المسلمات الأول للدين إسلام السيدة خديجة صورة لإسلام الصحابيات	٩٨
كيفية اعتناق الصحابيات للإسلام	١٠٢
نساء سبقن الرجال واعتنقن الإسلام عن عقل وروية	١٠٤
السابقات إلى الإسلام	١٠٩
طبقات السابقات	١١٠
المبحث الثاني : أدوار الصحابيات في المرحلتين السرية و الجهرية	١١٢
دورهن في المرحلة السرية	١١٢
دورهن في مرحلة الجهر بالدعوة	١١٣

الاضطهاد في سبيل العقيدة ١١٥
صورة لدور المرأة في القبائل الأخرى ١٢١
كيف استطاعت المرأة كل ذلك ... ١٢٢
النساء في فترة دار الأرقم ١٢٢
خلاصة الفصل ١٢٦
الفصل الثاني : دور المرأة في الهجرة ١٢٩
تعريف الهجرة ١٢٩
المدى الزمني للهجرة وحكمها ١٣٠
المبحث الأول : الهجرة إلى الحبشة . ١٣١
قيمتها السياسية ١٣١
النساء في الهجرة الأولى للحبشة .. ١٣٣
الدفعة الثانية من المهاجرات إلى الحبشة ١٣٥
طبقات المهاجرات إلى الحبشة ١٤٠
عودة المهاجرات من الحبشة ١٤١
معاناة المهاجرات إلى الحبشة ١٤٢
المبحث الثاني : الهجرة إلى المدينة .. ١٤٤
قيمتها السياسية ١٤٤
حجم مشاركة المرأة في الهجرة إلى المدينة ١٤٥
معاناة المهاجرات إلى المدينة ١٤٦
دور النساء في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ١٤٨
الممتحنات ١٥١
الامتحان ١٥٤
وجوب الهجرة على الرجال والنساء ١٥٦
شرف المهاجرات وكرامتهن ١٥٨
خلاصة الفصل ١٥٩
الفصل الثالث : بيعة النساء على عهد
النبي ﷺ ١٦١
تعريف البيعة ١٦١
البيعة في المصادر التاريخية ١٦٢
المبحث الأول : التتبع التاريخي لمشاركة
الصحابيات في البيعات المختلفة ... ١٦٣
بيعة على الإيمان قبل الهجرة ١٦٣
بيعة على النصرة والجهاد في العقبة الثانية . ١٦٤
بيعة على الإيمان بعد الهجرة ١٦٧
بيعة الرضوان : بيعة على الجهاد .. ١٦٩
بيعة المؤمنات المهاجرات بعد الحديبية
على الهجرة ١٧١
بيعة نساء مكة على الإيمان بعد الفتح ١٧٢
المبحث الثاني : كيفية مبايعة النبي
للنساء وبنودها والدلالة السياسية لها ١٧٥
كيفية المبايعة ١٧٥
بنود المبايعة الشرعية ١٧٧
النصوص الأخرى للمبايعة ١٧٨
بيعة واحدة للنساء والرجال ١٨٢
مكان المرأة السياسي في البيعة ١٨٣
المبحث الثالث : إشكاليات « بيعة النساء »
في الدراسات الحديثة ١٨٦
مسألة الكيفية ١٨٦
مسألة حق المرأة في البيعة على الإمامة ١٨٧
مسألة مساحة المسامحة للمرأة في
الالتزام بالبيعة ١٨٧
الخلاصة ١٩٠
الفصل الرابع : بيعة النساء للخلفاء
الراشدين ١٩١
تعريف الخلافة ١٩١
مسئولية إقامة الخلافة ١٩٢
بيعة النساء للخلفاء في المصادر التاريخية . ١٩٤
تأثير الظروف التاريخية على نظم
اختيار الخلفاء ١٩٨
ظروف اختيار أبي بكر ١٩٨
ظروف اختيار عمر ٢٠٠
ظروف اختيار عثمان ٢٠١

ظروف اختيار علي ٢٠٣
خلاصة القول في تأثير الظروف التاريخية . ٢٠٤
أثر الطبيعة الاجتماعية على غياب المرأة
في بيعة الخلفاء الراشدين ٢٠٥
السبب الأوضح في تفسير هذا الغياب . ٢٠٧
لزوم المسئولية الناتجة عن البيعة للنساء
وإن لم يبايعن ٢٠٩
بيعة النساء للخلفاء في ضوء المفاهيم
السياسية المعاصرة ٢١٠
أثر غياب المرأة في مبايعات الخلفاء . ٢١١
الباب الثاني : المرأة و الجهاد على عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين
الفصل الأول : دور المرأة في الجهاد على
عهد النبي ﷺ ٢١٧
المبحث الأول : الجهاد في الإسلام :
فلسفته واستشراف الصحابيات له
والطبيعة الغالبة على أدوارهن ٢١٨
الجهاد وفلسفته في الإسلام ٢١٨
استشراف الصحابيات للجهاد ٢١٨
الطبيعة الغالبة على جهادهن : فهم
جديد لرواية أسماء بنت يزيد ٢٢٠
مشاركة النساء في الحرب عادة عربية قديمة . ٢٢٢
المبحث الثاني : الغزوات الكبرى التي
ذكرت فيها المرأة ٢٢٣
غزوة بدر الكبرى ٢٢٣
غزوة أحد ٢٢٦
النساء في خطة الرسول الحربية ٢٢٦
النساء بعد المعركة ٢٣١
غزوة المريسيع ٢٣٥
غزوة الخندق ٢٣٦
أدوار المرأة في غزوة الخندق ٢٣٩
غزوة بني قريظة و المواقف الإنسانية
للمرأة فيها ٢٤٥
غزوة الحديبية ٢٤٧
مشورة أم سلمة ٢٤٩
غزوة خيبر ٢٥٠
عمرة القضية ٢٥٢
فتح مكة ٢٥٤
الحضور النسائي في فتح مكة ٢٥٥
غزوة حنين ٢٥٧
غزوة الطائف ٢٥٩
المبحث الثالث : الغزوات والسرايا التي
لم يرد فيها ذكر للمرأة ٢٦٠
أولا : الغزوات التي لم يرد فيها ذكر
للمرأة ونتوقع أن تكون قد حضرتها ٢٦٠
ثانيا : السرايا التي لم تشارك فيها
النساء وتفسير ذلك ٢٦٢
سرايا سريعة وقليلة أعداد الرجال .. ٢٦٢
سرايا تستهدف أفرادا لا جماعات . ٢٦٣
سرايا دعوية ٢٦٣
سرايا هدم الأوثان ٢٦٤
سرايا لدفع غارات مفاجئة ٢٦٤
سرايا للقصاص والتأديب ٢٦٤
ثالثا : الغزوات التي توقف البحث في
الحكم عليها ٢٦٥
غزوة بني قينقاع ٢٦٦
غزوة مؤتة ٢٦٦
غزوة تبوك ٢٦٦
خلاصة نتائج التتبع التاريخي لأدوار المرأة
في الجهاد على عهد النبي ﷺ ... ٢٦٨
المبحث الرابع : إشكالية الروايات الموحية
بمنع المرأة من الجهاد على عهد رسول

الله ﷺ ٢٧٢
تحليل الرواية الأولى ٢٧٢
تحليل الرواية الثانية ٢٧٤
تصنيف البخاري لأدوار الصحابيات في الجهاد ودلالته ٢٧٥
الفصل الثاني : دور النساء في حروب الردة ٢٧٩
المبحث الأول : دور المرأة في حركة الردة على عهد رسول الله ﷺ ٢٨١
فتنة الأسود العنسي ٢٨١
دور آذاد امرأة شهر بن باذام ٢٨٣
قيمة هذا الدور ودلالته ٢٨٤
المبحث الثاني : دور النساء في حركة الردة على عهد أبي بكر الصديق .. ٢٨٨
حالة المدينة ٢٨٩
خطورة حركة الردة على أركان العقيدة . ٢٩٠
التسجيل التاريخي لدور السيدة نسيبة والسيدة أم تميم ٢٩١
نسيبة بنت كعب في حروب الردة . ٢٩٢
أم تميم امرأة خالد والأسير ٢٩٥
المبحث الثالث : إشكالية صغر حجم مشاركة الصحابيات في حروب الردة ٢٩٦
التعميم في المصادر ٢٩٩
روايات عامة موحية بمشاركة أكبر للنساء . ٣٠٠
الفصل الثالث : النساء في الفتوحات الإسلامية ٣٠٣
حجم الدور النسائي في جيوش الفتوح وطبيعته ٣٠٣
الإهمال التأريخي ٣٠٦
التناقض في روايات الفتوح ٣٠٧
هل كان الدور النسائي في الفتوح هامشيا ٣٠٨
التتبع التاريخي للأدوار النسائية في فتوح الشام والعراق ٣١١
معركة أجنادين ٣١١
معركة مرج الصفر ٣١٢
معركة اليرموك ٣١٤
النساء في خطة المعركة ٣١٤
قتال النساء يوم اليرموك ٣١٦
تحقيق شخصية خولة بنت الأزور .. ٣١٨
خولة في المصادر التاريخية ٣٢٠
مصدر الروايات عن بطولات خولة ٣٢٠
لماذا نحقق شخصية خولة ٣٢١
الصحابيات في فتوح العراق ٣٢٢
معركة البويب ٣٢٢
معركة القادسية ٣٢٢
معركة ميسان ٣٢٥
الخلاصة ٣٢٦

الباب الثالث : الدور السياسي للمرأة في أحداث الفتنة

على عهد أمير المؤمنين عثمان وأمير المؤمنين علي

تمهيد ٣٢٩
الفصل الأول : موقف أمهات المؤمنين والصحابيات في أحداث الفتنة حتى مقتل عثمان ٣٣٣
دور عبد الله بن سبأ ٣٣٣
موقف عثمان والصحابة ٣٣٥
الاستعراض التاريخي لموقف أمهات المؤمنين والصحابيات من الفتنة ... ٣٣٥
موقف أمهات المؤمنين ٣٣٨
مواقف للصحابيات ٣٤٣
الفصل الثاني : الدور السياسي للسيدة

عائشة في أحداث الفتنة على عهد
عثمان ﷺ ٣٤٧
مكانة عثمان عند السيدة عائشة ... ٣٤٧
موقف السيدة عائشة من مقتل عثمان ﷺ . ٣٥٠
نقد الروايات التي ذكرت تأليب السيدة
عائشة على عثمان ﷺ عند الطبري .. ٣٥٢
الرواية الأولى عند الطبري ٣٥٢
الرواية الثانية عند الطبري ٣٥٨
نقد الروايات القائلة بالخلاف السياسي
بين عائشة وعثمان عند غير الطبري ٣٦١
الرواية الأولى من تاريخ اليعقوبي .. ٣٦٢
الرواية الثانية من أنساب الأشراف .. ٣٦٤
الرواية الثالثة من أنساب الأشراف .. ٣٦٧
الرواية الرابعة من الأغاني ٣٦٨
خلاصة النظر في المرويات السابقة . ٣٧٠
الفصل الثالث : خروج السيدة عائشة
إلى البصرة سعيا للإصلاح ٣٧٣
المبحث الأول : الأحداث السابقة على
الخروج إلى البصرة ٣٧٤
البيعة للإمام علي ٣٧٤
بيعة طلحة والزبير لعلي ٣٧٥
المفاوضات بينهم في إقامة الحدود .. ٣٧٧
عليّ لم يقدم خطته لإقامة الحدود واضحة ٣٧٩
طلحة والزبير يعرضان على عليّ خطتهما . ٣٧٩
المبحث الثاني : خروج عائشة للطلب
بدم عثمان (ﷺ) ٣٨٢
هل أكرهت السيدة عائشة على الخروج ؟ . ٣٨٣
هل كانت متسلطة على من معها ؟ ٣٨٢
أزواج النبي و الخروج للطلب بدم عثمان ٣٨٦
لماذا السيدة عائشة ؟ ٣٨٧
أسباب خروج عائشة إلى البصرة .. ٣٨٩
مشروعية هذا الخروج ٣٩١
الهدف المحدد من الخروج ٣٩٣
وضوح الهدف من الخروج عند أنصار
عائشة ٣٩٤
الفصل الرابع : الأحداث في البصرة ٣٩٧
المبحث الأول : تحقيق مسألة مرور
السيدة عائشة على ماء الحوأب ودلالاته ٣٩٨
الروايات الضعيفة لمسألة الحوأب ... ٣٩٨
الروايات الصحيحة التي تثبت مرور
السيدة عائشة على ماء الحوأب ... ٤٠٤
المبحث الثاني : الممارسات السلمية
للسيدة عائشة في البصرة ٤٠٨
رسائل السيدة عائشة إلى الأمصار الأخرى ٤١٢
هل أمرت السيدة عائشة بالمثلة بعثمان
ابن حنيف ٤١٤
المبحث الثالث : تجلية حقيقة خروج
السيدة عائشة ٤١٧
هل خرجوا ليقيموا الحد على قتلة عثمان ؟ ٤١٧
هل خرجوا لحرب علي أو خلعه ؟ . ٤١٧
تحليل الرواية الصحيحة الموحية
بخروجهم رفضا لخلافة عليّ ٤٢٠
الآراء التي رسخت القول بخروجهم
على خلافة عليّ ٤٢٣
الروايات المقدوحة الزاعمة أنهم كانوا
رافضين لخلافة عليّ ٤٢٦
لماذا خرج علي في إثرهم ؟ ٤٢٨
هل كان عليّ يراهم خارجين عليه ؟ ٤٣١
محاولات الإمام عليّ للإصلاح في البصرة ٤٣٣
بشائر الاتفاق بين الفريقين ٤٣٤
المبحث الرابع : وقعة الجمل ٤٣٦
السبئية تعيد الفتنة من جديد ٤٣٦

نشوب الحرب بين الفريقين ٤٣٦
الرواية التي زعمت حرص عائشة على القتال ٤٣٨
هل كانت وقعة الجمل حربا بين جيش علي وجيش عائشة ؟ ٤٤٠
جناية الدراسات الحديثة على الحقيقة التاريخية ٤٤٢
خطأ خروج السيدة عائشة ومن معها دون إعلام عليّ ٤٤٣
الفصل الخامس : العلاقة بين السيدة عائشة والإمام علي ٤٤٥
أهمية تحرير هذه العلاقة ٤٤٥
أسباب الكراهية المزعومة بين عائشة وعلي ﷺ ٤٤٩
النوع الأول من أسباب الكراهية المزعومة : طموحات عائشة فيمن يتولى الخلافة بعد عثمان ٤٤٩
الأول : زعم رغبتها في تولية طلحة ٤٤٩
الثاني : زعم رغبتها في تولية عبد الله بن الزبير ٤٥١
الثالث : زعم رغبتها الشخصية في الحكم .. ٤٥٢
النوع الثاني في أسباب الكراهية المزعومة : العداوة والخصومة المتأصلة ٤٥٥
المظهر الأول : عبارة « عائشة لا تطيب نفسا لعليّ بخير » ٤٥٥
المظهر الثاني : حادث الإفك ٤٦٠
المظهر الثالث : العلاقة بين عائشة وفاطمة ٤٦٥
المظهر الرابع : اتهام علي لعائشة بالتمهيد لخلافة أبي بكر ٤٦٨
المظهر الخامس : الزعم بإخفاء عائشة الوصية لعليّ ٤٧٠
المظهر السادس : العوامل النفسية .. ٤٧١
الخطأ المنهجي وراء هذه المزاعم ... ٤٧٢
الفصل السادس : حقيقة الروايات القائلة برفض الصحابة لخروج السيدة عائشة ٤٧٥
الرواية الأولى : في رفض زيد بن صوحان ٤٧٦
الرواية الثانية : في رفض جارية بن قدامة . ٤٧٨
الرواية الثالثة : في رفض السيدة أم سلمة ٤٨١
الرواية الرابعة : في رفض عمار بن ياسر ٤٨٣
الرواية الخامسة : في استشهاد أبي بكرة يوم الجمل بحديث « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ٤٨٥
القيمة التاريخية لهذه المروايات ... ٤٩٠
هل ندمت السيدة عائشة على هذا الخروج ؟ ٤٩١
تعليق على آراء العلماء في خروج السيدة عائشة ٤٩٦
خلاصة القول في الموقف السياسي للسيدة عائشة ٤٩٨
ملحق أسماء الصحابيات المبايعات . ٥٠٣
فهرس الأعلام ٥١٧
ثبت المصادر والمراجع ٥٢٣
المحتويات ٥٦١

رقم الإيداع
2001/1510
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-004-3